

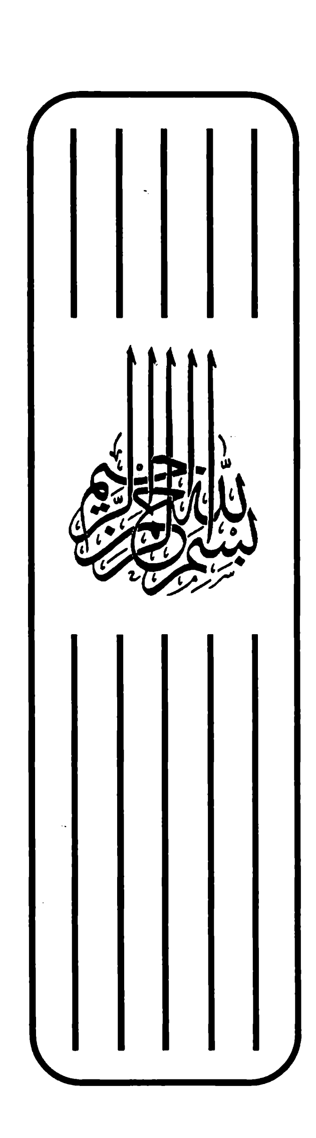
الجزء الثاني

ومجموعة أمراض أخرى

الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل

أَمْرَاضُ الأُمَّة

الجزءُ الثاني



الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

رقم إيداع: ٢٠١٢/٢٠٧٥١

الناشر

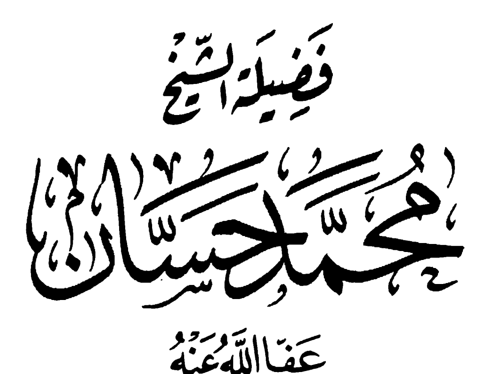
مكتبة فياض

للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة - عزبة عقل - شارع الهادي

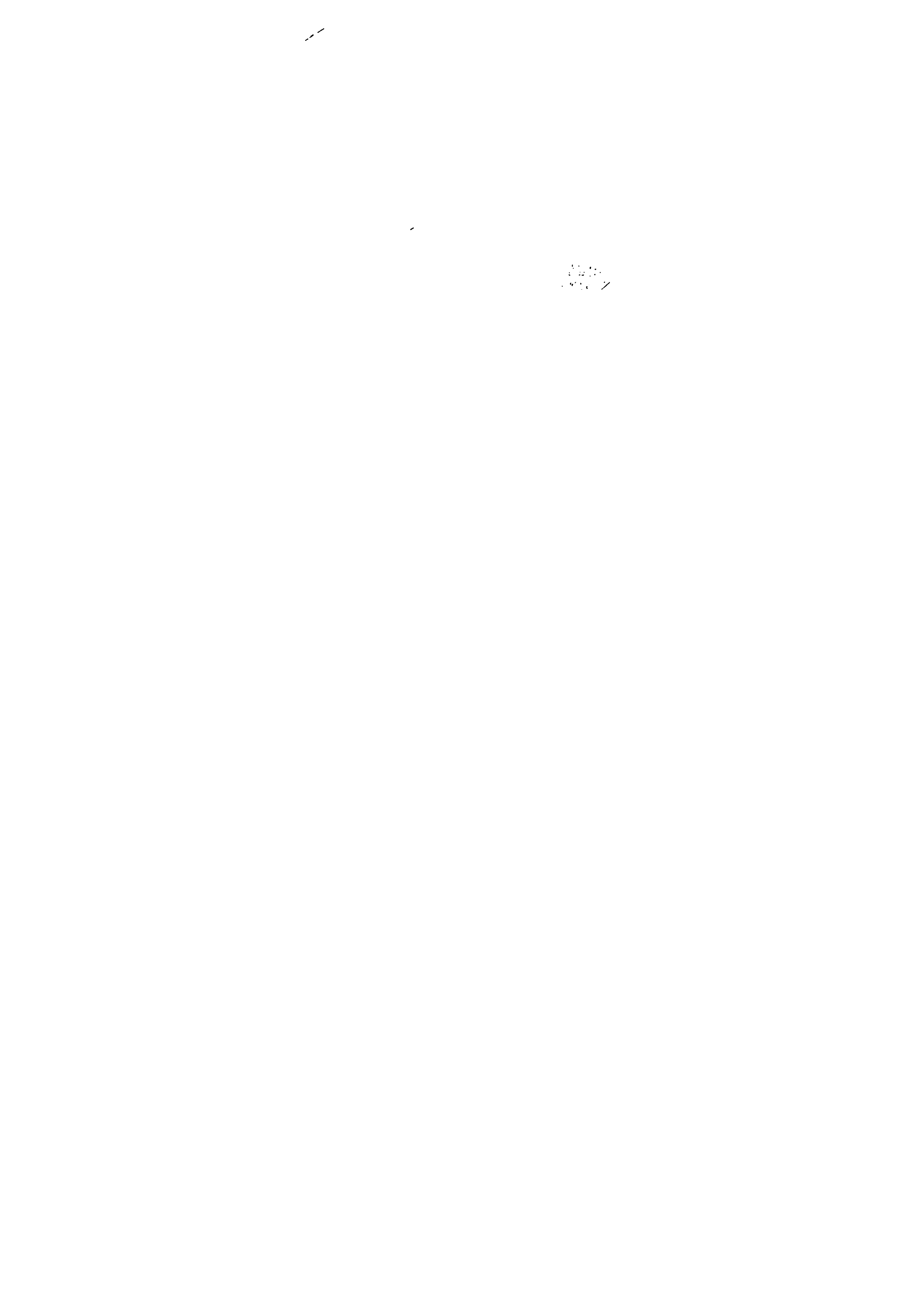
هاتف: ٠٥٠٢٢٦٧٣٩٨ - ٠٥٠٢٣٧٥٩٤٣

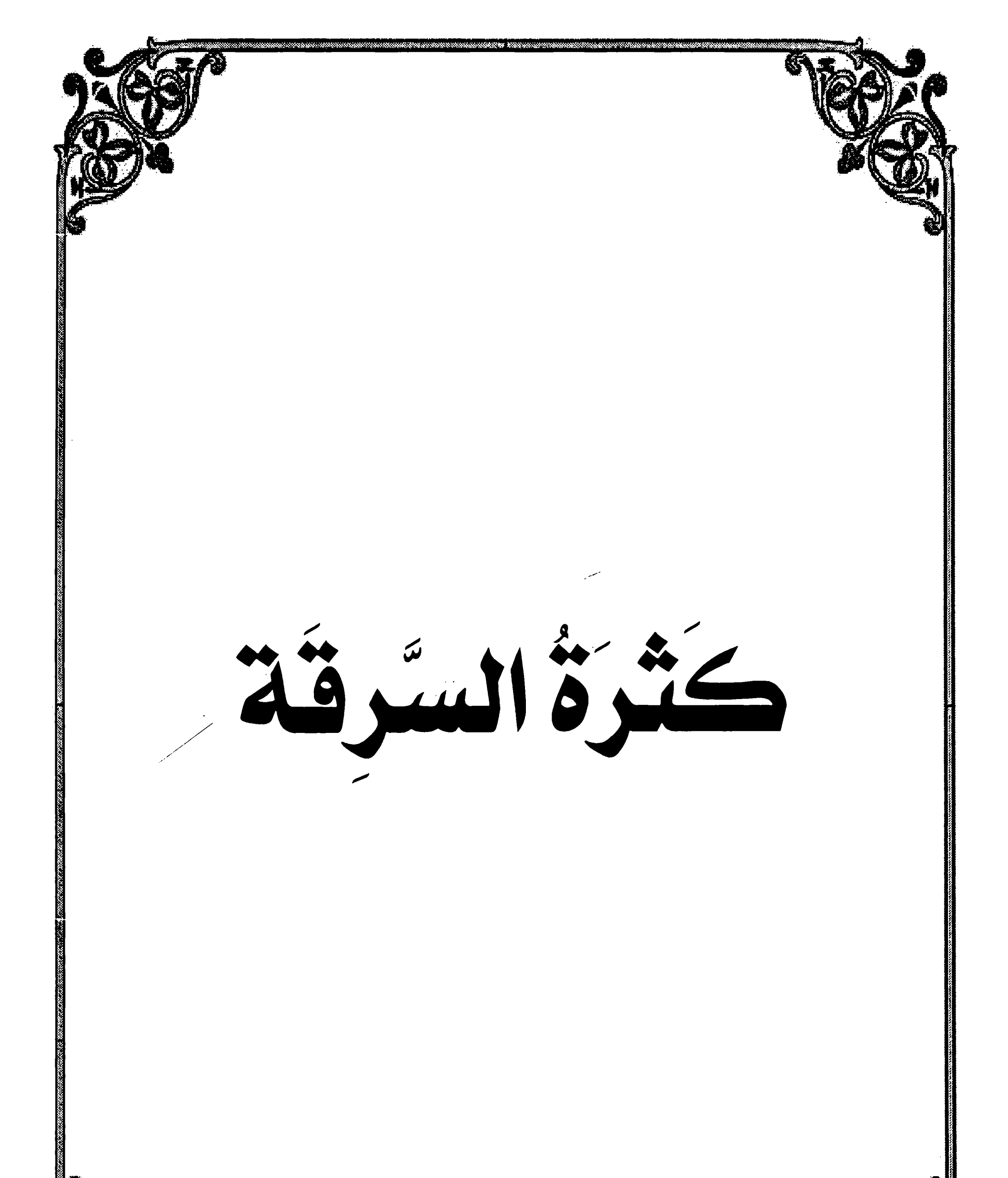
أمراض الأمة



الجزء الثاني







كَثْرَةُ السَّرِقَةَ



كثرةُ السرقـة

إنَّ المالَ في الإسلام هو عصبُ الحياة، وقد احترم الإسلامُ العظيمُ ملكية الفرد لماله، وجعل هٰذا المِلْكَ - أو هٰذا المالَ - حقًّا مقدسًا للفرد أو لصاحبه، لا ينبغي - البتة - لأيِّ أحدٍ من أفرادِ المجتمع أن يتعدىٰ علىٰ هٰذا الحقِّ لسلبه من غيره؛ لأن الله ﷻ هو الذي قدَّر الأرزاق بين عباده بعدله وحكمته؛ فجعل هٰذا غنيًّا، وهٰذا فقيرًا، وجعل هٰذا قويًّا، وهٰذا ضعيفًا، وجعل هٰذا معافىً وهٰذا مبتلىً.. وهٰكذا قسَّم اللهُ الأرزاق بين عبادِه بما يُصلح به عباده وهم لا يشعرون؛ لأنه تعالىٰ العدل الحكيمُ العليمُ الخبيرُ؛ فلا ينبغي أن يتَّهمَ الفقيرُ ربَّه! أو أن يُسيءَ الظنَّ به!! ولا يظُنَنَّ أحدٌ ابتلي بالفقر أن هٰذا دليلُ بغضِ الله له، أو سُخطِهِ عليه. كلَّا وكلُّ كلَّا!!

كما لا ينبغي أن يخدعَ الأغنياءُ الذين بُسط لهم في الرزق والمال أن هٰذا دليلُ حبِّ الله لهم، أو رضاه عنهم، فهٰذه نظرةٌ خاطئةٌ لا يعتقدها عاقلٌ من العقلاء بحال؛ فمن ذا الذي يزعم ويدعي أن الله قد أحب قارون؟!! في الوقت الذي لا ينكر فيه أحدٌ أنَّ الله قد أعطاه من الأموال والكنوز ما عَجَز العصبةُ من أولي القوة عن حمل مفاتيح الخزائن فحسب!! من ذا الذي يدَّعي أن هٰذا دليلُ رضا الله عنه؟!

لقد قال تعالىٰ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[القصص: ٨١، ٨٢].

وقال تعالىٰ في حق صاحب الجنتين في سورة الكهف: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾[الكهف: ٤٢، ٤٣].

فليس كلُّ من أنعم الله عليه يكون قد أحبه، وليس كلُّ من ضُيق عليه يكون قد أبغضه؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾[الفجر: ١٥ - ١٧].

○ **قال القاسميُّ - رحمه الله تعالى - في «محاسن التأويل»** (١):

«﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴾ [الفجر: ١٥]؛ أي: بالغنىٰ واليسار ﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾؛ أي: فضَّلني، لما لي عنده من الكرامة ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴾؛ أي: ضيقه عليه وقتره، فلم يكثر مَالُه، ولم يوسع عليه؛ ﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٦]؛ أي: أذلني بالفقر وذلك لسوء فكره وقصور نظره في الحالين. فإنه إنما ابتلاه بالغنىٰ ليقوم بواجبه ويعرف حقَّ الله فيه. وبالفقر ليظهر بمظهر العفاف، ويتخلق بخُلق الصبر علىٰ الكفاف؛ ففي كل ابتلاء وامتحان ليميز اللهُ الخبيثَ من الطيب. ونظير الآية، آية: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وآية: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وآية: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]».اهـ.

ومن أرقِّ الآيات التي توضِّحُ بجلاءٍ حكمة الله تعالىٰ في إكرام هٰذا ومنع ذاك، قول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورىٰ: ٢٧].

أي: لو أعطاهم فَوقَ حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك علىٰ البغي والطغيان من بعضهم علىٰ بعض؛ أشَرًا وبطرًا، ولكن يرزقهُم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنىٰ، ويفقر من يستحق الفقر، قاله الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (٢).

فإن رزق الله عز وجل عبدًا من عباده مالًا، وأصبح هٰذا المال مِلْكًا له، فيجبُ علينا - جميعًا - أن نحترمَ ملكيةَ هٰذا الفرد لهٰذا المال، ولا يجوز لأحد - بحال - أن يتعدىٰ علىٰ هٰذا الحق الذي أعطاهُ اللهُ إياه بسرقة أوْ نهب أو غصْب وما شابه (٣)... فلقد نفىٰ النبيُّ ﷺ الإيمان عن مرتكب هٰذه الفعلة الشنعاء؛ ففي «**الصحيحين**» (٤) من حديث أبي

---

(١) (٩/ ٣٩٧).

(٢) (١٢/ ٢٧٨) ط. أولاد الشيخ.

(٣) وسيأتي التفريق بين هذه الأمور - بإذن الله تعالىٰ -.

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب إثم الزناة (٦٨١٠)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان =

هريرة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَ لَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَ لَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

ومما بايع عليه ﷺ أصحابه؛ كما في «الصحيحين»(١) من حديث عبادة بن الصامت ﵁ قال: كُنَّا مَعَ رسول الله ﷺ في مَجْلِسٍ؛ فقال: «تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ؛ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ».

ولقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وقد كانت السرقةُ ممقوتةً في الأمم قبلنا؛ ففي «الصحيحين»(٢) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللهِ وَكَذَّبْتُ عَيْنِي».

وفي «الصحيحين»(٣) من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ؛ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ؛ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ؛ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ؛ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى غَنِيٍّ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ؛ فَأَصْبَحُوا

= نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية، على إرادة نفي كماله (٥٧).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار (١٨)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (١٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦] (٣٤٤٤)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﵇ (٢٣٦٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم (١٤٢١)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة في يد غير أهلها (١٠٢٢).

يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ وَعَلَى سَارِقٍ؛ فَأُتِيَ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، أَمَّا الزَّانِيَةُ؛ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ؛ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ يَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ».

وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا، أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا؛ فَغَزَا فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا؛ فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ فَجَاءَتْ - يَعْنِي النَّارَ - لِتَأْكُلَهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا؛ فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ؛ فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ؛ فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ فَجَاؤُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ فَوَضَعُوهَا؛ فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنَا الْغَنَائِمَ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا**».

فالسرقة ممقوتةٌ منبوذةٌ مذمومةٌ فيمن كان قبلنا من الأمم وهي في ديننا الحنيف المطهر تنافي كمال الإيمان، وهي إحدىٰ الكبائر العظام في الإسلام، ودليلٌ علىٰ دناءة النفس وحقارة الشأن، بل وتوجبُ العارَ في الدنيا والنار في الآخرة!!

- **فما السرقة لغةً واصطلاحًا؟**

السرقة لغة؛ كما قال ابن فارس(٢): «السين والراء والقاف أصل يدل علىٰ أخذ شيء في خفاء وستر. يقال: سَرِق يسْرِقُ سَرِقَةً، واسترق السمع إذا تسمع مختفيًا».

وقال ابن منظور(٣): **قال ابن عرفة في قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]: «السارق عند العرب: من جاء مستترًا إلىٰ حرز فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: «**أُحِلَّت لَكُمُ الغَنَائِم**» (٣١٢٤)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب: تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (١٧٤٧).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ١٥٤).

(٣) «لسان العرب» (٦/ ٢٤٥، ٢٤٦)، وانظر: «تاج العروس» (٢٥/ ٤٤٢ - ٤٤٩)، و«القاموس المحيط» (١١٥٣).

ظاهر فهو مختلسٌ ومستلبٌ ومنتهبٌ ومحترسٌ، والمسارقة والاستراق والتسرق: اختلاس النظر والسمع، وسَرِق الشيء سَرَقًا: خَفِيَ، وسَرِقَت مَفَاصِلُهُ وانْسَرَقَتْ: ضَعفت. والانسِراق: أن يخنس إنسانٌ عن قوم ليذهب. ويقال: هو يُسَارِقُ النظر إليه إذا اهتبل غفلته لينظر إليه».

- **واصطلاحًا:**

قال الراغب[1]: «السرقة أخْذُ ما ليس له أخذه في خفاء من موضع مخصوص وقَدْر مخصوص».

وقال الكفويُّ[2]: «أَخْذ مالٍ معتبرٍ من حِرز أجنبي لا شبهة فيه خفية وهو قاصدٌ للحفظ، في نومه أو غيبته».

وقال الجُرجانيُّ[3]: «السرقة في حق القطع [أي: الحد]: أَخْذُ مكلفٍ خفيةً قدرَ عشرة دراهم مضروبة محرزة بمكان أو حافظ، بلا شبهة؛ فإذا كانت قيمةُ المسروق أقلَّ من عشرة مضروبة لا يكون سرقةً في حد القطع».

وقال الحافظ في «الفتح»[4]: «والسرقة بفتح السين وكسر الراء ويجوز إسكانها ويجوز كسر أوله وسكون ثانيه: الأخذ خفية، وعرفت في الشرع بأخذ شيء خفية ليس للآخذ أخذه».

وأما عن تعريف النهب لغةً واصطلاحًا؛ فهو كما يلي:

- **النهبُ لغةً:**

«الغنيمة، وفي الحديث: «**فأُتِيَ بِنَهْبٍ**»[5]؛ أي: بغنيمة، والجمع نهابٌ، ونهوبٌ. **والانتهاب**: أن يأخذَه من شاءَ، **والإنْهَاب**: إباحته لمن شاء. ونَهَبَ النَّهْب يَنْهَبُه نَهْبًا

---

(١) «المفردات» (٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) «الكليات» (٥١٤).

(٣) «التعريفات» (١٣١).

(٤) «فتح الباري» (١٢/ ١٠٠)، وانظر: «المغني» لابن قدامة (١٢/ ٢٧٩).

(٥) جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن (٤٣٨٥) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وفيه: «ثم لم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم أن أتي بنهب إبل...».

وانتهَبَهُ: أخذه، وأنهبه غيره: عَرَّضَهُ له. يقال: أنهبَ الرجلُ ماله، فانتهبُوهُ ونَهَبُوه ونَاهَبُوه. كلُّه بمعنىٰ. ونهب الناسُ فلانًا إذا تناولوه بكلامهم، وفي الحديث: «**لَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْها أَبْصارَهُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(١).

والنهب: الغارة والسلب؛ أي: لا يختلس شيئًا له قيمة عالية. والنهب أيضًا: ضرب من الركض، وكلّ ما انتهب. وتناهبت الإبلُ الأرضَ: أخذت منها بقوائمها كثيرًا. وانتهب الفرس الشوط: استولىٰ عليه، والنهب: الغلبة علىٰ المال»(٢).

- **واصطلاحًا:**

أخذ الشيء علانية دون رضًا(٣).

أما عن تعريف الغصْب؛ فكما يلي:

- **الغصب لغةً:**

أخذُ الشيء ظلمًا، غَصَبَ الشَّيء يَغْصِبُه غَصْبًا، واغْتَصَبَهُ، فهو غَاصِبٌ. وغَصَبه علىٰ الشيء: قهره، وغصبَه منه، والاغتصابُ مثله، والشيء غصبٌ ومغصوبٌ.. وتكرر في الحديث ذكرُ الغَصْب، وهو: أخذُ مال الغير ظلمًا وعدوانًا. وفي الحديث: «**أَنَّهُ غَصَبَهَا نَفْسَهَا**»؛ أراد: أنه واقعها كرهًا، فاستعاره للجماع(٤).

- **واصطلاحًا:**

قال الجُرجانيُّ(٥): «أخذ مال متقوم محترم بلا إذن مالكه بلا خفية».

---

(١) أخرجه النسائيُّ، كتاب قطع السارق، باب تعظيم السرقة (٨/ ٦٤) وفي «الكبرى» (٧٣٥٤)، وإسحاق بن راهويه (٤١٦)، وابن حبان (٥١٧٢)، وصححه الألباني رحمه الله، وهو في «الصحيحين» فقد أخرجه البخاريُّ، كتاب الأشربة، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥٥٧٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي (٥٧) بلفظ: «**وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**».

(٢) «لسان العرب» (٨/ ٧١٢)، و«القاموس المحيط» (١٣١٩)، و«النهاية» (٢/ ٨٠٨).

(٣) «رد المحتار» (١٥/ ٣١٤)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (١٧/ ١٥٣).

(٤) «لسان العرب» (٦/ ٦٣٢)، و«مختار الصحاح» (٢٦٠)، و«القاموس المحيط» (٩٥٠)، و«النهاية» (٢/ ٣٠٩).

(٥) «التعريفات» (١٦١).

أما عن تعريف الاختلاس؛ فكما يلي:

- **والاختلاس لغةً:**

قال ابنُ فارس: الخاء واللام والسين أصلٌ واحد، وهو الاختطاف والالتماع، يقال: اختلسْتُ الشيء، وفي الحديث: «**لَا قَطْعَ فِي الْخُلْسَةِ**»(١)، وقولهم: أخلس رأسُه، إذا خالط سوادُه البياضَ، كأنَّ السوادَ اختُلس منه فصار لمعًا. وكذلك أخلس النبت، إذا اختلط يابسه برطبه(٢).

وقال الزبيديُّ: **الخَلْسُ**: السلب والأخذ في نُهزَةٍ ومخاتَلَةٍ. خَلَسَهُ يَخْلِسُه خَلْسًا. وخَلَسَه إياه، فهو خالسٌ وخلَّاسٌ.. والاختلاس: يقال: أخذه خِلِّيسَ، أي اختلاسًا. أو هو؛ أي: الاختلاس.

وفي الصِّحاح: خَلَسْتُ الشيء، واختلستُه، وتخلَّستُه، إذا استلبتُه. والاسم منه: الخُلْسَةُ بالضم، وهي: النُّهزَةُ والتَّخَالُسُ: التَّسالبُ.. تخالس القِرْنَانِ وتخالسا نفْسَيْهِما: رام كل واحدٍ منهما اختلاسَ صاحبه.

والخُلْسَةُ بالضم: الفُرْصَةُ. يقال: هٰذه خُلْسَةٌ فانتهزها، والخُلْسُ في القتال والصراع. وهو رجل مخالس، أي: شجاع حذر(٣).

- **واصطلاحًا:**

أَخْذُ الشيءِ علانيةً بسرعة من غير حِرز(٤).

فالسرقةُ كبيرةٌ من الكبائر، وجريمة من أعظم الجرائم، يدلُّك على ذلك ما ترتب على السرقة من عقوبة أليمة؛ فلقد توعَّد الله - عَزَّ وَجَلَّ - السارق والسارقة بهٰذا الوعيد الشديد؛ فقال تعالىٰ: ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [المائدة: ٣٨].

وقال السعديُّ رحمه الله(٥): «السارق: هو مَنْ أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير

---

(١) سيأتي بنحوه بلفظ: «لَيْسَ عَلَى خَائِنٍ وَلاَ مُنْتَهِبٍ ولاَ مُخْتَلِسٍ قَطْعٌ».
(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٦٨).
(٣) «تاج العروس» (١٦/ ١٧، ٢١)، و«لسان العرب» (٦/ ٦٥).
(٤) «الفروق اللغوية» (٢٧)، و«موسوعة الفقه الكويتية» (٢/ ٢٨٦).
(٥) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٥٣، ٢٥٤).

رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنىٰ، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

وحدُّ اليد عند الإطلاق من الكوع. فإذا سرق قُطِعت يدُهُ من الكوع، وحسمت في زيت، لتنسَدَّ العروقُ فيقف الدمُ، ولكن السنة قيدت عموم هٰذه الآية من عدة أوجه:

منها: الحرز، فإنه لابد أن تكون السرقةُ من حرز، وحرز كل مال: ما يُحفظ به عادة. فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لابد أن يكونَ المسروقُ نِصَابًا، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدَهُما. فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه، ولعل هٰذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها.

فإن لفظ (السرقة) أَخْذُ الشيء علىٰ وجهٍ لا يمكن الاحتراز منه. وذلك أن يكون المال محرزًا. فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضًا: أن لا تقطع اليدُ في الشيء النزر التافه؛ فلما كان لابد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصًا للكتاب، والحكمة في قطع اليد في السرقة؛ أن ذلك حفظٌ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية، فإن عاد السارقُ قطعت رجله اليسرىٰ. فإن عاد، فقيل: تقطع يده اليسرىٰ، ثم رجله اليمنىٰ، وقيل: يحبس حتىٰ يموت.

وقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس. ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أي: تنكيلًا وترهيبًا للسارق ولغيره، ليرتدعَ السُّرَّاقُ - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أي: عزَّ وحكم فقطع السارقَ». اهـ.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «كان قطعُ يد السارق معمولًا به في الجاهلية؛ فقُرر في الإسلام وزيدت شروطٌ أُخر. وقيل: إن أولَ من قطع الأيدي في الجاهلية قريشٌ، قطعوا رجلًا كان سرق كنز الكعبة».

---

(١) «تفسير ابن كثير» [لسورة «المائدة» (٣٨)] بتصرفٍ يسيرٍ.

قلت: وهٰذا أمرٌ مجمعٌ عليه في شريعتنا؛ **قال ابن قدامة في «المغني»**[(١)]: «وأجمع المسلمون علىٰ وجوب قطع السارق في الجملة».

فالسرقة كبيرةٌ من أعظم الكبائر التي أوجب اللهُ تعالىٰ فيها الحدَّ - وهو الحكيم الخبير؛ قال الزهري - رحمه الله تعالىٰ-[(٢)]: «نَكَّلَ اللهُ بالقطع في سرقة أموالِ الناسِ، والله عزيز في انتقامه من السارق، حكيمٌ فيما أوجبه من قطع يده».

ولا تنفعُ السارقَ توبتُهُ إلا أن يَردَّ ما سرقه، فإن كان مفلسًا تحلل من صاحب المال. وسيأتي في نهاية المبحث مزيدٌ حول توبة السارق.

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله[(٣)]: «عدُّ السرقة من الكبائر هو ما اتفق عليه العلماء، وهو ما صرَّحت به الأحاديثُ، والظاهر أنه لا فرْق في كونها كبيرةً بين الموجبة للقطع، وعدم الموجبة له لشبهةٍ لا تقتضي حلَّ الأخذ، كأن سرق حصر مسجد، أو سرق مالًا غير محرز، وقال الحليمي: وسرقة الشيء التافه صغيرة، فإن كان المسروق منه مسكينًا لا غنىٰ به عما أخذ منه صارت كبيرةً وإن لم توجب الحدَّ.

بل لو كان غنيًّا لا غنىٰ به عنه كمائه أو رغيفه بمفازة لا يجد غيره، كان كبيرة أيضًا، قال: وأخذ أموال الناس بغير حق كبيرة؛ فإن كان المأخوذُ ماله فقيرًا، أو أصلًا للآخذ، أو أُخذ قهرًا، أو كَرهًا، أو علىٰ سبيل القمار، فهو فاحشةٌ، فإن كان المأخوذُ شيئًا تافهًا والمأخوذُ منه غنيًّا لا يتبين عليه من ذلك ضرر، فذلك صغيرة».

وقد وضح من التعريفات التي قدمتها آنفًا أن السرقة تفترقُ عن النهب والغصب والاختلاس بأمور منها: الخفية، والحرز - وهو المكان الذي يحفظ فيه المال كي يعسر أخذها لغير مالكه -، والمقدار. وقد أسقط جمهورُ أهل العلم الحد - الذي هو القطع - عن المختلس والمنتهب والغاصب، ولم يوجبوا القطع إلا علىٰ السارق. فاشترط جمهورُ أهل العلم أن لا قطع في السرقة إلا إذا أخذ المال خفيةً واستتارًا، بأن يكون ذلك دون علم المأخوذ منه، ودون رضاه، فإن أخذ علىٰ سبيل المجاهرة سُمِّي مغالبةً أو خلسةً أو اغتصابًا أو انتهابًا لا سرقة. وإن حدث الأخذُ دون عِلم المالك أو من يقومُ مقامه ثم

---

(١) «المغني» (١٢/ ٢٧٩).

(٢) «الكبائر» للذهبي (ص: ١٣٢)، و «الزواجر» للهيتمي (٢/ ٣٠٢).

(٣) «الزواجر» (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣) بتصرفٍ يسيرٍ.

رضي فلا سرقة.

كما اشترط الجمهورُ أن لا قطع إلا إذا بلغ المسروقُ نصابًا، وقد اختلف الجمهورُ في قدر النصاب، **فمنهم** من ذهب إلىٰ أنه ربعُ دينار فصاعدًا، وهم الأكثرون، **ومنهم** من قال: خمسة دراهم من الفضة فما فوق، **ومنهم** من قال: دينار، أو عشرة دراهم، **ومنهم** من قال: يقطع في القليل والكثير إلا الذهب فلا يقطع إلا في ربع دينار فصاعدًا. وهٰذا الأخير مذهب ابن حزم رحمه الله، والقول الأول أقوىٰ لدلالة النصوص السابقة.

واشترط الجمهورُ - كذلك - الحرز، فلا يقامُ حد السرقة إلا إذا أخذ السارقُ النصاب من حرزه؛ لأن المال غير المحرز ضائع بتقصير من صاحبه.

فلا يُقطع في الاختلاس ولا النهب ولا الغصب عند جماهير العلماء، لكنهم قالوا بالتعزير. وكذلك من استعار شيئًا ثم جحده، وهو ما يسمىٰ بجاحد العارية -وهو الخائن- فالجمهور أيضًا علىٰ أنه لا قطع في ذلك.

وفي «**سُنن**» الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجة، و «**مسند**» أحمد [١] من حديث جابر رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**لَيْسَ عَلَى خَائِنٍ، ولا مُنْتَهِبٍ، وَلاَ مُخْتَلِسٍ قَطْعٌ**».

وقد ذهب الجمهورُ إلىٰ أن النَّشال الذي يقطعُ الجيوبَ وما شابه تقطعُ يدهُ، ويقام عليه حدُّ السرقة؛ لأن المال محرز بصاحبه. وكذا النباش الذي يسرق أكفان الموتىٰ بعد دفنهم في قبورهم حكمه حكم النشال، فتقطع يدُهُ، وينطبق عليه حدُّ السرقة.

وفي «**سنن**» أبي داود والنسائي وابن ماجة، و «**مسند**» أحمد [٢] من حديث صَفْوَانَ ابْنِ أُمَيَّةَ رضي الله عنه قَالَ: **كُنْتُ نَائِمًا فِي الْـمَسْجِدِ عَلَى خَمِيصَةٍ لِي ثَمَنُها ثَلاثِينَ دِرْهَمًا، فَجَاءَ رَجُلٌ**

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب القطع في الخُلسة والخيانة (٤٣٩١ - ٤٣٩٣)، والترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في الخائن والمختلس والمنتهب (١٤٤٨)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي، كتاب قطع السارق، باب ما لا قطع فيه (٤٩٧٥)، وابن ماجة، كتاب الحدود، باب الخائن والمنتهب والمختلس (٢٥٩١)، وأحمد (٣/ ٣٨٠)، وقد صححه العلامة الألباني في «الإرواء» (٢٤٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب من سرق من حرز (٤٣٩٤) والنسائي، كتاب قطع السارق، باب ما يكون حرزًا وما لا يكون (٤٨٨٢، ٤٨٨٣، ٤٨٨٤)، وابن ماجة، كتاب الحدود، باب من سرق من الحرز (٢٥٩٥)، وأحمد (٦/ ٤٦٦). وصححه العلامة الألباني - بمجموع طرقه - في «الإرواء» (٢٣١٧).

فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي، فَأَخَذْتُ الرَّجُلَ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَ بِهِ لِيُقْطَعَ، فَقُلْتُ: أَتَقْطَعُهُ مِنْ أَجْلِ ثَلاثِينَ دِرْهَمًا؟ أَنَا أَبِيعُهُ وَأُنْسِئُهُ ثَمَنَهَا. قَالَ «**فَهَلاَّ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ؟**».

ولقد فصَّل في هٰذه الأحكام تفصيلًا بديعًا فقهاؤُنا وعلماؤُنا؛ فراجع «المغني» لابن قدامة[(١)]، و«المحلىٰ» لابن حزم[(٢)]، و«بداية المجتهد»، لابن رشد[(٣)]، و«تفسير» القرطبي[(٤)]، و«تفسير» ابن كثير[(٥)]، وغيرها الكثير[(٦)].

ولا أريد أن أستطردَ في هٰذه الأحكامِ في هٰذا المقامِ، فمجالها موضع آخر، وبالله التوفيق.

فالإسلام حرَّم السرقةَ والغصْبَ والاختلاسَ والخيانةَ والغشَّ والتلاعبَ بالكيل والميزان، واعتبر كلَّ مال أُخذ بغير سبب مشروع أكلًا للمال بالباطل، وشدَّد الإسلامُ في حد السرقة، وبين حدَّ السارق والسارقة بقطع اليد.

فيجب علىٰ وليِّ الأمر المسلم ألا يعطل فريضة الله - عَزَّ وَجَلَّ - التي شرعها من فوق سبع سمٰوات، وأن يقيم الحدَّ علىٰ السارق والسارقة كما أمر الله وأوجب، وبالشروط التي وضعها الشارعُ الحكيمُ، وسنَّها سيدُ المرسلين ﷺ.

فلقد غضب النبي ﷺ يومًا حين جيء له بامرأة قد سرقت، وأراد أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يشفع لها عنده، فاحمر وجهُهُ ﷺ وغضب غضبًا شديدًا من محاولة إسقاط حدٍّ من حدود الله تعالىٰ؛ ففي «**الصحيحين**»[(٧)] من حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ الله ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ:**

---

(١) (١٢/ ٢٧٩ - ٣٤٩).
(٢) (١١/ ٤٠٧ - ٥٣٥).
(٣) (٢/ ٦٠٩ - ٦٢١).
(٤) «تفسير سورة المائدة» (٣٨، ٣٩).
(٥) (١٢/ ٢٠٨ - ٢١٨).
(٦) وانظر: «صحيح فقه السنة» لأخينا كمال سالم - وفقه الله - (٤/ ٨٨ - ١٣٩).
(٧) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: (٥٤) (٣٤٧٥)، ومسلمٌ، كتاب الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨).

أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

وفي رواية: كَانَتِ امْرَأَةٌ مَخْزُومِيَّة تَسْتَعير المَتَاعَ وتجمده، فَأَمَر النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُقْطَعَ يَدُهَا، فَأَتَىٰ أَهْلُها أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ، فَكَلَّمُوه، فَكَلَّمَ رَسُولَ الله ﷺ فِيهَا. فذكر الحديث.

وهنا لطيفةٌ أشار إليها عددٌ من أهل العلم؛ ففي **«الفتح» للحافظ ابن حجر** رحمه الله **قال**[1]: قوله: **«لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ»** ذكر ابن ماجة عن محمد بن رمح شيخه في هٰذا الحديث سمعت الليثَ يقولُ عقب هٰذا الحديث: «قد أعاذها اللهُ من أن تسرق»، وكلُّ مسلم ينبغي له أن يقول هٰذا، ووقع للشافعي أنه لما ذكر هٰذا الحديث قال: فذكر عضوًا شريفًا من امرأة شريفة، واستحسنوا ذلك منه لما فيه من الأدب البالغ، وإنما خصَّ ﷺ فاطمة ابنته بالذكر: لأنها أعزُّ أهله عنده، ولأنه لم يبق من بناته حينئذٍ غيرُها، فأراد المبالغةَ في إثبات إقامة الحد علىٰ كل مكلف وترك المحاباة في ذلك».

فانظر إلىٰ الشدة في إقامة الحد وعدم التفريط فيه؛ لأنه شرعٌ منزلٌ من حكيم خبيرٍ؛ ولأنه تعدٍّ علىٰ حقوق الغير، والإسلامُ يقدسُ حقَّ الملكية، ويصونها من عبث العابثين؛ فنكَّل الله بالقطع في سرقة أموال الناس!! ومن تلك النصوص التي أوضحت شيئًا من أحكام القطع ما يلي:

ففي **«الصحيحين»**[2] من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبُعِ دِينَار»** وفي لفظ مسلم: **«لاَ تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلاَّ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا»**. وفي **«الصحيحين»**[3] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: **«قَطَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَ سَارِقٍ فِي مِجَنٍّ ثَمَنُهُ ثَلاَثَةُ دَرَاهِمَ»**.

---

(١) «الفتح» (١٢/ ٩٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (٦٧٩٠)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها (١٦٨٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (٦٧٩٥ - ٦٧٩٨)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها (١٦٨٦)؛ **قال الحافظ في «الفتح»** (١٢/ ١٠٨): «قوله: «قَطَعَ» معناه: أمر؛ لأنه ﷺ لم يكن يباشر القطع بنفسه، وقد تقدم في الباب قبله أن بلالًا هو الذي باشر قطع المخزومية، فيحتمل أن يكون هو الذي كان موكلًا بذلك، ويحتمل غيره».

وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ؛ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ؛ فَتُقْطَعُ يَدُهُ**». قال الحافظ ﷺ: «ختم الإمامُ البخاريُّ البابَ بهٰذا الحديث: إشارة إلىٰ أن طريق الجمع بين الأخبار: أن يجعل حديث عمرة عن عائشة أصلًا، فيقطع في ربع دينار فصاعدًا، وكذا فيما بلغت قيمتُهُ ذلك، فكأنه قال: المراد بالبيضة ما يبلغ قيمتها ربع دينار فصاعدًا وكذا الحبل»(٢).

وحمله بعضُهُم على المبالغة في التنبيه على عظم ما خسر، وحقر ما حصل، وأراد من جنس البيضة والحبل ما يبلغُ النصابَ(٣).

وقالت عمرة بنت عبد الرحمن: إن سارقًا سرق في زمن عثمان أُترجَّة، فأمر بها عثمان أن تُقوَّم، فقوِّمت بثلاثة دراهم، فقطع عثمانُ يده(٤).

فقد كان الربع دينار يؤمئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثني عشر درهمًا(٥).

وقد علَّق الحافظُ ابن كثير ﷺ علىٰ قول النبي ﷺ «**لَا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا**»؛ فقال(٦): «قال أصحابنا: فهٰذا الحديث فاصلٌ في المسألة ونصٌّ في اعتبار ربع الدينار لا ما سواه. قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هٰذا، لأنه إذ ذاك كان الدينارُ باثني عشر درهمًا؛ فهي ثمن ربع دينار؛ فأمكن الجمعُ بهٰذا الطريق».

وقد اعترض بعض المعترضين علىٰ شرع رب العالمين؛ فقال:

يَدٌ بخمس مئينٍ عَسْجد وُديَت ... ما بالها قُطعَتْ في رُبْعِ دينار

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ (٦٧٩٩)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها (١٦٨٧).

(٢) «الفتح» (١٢/ ١١٠).

(٣) المرجع السابق (١٢/ ٨٤)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢١٣، ٢١٤) ط. أولاد الشيخ.

(٤) أخرجه مالك في «الموطأ» (٦٨٧)، وعنه الشافعي في «الأم» (٢٧٣٦)، ومن طريقه البيهقي في «الكبرىٰ» (٨/ ٢٦٠)، وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٩٧٢) عن ابن المسيب قوله.

(٥) «الكبائر» (١٣٢، ١٣٣).

(٦) في «تفسيره لسورة المائدة» (آية: ٣٨).

تَنـاقضٌ مـا لنـا إلا السـكوت لـه وأن نَعُـوذ بمَـوْلانا مـن النـارِ[(١)]

فأجابه بعضُ أهل العلم بقوله: «لما كانت أمينةً كانت ثمينةً، فلما خانَتْ هانت».

ورد بعضُهم ببيت شعر، فقال:

عِـزُّ الأمانـةِ أغلاهـا وأرخصـها ذلُّ الخيانة، فافهم حكمةَ الباري[(٢)]

ومنهم من قال[(٣)]: هٰذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإنه في باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار، لئلا يجنى عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدرُ الذي تقطع فيه ربعَ دينار؛ لئلا يتسارع الناسُ في سرقة الأموال؛ فهٰذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب.

ولهٰذا قال: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أي: مجازاة علىٰ صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك.

○ حكمة التشريع في جعل عقوبة السارق قطع يده[(٤)]:

من ضروريات التعايش الآمن وبناء العمران المطمئن صيانةُ الأموالِ والمحافظة عليها؛ فكان مِن حكمة الله ورحمته بعباده أن فرَض العقوبةَ الرادعةَ لكل سارق يفسدُ علىٰ الناس معاشهم ويُخل بأمنهم علىٰ أموالهم. ففرض عقوبةَ قطع اليد من السارق.

وجاء في نصٍّ صريح محكم وتنزيلٍ يتلىٰ؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[المائدة: ٣٨].

وفي هٰذه الآية، جماعُ القول بالحكمة ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ فبيَّن

(١) وهو قول أبي العلاء المعري «في ديوانه»، وهو في «اللزوميات» له (١/ ٥٤٤)، وممن أورده أيضًا ابن كثير في «تفسيره» (/ ٧١)، وفي «البداية والنهاية» (١٢/ ٧٣)، وابن الجوزي في «المنتظم» (٨/ ١٨٦)، وابن حجر في «الفتح» (١٢/ ١٠٠)، وقد أخرجه الذهبي في «السير» (١٨/ ٣٠) مسندًا.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧١)، و«التعريفات» للجرجاني (ص: ٢١٤).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧١).

(٤) «الحدود والتعزيرات» للعلامة بكر أبو زيد رحمه الله (ص ٣٥١ - ٣٥٢).

سبحانه أن (القطع) هو الحكم المطابق لمجازاة (السارق) لا نقصَ ولا شططَ؛ فلم يجعل عقوبتَه الجلدَ، فيكون جزاءً ناقصًا عن مقابلة الجرم، ولم يجعله إعدامًا للنفس فيكون فيه مجاوزة لما يستحقه الجرمُ، **وفي ذلك يقول ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ -:**

«إن عقوبةَ القطع للسارق أبلغُ وأردعُ من عقوبته بالجلد. ولم تبلغ جنايتُهُ حدَّ العقوبة بالقتل، فكان أليق العقوبات به: إبانة العضو الذي جعله وسيلة إلىٰ أذىٰ الناس وأخذ أموالهم».

وقال أيضًا:

«ولم يشرع في السرقة إعدامُ النفس، وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه وصفاته من حكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وعدالته لتزول النوائب وتنقطعُ الأطماعُ عن التظالم والعدوان، ويقنع كلُّ إنسان بما آتاه مالكُهُ وخالقُهُ، فلا يطمع في استلاب غيره حقه».

وقال أيضًا:

«إن المقصودَ هو الزجرُ والنكالُ والعقوبةُ علىٰ الجريمة، وأن يكونَ إلىٰ كفِّ عدوانه أقرب، وأن يعتبرَ به غيرُهُ، وأن يحدثَ له ما يذوقُهُ من الألم توبة نصوحًا، وأن يذكِّره ذلك بعقوبة الآخرة، إلىٰ غير ذلك من الحِكم والمصالح.

ثم إنَّ في حد السرقة معنىً آخر، وهو أن السرقةَ إنما تقعُ من فاعلها سرًّا كما يقتضيه اسمُها، ولهٰذا يقولون (فلان ينظر إلىٰ فلان مسارقة) إذا كان ينظرُ إليه نظرًا خفيًّا لا يريد أن يفطن له، والعازمُ على السرقة مختفٍ كاتمٌ خائفٌ أن يشعر بمكانه فيؤخذ به، ثم هو مستعدٌّ للهرب والخلاص بنفسه إذا أخذ الشيء.

واليدان للإنسان كالجناحين للطائر في إعانته علىٰ الطيران، ولهٰذا يقال: (وصلت جناح فلان) إذا رأيته يسير منفردًا، فانضممت إليه لتصحبه، فعوقب السارقُ بقطع اليد قصًّا لجناحه، وتسهيلًا لأخذه إن عاود السرقة.

فإذا فعل به هٰذا في أول مرة بقي مقصوص أحد الجناحين ضعيفًا في العدو، ثم تقطعُ في الثانية رجلُه فيزداد ضعفًا في عدوه، فلا يكاد يفوت الطالب.

ثم تقطع يدُه الأخرىٰ في الثالثة. ورجله الأخرىٰ في الرابعة فيبقىٰ لحمًا علىٰ وضم، فيستريح ويريح».

○ شبهات حول قطع يد السارق، وردها:

قال العلامة بكر أبو زيد - رحمه الله تعالى - في كتابه القيم «الحدود والتعزيرات عند ابن القيم» ما نصُّه:

أورد ابن، القيم - رحمه الله تعالىٰ - التساؤلَ المشهورَ من نفاة القياس والحكم والتعليل من وجود التفريق بين المتماثلين، والجمع بين المختلفين، وفي هٰذا ذكر إيرادهم في السرقة وكشف عنها بما لا يدع، لقائل مقالًا.

ونفاة القياس إنما أوردوا هٰذا وأمثاله؛ لفك شرعية القياس لا للقدح في حكم السرقة فحاشاهم؛ بل هم مؤمنون بحكم الله ودينه وشرعه ولا يعتريهم في ذلك شكٌّ ولا يساورهم فيه وَهْمٌ.

أما في عصرنا فهٰذه الإيرادات ونحوها هي النافذة الموهومة التي نفث منها - المستشرقون وأذنابهم - بإلقاء الشبه وتكوين الشكوك لا في هٰذا الحد (قطع السارق) فحسب؛ بل ليتدرجوا بالرعاع من أولاد المسلمين، الغرباء عن إسلامهم إلىٰ ترك الإسلام جملة وتفصيلًا؟

ولكن نقولُ بكل ثبات: وأنىٰ لهم أن يتم ذلك؟؟؟

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وابن القيم - رحمه الله تعالىٰ - في مباحثه هٰذه كأنما أعطىٰ - رحمه الله تعالىٰ - نسخةً من شُبهِ المستشرقين فكرَّ عليها بالنقض والرفض حتىٰ أصبحت أثرًا بعد عين بل ولا أثر.

لهٰذا؛ فإنني أُوردُ هٰذه الإيرادات علىٰ لسان مُوردِ الشُّبهِ والاعتراض: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

- **الاعتراض الأول: أن العقوبة بالقطع محض ضرر السارق.**

نعى ابن القيم علىٰ المتباكين علىٰ هٰؤلاء اللصوص، الذين يقولون: إن القطع شرٌّ محض علىٰ المقطوع؛ فقال:

«السارق إذا قُطعت يدُه فقطعُها شرٌّ بالنسبة إليه. وخيرٌ محض بالنسبة إلىٰ عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ودفع الضرر عنهم. وخير بالنسبة إلىٰ متولي القطع أمرًا

وحكمًا. لما في ذلك من الإحسان إلىٰ عبيده عمومًا بإتلاف هٰذا العضو المؤذي لهم، المضر بهم؛ فهو محمودٌ علىٰ حكمه بذلك وأمره به مشكور عليه يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة.. أفليس في عقوبة هٰذا الصائل خير محض وحكمة وإحسان إلىٰ العبيد، وهي شرٌّ بالنسبة إلىٰ الصائل الباغي؛ فالشر ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلىٰ الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة. فلا يغلظ حجابُك عن فهم هٰذا النبأ العظيم؛ والسر الذي يطلعك علىٰ مسألة القدر ويفتح لك الطريق إلىٰ الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلىٰ خلقه، وأنه سبحانه كما أنه البرُّ الرحيمُ الودودُ المحسنُ فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقُض حكمتُه رحمتَهُ، بل يضع رحمتَهُ وبرهُ وإحسانه موضعه، وكلاهما مقتضىٰ عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه موضع العقوبة والغضب، ولا يضعُ غضبه وعقوبتَهُ موضع رضاه ورحمته.

ولا تلتفت إلىٰ قول من غلظ حجابهُ عن الله: أن الأمرين بالنسبة إليه علىٰ حدٍّ سواء، ولا فرق أصلًا، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة؟ وتأمل القرآن من أوله إلىٰ آخره كيف تجده كفيلًا بالرد علىٰ هٰذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه نفسه عنها؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فأنكر سبحانه علىٰ من ظن هٰذا الظن، ونزَّه سبحانه نفسه عنه؛ فدلَّ علىٰ أنه مستقرٌّ في الفطر والعقول السليمة أن هٰذا لا يكونُ ولا يليقُ بحكمته وعزته وإلهيته لا إله إلا هو تعالىٰ عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا. وقد فطر اللهُ عقولَ عباده علىٰ استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهُم وعقولُهم أشدَّ الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان. وكذلك وضع الإحسانَ والرحمةَ والإكرامَ موضعَ العقوبة والانتقام كما إذا جاء من يسيء إلىٰ العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرمه، فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هٰذا وتشهد علىٰ سفه من فعله. هٰذه

فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ فما للعقول والفطر لا تشهدُ حكمتهُ البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة، وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق، ولظهرت مناقضةُ الحكمة؛ كما قال الشاعر:

نعمـــة الله لا تعـــاب ولكـــن ربـــما اســتقبحت عــلىٰ أقــوام».

هٰذا ما قرره ابنُ القيم بحماسٍ متدفقٍ ضد هٰذا الاعتراض المريض المتلخص: أن في هٰذه العقوبة حمايةً للمجتمع من ضرر هٰذه الجريمة، واهتمامًا بتهذيب المجرم وتطهيره مع إبداء كمال المناسبة بين الجريمة والعقاب.

ويطيب لي في هٰذا المقام أن أذكرَ ما أوضحه الأستاذُ عبدُ الكريم زيدان، في تفنيد هٰذا الاعتراض ونقضه؛ فقال:

«أما صيرورةُ المقطوع عالةً علىٰ المجتمع؛ فهٰذا إذا كان صحيحًا فمن الصحيح أيضًا أن يقال: إن صيرورة المقطوع عالةً علىٰ المجتمع، وقد انكف إجرامُه، خيرٌ له وللمجتمع من أن يبقىٰ مجرمًا سليم اليدين ينال كسبَهُ من السحت الحرام، أما الاستعاضة عن القطع بالحبس مع التربية والتوجيه، فالرد علىٰ هٰذا أن الطوافَ علىٰ السجون وعد نزلائها يرينا أنهم بازدياد دائم؛ فما ردعت السجونُ عن جريمة السرقة إلا قليلًا؛ بل إن السجن أصبح مكانًا أمينًا للسُّرَّاق يتواجدون فيه ويلتقون ويتبادلون خبراتهم في عالم السرقة والإجرام.

أما قطع اليد فإنها كفيلةٌ بقطع دابر السرقة أو تقليلها إلىٰ حد كبير جدًّا، والتاريخُ خير شاهد علىٰ ما نقول؛ فإنَّ هٰذه العقوبة آتت أكلها وثمرتها للناس فعاشوا بأمان من السرقة والسراق».

- **الاعتراض الثاني: كيف يكون القطعُ لمن سرق ثلاثة دراهم دون مختلس ألف دينار أو منتهبها أو غاصبها.**

قال ابنُ القيم - رحمه الله تعالىٰ - في الجواب عن ذلك:

«هٰذا من تمام حكمة الشارع: فإن السارقَ لا يمكن الاحترازُ منه، فإنه ينقبُ

الدورَ ويهتك الحرزَ ويكسر القفلَ، ولا يمكن صاحبُ المتاع الاحترازَ بأكثر من ذلك؛ فلولم يشرع قطعه لسرق الناسُ بعضَهُم بعضًا، وعظم الضررُ. واشتدت المحنةُ بالسراق بخلاف المنتهب والمختلس؛ فإن المنتهبَ هو الذي يأخذ المالَ جهرةً بمرأىٰ من الناس. فيمكنهم أن يأخذوا علىٰ يديه، ويخلصوا حقَّ المظلوم، أو يشهدوا له عند الحاكم، وأما المختلس فإنه إنما يأخذ المالَ علىٰ حين غفلة من مالكه وغيره، فلا يخلو من نوع تفريط يمكِّن به المختلسَ من اختلاسه. وإلا فمع كمال التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس.

فليس كالسارقِ. بل هو بالخائن أشبه.

وأيضًا؛ فالمختلسُ إنما يأخذ المال من غير حرز مثله غالبًا، فإنه الذي يقاتلك ويختلسُ متاعَكَ في حال تخليك عنه وغفلتك عن حفظه. وهٰذا يمكن الاحتراز منه غالبًا فهو كالمنتهب. وأما الغاصِبُ؛ فالأمر فيه ظاهرٌ، وهو أولىٰ بعدم القطع من المنتهب. ولكن يسوغ كف عدوان هٰؤلاء بالضرب والنكال، والسجن الطويل والعقوبة بأخذ المال».

ومدار الدفع من ابن القيم لهٰذا الاعتراض: هو توفر الحرز في السرقة وهو غاية ما يملكه الناسُ من الاحتراز. مع اختفاء السارق، وهٰذا المعنىٰ لا يوجد في كل من المنتهبِ والمختلسِ والغاصبِ علىٰ ما أوضحه -رحمه الله تعالىٰ-.

- **الاعتراض الثالث: التفاوت بين دية اليد إذا جنىٰ عليها؛ فإن ديتها خمسمائة دينار وبين عقوبتها بالقطع إذا سرق؛ فإن نصاب السرقة الموجب للقطع ثلاثة دراهم؟**

قال ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ - في الجواب عن ذلك:

«وأما قطعُ اليد في ربع دينار وجعل ديتها خمسمائة دينار: فمن أعظم المصالح والحكمة؛ فإنه احتاط في الموضعين للأموال والأطراف:

فقطعُها في ربع دينار حفظًا للأموال. وجعل ديتها خمسمائة دينار حفظًا لها وصيانة.

وقد أورد بعض الزنادقة هٰذا السؤال وضمنه بيتين؛ فقال:

يدٌ بخمس مئين عَسْجدٍ وُديت ... ما بالُها قطعت في ربع دينار
تناقُضٌ ما لنا إلا السكوت له ... ونستجير بمولانا من العار

فأجابه بعضُ الفقهاء بأنها كانت ثمينةً لما كانت أمينةً، فلما خانَتْ هانَتْ. وضمنه

الناظمُ قوله:

يـدٌ بخمـس مئين عَسْـجد وديـت لكنــها قُطِعَــتْ في ربــع دينـــار

حمايـة الـدم أغلاهـا، وأرخصـها خيانةُ المال، فانظر حكمةَ الباري

ورُوي أن الشافعيَّ رحمه الله أجاب بقوله:

هنـاك مظلومـة غالـت بقيمتهـا وههنا ظَلَـمت هَانَتْ علىٰ الباري

وأجاب شمسُ الدين الكردي بقوله:

قُـلْ للمعـرِّي عـار أيـما عـار جهل الفتىٰ وهو عن ثوب التقىٰ عار

لا تقـدحن زنـاد الشعر عـن حكـم شـعائر الـشرع لم تقـدح بأشـعار

فقيمـة اليـد نصـف الألـف مـن ذهـب فـإن تَعْـدَتْ فـلا تسـوىٰ بـدينار

ومنه يتضحُ للمنصف أن هٰذا التفاوت بين ديَّة اليد إذا جنىٰ عليها وبين نصاب القطع إذا جنت هو عين الحكمة والعدل والصيانة لأبدان الناس وأموالهم. وهٰذا الاعتراضُ الآثمُ أورده جماعةٌ من العلماء ولكن لا يخرجون في جوابهم عما ذكره ابن القيم رحمه الله وهو نقض جلي مبناه علىٰ التفاوت العظيم بين الجنايتين.

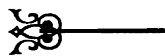
وممن أورده الحافظُ ابن حجر في «فتح الباري»، وفي «لسان الميزان» وقال: «قال السلفي: إن كان المعري قال هٰذا الشعر معتقدًا معناه - فالنار مأواه - وليس له في الإسلام نصيبٌ».

○ حكمة التشريع في جعل نصاب السرقة ربع دينار:

وابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- بعد نقض هٰذا الاعتراض يتحفنا بحكمة الشرع في تخصيص القطع بهٰذا القدر (ربع دينار) زيادة منه في نقض مقالة المعري وأضرابه؛ فيقول:

«وأما تخصيص القطع بهٰذا القدر: فلأنه لابد من مقدار يجعل ضابطًا لوجوب القطع؛ إذ لا يمكن أن يقال: يقطع بسرقةِ فلسٍ أو حبةِ حنطةٍ أو تمرةٍ، ولا تأتي الشريعة بهٰذا، وتنزه حكمة الله ورحمته وإحسانه عن ذلك.

فلابد من ضابط: وكانت الثلاثةُ دراهم أولَ مراتب الجمع، وهيٰ مقدار ربع دينار.



وقال إبراهيم النخعي وغيره من التابعين: كانوا لا يقطعون في الشيء التافة، فإن عادةَ الناس التسامحُ في الشيء الحقير من أموالهم؛ إذ لا يلحقهم ضرر بفقده. وفي التقدير بثلاثة دراهم حكمة ظاهرة: فإنها كفاية المقتصد في يومه له» انتهى.

- **وهنا سؤالٌ يطرح نفسَه بين يدي هذا العرض والبيان:**

ألا وهو: هل للسارق والسارقة من توبة؟

والجواب: نعم، بلا أدنىٰ ريب؛ فمَن ارتكب كبيرةَ السرقة، وأراد التوبةَ والأوبة، وأقلع عن هٰذا الذنب العظيم، وندمَ، واستغفرَ، وعادَ واستدركَ ما قد فات بالأعمال الصالحات، فإنَّ اللهَ تعالىٰ للذنب والزلّات غفَّار، وقد نادىٰ - تعالىٰ- عباده المسرفين علىٰ أنفسهم بالخطايا والذنوب؛ فقال جلَّ مِنْ قائل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فأقبِل علىٰ الله تعالىٰ، ولا تسوِّف؛ فالموتُ يأتي بغتةً، فعاهِد ربَّك من الآن علىٰ التوبة والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ، وكن علىٰ يقينٍ مطلق أن اللهَ تعالىٰ سيفرحُ بتوبتك وأوبتك وهو الغني عن العالمين؛ فاطرح قلبك بذلٍّ وانكسار بين يدي العزيز الغفار، واعترِفْ له بفقرك وضعفك، واعترف له بعجزك وتقصيرك وأخطائك؛ فالاعتراف يمحو الاقتراف؛ قال تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

يـا مَـنْ عَـدا ثُـمَّ اعتـدىٰ ثُـمْ اقـترف ... ثـم انتهـىٰ ثـم ارْعَـوىٰ ثـم اعْـتَرف

أَبْشِـــر بقـــول الله في قـرآنـــه ... إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ

وقد بوَّب الإمامُ البخاريُّ في «الصحيح» بابًا بعنوان (١): «توبةُ السارق» واحتج له بحديثين:

أحدهما: عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَطَعَ يَدَ امْرَأَةٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَتْ

(١) «الفتح» (١٢/ ١١٠).

تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَتَابَتْ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا»[(١)]

ثانيها: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بَايعتُ رَسُولَ الله ﷺ في رَهْطٍ؛ فقال: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا باللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ؛ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَهْوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ فَذَلِكَ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»[(٢)].

قال الحافظ في «الفتح»[(٣)]: «ووجه الدلالة منه أن الذي أقيم عليه الحدُّ وصف بالتطهر، فإذا انضم إلىٰ ذلك أنه تاب، فإنه يعود إلىٰ ما كان عليه قبل ذلك، فتضمن ذلك قبول شهادته أيضًا».

ولقد قال تعالىٰ بعدما بين اللهُ حكمَ السارق والسارقة: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

قال الحافظُ ابن كثير – رحمه الله تعالىٰ[(٤)] –:

«أي: من تاب بعد سرقته وأناب إلىٰ الله، فإن الله يتوبُ عليه فيما بينه وبينه، فأما أموالُ الناس؛ فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور».

هذا، وأسأل الله أن يهدي عصاةَ المسلمين، وأن يردنا جميعًا إلى الحقِّ رداً جميلًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

*****

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب توبة السارق (٦٨٠٠)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨).

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) (١٢/ ١١١).

(٤) في «تفسيره» لهذه الآية.



انحِرَافُ الشَّبَاب

انحراف الشباب

إننا مع مرض يوهن جسدَ الأمة، ويجرحُ قلوبَ المسلمين الصادقين؛ إنه مرض يملأ القلوبَ الحيةَ بالآلام والهموم والأحزان؛ لأنه مرضٌ متعلقٌ بنا جميعًا؛ ألا وهو: «انحراف الشباب».

وأودُّ من البداية أن أبدأ بمكانة الشباب؛ كي لا يتصور أحدٌ من شبابنا أو أبنائنا أنني أريدُ أن أجرح مكانته، أو أن أقللَ من كرامته!! لا وربِّي؛ بل أنا أخاطبك خطاب الأب لابنه والأخ لأخيه بكل قلبي وكياني؛ لأنني أعلمُ علمَ اليقين أن الحديث عن الشباب حديثٌ يسعد الشيوخَ والآباء؛ لأن الشبابَ هم أمل الأمة بفضل الله ـ جلَّ وعلا؛ فالأمة تعقد الأملَ بعد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ شبابها؛ فأنا لا أتصور أبدًا أن الشمسَ تملأ النهارَ في آخره كما تملأ النهار في وسطه وأوله؛ هٰذه هي المرحلة الفتية القوية؛ مرحلة الشباب، وأنا أقول بكل ثقة: إذا كان شيوخنا وآباؤنا عقول الأمة التي تخطط وتفكر، فإن شبابنا سواعدُ الأمة التي تبني وتعمِّر، ولا يمكن أبدًا لعقل أن يأتي مجردًا، دون أن يمشي علىٰ قدمين، أو دون أن يقوىٰ بساعدين، والقدمان والساعدان هما الشباب؛ فالشباب قوةٌ هائلة، وطاقةٌ جبَّارة، وشعلة مُتَّقدة، وحماسٌ متدفق وإخلاص؛ لكنه يحتاج إلىٰ توجيه ـ كما سأبين إن شاء الله.

لذلك كان النبيُّ ﷺ شديدَ الحفاوة جدًّا بالشباب، وكان فرحه بالشباب فرحًا ملفتًا؛ لأن الشبابَ هم الذين أيَّدوا الدعوةَ من لحظاتها الأولىٰ، وهم الذين نصروا هٰذا الدينَ، ونصروا سيدَ المرسلين ﷺ.

هل تعلمون ـ أيها الأحبة ـ أن النبيَّ ﷺ حين أوحىٰ الله ﷻ إليه بالرسالة كان في سنِّ الأربعين، وهٰذا السنُّ هو سن اكتمال الشباب؛ ففي «**صحيح البخاريِّ**»[1] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَمَكَثَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِينَ ثُمَّ تُوُفِّيَ ﷺ**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ (٣٨٥١).

هل تعلم أن أبا بكر ﷺ حين شرح الله صدره للإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ كان في الثامنة والثلاثين من عمره[١]؟

ثم هل تعلم أن عمر بن الخطاب ﷺ هٰذا الذي كان يملأ أرضَ مكة بالهيبة والجلال والقوة والخوف والبأس، حين دخل الإسلامَ كان في السادسة والعشرين من عمره[٢]؟

وعليُّ بن أبي طالب ﷺ يوم نام في فراش النبيِّ ﷺ ليعلِّم الدنيا كلَّها شرف البطولة، وعظمة الفداء، وحقيقة التضحية لدين رب الأرض والسماء كان ﷺ في العشرين من عمره[٣]؟

وأسامة بن زيد ﷺ؛ ذلكم القائد الذي اختاره النبيُّ ﷺ علىٰ رأس جيش كبير، وأمره أن يخرج ليناطح الصخورَ الصماءَ في بلاد الروم؛ وتحت قيادته أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ﷺ من كبار أصحاب النبيِّ ﷺ؛ هل تعلمون أنه كان في قرابة العشرين من عمره[٤]؟

وها هو مصعب الخير مصعب بن عمير، لؤلؤة ثروات مكة، وزهرة شبابها؛ بل وأعطر شبابها، الفتىٰ الريان؛ ذلك الفتىٰ المدلل، رضيع المباهج والنعيم، يُلقي النبيُّ ﷺ بين يديه بمستقبل الدعوة، يوم اختاره ﷺ لينطلق إلىٰ يثرب ليقيم علىٰ أهلها حجة الدين، ويعلِّم أهل يثرب من الأنصار الأطهار الأبرار دين النبي المختار ﷺ؛ فمكة لفظت بذرة التوحيد، وأرض الطائف فعلت برسول الله ﷺ ما لا يمكن علىٰ الإطلاق أن يفعله إنسانٌ بإنسانٍ، وألجؤوه إلىٰ بستان، وهو الذي ذهب إليهم لا يريد مالًا ولا جاهًا، وإنما ذهب لينتشل هٰؤلاء من ظلام الشرك والوثنية إلىٰ نور التوحيد والإيمان برب البرية جلَّ وَعَلَا، ومع ذلك لما رفضت أرضُ الطائف أن تستقبلَ بذرةَ التوحيد والإيمان، وأبت أرضُ مكة بصلابتها أن تقبل هٰذه البذرةَ المباركة، لم يبق أمام النبيِّ ﷺ

(١) انظر: «الإصابة» (٤/ ١٣٦).
(٢) انظر: «الطبقات» لابن سعد (٣/ ٢٦٩، ٢٧٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/ ١٦)، و«تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ٤٣٠).
(٣) انظر: «الإصابة» (٤/ ٤٥٩).
(٤) انظر: «الإصابة» (١/ ٤٦).

إلا الأمل في يثرب، وحين يختار النبيُّ ﷺ مصعب بن عمير، وهو شابٌّ في ريعان شبابه، قد تجاوز الثلاثين بقليل[١]، يختاره رسول الله ﷺ ليضع بين يديه مصير الدعوة، ومستقبل الدعوة، وهو يعلم أن يثرب تبقىٰ الأمل المتبقِّي أمام هٰذا الدين، وكان مصعب علىٰ مستوىٰ المسئولية والأمانة؛ فانطلق هنالك ليغرس أمام كل بيت من بيوت الأنصار شجرة وارفة الظلال سرعان ما ظللت علىٰ أرض يثرب الطيبة الطاهرة؛ فلقد خاطب رضي الله عنه سادة الأوس والخزرج، بلغةٍ كلُّها الأدب والحكمة والرحمة والتواضع؛ حتىٰ استطاع بفضل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يشق نهرًا للحياة وسْطَ هٰذه الأحجار الصلدة العاتية في يثرب.

وها هو جعفر رضي الله عنه أول سفير يتحدث باسم الإسلام في أرض بعيدة مقفرة مظلمة، في أرض فيها دينٌ آخر، يعتنق هٰذا الدينَ ملكٌ؛ لكنه ملك عادل؛ إنه النجاشيُّ في أرض الحبشة، واستطاع جعفر بلغة عجيبة أن يغرسَ للإسلام شجرةً وارفة الظلال في تلك الأرض، لكن ما الذي أرسل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الذي لم يجاوز الثلاثين من عمره[٢] إلىٰ هناك؛ إنها الهجرة والفرار بدين الله تبارك وتعالىٰ من أرض مكة إلىٰ أرض الحبشة، ولكن أهل مكة لم يتركوا أولئك الأطهار لينعموا بشيء من الراحة حتىٰ بعد ما تركوا ديارهم وأوطانهم، وإنما أرسلوا إلىٰ النجاشي ليرد إلىٰ مكة هٰذا الشبابَ الطاهرَ المباركَ، وهنا وقف جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشي الذي أوغر صدره عمرو بن العاص رضي الله عنه تجاه هٰؤلاء! فوقف جعفر بلغة بليغة فصيحة؛ حين قَالَ لَهُ النجاشيُّ: مَا هٰذَا الدِّين الَّذِي فَارَقْتُمْ بِهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ غَيْرِي؟

فقام جعفر رضي الله عنه بعزٍّ واستعلاءٍ، وثقة ويقين؛ ليقول: «أَيُّهَا الْـمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْـمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْـمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ

---

(١) انظر: «الاستيعاب» (١٥٥٩)، و«أسد الغابة» (ترجمة مصعب رقم: ٤٩٣٧).

(٢) انظر: «الإصابة» (١/ ٤٢٨)، و«الاستيعاب» (٣٢٨).

الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْـمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ»[1].

نعم.. هٰؤلاء هم الشباب الذين نصروا الدينَ، وأيد الله ﷻ بهم دعوة رب العالمين، وما أروعَ وأجملَ وأرقَّ قول ربِّي ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وبعد هٰذه المقدمة أقول: يجب علىٰ شبابنا أن يعتز بهٰذه المرحلة، وأن يعتز بانتمائه لهٰذا الدين الذي نُصِر بفضل رب العالمين، ثم بهٰذا الشباب صاحب الهمة العالية، والنية الصادقة، والإرادة القوية.

وأنا أعلم ـ بعد هٰذه المقدمة ـ أن شبابنا المسلم في العصر الحديث يتعرض لحملة هائلة من المشكلات والأزمات والمتناقضات، ولا يخفىٰ علىٰ أحد أن شبابنا يعيش في بحرٍ لُجيٍّ من الفتن، وظلماتٍ من الفتن، فوقها ظلمات من الفتن؛ بل إذا أخرج الشاب

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١- ٢٠٣) و(٥/ ٢٩٠)، وابن إسحاق؛ كما في «السيرة النبوية» (١/ ٢٨٩، ٢٩٢)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٩)، و«الدلائل» (٢/ ٣٠١)، و«الاعتقاد» (٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٥، ١١٦)، و«الدلائل»(١٩٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها؛ وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٤): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع»، وجوَّد سنده العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (٢/ ٢٢٥)، وكذا الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣١٩٠).

يده لم يكد يراها من هٰذا الظلام الدامس الحالك؛ ظلام الفتن من حوله؛ بل إذا امتدت إليه يدٌ متوضئةٌ طاهرةٌ صادقةٌ حانيةٌ مشفقةٌ لتنتشله من هٰذا الغرق المحقق، جذبته أيادٍ أخرىٰ كثيرة لكثرة الأعداء المتربصين بشبابنا وأولادنا، ممن لا يريدون لهم أن يتربوا علىٰ الفضيلة والعفة والكرامة وعلىٰ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وأنا لا أعرفُ زمانًا قد انتشرت فيه فتنُ الشهوات والشبهات كهٰذا الزمان[1]، حتىٰ وقع كثير من شبابنا في ظواهر عديدة وخطيرة ومؤلمة من ظواهر الانحراف، وأنا لا أنظر بعيدًا عن الواقع؛ بل يجب أن يكون العلماءُ والدعاةُ إلىٰ الله ـ جلَّ وَعَلَا ـ علىٰ مستوىٰ مشكلات الأمة وأزماتها؛ ولا يجوز أن يكون العالمُ والداعي بطرحه في جانب، والأمة بمشكلاتها وهمومها في جانب آخر؛ بل أقول: في كل أزمة ومع كل مشكلة وفي كل قضية تكتبُ الصحفُ والجرائدُ والمجلاتُ، ويتكلم المتخصصون في مثل هٰذه القضايا، ومع كل ذلك تبقىٰ الأمةُ منتظرة، تريد أن تسمع قول العلماء وحكمهم من كتاب رب الأرض والسماء؛ ومن كلام إمام الأنبياء وسيد الأصفياء محمد ﷺ.

ومن هنا تبقىٰ مسئولية العلماء كبيرة أمام الله ـ جلَّ وَعَلَا ـ؛ لأن العلماء هم الشموس التي تضيء للأمة طريق الله ـ جلَّ وَعَلَا ـ؛ وهم الأقمار الذين يضيئون للأمة عامة ولشبابها خاصة طريق النبيِّ ﷺ.

إنَّ العلماءَ هم فكرُ الأمة الحر، ووعي الأمة المستنير، وقلب الأمة النابض، وهُم الشموع التي تحترقُ لتضيء للجميع طريقَ السعادة والنجاة والخير والتفوق والفلاح في الدنيا والآخرة.

إنهم قادة سفينة الإنقاذ بقوةٍ وجدارةٍ في وسط هٰذه الرياح الهوجاء والأمواج المتلاطمة العاتية. إنهم حرسُ الحدود، وقادةُ الأمة الذين تتجمع عليهم القلوبُ وتتآلف حولهم النفوسُ. إنهم الناصحونَ المصلحونَ العاملونَ.

فيجب علىٰ الشباب أن يعي قَدْر العلماء المخلصين، والدعاة الصادقين الذين لا يريدون لهم إلا الخيرَ في وقتٍ يعيش فيه الشبابُ الآن مرحلةً من أخطر مراحل الفتنة التي مرَّ بها التاريخُ كلُّه من فتن الشهوات التي لا حصرَ لها ولا عدد؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ

---

(١) وقد فصَّلت في هٰذه الجزئية قبل ذلك.

أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[التغابن: ١٥]،

وقال تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[آل عمران: ١٤]؛ فها أنت ترىٰ المرأة الآن قد خرجت في الشوارع والطرقات بهٰذا الثوب الضيق الذي تستحي ـ ورب الكعبة ـ المرأةُ العفيفةُ أن ترتديه أمام زوجها في الأوقات العادية!!

وترىٰ الفتاةَ الجامعيةَ قد خرجت بزيٍّ يفتن العُبَّادَ الزهادَ؛ فها هي تخرج بمنظرٍ لا يرضي اللهَ تعالىٰ، ولا يرضي أصحابَ الفطر النقية من صدرٍ عارٍ، وشعور مرسلة، وبرفانات عاصفة، وعريٍّ فاضح!!

وما أكثر الشهوات، أما الشبهات؛ فحدِّث ولا حرج، وها أنت ترىٰ الشبهة الآن تعرض علىٰ موقع من مواقع الإنترنت أو علىٰ فضائية من الفضائيات؛ فتجوب الأرضَ في التو واللحظة، ويتأثر بها مئات الملايين!!!

وربما تؤثر هٰذه المواقعُ علىٰ شبابنا من منطلق حماسهم وإخلاصهم وحبهم للدين، لأن الشبابَ ـ وبحق ـ يريد أن يبذل نفسه لدين الله تبارك وتعالىٰ، ويزيد هٰذا الحماس المتهور في قلوب شبابنا وأولادنا واقعٌ أليمٌ يرونَهُ علىٰ أرض فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان والسودان؛ فيزداد هٰذا الحماسُ، وتشتعلُ نارُ الغيرة في صدورهم؛ لكن بلا ضوابطَ شرعية، ولا قواعد مرعية؛ لأن الحماسَ وحده لا يكفي، والإخلاص وحده لا يكفي؛ بل يجب أن يكونَ الحماسُ والإخلاصُ منضبطين بضوابط الشرع، من أجل ذلك أقول كلماتٍ مهمةً: إذا ابتعد الشبابُ عن الدين غرق في بحور الشهوات، وإذا انحرف الشبابُ عن الفهم الصحيح للدين سقط في شِبَاك الشبهات.

فتراه يُكفر ويُفسق ويُبدع وربما يقتل أحيانًا وهو يتصور أنه بذلك يخدم دينَ الله ﷻ؛ فهٰذه الدماء التي تسفك في بلاد المسلمين في الجزائر ـ مثلًا ـ أو في المغرب أو في الحرمين أو في أي مكان باسم الإسلام، والإسلام منها براء؛ لأن هٰذه الدماء ليست رخيصةً ولا حقيرةً، وإنما يجب علىٰ شبابنا أن يراجعَ الربانيين من العلماء قبل أن يتكلم أحدهم في دين رب الأرض والسماء، وقبل أن يخطو علىٰ الطريق خطوةً عمليةً، ليسأل ابتداءً هل هٰذا العمل جائز ومشروع أم غير ذلك؟

فالأمر دينٌ لا يحتاج إلىٰ مجاملة لأي مخلوق علىٰ وجه الأرض، وقد أخذ الله العهد والميثاق علىٰ أهل العلم أن يبينوا العلم وألا يكتموه، وأن من رزقه الله تبارك وتعالىٰ علمًا فكتمه، ألجم بلجام من نار يوم القيامة[١]؛ فلا بد أن نعي تمامًا أن الابتعادَ عن الدين ثمرته مُرة، ألا وهو الغرق في بحور الشهوات، وأن الانحرافَ عن الفهم الصحيح للدين سيُسْقط الشباب حتمًا في شِبَاك الشبهات.

فالذي قتل عثمانَ بن عفان ﷺ يعتقدُ أنه على الحق؛ لأنه سقط في شباك الشبهات، فلقد انقض عليه المجرمون الآثمون كالذئاب المسعورة، فضربه الغافقيُّ بحديدة معه، والتفت الغافقيُّ إلى المصحفُ في حجر عثمان، فضرب الغافقيُّ المصحفَ برجله؛ فاستدار المصحفُ دورةً كاملةً، واستقر مرة أخرى في حِجر عثمان؛ لتخالطه دماءُ عثمان، كما خالطت آيات القرآن دماء عثمان!

أهؤلاء قوم خرجوا لله؟! يضرب المصحفَ برجله ويدَّعي أنه خارج لله؟!

وها هو عثمان ﷺ الصَّابر الأوَّاب لم يقاوم ولم يتحرك من مجلسه، بل ظل جالسًا على كتاب الله كالطود الشامخ، واستمر عثمان يقرأ كتاب الله - جلَّ وَعَلَا - فانقضَّ عليه مجرم يُقال له: التُجِيْبِيُّ[٢]. فضرب عثمان ﷺ ضربة آثمة، فأصابت كَفَّ عثمان، فقال عثمان: الحمد لله، والله إنَّها يد خطت المُفَصَّل[٣]، وكتبت القرآن لرسول الله ﷺ.

فلقد كان عثمان ﷺ من كُتَّاب الوحي للمصطفى ﷺ.

وجاء التجيبيُّ مخترطًا سيفه فوضع السيفَ في بطن عثمان ﷺ.

---

(١) كما ورد في حديث صحيح؛ أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥)، والطيالسي (٢٥٣٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٩/ ٥٥)، وأبو داود، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٦) وقال: «حسن»، وابن ماجة في المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه (٢٦١ - ٢٦٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٨٤) و«المشكاة» (٢٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) هو رجل من بني سدوس يقال له: الموت الأسود، واسمه: كنانة بن بشر - لعنه الله.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الفضائل» (٧٦٥، ٧٦٦)، والطبري في «تاريخه» (٢/ ٦٧١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٥٢٠)، وخليفة بن خياط في «تاريخه» (٣٩)، وابن حبان (٦٩١٩)، وابن أبي داود في «المصاحف» كما في «فضائل القرآن» (٣٩)، و«الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٣٣٩، ٣٤٠)، وابن عساكر (٣٩/ ٤١١، ٤١٤).

فجاءت زوجتُهُ الصَّابرةُ الوفيَّةُ التقيَّةُ النَّقيةُ العفيفةُ الطَّاهرةُ: نائلة ـ رضوان الله عليها ـ لتفدي عثمان ﷺ بروحها ودمها ونفسها، فطعنها هذا المجرمُ فقطع يدها، ولما جرت نظر إلى مؤخرتها؛ فقال: ما أعظم عجيزتها[1]!! عليهم من الله ما يستحقون.

كل هذا والخليفة صابر، وهو الحييُّ الوقور، إنه رجل تجاوز الثمانين من عمره، إنَّه زوج ابنتي رسول الله ﷺ، إنَّه صاحب بئر رومة، إنَّه مجهز جيش العسرة، إنَّه جامع القرآن، إنه كاتب الوحي لرسول الله ﷺ.

ألم أقل لكم: إن الذي يؤلم القلبَ، ويبكي العينَ، بل ويُدمي الفؤادَ أن هؤلاء المجرمين الخبثاء في كل عصر، وفي كل مصر يرفعون الحرب، ويشعلونها على أئمة الدين، وقادة الأمة باسم الإسلام.

باسم الإسلام يرفعون شعار: لله ـ تعالى.. لصالح الإسلام.. للحرب على الإرهاب.. للقضاء على التطرف!!!.

إنهم يريدون أن يطمسوا هويةَ الدين تحت هذه الشعارات المضللة الخبيثة الكاذبة، ولم يكتف المجرمون الخبثاء بهذا الأمر، وإنما أبى ورعهُم الباهتُ وزهدُهُم الكاذبُ أن يدفن عثمانُ ﷺ في مقابر المسلمين.

هل تتصور هذا؟! إلى هذا الحد من الورع، والزهد الكاذب الباهت المريض، يقف هؤلاء ويمنعون منعًا باتًّا أن يُدفن عثمان ﷺ في مقابر المسلمين في البقيع، وإنما دفن ابتداءً خارج المقابر، ثم بعد ذلك اتَّسعت البقيع وأدخلوا عثمان إلى مقابر المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

إن مكمن الخطر أن تعلن الحربُ دومًا على القيادة؛ لقطع رأسها ولتحطيم أضلاعها باسم الإسلام، ومن أجل الله تعالى.

والمصيبةُ الكبرى أن الأمر ينطلي على كثير من السُّذج والرِّعاع والغوغاء، الذين يتبعون وينقادون لكل ناعق بالهوى والباطل والضَّلال؛ فهؤلاء المجرمون غوغاء من الأمصار؛ كما وصفهم الزبير ﷺ[2].

---

(١) راجع العزو المتقدم.
(٢) «تاريخ الطبري» (٣/ ١٣).

وهم نُزَّاع القبائل؛ كما وصفتهم عائشة رضي الله عنها[١]، وحُثالة النَّاس، متفقون على الشر؛ كما في «الطبقات» لابن سعد[٢].

وهم رعاع من غوغاء القبائل؛ كما ذكر النووي في «شرح صحيح مسلم»[٣].

وهم خوارج مفسدون ظالمون باغون معتدون؛ كما قال ابن تيمية في «منهاج السنة»[٤].

وهم رؤوس الشر والجفاء؛ كما يقول الذهبي في «دول الإسلام»، وهم أراذل من أوباش القبائل؛ كما وصفهم ابن العماد الحنبلي في «الشَّذرات»[٥].

هٰؤلاء هم قتلة عثمان رضي الله عنه ليس من الصحابة أبدًا واحدٌ منهم. وقد فصَّلْتُ ذلك في كتابي «الفتنة بين الصحابة»، ولله الحمد والمنة.

ثم ها نحن نرى انحرافًا عن الطريق من جانب شباب في ريعان الشباب والفتوة والحيوية، ومع ذلك يُضيع ـ هٰؤلاء الشباب ـ الصلاةَ؛ فربما ترىٰ الشاب ينام طوال الليل، لا يصلي الفجرَ، بل ولا حتى سائر الصلوات؛ بل ولا يصلي الجمعة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وتلك مصيبةٌ من أعظم المصائب التي ابتلي بها شبابنا في هٰذه الأزمان. إذًا كيف يُعقل أن ترىٰ شابًّا يعيش بين أسرة تحافظ علىٰ الصلاة، ويخرج هو لا يعرف للمسجد طريقًا؟! أو لا يعرف أصلًا شيئًا عن الصلاة؟!!

نعم.. أهمل كثيرٌ من شبابنا الذين ينتسبون إلىٰ الإسلام الصلاةَ وضيَّعوها؛ بل ويرونها عبئًا ثقيلًا علىٰ قلوبهم ونفوسهم، وربما تُذكِّر أحدهم بهٰذه المصيبة الكبيرة والداهية العظيمة؛ فتراه يلتمس لنفسه الأعذارَ.

فيزعم المسكينُ المخذولُ أنه مشغول!!

أو يدَّعي أنه لا يجد وقتًا للصلاة!!

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٤، ١٩).

(٢) «الطبقات» (٣/ ٧١).

(٣) (١٥/ ١٤٨).

(٤) (٦/ ٢٩٧).

(٥) «شذرات الذهب» (١/ ٣٤)

وهو الذي يضحي بأغلىٰ وقته لفيلم أو مباراة!!

فما ظنك بالوقت الذي يمنحه لحبيبته التي يعشق القلبُ لقاءها ويهواه؟!!

أيها العاقل.. أيها اللبيبُ: متىٰ ستسمع أمر ربك: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. متىٰ تمتثل أمر ربك: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

هل تعلم يا من ضيعت الصلاة أنك أصبحت بذلك محل خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من يُكَفِّرك، ومنهم من يُفَسِّقك؟!!

يكفي أن تذكر حديثَ رسول الله ﷺ : «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**»[1] .

لأجل ذلك فأنا لا أتردد أن أعاتب الأمة في هٰذا المقام؛ فأقول في الوقت الذي تُشَيِّد فيه الأمة الجامعات، وتشيِّدُ فيه المصانع والعمارات والأسواق التجارية الضخمة...بكل أسف قد لا يفكر مُصَمِّمُو البناء والقائمون على تشييده أن يضعوا بيتًا لله - تبارك وتعالى - في مقدمة هذا الصرح الجامعي، أو أن يضعوا وقتًا للصلاة مع جدول الدراسة السنوي؛ ليخرج الطالب والطالبة للصلاة مع أساتذتهم إذا سمعوا المؤذن يؤذن؛ ليخرج الجميع ممتثلين أمر الله، وأمر رسول الله ﷺ ، وليسجدوا وليركعوا لله - تبارك وتعالى - ليكونوا من المفلحين في الدنيا والآخرة؛ فأنا أقرر وأسجِّل بكلِّ أسفٍ؛ أن المناهج العلمية الحديثة ربما تعلِّم أبناءنا، وربما ترفع مستوياتهم العلمية في مجالات شتَّى في الطب، والهندسة؛ في الذرة والكيمياء؛ في العلوم، والجيولوجيا؛ لكنها بكلِّ أسفٍ لا تُحْسِنُ أن تعلِّم عيونهم الدمع، ولا قلوبهم الخشوع؛ فلا بد من المحافظة على فريضة الصلاة، ولابد من المحافظة على أوقات الصلاة؛ فالصلاة هي الركنُ العمليُّ الأول من أركان الإسلام بعد النطق بالشهادتين؛ فبمجرد أن تردد بلسانك الشهادتين، عليك بعد ذلك مع أول وقت من أوقات الصلاة، أن تترجمَ ترجمةً عمليةً إسلامك، واستسلامك، وانقيادك، وإذعانك لله، وامتثالك لأمره، واجتنابك لنهيه،

---

[1] أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر علىٰ من ترك الصلاة (٨٢) عن جابر بن عبد الله .

ووقوفك عند حده، حين تسمع النداءَ: حيَّ على الصلاة، تقول بلسان الحال: «سمعنا وأطعنا»؛ حتى ولو كنت رجلًا أعمى، فاقد البصر لا تجد من يقودك؛ فإن سمعت المؤذن وأنت على هذه الحال وجب عليك أن تُلَبِّي أمر الله، وداعي الله، وفي بيت الله - تبارك وتعالى -؛ كما في حديث ابن أم مكتوم ﷺ الثابت في «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن رَجُلًا أَعْمَى قَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّه لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلى المَسْجِدِ، فَسَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّي فِي بَيْتِه فَرَخَّصَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ. فَقَالَ: «**هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟**» فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَأَجِبْ**».

والله سبحانه لم يرخص للمجاهدين في أرض المعركة، أن يسقطوا الصلاة؛ بل أمرهم وشرع لهم صلاة الخوف، حتى لو كانوا في الميدان، وعند التقاء الصفوف! أَفَيُشَرِّعُ الله الصَّلاةَ للمجاهدين وبارقة السيوف على رؤوسهم؟!- وما أعظمها من فتنة - لم يرخص اللهُ لهم أن يسقطوا من على عاتقهم الصلاة، أو أن يؤخرها؛ أفبعد ذلك يرخص الله لمن جلسوا أمام المباريات، والمسلسلات، والأفلام، أو لامرأة انشغلت بإعداد الطعام لزوجها، أو لأولادها حتى يخرج وقت الصلاة؟! لا والله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء: ١٠٣]؛ قال البخاريُّ: «أي: موقتًا، وقته عليهم»[(٢)].

وأعيذُ نفسي وإخواني وأخواتي جميعًا من قولِ ربيِّ - تبارك وتعالى -: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]، والغيُّ؛ كما رواه البخاريُّ في «**التاريخ الكبير**» تعليقًا[(٣)] من حديث عائشة ﷺ قالت: «الغي نهر في جهنم»، وقال الله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون: ٤، ٥].

ومن رحْمَةِ الله تبارك وتعالى أنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل:

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء (٦٥٣).

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب مواقيت الصلاة، باب مواقيت الصلاة وفضلها (باب ١).

(٣) أخرجه البخاريُّ في «التاريخ الكبير» (٢٩٣٠ معلقًا).

وجاء ذلك عن ابن مسعود ﷺ عند الطبريِّ (١٨/ ٢١٨)، والطبراني في «الكبير»(٩/ ٢٢٧)، والحاكم (٢/ ٤٦) بسندٍ منقطعٍ.

الذين هم في صلاتهم ساهون! وإلا لهلكنا جميعًا؛ فعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: قلْتُ لأبي، أرأيت قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ أهي تَرْكُها؟ قال: لا، ولكن تأخيرها عن وقتها.

وفي رواية: قلْتُ لسعدٍ: أهو ما يحَدِّث به أحدُنا نفْسَه في صلاته؟ قال: لا، ولكنَّ السِّهو أن يؤخرها عن وقتها[1].

فالويل للذين يؤخرون الصلاة المكتوبة، حتى تخرج عن وقتها!! أعاذنا الله وإياكم من الشرور كلِّها، وأعاننا جميعًا لما فيه رضاه.

ومن تلك الانحرافات المزرية عند بعض الشباب أنه قد أُتي إليَّ يومًا بشابٍّ في كلية الطب يدعي أنه لا يؤمن بوجود إله! قلت: ما اسمك؟ قال: محمد، قلت: أنت يا محمد لا تؤمن بوجود إله؟! فقال كلامًا عجيبًا جدًّا قال: أنا مؤمن بالذات الإلهية الفلسفية!! لأنه سمع من يقول:

جئت لا أعلم من أين ... ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدَّامي ... طريقًا فمشيت
وسأمضي في طريقي ... شئت هٰذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقي
لست أدري[2]

ألا تعرفُ ربك الذي خلقك من العدم؟ ألا تعرفُ الغاية التي من أجلها خلقت؟ ألا تعرفُ الوظيفة التي من أجلها ابتعثت؛ فضلًا عن أن تعرف إلىٰ أين المصير؟ إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ السعير.

فالله خالقك من العدم؛ قال تعالى ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـًٔا

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٣٧٩١٦، ٣٧٩١٧) عن سعد ﵁ موقوفًا. ورواه الطبريُّ (٣٧٩٣٣)، والبزار في «مسنده» (١١٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧) عن سعد ﵁ مرفوعًا. وقد ضَعَّف البيهقي وأبو زرعة والحاكم رفعه، وقالوا: «الصحيح الوقف»؛ كما في «علل الحديث»(١/ ٥٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (الماعون: ٤، ٥).

(٢) سبق عزو هذه الأبيات.

مَذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ١، ٢]، وقال تعالىٰ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]؛ فالله خالقك، وغايتك في الكون أن توحده وأن تعبده، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فأنت عبدٌ مخلوق للخالق تبارك تعالىٰ، والمصير إن شاء الله تعالىٰ إلىٰ الجنة؛ أسأل الله أن ينجيني وإياك من النار.

ثم انحرافٌ عن الفهم الصحيح للدين في جانب آخر؛ فها أنت ترىٰ ظاهرة أخرىٰ مؤلمة بين شبابنا؛ ألا وهي: «ظاهرة التبعية والتقليد» الخطير لشباب الغرب، فانظر إلىٰ قَصَّة الشعر، وطريقة اللبس لدىٰ كثيرٍ من شبابنا، وطريقة كلامه، وسَمَّاعة الأذن التي يسمعُ من خلالها الموسيقىٰ الصاخبة!! ثم انظر إلىٰ طريقة التفكير والمناقشة عند هٰؤلاء الشباب، فتراه يعتز اعتزازًا شديدًا بالغرب وبالنموذج الغربي؛ لأنه مهزومٌ نفسيًّا من داخله؛ لأنه خرج في وقتٍ هُزمت فيه الأمة هزيمة نفسية نكراء؛ فالشباب يقلدُ تقليدًا أعمىٰ، حتىٰ الفتيات يقلِّدن الفتيات الغربيات في ثيابهن في جامعات بلاد المسلمين، هل هٰذه الثياب يمكن أن ترتديها فتاةٌ مسلمةٌ خرجت من بيتٍ طاهرٍ عفيفٍ؟ ما علاقة هٰذا الثوب والمكياج السافر بطلب العلم؟! إنما هو تقليدٌ خطيرٌ يدمي القلب، ويحرق الفؤاد!!

فيا شبابُ اعتزوا بدينكم ورؤيتكم وثقافتكم وتقاليد مجتمعكم المسلم، وكن - أيها الشابُّ المسلمُ - قويَّ الإرادة والهمة، صادق العزيمة، وخذ القرار برجولة، لا تقلد إلا المصطفىٰ ﷺ الذي هو قدوتك وأسوتك؛ قلد الأطهار والأخيار من الصحابة والتابعين ومن أهل الفضل في عصرنا، فهناك نماذج مُشرِّفة في هٰذا العصر؛ لأن أبناء الطائفة المنصورة في الأمة لايخلو منهم زمانٌ ولامكانٌ؛ فظاهرة التقليد حذَّرنا منها نبينا ﷺ ؛ كما في «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**».

فلماذا هٰذه التبعية؟! أنا أعتز بديني، ومجتمعي، وتقاليدي، وثقافتي؛ كما أعتزُّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٠٦)، ومسلمٌ، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩).

بقرآني، ونبي محمد ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]، ثم إنني ألمحُ ظاهرة خطيرة جدًّا، وهي: «ظاهرة التدخين»؛ فأتألمُ وأتحسَّرُ حين أرىٰ مجموعةً من شبابنا في الجامعات أو الشوارع ووسائل المواصلات وعلىٰ بعض المقاهي يدخنون السيجارةَ والشيشةَ؛ بل وكذلك فتياتنا علىٰ المقاهي يشربن الشيشة! فهي تبدأ بسيجارة ثم تتطور الأمورُ بعد ذلك إلىٰ الوقوع في ذلك المستنقع العفن «مستنقع المخدرات»!!

وإن كل الأبحاث العلمية تبين خطرَ التدخين بصورةٍ مُرعبةٍ؛ فالتدخين يسبب سرطان المعدة والمرِّيء والحنجرة، وليس كما كانوا يقولون: ضار بالصحة؛ لا بل قاضٍ علىٰ الصحة، وقاتل للإنسان، وقد حرَّم الشرعُ المطهرُ أن يُلحق المرءُ بنفسه الضرر؛ فضلًا عن أن يقتل نفسه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وفي «**مسند**» أحمد و«**سنن**» ابن ماجة بسندٍ صحيح لشواهده من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**»(١)؛ فأنت أيها المدخن تضر نفسك، وتضر مالك، وتضر غيرك، وستسأل عن هٰذا أمام ربك! والتدخين السلبيُّ معلومٌ لدىٰ المتخصصين أنه قد يكون أشدَّ خطرًا من التدخين الأصلي؛ فأنت تؤذي به إخوانك إيذاءً بالغًا، وفيهم أصحاب مرض الربو والحساسية.

بل أقولُ لك: أنتَ تؤذي ملائكةَ رب العالمين، لما في «**الصحيحين**» عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّىٰ مِمَّا يَتَأَذَّىٰ مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٥، ٣١٣)، وابن ماجة، كتاب الأحكام، باب من بنىٰ في حقه ما يضر بجاره (٢٣٤١)، وله شواهد صححه بها الألباني في «الصحيحة» (٢٥٠) و«الإرواء» (٨٩٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث (٨٥٤، ٨٧٥)، ومسلمٌ، كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا أوكراثًا أو نحوها (٥٦٤) واللفظ لمسلم.

فيا أيها الحبيبُ.. كن صاحب إرادةٍ، وخذ القرار برجولة وبقوة، وأمسك بعُلْبة السجائر، وقل: يا رب لن أتركها إلا طاعة لك.

فالتدخين خُطوةٌ عمليةٌ في طريق الوقوع في مستنقع المخدرات، ومدمنُ المخدرات ربما لا يتورعُ عن السرقة وخيانة أبيه وأمه؛ بل لا يتورعُ عن القتل من أجل أن يُحَصِّلَ المالَ؛ ليقضي به هٰذه النزوةَ الرخيصةَ، والشهوةَ الحقيرةَ، التي تُخرجه من دينه وهو لا يدري!!!

ولا أنسىٰ أُمًّا فاضلةً جاءتني وقالت: ارفع يديك وادْعُ علىٰ ولدي، فأنا أقومُ الليل أدعو الله - عزَّ وجلَّ - أن يخلِّصنا منه ويخلص البيت منه؛ لأنه سيُفْسِدُ البيتَ كلَّه، يعود الولدُ في وقت الفجر محمولًا؛ لأنه سكران؛ غرق في مستنقع المخدرات!!

مؤامرةٌ تدورُ علىٰ الشبابِ لتجعله ركامًا مِن ترابِ
مؤامرةٌ تقولُ لهم: تعالوا إلىٰ الشهواتِ في ظلِ الشرابِ
مؤامرةٌ مراميها عِظامٌ تُدبِّرُها شياطين الخرابِ
مؤامرةٌ يخيط خيوطها أعداء سوء في لؤم الذئابِ
تفرَّق شَمْلَهم إلاّ علينا فصِرْنا كالفريسة للكلابِ

ثم ترىٰ انحرافًا من نوع آخر، وظاهرةٍ خطيرةٍ انتشرت في هٰذه الأيام؛ ألا وهي: «ظاهرة التمرد»؛ فلقد أصبح الشابُّ متمردًا علىٰ أبيه، وأصبحت البنت متمردةً علىٰ أمها، فيُتَّهم الوالدُ الوقورُ والأمُّ الفاضلةُ بالتخلُّف والرجعية؛ فنحن في عصر الذرة والفضائيات!! إلىٰ غير ذلك، من هٰذه الأخلاق الردية.

ثم التمرد علىٰ الأستاذ والمدرس في المدرسة والجامعة، ثم التمرد بعد ذلك علىٰ ثوابت الدين. ثم يصل الأمرُ إلىٰ التمردِ علىٰ الله - جلَّ وَعَلَا -.

إنَّ المسئولية على الجميع؛ فهي مسئولية الإعلام، والمؤسسات الدينية في المساجد، والعلماء، والحكام، والأسر، وأنا أبدأ بالأسرة؛ لأن الأسرةَ هي البيئة الأولىٰ التي تُشكِّل العقلَ والقلبَ، ولا شك أن هناك أسرًا طاهرةً عفيفةً؛ لكن يخرجُ من بينها ابنٌ فاسقٌ يرهق أبويه، ويسقيهما كؤوسًا وألوانًا من العذاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأنا

أقول: لولا أن الله - عزَّ وجلَّ - قص علينا قصة نوح عليه السلام مع ولده الذي كفر بالله لتمزقت بيوتٌ وأسرٌ كثيرة؛ لأن بيوتًا كثيرة الآن أصيبت بهٰذا الداء وهٰذا المرض الذي يجرحُ الكثيرين؛ أسأل الله أن يسترنا وأن يرد أولادنا جميعًا إلىٰ الحق ردًّا جميلًا؛ إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه.

فلتبدأ الأسرةُ بالرعاية والعناية والإصلاح ما استطاعت، ثم علىٰ الإعلام واجبٌ كبيرٌ؛ فعليه أن يتقي اللهَ في شبابنا، ذلكم الإعلام الذي لا يرقب في شبابنا إلًّا ولا ذمة تلك التي تعرض في الليل والنهار الأفلام الفاضحة، والمسلسلات الساقطة، والأغاني الصاخبة، والكليبات الماجنة؛ فينبغي أن يعي الجميع أن النار قريبة من بيوتنا جميعًا؛ لا ينبغي أن يتصور أحدنا أن هٰذا الشرَّ بعيدٌ عن بيته.

والتعليم له دور، وأنا لا أدري كيف يتربىٰ الابنُ علىٰ الخشوع والفضيلة وسْط هٰذا الاختلاط في المدارس والجامعات بدعوىٰ أنه يخفف حدَّة الكبت الجنسي!!

ألقـاه في الـيم مكتوفًـا وقـال لـه   إيَّـاك إيَّـاك أن تبتـل بالمـاء[1]

ثم لا أقللُ من دور المساجد؛ فالمسجدُ له دورٌ كبيرٌ تجاه شبابنا وأولادنا، وأنا أعترفُ وأقرُّ بأن المسجدَ مقصرٌ في دوره؛ فقد يدخل الشابُّ المسجدَ - وهو في سنِّ الجامعة - فيرىٰ شيخًا لا يعلم عن الواقع شيئًا، يراه في وادٍ بعيد عن مشكلاته وحاجاته؛ بل ربما يراه غليظًا عبوسًا يعنفه ويوبخه.

وأنا لا أتصورُ أن شابًّا من شبابنا قد يأتي إلىٰ أحدٍ من علمائنا ومشايخنا ليقول له: ائذن لي في الزنا!! لستُ مبالغًا إن قلت: بأن هٰذا الشابَ لن يخرج من المسجد معافًى سليمًا!! لكن ماذا لو علمت بأن هٰذا حَدَثَ مع أعظم مربٍّ عرفته الدنيا كلها؟!

ففي «مسند» أحمد، و«**المعجم الكبير**» للطبراني بسندٍ صحيح[2] من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: إِنَّ فَتًىٰ شَابًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا،

---

(١) انظر «الوافي بالوفيات» (١٣/ ٤٦) و«وفيات الأعيان» (٢/ ١٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩)، وفي «مسند الشاميين» (١٠٦٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٢٩): «ورجاله رجال الصحيح»، وقال الألباني في «الصحيحة» (٣٧٠): «وهٰذا سندٌ صحيحٌ، رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح».

فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا: مَهْ مَهْ؟ فَقَالَ: «ادْنُهْ» فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا؛ قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا وَالله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ؛ قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ» قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللهمَّ! اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَىٰ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ شَيْءٍ».

فهٰذا هو التوجيه الصحيح؛ فيجب علىٰ الدعاة أن يقوموا بدورهم، وأن لا يكونوا بأطُروحاتِهم وموضوعاتهم في وادٍ سحيق، وشبابُ الأمة وأولادها في وادٍ آخر تمامًا؛ فإن الداعية الأمين هو الذي يربط بين واقع أمته ومشكلات شبابها بدين الله تعالىٰ ومنهجه.

فالمسئولية مسئولية الجميع، ويجب علينا أن نبدأ من الآن، وأنا أحمِلُ أملًا كبيرًا في قلبي؛ لأن الأمل في الله تبارك وتعالىٰ لا ينقطعُ، بل وأرىٰ شبابًا كريمًا من أمتنا بفضل الله تبارك وتعالىٰ يُقْبِل من جديد علىٰ الله - عزَّ وجلَّ - يردد مع السابقين الأولين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥].

فلو نظرتم إلىٰ المساجد الآن لرأيتم عَوْدًا حميدًا من شبابنا، وانظروا إلىٰ مَن يطوفون حول بيت الله الحرام؛ لتروا شبابًا كريمًا وفتيات في عمر الزهر والورد يعودون من جديد إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، نعم.. يبقىٰ الأملُ، ولا نفقد الأملَ أبدًا في شبابنا؛ فهيا يا شباب لا تيأسوا ولا تقنطوا، واطرحوا قلوبكم بذلٍّ وانكسار بين يدي العزيز الغفار، واعلموا أن الله - عزَّ وجلَّ - سيفرحُ بتوبتكم وأوبتكم وهو الغني عن العالمين.

أسألُ الله أن يحفظكم بحفظه، وأن يستركم بستره، وأن يكفلكم برعايته وعنايته؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

*****



الغَفْلَــــةُ

الغفلة

لا يخفىٰ علىٰ الناظر في حال الأمة الإسلامية اليوم ما هي فيه من انغماسٍ في الملذات والشهواتِ، وغفلةٍ عن رب الأرض والسمٰوات، لاهيةً سادرةً في غيها، لاعبةً معرضةً عن ربها، تاركةً مستخفةً بأوامر نبيها ﷺ.

إنك لو نظرتَ إلىٰ واقع كثير من المسلمين - الآن - كاد قلبُك أن ينخلع، وكأن المسلمَ لا يعلمُ عن دين الله شيئًا، ولا يعنيه أن يسمع عن الله ورسوله ﷺ أي شيء علىٰ الإطلاق!! فهو لا يعيشُ إلا لشهواتهِ ونزواتهِ الرخيصةِ، ونسي أنه سيعرضُ يومًا علىٰ الله - جلَّ وعلا - ليُسأَلَ عن كلِّ شيء؛ مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أليس عجيبًا أن يُعرِضَ المسلمُ عن الله - تعالى-؟!

أليس عجيبًا أن يتغافل المسلمُ عن لقاء مولاه، وأن يقضي جُلَّ عمره في معصية الله جلَّ علاه؟!

أليس عجيبًا أن تبتلىٰ أمةُ التوحيد - إلا من رحم الله - جلَّ وَعَلَا - من أفراد - بمرض الغفلة؟!

- **فما هي الغفلة لغةً واصطلاحًا؟**

- **الغفلة لغةً:**

«غفل عنه غَفْلَةً وغُفُولًا: تَركهُ وسَهَا عنه. وغَفَلَ الرجلُ: صارَ غافِلًا، وغَفَلَ عنه، وأَغْفَلَه: وَصَّلَ غَفْلَتَه إليه، أو تَرَكَه على ذُكْرٍ. وفي العين: أَغفَلْتَ الشيءَ: تَرَكْتَه غَفْلًا وأنتَ له ذاكِرٌ. والاسْمُ: الغفلَةُ والغَفَلُ محركة والغُفْلان بالضَّمِّ، وفي الحديث: «**وَمَن اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ**»[1]؛ أي: يشتغلُ به قلبُه ويستولي عليه حتىٰ تصير فيه غفلةٌ. **والتغافُلُ**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧١، ٤٤٠)، وأبو داود، كتاب الصيد، باب في اتباع الصيد (٢٨٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وله شاهدٌ؛ أخرجه أحمد (١/ ٣٥٧)، وأبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٧/ ١٩٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني لغيره في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٤١)، وفي «الصحيحة» (١٢٧٢).

والتَّغفُّلُ: تعمُّدُه؛ أي:الغفلة، وفي الصِّحاح: تَغَافَلْتُ عنه، وتغفَّلْتُه: إذا اهتبلتَ غفْلَته. وظاهر هٰذا السياق أنهما بمعنىً واحد، وقد فرق بعضُهُم؛ فقال: تغافل: تعمَّدَ الغَفْلَةَ. وتَغَفَّلَ: خَتَلَ في غَفْلَةٍ. والتَّغفيلُ: أن يكفيك صاحبك وأنت غافلٌ لا تُعنىٰ بشيءٍ. والمُغَفَّلُ كمُعَظَّم: من لافطنة له. والغُفْلُ، بالضم: من لا يرجىٰ خيره، ولا يُخشىٰ شره، فهو كالمقيد الذي أُغْفِلَ، والجمع أغفَالٌ. وأغفَلَهُ: أصابه غافلًا، أو جعله غافلًا، أو سماه غافلًا، وكذلك غفَّلَهُ تغفيلًا. وأغفله: سأله وَقْتَ شُغْلِهِ، ولم ينتظر وقْتَ فَراغهِ. وتَغَفَّلَهُ واسْتَغْفَلَهُ: تحَيَّنَ غَفلتَهُ»[١].

• **واصطلاحًا:**

قال الراغبُ: «سهوٌ يعْتَري الإنْسَانَ مِنْ قِلَّة التَّحفُّظِ والتَّيقُّظِ»[٢].

وقال الجُرْجانيُّ: «متابعة النفس علىٰ ما تشتهيه، وقال سَهْلٌ: الغفلة: إبطالُ الوقتِ بالبطالة، وقيل: الغفلةُ عن الشيء: هي أن لا يخطر ذلك بباله»[٣].

وقال الحَرَاليُّ: «فقد الشعور بما حقه أن يشعرَ به». قال أبو البقاء: «هو الذهول عن الشيء»[٤].

أيها الأحبة: إن الغايةَ التي من أجلها خُلقت هٰذه الأمةُ، وابتعثت، ووجدت، بل التي من أجلها خلق اللهُ السمٰواتِ والأرضَ، والجنةَ والنارَ، وأنزل الكتبَ، وأرسل الرسل، هي عبادة الله وحده وطاعته، فيجب أن تُسَخَّر الحياةُ كلُّها من أجل هٰذه الغاية العظيمة؛ لكن الأمة - وبكل أسف - ابتُلِيَت بهٰذا المرض الذىٰ حوَّلها إلىٰ هزلٍ ولعبٍ ولهوٍ!! فإنك ترى شركات كبيرة بأكملها يتوقف فيها العملُ من أجل مباراة لكرة القدم - مثلًا - واستطاع أعداء الأمة بالفعل أن يحولوا اللهوَ والهزلَ في حياتها إلىٰ جدٍّ؛ بل إلىٰ رمزٍ للبطولة!

ولو أنك أنكرتَ وقلت: كيف تتعطلُ شركةٌ من شركاتنا، وكيف يتوقف مصنعٌ

---

(١) «تاج العروس» (٣٠/١٠٨- ١١٨)، و«لسان العرب» (٦/ ٦٥٠، ٦٥١)، و«الصحاح» (٦/ ٦٠)، و«القاموس المحيط» (١٣٤٣)، و«معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٣٨٦).

(٢) «المفردات» (٣٦٤).

(٣) «التعريفات» (١٦١).

(٤) «تاج العروس» (٣٠/ ١٠٩).

من مصانعنا، لساعات طويلة من أجل مشاهدة مباراة، أو فيلمٍ من الأفلام، أو مسرحيةٍ من المسرحيات، أو مسلسلٍ من المسلسلات، أو برنامجٍ من البرامج اللاهية فلربَّما تُتَّهم بالجمود والتخلف والرجعية، فليتعطل الإنتاج! فلتتوقف المصانع! فلتتوقف الشركات! ولكن فليرفع للهو راية! فليرفع للهزل راية!!.. وهكذا تبدلت الحقائقُ، وتغيَّرت الموازينُ، وانقلبت الأمورُ رأسًا علىٰ عقب، وأصبح المعروفُ منكرًا والمنكر معروفًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن القلب يكادُ أن ينزف دمًا بدل الدمع لما يراه من حال المسلمين اليوم.. فهٰذه الأمةُ الميمونةُ التي خُلقت من أجل أن تغير معالم الأرض بالإيمان والتوحيد، والأخلاق، والسلوك، والتي ابتعثها اللهُ تبارك وتعالىٰ لأشرف وأعظم غاية، لكي تُخرج العبادَ في الأرض من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، فتنشغل - بعد ذلك - باللهو واللعب والهزل، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

قال العلامةُ السعديُّ - رحمه الله تعالىٰ - (١):

«هٰذا تعجبٌ من حال الناس، وأنهم لا ينجعُ فيهم تذكيرٌ، ولا يرعون إلىٰ نذير، وأنهم قد قرُب حسابُهُم، ومجازاتُهُم علىٰ أعمالهم الصالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون؛ أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به، كأنهم للدنيا خلقوا، وللتمتع بها وُلِدوا، وأن اللهَ تعالىٰ لا يزالُ يجددُ لهم التذكيرَ والوعظَ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم، ولهٰذا قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، يذكرهم ما ينفعهم، ويحثهم عليه وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ سماعًا تقوم عليهم به الحجةُ. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢، ٣]؛ أي: قلوبهم غافلةٌ معرضةٌ بمطالبها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، وقد اشتغلوا بتناول الشهوات، والعمل بالباطل، والأقوال الردية، مع أن الذىٰ ينبغي لهم أن يكونوا بغير هٰذه الصفة، تُقبِلُ قلوبُهُم علىٰ أمر الله ونهيه، وتستمعه استماعًا، تفقه المراد منه، وتسعىٰ جوارحُهُم،

(١) «تيسير الكريم الرحمن» لسورة الأنبياء (١-٣).

في عبادة ربهم، التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم علىٰ بال، فبذلك يتم له أمرُهم، وتستقيم أحوالُهم، وتزكو أعمالُهم».

فالآية الكريمة تهز الغافلين هزًّا.. فالحساب يقتربُ وهم في غفلة، والآيات تتلىٰ، ولكنهم عنها معرضون؛ لأنهم في اللهو والباطل والملذات والمتاع الزائل غارقون!! نعم لاهية قلوبُهُم! والقلب الغافل اللاهي عن الله صاحبه في ضنكٍ وشقاءٍ، ولو كان في نعيم ورخاء، فالشقاء ثمرة الضلال، والضنك ثمرة الإعراض؛ قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧]، وترىٰ هٰذا الغافل هائمًا علىٰ وجهه يأكلُ ويتمتعُ ويشربُ لا يفكرُ في أخراه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

يقول العلامة السعدي رحمه الله(١):

«يقول تعالىٰ مبينًا كثرةَ الغاوين الضالين، المتبعين إبليس اللعين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾؛ أي: أنشأنا وبثثنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ صارت البهائمُ أحسن حالة منهم، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: لا يصل إليها فقهٌ ولا علمٌ، إلا مجرد قيام الحجة ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم؛ بل فقدوا منفعتَها وفائدتَها، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾، سماعًا يصل معناه إلىٰ قلوبهم، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الذين بهٰذه الأوصاف القبيحة. ﴿كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾؛ أي: البهائم، التي فقدت العقولَ، وهٰؤلاء آثروا ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ، فسُلبُوا خاصية العقل.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإن الأنعامَ مستعملةٌ فيما خلقت له، ولها أذهانٌ تدركُ بها مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالًا منهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن» ص (٢٧٢).

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار؛ لتكون عونًا لهم علىٰ القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها علىٰ ضد هٰذا المقصود؛ فهٰؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ اللهُ لجهنم وخلقهم لها؛ فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هٰذه الجوارح في عبادة الله، وانصبغ قلبُهُ بالإيمان بالله ومحبته، ولم يغفل عن الله، فهٰؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون».

فأخطر مظاهر الغفلة: أن تغفل عن الغاية التي من أجلها خُلِقْتَ، وعن الوظيفة التي من أجلها ابتعثت، وقد عبَّر عن هٰذه الغفلة المرَّة أحدُهُم، فقال بلسان المقال[(١)]:

جئتُ لا أعلمُ من أين، ولكني أتيتُ   ولقد أبصرتُ قدامي طريقًا فمشيتُ

وسأمشي في طريقي شئتُ هٰذا أم أبيتُ   كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟

لستُ أدري؟

لا يدري له ربًّا، ولا يعرف لحياته معنىً، ولا لوجوده هدفًا!! لا يدري من خالقه، ولا يدري أين المصير؟ إلىٰ الجنة أم إلىٰ السعير؟ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]؛ فأيُّ جهل أبشعُ وأفظعُ من أن يجهل الإنسانُ - الذي يتعالىٰ بعقله، ويتعالىٰ بإبداعاته المادية - ربه - عَزَّ وَجَلَّ - وخالقه الذي خلقه وأوجده؟!! ووالله ثم والله، ما كرمت الأمةُ إلا بتحقيق هٰذه الغاية، وما هانت علىٰ الله ثم علىٰ أمم الأرض إلا يوم أن ابتعدت كثيرًا كثيرًا عن هٰذه الغاية؛ قال تعالىٰ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦ - ٥٨].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]:

«﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: لهٰذه الحكمة، وهي عبادته تعالىٰ بما أمر علىٰ لسان رسوله؛ إذ لا يتم صلاحٌ، ولا تنال سعادةٌ في الدارين، إلا

(١) وقائل ذلك شاعرٌ نصرانيٌّ جاهليٌّ معاصر، وهو إيليا أبو ماضي من قصيدةٍ له طويلة بعنوان «الطلاسم» من ديوانه «الجداول» (ص:١٠٦). نقلًا عن «العقيدة في الله» للدكتور الأشقر (ص:١٦، ١٧)، وقد قلَّد هذا الشاعرَ بعضُ من يعيشون بيننا، ويتكلمون بألسنتنا!!

(٢) «محاسن التأويل» (٨/ ٤٩٩).

بها».

ومعنىٰ العبادة في اللغة: الذلُّ والخضوعُ والانقيادُ، وكل مخلوق من الإنس والجن خاضع لقضاء الله متذللٌ لمشيئته منقاد لما قدَّره عليه، خلقهم علىٰ ما أراد، ورزقهم كما قضىٰ، لا يملك أحدٌ منهم لنفسه نفعًا ولا ضرًّا [(١)].

فما خلقت - أيها المسلم - إلا من أجل هٰذه الغاية؛ أن تفرد الله سبحانه وتعالىٰ بالعبادة، و الألوهية، والتوحيد؛ قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فهل تتصورُ أن هٰذه الغايةَ التي خُلِقَت من أجلها هي الصلاة فقط؟! أهي الصيامُ فقط؟! أو هي الحج فقط؟! كلَّا. فهٰذا شيءٌ من الغاية والعبادة التي أوجبها اللهُ عليك، أما العبادة التي خلقت الأمةُ من أجلها؛ فهي اسم جامع لكل ما يحبه اللهُ ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة [(٢)]؛ كالتوحيد، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وبر الوالدين، والإحسان إلىٰ الفقراء، والمساكين، واليتامىٰ، والأرامل، وابن السبيل، والدعوة إلىٰ الله - جَلَّ وَعَلَا -، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمرة في رمضان وفي غيره، وحج بيت الله الحرام، والإخلاص والخشية، والإنابة، والتوكل، والتفويض، والرجاء، والاستعانة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والحلف، واليقين، والحب والبغض، والولاء والبراء، والإعطاء والمنع؛ كل هٰذا وغيره من العبادة التي خلقت من أجلها، والتي غفلت عنها، إلا من رحم اللهُ سبحانه وتعالىٰ، فالعبادة ليست أمرًا علىٰ هامش الحياة؛ بل هي الوظيفة التي بعث اللهُ بها كلَّ الرسل والأنبياء؛ ليذَكِّر كلُّ رسولٍ وكل نبيٍّ أمته وقومه بها؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ١-٣]، وقال الله - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

---

(١) «فتح القدير» (٥/ ١١١).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» لشيخ الإسلام رحمه الله (١٠/ ١٤٩).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والله الذي لا إله غيره ما كُرمت الأمةُ إلا يوم أن حققت هٰذه الغاية، وما ذلت وأهينت الأمة إلا يوم أن ابتعدت كثيرًا عن هٰذه الغاية، وأنا **أقول دومًا**: الإسلامُ عقيدةٌ، تنبثق منها شريعةٌ، تنظم هٰذه الشريعةُ كُلَّ شئون الحياة، ولن يقبلَ اللهُ من قوم شريعتهم إلا إذا صحَّت عقيدتُهُم، فتحقيق هٰذه الغاية هو الأصلُ الأولُ؛ فكل شيءٍ بعد ذلك وسيلة، وأيُّ جهدٍ يبذل بعيدًا عن تحقيق هٰذه الغاية إنما هو جهد ضائع؛ فالخُطوة الأولىٰ علىٰ طريق العزة والنصرة والتمكين والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة هي أن نحقق الغاية التي من أجلها خَلَقنا اللهُ سبحانه وتعالىٰ؛ بل والتي من أجلها خلق السمٰوات والأرض، والجنة والنار، والتي من أجلها أنزل الكتب كلَّ الكتب، وأرسل الرسل كلَّ الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين. ونحن علىٰ يقين - وإن طال الزمنُ، ووضعت العقباتُ والعراقيلُ - بأنه لن تعود للأمة مكانتُهَا - بإذن الله - إلا علىٰ يد جيلٍ حقَّق التوحيدَ الخالصَ.

فما أحوج الأمةَ - الآن - إلىٰ تحقيق التوحيد والشهادة له علىٰ أرض الواقع؛ لتكون أهلًا لدعوة أهل الأرض إلىٰ هٰذا التوحيد الخالص، وإلا فمَن لهٰذه البشرية التي ضلَّت عن التوحيد؟ مَن لهٰذه البشرية التي غرقت في أوحال الشرك؟ مَنْ لهٰذه البشرية التي تعيش في الظلام علىٰ الرغم من كثرة الأضواء؟ مَن لهٰذه البشرية التي تهذي كالسكران، وتضحك كالمجنون، وتجري كالمطارد، تئن من الألم، تبحث عن أي شيء، وهي في الحقيقة تملك كُلَّ شيء، ولكنها حين انحرفت عن منهج الله فقدت كلَّ شيء؟!!

مَن الذي يحملُ النور لمن يعيشون في الظلام إلا من أشرقت قلوبُهم بنور التوحيد والإيمان؟! من الذي يُسمع البشرية عن الله ورسوله إلا من سمعوا لله ورسوله؟ من لأهل الأرض إلا صفوةُ أهل الأرض من الموحدين؟!

وهنا يتجلَّىٰ حجمُ الأمانة الثقيلة والمسئولية العظيمة التي كُلِّفَتْ بها خير أمة

أخرجت للناس في تحقيق التوحيد ودعوة أهل الأرض إليه.

- **ومن مظاهر هذه الغفلة وأعراضها: الاستخفاف بأوامر الله ورسوله.**

هل رأيت أبشع من أن تستخف الأمةُ - إلا من رحم الله - جلَّ وَعَلَا - بأمر الله سبحانه، وبأمر رسول الله ﷺ ؟!! وأنا - والله - لا أتهمُ الأمة بغير حق، ولا أريد أن أقيمَ الحدَّ عليها، إنما هي نصيحةُ محبٍّ مشفقٍ وجِلٍ علىٰ واقع أمته المسكينة؛ فها أنت ترىٰ استخفافًا واضحًا، وابتعادًا مزريًا عن شريعة الله ومنهجه؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

فتحكيم رسول الله ﷺ يجب أن يكونَ في كل شيء، في أقوالنا، وأفعالنا، وأحوالنا، وسياساتنا، واقتصادنا، وإعلامنا، وفي ملابسنا وملابس أولادنا ونسائنا، وفي طريقة تفكيرنا، وفي هويتنا، وعقيدتنا، وعبادتنا، ومعاملاتنا، وأخلاقنا، وسلوكياتنا، حتىٰ علىٰ شواطئ بحارنا.

قال العلامة ابنُ القيم رحمه الله [(١)]:

«فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتىٰ يحكموا رسوله وحتىٰ يرتفع الحرجُ من نفوسهم من حكمه، وحتىٰ يسلموا لحكمه تسليمًا، وهٰذا حقيقة الرضا بحكمه؛ **فالتحكيم**: في مقام الإسلام، **وانتفاء الحرج**: في مقام الإيمان، **والتسليم**: في مقام الإحسان، ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرتُه بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحي، وتمهدت طبيعتُهُ، وانقلبت النفسُ الأمارةُ مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسَلِّم: فقد رضي كُلَّ الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله». وهٰذه علامةُ فلاحٍ ونجاح.

قال جلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]. أما المنافقون؛ فحالهم دومًا الإعراضُ والصدودُ؛ كما قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٩٢، ١٩٣).

ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

أيها الأحبة: ما أيسر الزعم! وما أرخص الكلمات! وما أسهل التنظير! لكن أين الامتثالُ لأمر الكبير المتعال في واقع الأمة؟! وأين الامتثالُ لسنة النبيِّ المختار ﷺ في واقع الأمة؟ وأنا أسألك - بمرارةٍ -: هل لو امتثلت الأمةُ أمر الله ورسوله ﷺ كان حالها بهٰذا الواقع الأليم الذي يدمي قلبَ كلِّ مسلم غيور؟!

وأنا أقرر لكم: أن الأمةَ غيَّرت وبدَّلت؛ ففي جانب العقيدة غَيَّرت، وفي جانب التشريع بدَّلَت، وفي جانب الأخلاق والمعاملات والسلوك انحرفَت، وهٰذا واقعٌ ينبغي أن لا نتجاهله أو أن نغضَّ الطرفَ عنه، بل يجب أن نشخصَ الداءَ لنحدد الدواءَ. ولقد قال تعالىٰ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

ألم تسمع أحدًا يقول: فلان نسي نفسه؟ نسي الله - جلَّ وَعَلَا - فأنساه اللهُ نفسه، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، يُذكَّر بالله فلا يتذكر، ويذكر بكلام رسول الله ﷺ، فلا يلتفت!! وقد حذَّر اللهُ تعالىٰ من ذلك تحذيرًا شديدًا؛ فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]. وتدبر - معي - قولَ الله - جلَّ وَعَلَا -: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]. وقول الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٧-١٠٠]، يعني: لا وزنَ لها، ولا قيمةَ، ولا كرامةَ؛ لأنها جاءت في وقتٍ لا تُقبلُ فيه الندامةُ، ولا تُقبل فيه التوبةُ، ولا تنفع فيه الأوبةُ والعودةُ.

وتدبر - معي أيضًا قولَ الله - جَلَّ جلاله -: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٢، ١٤]. نعوذ بالله من الإعراض والغفلة عن حكم الله ورسوله ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فهناك غفلة عن الأمر والنهي وعن حدود الله تباك وتعالىٰ بصورة مؤلمة، لا ينكرها متابعٌ لواقع الأمة - ولا حول ولا قوة إلا بالله - ولن تُرحم الأمة إلا إذا أفاقَت وحققت مراد الله ورسوله ﷺ؛ فما رحمها الله يوم رحمها إلا يوم أن قالت علىٰ لسانٍ وقلبٍ واحدٍ: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فهٰذا هو النور الحقيقي الذي تضيء به الأمةُ طريقَها، وتستنيرُ به في ظلماتها؛ ففي «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لَـمَّا نَزَلَتْ على رسول الله ﷺ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: فَاشْتَدَّ ذلك على أَصْحَاب رسول الله ﷺ؛ فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ؛ ثُمَّ بَرَكُوا على الرُّكَبِ فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهَّ كُلِّفْنَا من الْأَعْمَالِ ما نُطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ؛ وقد أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذه الْآيَةُ ولا نُطِيقُهَا. قال رسول الله ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كما قال أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ من قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**» قالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فلما اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بها أَلْسِنَتُهُمْ؛ فَأَنْزَلَ الله في إِثْرِهَا: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فلما فَعَلُوا ذلك نَسَخَهَا الله تَعَالَى؛ فَأَنْزَلَ الله عز وجل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قَالَ: نَعَمْ، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾. قَالَ: نَعَمْ، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ ﴾. قَالَ: نَعَمْ، ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾. قَالَ: نَعَمْ.

فاستجاب اللهُ تعالىٰ لهٰذه الأمة الميمونة المرحومة المباركة، ورَحِمَها، وخفَّف عنها ببركة هٰذا المنهج المبارك؛ ببركة السمع والطاعة لله - جلَّ وَعَلَا -، وللنبي ﷺ، ولن

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالىٰ لم يكلف إلا ما يطاق (١٢٥).

ترحم الأمةُ من جديد إلا إذا حولت هٰذا المنهج في حياتها كلِّها إلىٰ واقع عملي، وإلىٰ منهج حياة يتألق في دنيا الناس سموًّا وإخلاصًا واتباعًا وصدقًا وعملًا وبذلًا وإنتاجًا وعطاءً.. إلىٰ غير ذلك؛ فمظهرٌ خطيرٌ من مظاهر الغفلة: الاستخفاف بأوامر الله - جلَّ وَعَلَا -، والاستخفاف بأوامر رسوله ﷺ، والابتعاد عن شرع الله - جلَّ وَعَلَا - وأرجو من أولئك الذين يختزلون شرع الله - جلَّ وَعَلَا - في الحدود - فحسب- أن يرجعوا إلىٰ الحق، وإلىٰ الإنصاف؛ لأننا إذا ما ذكَّرنا بالشريعة تجد مِن هٰؤلاء مَن يقول: تريدون أن تقطعوا الأيدي؟!

تريدون أن ترجموا الناسَ؟!

فأنا أقول: إن اختزال الشريعة أو الدين في الحدود أمرٌ لا يقول به منصفٌ يحترمُ عقلَه وشخصَه؛ فما الحدودُ إلا باب من أبواب المعاملات، وما المعاملاتُ إلا بابٌ من أبواب الشريعة؛ بل إن إقامة الحدود في دين الله تعالىٰ لها ضوابط وشروط، وليس الأمر - هكذا - علىٰ الإطلاق أو على عواهنه، وهٰذا أمر مؤصلٌ في كتب الفقه لأئمتنا وعلمائنا.

فحين ندعو الناسَ إلىٰ العودة إلىٰ شرع الله تباك وتعالىٰ؛ كما قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

حين ندعو الأمةَ (كلَّها) إلىٰ أن تعودَ من جديد إلىٰ شرع الله - جلَّ وَعَلَا - وإلىٰ شرع رسول الله ﷺ، وهي في غاية الحبِّ لله، والرضا عنه، فإنما ندعُوهَا لتكون أهلًا لرحمة الله تعالىٰ، حتىٰ لا يحبط أيُّ عمل لها عند الله - جلَّ وَعَلَا -؛ لأن مجردَ رفع الصوت علىٰ المصطفى ﷺ يحبطُ العملَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

قال ابن القيم ﵀[(١)]: «فإذا كان رفعُ أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم؛ فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم ومعارفهم علىٰ ما جاء به ورفعها عليه؟! أليس هٰذا أولىٰ أن يكون محبطًا لأعمالهم؟!».

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٥).

وأنا أقولُ: كيف لو عاش ابنُ القيم رحمه الله في زماننا ورأىٰ من لا يقدم قوله وعقله وفكره علىٰ قول وفعل النبي ﷺ فحسب؛ بل يتهمُ شريعةَ النبي ﷺ بالجمود والقصور والرجعية، وعدم قدرتها علىٰ مسايرة المدنية؟! ماذا يقول؟!

إن رفعَ الصوت - فقط - علىٰ النبيِّ ﷺ يحبط العمل؛ فكيف وقد اتهمت شريعته الربانية المحكمة؟!

فكيف إذا ما قدمنا ما نشتهي وما نريدُ، وما نراه صالحًا لأنفسنا، بعيدًا عن حب الله ورسوله، ما هي النتيجة؟ إن ما نراه الآن من ضعفٍ، وذلٍّ، وهوانٍ، واستخفاف أمم الأرض بنا، إنما هو لأن الأمة ابتعدت (كثيرًا) عن منهج الله وشريعته.

فقد يقول قائلٌ: أنت تدعو (الآن) الأمةَ إلىٰ العودة إلىٰ شرع الله المحكم من أجل أن تَسْعد في الدنيا والآخرة؛ فأين هي السعادة، وشرع الله الذي تدعون الأمة إليه بين أيديكم؟

والجواب: نعم هو موجود؛ لكن الأمةَ ابتعدت عنه، ويوم أن أخذت الأمة به؛ فامتثلت الأمرَ، واجتنبت النهي، ووقفت عند الحدِّ، تحولت من رعاة للإبل والغنم إلىٰ سادةٍ وقادة للدول والأمم؛ فلقد رفرفت راية التوحيد علىٰ أكثر من ثلثي الأرض، بفضل الله - جلَّ وَعَلَا -، ثم بفضل هٰؤلاء الصادقين الأطهار، الذين حققوا الغاية التي من أجلها خلقوا، وراحوا ليبلغوا أهل الأرض هٰذا الحق بحق؛ فغيَّروا معالم الأرض، وغيَّروا معالم الكون، وقدَّموا مفهومًا جديدًا للحضارة؛ فحين ندعو الأمةُ حكَّامًا وعلماءَ، ورجالًا ونساءً، وصبيانًا وأطفالًا إلىٰ العودة إلىٰ شرع الله تبارك وتعالىٰ، فإنما ندعوها إلىٰ أصل العزة، ونبع الكرامة والشرف؛ لتسعد في الدنيا والآخرة.

فينبغي أن نعودَ إلىٰ هٰذا الشرع المحكم بشموله وكماله.. وصفائه ونقائه؛ فلا ينبغي أن نختزلَ الدينَ في الحدود، وأنا لا أنكرُ أن الحدودَ من دين الله - جلَّ وَعَلَا - وأعتز بذلك، ونفخرُ - نحن الموحدين - بذلك؛ لأن الذي شرع ذلك هو الذي خلق؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وانظروا إلىٰ أعداد من أُقيمَ عليهم الحدُّ في عهد المصطفىٰ ﷺ وفي عهد الخلفاء، ثم انظروا إلىٰ من يُقتل (الآن) بالآلاف؛ بل لا أبالغُ بعشرات الآلاف، في عالَمِنَا المتحضر، الذي يقود الدَّفةَ فيه الغربُ، الذي قاد حين غفلت أمةُ القيادة! انظروا إلىٰ

النتائج المؤلمة؛ إلىٰ الدماء التي تسفكُ، وإلىٰ الأشلاء التي تمزَّق كل لحظة - لا أقول كل ساعة - في أنحاء الأرض؛ فهٰذا هو الواقع المؤلم الذي نحياه!! فينبغي أن ننظر نظرة عدلٍ وإنصافٍ؛ فالحدود من دين الله - جلَّ وَعَلَا - ومنهجه؛ فعلىٰ الأمة أن تعود إلىٰ شريعة الله المحكمة؛ بكمالها وشمولها، وأن تبتعدَ عن هٰذه الغفلة المؤلمة الخطيرة، التي أقعدتها عن التقدُّم والرقي، وعن المكانة التي أرادها لها الربُّ العلي، واختارها لها المختار النبيُّ ﷺ ؛ فوالله ثم والله لا كرامةَ، ولا مكانةَ، ولا سيادةَ، ولا سعادةَ في الدنيا والآخرة لهٰذه الأمة الميمونة؛ إلا إذا عادت (من جديد) إلىٰ شرع العزيز الحميد، وامتثلت الأمرَ، واجتنبت النهيَ، ووقفت عند الحدِّ وهي تردِّدُ مع السابقين الأولين قولتهم الخالدة: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

ثم من مظاهر هذا المرض الخطير: التهالكُ علىٰ الدنيا والغفلةُ عن الآخرة؛ فأنت ترى كثيرًا من أفراد الأمة قد انهمك في هٰذه الدنيا، ونسي الآخرة تمامًا!!

يرىٰ أحدُهم الموت بعينه، ويرىٰ الميتَ محمولًا علىٰ الأعناق، ومع ذلك في هٰذه اللحظات هو في غفلة عن رب الأرض والسمٰوات، وفي غفلة عن الآخرة، ولا يفكر في حقيقة دنياه؛ فقل لي بربك: متىٰ سيتذكَّرُ إن لم يتذكر الآن؟ إن لم يتعظ بالموت الذي يراه بعينه؛ فمتىٰ يتعظُ؟ متىٰ سيسمعُ عن الله - جلَّ وَعَلَا - وعن رسول الله ﷺ !! وقد حذَّرنا اللهُ - جلَّ وعلا - من التهالك علىٰ الدنيا، والغفلة عن الآخرة؛ فقال سبحانه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢]. أي: شغلتكم الدنيا وصرفكم نعيمُهَا الزائلُ؛ فلم تنتبهوا إلا وأنتم في المقابر قد عاينتم الحقائقَ كلَّها. ظللتم في لهو، وفي غفلة، وفي إعراض، ولم تنتبهوا إلا بعد زيارتكم للمقابر أمواتًا، فوجئتم بالانتقال من عالم الدنيا إلىٰ عالم الآخرة، ومن معسكر الأحياء إلىٰ معسكر الأموات!!

وهنا لطيفةٌ جميلةٌ رقيقةٌ وهي: أن اللهَ سبحانه وتعالىٰ سمَّى الموتَ هنا زيارةً؛ لأن الميت زائرٌ، بمعنىٰ أنه سيعود حتمًا - وإن طالت مدةُ الزيارة - إلىٰ داره الحقيقية؛ إما إلىٰ جنة وإما إلىٰ نار.

قال القرطبي ﷺ[1] : «قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢]؛ أي: حتىٰ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١١٦).

أتاكم الموتُ، فصرتم في المقابر زوَّارًا، ترجعون منها كرجوع الزائر إلىٰ منزله من جنة أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبره. وقيل: أي ألهاكم التكاثر حتىٰ عددتم الأموات، وقيل: هٰذا وعيد؛ أي: اشتغلتم بمفاخرة الدنيا، حتىٰ تزوروا القبور، فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -».

وفي «**تفسير ابن أبي حاتم**»[(١)] من طريق: ميمون بن مهران قال: كنت جالسًا عند عمر بن عبد العزيز؛ فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ②﴾. فلبث هنيهة؛ فقال: يا ميمون؛ ما أرىٰ المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌّ من أن يرجع إلىٰ منزله، يعني أن يرجع إلىٰ منزله إلىٰ جنة أو إلىٰ نار.

لقد تكالب كثيرون علىٰ الدنيا، ولم يفكروا لحظة في لقاء الله - عَزَّ وَجَلَّ - ولم تتحرك قلوبُهُم ولا جوارحُهُم خشيةً لله، وإجلالًا له. في الوقت الذي تراهم فيه قد حصَّلوا أرقىٰ الشهادات، وأعلىٰ المناصب والكراسي، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]. فقد يكون عالمًا في فرع من فروع العلم الدنيوي - وأنا لا أقللُ من شأن العلوم الدنيوية - لكنه في غفلة عن دينه وآخرته، وقد حذَّر رسولُ الله ﷺ من هٰذا التهالك علىٰ الدنيا؛ ففي «**صحيح مسلم**»[(٢)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»؛ فلا تركن إلىٰ الدنيا، فهي وإن طالت فهي قصيرة، وإن عظمت فهي حقيرة؛ لأن الليلَ مهما طال، فلا بد من طلوع الفجر، ولأن العمرَ مهما طال لابد بعده من دخول القبر؛ فإياك أن تغفلَ عن الآخرة أو تنسى حقيقة دنياك!!

وفي «**الصحيحين**»[(٣)] من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال فيه: «**فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**».

(١) في «تفسيره لسورة التكاثر» (١-٢)؛ وكما في ابن كثير في «تفسيره» أيضًا، و«الدر المنثور» (٨/ ٦١١)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٤٢٥).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٣١٥٨) ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقاق (٢٩٦١).

فكم مِن مغترٍّ بنعم الله التي تتوالى عليه وهو لا يدري أنه مُستدرجٌ - ولا حول ولا قوة إلا بالله - وأنه في فتنة، وأنه في محنة شديدة؛ فهل نسيتَ قارونَ الذي أعطاه الله ﷻ من الكنوز ما عجز العُصْبةُ أولو القوة علىٰ حمل مفاتحه، ومع ذلك ماذا كانت النتيجة؟ قال تعالىٰ - حكايةً عنه -: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص: ٧٨]؛ فكانت العقوبة الأليمة الموجعة ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ [القصص: ٨١].

فليس كلُّ مَن أنعم الله عليه يكون قد رضي عنه، وليس كلُّ من ضيَّق الله عليه يكون قد سخط اللهُ عليه؛ بل إنني أقول: إن الابتلاءَ بالنعيم أقسىٰ من الابتلاء بالضيق والشدة؛ لأن الابتلاءَ بالنعيم يُلْهي ويُنسي ويُطغي؛ فصاحبهُ يظن أن الله ما أنعم عليه إلَّا لأنه قريبٌ من الله تبارك وتعالىٰ!! وهاهم أهل الكفر في الشرق والغرب قد فتح اللهُ عليهم أبواب كل شيء؛ لكن هل هٰذا دليل علىٰ أن الله قد رضي عن الكفر وأهله؟! لا والله وإنما هو استدراج لأهل الكفر والمعاصي.

ففي «مسند» أحمد، والروياني، والمعجم «الكبير»، و«الأوسط» للطبراني وغيرهم[1] من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ تَلَا هٰذه الآية**: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وفي «الصحيحين»[2] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ**: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]».

فيا من انشغلت بدنياك عن أخراك؟ يا من نسيت لقاءَ الله واللحد والثرىٰ؟ يا من

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والروياني (٢٦٠، ٢٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٧٢)، وفي «الكبير»؛ كما في «المجمع» (٦/ ٣٨٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤١٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]. (٤٦٨٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣).

نسيت يومًا تشيبُ فيه النواصي؟ يا أيها اللاهون الغافلون؛ بل ويا أيها الطائعون: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]. وقال - جلَّ وعَلَا - مذكِّرًا -: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

فإلىٰ متىٰ تعيش من أجل الدنيا؟ وإلىٰ متىٰ هٰذه الغفلة عن الآخرة؟ وإلىٰ متىٰ تعبد الكرسي الذي جلست عليه؟! وإلىٰ متىٰ تعبد المال الذي من أجله ضيعت حقوق الله تعالىٰ؟!

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

[يونس: ٧،٨].

فمن غفل عن حقيقة الدنيا؛ فهو مغبونٌ خاسرٌ؛ روىٰ **الترمذيُّ وابن ماجة**[1] من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**».

وفي «**صحيح مسلم**»[2] من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ** (وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ) **فِي الْيَمِّ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ**».

وفي «**سنن**» الترمذي وابن ماجة، و «**مسند**» أحمد[3] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا علىٰ الله عزَّ وجلَّ (٢٣٢٠) وقال: «صحيح غريب من هذا الوجه». وابن ماجة، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٣)، و«صحيح الجامع» (٥٢٩٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨).

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب (٤٤) (٢٣٧٧) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجة، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠١، ٤١٩٦)، وابن حبان (٧٢٤٢)، =

النبي ﷺ قال: «مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؛ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

ورحم اللهُ القائلَ:

إنَّ لله عبادًا فطنا طَلَّقوا الدنيا وخَافُوا الفِتنا
نَظَرُوا فيها فلما عَلِمُوا أنها لَيْسَتْ لحيٍّ وطنا
جَعَلوهَا لُجةً واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا(١)

وبعد هٰذه المعرفة اليقينية لحقيقة هٰذه الحياة الفانية يجب أن يعلم العبدُ أن الذم الواردَ في القرآن والسنة في حق الدنيا لا يرجع إلىٰ زمانها الذي هو الليل والنهار، ولا إلىٰ مكانها الذي هو الأرض، ولا يرجع إلىٰ نعمها وخيراتها التي أودعها اللهُ تعالىٰ فيها؛ فزمان الدنيا الذي هو الليل والنهار جعله الله خلفة لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكورًا، ومكان الدنيا الذي هو الأرض قد جعله الله تبارك وتعالىٰ لبني آدم مهادًا ومسكنًا.. وهكذا؛ فالذمُّ لا يقع على تلك النعم وعلىٰ هٰذه الخيرات، وإنما الذمُّ الواردُ راجعٌ إلىٰ المعاصي والشرك الذي يرتكب علىٰ ظهر الأرض في حق فاطر السمٰوات والأرض -جَلَّ علاه-.

فأنا لا أريدُ أن أقول بأنه ينبغي أن نخرج من هٰذه الحياة الدنيا أو ينصرف الناسُ عنها بالكلية؛ كلَّا، بل إن ديننا دينُ عملٍ وجدٍّ وإبداعٍ وبطولةٍ، وكذلك لا نريد أيضًا أن ينغمس الناسُ في الدنيا علىٰ حساب الآخرة.

إنما الدنيا إلىٰ الجنة والنار طريق والليالي متجر الإنسان والأيام سوق

فالدنيا مزرعةُ الآخرة، وكما قيل: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار غنىً لمن تزود

= والبيهقي في «الكبرىٰ» (٣/ ٣٩١)، وفي «الشعب» (١٠٤١٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٨)، و«صحيح الجامع» (٥٦٦٨)، وروي عن ابن عباس. وانظر: «الصحيحة» (٤٣٩).

(١) «الكشكول» لبهاء الدين العاملي (١/ ٢٠٩)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٢٦٢)، و«رياض الصالحين» (ص:٣٨).

منها، ودارُ نجاة لمن فهم عنها؛ فهي مهبط وحي الله، ومصلىٰ أنبياء الله، ومتجر أولياء الله، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة[(١)].

وقد جمع النبيُّ ﷺ جمعًا بديعًا بين الدين والدنيا؛ كما في «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**».

فالدنيا ممر ومعبر إلىٰ الآخرة، فتزود فيها بالطاعات والقربات، وكان النبيُّ ﷺ يوصي أصحابَه والمؤمنين الصادقين من بعدهم بهٰذه الوصية الجليلة التي قالها لابن عمر؛ كما في «صحيح البخاري»[(٣)] **وَقَدْ أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِمِنْكَبِهِ يَوْمًا وَقَالَ لَهُ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.**

فيا أمة التوحيد لا تُسوِّفي؛ عودي إلى الله -جَلَّ وَعَلَا-؛ فإن الموتَ يأتي بغتةً.

وهٰذه هي الحقيقة الكبرىٰ التي غفل عنها كثيرٌ من الناس، وهي التي تصبغُ الحياةَ البشريةَ بصبغة الذل والعبودية لقهار السمٰوات والأرض.

إنها الحقيقة الكبرىٰ التي تُعلن علىٰ مدىٰ الزمان والمكان في أُذنِ كل حاكم، وكل أديب، وكل مفكر، وكل سامع أنه لا بقاء إلا للحي الذي لا يموتُ.

إنها الحقيقة التي تسربل بها طوعًا أو كرهًا العصاةُ والطائعون.

إنها الحقيقة التي شرب كأسها الصالحون؛ بل والأنبياء والمرسلون.

إنها الحقيقة التي أمرنا الحبيب بالإكثار من ذكرها.. إنها حقيقة الموت؛ قال تعالىٰ:

---

(١) وهذا مأثورعن عليٍّ رضي الله عنه؛ كما عند ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (١٠٨)، و«ذم الدنيا» (١٤٧) بإسنادٍ فيه نظر؛ كما قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٣٩٩).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» (٦٤١٦).

﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

والحق أنك تموت والله حيٌّ لا يموت.

والحق أن ترىٰ عند موتك ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب.

والحق أن يكون قبرك روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾!! ذلك ما كنت منه تهربُ وتجري وتفر.. تحيد إلىٰ الطبيب إذا جاءك المرضُ، وإلىٰ الطعام إذا أحسست بالجوع، وإلىٰ الشراب إذا أحسست بالظمأ، ولكن ثُمَّ ماذا؟!! أيها القوي الفتي؟ أيها الذكي العبقري؟ يا أيها الأمير؟ ويا أيها الوزير؟ يا أيها الكبير؟ ويا أيها الصغير؟

كُــلُّ بـــاك فســـيبكى ... وكـــلُّ نـــاع فســـينعى

وكـلُّ مـذخورٍ سيفنى ... وكـلُّ مـذكور سنيسـى

لـــيس غـــير الله يبقـــى ... مَـنْ عـلا فـاللهُ أعـلى[1]

يا مَنْ غرَّك جاهك! يا مَنْ غرَّتك وزارتك! يا مَنْ غرَّك منصبك! يا مَنْ غرَّك مالك! يا مَنْ غرَّتك قوتك!

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا ... واذكـر ذنوبـك وابكهـا يـا مـذنبُ

لـم ينسه الملـكان حـين نسيتـه ... بـــل أثبتـــاه وأنـــت لاهٍ تلعـــبُ

والـروحُ منـك وديعـةٌ أُودعتهـا ... سـتردها بـالرغم منـك وتسـلبُ

وغـرورُ دنيـاك التـي تسـعى لهـا ... دار حقيقتهـــا متـــاع يـــذهبُ

الليــلُ فــاعلم والنهــارُ كلاهمــا ... أنفاســنا فــيهما تعــد وتحســبُ[2]

فلنتذكر - جميعًا - هٰذه الحقيقة؛ قال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) «ديوان أبي نواس» (٦).

(٢) «ديوان عليٍّ بن أبي طالب» (٥٣).

فالدنيا دار ممر، والآخرة هي دار المقر، ومركب عبور لا منزل حبور، ودار فناء وليست دار بقاء؟ فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تفضحوا أستاركم عند من يعلم أسراركم؛ فالكل سيموتُ، فتذكر هٰذه الحقيقة الكبرىٰ ولا تتغافل عنها؛ فإن كل يوم يمر يقربنا من القبور، ويبعدنا عن الدور والقصور.

فيا أيها اللاهي!

ويا أيها الساهي!

تـذكر وقوفـك يـوم العـرض عريانـا ... مستوحشًـا قَلِـق الأحشـاء حيرانَـا

والنـارُ تَلهـبُ مـن غَـيظ ومـن حنـق ... عـلى العصـاة وربُّ العـرش غَضـبانَا

اقـرأ كتَابَـك يـا عَبـد عَـلى مَهـل ... فهَـل تَـرى فيـه حَرفًـا غَـير مَـا كَانَـا

فَلَـما قَـرأت ولَم تنكـر قراءَتـه ... وأقَررت إقرَار مَن عَرَفَ الأشيَاءَ عرفَانَا

نَـادَى الجَليـلُ خـذوه يَـا مَلَائكَتـي ... وامضـوا بعبـد عـَصى للنـار عَطشـانَا

الـمشركون غـدًا في النـار يلتهبـوا ... والمؤمنـون بـدار الخلـد سـكانَا[1]

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٣٩، ٤٠].

فهيا - يا أخي الحبيب - كفاك غفلة، يا نادمًا علىٰ غفلتك؛ أين أثرُ ندمك؟ أين بكاؤك علىٰ زلة قدمك؟

واحسرتاه إن ذُكِّرت - الآن - بالعودة إلىٰ الله وما أجبت! وا أسفاه إن نُبِّهت لغفلتك وما أنبت؛ هيا من الآن قبل أن تطلبَ الرجعةَ حيث لا رجعةَ؛ فالغافلُ بينه وبين الله مسافة بعيدة، لا يقطعها إلا بذكره، وإلا بالتوبة إليه، والأوبة إليه، والعودة إلىٰ دينه، والعودة إلىٰ رسوله ﷺ؛ أسأل اللهَ - جلَّ وَعَلَا - أن يوقظ الأمة من رقدتها ومن غفلتها.

ثم ها هي الأمة - إلا مَن رحم ربك - في غفلة عن جراحها ومصائبها وتكالب

(١) «التذكرة» للقرطبي (١/ ٣٣١).

أعدائها عليها، ترىٰ الأمة لا تستحي حين يرقص القادةُ والعلماءُ والكبارُ بحب رسول الله ﷺ ، ويتغنون بذلك، في الوقت الذي تسفكُ فيه الدماءُ، وتمزق فيه الأشلاءُ، وتنتهك فيه الأعراضُ، وتدنس فيه المقدساتُ؛ فالأمة لا زالت ترقص، ولا زالت تتغنَّى بحب رسول الله ﷺ ، وهو الذي قال - بأبي وأمي: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(١) .

يا من احتضنت طفلك في صدرك وضحكت ملء فمك؟ وأكلت ملء بطنك، وعشت للكراسي الزائلة والمناصب الفانية، أين أنت من حال أمتك التي تصرخُ ليل نهار في ظل هٰذه الحروب الطاحنة من قِبَل يهود، وكل من يخطط من أعدائنا لأمة الإسلام؟؟!

والواقع خير شاهد علىٰ أن الأمة خانت ربها، وخانت نبيها ﷺ يوم أن تخلَّت عن الأمانة، والسيادة، والقيادة بتركها لأصل عزها، ونبع شرفها؛ بتركها للكتاب والسنة، وصار المجتمع الغربي يقود البشرية كُلها علىٰ حين غفلة من أمة القيادة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فالأمة - الآن - أصبحت قصعةً مستباحةً لأحقر وأذل أمم الأرض، وطمع فيها الضعيفُ قبل القوي، والذليلُ قبل العزيز، والداني قبل القاصي، وأصبحت الأمةُ - الآن - غثاء - إلا من رحم ربك - من أفراد قلائل. وهٰذا ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»(٢) .

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم (٦٠١١)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم علىٰ أمة الإسلام (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، والطبراني (٢/ ١٠١) (١٤٥٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٨).

نعم، لقد أصبحت الأمةُ - الآن - غثاء من النفايات البشرية، تعيش علىٰ ضفاف مجرىٰ الحياة الإنسانية، كدُوَيلات متناثرة متصارعة، تفصل بينها حدودٌ جغرافيةٌ مصطنعةٌ، ونعراتٌ قوميةٌ جاهليةٌ بغيضةٌ، وترفرف علىٰ سماء الأمة راياتُ القومية والوطنية، وتحكم الأمة قوانينُ الغرب العلمانية، وتدور بالأمة الدواماتُ السياسية؛ فلا تملك الأمةُ نفسُها عن الدوران؛ بل ولا تختارُ لنفسها حتىٰ المكان الذي ستدورُ فيه!!

لقد ذلت بعد عزة، وجهلت بعد علم، وضعفت بعد قوة، وأصبحت في ذيل القافلة البشرية بعد أن كانت بالأمس القريب تقودُ البشريةَ كُلَّها بجدارةٍ واقتدارٍ. وأصبحت - الآن - تتسول علىٰ موائد الفكر الإنساني والعلمي، بعد أن كانت بالأمس القريب منارةً تهدي الحيارىٰ والتائهين ممن أحرقهم لفحُ الهاجرة القاتل، وأرهقهم طولُ المشي في التيه والظلام. وها أنت ترىٰ حجم الدول التي جنَّدت طاقتها وقدراتها وجنودها للقضاء علىٰ دولة عربية مسلمة، كالعراق مثلًا.

وضاعت - الآن - في الأمة المقدساتُ؛ كضياع القدس بعد ضياع الأندلس، والبوسنة، وكوسوفو... نعم؛ الإسلام يتعرض لأشد الهجمات، وأعنف الضربات في فلسطين، وكشمير، والفلبين، وفي أفغانستان، بل وفي كل مكان.

ولله درُّ القائل:

في كُلِّ أفقٍ على الإسلام دائرةٌ ... ينهدُّ من هولها رضوى وثهلان

ذبحٌ وصلبٌ وتقتيلٌ بإخوتنا ... كما أعدت لتشفي الحقد نيرانُ

يستصرخون ذوي الإسلام عاطفةً ... فلم يُغِثْهم بيوم الروع أعوانُ

هل هذه غيرة أم هذه ضعةٌ ... للكفر ذكر وللإسلام نسيان[1]

هذا هو الواقع المرُّ الذي يعيشُهُ المسلمون في كل مكان.. والأمة لا زالت في سبات عميق، وغفلة مريرة!!

فحال أمتنا حال عجيبة ... وهي لعمر الله بائسة كئيبة

يجتاحها الطوفان طوفان المؤامرة الرهيبة

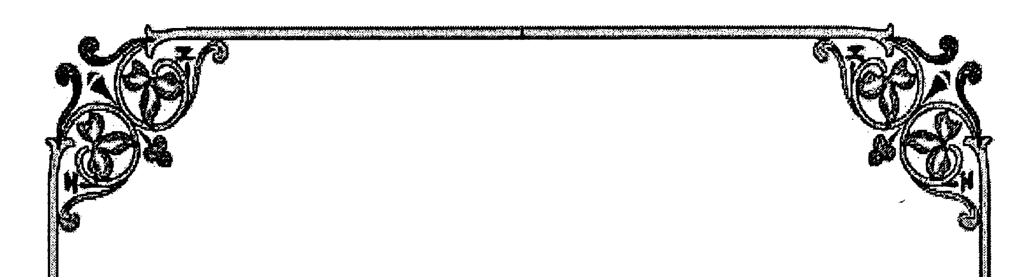
---

(١) «ديوان وليد الأعظمي» (٨).

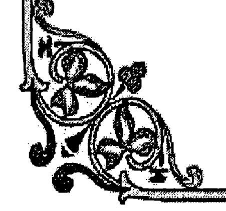
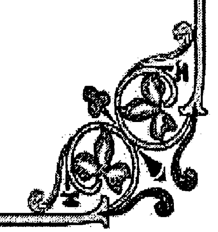
ويخـــطط المـــتآمرون كــــي يغـــرقـــــوها في المــــصيبة
وسيـــــحفرون لهـــا قـــبورًا ضـــمن خطتـــهم رحـــيبة
قـــالوا: الســـلام قـــلت: يعـــود الأهـــلُ لـــلأرض الســـليبة
وســـيلبس الأقـــصى غـــدًا أثـــوابًـــا قشـــــيبة
فـــإذا ســـلامهم هـــو التنـــازل عـــن القـــدس الحـــبيبة
فبـــئس ســـلامُهُم إذًا وبئســـت هـــذه الخطـــطُ المـــريبة

ولا شك علىٰ الإطلاق أنه لا مخرج لهٰذه الأمة من هٰذه الأزمة إلا إذا عادت إلىٰ هويتها؛ إلىٰ كتاب ربها، وإلىٰ سنة نبيها ﷺ ، وأعداؤنا يعلمون علمَ اليقين أن الأمةَ لا عزَّ لها، ولا سيادَة لها إلا إذا عادت إلىٰ الإسلام، وإلى هويتها الحقيقية التي تضمن لها البقاء والسعادة والخيرية في الدنيا والآخرة؛ أسأل الله أن يوقظَ الأمةَ من غفلتها ورقدتها، وأن يردها إلىٰ الحق ردًّا جميلًا؛ إنه وليٌّ ذلك والقادرُ عليه.

*****



إهمال محاسبة النفس وعدم تزكيتها



إهمال محاسبة النفس
وعدم تزكيتها

إن النفسَ البشريةَ آيةٌ كبيرةٌ من آيات الله تعالىٰ؛ فإنها غايةٌ في اللطف والخفة، سريعةُ التنقل والحركة، والتغير والتأثر، والانفعالات النفسية من الهم والإرادة والقصد والحب والبغض.

وهي التي لولاها لكان البدن مجردَ تمثالٍ لا فائدة فيه[1] ولا قيمة له، ولأجل ذلك أقسم اللهُ بها؛ بيانًا لعظمتها، وكبير قدرها؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧]؛ أي: خلقها سويةً مستقيمةً علىٰ الفطرة القويمة[2].

قال القرطبي رحمه الله[3]:

«﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾؛ قيل: المعنىٰ، وتسويتها، فـ«ما» بمعنىٰ المصدر، وقيل: المعنىٰ ومَن سوَّاها، وهو الله - عزَّ وجلَّ -، وفي النفس قولان: أحدهما: آدم، الثاني: كل نفسٍ منفوسة، وسَوَّىٰ، بمعنى: هيأ، وقال مجاهد: سوَّاها: سوىٰ خلقها وعدل».

ثم قال تعالىٰ بعدها: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٨]؛ أي: عرَّفها طريقَ الفجور والتقوىٰ، وعرفها الطاعةَ والمعصيةَ، وعرَّفها طريقَ الخير وطريقَ الشر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]، وكما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، ثم قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١]؛ أي: قد فاز من زكَّىٰ الله نفسه بالطاعة وصالح الأعمال.

قال القرطبي رحمه الله[4]:

«وأصل الزكاة: النمو والزيادة، ومنه: زكا الزرع: إذا كثر ريعه، ومنه تزكية القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعه بالتعديل، وذكر الجميل.. فمصطنع المعروف، والمبادر إلىٰ

(١) «تفسير السعدي» (ص:١٠٩٢/ ١٠٩٣).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٣٦٥) ط أولاد الشيخ.
(٣) (١٠/ ٣٢١).
(٤) (١٠/ ٣٢٢)، وراجع: «اللسان» لابن منظور (٤/ ٣٨٧).

أعمال البر، شَهَر نفسه ورفعها، وخاب من دسَّ نفسه في المعاصي، وأضلها وأغواها». اهـ بتصرفٍ يسيرٍ.

فيجبُ تزكيةُ النفس وتطهيرها، وتأديبها، وإبعادها عن مناهيه تعالىٰ ومساخطه. وإهمالُها وعدمُ تزكيتها مرضٌ خطير قد يؤدي بصاحبه إلىٰ النار وبئس القرارُ.

وقد لا يتصور كثيرٌ من إخواني وأخواتي خطر هٰذا المرض مع أن النفس التي بين جنبيك هي أعدىٰ أعدائك؛ فالشيطان هو العدو اللدود؛ لكنك إن ذكرْتَ الله - عزَّ وجلَّ - خنس؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦]؛ أي: الذي يخنس ويفرُّ ويجري إن ذكرت اللهَ تعالىٰ، لكنَّ النفسَ التي بين جنبيك أمَّارةٌ بالسوء جاهلةٌ ظالمةٌ؛ لأنها قد تقودك إن أهملتها وأهملتَ حسابها إلىٰ كل هلاك وعطب في الدنيا، وإلىٰ النار في الآخرة!! أما إن استعنت بالله تعالىٰ، ووقفت لها بالمرصاد، وحاسبتها حساب الشريك الشحيح، قادتك إلىٰ الفلاح في الدنيا والآخرة؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

قال الإمام الطبريُّ في «تفسيره»(١) :

«﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من الخطأ والزلل فأزكيها؛ ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ يقول: إن النفوسَ نفوس العباد، تأمرهم بما تهواه، وإن كان هواها في غير ما فيه رضا الله، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ يقول: إلا أن يرحم الله مَن شاء مِن خلقه، فينجيه من اتباع هواها وطاعتها فيما تأمر به من السوء».

وقال الإمام الشوكانيُّ في «فتح القدير»(٢) :

«﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: إن هٰذا الجنسَ من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلىٰ الشهوات وتأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها، وكفها عن ذلك ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾؛ أي: إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء أو إلا

---

(١) (٦/ ٤٥٦٦) ط السلام.

(٢) (٣/ ٤٤) ط الحديث.

وقت رحمة ربي وعصمته لها، وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنىٰ: لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أمارةً بالسوء وجملة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم».

وقال العلامة السعديُّ في «تفسيره»[1]:

«﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل علىٰ الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ فنجَّاه من نفسه الأمَّارة، حتىٰ صارت نفسه مطمئنة إلىٰ ربها، منقادة لداعي الهدىٰ، متعاصية عن داعي الردىٰ، فذلك ليس من النفس؛ بل من فضل الله ورحمته بعبده».

وقال ابن القيم رحمه الله[2]:

«النفسُ الأمارةُ بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغي واتباع الباطل؛ فهي مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه، وقد أخبر سبحانه أنها أمارةٌ بالسوء؛ ولم يقل: آمرة؛ لكثرة ذلك منها وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها اللهُ وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير؛ فذلك من رحمة الله لا منها، فإنها بذاتها أمارةٌ بالسوء لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا من رحمة الله، والعدلُ والعلمُ طارئٌ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها، فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفسٌ واحدةٌ، فإذا أراد الله سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تزكو به وتصلح: من الإرادات والتصورات، وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم، وسبب الظلم: إما جهل وإما حاجة، وهي في الأصل جاهلة والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمةُ الله وفضلُه، وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة ولا تشبهها ضرورة تقاس بها؛ فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك».

فالحذرَ الحذرَ من هٰذه النفس الأمارة بالسوء والشرور، والجدَّ الجدَّ في تطهيرها وعدم إهمالها؛ فكم من إخواننا وأخواتنا قد وقع في هٰذا المرض، وتمكَّن منهم هٰذا الداء؛

---

(١) (٤٦٢، ٤٦٣).

(٢) «الإغاثة» (ص: ١٠٠).

فأهملوا النفسَ إهمالًا شديدًا، ولم يلتفت كثيرٌ منا إلىٰ تزكية هٰذه النفس الظالمة الجاهلة؛ فالنفس قد تجعل من صاحبها مطيةً إلىٰ كل شر، وإلىٰ كل هلاك؛ فهي تؤزُّه إلىٰ المعصية أزًّا، وتخرجه من طريق الهداية إلىٰ طريق الغواية، ومن طريق الحلال إلىٰ طريق الحرام، ومن السنة إلىٰ البدعة، ومن الخير إلىٰ الشر، ومن الفضيلة إلىٰ الرذيلة، فما أكثر هٰؤلاء الذين تؤزهم النفس أزًّا إلىٰ المعاصي والشهوات، فإنك ترىٰ صاحبَ هٰذه النفس الأمارة لا يشعرُ بلذة ولا براحة ولا بطمأنينة إلا وهو في معصيةٍ، أو إعراضٍ عن الله تعالىٰ، ويتصور أنه سيسعدُ! ولا والله؛ فقد قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]؛ فالنفس الأمارة إن أغفلتها وأهملتها وأعرضت عن تزكيتها؛ قادتك إلىٰ كلِ شرٍّ، وإلىٰ كل هلاك في الدنيا والآخرة؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]؛ فالنفس ألهمت الفجور وألهمت التقوىٰ، وبُيِّن لها الخير والشر؛ لكن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]؛ أي: أهملها، وتركها، وغفل عن تزكيتها، وعن إلجامها بلجام التقوىٰ، وعن إلهابها بسوط الخوف من الله تعالىٰ.

وقال الحافظُ ابن كثير رحمه الله[(١)]:

«يحتمل أن يكون المعنىٰ: قد أفلح من زكَّىٰ نفسه؛ أي: بطاعة الله -كما قال قتادة- وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل.. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس]؛ أي: دسَّسها؛ أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدىٰ، حتىٰ ركب المعاصي وترك طاعة الله -عزَّ وجلَّ-».

وقال العلامةُ السعدي رحمه الله[(٢)]:

«وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾؛ أي: طهر نفسه من الذنوب ونقَّاها من العيوب ورقَّاها بطاعة الله، وعلَّاها بالعلم النافع والعمل الصالح، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: أخفىٰ نفسه الكريمة التي ليست حقيقةً بقمعها وإخفائها بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها،

(١) (١٤/ ٣٦٧).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٩٣).

واستعمال ما يشينها ويدسّيها».

فتجد هٰذه النفسَ الأمارةَ قد تمكنت من هٰذا الصاحب المسكين، وجعلته مطية، وقادته إلىٰ شهواتها ونزواتها ورغباتها؛ فلا تراه إلا عاصيًا لله تعالىٰ؛ لا يتورع عن أكل الحرام، ولا عن الكذب، ولا عن الغيبة، ولا عن النميمة، ولا عن أكل الربا، ولا عن أكل مال اليتيم، ولا عن الوقوع في الزنا، ولا عن شرب الخمر، ولا عن فعل قوم لوط، ولا عن شهادة الزور، ولا عن السرقة، ولا عن أكل المال العام بلا وجلٍ ولا خوفٍ ولا مراقبةٍ لله سبحانه وتعالىٰ، ولا يتورع عن أن يقولَ الفحشَ من الكلامِ، أو أن يُسمعَ الآخرين الألفاظَ النابيةَ البذيئةَ.. وما أكثر هٰذه النماذج، وما أكثر هٰذه الأعمال، فإذا ما فتشت عن السبب في كل هٰذا لعلمت أنه الابتلاء بهٰذا الداء، والوقوع في هٰذا المرض العضال؛ ألا وهو «إهمال النفس وعدم تزكيتها، وعدم البحث عن دوائها»، وما أشقىٰ من تغافل عن دائه، وأعرض عن دوائه، ولم يبحث عن شفائه، وظلَّ في ضنكه وشقائه، ما أكثر هٰؤلاء الأشقياء، أسأل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يتوبَ عليَّ وعليهم، وأن يهديني وإياهم جميعًا، وأن يزكّي نفسي ونفوسهم إلىٰ كل ما يحبه ويرضاه؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه.

إن التزكيةَ غايةٌ من غايات النبوة، وهدفٌ كبيرٌ من أهداف البعثة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام؛ قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

قال ابن القيم رحمه الله (١):

«الناسُ على قسمين: قسم: ظفرت به نفسُهُ فملكته وأهلكته، وصار طوعًا لها تحت أوامرها، وقسم: ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعًا لهم منقادة لأوامرهم.

.. فمن ظفر بنفسه أفلحَ وأنجحَ، ومَن ظَفرت به نفسُهُ؛ خسر وهلك؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

(١) «الإغاثة» (ص: ٩٨).

﴿ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

فالنفسُ تدعو إلى: الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبدَهُ إلى خوفه ونَهْي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين يميلُ إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء». اهـ

قال الإمام الطبريُّ رحمه الله (١):

«يقول تعالى ذكره: فأما من عتا على ربه، وعصاه واستكبر عن عبادته، وآثر متاع الحياة الدنيا على كرامة الآخرة، وما أعد الله فيها لأوليائه، فعمل للدنيا، وسعى لها، وترك العمل للآخرة، ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ يقول: فإن نار الله التي اسمها الجحيم، هي منزله ومأواه، ومصيره الذي يصير إليه يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠﴾، يقول: وأما مَن خاف مسألةَ الله إياه عند وقوفه يوم القيامة بين يديه، فاتقاه، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠﴾، يقول: ونهى نفسه عن هواها فيما يكرهه الله، ولا يرضاه منها، فزجرها عن ذلك، وخالف هواها إلى ما أمره به ربه، ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، يقول: فإن الجنةَ هي مأواه ومنزله يوم القيامة». اهـ

فلا بد من تزكية النفس وتطهيرها ونهيها عن الهوى؛ فقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠﴾؛ أي: عما تهواه النفسُ من شهواتٍ ونزواتٍ ورغباتٍ؛ لأنك لو تركت نفسَكَ لنفسك الأمارةَ لأهلكتك، ولقادتك إلىٰ كل محرم، ولأوقعتك في كل معصية، ولأغرقتك في بحور الشهوات، ولأسقطتك في شِباك الشبهات؛ فالنفس جاهلةٌ ظالمةٌ غشومٌ، إن لم تزكْ أهلكتْ صاحبها؛ لذا فإن هٰذا المرض المستشري والمنتشر، يحتاج منَّا إلىٰ وقفةِ محاسبة، ويحتاج منَّا إلىٰ جرعات دواء، وإذا حرصت علىٰ تناول هٰذه الجرعات بانتظام، وأكرهت نفسك علىٰ أخذها، وأرغمت نفسك على التداوي بها؛ انتقلت بإذن ربها تبارك وتعالىٰ من الفجور إلىٰ التقوىٰ، ومن الغواية إلىٰ الهداية، ومن الضلال إلىٰ الهدىٰ، ومن الشر إلىٰ الخير، ومن البدعة إلىٰ السنة، ومن الحرام إلىٰ الحلال.

نعم.. هٰذا المرضُ يحتاجُ إلىٰ وقفة جادة، وإلا فوالله ثُم والله قد يفاجأُ الواحدُ منا

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ٨٤٦٦).

بأنه انتقل من معسكر الأحياء إلىٰ معسكر الأموات بلا مقدمات وبلا أسباب؛ فقد ينام الواحدُ منا النومة وتوقظه زوجتُهُ في الصباح فلا يستيقظُ! وكان لقمانُ الحكيم يقول لولده: «يا بُني: إنك استدبرت الدنيا منذ يوم نزلتها، واستقبلت الآخرة، فأنت إلىٰ دار تقرب منها أقرب منك إلىٰ دار تباعد عنها»[(١)].

ألا وهي الدار الدنيا؛ لأنه ما من يوم يمر عليك في دنياك إلا وهو يقربُك من الدار الآخرة يومًا، ويبعدك عن الدار الدنيا التي تعيشُ فيها يومًا.

وكان توبة بن الصمة ـ رحمه الله تعالى ـ[(٢)] شديد المحاسبة لنفسه؛ **فقد روى ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس»، ومن طريقه البيهقيُّ في «الشعب»**[(٣)]:

عن رجل من ولد طلحة بن عبيد الله قال: كان توبة بن الصمة بالرقة وكان محاسبًا لنفسه فحسب، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامه؛ فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم؛ فصرخ وقال: «يا ويلتي ألقى المليك بأحد وعشرين ألف ذنب كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟»، ثم خرَّ مغشيًّا عليه فإذا هو مَيِّتٌ، فسمعوا قائلًا يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى.

هل استوعبت هذا المعنى الجميلَ؟

فلقد عدَّ أيامه وتصوَّر لو أنه ارتكب في كل يوم واحدٍ ذنبًا واحدًا فقط، يا ترى كم عدد الذنوب؟ وكم عدد المعاصي التي سيلقى بها علامَ الغيوب؟ تأمل كيف كان هؤلاء الأفاضلُ يتعاملون مع أيامهم الخالية، وسنينهم المنصرفة الماضية؟ فهذه هي الخُطوة العملية الأولى على الطريق لتزكية هذه النفس حتىٰ ترتقي النفسُ بالمحاسبة وبالتزكية من النفس الأمارة إلىٰ النفس اللوامة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مقرِّرًا[(٤)]: «وقد ذكر طائفةٌ من الناس أن النفس

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٧٣)، وابن المبارك في «الزهد»، (١٠٦٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»، (٦/ ٣٢٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٣)، وانظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٠٩).

(٢) قال ابن حبان في «الثقات» (٨/ ١٥٦): «توبة بن الصمة من عباد أهل الرقة وزهادهم».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحاسبة» (٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٤٤)، والخطيب في «الزهد والرقائق» (٧٠) بإسنادٍ فيه راوٍ مبهم.

(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ١٤٣).

لها ثلاثة أحوال: تكون أمارةً بالسوء، ثم تكون لوامةً؛ أي: تفعل الذنب ثم تلوم عليه، أو تتلوم؛ فتتردد بين الذنب والتوبة، ثم تصير مطمئنةً».

وقال تلميذه العلامةُ ابن القيم رحمه الله[1]:

«والنفس قد تكون أمارةً، وتارة لوامةً، وتارة مطمئنةً، بل في اليوم الواحد، والساعة الواحدة، يحصل منها هذا وهذا. والحكم الغالب عليها من أحوالها؛ فكونها مطمئنةً وصف مدح لها، وكونها أمارةً بالسوء وصفُ ذمٍّ لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه».

وقال[2]: «وقد وصف اللهُ سبحانه النفسَ في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة».

وقد سبق الحديثُ عن النفس الأمارة، أما النفسُ اللوامةُ؛ فهي نفسٌ أبيةٌ كريمةٌ زكيةٌ، أقسم الله عز وجل بها في قرآنه، وما أقسم اللهُ بها إلا لكرامتها؛ فقال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢].

قال ميمون بن مهران رحمه الله[3]:

«لا يكون العبد تقيًّا حتى يحاسب نفسه محاسبة الشريك الشحيح».

وقال الحسنُ البصريُّ رحمه الله:

«إن المؤمن قوَّامٌ على نفسه، يحاسبُ نفسه لله - عزَّ وجلَّ - وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحسابُ يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة»[4].

فالمؤمنُ لا تراه دائمًا إلا وهو يلوم نفسه، ويتهم نفسه دائمًا، فالنفس اللوامة نفسٌ كريمةٌ؛ وهي التي تلومك على فعل الخير والشر؛ تلومك على فعل الخير لماذا لم تكثر

(١) «الإغاثة» (ص: ١٠١) ط ابن رجب.
(٢) «الإغاثة» (ص: ٩٨).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٢٧١) ط الرشد، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٨٩)، وانظر: «ضعيف الترمذي» (٤٣٦)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٣١٧)، و«كنز العمال» (٨٥٠١).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٠٩)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٧)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣١/ ٥٣١).

منه؟ لماذا أنفقت في سبيل الله جنيهًا؟ لماذا لا يكون عشرة جنيهات؟ لماذا أنفقت في سبيل الله ألف جنيهٍ ولم تنفق ألفين؟ كيف تصلي ركعتين، ولم تصلِّ أربع أو ثمان ركعات؟ لماذا لم تصلِّ التراويح كاملة مع الإمام؟ لماذا لم تقرأ جزءًا كاملًا من كتاب الله - عزَّ وجلَّ - اليوم؟ لماذا لم تطعم أسرةً كاملةً معك في كل يوم من رمضان؟ لماذا تكلمتَ اليومَ بهٰذه الكلمة وهي غيبة؟ لماذا نقلت هٰذه الكلمةَ وهي نميمة؟ لماذا ذكرتَ فلانًا اليومَ بسوء وأنت تعلم أنه مظلوم؟ لماذا تتبع عورات المسلمين وعورات المسلمات؟!

وقد روىٰ ابن أبي شيبة في «المصنف»، وأحمد في «الزهد»، وابن أبي الدنيا في «المحاسبة»[(١)] من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لَا تخفى منكم خافيةٌ».

وروىٰ ابن أبي الدنيا في «المحاسبة»[(٢)]: عن الحسن في قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: «لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردتُ بأكلتي؟ ماذا أردتُ بشربتي؟ والعاجز يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه».

وروىٰ كذلك[(٣)] عن مالك بن دينار ﷺ قال: «رحم الله عبدًا قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمَّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله؛ فكان لها قائدًا».

ويعلق الإمامُ ابن القيم ﷺ تعليقًا نافعًا في «الإغاثة» حيث قال[(٤)]:

«وقد مثلت النفسُ مع صاحبها: بالشريك في المال، فكما أنه لا يتم مقصودُ الشركة

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في «السنن» (٤/ ٦٣٨) تعليقًا، بصيغة التمريض، ووصله أحمد في «الزهد» (ص: ١٤٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ١٤٩)، وابن أبي الدنيا في «المحاسبة» (رقم: ٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (٤٠)، والآجري في «أدب النفوس» (١٧) بإسنادٍ منقطعٍ عن عمر ﷺ؛ كما نصَّ على ذلك غير واحد، وانظر: «الضعيفة» (١٢٠١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا (رقم: ٤).

(٣) في «المحاسبة» (رقم: ٨)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (رقم: ٣٧)، وابن عساكر (٢٦/ ٤٢٠).

(٤) «الإغاثة» (ص: ١٠٥، ١٠٦).

من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريكُ - أولًا - ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه، ومراقبته - ثانيًا - ثم بمحاسبته - ثالثًا - ثم يمنعه من الخيانة إن اطلع عليه - رابعًا.

فكذلك النفس: يشارطها أولًا على حفظ الجوارح السبعة، التي حفظها هو: رأس المال، والربح بعد ذلك، فمن ليس له رأس مال، فكيف يطمعُ في الربح؟! وهذه الجوارح السبعة وهي: العين، والأذن، والفم، والفرج، واليد، والرجل هي مراكب العطب والنجاة، فمنها عطب مَنْ عَطَب بإهمالها وعدم حفظها، ونَجَا من نَجَا بحفظها ومراعاتها؛ فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر؛ قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾[النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] وقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨]؛ فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح؛ انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تذهب رأس المال كله، فمتى أحس بالنقصان انتقل إلى المحاسبة فحينئذٍ يتبين له حقيقةُ الربح والخسران، فإذا أحس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريكُ من شريكه: من الرجوع عليه بما مضى والقيام بالحفظ والمراقبة في مراقبته ومحاسبته وليحذر من إهماله.

ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلَّما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا إذا صار الحسابُ إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحسابُ غدًا.

ويعينه عليها أيضًا: معرفته أن ربح هذه التجارة سُكْنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحسابُ اليوم، فحَقٌّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه؛ والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكلُّ نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، لا حظَّ لها، يمكن أن يُشترى بها كنزٌ من الكنوز لا يتناهى

نعيمُهُ أبد الآباد؛ فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكهُ: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[آل عمران: ٣٠]».

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده:

قال ابن القيم رحمه الله [(١)]:

فأما النوع الأول:

فهو أن يقفَ عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه؛ قال الحسن رحمه الله: «رحم اللهُ عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر» [(٢)]، وشرح هذا بعضهم؛ فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهمَّ به العبدُ وقف أولًا ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا وقف وقفة أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفةً ثالثةً ونظر: هل الباعثُ عليه إرادةُ وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق، فإن كان الثاني لم يقدم عليه وإن أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقلُ عليها العملُ لله تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر: هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبيُّ ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكةٌ وأنصارٌ، وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال؛ وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاحُ.

فهذه أربعة مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل؛ فما كل ما يريدُ العبد

---

(١) «الإغاثة» (ص: ١٠٦، ١٠٧).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٢٧٩).

فعله يكون مقدورًا له، ولا كل ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفعله لله يكون معانًا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدمُ عليه وما يحجمُ عنه.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور - تقدمت - وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كلِّه.

فيحاسب نفسه: هل وفَّى هذه المقامات حقها وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تَرْكه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا؟ أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربحَ ويفوته الظفرُ به».

وهكذا يظل المؤمنُ بفضل الله - عزَّ وجلَّ - مع هٰذه النفسِ اللوامةِ التي تلومه دومًا مع كل نظرة، ومع كل فعلة، ومع كل سكنة، ومع كل دخول، ومع كل خروج، ومع كل عمل.. قبل العمل تلومه، وبعد العمل تلومه، حتىٰ يرتقي العبدُ المؤمن إلىٰ مرتبة النفس المطمئنة التي قال الله فيها: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

قال ابن القيم رحمه الله [(١)]:

«وحقيقة الطمأنينة: السكونُ والاستقرارُ؛ فهي التي قد سَكَنَتْ إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائهِ ووعدهِ، واطمأنت إلى التصديقِ بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضا به ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ رسولًا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبه وضمانه، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلٰـهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كلِّه، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها

(١) «الإغاثة» (ص: ٩٩، ١٠٠).

عنه طرفة عين».

حقًّا إنها نفسٌ كريمةٌ لا تشعرُ بالسعادة، ولا بالراحة، ولا بالرضا، ولا بالفرح، ولا بالسرور، ولا بالأنس، إلا مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفي طاعته والأنس به؛ إنها النفس المطمئنة إلىٰ ذكر الله، الساكنة إلىٰ حبه، التي قرَّت عينها بالله؛ إنها النفسُ المطمئنةُ التي تشعرُ بالوحشة إذا كانت بعيدة عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصاحب هٰذه النفس إن خلا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ يشعر بلذةٍ وسعادةٍ لو علم بها الملوكُ لجالدوا أهل الفضل عليها بالسيوف؛ إنها نفسٌ مطمئنةٌ خرجت من سجن الهوىٰ إلىٰ ساحة الهدىٰ، ومن ضيق الجهل إلىٰ فضاء العلم، ومن نجاسة النفس إلىٰ طهارة القدس.

شتَّانَ شتَّانَ بين رجلٍ إن خلا بكت عينُهُ، ورق قلبُهُ، وارتجف جسدُهُ؛ خشيةً لله، وإجلالًا له ـ عزَّ وجلَّ ـ، وبين رجلٍ إذا خلا غلَّقَ الأبوابَ والنوافذَ، وأرخىٰ الستائر، وبحث عن المعصية في موقع من مواقع الإنترنت، أو علىٰ شبكة، أو علىٰ قناة فضائية، يبارز ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ بالمعصية؛ فما أقسىٰ قلبه!! وما أجرأه علىٰ ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ!! فتذكَّرْ ربَّكَ المُطَّلع عليك، الذي يعلمُ السرَّ وأخفى.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أن ما تخفي عليه يغيبُ[1]

فماذا تقول لربك غدًا بين يديه سبحانه وتعالىٰ؟!

يا نفس قد أزف الرحيلُ ... وأظلك الخطبُ الجليلُ

فتأهبي يا نفسُ لا ... يلعب بك الأملُ الطويلُ

فلتنزلنَّ بمنزلٍ ... ينسىٰ الخليلَ به الخليلُ

وليركبنَّ عليكَ فيـ ... ـه من الثرىٰ ثقلٌ ثقيلُ

قرن الفناء بنا جميعًا ... فما يبقىٰ العزيزُ ولا الذليلُ

تأمل في خلوتك هل أنت جريء علىٰ الله تبارك وتعالىٰ تبارزه بالمعصية، أم أنك إذا

---

(١) الأبيات للإمام أحمد رحمه الله، راجع: «تفسير ابن كثير» (لسورة الحديد: ٤).

خلوتَ بربك تبارك وتعالىٰ بكت عينُكَ، وخشع قلبُكَ، ورقت جوارحك، واقشعر بدنُك؛ إجلالًا لربك وخوفًا منه وحبًّا له سبحانه وتعالىٰ؟ قال ابن مسعود ﷺ: «اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجد قلبك في هٰذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب؛ فإنه لا قلب لك»[1].

أين قلبك يا من تتجرأ علىٰ الله ﷻ في الخلوة؟ فلا بد أن تقفَ اليوم مع نفسك وقفة للمحاسبة، قبل أن تقف بين يدي الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

فأمر الله سبحانه وتعالىٰ العبدَ المؤمنَ أن ينظر ما قدم لغد، ماذا قدم ليومٍ سيقفُ فيه بين يدي الله عاريًا من كلِّ جاه! ومن كلِّ منصب! بل ومن كلِّ ثياب! للسؤال عن القليل والكثير، والصغير والكبير؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧:٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛ فماذا قدمت ليوم ستُعرضُ فيه علىٰ الله تعالىٰ؟ لينظر كلُّ عبد مؤمن إلىٰ ما قدمه لغد؟ وذلك يتضمن محاسبة نفسه علىٰ ذلك، والنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله – عزَّ وجلَّ – به أَوْ لَا يصلح؟ سَلْ نفسك الآن، وسلي نفسك الآن ـ أيتها المسلمةُ ـ وأنا أسألُ نفسي قبلكم؛ فأسأل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يرزقني وإياكم الإخلاص في القول والعمل، والسر والعلن، وأن ينفعنا بما نقولُ وبما نسمعُ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

انظر هل يصلح ما قدَّمت إلىٰ هٰذه اللحظة أن تلقى به ربك؟ ماذا لو أتاك الليلة ملكُ الموت؟ وكلُّنا من الجائز جدًّا أن يأتيه الليلة ملكُ الموت؛ بل الآن؛ بل أنت تخرج النَّفَسَ ولا تضمن أن تسترده مرة أخرىٰ، وتُدخل النَّفَسَ ولا تضمن أن تخرجه ثانية! والله لا يضمن ذلك أحدٌ علىٰ وجه الأرض؛ فإن الأنفاس محسوبةٌ، والساعات والأيام معدودةٌ، والأيام تمر، والشهور تجري وراءها، تسحب معها السنين، وتجر خلفها الأعمارَ، وتطوىٰ حياةَ جيل بعد جيل، وبعدها سيقف الجميعُ ـ حتمًا ـ بين يدي الملك الجليل، للسؤال عن القليل والكثير، والصغير والكبير.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ١٥٦).

آهٍ من ذل الوقوف بين يديه - جلَّ وعلا - قال تعالىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١٠٥- ١١١]؛ فهل يصلح ما قدمت إلىٰ الآن أن تقْدُمَ به علىٰ سيدك ومولاك؟ سؤال أكرره وأرجو أن نردده علىٰ أنفسنا في بيوتنا ودُورِنا وطرقنا وأسفارنا وعلىٰ مضاجعنا ووقت طعامنا وشرابنا؛ وبإسناد منقطع عن عمر ﷺ [1]: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ يَوْمَ لا تَخْفَى مِنْكُم خَافِيَة، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا».

وبدايةُ المحاسبة: أن تقايس بين نعمة الله - عزَّ وجلَّ - عليك وبين جنايتك وتقصيرك، وجرأتك عليه في الليل والنهار.. كلُّنا يتجرأُ علىٰ الله في خلواته - إلا من رحم ربي - ينظر العبدُ هل غابت عنه أعينُ الناس ليبارز من يعلم السر وأخفىٰ بالمعصية؟ وهو يعلم أنه يعصي ربه وهو مطلع عليه!!

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧]، كم من مرة أَرخيت الستائرَ، وغَلَّقت النوافذَ والأبوابَ؛ لتختفي عن أعين البشر، ممن لا يملكون لك ضرًّا ولا نفعًا؛ لتبارزَ ربَّ البشر بالمعصية، وأنت تعلمُ أنك تعصيه؟!! كم من مرة سترك علىٰ معصيته، ولا تترددُ بعد ذلك، ولا تستحيي أن تبارزه مرة أخرىٰ بالمعصية ويستر؟!! فقايس بين نعم الله عليك وبين جنايتك وتقصيرك في حقه وجرأتك على حدوده. هذه أول خُطوة على طريق المحاسبة، وهذه هي المقايسة الأولى في منزلة المحاسبة: المقايسة بين نعم الله علينا التي لا تعدُّ ولا تُحصىٰ. وأشرفُ نعم الله علينا هي نعمة الإيمان بالرحيم الرحمن ونعمة الإيمان بمحمد ﷺ.

وممـــا زادني فخـــرًا وتيـــهًا وكـــدتُ بأخمـــصي أطـأ الثريـــا

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

دخـولي تحـت قولـك يـا عبـادي وأن أرْسَـلْتَ أحمـدَ لي نبيًّـا(١)

فإنك إن قايست بين نعم الله عليك وبين جنايتك وتقصيرك وجرأتك عليه سبحانه وتعالىٰ؛ فحينئذٍ سيظهر لك التفاوتُ، وستعلمُ يقينًا أنه ليس إلا عفوه وستره؛ أو الهلاك والعطب والخسران والخذلان في الدنيا والآخرة!! لو عرض أيُّ إنسان منا عمله علىٰ نعم الله تبارك وتعالىٰ، وقايسنا، ووقف كلٌّ واحدٍ منا علىٰ حجم جنايته، وعلىٰ حجم تقصيره، ومع ذلك يرىٰ ربه يستره، سيعلمُ حينئذٍ أن ما فيه من فضل، ونعمة، وخير، وعلم، وعبادة، وصحة، وعافية، وزوجة، وولد... إلىٰ آخره، إنما هو محض فضل الله عليه، وستره، وكرمه، وعفوه، ولولا ذلك لفضحنا في الدنيا، ولهلكنا في الآخرة!!

قال أحدُ السلف: «يا رب! لا أدري علىٰ أي النعمتين أشكرك: علىٰ ستر جميل - لست أهلًا له - سترتني به، أو علىٰ ثناء جميل - لست أهلًا له - نشرته لي بين الناس».. ترىٰ الناس يتحدثون عنك؛ بل ويثنون عليك، وأنت تعلمُ من نفسك أنه محضُ ستر الله عليك؛ فلو كشف اللهُ ستره عنك لحظة لافتضحت - وربِّ الكعبة - فلا تغتر بعملٍ، ولا بعلمٍ، ولا بدعوةٍ، ولا بعبادةٍ، والله لا نملك إلا ستره، وعفوه، وفضله، وكرمه، وجوده ورحمته.. بهٰذه المقايسة بين نعم الله علينا وجنايتنا وتقصيرنا في حق ربنا علينا؛ سيتبينُ لنا حتمًا أن الربَّ ربٌّ، وأن العبدَ عبدٌ.

وبهٰذه المقايسة أيضًا ستقفُ حتمًا علىٰ حقيقة النفس، وصفاتها، وعيوبها، وستقف أيضًا علىٰ عظمة الله ﷻ، وتفرد الرب سبحانه، بالكمال، والإنعام، والإحسان، والإفضال، والإكرام، وستعلم أن كل نعمة منه سبحانه فَضْلٌ، وأن كل نقمة منه سبحانه عَدْلٌ، فلا ينزل البلاءُ إلا بذنب، ولا يرفع البلاءُ إلا بتوبة.

وأنت قبل هٰذه المقايسة والمحاسبة جاهل تمامًا بنفسك: بحقيقتها، وعيوبها، وتقصيرها؛ فإن قايست ونظرت إلىٰ فضل الله ونعمه عليك، ووقفت علىٰ قدر جنايتك، وجرأتك، وتقصيرك في حقه سبحانه وتعالىٰ؛ حينئذٍ سيظهر لك أن نفسك منبعُ كل شر، وأساسُ كل نقص، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته هٰذه النفس ما زكت أبدًا؛

---

(١) هذه الأبيات للقاضي عياض؛ انظر: «غذاء الألباب» للسفاريني (٤/ ٥٨).

قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[النجم:٣٢]، ولولا هُداه تعالىٰ ما اهتدت هٰذه النفسُ، ولولا إرشاده وتوفيقه ما وصلت النفسُ الجاهلةُ الظالمةُ إلىٰ خيرٍ البتة[(١)].

فنفسي جاهلة ظالمة ناقصة لا تهتدي أبدًا إلىٰ خير إلَّا إذا هداها اللهُ، ولا تُوَفَّق أبدًا إلىٰ فضلٍ إلَّا إذا وفقها اللهُ، ولا ترشد أبدًا إلىٰ نعمة وصلاح إلا إذا أرشدها اللهُ، وهٰذا هو المراد بقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»؛ فالنفس كما أنه ليس لها من ذاتها وجود، يعني: لم توجد النفسُ نفسها، فهي مخلوقة بأمر الله تعالىٰ، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود؛ بل ليس لها من ذاتها إلا العدمُ - عدم الذات وعدم الكمال أيضًا - فهناك إن وقفت علىٰ هٰذه الحقائق مع أول خطوة للمقايسة في منزلة المحاسبة، ستعرف ربك بالكمال التام؛ وستعرف نفسك بالنقص التام، والجهل التام، والفقر التام، فمن عرف ربه بالغِنَىٰ المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق؛ حينها تقول النفسُ حقًّا: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي»[(٢)].

أما حُسْن الظنِّ بالنفس؛ فإنه يمنعُ من كمال التفتيش، ويلبس علىٰ العبد، فيرىٰ المساوئ محاسن، والعيوب كمالًا!!

ولا يسيء الظنَّ بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه؛ فهو من أجهل الناس بنفسه[(٣)]؛ فهٰذا الذي يرىٰ نفسَه، ويعجب بها، ويمتلئُ غرورًا؛ فإنَّ نور الخير بعيدٌ عنه، فلا يرزق - مثلًا - بنور العلم.

قال الشاطبيُّ ﵀ في كتابه «الموافقات»: «وأنفع الطرق لتحصيل العلم طريقان: الأول: المشافهة، وهو أن يجلس طالبُ العلم بين يدي شيخه ومعلمه، (فإن الله تعالىٰ يفتح علىٰ طالب العلم بين يدي شيخه ومعلمه بما لا يفتحُ به عليه دونه.. لا تتكبر ولا تعكف في مكتبتك بدعوىٰ أنك قد ارتقيت إلىٰ مرتبة أصبحت فيها أعلىٰ من مستوىٰ الجلوس بين أيدي العلماء المتحققين بالعلم الشرعي.. ومن كان شيخه كتابه غلب

---

(١) «المدارج» (١/ ١٩٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦)؛ وهو جزءٌ من حديث سيد الاستغفار.

(٣) «المدارج» (١/ ١٦٩).

خطؤُه صوابه) الطريق الثاني ـ والكلام للشاطبي ـ: مطالعة كتب المصنفين من أهل العلم المتحققين بالعلم الشرعي بشرطين:

الأول: أن يكون فاهمًا لمصطلحات أهل العلم.

والثاني: أن يبدأ بالمتقدمين من أهل العلم؛ فهم أعرف وأقصد بالعلم من غيرهم». ولم لا؟ وقد زكىٰ الرسولُ ﷺ القرون الثلاثة الأولىٰ؛ فقال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١)؛ فلابد من نور العلم قبل أن تتكلم، ولا بد أن تتعلمَ قبل أن تعمل؛ لقد ترجم البخاريُّ في «صحيحه»(٢) في كتاب العلم بابًا بعنوان: باب العلم قبل القول والعمل، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ويأتي بعد ذلك الأمر بالعمل؛ فيقول سبحانه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

قال الحافظ ابن حجر(٣):

قال ابن المنير: «فبدأ بالعلم قبل القول والعمل؛ لأن العلمَ هو المصحح للنية التي يصحُّ بها كلُّ قول وكلُّ عمل».

وفي «صحيح» البخاري ومسلم من حديث معاوية رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(٤)؛ فمهما كان عمُلك ـ إن كنت طبيبًا أو مهندسًا أو أستاذًا جامعيًّا أو موظفًا ـ لا عذر لك بين يدي الله إن لم تجعل من وقتك وقتًا لتتعلم فيه عن الله ورسوله ﷺ؛ فأنت تقضي الأسبوع كله في عمل للدنيا لا تتأخرُ عن وظيفتك، ولا تتأخرُ عن عيادتك، ولا عن مصنعك، ومتجرك، ولا تتأخرُ عن مدرستك؛ هكذا تقضي الأسبوع كله للدنيا!! فاجعل يومًا من أيام الأسبوع – لا أقول يومًا كاملًا – بل اجعل ساعتين في الأسبوع لتجلس في مجلس علم لتسمع عن الله

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشهادات، باب لا يشهد علىٰ شهادة الزور إذا أشهد(٢٦٥٢)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب (٥٢) (٢٥٣٣).

(٢) «الفتح» (١/ ١٩٢)، (باب: ١٠).

(٣) «الفتح» (١/ ١٩٣) بتصرفٍ.

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب (١٣) (٧١)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة (١٠٣٧).

ورسوله ﷺ ؛ فورب الكعبة لا عذر لك بين يدي الله إن ضيعت ذلك؛ لأن الذي فرض عليك الصلاة هو الذي فرض عليك طلب العلم؛ قال النبي ﷺ : «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[١] . فلقد فُرِضَ عليك أن تتعلم كيف تعبدُ الله؟ وفُرِضَ عليكَ أن تتعلم الولاء والبراء، وفُرِضَ عليك أن تتعلم حقيقة التوحيد، وفرض عليك أن تتعلم كيف تصلي؟ وكيف تتطهرُ؟ و كيف تزكي إن كنت صاحب مال؟ وكيف تحج إن كنت صاحب قدرة علىٰ الحج واستطاعة؟ هٰذه فروض أعيان، وليست فروض كفاية (ومعنىٰ فروض الأعيان؛ أي: يجب علىٰ كل مسلم بعينه وكذلك كل مسلمة، إذ إن المسلمة تندرجُ تحت الحديث باتفاق، ما لم يأت دليل خاص يخص الرجل أو يخص النساء).

إذًا؛ نور الحكمة هو العلم.

أخي الحبيب: لن تستطيعَ أن تميز بين الحلال والحرام، وبين السنة والبدعة، وبين المحكم والمتشابه، وبين سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، إلا بالعلم، ولن تستطيعَ أن تبصرَ الأعمال، وتقف علىٰ الراجح منها والمرجوح، وعلىٰ المردود منها والمقبول إلا بالعلم، وكلما كان حظُّك بالعلم أقوىٰ كان نورُ العلم في قلبك وصدرك أعلىٰ، وكان تفريقُك للحق والباطل، والخير والشر، والسنة والبدعة أشد، وكان وقوفُك علىٰ حجم الحسنات والسيئات أتم. وأنا قلتُ: إن المقايسة بالحسنات والسيئات تشق علىٰ الناس.. تشقُّ علىٰ من ليس له نور الحكمة، وعلىٰ من لم يبصر عيوب نفسه، وعلىٰ من لم يتهم نفسه، سيشق عليه أن يقف علىٰ حجم الحسنات والسيئات؛ فسوءُ الظن بالنفس يحتاجُ إليه أيُّ عبدٍ، وليس هناك مخلوقٌ علىٰ وجه الأرض إلا وهو يحتاج يقينًا أن يسيء الظن بنفسه، ففتش في نفسك لماذا أنت مغرور؟ ولماذا أنت معجب بنفسك؟! ولماذا أنت

---

(١) أخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث علىٰ طلب العلم(٢٢٤)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٢٨٢٩/ ٢٨٩٦) من حديث أنس ﷺ ، وله شواهد كثيرة حَسَّنه بها المزيُّ، وصححه غيره؛ كالألباني في «صحيح الجامع» (٣٩١٣) وذهب الإمام أحمد والبيهقي إلىٰ تضعيفه؛ كما قال العراقي في «تخريج الإحياء». راجع: «المنتخب من علل الخلال» (٦١، ٦٢)، و«الشعب» للبيهقي (١٦٦٣)، و«بيان الوهم والإيهام» لابن القطان (٥/ ١٢٤)، و«الفوائد الموضوعة» للكرمي (٧٨)، و«الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٢١٥)، و«تذكرة الموضوعات» للفتني (١٧).

مخدوع بعلمك وعملك؟! فلابد من سوء الظن بالنفس؛ لأن حُسن الظن بها سيمنعك من أن تفتش عن عيوبها، فإنك إن شعرت بكمال نفسك فلن تفتش عن عيوبها!! فلابد لكلِّ أحد مهما علا كعبُهُ، واغتر بعلمه وعمله، أن يتهم نَفسَه، وأن يسيء الظَّنَّ بها، ليفتش عن عيوبها، وعن نقائصها، وعن رذائلها؛ فإن النفس = ورب الكعبة = كلها عيوب، وكلها نقائص، وكلها عورات، وكلها رذائل، ولولا سترُ الله لافتضح أمرُهَا، وبان شأنُهَا؛ حينئذٍ إذا اتهم العبدُ نفسَه سيقف علىٰ حسناتها وعيوبها، أما إذا لم يتهم هٰذه النفسَ؛ فسيرىٰ المساوئَ محاسنَ، والعيوبَ كمالًا.

فعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٍ كما أن عين السخط تبدي المساويا[١]

فلا يسيء الظَّنَّ بنفسه إلا من عرف نفسه بالنقص، والعيب، والرذائل، والعورات، والمساوئ، ومن أحسن الظن بنفسه؛ فهو من أجهل الخلق.

وإن أعرفَ الخلق بربه هو المصطفىٰ ﷺ، ومع ذلك: روىٰ البخاريُّ[٢] أنه لما مات عثمانُ بن مظعون = وهو ممن شهد بدرًا، وأول من لقب بالسلف الصالح[٣] = بكت امرأةٌ من الأنصار يقال لها أم العلاء، وقالت: رحمة الله عليك أبا السائب = تقصد عثمان بن مظعون = ثم قالت: شَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ! فَمَاذَا قَالَ الصَّادقُ الَّذِي لَا يَنْطقُ عَنِ الهَوَى؟ قال لأم العلاء: «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟» قَالَتْ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللهُ؟ - أي: إن لم يكرم عثمان بن مظعون؟ قَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَالله إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَالله مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ الله مَا يُفْعَلُ بِي» قَالَتْ: فَوَالله لاَ أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أبدًا.

وهٰذه الصديقة بنت الصديق عائشة ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ الحصان الرزان المبرأة من الله، حبيبة رسول الله ﷺ؛ يأتيها سائلٌ - وفي سند الرواية ضعف[٤] -

---

(١) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر؛ كما في «الأغاني» للأصفهاني (١٢/ ٢٥٠)، و«لباب الآداب» للثعالبي (١٦٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب الدخول علىٰ الميت بعد الموت(١٢٤٣) وانظر أطرافه هناك.

(٣) راجع ترجمته في «السير» للذهبي (١/ ١٥٣ـ١٦٠)، و«الحلية» لأبي نعيم (١/ ١٠٢ـ١٠٦).

(٤) أخرجه الطيالسي (١٥٩٢)، والحاكم (٢/ ٤٢٦)، وصححه، وتعقبه الذهبي بضعف الصلت، =

فيقول يا أم المؤمنين: أرأيت قول الله جل ذكره ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر: ٣٢] الآية؛ فقالت عائشة: «يَا بُنَيَّ كُلُّ هَؤُلاءِ فِي الجَنَّةِ؛ فَأَمَّا السَّابِقُ إِلَى الْخَيْرَاتِ فَمَنْ مَضَى عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِالْحَيَاةِ وَالرِّزْقِ، وَأَمَّا الْمُقْتَصِدُ فَمَنْ تَبِعَ أَثَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى لَحِقَ بِهِ، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ فَمِثْلِي وَمِثْلُكُمْ». قَالَ: فَجَعَلَتْ نَفْسَهَا مَعَنَا.

ونحن من أظلم الناس، ومن أظلم الخلق لأنفسنا.

- **قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ**(١):

«**المقايسة الثانية**: بين الحسنات والسيئات تتطلبُ نورَ الحكمة وسوءَ الظن بالنفس، وكذلك تتطلبُ التميزَ بين النعمة من الفتنة».

أي: بين النعمة التي هي نعمة، وبين النعمة التي هي فتنة. وهنا خيط دقيق جدًّا؛ وهو: إذا مَنَّ الله عليك بنعمةٍ كنعمة العلم؛ فكيف تعرفُ أن هذه النعمة نعمةٌ وليست فتنةً؟ والجواب: إن ورَّثك هذا العلمُ خشيةَ الله، وقربك من الله، فهو نعمة، وإن ورثك هذا العلمُ العجبَ، والغرورَ، والتكبرَ على الخلق، والجرأةَ على المعصية، واستغلالَ العلم، واستغلالَ المكانة العلمية في ظلم العباد، أو أكل أموال العباد بالباطل، أو انتهاك أعراضهم، وحرماتهم، فاعلم أن هذا العلمَ إنما هو فتنة مِنَ الله عليك.!!

فالتمييزُ بين النعمة والفتنة: أنَّ النعمةَ الحقيقيةَ هي التي تقربك من الله، وتُعان بها على تحصيل السعادة في الدنيا والآخرة، أما النعمةُ التي هي من جنس الفتنة؛ فهي استدراج من الله؛ فكم من مستَدرج بنعم الله عليه وهو لا يدري! وكم من مفتونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يدري!! وكم من مغرور بشكر الناس له وهو لا يدري! وكم من

=
والطبراني في «الأوسط» (٦٠٩٠) وقال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن عقبة بن صهبان إلا أبو شعيب الصلت بن دينار، تفرد به معمر»، وعزاه في «الدر المنثور» إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه؛ قال الهيثمي في «المجمع»(٧/ ٢١٦): «رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه الصلت بن دينار، وهو متروك»، وضعفه البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٦/ ٨٦).

(١) «المدارج» (١/ ١٩٠، ١٩١) بتصرف.

مغرور بستر الله وهو لا يدري!! كم من الناس قد خُدع! يرىٰ النعم تتوالى، ويرىٰ الناس يثنون عليه، ويرىٰ ربه - تعالىٰ - يقضي له حوائجه، فيتوهم أنها علامة رضًا! والأمر ليس كذلك؛ فإن الضابط لذلك: أنه إن قَرَّبتْك النعمةُ من الله وجمعت قلبك عليه؛ وزادتك طاعة علىٰ طاعة؛ فهي علامة رضًا، وإن أبعدتك النعمةُ عن الله، وفرَّقت جمعك، وشتت قلبك؛ فهي علامة سخط واستدراج من الله لك!!

كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»، والبيهقي في «**الشعب**» بسندٍ حسَّنه الحافظ العراقي، وصححه شيخنا الألباني في «**السلسلة الصحيحة**»[1] من حديث عقبة بن عامر ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتَ الله يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**» ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وفي «**الصحيحين**»[2]: عن أبي موسى الأشعري ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ...**» ولكن ليس إهمالًا ولا نسيانًا، وإنما هو من باب الإمهال؛ فالله لا يهمل ولا ينسى «..**حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، وقرأ النبيُّ ﷺ قولَ ربِّه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

- **قال ابن القيم** ﵀[3]:

«فإن العبدَ بين منةٍ من الله عليه، وبين حجة منه عليه[4]، ولا ينفك العبدُ عنهما؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبريُّ في «تفسيره» (١٣٢٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠)، وصححه لغيره العلامة الألباني في «الصحيحة» (٤١٣)، ونقل تحسين الحافظ العراقي له في «تخرج الإحياء».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب (٥) (٤٦٨٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣).

(٣) «المدارج» (١/ ١٩٢) بتصرفٍ يسيرٍ.

(٤) فتكون حينئذٍ النعمة: مِنَّةً أو حجَّةً.

يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].. وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته سبحانه وأوامره؛ فهي منة ونعمة من الله على عبده، وإلَّا فهي حجة».

والقوة الباطنة؛ كقوة إيمانٍ، وقوة توكلٍ، وقوة رجاءٍ، وقوة ظاهرة؛ كأن تتطهرَ وتذهبَ إلى المسجد..تعين صانعًا.. تسعىٰ علىٰ أرملة أو مسكين.. تطلب العلم.. إلىٰ آخره.

وكلُّ حالٍ صحبه تأثيرُ في نصرة دين الله، والدعوة إليه؛ فهو مِنَةٌ منه سبحانه علىٰ العبد وإلا فهو حجة!! وكلُّ مال اقترن به إنفاقٌ في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو مِنَةٌ من الله علىٰ العبد، وإلا فهو حجة!!

وكلُّ فراغ اقترن به اشتغالٌ بما يريد الربُّ من عبده، فهو منّةٌ عليه، وإلا فهو حجة، وكلُّ قبول في الناس، وتعظيم ومحبة للعبد، اتصل به خضوعٌ للرب، وذلٌّ وانكسار، ومعرفة بعيب النفس، واتصل به بذل النصيحة للخلق؛ فهو منّة من الله علىٰ العبد، وإلا فهو حجة!!

وكلُّ بصيرة، وموعظة، وتذكير، وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرةٌ، ومزيد في العلم والعقل والعمل، ومعرفة في الإيمان؛ فهي منةٌ من الله على العبد، وإلا فهي حجة!!

وكل حال مع الله تعالىٰ، أو مقام اتصل به السيرُ إلىٰ الله، وإيثارُ مراده علىٰ مراد العبد؛ فهو منّةٌ من الله، وإن صحبه الوقوفُ عنده، والرضا به، وإيثار مقتضاه من لذة النفس به، وطمأنينتها إليه، وركونها إليه؛ فهو حجة من الله عليه!!

فليتأمل العبدُ هٰذا الموضعَ العظيمَ الخطرَ؛ ليميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم؛ فما أكثر ما يلتبس ذلك علىٰ خواص الناس، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم[١].

إذا داومت المقايسةَ بين الحسنات والسيئات، وبين نعم الله عليك وتقصيرك وجرأتك عليه، فتحتْ لك هٰذه المقايساتُ علىٰ طريق المحاسبة بابًا عظيمًا من أبواب

---

(١) «المدارج» (١/ ١٩٢، ١٩٣).

التمييز بين ما لَكَ وما عليك[١]؛ من وجوب العبودية، والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين ما لك عند الله؛ فالذي لك: هو المباحُ الشرعي في الدنيا، وفي الآخرة جنات ونهر، فعليك حق، ولك حق، فأدِّ ما عليك، يؤتك الله ما لك؛ أدِّ الحقوق التي عليك يؤتك الله حقوقك، ولابد من التمييز - علىٰ طريق السفر إلىٰ الله، بين ما لك وما عليك، وإعطاء كل ذي حق حقه؛ فكثيرٌ من الناس يجهلُ هٰذا التمييز، وقد يتصورُ أنه عبدٌ عابد لله؛ فهو يتركُ ما له بدعوىٰ التقرب إلىٰ الله وهو جاهل، ويؤدي ما عليه؛ فكثير من الناس يجعلُ كثيرًا مما عليه من الحق من قسم ما له، فيتحير بين فعله وتركه. وإن فعله رأى أنه فضل قام به، وليس حقًّا واجبًا عليه أداؤه؛ لأنه لا يميز بين ما له وما عليه.

وكثير من الناس أيضًا يرىٰ كثيرًا مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه، يعني: يظن أنه يتعبدُ إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ بترك ما أحل له الشرع أن يفعله؛ فهو يتركُ ما له بدعوىٰ أنه يتقرب إلىٰ الله بذلك الترك!! كتركِ كثيرٍ من المباحات، ويظن ذلك حقًّا عليه؛ كمن يتعبدُ بترك الزواج، أو يتعبد بالزهد عن أكل اللحم أو أكل الفاكهة، أو لُبس الثياب الطيبة، ويرىٰ - لجهله - أن ذلك مما عليه، فيوجب علىٰ نفسه تركها، أو يرىٰ تركه من أقرب القربات، وأجل الطاعات، وقد أنكر النبيُّ ﷺ ذلك.

ففي «**الصحيحين**»[٢]: من حديث أنس رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا[٣] فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ[٤]، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

وللوهلة الأولى قد تظن أن هؤلاء قد أحسنوا غاية الإحسان، فأحدهم يقول: سأصلي الليل كلَّه لله - أي: كل ليلة - والآخر يقول: سأصومُ الدهرَ كلَّه ولن أفطر أبدًا،

(١) «المدارج» (١/ ١٩٣) (الركن الثاني من أركان المحاسبة) بتصرفٍ.
(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلمٌ، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه (١٤٠١).
(٣) أي: استقلوها.
(٤) وفي رواية: «لا آكل اللحم».

والثالث يقول: سأعتزلُ النساءَ تمامًا ولن أتزوجَ أبدًا، لأتفرغ للتبتل والتعبد والتضرع!! قد تقول: ومن كهؤلاء الذين تجردوا، وتركوا الدنيا، وفرغوا قلوبهم وأعمالهم، وأوقاتهم لله سبحانه وتعالى؟! لكن انظر إلى التقرير النبوي الخطير! قال النبيُّ ﷺ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ**[1]**، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

يا له من حكم - والله - خطير، فهذا جهل بشرع الله ورسوله، فهو يتصور أنه بترك ما أحل الشرعُ له، يتقربُ إلى الله، وهو يجهلُ بأنه بهذا الترك يبتعدُ عن الله وعن هدي رسول الله ﷺ؛ فالإفراط يعادل تمامًا التفريط، وخير الأمور الوسط، والوسط: العدل، لقد تبرأ النبيُّ ﷺ ممن تصور أن فعله أكمل من فعله - عليه الصلاة والسلام - وأن حرصه على الخير أشد من حرصه ﷺ على الخير؛ فالنبيُّ ﷺ صلَّى ونام، وصام وأفطر، وتزوج النساء، ثم بعد ذلك يقرر أن من رغب عن سنته فهو بريء منه. فهٰذا الإنسانُ يتصورُ أنه يتعبدُ لله بترك ما أباحه اللهُ له، وبترك ما أحله الشرعُ له؛ فهٰذا لم يميز بين ما له وما عليه!

ومن تمام هٰذا التمييز[2]: أن يعلم العبدُ كل طاعة رضيها من نفسه؛ فهي عليه، وكل معصية عيَّر أخاه بها، فهي إليه؛ فرضاء العبد بطاعته دليل علىٰ حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم علمه بما يستحقه الربُّ ﷻ ويليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه، وصفاتها، وعيوبها، وآفاتها، وعيوب عمله، وجهله بربه، وحقوقه، وما ينبغي أن يعاملَ به، يتولد بهٰذا الجهل بعيوب النفس والجهل بحقوق الرب، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها.

أقول: فالجهلُ بعيوب نفسك، وبحقوق ربك، يتولدُ منهما: الرضا عن النفس، ويتولد من هذين الجهلين: الكبرُ والغرورُ بالطاعة، والعجب بالنفس، هٰذه آفاتٌ هي أكبرُ عند الله من كثير من الكبائر الظاهرة، مثل الزنا وشرب الخمر؛ لأنه كما يقول ابن القيم في موضع آخر من فوائده القيمة[3]: «رب طاعة أدخلت صاحبها النار، ورب

---

(١) وفي رواية: «لكني أصلي وأنام».
(٢) «المدارج» (١/ ١٩٤ الركن الثالث) بتصرف.
(٣) «المدارج» (١/ ٢٩٩) بتصرف، (ط - دار الكتاب العربي).

معصية أدخلت صاحبها الجنة».

تدبر - معي - كيف أدخلت هٰذه الطاعةُ صاحبها النار؟ ربما كان صاحبُ هٰذه الطاعة يمتن بها علىٰ الله، وعلىٰ الخلق، حتىٰ أهلكته! إنه العُجب، والغرور، والكبر علىٰ الله وعلىٰ الخلق.. إنه الامتنان علىٰ الله وعلىٰ الخلق بالطاعات.. هٰذا الامتنان، وهٰذا العجب، وهٰذا الغرور، وهٰذا الكبر، يحرم هٰذا العبد من دخول الجنة، إذ إن النبيَّ ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[1] .

ثم مَن الذي تفضَّل عليك بهٰذه الطاعة؟ ومَن الذي وفقك إليها؟ ومَن الذي أعانك عليها؟ ومَن الذي يأجُرك عليها؟ نسيتَ كل ذلك! ونسبت الفضل لنفسك! فأتيت معجبًا مغرورًا بطاعتك ممتنًّا بها علىٰ الله وعلىٰ الخلق؛ قال تعالىٰ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وربَّ معصية أدخلت صاحبها الجنة.. يقع العبدُ في المعصية فيظلُّ طوال حياته بعد المعصية منكسر القلب، خاشع الطرف ذليلًا بين يدي ربه يستغفر الله في الليل والنهار؛ حتىٰ أدخلته هٰذه المعصيةُ - بما تبعها من صدقِ توبةٍ - جنةَ العزيزِ الغفار.

فالرضا بالطاعة من الحمق والجهل! فاتَّهم نفسك علىٰ طول الخط، ولا ينبغي أن ترضىٰ عن نفسك أبدًا؛ لأنك إن رضيت عن نفسك جهلت عيوبها، وجهلت حقوق ربك عليك، والرضا عن النفس من الجهل، والحمق، ومن رعونات النفس.

وأربابُ العزائم، والبصائر، وأصحاب الهمم العالية أشد ما يكونون استغفارًا بعد كل طاعة؛ فها أنت في صلاتك تكونُ في طاعة! لكنَّ أول كلمة تقولها بعد فراغك من الصلاة: «أستغفرُ الله» مع أنك كُنت في طاعة ولم تكُن في معصية، وهٰذا الاستغفار الأصل أنه عقب الذنوب والمعاصي، لكن انظر إلىٰ تعليم النبيﷺ لنا؛ روىٰ مسلم في «**صحيحه**»[2] من حديث ثوبان ﷺ قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**».

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) كما عند مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩١) عن ثوبان ﷺ، وبرقم (٥٩٢) عن عائشة ﷺ.

فالعبد يستغفرُ الله بعد طاعة عظيمة؛ فأصحاب العزائم، وأولو الهمم العالية، أشد ما يكونون استغفارًا لله بعد الطاعات؛ لشهودهم تقصيرهم في حق الله؛ فرسول الله ﷺ يُصلي ويسلمُ ويستغفرُ؛ لأنه يرىٰ أنه ما أدىٰ لله حقه في هٰذه الطاعة كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه. ومن ثمَّ، فبعد الطاعة مباشرة يستغفر الله علىٰ ما بدر منه من تقصير؛ فهيَّا اعرض هٰذا الأمر علىٰ حالك وعلىٰ أحوال المسلمين؛ كم من المسلمين بعد الصلاة لا يدري هل قرأ التشهد قائمًا أم قرأ الفاتحة جالسًا؟!

أخي! كم من الثواني والدقائق يكون قلبك حاضرًا في الصلاة؟! سل نفسك هٰذا السؤالَ؛ نسأل اللهَ أن يرحمَ ضعفنا جميعًا، يقف أحدنا في الصلاة؛ فإذا تدبر سَرَح وفكَّر، وشرد فكره وذهنه في كل وادٍ؛ في الوظيفة تارة.. وفي الزوجة تارة.. في الأولاد تارة.. وفي الأموال تارة.. وفي الجار تارة.. وفي رعونات النفس وشهواتها تارة، فيشتَّتُ القلبُ والذهنُ والفكرُ.

فأصحابُ العزائم يستغفرون الله بعد كل طاعة، ولقد أمر اللهُ حُجَّاج بيته الحرام بعد أن وقفوا يومًا كاملًا علىٰ عرفات أعظم يوم عند الله؛ فهو يوم يباهي الله به ملائكته في السمٰوات[1]، ويومٌ يتنزل اللهُ فيه بكماله وجلاله ليقول لملائكته: «**انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا**»[2] أناس تجردوا من كل شيء، ووقفوا يتضرعون إلىٰ الله طوال اليوم، وبعد ذلك يأمرهم الله بعد انتهاء وقت عرفات أن يستغفروا رب الأرض والسمٰوات؛ فيقول تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩].

وهؤلاء قوم قاموا يصلون لله بالليل؛ ثم بعد ذلك جلسوا يستغفرون الله سبحانه وتعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) كما عند أحمد (٢/ ٢٢٤، ٣٠٥)، وابن حبان (٣٨٥٢)، وابن خزيمة (٢٨٣٩)، والحاكم (١/ ٤٦٥) عن أبي هريرة. وكذا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني؛ كما في «التعليق علىٰ ابن خزيمة».

قال الحسن رحمه الله(١): «مدُّوا الصلاة إلىٰ السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله جلَّ وَعَلَا».

جلس هٰؤلاء بالأسحاريستغفرون العزيزَ الغفارَ، وقد أمر اللهُ نبيه ﷺ في آخر سورة نزلت عليه بعد ما أدىٰ ما عليه؛ حين قال الله - عزَّ وجلَّ - له في أول أيام الرسالة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ١،٢]؛ فقام بأبي وأمي ونفسي وروحي، وما عرف طعم الراحة قط؛ حتىٰ تقطت نفسُهُ حسرات علىٰ كل من لم يسلم؛ فنزل عليه قولُه تعالىٰ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

[الكهف: ٦].

انظر إلىٰ حال النبي ﷺ؛ فلقد أدىٰ ما عليه - وربِّ الكعبة - كاملًا لله سبحانه وتعالىٰ؛ فهو أول عبد عرفته البشرية قد حقق العبودية بأعلىٰ درجاتها لرب البرية؛ فاستحق أن ينال عند ربه هٰذه المكانة المرضية، فأنا أؤكدُ وأكررُ أنه لا يعرفُ قدر النبي إلا الرب العلي، تدبر ماذا قال الله للمصطفىٰ ﷺ، بعدما أتم له الدين، وأتم عليه النعمة، وأعزه ونصره؟! ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر: ١-٣]؛ فيأمر اللهُ عبده المصطفىٰ، وحبيبه المجتبىٰ، ونبيه المرتضىٰ أن يستغفر ربه العليَّ الأعلىٰ بعد ما أدىٰ ما عليه لله - عزَّ وجلَّ -؛ لأنك لو عرفت قدر نفسك بعد معرفتك لقدر ربك، ستعلم علم اليقين أنه لو سجد العبدُ طوال حياته، والله ما أدىٰ شكر نعمة واحدة أنعمها اللهُ عليه؛ فما بالك ونعم الله عليك لا تعد ولا تحصىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

[إبراهيم: ٣٤].

قال بعضُ الصالحين: «متىٰ رضيت نفسُك وعملُك لله؛ فاعلم أنه غير راض به». بخلاف العبد الخائف من الله؛ فإنه يعملُ العمل ويخاف ألا يقبل منه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ ومع ذلك ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا، وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَهُوَ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٩٩)، وأحمد في «الزهد» (٢٦٣)، وابن المبارك في «الزهد» (١٢٠٨ زيادات المروزي).

الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: «**لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**»(١).

فالمؤمنُ الصادقُ يتهم نفسه في كلِّ عمل، وفي كل قول، وبعد كلِّ قول وعمل، ويتضرعُ إلىٰ الله أن يتقبل منه هٰذا العمل، وأن يجعله صالحًا خالصًا، فلا يغتر بعمل، ولا يمتن بعمل، ولا يعجب بعمل؛ هٰذا هو شأن من عرف جلال الله وقدره، وعرف نفسه، ووقف علىٰ آفاتها، وجهلها، ونقصها، متهمًا لنفسه علىٰ طوال الخط، يشعر بالتقصير في حق ربه بعد كل قول وبعد كل عمل.

قال: «متىٰ رضيت نفسُك وعملُك لله، فاعلم أنه غير راض عنك، ومن عرف أن نفسه مأوىٰ كل عيب وشر، وعمله عُرضة لكل آفة ونقص؛ فكيف يرضىٰ لله نفسه وعمله؟!» أي:كيف يرضىٰ عن نفسه وعمله لله سبحانه وتعالىٰ؟! ولله درُّ القائل:«من تحقق بالعبودية نظر لأفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوىٰ، وأقواله بعين الافتراء، وكلَّما عظُمَ المطلوبُ في قلبك صغرت نفسُك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله». إذا عظم هٰذا المطلوب في نظرك تضاءلت كل قيمة تبذلها في الدنيا لتصل إليه وتحصله، أليس كذلك؟ بلىٰ ـ ورب الكعبة ـ.

تصور لو أنك أردت مكانة ما في الدنيا، فستبذلُ من أجل الوصول إلى هذه المكانة أغلى ما تملك؛ فنحنُ نسمعُ عن رجل ينفقُ خمسة ملايين في الدعاية الانتخابية؛ ليحصل على كرسيٍّ في مجلس الشعب؛ بل ونسمعُ من ينفق عشرة ملايين من أجل أن يحصل على مطلوبٍ يراه يستحقُّ أن يبذل له كل ذلك. فهل فكرت في هذا المطلوب لتقف على قيمة وقدر ما تقدم له؟! إن المطلوب الذي ننشده ونطلبه هو النظر إلى وجه الله في جنات ونهر.

بالله عليك! ما قيمة ما تقدمه أمام هذا المطلوب إذا عظم هذا المطلوبُ في قلبك؟! إنك تحتقرُ كل قيمة لتصل بها إلى هذا المطلوب؛ أسأل الله أن يبلغنا هذه المنزلة العالية، وهذه المرتبة السامية، وألا يحرمنا النظر إلى وجهه الكريم برحمته وفضله، وإن قصَّرت أعمالُنا، فنحن أهلٌ لكل عيب وتقصير ونقص؛ نسأل الله أن يجبر كسرنا، وأن يغفر

---

(١) تقدم، وهو في «صحيح الترمذي» (٢٥٣٧) (٣/ ٧٩)، وراجع: «مسند أحمد» (٢٥٢٦٣) بتحقيق الشيخ شعيب، و«العلل للدارقطني» (١١/ ١٩٣).

ذنبنا، وأن يستر عيبنا، وأن يفك أسرنا، وأن يختم بالباقيات الصالحات أعمالنا؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

كلما شاهدت - حبيبي في الله - حقيقة الربوبية، وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلحُ للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما كن على يقين أن الله ﷻ إنما يقبلُ منا أعمالنا بكرمه وجوده وفضله، إذا عرفت كلَّ هذا وقفت بين يديه في كل طاعة منكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب، بلا كبر، ولا عجب، ولا غرور؛ فإن المعجب بنفسه، وإن المغرور بعمله، لا يرفع له عمل إلى الله سبحانه وتعالى.

واعلم أن أنين المذنبين التائبين، أحبُّ إلى الله من زجل المسبحين المغرورين، وهو سبحانه لا تنفعه الطاعةُ، ولا تضره المعصيةُ؛ كما في الحديث القدسي: **«يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا! يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ؛ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»**[1].

إذًا؛ أنين المذنبين التائبين أحبُّ إلى الله من زَجَلِ المسبحين المغرورين بالتسبيح، المغرورين بالعمل، المعجبين بالطاعة، الذين يمتنون بأقوالهم وأعمالهم على الله، أو على الخلق؛ فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر ممن وفقهم الله ﷻ ونوَّر بصائرهم بنور العلم الموروث عن النبي ﷺ؛ فمثلًا قال ﷺ كما في «**الصحيحين**»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُقِمْ عَلَيْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثَرِّبْ»**. أي: لا يُعيِّر، من باب قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٧٧)، وقد تقدم.
(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب البيوع، باب بيع العبد الزاني (٢١٥٢)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا (١٧٠٣).

عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]. نعمْ لا يعير، فإن الميزان بيد الله، والحكم له تعالى.. السوط الذي ضرب به من أقيم عليه الحد بيد مقلب القلوب ﷻ.

فالمقصود؛ أن يقيم الحدَّ دون تعيير أو تثريب؛ فلا يأمنُ كَرَّات القدر، وسطوته إلا أهل الجهل بالله[١]؛ فإن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[٢]. وفي روايةٍ[٣]: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ، أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا...**» الحديث. اللهم ارزقنا حسن الخاتمة يا رب العالمين.

فلا يأمنُ مكرَ الله وسخطه وعقوبته إلا الجاهلون الخاسرون في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]؛ لذا كان المصطفى ﷺ يكثر من قوله: «**لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ**»[٤]. ويقول الله لأعلم الخلق به، ولأعرف وأقرب الخلق إليه وسيلة: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

فالله هو الذي ثبَّت قلب المصطفى ﷺ؛ فإذا كان قلبُ المصطفى ﷺ يحتاجُ إلى تثبيت من الله! فماذا أقولُ عن نفسي؟ وماذا نقولُ نحن جميعًا عن أنفسنا؟! فالتثبيت من الله، والتوفيق من الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ما أطعنا الله إلا بفضله، وما أعاننا اللهُ على الطاعة إلا بكرمه، وما أثابنا اللهُ على الطاعة إلا بجوده، ولولا أن ثبتنا لهلكنا، ولولا أن سترنا لافتضحنا، فلا تعير أخاك ولا تعيري أختك؛ فإن رأيت أخاك على معصية فاسجد لله شكرًا أن وفقك ومنعك عنها، وحال بينك وبين الوقوع فيها، وأنت أخي الناصح تقدَّم لأخيك فانصحه من منطلق

(١) «المدارج» (١/ ١٩٥ - ١٩٧) بتصرف.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٥١).

(٣) عند البخاريِّ، كتاب القدر (٦٥٩٤)، ومسلمٌ، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ؟ (٦٦٢٨).

هذه الرحمة، ومن منطلق هذا الحب، وسل الله له الهداية، كما رزقك الهداية والتوفيق.

هؤلاء هم أصحابُ القلوب الكبيرة، فلا تظهر الشماتة لأخيك، فيعافيه اللهُ ويرحمه ويبتليك، فقد ينظرُ الأخُ إلى أخيه إن وقع في معصية نظرة انتقام يريد أن يتشفى منه، ويريد أن يذبحه، وأن يهتك له كل ستر، وأن يظهر له كُل عيب، مع أنه أخوه، سائر معه على الدرب، إن زلَّ يريد أن يفضحه في كل صغيرة وكبيرة، وينسى ما وقع فيه هو وطهره اللهُ منه، إنما هو محض فضل الله عليه؛ فالتوفيق من الله والسداد منه تعالى، وهذا هو المراد بـ: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

وفي «**صحيح مسلم**»(١) من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**».

والخوف من سوء الخاتمة - أيها الإخوة - مزَّق قلوب الصادقين العارفين بجلال الله وقدره، أخافهم الخوفُ من سوء الخاتمة؛ لأنهم يعلمون أن الله خلق فريقين: فريقًا في الجنة، وفريقًا في السعير، وكان مالكُ بن دينار يقومُ الليل، يبكي ويناجي ربه، ويقول: «يا رب! يا رب! لقد علمت ساكن الجنة، من ساكن النار، ففي أي الدارين مالك بن دينار؟»(٢).

والله يعلم الآن من منا من أهل الجنة، ومن هو من أهل النار. وهو سبحانه عدل، وما ربك بظلام للعبيد، فلا تنس علم الله فيك، ولا تنس قدر الله السابق لك، فقدرُ الله السابق؛ أخاف الصادقين، ومزَّق قلوب العارفين؛ قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. ووالله لو عذب ربُّ العالمين أهلَ أرضه وأهل سمواته؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم، وإن أدخلهم جميعًا الجنة؛ فبفضله ورحمته، لا بعملهم، فاللهم! يا مصرف القلوب؛ صرف قلوبنا على طاعتك.

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٨٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٨٣)، وانظر: «جامع العلوم والحكم» الحديث الرابع (ص ١٧٤) ط. الرسالة.

واعلم - أخي - أن الناس صنفان:

صنف: قد انتصر على نفسه، وقهرها، وجعلها مطيةً إلى كل خير وطاعة.

وصنف: قد قهرته نفسُهُ، وغلبتهُ، وجعلتهُ مطية إلى كل شهوة، وإلى كل معصية؛ قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

ولقد وصف اللهُ النفسَ في القرآن بثلاث صفات: النفس المطمئنة، والنفس اللوامة، والنفس الأمارة بالسوء، وهي النفس التي تَؤُزُّ صاحبها دومًا إلى المعصية وإلى الشهوات أزًّا ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فهي آمرة بكل شر، أمَّارة بكل سوء، تحولُ بينك وبين كل طاعة؛ فإن ألجمتها بلجام التقوى، وفطمتها عن المعاصي بفطام التذلل والتقرب إليه، انتقلت النفسُ من مرتبة الأمارة إلى مرتبة اللوامة، وصارت بعد هذا التوبيخ والتقريع نفسًا لوامة تلومك على فعل الخير، وتلومك على فعل الشر، لماذا فعلت الشر؟ لماذا وقعت في المعصية؟ لماذا ضيعت مجلس العلم؟ لماذا فرَّطت في صلاة الفجر؟ لماذا ضيعت قيام الليل؟ لماذا لم تنفق في سبيل الله؟ لماذا أكلت من الحرام؟ لماذا لم تجمع من الحلال؟ تلومك في الخير لِمَ لَمْ تكثر منه؟ وتلومك في الشر لمَ فعلته؟ فإذًا تصير النفسُ بعد هذا الفطام وبعد هذا اللجام نفسًا لوامة.

والنفسُ اللَّوامةُ: نفسٌ مؤمنةٌ زكيةٌ نقيةٌ، أقسم بها ربُّ البرية، ولا يقسم الله بشيء إلا ليلفت أنظارنا بقدره وقيمته؛ قال تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١ ، ٢]؛ فإذا ارتقيت بالنفس اللوامة، فوصلت إلى حال لم تعد تسعد منه إلا في طاعة الله، ولم تعد تشعرُ بالأنس إلا مع الله، صارت النفسُ مطمئنة، وهي النفس التي تطمئن وتأنس لطاعة الله، وتشعر بالوحشة إذا كانت بعيدة عن الله - عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

وهذه هي المحاسبة الدقيقة، وتلك هي المنزلة العالية، فلا يكون العبدُ تقيًّا إلا

إذا حاسب نفسه؛ قال ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ: «لا يكون العبدُ تقيًّا حتى يحاسب نفسّه محاسبة الشريك الشحيح»[١]. توضيح ذلك: أن يكون هناك اثنان شركاء في التجارة، أحدهما شحيح، يحاسب شريكه محاسبة دقيقة.

فلا يصل العبدُ إلى مرتبة التقوى إلا إذا حاسب نفسه هذه المحاسبة الدقيقة، قال الحسن البصري[٢]: «إن المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله – عزَّ وجلَّ –، وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحسابُ يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة».

والمحاسبة نوعان[٣]: محاسبة قبل القول والعمل، ومحاسبة بعد القول والعمل، أما الأولى، فتقتضي منك أن تسأل نفسك سؤالين:

الأول: سؤال عن الإخلاص.

والثاني: عن المتابعة؛ فتسأل نفسك لمن أعملُ؟ لمن أتكلمُ؟ لمن أسكتُ؟ لما أتيتُ؟ ولماذا خرجتُ؟ ولماذا دخلتُ؟ ولماذا أحببتُ؟ ولماذا أبغضتُ؟ ولماذا أعطيتُ؟ ولماذا منعتُ؟ لمن.. سؤالٌ عن الإخلاص! لمن تعملُ؟ تعملُ ابتغاء وجه الله؟ أم من أجل الشهرة؟ ولا تبتغي بهذا كله ربك سبحانه وتعالى.

السؤال الثاني: كيف أتكلمُ؟ كيف أعملُ؟ كيف أجلسُ؟ كيف أقومُ؟ كيف أنامُ؟ كيف أحبُّ؟ كيف أبغضُ؟ كيف أعطي؟ كيف أمنعُ؟ سؤالٌ عن المتابعة.

ثم محاسبة بعد القول والعمل، هل تكلمت وأنت تبتغي بقولك وعملك وجه الله، وأديت العمل على منهج رسول الله ﷺ؟ فتحاسب نفسك هل في هذا العمل نقصٌ أم لا؟ وقد علمنا أن المؤمن يتهم نفسه دومًا، فهو يحاسبُ نفسه بعد كل قول وعمل، ويتهم نفسه دومًا بعد كل قول وعمل بالتقصير؛ فيزداد همَّة، ويزداد نشاطًا، ويزداد عملًا وقربًا من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٧١)، وأبو نعيم (٤/ ٨٩)، وانظر: «ضعيف الترمذيِّ» (٤٣٦) و«البداية والنهاية» (٩/ ٣١٧)، و«كنز العمال» (٨٥٠١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٠٩)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٧)، والمزيُّ في «تهذيب الكمال» (٣١/ ٥٣١) وغيرهم.

(٣) «المدارج» (١/ ١٨٩).

فالمؤمنُ يرى نفسه دائمًا على الغفلة فيُذكِّرها، يراها بعيدة عن الله فيحثها على القرب من الله تبارك وتعالى، ولقد دخل حماد بن سلمة [(١)] على سفيان الثوري - إمام الحديث والزهد والورع - وقد نام على فراش الموت، فيقول له حماد: أبشر ببشرى الله لك يا أبا عبد الله، فيقول له سفيان: أسألك بالله يا حماد! أتظن أن مثلي ينجو من النار؟».هذا حال المؤمنين الذين يعرفون قدر الله وجلاله، ويعرفون قدر أنفسهم، ويقفون على عيوبها، وآفاتها ونقصها.

قِفْ مع نفسك - أخي الحبيب - وقفي مع نفسك - أختي الفاضلة - قف مع نفسك أيها المسلم، وأغلق عليك بابَ غرفتك، واجلس ساعةً أو نصف ساعة، حتى وإن اتهمت في البيت بالجنون، فلا حرج، وقل لنفسك: يا نفس! ما لي بضاعة إلا العمر، فرأس مالي هو العمر، وهي الأيام؛ فإن ضاع العمرُ؛ فلقد ضاعت الأيامُ، وضاعت البضاعةُ، يا نفس! هذا اليوم الجديد الذي تعيشين فيه قد أمهلني اللهُ فيه، وأبقى لي أجلي، ولو توفاني يا نفس لتمنيت الرجعة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

فقوله: ﴿ لَعَلِّيٓ ﴾ لم يتيقن! إن كان سيعمل أو لا يعمل!! ومع ذلك يتمنى الرجعة؛ فيأتي الجواب: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾[المؤمنون: ١٠٠]؛ أي: لا وزن لها، ولا قيمة.. نعم؛ لا يسمعها الله ولا يجيبها!!

يا نفس! لقد أمهلني اللهُ؛ فإياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن الأنفاس تعدُّ وتحسب والأيام معدودة، ويحك يا نفس إن كنت قد تجرأت على معصية الله مع علمك يقينًا أنه يراك؛ فما أقل حياءك منه؟! يا نفس! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، يا نفس! إن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، ويحك يا نفس! أما لك إليهم نظرة؟ أما لك فيهم عبرة؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلَّدين؟! هيهات هيهات، ساء - وربِ الكعبة - ما تتوهمين. ويحك يا نفس! أما تخافين من سوء الخاتمة؟ أما تخافين من سكرات الموت وآلامه؟ أما تخافين من عذاب القبر ووحشته؟ ألا تخافين من الفضيحة يوم حشر الناس إلى الله حفاة عراة غرلًا؟ أما تخافين من العرض على الله؟ أما تخافين من السؤال ودقته؟ والصراط وحدته؟ أما تخافين من النار والأغلال

(١) «إغاثة اللهفان» (٨٥)، و«صيد الخاطر» (٣١٥).

والأهوال؟!

ويحك يا نفسُ! أترغبين عن جنات النعيم والنظر إلى وجه الرب الكريم؟ ويحك يا نفس! اعملي قبل أن لا تعملي، وحاسبي نفسك الآن قبل أن تحاسبي؛ فإن الوقوفَ بين يديه - تعالى - طويلٌ؛ قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أيها العبدُ:

دعْ عنك ما قد فَاتَ في زمن الصبا ... واذكـر ذنوبـك وابكهـا يـا مـذنبُ

لم ينسه الملَـكان حـين نسيته ... بـل أثبـتاه وأنـت لاهٍ تلعـبُ

والـروحُ مـنك وديـعة أودعتهـا ... سـتردها بالرغـم منك وتسلـبُ

وغـرور دنيـاك الـتي تسعى لهـا ... دار حقيـقتها متـاع يذهـبُ

اللـيل فاعـلم والنـهار كلاهمـا ... أنفاسـنا فيـها تـعدُّ وتحسبُ[(١)]

وأختم بهذه الكلمات للعلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]؛ فقال: «وجماع ذلك: أن يحاسبَ نفسَهُ أولًا على الفرائض؛ فإن تذكر فيها نقصًا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا؛ تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثم يحاسبُ نفسَهُ على الغفلة، فإن كان قد غَفَل عما خُلِق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟.

فالأول: سؤال عن الإخلاص.

والثاني: سؤال عن المتابعة.

وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ

---

(١) «ديوان علي بن أبي طالب» (ص: ٥٣، ٥٤).



﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦،٧]، وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]؛ فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم؛ فما الظن بالكاذبين؟!!».

ثم قال: «والنّعيمُ المسئولُ عنه نوعان: **نوعٌ** أخذ من حلّه وصرف في حقه فيسأَلُ عن شكره، **ونوعٌ** يأخذُ بغير حلّه وصرف في غير حقه؛ فيسأَلُ عن مستخرجه ومصرفه؛ فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسبًا على كل شيء حتى على سمعه وبصره وقلبه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب، وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] يقول تعالى: لينظر أحدُكُم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه، أم السيئات التي توبقه، قال قتادة: ما زال ربكم يقربُ الساعة حتى جعلها كغد[١]، والمقصودُ: أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفسادَهُ بإهمالها، والاسترسال معها»[٢].

فعاهِدْ نفسك، ولا تهملها، ولا تغفل عنها، ولا تتبعها هواها، واطلب من الله أن يزكّيها؛ كما كان النبيُّ ﷺ يدعو ربه قائلًا: «**اللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ: الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللَّهُمَّ! آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا؛ أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا؛ أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا. اللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**»[٣].

ثم استعذ بالله من شرها عمومًا، ومن شرِّ ما يتولَّدُ منها من الأعمال، ومن شرِّ ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات، وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من شر النفس وسيئات الأعمال[٤]؛ ففي «**سنن أبي داود**»، و«**سنن الترمذي**»، و«**سنن النسائي**»، و«**مسند أحمد**»، و«**مصنف ابن أبي شيبة**» وغيرهم[٥] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٣/ ٢٩٩) بإسنادٍ صحيحٍ.

(٢) «الإغاثة» (ص: ١٠٨، ١٠٩).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٢).

(٤) «الإغاثة» (ص: ٩٧).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٢، ٤٣٢)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٣٤٠)، وفي «مصنفه» (٣/ ٤٤٣)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس (١٠٩٧)، والترمذيُّ، كتاب النكاح، =

عَلَّمَنَا رَسُولُ الله ﷺ خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: «إِنَّ الْحَمْدَ لله نَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ، مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ؛ فَلَا هَادِيَ لَهُ... الحديث».

وفي «مسند أحمد»، و«سنن ابن ماجه» بإسنادٍ صحيح، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الْحَمْدَ لله، نَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللهُ، فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ، فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»[1].

وفي «مسند» أحمد[2] و«سنن» أبي داود، والترمذي، والنسائي، والبخاري في «الأدب المفرد» من حديث شكل بن حميد رضي الله عنه، قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله! عَلِّمْنِي دُعَاءً. وفي رواية:- أنتفع به - وفي رواية: يا نبي علِّمني تعوُّذًا أتعوَّذُ به؟ فأخذ بيدي، ثم قال: «قُلِ: اللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي».

فاطلب العونَ من الله أن يزكِّي نفسك، وأن يصرفَ عنها كلَّ الشرور، وكلَّ الفتن، ما ظهر منها، وما بطن؛ نسأله سبحانه أن يقينا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه وليُّ ذلك، والقادرُ عليه.

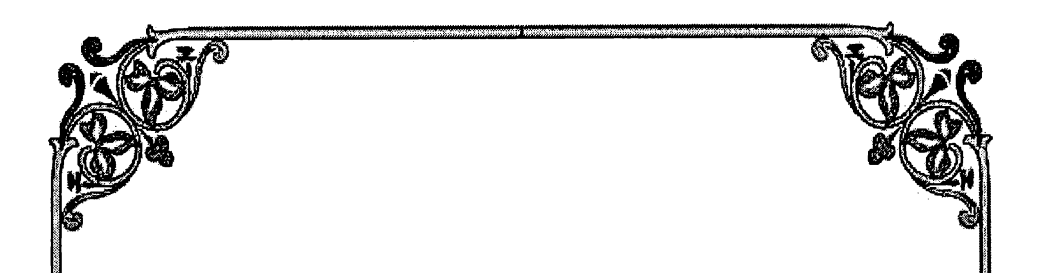
*****

=

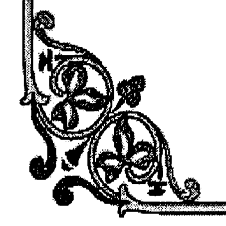
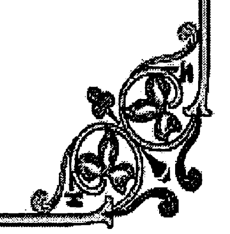
باب ما جاء في خطبة النكاح (١١٠٥)، وابن ماجة، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (١٨٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة، والترمذي، والنسائي»، و«ظلال الجنة» (٢٥٥).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٢)، وابن ماجة، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (١٨٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة»، وأصْلُه عند مسلم برقم (٨٦٨) بدون الشاهد.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٩)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٦٦٣)، وأبو داود، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة (١٥٥١)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب (٧٤) (٣٤٩٢)، والنسائي، كتاب الاستعاذة من شر السمع والبصر (٨/ ٢٥٥، ٢٥٩)، وفي «الكبرى» (٧٨٢٦، ٧٨٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد»، و«صحيح أبي داود».



الاسْتِهَانَةُ بِالكَلِمَةِ

الاستهانة بالكلمة

إن القلبَ متى استقام على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه، استقامت الجوارحُ كلها على طاعته؛ فإن القلبَ هو ملك الأعضاء، وهي جنوده؛ فإذا استقام الملكُ، استقامت جنودُه ورعاياه، وأعظم ما يراعي استقامته بعد من الجوارح: اللسان؛ فإنه ترجمان القلب، والمعبر عنه، فلا يستقيم القلبُ حتى يستقيم اللسان [١].

واللسانُ من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة؛ فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه؛ إذ لا يستبين الكفرُ والإيمانُ إلا بشهادة، وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيل أو معلوم، مظنون أو موهوم، إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي؛ فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء؛ فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشرِّ ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرفٍ هارٍ، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شرِّ اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان، أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان [٢].

(١) «جامع العلوم والحكم» (الحديث: الحادي والعشرون) (ص: ٢٠٥).
(٢) «الإحياء» (٣/ ١٠٨).

فخطر اللسان عظيم؛ **قال ابن القيم** رحمه الله[١]: «وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر وهما أوسع مداخل الشيطان؛ فإن جارحتيهما لا يملأن ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادةٌ للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات».

وإن من أخطر الأمراض التي تصيب المرءَ هو أن يستهين بأقواله وكلماته.

فلو علمت خطرَ اللسان لفكرت ألف مرة قبل أن تتكلم كلمة، فليست الكلمةُ مجردَ حروفٍ يرددها اللسان دخانًا يطير في الهواء، ولكن الكلمة أمانة كبيرة، ومسئولية عظيمة[٢]؛ فبكلمة تدخل دين الله - جَلَّ وعَلَا -، وبكلمةٍ تخرج منه!!، وبكلمةٍ تدخل الجنة وتنال رضا الله عز وجل، وبكلمةٍ تدخل النار وتنال سخط الله - جَلَّ وعَلَا، وبكلمةٍ زورٍ تقتل بريئًا، وبكلمةِ قذفٍ تُفْسد بين رجل وامرأته، وبكلمةِ نميمةٍ تمزِّق الأواصر بين الأخوة المتحابين، وبكلمةِ غيبةٍ تُجرِّح إنسانًا كريمًا وتنال من عرضه وشرفه في محلٍّ عامٍّ أو خاصٍّ، أو مجلةٍ، أو فضائيةٍ، أو موقع من مواقع الإنترنت؛ بلا وازع من ضمير، أو رادع من إيمان، وبلا خوف من الله - جَلَّ وعَلَا -.

إن ترك الألسنة تتكلم بلا ضوابط ولا خوف أو رادع لتُلقي التهم جزافًا هنا وهناك دون بينة أو دليل أو خوف من الملك الجليل، لَيَتْرُكُ المجال فسيحًا لكلِّ من شاء أن يقول ما شاء في أيِّ وقت شاء، ثم يمضي آمنًا مطمئنًا سعيدًا - بما أطفأ من نار الغل والحسد في قلبه، وبما نال من عرض الآخرين، وبما روَّج من إشاعةٍ كاذبةٍ باطلةٍ - وتصبح الأمة والجماعة المسلمة وتمسي وإذا أعراضها مجرحة، وسمعتها ملوثة، وإذا كلُّ فردٍ فيها متهم أو مهدد بالاتهام، وهذه حالةٌ من الشك والريبة لا يمكن أن تطاق بحال من الأحوال.

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٤٠١).

(٢) قال الشافعي رحمه الله لصاحبه الربيع: «يا ربيع! لا تتكلم فيما لا يعنيك؛ فإذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها». «المجموع» (١/ ١٣)، و «الأذكار» (ص:٣٥٧) كلاهما للنووي.



وممّا أنشدوه:

احفـظ لسـانك أيهـا الإنسـان   لا يلـدغنّك إنـه ثعبـان

كـم في المقـابر مـن قتيـل لسـانه   كانـت تهـاب لقـاءه الشـجعان [1]

إن حياة الإنسان اختبار وابتلاء، ونهايتها حساب وجزاء بين يدي رب الأرض والسماء؛ فالمؤمن الصادق لا يستهين ولا يحتقر قولًا أو عملًا؛ لأنه يعلم يقينًا أنه يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات؛ فمن زرع خيرًا بقولٍ أو عملٍ حصد السعادة والكرامة، ومن زرع شرًّا بقولٍ أو عملٍ حصد الشقاء والندامة.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧، ٨].

فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة يمتد جذرُها في عمق الأرض وغصنها إلى عنان السماء؛ لتؤتي ثمارها كلَّ حينٍ بإذن رب الأرض والسماء؛ أما الكلمة الخبيثة التي ضرب الله- جَلَّ وعَلَا- مثلًا لها في القرآن الكريم كشجرة خبيثة، قد تراها منتفخة، لكن إن اقتربت منها لا تجد لها جذرًا ولا ثمارًا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٧].

فهذا مثلٌ قرآنيٌّ بديعٌ للكلمة الطيبة الرقراقة، وكذلك الكلمة الخبيثة التي تنال من عرض الخلق، وتفسد العلاقات، وتقتل الأحياء؛ فما أحوجنا أن نعي خطر الكلمة ومكانتها؛ تدبر الأدلة من كتاب الله ﷻ وسنة نبينا ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨].

---

(١) «الأذكار» للنووي (ص:٣٥٨)، و«المستطرف» (ص:١٨٦)، وهو في ديوان الشافعي رحمه الله.

قال السعدي رحمه الله[(١)]: «يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله، وما يسره، وتوسوس به نفسه، وأنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو: العظم المكثف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكةَ الكرامَ الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد عن ﴿الْيَمِينِ﴾ ، يكتب الحسنات، والآخر عن ﴿الشِّمَالِ﴾، يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ بذلك متهيء لعمله الذي أعد له، ملازم لذلك ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ من خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ؛ أي: مراقب له حاضر لحاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤-٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي «**الصحيحين**»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

فاعلم أن كل كلمة تنطق بها تكتب وبكل دقة؛ إما في صحيفة الحسنات أو صحيفة السيئات، وبين يدي الله تعالى تجتمع الخصومُ ليقف خصمُك أمام الله - جَلَّ وعَلَا - ويقول لربه عز وجل: يا رب أريدُ حقي من هذا الذي ظلمني؛ ولن تجد ما ترد به الحقوق إلا

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٤٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (٦٤٧٧-٦٤٧٨)، ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

أن تدفع من حسناتك ورصيدك؛ فإن فني الرصيدُ يؤخذ من سيئات خصمك وتطرح عليك؛ فالله - جل جلاله - لا تضيع عنده الحقوقُ.

روى مسلم في «**صحيحه**»[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**». قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**».

قد يتورع الإنسانُ في أكل اللحم الحلال وعن أكل الحرام، ويتحرى عما إذا كان هذا اللحمُ ذبح ذبحًا شرعيًّا، وهذا شيء رائع؛ لكنه في الوقت نفسه تجده لا يتورع عن الفري بلسانه في أعراض الأحياء والأموات ولا عن أكل لحوم الناس، وخصوصًا إذا كان ينهشُ في لحوم العلماء والصالحين وأهل الفضل وما أكثرهم في الأمة؛ فتلك كارثة كبيرة ومصيبة عظيمة.

قال الحافظ ابن عساكر رحمه الله[(٢)]: «اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحومَ العلماء مسمومةٌ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالسلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب».

قال تعالى في صفات عباده المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:١-٣]، قال السعديُّ في «تفسيره»[(٣)]: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فائدة، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتنزيهًا لأنفسهم، وترفعًا عنه، وإذا مروا باللغو مروا كرامًا، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨١).
(٢) كما في «المجموع» (١/ ٢٤)، و«التبيان» للنووي (ص: ١١)، وانظر: «تبيين كذب المفتري» (ص: ٤٢٥).
(٣) (ص:٤٩٧).

العبدُ لسانه وخزنه - إلا في الخير- كان مالكًا لأمره؛ كما قال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟**». قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»[١].

فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كفُّ ألسنتهم عن اللغو والمحرمات».

وقال في صفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:٦٣]؛ **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله[٢]:

«أي: إذا سفه عليهم الجهالُ بالسيء، لم يقابلوهم عليه بمثله؛ بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيرًا، كما كان رسولُ الله ﷺ، لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]».

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

[الفرقان: ٧٢].

وفي «**الصحيحين**»[٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»؛ أي يسكت؛ **قال القرطبي صاحب كتاب «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»**[٤]: «وحاصل ذلك: أن آفات اللسان أسرع الآفات للإنسان، وأعظمها في الهلاك والخسران.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجة، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، وأحمد (٥٠/ ٢٣١-٢٣٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١١٢)، والحاكم (٢/ ٤١٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/ ٨٣،٢٦٩) و (١٠/ ١٢٩)، و «الشعب» (٣٣٤٩،٤٩٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٣٦)، وفي «الإرواء» (٤١٣).

(٢) (٦/ ١٢٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٨/ ٦٠)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير (٤٧).

(٤) (٧/ ٣١٩).

فالأصل: ملازمة الصمت إلى أن تتحقق السلامةُ من الآفات، والحصول على الخيرات؛ فحينئذ تخرج الكلمةُ مخطومة، وبأزمة التقوى مذمومة، والله الموفق».

وقال ابن عبد البر في «الاستذكار»[(١)]: «الصمت منجاة؛ لقوله ﷺ: **«مَنْ صَمَتَ نَجَا»**[(٢)]، إلا أن الكلامَ بالخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإدمان الذكر، وتلاوة القرآن أفضل من الصمت؛ لأن الكلامَ بذلك غنيمة، والصمت سلامة، والغنيمة فوق السلامة».

وقال في «**التمهيد**»[(٣)]: «وفي هذا الحديث آداب وسنن؛ منها: التأكيد في لزوم الصمت، وقول الخير أفضل من الصمت؛ لأن قولَ الخير غنيمةٌ، والسكوت سلامة، والغنيمة أفضل من السلامة، وكذلك قالوا: قُلْ خيرًا تغنم، واسْكُت عن شرٍّ تسلم.

قال عمار الكلبي:

وقُلِ الخَيْرَ وإلا فاصْمُتَنَّ ... فإنَّهُ مَنْ لَزِمَ الصَّمْتَ سَلِم[(٤)]

وقال آخر:

ومَنْ لا يملكُ الشفتين يسخو ... بسوءِ اللفظِ مِن قِيلٍ وقال

ولقد أحسن القائل:

رأيتُ اللسانَ على أهله ... إذا ساسه الجهلَ ليثًا مغيرا

وقال آخر:

لسانُ الفتى حتف الفتى حين يجهل ... وكل امريء ما بين فكيه مقتلُ

---

(١) (٨/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٥٠) (٢٥٠١)، وعبد بن حميد (٣٤٥)، والدارمي (٢٧١٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٦).

(٣) (٢١ / ٣٥،٣٦).

(٤) والبيت الثاني:

إن طول الصمت زينٌ للفتى ... من مقالٍ فيه عيٌّ وبكم

راجع: «بهجة المجالس» (ص: ١٢)، و«أدب المجالسة» (ص: ٨٥).

فمن كانت هذه حاله هو المأمور بالصمت، لا قائل الخير وذاكر الله، وقد ذكرنا هذا المعنى، وكثيرًا مما قيل فيه من النظم والنثر في كتاب العلم، وتقصيته في كتاب بهجة المجالس، والحمد لله.

ورُوي عن ابن مسعود أنه قال: «ما الشؤم إلا في اللسان، وما شيء أحق بطول السجن منه»[١] ا.هـ.

وقال النووي في «**شرح مسلم**»[٢]:

«وأما قوله ﷺ: «**فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»؛ فمعناه: أنه إذا أراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيرًا محققًا يُثاب عليه واجبًا أو مندوبًا فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه، فليمسك عن الكلام سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين؛ فعلى هذا يكون الكلامُ المباحُ مأمورًا بتركه مندوبًا إلى الإمساك عنه مخافة من انجراره إلى المحرم أو المكروه وهذا يقع في العادة كثيرًا أو غالبًا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، واختلف السلفُ والعلماءُ في أنه هل يكتب جميع ما يلفظ به العبد وإن كان مباحًا لا ثواب فيه ولا عقاب لعموم الآية أم لا يكتب إلا مافيه جزاء من ثواب أو عقاب؟ وإلى الثاني ذهب ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من العلماء، وعلى هذا تكون الآية مخصوصة؛ أي: ما يلفظ من قول يترتب عليه جزاء، وقد ندب الشرعُ إلى الإمساك عن كثير من المباحات لئلا ينجر صاحبها إلى المحرمات أو المكروهات، وقد أخذ الإمام الشافعي رضي الله عنه معنى الحديث فقال: إذا أراد أن يتكلم فليفكر، فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلم، وإن ظهر له فيه ضرر أوشك فيه أمسك، وإن ظهر له فيه ضرر أو شك فيه أمسك».

وفي «**الصحيحين**»[٣] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**مَنْ سَلِمَ الْـمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**».

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٨٤)، ووكيع في «الزهد» (٢٧٩)، والبيهقي في «الشعب» (٥٠٠٣).

(٢) (٢/ ١٩)، وانظر «الأذكار» له (ص: ٣٥٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب أي الإسلام أفضل؟ (١١)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل؟ (٤٢).

وهذا الحديثُ القليلُ الـمَبْنَى، عظيم المعنى؛ بل إنني أكاد أجزم الآن أن المسلمين لو أخذوا بهذا الحديث العظيم وحولوه في حياتهم إلى واقع عملي ومنهج حياة ما رأينا هذا التشرذمَ والتهارجَ والنزاعَ والشقاقَ والخلافَ بين كثير من المسلمين؛ بل بين كثير من الأحبة.

قال ابنُ رجب رحمه الله [(١)]: «فإن سلامة المسلمين من لسان العبد ويده واجبة؛ فإن أذى المسلم حرام باللسان وباليد؛ فأذى اليد: الفعل، وأذى اللسان: القول».

وروى البخاريُّ[(٢)] من حديث سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَـحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْـجَنَّةَ**».

أي: من حفظ لسانه وفرجه عن الحرام دخل الجنة. فالمراد بالضمان: الوفاء بترك المعاصي بهما[(٣)].

وروى النسائي وأبو داود وغيرهما [(٤)] **بسند صحيح من حديث أبي سعيد** الخدري رضي الله عنه: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**»؛ أي: ملنا عن طريق الهدى والاعتدال اقتداءً بك؛ قال المناوى[(٥)]: «فنُطْق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان؛ فلله دره من عضو ما أصغره! وأعظم نفعه وضره!».

وقال في «**فيض القدير**»[(٦)]: «فاللسان أشد الأعضاء جماحًا وطغيانًا، وأكثرها فسادًا وعدوانًا، ويؤكد هذا المعنى قول مالك بن دينار رضي الله عنه: «إذا رأيت قساوة في قلبك، ووهنًا

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٣٣).
(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (٦٤٧٤).
(٣) «كشف المشكل» لابن الجوزي (١/ ٤٨١).
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٩٥)، والطيالسي (٢٣٢٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩٨٠)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٧)، وأبو يعلى (١١٨٥) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٥) «التيسير بشرح الجامع الصغير» للمناوي (١/ ١٤٨) ط مكتبة الإمام الشافعي. الرياض. وقد عزا هذا الكلام للغزالي رحمه الله. كما في «فيض القدير» (١ / ٢٨٦).
(٦) (١ / ٢٨٦).

في بدنك، وحرمانًا في رزقك؛ فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك. قال الطيبي: وهذا لا تناقض بينه وبين: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1]؛ لأن اللسان ترجمان القلب، وخليفته في ظاهر البدن.

قال الميداني: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه».

أي: تقوم معانيه بهما؛ قال الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم». ا.هـ

ومعنى تكفر اللسان؛ أي: تذل وتخضع له.

روى أحمد في «مسنده»، والترمذي في «سننه» - واللفظ للترمذي[2] - من حديث سفيان بن عبد الله ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: «**قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا**».

روى أحمد، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم[3] من حديث معاذ ﷺ قال: قلت: يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ**». ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ**». ثُمَّ تَلاَ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، ثُمَّ قَالَ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلمٌ، كتاب المسافات، باب أخذ الحلال وترك الشبهة (١٥٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤١٠)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٨٩)، والدارمي (٢٧١٠)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٢١). وأصله في «صحيح مسلم» (برقم ٣٨) من وجه آخر عن سفيان بن عبد الله ﷺ مختصرًا.

(٣) سبق قريبًا.

«**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟**». قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**». ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟**». قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**». فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**».

قال ابن رجب رحمه الله[(١)]: «هذا يدل على أن كف اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله، وأن من ملك لسانه، فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه».

فالاستهانةُ بالكلمةِ مرضٌ خطير وخطر جسيم، يفسد إفسادًا لا يعلمه إلا الله؛ فلا أنسى أنني حين كنت أعملُ في القصيم، وقدَّر الله لي أن أصلي في يوم من الأيام في مسجد من مساجد بريدة، وكنت أصلي مأمومًا، وبعد انتهاء الصلاة قام رجل ربما تجاوز السبعين من عمره، وقال: يا إخواني! أحذركم من شهادة الزور، وظل يردد هذه الكلمات ويصرخ ويبكي ويقول: أنا ما رأيت النورَ إلا بالأمس القريب، فقد قضيت ثلاثًا وثلاثين سنة في السجن بسبب شهادة زور!! كلمة قالها ظالم لا يتقي الله، ولا يعلم أنه موقوف بين يدي الله تعالى ليسأل عن كل لفظة تلفظ بها!!

ربما يأتي شاهدُ الزور المأجور يبيع دينه ويرتكب كبيرة من أكبر الكبائر فيحبس بريئًا، ويشهد شهادة باطلة من أجل حفنة حقيرة من الجنيهات أو من أجل مجاملة كاذبة لقريب له أو صديق!!

فأين خوف هؤلاء من الله؟!

وقد روى البخاريُّ ومسلمٌ[(٢)] من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا؛ فَقَالَ: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**» قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١ / ٢٧٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشهادات، باب ما قيل في الزور (٢٦٥٤)، ومسلمُ، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٧).

فبكلمة أو تقرير كاذب أو شهادة آثمة تُدَمَّرُ أُسرٌ، وتُحْتَلُ دولٌ، وتُسفَكُ دماءٌ، وتُمَزَّق أشلاءٌ، وتُبَادُ حضارةٌ، وتُحْتَل الأرضُ، ويُدَنَّس العرضُ، وتُدنَّس المقدسات!

فالكلمة سواء المقروءة، أو المسموعة، أو المرسومة، والمرئية؛ فهي خطيرة.

وكذلك من ينقل الكلام بين الناس على سبيل الإفساد، وهو «النمام» وحقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك العرض عما يكره كشفه. وقد حذَّر الله تعالى من هذا الصنف الخبيث؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١١]؛ أي: يمشي بين الناس بالنميمة [١].

قال النوويُّ في «**الأذكار**»[٢]: «وقد جاء أن رجلًا ذكر لعمر بن عبد العزيز رحمه الله رجلًا بشيء؛ فقال عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك، قال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدًا.

ورفع إنسانٌ رقعةً إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالًا كثيرًا، فكتب على ظهرها: النميمة قبيحةٌ وإن كانت صحيحةً، والميت رحمه الله، واليتيم جبَرَهُ الله، والمال ثمَّرهُ الله، والساعي لعَنهُ الله».

وفي «**الصحيحين**»[٣] من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**» وفي رواية: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**».

والنميمة سببٌ من أسباب عذاب القبر؛ **ففي «الصحيحين»**[٤] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي**

---

(١) «الإحياء» للغزالي (٤/ ٢٦٧)، وانظر: «الكبائر» للذهبي (ص:١٧٢).

(٢) (ص: ٣٧٢). وانظر: «الكبائر» (ص: ١٧١. الكبيرة: ٤٣)، و«الإحياء» (٤/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة (٦٠٥٦)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول (٢١٨)، ومسلمٌ، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

كَبِيرٍ[١]، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا بِنِصْفَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا».

وروى أحمد في «مسنده»[٢] عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ الأَنْصَارِيَّةِ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟». قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «فَخِيَارُكُمُ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ تَعَالَى، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟». قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «فَشِرَارُكُمُ الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْبَاغُونَ الْبُرَآءَ الْعَنَتَ»؛ أي: العيب.

قال الغزالي رحمه الله[٣]: وكل من حُملت إليه النميمة وقيل له: إن فلانًا قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو ممالاة عدوك، أو تقبيح حالك، أو ما يجري مجراه؛ فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه؛ لأن النمام فاسق، وهو مردود الشهادة؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله؛ قال الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى؛ فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء؛ لقول الله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

---

(١) قال الذهبيُّ في «الكبائر» (ص: ١٧٣): «قوله: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»؛ أي: ليس بكبير تركه عليهما، أو ليس بكبير في زعمهما، ولهذا قال في روايةٍ أخرى: «بلى إنه كبير».ا.هـ، وانظر: «الأذكار» (ص:٣٥٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٣٢٣)، وأحمد (٦/ ٤٥٩)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢٣٠٦)، وعبد بن حميد (١٥٨٠)، وابن ماجه (٤١١٩)- مختصرًا-، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ١٦٧)، وله شواهد صححه بها الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤٩)، وحسنه لشواهده في «غاية المرام» (٤٣٤)، وراجع: «الضعيفة» (١٨٦١).

(٣) «الإحياء» (٤/ ٢٦٧، ٢٦٨).

الخامس: أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث، لتحقق اتباعًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمته؛ فيقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا؛ فتكون به نمامًا ومغتابًا، وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت».

ومن أكثر الأمراض الخطيرة انتشارًا: الغيبة والخوض في أعراض الناس، وأكل لحومهم بالباطل، ولو نظرت إلى المقاهي والبيوت والوظائف والمصالح؛ بل لست مبالغًا إن قلت: حتى في المساجد التي أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، لرأيت العجب العجاب. ولو كان للغيبة والنميمة رائحةٌ والله ما تنفَّسنا إلا الفتن!! ولقد روى **أحمد وأبو داود وغيرهما**(١) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لاَ تَغْتَابُوا الْـمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**».

فالاغتياب محرم، وأصله: ذكر الإنسان بما يسوؤه في غيبته، والبهت في وجهه، وكلاهما مذموم كان بحق أو باطل، إلا أن يكون لوجهٍ شرعيٍّ أن يقول له ذلك في وجهه على طريق الوعظ والنصيحة(٢).

ومن نفيس ما قاله الإمام النوويُّ في «الأذكار»(٣): «الغيبة هي ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه، أو نفسه أو خَلْقه أو خُلُقه، أو ماله، أو ولده، أو والده، أو زوجه، أو خادمه، أو مملوكه، أو عمامته، أو ثوبه، أو مشيته، وحركته وبشاشته وخلاعته، وعبوسه، وطلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو رمزت، أو أشرت إليه بعينك، أو يدك، أو رأسك أو نحو ذلك.

أما البدن، فكقولك: أعمى، أعرج، أعمش، أقرع، قصير، طويل أسود، أصفر.

وأما الدين، فكقولك: فاسق، سارق خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل في

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (٤٨٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٤)، و «المشكاة» (٥٠٤٤).
(٢) «إكمال المعلم» للقاضي عياض (٨/ ٢٩).
(٣) (ص: ٣٥٨، ٣٥٩).

النجاسات، ليس بارًّا بوالده، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة.

وأما الدنيا: فقليل الأدب، يتهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقًّا، كثير الكلام، كثير الأكل أو النوم، ينام في غير وقته، يجلس في غير موضعه.

وأما المتعلق بوالده، فكقوله: أبوه فاسق، أو هندي، أو نبطي، أو زنجي، إسكاف، بزاز، نخاس، نجار، حداد، حائك.

وأما الخلق، فكقوله: سيئ الخلق، متكبر، مراء، عجول، جبار، عاجز، ضعيف القلب، متهور، عبوس، خليع، ونحوه.

وأما الثوب: فواسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثوب ونحو ذلك، ويقاس الباقي بما ذكرناه.

وضابطه: ذكره بما يكره».

وها هو تعريفُ النبيِّ ﷺ للغيبة كما في «**صحيح مسلم**»[1] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»؛ أي: قلت فيه باطلًا يتحير فيه.

والله ﷻ قد نهى وحرم وحذر تحذيرًا شديدًا من الغيبة في أسلوب قرآني بديع؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وفي «**الصحيحين**»[2] من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ تَعَالَى، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**».

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ «**رب مبلغ أوعى من سامع**» (٦٧، ٢٤٠٦)، ومسلمٌ، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

وفي «صحيح» مسلم[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا**». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**».

وفي «سنن» أبي داود والترمذي، و«مسند» أحمد[2] من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، (قَالَ غَيْرُ مُسَدَّدٍ: تَعْنِي قَصِيرَةً). فَقَالَ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**».

قال النوويُّ في «الأذكار»[3]: «قلت: مزجته؛ أي: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها، وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغ في الذم لها هذا المبلغ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، نسأل الله الكريم لطفه، والعافية من كل مكروه».

وفي «مسند» أحمد، و«سنن» أبي داود[4] من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الِاسْتِطَالَةُ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ**».

وروى أبو داود في «سننه»، وأحمد في «مسنده»[5] من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ،**

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٩)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (٤٨٧٥)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٥١) (٢٥٠٢)، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٤٢٧)، و«صحيح الجامع» (٥١٤٠).

(٣) (ص: ٣٦٠). وانظر: «رياض الصالحين» (٢/ ١٨٠). تحقيق د/ ماهر الفحل.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٩٠)، وأبو داود، وكتاب الأدب، باب في الغيبة (٤٨٧٦)، والشاشي في «مسنده» (١٩٨)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٧)، وصححه بشواهده الألباني في «الصحيحة» (١٤٣٣، ١٨٧١).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (٤٨٧٨)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٦٧١٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٣).

وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ».

وفي «سنن» أبي داود والبيهقي، «ومسند» أبي يعلي[1]- واختلف في تصحيحه وتضعيفه- من حديث أبي هريرة ﷺ قال: إنَّ مَاعِزًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى قَالَهَا أَرْبَعًا، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ قَالَ: «زَنَيْتَ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «وَتَدْرِي مَا الزِّنَا؟». قَالَ: نَعَمْ. أَتَيْتُ مِنْهَا حَرَامًا مَا يَأْتِي الرَّجُلُ مِنِ امْرَأَتِهِ حَلالاً. قَالَ: «مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؟». قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَدْخَلْتَ ذَلِكَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا كَمَا يَغِيبُ الْمِيلُ فِي الْمُكْحُلَةِ وَالْعَصَا فِي الشَّيْءِ؟». أَوْ قَالَ: «الرِّشَاءُ فِي الْبِئْرِ؟». قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله. فَأَمَرَ بِرَجْمِهِ، فَرُجِمَ فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلَيْنِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَلَمْ تَرَ إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَدَعْهُ نَفْسُهُ حَتَّى رُجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ، فَسَارَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا، ثُمَّ مَرَّ بِجِيفَةِ حِمَارٍ؛ فَقَالَ: «أَيْنَ فُلانٌ وَفُلانٌ؟ قُومَا فَانْزِلا فَكُلا مِنْ جِيفَةِ هَذَا الْحِمَارِ». قَالا: غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا رَسُولَ الله وَهَلْ يُؤْكَلُ مِثْلُ هَذَا؟ قَالَ: «فَمَا نِلْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا آنِفًا شَرٌّ مِنْ هَذَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيهَا».

فالغيبة مرضٌ سرطانيٌّ مدمر، وقد انتشر في مجتمعاتنا انتشار النار في الهشيم.

آن الأوانُ أن تعي الأمةُ مكانةَ الكلمة وقدرها، وألا تستهين بها على كل المستويات؛ على مستوى الإعلام، والصحافة، والأدب، والرسم، والدعوة، والعلم، والمعاملات، والسوق، ووسائل المواصلات.

وأذكر بموقفين للصحب الكرام لنتعلم كيف كانوا يخافون ألسنتهم.

روى مالك في «الموطأ»، وابن أبي شيبة في «مصنفه»، والبيهقي في «الشعب»،

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك (٤٤٢٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٣٣٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧١٦٤)، والدارقطني في «سننه» (٣٣٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٣٩٩)، وأبو يعلى (٦١٤٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٢٧، ٢٢٨)، وابن الجارود في «المنتقى» (٨١٤)، وقد صححه ابن حزم في «المحلى» (١١/ ١٧٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٦٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٧٣)، ولكن ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٩٥٨، ٦٣١٨)، و«الإرواء» (٢٣٥٤)، وانظر: «نصب الراية» (٣/ ٣٢٠).

وأبو نعيم في «الحلية»(١) من حديث زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، أن عُمَرُ بن الخَطَّابِ دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق وَهُوَ آخِذٌ بِلِسَانِهِ - وفي رواية: وَهُوَ يَجْبِذُ لِسَانَهُ - فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَهْ، غَفَرَ اللهُ لَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «إِنَّ هَذَا أَوْرَدَنِي الْـمَوَارِدَ».

وروى الطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب»(٢) عن أبي وائل، عَنْ عَبْدِ الله أَنَّهُ لَبَّى عَلَى الصَّفَا، ثُمَّ قَالَ: يَا لِسَانُ قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ، وَاصْمُتْ تَسْلَمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ. قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، هَذَا شَيْءٌ تَقُولُهُ أَوْ سَمِعْتَهُ قَالَ: لَا، بَلْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ».

فاحفظ لسانك واحترز من لفظه ... فالمرء يسلم باللسان ويعطب
وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن ... ثرثارة في كل ناد تخطب(٣)

- **الحالات التي تجوز فيها الغِيبة:**

قال الإمام النووي رحمه الله(٤):

«اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها: وهو ستة أسباب:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلانٌ بكذا.

الثاني: الاستعانةُ على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٧٨٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٢٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٣٥٦)، وأبو نعيم (١/ ٣٣)، وانظر «الصحيحة» (٢/ ٣٤) (٥٣٥).
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٩٧) (١٠٤٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٤٠) (٤٩٣٣)، والشاشي في «مسنده» (٥٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠٧)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٤).
(٣) نسبت هذه الأبيات لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كما في «ديوانه».
(٤) «رياض الصالحين» (٢/ ١٨٢، ١٨٦). وانظر: «الأذكار» (ص: ٣٦٣ - ٣٦٦).

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي، أو زوجي، أو فلان بكذا فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرضُ من غير تعيين، ومع ذلك، فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها: المشاورة في مصاهرة إنسان أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة.

ومنها: إذا رأى متفقهًا يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقهُ بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه. وقد يحمل المتكلمُ بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها: إما بأن لا يكون صالحًا لها، وإما بأن يكون فاسقًا، أو مغفلًا، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلمًا، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب، كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة

التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى، فهذه ستة أسباب ذكرها العلماءُ وأكثرها مجمع عليه، ودلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورة. فمن ذلك:

(١) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ؟**». متفق عليه.

احتج به البخاريُّ في جواز غيبة أهل الفساد وأهل الريب.

(٢) وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَظُنُّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا**». رواه البخاريُّ. قال: قال الليث بن سعد أحد رواة هذا الحديث: هذان الرجلان كانا من المنافقين.

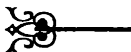
(٣) وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، قالت: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ ابْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَبَا جَهْم خَطَبَانِي؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ**». متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «**وَأَمَّا أَبُو الجَهْم فَضَرَّابٌ لِلنِّسَاءِ**» وهو تفسير لرواية: «**لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ**». وقيل: معناه: كثير الأسفار.

(٤) وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ؛ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ قَالُوا: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ الله ﷺ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوا شِدَّةٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عز وجل تَصْدِيقِي فِي ﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ. متفق عليه.

(٥) وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَتْ هِنْدٌ امْرَأَةُ أَبِي سُفْيَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ: «**خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ**». متفق عليه». انتهى.

وأختم هذا الفصلَ بسؤالٍ مهمٍّ؛ ألا وهو: ما كفارة الغيبة والتوبة منها؟



والجواب؛ كما قال النوويُّ رحمه الله في كتابه «الأذكار»[(١)]:

«اعلم أن كل من ارتكب معصيةً لزمه المبادرةُ إلى التوبة منها، والتوبة من حقوق الله تعالى يشترط فيها ثلاثة أشياء:

أن يقلع عن المعصية في الحال، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم ألا يعود إليها. والتوبة من حقوق الآدميين يشترط فيها هذه الثلاثة، ورابع: وهو ردُّ الظلامة إلى صاحبها أو طلب عفوه عنها والإبراء منها، فيجب على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة؛ لأن الغيبة حق آدمي، ولا بد من استحلاله من اغتابه، وهل يكفيه أن يقول: قد اغتبتك فاجعلني في حِلٍّ، أم لا بد أن يبين ما اغتابه به؟ فيه وجهان لأصحاب الشافعي رحمهم الله: أحدهما يشترط بيانه، فإن أبرأه من غير بيانه، لم يصح، كما لو أبرأه عن مال مجهول.

والثاني: لا يشترط؛ لأن هذا مما يتسامح فيه، فلا يشترط علمه، بخلاف المال، والأول أظهر؛ لأن الإنسان قد يسمح بالعفو عن غيبة دون غيبة، فإن كان صاحب الغيبة ميتًا أو غائبًا فقد تعذر تحصيلُ البراءة منها، لكن قال العلماءُ: ينبغي أن يكثر من الاستغفار له والدعاء ويكثر من الحسنات». ا. هـ

فالواجب على العاقل- بعد هذا البيان الخطير- أن يلزم الصمتَ إلى أن يلزمه التكلم؛ فما أكثر من ندم إذا نطق! وأقلَّ من يندم إذا سكت! وأطول الناس شقاء، وأعظمهم بلاءً من ابتلي بلسانٍ مطلق، وفؤادٍ مطبق[(٢)].

فعلى العاقل أن ينصف أذنيه من فيه، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفمٌ واحدٌ؛ ليسمع أكثر مما يقول؛ لأنه إذا قال ربما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على ردِّ ما لم يقل أقدر منه على ردِّ ما قال، والكلمة إذا تكلم بها ملكته، وإن لم يتكلَّم بها ملكها[(٣)].

والعاقل لسانه يكون وراء قلبه، فإذا أراد القول رجع إلى القلب؛ فإن قال له قال،

---

(١) (ص: ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) «روضه العقلاء» لابن حبان (٤٣).

(٣) المصدر نفسه (٤٥).

وإلا فلا، والجاهل قلبه في طرف لسانه؛ ما أتى على لسانه تكلم به، وما عقل دينه من لم يحفظ لسانه[١].

أسأل اللهَ أن يسترنا وإياكم في الدنيا والآخرة، وأن يجنبنا وإياكم الزيغَ والزللَ، وألا يجعل حظنا من ديننا قولنا، وأن يحسن نياتنا وأعمالنا؛ إنه وليٌّ ذلك والقادرُ عليه.

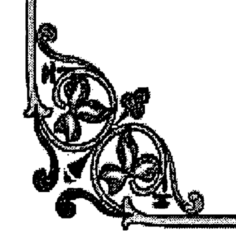
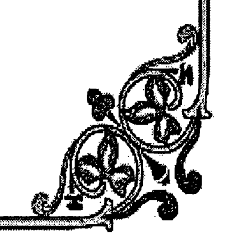
*****

---

(١) المصدر نفسه (٤٧).



ضَعْفُ الإِيمَانِ

ضعف الإيمان

فكنتُ وما زلْتُ أعتقدُ اعتقادًا جازمًا أن الخُطوة العملية الأولى على طريق التمكين في الدنيا، والسعادة في الآخرة هي تحقيق الإيمان.

ولذا؛ فمن منبرٍ إلى منبرٍ، ومن درسٍ إلى درسٍ، ومن فضائيةٍ إلى أخرى، ومن كتابٍ إلى آخر، ومن مجلسٍ إلى آخر: أحاولُ بكلِّ ما وفقني الله إليه أن أُجدِّد الإيمان في قلوب إخواني وأخواتي بالقرآن تارة، وبالسنة أخرى، وبأقوال السلف ثالثةً، وبالتاريخ والواقع رابعةً... وهكذا.

والأمةُ يوم أن حقَّقت الإيمان كانت لها القيادةُ والريادةُ والسيادةُ على جميع الناس.

فتحقيق الإيمان شرطٌ من شروط خيرية هذه الأمة الميمونة؛ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فما أعزَّ الله هذه الأمة يوم أن أعزَّهَا ومَكَّن لها ونصرها، إلا يوم أن قَوِي إيمانُهَا بربها. وما تحولوا من رعاة للإبل والغنم إلى سادةٍ وقادةٍ للدول والأمم، وما دمدمت على العالم القديم كلِّه بصولجانه وكبريائه وقوته وجبروته إلا بقوة الإيمان وتحقيقه.

ولما ضعف الإيمانُ في القلوب، وامتلأت القلوبُ بالوهن، أصبحت الأمة وراء المركب البشري ببعيد، وطمع فيها الضعيفُ قبل القوي، والقاصي قبل الداني، والذليل قبل العزيز، وأصبحت الآن مستباحةً لكل أمم الأرض؛ بل لقد ذلَّت الأمةُ لمن كتب الله عليهم الذلة، ولم تعدْ لها قيمةٌ ولا مكانةٌ بين الأمم.

ولو أنك فتشت في كلِّ بلية وكلِّ هوان حتمًا سترى السبب الأعظم في ذلك إنما هو (ضعف الإيمان) والتي ظواهره وأعراضه في الأمة الآن كثيرةٌ وخطيرةٌ!!

والله جلَّ وعلا - قد علَّق العزة والتمكين في الأرض على الإيمان؛ قال جلَّ جلاله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال جلَّ جلاله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]،وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فبالإيمان عزَّت الأمة، ومَكَّن الله لها.

فالخُطوة العملية على طريق النصر والعزة والكرامة هي تحقيق الإيمان؛ فما هو الإيمان؟

الإيمان لغةً: التصديق والإقرار؛ قال الله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقال الله تعالى - حكاية عن إخوة يوسف: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف: ١٧]؛ أي: وما أنت بمصدق لنا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»(١): «الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق،والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب - الذي هو الانقياد ـ تصديق الرسول فيما أخبر، والانقياد له فيما أمر، كما أن الإقرار بالله هو الاعتراف به والعبادة له».

وردَّ مِن وجوه عدَّة على مَن ادَّعى الترادف بين الإيمان والتصديق؛ كما في «فتاواه» أيضًا المجلد السابع (٢).

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣): «الإيمان في اللغة: يقول كثيرٌ من الناس: إنه التصديق؛ فصدَّقتُ وآمنْتُ معناهما واحدٌ لغة، وقد سبق أن هذا القولَ لا يصحُّ؛ بل الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء عن تصديق به، بدليل أنك تقول: آمنتُ بكذا، وأقررتُ بكذا، وصَدَّقتُ فلانًا، ولا تقول: آمنت فلانًا.

إذًا؛ فالإيمان يتضمن معنى زائدًا على مجرد التصديق، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار، والإذعان للأحكام.. أما مجرد أن تؤمن بأن اللهَ موجودٌ؛ فهذا

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٣٨، ٦٣٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨٩ـ ٢٩٣).
(٣) «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٥٤، ٥٥) ط ابن الجوزي.



ليس بإيمان حتى يكون مستلزمًا للإذعان والقبول» ا. هـ.

والإيمان شرعًا: اعتقادُ القلب، وقولُ اللسان،وعمل الجوارح والأركان، وهو بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

قال الطحاويُّ في «عقيدته» [1]: «والإيمان هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، وجميع ما صحَّ عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كلُّه حق، والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى».

قال ابن أبي العز في شرحه: «اختلف الناسُ فيما يقع اسمُ الإيمان اختلافًا كثيرًا؛ فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه، وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة، وأهل الظاهر، وجماعة من المتكلمين إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركَانِ». انتهى المراد.

قال الآجري في «الشريعة» [2]: «اعلموا ـ رحمنا الله تعالى وإياكم ـ أن الذي عليه علماء المسلمين؛ أن الإيمانَ واجبٌ على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان،وعمل بالجوارح، ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفةُ بالقلب والتصديق؛ إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقًا، ولا تجزئ معرفةٌ بالقلب، ونطقٌ باللسان، حتى يكون عملٌ بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الخصالُ الثلاثُ كان مؤمنًا؛ دل على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين».

والإيمان له أركان؛ كما في حديث جبريل المشهور؛ الذي رواه الإمام مسلمٌ من حديث عمر بن الخطاب ﷺ؛ وهو حديثٌ طويلٌ، لكنني أقف هنا فقط عند سؤال

---

(١) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (١٧٦، ١٧٧) ط دار أولى النهى.

تنبيه: وفي قول الطحاوي في تعريفه للإيمان نظر؛ إذ إن قوله يوافق المرجئة في قولهم: «الإيمان: إقرارٌ باللسان، وتصديق بالجنان» ا.هـ فالعمل داخلٌ في مسمى الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ قال الإمام البخاري في «صحيحه» (باب ١٨): «باب من قال: إن الإيمان هو العمل؛ لقول الله تعالى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الزخرف:٧٢]».

(٢) «الشريعة» (ص: ٩٦) ط دار الحديث.

جبريل للنبيِّ ﷺ بقوله: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ـ وَفِي رَوايةٍ: «وَلِقَائِهِ» ـ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

وللإيمان طعمٌ؛ ففي «صحيح مسلم» من حديث الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(٢).

وله حلاوة؛ ففي «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث أَنَس بن مالكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ ـ وفي رواية: «طَعْمَ الإِيمَانِ» ـ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٣).

وله نُورٌ؛ فقد روى أبو نعيم في «الحلية»، والديلمي في «مسنده» بسندٍ حسنٍ من حديث عليٍّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: «مَا مِنَ القُلُوبِ قَلْبٌ إلا ولهُ سَحَابَةٌ كسحَابةِ القمرِ، بينما القمرُ مُضيءٌ إذْ علَتهُ سَحَابَةٌ، فأظلمَ، إذْ تجلَّتْ عنه، وَأَضَاءَ، وبينما الرجُلُ يُحدث إذ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فنَسِي إذ تجلَّت عنه فذَكَرَ»(٤). تجلَّت أي: ظهرت، يعني: تعتري قَلْبَ المؤمن

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه (٨).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصيَ الكبائر (٣٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلمُ،كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٩٦)، وفي «معرفة الصحابة» (٤٤١١) وقال: «هذا حديثٌ غريب»، والطبراني في «الأوسط» (٥٢٢٠)، وأبو عبد الله بن منده في كتاب «الروح»؛ كما في «شرح حديث النزول» (٩٧)، و«الفتاوى» (٥/ ٤٥٥)، وكما في «نظم الدر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (تفسير النور: ٢٦)، والديلمي؛ كما في «الكنز» (١٣/ ١٤٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٩٨): «رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه أزهر بن عبد الله، قال العقيلي: حديثه غير محفوظ عن ابن عجلان، وهذا الحديث يعرف من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي موقوفًا، وبقية رجاله موثقون». وحسن الحديث العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٢٦٨)، وهو في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٨٢).

في بعض الأحيان سحابةٌ من سحب المعصية؛ فكما تحجب السحابةُ نورَ القمر عن أهل الأرض، كذا تَحجِبُ سُحبُ المعاصي والذنوب نورَ الإيمان في القلب؛ فيبقى في ظلمة ووحشة، فإذا سعى لزيادة رصيده الإيماني، واستعان بالله انقشعت تلك السحبُ وعاد نورُ قلبه يضيء، فإذا انقشعت سحابةُ السماء؛ وصَلَ نورُ القمر إلى الأرض، وكذا إذا انقشعت سحبُ المعاصي والذنوب بالتوبة والأوبة إلى علام الغيوب ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ عاد الإيمانُ إلى الإشراق مرة أخرى في قلب العبد المؤمن.

وفي «**مسند أحمد**»[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما مرفوعًا، والراجح أنه يصحُّ موقوفًا على حذيفة، ويَضْعُف مرفوعًا، ومدار تضعيف علمائنا لهذا الحديث على الليث بن أبي سليم، والليث متكلَّم فيه، ولفظهُ: «**القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ؛ قَلْبٌ أَجْرَد فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ؛ فَقَلْبُ الـمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيْهِ نُورُهُ** (قلبٌ تجرَّد من الشرك، والشك، والغل،والحقد، والحسد، وأشرق فيه نور الإيمان، وأنار فيه مصباحُ التوحيد، فذلك قلب المؤمن) **وَقَلْبٌ أُغْلِف عَلَى غُلَافِهِ؛ فَقَلْبُ الكَافِرِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ؛ فَقَلْبُ الـمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ؛ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ؛ فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ، كَمِثْلِ البَقْلَةِ يَمُدُّهَا الـمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمِثْلِ القُرْحَةِ يَمُدُّهَا القَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ المَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ**».

إذًا؛ الإيمان له حقيقة، وله طعم، وله حلاوة، وله نور؛ نسأل الله أن ينور قلوبنا وقبورنا،وأن يرزقنا حلاوة وطعم الإيمان؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٧)، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٣): «رواه أحمد والطبراني في «الصغير» (١٠٧٥)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم»، والراجح ضعفه، وقد أثنى عليه غير واحد، ولعل هذا مما حدا بالحافظ ابن كثير أن يجوِّد سند هذا الحديث؛ فقال: «وهذا إسناد جيد حسن» انظر: «تفسير ابن كثير» (لسورة البقرة:٢٠، وسورة النور:٣٥)، وجوَّده السيوطي في «الدر المنثور» (تفسير البقرة:٨٨).

قلت: وقد خولف الليث من الأعمش ـ ولا شك أن رواية الأعمش أرجح؛ فرواه عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة موقوفًا؛ أخرجه أحمد في «السنة» (٨٢٠)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥٠)، و«المصنف» (٦/ ١٦٨)؛ لذا ضعف المرفوع العلامة الألبانيُّ في «الضعيفة» (٥١٥٨) والموقوف على حذيفة فيه علتان:

الأولى: ضعف الليث.

والثانية: الانقطاع بين أبي البختري وحذيفة.

وهذا أصْلٌ آخر من أصول أهل السنة؛ وهو: أن الإيمان يزيدُ وينقصُ، وهذا هو معتقد النبيِّ ﷺ، ومعتقد الصحابة ﷺ، ومعتقد السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم أجمعين[(١)].

وقد ترجم الإمامُ البخاريُّ ﷺ في كتاب الإيمان بابًا بعنوان: «باب زيادة الإيمان ونقصانه»؛ فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤]، وقال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر:٣١].

وقال ﷺ كما في «مستدرك الحاكم»[(٢)] بسندٍ حسن من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ الإيمانَ لَيخلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثوبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَى: أن يُجَدِّدَ الإِيمانَ فِي قُلُوبِكُمْ**».

قال المناويُّ في «فيض القدير»[(٣)]: «**إِنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ**» أي: يكاد أن يبلى «**فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ**» أيها المؤمنون «**كَمَا يَخْلَقُ الثوبُ**» وصفه على طريق الاستعارة، شبه الإيمان بالشيء الذي لا يستمر على هيئته، والعبد يتكَلَّم بكلمةِ الإيمان، ثم يدنسها بسوء أفعاله؛ فإذا عاد واعتذر فقد جدَّدَ ما أخلق، وطهر ما دنس «**فَاسْأَلُوا اللهَ أن يُجَدِّدَ الإِيمانَ فِي قُلُوبِكُمْ**» حتى لا يكون لقلوبكم وجهة لغيره، ولا رغبة لسواه، نعم.. قد يضعف الإيمانُ حتى يكون خَلِقًا مثل الثوب البالي؛ فعلى المسلم أن يسأل الله تعالى أن يجدد له إيمانه».

ولك أن تعلم أنَّ القرآنَ الكريمَ كُلَّه من أول سورة الفاتحة إلى سورة الناس يتكلَّم في هذا الركن؛ ألا وهو ركنُ الإيمان بالله تبارك وتعالى؛ فالقرآن الكريم؛ إما حديثٌ عن ذات الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أو حديثٌ عن أسمائه الحسنى، أو حديثٌ عن صفاته العلا، أو حديثٌ عن أهل الإيمان الذين حققوا الإيمان، وما أعدَّ الله لهم في الدنيا من عزٍّ وكرامةٍ

---

(١) راجع: «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (٢/ ١٠-١٤ط الحديث)، و «الشريعة» للآجري (٨٨ - ٩٥ط الحديث)، و «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٣/ ١٧٧).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٤٥) وقال: «هذا حديث لم يخرج في الصحيحين، ورواته مصريون ثقات»، وأقره الذهبيُّ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢١٢): «رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن»، وقال العراقيُّ في «أماليه»: «حديث حسن من طريقيه»؛ كما في «فيض القدير» للمناوي (٢/ ٣٢٣)، وحَسَّنَه الألباني في «الصحيحة» برقم (١٥٨٥)، وفي «صحيح الجامع» (١٥٩٠).

(٣) «فيض القدير» (٢/ ٣٢٣).

ونصرٍ وتأييدٍ، وفي الآخرة من نعيم، وهو جزاءُ توحيدِهِ، وإما حديثٌ عمن أعرضوا عن قضية الإيمان؛ ألا وهم الكفار، أو المنافقون، وعما أعد الله ﷻ لهم في الدنيا من خزي، وفي الآخرة من عذاب الجحيم؛ فهذا جزاء من خرج عن حكم التوحيد، وإما حديثٌ عن الأمم الظالمة، أو عن الأمم الموحدة، وإما كان أمرًا أو نهيًا، أو حدًّا لتحقيق مقتضيات الإيمان؛ فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته؛ فالقرآن كلُّه في قضية الإيمان بالله تبارك وتعالى [1]؛ بل ما خلق الله الخلق، وما أنزل الكتب، وما أرسل الرسل، وما خلق الجنة والنار؛ إلا من أَجْل قضية الإيمان.. إلا من أَجْلِ أن يُفردَ الخلقُ الحقَّ تبارك وتعالى وحْدَهُ بالعبادة والإلهية؛ هذه هي صيحة كُلِّ رسول؛ بل هي دعوة كُلِّ نبيٍّ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥].

إذًا؛ فقضيةُ الإيمان بالله تبارك وتعالى هي القضية الأولى، وهي الغاية الأولى التي من أجلها خلق الله تعالى الخلقَ.

والحديث عن قضية الإيمان بالله تعالى، حديثٌ طويلٌ جليلٌ؛ لأن الحديث يستمدُّ عظمته من عظمة المادة التي هي موضوعه؛ لذا فقضية الإيمان بالله هي أعظم القضايا على الإطلاق، وأشرف المسائل باتفاق.

هذه مقدمة في حقيقة الإيمان وحلاوته وطعمه ونوره، وأنه يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ فلو تعهدت قلبك في حال المواعظ وسماع القرآن، ثم تعهدته لحظة ضعف حال رؤيتك لفيلمٍ ساقطٍ أو مسلسلٍ هابطٍ لعلمت يقينًا الفارق الكبير بين الحالين؛ فمظاهر وأعراض ضعف الإيمان: أبرزُها فِعْلُ المعاصي وارتكاب المحرمات؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:

---

(١) قال ابن أبي العز الحنفي في «شرح الطحاوية» (٢٣) بعد ذكره لهذا التفصيل الماتع عن ما تضمنه القرآن: «فالقرآنُ كلُّه في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ توحيد، ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ توحيد، ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾الذين فارقوا التوحيد...» ا.هـ.

١٦٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ لأن الزنا خُطُوات؛ فالإنسان يتردَّدُ أولًا في ارتكاب المعصية، ثم يأتي صاحبُ السوء؛ فيدفعه إلى هذا الأمر فيندفع، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ترى أحدهم في مجلسٍ من المجالس ينقل كلمةَ نميمةٍ فيوغر صدرَ الأخ على أخيه، أو يفسد بين رجل وزوجته - مثلًا - ويشعر باللوم لنفسه، وضيق في صدره، ثم يقلُّ الشعور بالندم بعد ذلك، وهكذا... ثم يتجرأ على المعصية بعد ذلك دون مبالاة أو شعور، ثم يألفها، ويُدْمِنُها، وتصبح المعصية حينئذٍ سجيةً له!!

ثم يبرِّرُ لنفسه المعصية بعد ذلك، بدعوى أننا في عصرِ فتنٍ وشهواتٍ؛ فتراه لا يشعر بشيءٍ من الخجل والندم، ثم ينتقل إلى مرحلةٍ أخطرُ وهي مرحلةُ الدعوة إلى الوقوع في فِعل المعصية؛ حتى لا يرى نفسه وحيدًا في المستنقع العفن، ثم لا يتورعُ بعد ذلك أن يرتكبَ معصيةً بالليل، ثم يصبحُ ليهتك سترَ العزيز الغفار عليه، ويتحدثَ مع الناس بفخرٍ بأنه استطاع أن يزاني فلانة أو ببنت فلان، وأنه استطاع أن يسرق كذا، أو استطاع أن يوغر بين أخوين أو بين زوج وزوجة... إلى غير ذلك.

ففي «**الصحيحين**»[1] من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ**».

وأنا أرى أَن مِنْ صُور المجاهرة الخبيثة الآن أن نرى بعض الناس يُصور نفسه في المعصية، ويضع الصورة على المحمول، ثم تنتقل على المواقع القبيحة على النت، وهذا الصنف لا يستحي من الله الذي ستره بالليل؛ فيصبح ينشر الرذيلة في الأرض؛ فهذه صورةٌ من صور المجاهرة العصرية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فمن صور ضعف الإيمان؛ احتقارُ صغائر الذنوب، ثم الوصول إلى مرحلة احتقار كبائر الذنوب:

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٦٠٦٩)، ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه (٢٩٩٠).

ففي «سنن» ابن ماجه، و«المعجم» الأوسط والصغير للطبراني، و«مسند» الروياني بسندٍ صحيح[(١)] من حديث ثوبان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ عز وجل هَبَاءً مَنْثُورًا**». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ الله صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا**».

أي: إذا أغلق بابه عليه بارز الله بالمعصية وانتهك حرمات الله - جلَّ جلاله -، وهو يعلم يقينًا أن الله يراه، لكن إن اعتقد أن الله لا يراه فقد كفر بالله تعالى؛ بل فما أعظم كفره بالله جلَّ وعلا، وإن كان يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الله تعالى يراه؛ لكنه يتجرأ على انتهاك حرماته؛ فما أقل حياءه من الله تعالى!!

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

ولقد قال أبو حامد الخُلْقاني للإمام أحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار؛ أيُّ شيءٍ تقول فيها؟ فقال: مثلُ أيِّ شيءٍ؟ قلتُ: يقولون:

إذا ما قال لي ربي ... أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي ... وبالعصيان تأتيني

فقال: أعِدْ عليَّ، فأعدتُ عليه؛ فقام ودخل بيته وردَّ الباب فسمعتُ نحيبه من داخل البيت، وهو يقول.. وجعل يردد هذه الأبيات[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب (٤٢٤٥)، والطبرانيُّ في «الأوسط» (٤٦٣٢)، وفي «الصغير» (٦٦٢)، والروياني في «مسنده» (٦٥١)؛ قال الألباني في «الصحيحة» (٥٠٥): «وهذا إسنادٌ صحيحٌ، رجاله ثقات».

(٢) راجع: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي (١ / ١١٦)، و«تلبيس إبليس» (٢٧٨، =

وقال الإمام أحمد[١] :

إذا ما خلوتَ الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيب

وكان ابن السماك ينشد[٢] :

يا مُدْمن الذنب أما تستحي والله في الخلوة ثانيكا

غرَّك من ربك إمهاله وستره طُولَ مساويكا

والله يُمهلُ ولا يُهملُ؛ فلا تغتر بحلم الله عليك؛ فكم من مغرور بستر الله وهو لا يشعر!!

قد تحتقرُ صغائر الذنوب؛ وإذا اجتمعت عليك أهلكتك، كمن يجمع أعوادًا من الحطب ليشعل بالأعواد المتفرقة نارًا متأججة.

وفي «**صحيح**» البخاري[٣] من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «**إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعْرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْمُوبِقَاتِ**». قال البخاريُّ: يعني بذلك المهلكات.

وفي «**مسند**» أحمد، و«**المعجم الكبير**» للطبراني[٤] بإسنادٍ صحيحٍ من حديث سهل

=

٢٧٩) لابن الجوزي.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩ / ٢٢٠)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٥/ ٤٦١)، والخطيب في «تاريخه» (٥ / ٢٠٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٣ / ٤٥٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (رقم: ١٠)، وراجع: «جامع العلوم والحكم» (ص: ١٦٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب ما يتقي من محقرات الذنوب (٦٤٩٢).

(٤) أخرجه أحمد (٥ / ٣٣١)، والطبراني في «الكبير» (٦ / ١٦٥)، و «الأوسط» (٧ / ٢١٩)، والبيهقي في «الشعب» (٥ / ٤٥٦)، والروياني في «مسنده» (٢ / ٢١٦)، وحَسَّنه الحافظ في «الفتح» (١١ / ٣٢٩)، وله عدة شواهد؛ من وجوه أخر صحاح وحسان؛ كما قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» لسورة النجم (آية: ٥٦، ٥٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١١ / ٦٥): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة»، وصحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٣٨٩، ٣١٠٢).

ابن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ**».

وصدق القائل:

لا تحقرن من الذنوب صغيرًا ... إن الصغير غدًا يعود كبيرًا

إن الصغير ولو تقادم عهده ... عند الإله مسطر تسطيرًا [١]

فمِن مظاهرِ ضعفِ الإيمان في القلب؛ أن يحقر العبدُ الذنوبَ، ثم يحقر أيضًا الأعمال الصالحة بعد ذلك، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**» [٢].

ومن أعراض هذا المرض الخطير؛ أن ترى الآن المسلمَ الذي ضعف إيمانُهُ في قلبه لا يعيش إلا لنفسه، وامرأته، وأولاده، وإلا لشهواته الرخيصة، وثرواته الحقيرة؛ فواقع الأمة، وواقع الدين لا يحرق قلبه، المهم أن يأكل ملء بطنه، ويضحك ملء فمه. المهم أن يعيش بين أولاده بأمنٍ وأمانٍ، وسِلْم وسلام دون باقي الأمة، وهذا إن دلَّ؛ فإنما يدلُّ على أن نور الإيمان في هذا القلب قد زال!!

وفي «**الصحيحين**» [٣] من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**».

ومن أعراض هذا المرض: الإعراض عن العبادة، والتكاسل عن النوافل، وفقد الشعور بلذة تلاوة القرآن، وقيام الليل؛ فالأمر بالنسبة له سواء؛ إن مشى بين القبور أو مشى بين القصور والأحجار والصخور.

فهو يمشي بين القبور، ومع ذلك لا يتحركُ قلبهُ، ولا يتذكر الآخرة، فهو ميت

---

(١) أخرج الأبيات ابن عساكر في «تاريخه» (٢١ / ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عن اللقاء (٢٦٢٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم (٦٠١١)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦).

القلب، ضعيف الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والله تعالى يقول: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والسؤال المهمُّ: كيف يزيد الإيمانُ في القلب؟

أصَّلنَا فيما مضى أن الإيمان: قولٌ وعملٌ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

فالعَبْدُ إذا وحَّدَ الله ﷻ وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ يكون بهذه الشهادة العظيمة قد بذر بذرةَ الإيمان في قلبه.

فإما أن يتعهد هذه البذرة لتصبح شجرةً شامخةً وارفةَ الظلال، وإما أن يَدَعَ هذه البذرة لتموت في قلبه في الحال أو بعد الحال؛ فلا يتوقف الإيمان عند مجرد النطق بالشهادتين فحسب.

فإذا نَطَقْتَ بالشهادتين فلتعلم أن للشهادتين أركانًا وشروطًا يجب عليك أن تحققها، فإن تعهدت هذه البذرة بالعناية والرعاية؛ فسقيتها بماء الإخلاص واتباع سيد الناس ﷺ ترعرعت شجرةُ الإيمان في قلبك، وآتت أُكلها كل حين بإذن ربها، وأثمرت جميع أنواع الثمار؛ فشجرة الإيمان إن استقرت في القلب؛ فهي شجرة كريمة مباركة أصلها ثابت في قرار قلب المؤمن، وفرعها متصلٌ بسدرة المنتهى في السماء.

وقد أخذت هذا المعنى من كلام جميل للإمام ابن القيم؛ حيث يقول[1]:

«إذا غُرست شجرةُ المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة سيد الناس أثمرت كلَّ أنواع الثمار، وآتت أكلَها كلَّ حين بإذن ربها؛ فهي شجرة أصلها ثابت في قرار قلب المؤمن، وفرعها متصلٌّ بسدرة المنتهى».

○ وهذه بعض الأسباب التي يزيد بها الإيمان في القلب:

- **أولاً: معرفة الله عزَّ وجلَّ بأسماء جلاله وصفات كماله:**

هل تَعَرَّفْتَ على الله ﷻ بأسماء جلاله وصفات كماله؛ فامتلأ قلبُك بحب هذه الأسماء والصفات، ثم تعبَّدت لله بمقتضى هذه الأسماء والصفات؟!.

فمعرفةُ الله ﷻ بأسماء الجلال وصفات الكمال ليست معرفة باللسان فحسب، بل

---

(١) «المدارج» (٣/ ٩).

لو تعبدت لله ﷻ بمقتضى هذه الأسماء والصفات لتذوقت حلاوةَ الإيمان، فكلُّنا يردد اسمَ: السميعَ والبصيرَ والعليمَ والرقيبَ... إلى آخر هذه الأسماء الجليلة لربنا الجليل تبارك وتعالى.

فمن عرف أن من أسماء الله «السميع»، وأنه لا يعزب عن سمعه شيءٌ في السماوات أو في الأرض، وأنه يسمعُ دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء؛ لَفَكَّر بدل المرة ألف مرة قبل أن ينطق بلفظة واحدة، لعلمه يقينًا أن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ سيسمع قولَه؛ فهل هذا القول يرضي الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أو من القول الذي سيسخط الله عليه؟!.

ومن أسماء الله «البصير» الذي يرى كُلَّ شيء ولا يغيبُ عن بصرِه شيء؛ فلو أغلقت على نفسك الأبواب والنوافذ، وأرخيت على نفسك الستور، وخلوت بنفسك؛ لو كنت ممن آمن وحقق مقتضى اسم «البصير» ما تجرأت أن تعصى الله في الخلوة وأنت بعيدٌ عن أعين الناس؛ لأنك حينئذٍ ستعلم أن ربَّك البصير يراك.

لو آمنت باسم «العليم» الذي يعلم السرَّ وأخفَى، وتعبَّدت لله بمقتضى هذا الاسم؛ فلو استطعت أن تخادع الجماهير وأن تخادع الناس بإخفاء ما يدور في قلبك؛ فلن تستطيع أن تخادعَ ربك العليم الذي يعلم السر وأخفى!!

ومن أسمائه ـ جَلَّ وَعَلاَ: «الرزَّاق»، لو عرف المسلمون حقيقة اسم الرزاق وتعبدوا لله بمقتضاه؛ ما أكلوا الحرام؛فما تجرأ على أكل الحرام إلا رجل لم يتعبد لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بمقتضى اسم «الرزَّاق»؛ لأنه لو عرف حقيقة اسم الرزَّاق لعلم يقينًا أن رزقه بيد الله ﷻ، وأن ما قدَّره الله له من رزقٍ سيكون وما لم يقدِّره الله له فلن تستطيع قوةٌ على ظهر الأرض أن تأتيه به.

فكلما ازداد العبدُ علمًا بالله ﷻ وأسمائه الحسنى وصفاته العلا ازداد حبًّا لله ﷻ، وخوفًا من عقابه، ورغبة في ثوابه،وطمعًا في جنته،وهربًا من عذابه.

○ يقول ابن القيم رحمه الله وطيَّبَ ثراه[1]:

«جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغني العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها؛ فمن شهد مشهد علو الله تعالى على جميع خلقه، ومن شهد فوقية الله تبارك وتعالى على جميع عباده، ومن شهد باستواء الله تبارك وتعالى على عرشه، كما أخبر بذلك أعرفُ الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق ﷺ ، ومن شهد ذلك وعرف أن علم الله لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ولا في قرار البحار، ولا تحت أطباق الجبال؛ بل أحاط بذلك علمه علمًا تفصيليًّا؛ من عرف ذلك امتلأ قلبه بالحب لله وحده؛ فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد، ويصلَّى له ويسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده؛ فكل عبوديةٍ لغيره باطلةٌ وعناءٌ وضلالٌ، وكل محبةٍ لغيره عذاب لصاحبها، وكلُّ غنىً لغيره فقرٌ وضلالٌ، وكلُّ عزٍّ بغيره ذلٌّ وصغار، وكل تكثر بغيره قلة وفاقة؛ فهو تعالى الذي انتهت إليه الرغباتُ، وتوجهت نحوه الطلباتُ».

فعلى قدر الحب لله ﷻ، وعلى قدر البغض لما حَرَّمه الله ﷻ يكون الإيمانُ في القلب؛ فاعلم أن المعرفةَ بأسماء الله ﷻ وبصفاته معرفة حقيقية يتعبد بمقتضاها العبدُ لربه مما يغذي شجرةَ الإيمان في القلب، ولذلك كان أعلمُ الناس بالله أكثرهُم خشية من الله ﷻ؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وهم الذين عرفوا قدْره وعظمته وجلاله، وما تجرَّأ على معصية الله إلا جاهل بالله؛ قال سبحانه: ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الحج:٧٤].

فكلَّما تعرَّفت على قدْرِ الله، وعلى عظمة الله، وعلى جلال الله، وعلى هيبة الله ﷻ، امتلأ قلبك بالإيمان، وازددتَ خشيةً للرحيم الرحمن.

فمن عرف أن الله هو الغنيُّ عرف نفسه بالفقر، ومن عرف ربه بالعزِّ عرف نفسه

(١) «طريق الهجرتين» (٧٨-٨٠ بتصرفٍ). وراجع: «معارج القبول» (١/ ٨٥ ـ ٨٧) بتصرفٍ في المعنى، و«شجرة الإيمان» للسعدي (٣٥ـ ٥٥).

بالذل، ومن عرف ربه بالقوة عرف نفسه بالضعف، ومن عرف ربه بالعلم عرف نفسه بالجهل[(١)]، وهكذا كلَّما ازددت علمًا بالله ومعرفة به ازددت تواضعًا وخشية وذلًّا وانكسارًا وحبًّا لله ﷻ، فتعَرَّفْ على الأسماء وعلى الصفات وتَعَبَّد لله بمقتضاها تُغذِّى شجرة الإيمان في قلبك.

• **ثانيًا: معرفةُ النبيِّ ﷺ:**

لقد كان وجودُ النبيِّ ﷺ بين أصحابه من أعظم الآيات والأسباب التي تقوي الإيمان في القلب، وكان يكفي أن ينظر أحدُهم إلى وجْهِ النبيِّ ﷺ ليزداد إيمانًا بالربِّ العلي؛ إلا من طُمس على بصيرته وبصره؛ فالمشرك العاقل المنصف إذا نظرَ إلى وجهِ النبيِّ ﷺ يؤمنُ بالله ويصدق.

قال عبدُ الله بن سلام «حبرُ اليهود»: «فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلى وَجْهِهِ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ»[(٢)]، وذلك قبل أن يُكَلِّم النبيَّ ﷺ كلمةً؛ بل عندما نظر في وجهه آمن به وصدقه.

ثم سأل النبيَّ ﷺ بعض الأسئلة التي لا يعرفها إلا نبيٌّ، فأجابه عنها؛ فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[(٣)].

يقول حسان بن ثابت[(٤)]:

لو لم تكن فيه آيات مُبينةٌ ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

وهو الذي قال للنبيِّ ﷺ[(٥)]:

قيامي للعزيز عليَّ فرضٌ ... وتركُ الفرض ما هو مستقيمُ

---

(١) راجع في هذا المعنى: «طريق الهجرتين» (٢٣، ٢٤).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة القيامة (٢٤٨٥)،وابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام (٣٢٥١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٢/ ٣٠٣).

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٠٠).

(٤) انظر «إعانة الطالبين» (٣/ ٢٦٣).

(٥) كما في «صحيح» البخاريِّ، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩١١)، من حديث أنس ﷺ.

عجبت لمن له عقلٌ وفهم يرى هذا الجمال ولا يقومُ

فلقد نهاهم النبيُّ ﷺ بأبي هو وأمي عن ذلك[١]؛ فقد كان لا يحب أن يقف الناسُ بين يديه؛ فهو المتواضع الذي علَّم الدنيا حقيقة التواضع، ودخل عليه أعرابيٌّ فنظر إليه النبيُّ ﷺ فارتعد الأعرابيُّ؛ فالتفت إليه النبيُّ ﷺ وقال: «**هَوِّن عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَت تَأْكُلُ القَدِيدَ فِي مَكَّةَ**»[٢].

ومن عظيم وجميل تواضعه ﷺ: أنه كان يُردف خلفَه على دابةٍ واحدةٍ أصحابه، ومن هؤلاء: عبد الله بن عباس، وأسامة بن زيد، والفضل، ومعاذ ـ رَضيَ اللهُ عَنْهُمْ جميعًا ـ[٣]؛ فمعرفة النبيِّ ﷺ خَلْقًا وخُلُقًا، ومعرفة سيرته ودلائل نبوته ومعجزاته الباهرات؛ من الأسباب التي تقوي الإيمان في القلب؛ فلا شك أن المنصف لو وقف أمام معجزةٍ من معجزات النبيِّ ﷺ لامتلأ قلبُهُ إيمانًا؛ فلك أن تتصور أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في يوم من الأيام وهم يجلسون في المسجد والنبيُّ ﷺ يخطب على جذع نخلة؛ فلما ترك النبيُّ ﷺ الجذعَ وصعد المنبر حنَّ الجذع وبكى لفراقه، ولك أن تتصور كيف يكون حالُ أصحاب النبي ﷺ وهم يسمعون الجذع يبكي لفراق المصطفى ﷺ[٤]؟!!

فالمؤمن يزداد إيمانًا، والعاقل يشهد أن لا إله إلا الله.

وكيف يكون حالُ أولئك الذين طلبوا من النبيِّ ﷺ آيةً وحددوا له الآية!! طلبوا منه أن

---

(١) انظر: البخاريَّ في «الأدب المفرد» (٩٤٦)، وأحمد (٣/ ١٣٢، ١٣٤، ١٥١، ٢٥٠)، والترمذي (٧٥٤)، و«الشمائل» (٣٣٦)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٩٨)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي والشمائل».

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢١) عن قيس بن أبي حازم به مرسلًا، وأخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والحاكم في «مستدركه» (٣/ ٤٧، ٤٨) موصولًا عن ابن مسعود، وقد صحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٨٧٦).

(٣) انظر: «سبل الهدى والرشاد» للإمام الصالحي (٧/ ٣٧٦)؛ فقد عدَّ جماعةً ممن ركب خلف النبي ﷺ منهم: أبو بكر، وأبو ذر، وابن عباس، وأسامة بن زيد، وأبو المليح بن أسامة، ومعاذ بن جبل، والفضل بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وقُثَمْ، وغيرهم.

(٤) انظر: البخاريَّ (٩١٨، ٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥)، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» (٩/ ٤٩٤).

يشق لهم القمر نصفين؛ فسأل النبيُّ ﷺ ربَّه أن يشق القمر في السماء نصفين، فاستجاب الله له [(١)].

وحين يرى المؤمنُ هذه الآية يزداد إيمانًا أن هذا النبيَّ ﷺ هو رسولٌ من عند الله - جَلَّ وَعَلاَ -.

وكيف يكون حالُ رجال يرون النبيَّ ﷺ يضع يده في إناءٍ فيه قليلٌ من الماء ويدعو النبيُّ ﷺ ربَّه؛ فيرى هؤلاء الماءَ يتفجرُ من بين أصابعِه ﷺ؛ فيشربون ويتوضؤون ويملؤون أوعيتهم بالماء؛ فقالوا: كَمْ كنتم يومها يا أنسُ، قال: «ثلاثمائة أو يزيد» [(٢)].

فالمؤمن الصادق حينما يقفُ على هذه الآيات ـ حتى وإن لم يرها بعينه ـ يزداد إيمانًا بالله وبرسوله ﷺ؛ بل المؤمن الصادق يثق فيما رآه النبيُّ ﷺ بعينه أكثر من ثقته فيما رآه هو بعَيْنَي نفسِهِ؛ لأن بصرك قد يزيغُ، أما بصر النبيِّ ﷺ فلا يزيغُ ولا يطغى؛ قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧].

وعندما تقفُ عند هذه يمتلأ قلبُك حبًّا له وإيمانًا به؛ فالمؤمن الصادق ما عليه إلا أن يقف مع الدليل الصحيح؛ فإن ثبت بالدليل الصحيح أن الماء قد تفجَّر من بين أصابعه ﷺ، وأن القمرَ قد انشقَّ له نصفين ﷺ، وأن الجذعَ قد حنَّ لفراقه ﷺ، وأن الطعام قد سبَّح الله بين يديه ﷺ [(٣)]. وأن الحجرَ قد سلَّم عليه [(٤)]، وغير ذلك من الآيات والمعجزات.

فالمؤمن الصادق - حتمًا - يزداد الإيمان في قلبه بالله ﷻ، وبالصادق المصدوق ﷺ.

* فتعرَّفْ على النبيِّ ﷺ؛ بالوقوف على صفاته الخَلْقِية والخُلقية، وعلى سيرته العطرة

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبيُّ ﷺ آية ما فأراهم انشقاق القمر (٣٦٣٧)، وانظر أطرافه هناك، ومسلمُ، كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (٢٨٠٢)، وانظر: «صحيح» البخاريِّ (٣٨٦٨- ٣٨٧٠ و ٤٧٦٧ و ٤٨٢٠ و ٤٨٦٤ - ٤٨٦٦ و ٣٨٦٩)، و«مسلم» (٢٨٠٠-٢٨٠٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٢)، و مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ (٢٢٧٩).

(٣) انظر: «صحيح» البخاريِّ (٣٥٧٩)، و«سنن» الترمذي (٣٦٣٣).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٢٧٧).

الزكية، وحياته الطيبة المرضية، وسنته النبوية؛ تزدد إيمانًا بالله ورسوله وحبًّا لله ولرسوله ﷺ.

قال العلامة السعديُّ ـ رحمه الله تعالى: «ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه: معرفةُ النبيِّ ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الكاملة؛ فإنَّ مَنْ عَرَفه حق المعرفة لم يَرْتَبْ في صدقه وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩]؛ أي: فمعرفته توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به؛ قال تعالى وهو يحثُّ على تدبر أحوال الرسول ﷺ الداعية للإيمان: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]»[١].

فالتعرف على أخلاق النبيِّ ﷺ من أعظم الأسباب التي تقوِّي الإيمان في القلب، ولذلك؛ فمن أعظم الأسباب التي قوَّت الإيمان في قلوب الصحابة أنهم رأوا النبيَّ ﷺ بأعينهم وسمعوه بآذانهم؛ حيث وقفوا على أخلاقه الندية،حيث ترجم النبيُّ ﷺ القرآن إلى واقع عمليٍّ وإلى منهج حياة، وحين سُئِلَتْ عائشةُ عن أخلاق المصطفى ﷺ قالت: «**كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ**»[٢].

علم الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن المنهج النظريَّ لا يمكن على الإطلاق أن يتحول إلى منهج عمليٍّ في دنيا الناس إلا من خلال قدوةٍ حيةٍ لا تبلى، وأسوةٍ طيبةٍ لا تفنى، فشاء الله أنْ يكون النبيُّ ﷺ من جنس البشر ليسمع الناسُ بآذانهم قوْله، وليرى الناس بأعينهم صدقَه فيعلموا أن هذا المنهج النظري ما أنزله اللهُ ﷻ إلا ليحوِّله الناس في حياتهم إلى منهج عمليٍّ، وإلى واقع يتألق سموًّا وروعةً وجلالًا وعظمةً وبناءً.

لذا؛ جعل اللهُ نبيَّه المصطفى ﷺ القدوة المتجددة على مرِّ الأجيال والقرون؛ فما

---

(١) «المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي» (٣/ ١١١).

(٢) جزءٌ من حديث طويل؛ أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦).

كانت سيرةُ النبيِّ ﷺ ماضيًا أبدًا؛ بل لقد جعل الله سيرته دماءً تتدفق في عروق المستقبل والأجيال، وشموعًا توقد للناس طريق ربهم وطريق نبيهم ﷺ، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

- **ثالثًا: التمسك بالكتاب والسنة، والعمل بهما.**

يجب علينا أن نحوِّل القرآنَ والسُّنَّةَ في بيوتنا ووظائفنا ومصانعنا وشوارعنا وحياتنا إلى واقع عملي ومنهج حياة؛ قال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ١-٣].

فما أنزل اللهُ القرآنَ إلا ليقيم به النبيُّ ﷺ أمّة... إلا ليربي به النبيُّ ﷺ القلوبَ والعقولَ والضمائرَ والأخلاق ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس:٧٠].

فلنرجع إلى القرآن؛ لنطبق أحكامه حُكْمًا حُكْمًا، وآيةً آيةً، وتكليفًا تكليفًا، وأمرًا أمرًا، ونهيًا نهيًا، وحدًّا حدًّا، وكلمةً كلمةً، وحرفًا حرفًا؛ قال سبحانه: ﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

فإن من أعظم صمامات الأمان في الفتن أن تجعل لك وردًا يوميًّا مع كتاب الله لا تتخلى عنه.

وأقول لك: احرص على هذا الورد كحرصك على تناول الطَّعام والشَّراب وتنفس الهواء؛ لأنك تقرأ كلامَ رب الأرض والسماء!

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

ولنرجع إلى السُّنَّة النَّبويَّة لامتثال أمر النبيِّ ﷺ واجتناب نهيه، والوقوف عند حدِّه، واتِّباعه وتبليغ دعوته ورسالته؛ إذ لا يمكن أن نفهم القرآن إلا من خلال سُنَّة النبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٦٥].

فما أحوجنا في زمن الفتن إلى التمسك بالكتاب والسنَّة؛ فوربِّ الكعبة لا مخرج للبشرية عامَّة وللأمَّة خاصة من هذه الفتنِ الحالكةِ إلَّا بالعودة الصادقة إلى القرآن والسُّنَّة.

- **رابعًا: تدبر القرآن:**

فهناك من الناس من يقرأ القرآن وهمه أن يصل إلى آخر السورة؛ ليقول: لقد ختمت القرآن في هذا الأسبوع مرة أو مرتين أو ختمته في هذا الشهر مرة أو مرتين، فلا يكن همك أن تصل إلى آخر السورة، وليكن همك أن تتدبر وأن تتفكر فيما تقرأ، قال الله - جَلَّ وَعَلاَ - في صفات المؤمنين الصادقين: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾

[الأنفال:٢].

فتلاوة الآيات تزيد الإيمان؛ لكن متى يزداد إيمانك بتلاوتك لآيات القرآن؟ إذا تدبَّرت وتفكَّرت وعشت مع المعاني، ووقفت على جلال الآيات وعظمة القرآن؛ حينئذ يزدادُ الإيمان في قلبك.

لذا أمر الله تعالى بتدبر آياته والتفكر فيها؛ فقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

فالقلبُ الذي لا يتدبر القرآن عليه قفل بنص القرآن، أما القلب المنفتح الذي يتدبرُ القرآن ويعيش مع آياته هو الذي يخشع لله الرحيم الرحمن؛ فشتان شتان بين رجل يسمع القرآن وكأنه ما سمع شيئًا!! وبين رجل سمع القرآن فوصلت آيات القرآن إلى قلبه، فخشع القلب وتلا الخشوعَ للقلب قشعريرةٌ في البدن كلِّه، وهذه حالاتٌ تنتاب الإنسان في حالةِ صدقٍ وصفاءٍ، فقد لا تحصل هذه السعادة في كلِّ وقت يُتلى القرآن فيه.. نعم لا تشعرُ بهذه اللذة والحلاوة إلا في بعض الأوقات حينما يصفو قلبك ويستعد للتدبر، ولذلك قال ﷻ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

قال جمهور المفسرين [١]: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾؛ أي: حيٌّ [٢] يعقلُ عن الله - جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾؛ أي: أصغى السمعَ للقرآن، وأحضر قلبه.

لكِنْ عقلٌ غافلٌ، وسمعٌ لاهٍ، وقلبٌ منشغلٌ، ويُتْلَى بين يديه القرآنُ لن تؤثر فيه آيةٌ، ولن تحرك قلبه سورةٌ!!.

قال الله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢].

فالمؤمن الذي يتدبرُ القرآن ويقف على جلال الله وعظمته، ويؤمن بأن القرآنَ كلامُ العليمِ الخبيرِ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه لَيَزْدَادُ الإيمان في قلبه، ولو وقفتَ مع أول سورة ومع آخر سورة، ومع أول آية ومع آخر آية لتعرفت على أن هذا القرآن من عند الحكيم الخبير - جَلَّ وَعَلاَ - فازداد الإيمان في قلبك حتمًا؛ لكن المتشكك الذي يشكُّ في القرآن محالٌ أن تنبت في قلبه بذرةُ الإيمان؛ فالمؤمن بمجرد أن يتلو القرآن الكريم، ويقف على ما فيه من أخبار صادقة وآيات محكمةٍ، يعلمُ أنه لا يمكن على الإطلاق أن يكون إلا من عند الله - جَلَّ وَعَلاَ - وحتمًا سيردِّدُ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ومع هذا النداء العذب الحلو، يتضرعُ بعدها إلى الله بهذا الدعاء الذي هو ترجمةٌ فعليةٌ حقيقيةٌ لثمرة الإيمان في القلب: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[آل عمران: ١٩٣].

فلا بد أن يقفَ المؤمنُ مع آيات القرآن متدبرًا ليقف على المعاني والعبر ليستخرج الجواهرَ والدُّررَ، وليقف مع آيات الترغيب وآيات الترهيب، ليقف مع وعد الله للمؤمنين، ووعيد الله للمجرمين والمكذبين، والمعاندين، ليقف مع ما أعده الله للمؤمنين من نعيم،

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٤٣٢ - ٤٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٠١) ط أولاد الشيخ، و«الفوائد» لابن القيم (ص ٧، ٨).

(٢) عند الطبري بسندٍ صحيحٍ عن قتادة قال: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي: من هذه الأمة، يعني بذلك القَلب الحيَّ.

ومع ما أعده الله للكافرين من جحيم، ليقف مع ما نصر الله ﷻ به أولياءه، وما أعده الله ﷻ للظالمين المحاربين للأنبياء والدعاة الصادقين، كلُّ هذا مما يَقْوَى به الإيمانُ في القلب.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن؛ فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه إليه؛ فإنه خطابٌ من الله لك على لسان رسوله ﷺ»(١).

فبالله عليك إذا قرأت القرآن بهذه الطريقة، وأحضرت القلب، وأصغيت السمع، وانتبهت لكل كلمة؛ بل لكل حرف على أن القرآن خطاب من الله لك على لسان نبيه ﷺ كيف يكون حالك؟.

فكلامُ الله يحتاج إلى تدبُّر وتفكُّر، وأن تُحضر قلبك، وأن تُصغي سمعك، وأن تسأل اللهَ أن يعلمك ما فيه؛ فإن الله قد يفتح على عبدٍ من عبيده بفتوحاتٍ كريمةٍ فضلًا منه ونعمة؛ فلو تدبرنا القرآن لأذعنت القلوب لعلام الغيوب، أَمَا تعلم أن المشركين كان يوصي بعضُهم بعضًا ألا يستمعوا لهذا القرآن؛ خوفًا على قلوبهم من التحَوُّل من الكفر إلى الإيمان!!! قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

هل عَلِمْت أن المشركين طلبوا من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ألا يصلِّي خارج بيته وألا يقرأ القرآن؛ لأن النساء والصبيان كانوا إذا سمعوا التلاوة من أبي بكر رضي الله عنه ورأو بكاءه تتحول قلوبُهم(٢)!!! **بل لقد ثبت في «صحيح البخاري»** من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن المشركين لما سمعوا القرآن من النبيِّ ﷺ وقرأ النبيُّ ﷺ سورةَ النجم، وفي آخر السورة قرأ قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩﴾ [النجم:٥٩-٦٢].

سجد النبيُّ ﷺ، وسجد معه المسلمون، وخرَّ المشركون؛ بل والجن والإنس سُجَّدًا

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (٣).

(٢) انظر: «صحيح» البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٥) وفيه: قالوا لابن الدغنة: «مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا...» الحديث.

لله مع رسول الله ﷺ [(١)].

إنها عظمة القرآن وجلاله! لو تدبَّر عاقلٌ كتابَ الله - جَلَّ وَعَلاَ - والله لسَجَدَ في محراب الإذعان والانقياد لله تبارك وتعالى وقد امتلأ قلبه بالرضا عن الله، والحب لله تبارك وتعالى.

قال ابن قتيبة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧]: «استمع كتابَ الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارةٌ إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثرُ وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرطُ وهو الإصغاء، وانتفى المانعُ وهو اشتغالُ القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثرُ وهو الانتفاع والتذكر والتدبر» [(٢)].

أسأل اللهَ أن يجعلني وإياكم ممن يستشعرون حلاوة القرآن.

- **خامسًا: التفكر في مخلوقات الله ﷻ:**

لاشك أن التفكرَ في مخلوقات الله من أعظم العبادات، ولك أن تتصورَ أن النبيَّ ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

قال: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا» [(٣)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين، والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١)، وفي كتاب التفسير، باب ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ (٤٨٦٢) بمعناه، وفي رواية عند البخاري (٤٨٦٣) عن ابن مسعود قال: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ: «وَالنَّجْمِ»، قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ.

(٢) راجع «الفوائد» لابن القيم (١٠).

(٣) أخرجه ابن حبان؛ كما في «الإحسان» (٦٢٠)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (ص١٨٦) وابن مردويه، وابن المنذر، وابن عساكر، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في «التفكر»؛ كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٤١)، و «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ١٩٥)، =

فانظر إلى السماء وارتفاعها، وإلى الأرض واتساعها، وإلى الجبال وأثقالها، وإلى الأفلاك ودورانها، وإلى البحار وأمواجها، وإلى كل ما هو متحرك، وإلى كل ما هو ساكن، سترى الكلَّ يقر بتوحيد الله، ولا يغفل عن ذكر مولاه إلا مَنْ كفر من الإنس والجن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فالتفكر في مخلوقات الله ﷻ مما يقْوى به الإيمانُ في القلب.

يقول الغزاليُّ ـ رحمه الله تعالى: «والعجب كلُّ العجب ممن يرى خطًّا حسنًا، أو نقشًا حسنًا على حائط فيستحسنه، فيصرف جميعَ همه إلى التفكر في النقَّاش والخطاط، وأنه كيف نَقَشه وخطَّه، وكيف اقتدر عليه، ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقولُ: ما أحذقه، وما أكمل صنعته، وأحسن قدرته، ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره، ثم يغفلُ عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته، ولا يحيره جلاله وحكمته»(١).

قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١].

فنظرك فيك يكفيك على أن الخالق هو الله، وعلى أن الذي يستحقُّ الثناءَ والحمدَ والعبادةَ هو الله ﷻ وحده دون منازعٍ أو شريكٍ.

- **سادسًا: كثرة النوافل بعد الفرائض:**

فاحرص على النوافل بعد أداء الفرائض؛ فذلك مما يجلب محبةَ الله لك؛ كما قال الله في الحديث القدسي: «**وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»(٢).

فإذا ما أديت الفرائضَ أكثر من النوافل، ثم تهجَّدت لله ﷻ في الليل، أكْثرت من الصيام، وأكْثرت من الصدقة، وأكْثرت من أعمال البر والخير؛ فإن ذلك مما يقوِّي الله به الإيمان في قلبك.

= وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٦٨).

(١) «إحياء علوم الدين» (٢٨٢٠)، ط الشعب.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

- **سابعًا: تعريضُ القلب والنفس إلى بيئة الطاعة وأن تحجب القلب والنفس عن بيئة المعصية:**

فالإيمان يزيدُ وينقصُ؛ يزيد بالطاعاتِ، وينقص بالمعاصي والزلات؛ فمن المحال أن تُعَرِّضَ قلبَك لبيئة معصية، وتنتظر أن يقوى الإيمانُ في قلبك في هذه البيئة.. هيهات هيهات!!

ألقاهُ في اليمِّ مكتوفًا وقال له ... إيَّاك إيَّاك أن تبتلَّ بالماء

فَعَرِّضْ قلبَك لبيئةِ الطاعة؛ كمجالس العلم، وقراءة القرآن، والاستغفار، والنوافل، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله؛ كلُّ هذا من عوامل الخير التي يَقْوى بها الإيمانُ في قلبك، وابتعدْ عن بيئة المعصية؛ فإن بيئةَ المعصية من الأسباب التي تُضْعِفُ الإيمانَ في القلب، يأبى الله ﷻ إلا أن يذل من عصاه، ويأبى الله إلا أن يعز من أطاعه واتقاه؛ فمحال أن تعصي الله في أول الليل ليقيمك الله بين يديه في آخره، إلا إذا تبت إليه وأنبت، وأقلعت عن المعصية.

ففتش جيدًا عن المواد التي تعرضُها كُلَّ سَاعةٍ على قلبك؛ فمواد الإيمان تزيدُ الإيمان في قلبك، ومواد المعصية تُضعف الإيمان.

أسأل الله ﷻ أن يزيد الإيمان في قلوبنا، إنه وليُّ ذلك ومولاه.

- **ثامنًا: ذِكْرُ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى:**

فالذكر من أعظم مقويات الإيمان في القلب، فكن ذاكرًا لله تعالى في كل نفسٍ من أنفاس حياتك؛ فالذاكر لله حيٌّ وإن توقفت منه الأعضاء، والغافل عن ذكر الله ميت، وإن تحرك بين الأحياء؛ ففي «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ والَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ؛ كَمَثَلِ الحَيِّ وَالـمَيتِ»** [1].

فأكثر من ذكر الله تعالى ليحيى قلبُكَ دائمًا وإلا؛ فكما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٧)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٧٩).

فلا تغفل عن الذكر؛ **فكما قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى**: «الذكر هو المنزلة الكبرى التي منها يتزودُ العارفون، وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون، وهو منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب العارفين التي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهابَ الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوبُ، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب، به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاءُ فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازلُ فإليه مفزعهم؛ فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا، وفي كل جارحة من الجوارح عبوديته مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب وهو عماراتها وأساسها، وهو جلاء القلوب وصقالتها،ودواؤها إذا غشيها اعتلالُها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد محبة إلى لقائه للمذكور واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ اللهُ عليه كل شيءٍ، وكان له عوضًا من كل شيءٍ؛ به يزول الوقرُ عن الأسماع، والبكمُ عن الألسنة، وتنقشع الظلمةُ عن الأبصار. زيَّن الله به ألسنة الذاكرين؛ كما زيَّن بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل، كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته؛ قال الحسن البصري: «تفقَّدوا الحلاوةِ في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن؛ فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق»[(١)].

- **تاسعًا: أن تشارك في الدعوة إلى الله ﷻ:**

فلقد دعا النبيُّ ﷺ لحامل الدعوة؛ فكن أنت؟ وكفاك شرفًا أن يكون النبيُّ ﷺ قد دعا لك، وقد خصَّك بالدُّعاء؛ فقال ﷺ:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٣، ٤٢٤)، وانظر: فوائد الذكر لابن القيم في كتابه الطيب: «الوابل الصيب».

«نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَبَلَّغَهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»(١).

فشارك في الدعوة بأقلِّ جهدٍ تنالُ هذا الفضلَ، وحتَّى تكون ممن خصَّهم النبيُّ ﷺ بهذا الدعاء الكريم، وحتَّى تكونَ من حواريِّ وأنصار رسول الله ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال جَلَّ في عُلاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فالجزاءُ من جنس العمل؛ فمن كان يسعى لإحياء قلوب الناس بالإسلام والإيمان؛ فإن الله ﷻ يكافئه بحياة قلبه، ونماء شجرة الإيمان فيه، وأسأل الله أن يجعلنا جميعًا دعاةً إلى الخير، وأن يزيد الإيمانَ في قلوبنا.

- **عاشرًا: الدعاء:**

فالدعاءُ من أعظم العبادات والقربات؛ بل هو العبادة؛ كما أخبر النبيُّ ﷺ(٢)،

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠)،والترمذي،كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٧)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علمًا (٢٣٠)، والدارمي في المقدمة، باب الاقتداء بالعلماء (٢٢٨- ٢٣٠)، وأحمد في «المسند» (١/ ٤٣٧)، (٣/ ٨٠، ٨٢)، (٥/ ١٨٣)، وأبو يعلى في «المسند» (٥١٢٦، ٧٤١٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٢٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٨٦، ٨٧)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، والقضاعي في «مسنده» (١٤٢١) والحديث عدَّه العلماء من الأحاديث المتواترة.

(٢) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧١٤)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء (١٤٧٩)، والترمذي، كتاب التفسير سورة البقرة (٢٩٦٩) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧) وغيرهم، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود»، و «صحيح الجامع» (٣٤٠٧)، و «المشكاة» (٢٣٣٠).

فتحول القلب إلى الطاعات بيد الله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

روى مسلمٌ في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»[(١)].

ولذلك كان من أكثر دعا النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِيْنِكَ**»[(٢)].

وهو الذي علَّمنا ذلك وأمرنا بالدعاء؛ فقال كما في الحديث الذي رواه الطبرانيُّ، والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الإِيْمانَ لَيَخْلقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبَ، فَاسْأَلُوا الله تَعَالَى أَنْ يجَدِّدَ الإِيْمانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[(٣)].

فاللهم جدِّد الإيمانَ في قلوبنا، وثبِّتنا على الإيمان حتى نلقاك.

كيف تعرف أنك مؤمن؟

والجواب: اعرض نفسك على آيات الإيمان في القرآن، وعلى صفات المؤمنين، وفكِّر هل أنت ممن توفرت فيهم هذه الصفاتُ أم لا؟ فقف - مثلًا - مع أول سورة المؤمنون:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

[المؤمنون:١-٩].

فهل تخشعُ في الصلاة؟

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤).

(٢) انظر: «سنن الترمذيِّ» (٢١٤٠، ٣٥٢٢، ٣٥٨٧)، وابن ماجه (٣٨٣٤) وغيرهما، و«صحيح الجامع» (٧٩٨٧، ٧٩٨٨)، و«مشكاة المصابيح» (١٠٢).

(٣) تقدم آنفًا.

إن كنت ممن يخشع قلبه في الصلاة؛ فأنت من المؤمنين.

هل أعرضت عن اللغو؟

هل إذا كنت في مجلسٍ لغوٍ أو في مجلس غيبةٍ أو نميمةٍ قُمْتَ وانصرفتَ وذكَّرت من يقع في إخوانك أم أنك تبقى جالسًا وتسعد وتشعر بلذةٍ حينما تستمع إلى هذه الكلمات؟!!

اعرض الآيات على قلبك، وأجب نفسك بنفسك، لتتعرف هل أنت من المؤمنين الصادقين أم ممن ادَّعوا الإيمان؟!.

والصفة الثالثة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾.

والرابعة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾. هل حفظت الفرج من أي شيء حرمه اللهُ ﷻ ورسوله ﷺ؟ فالمؤمن هو الذي يحفظ فرجه إلا على زوجته.

والخامسة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾. هل حفظت الأمانة وراعيت العهدَ؟

والسادسة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾. هل أنت ممن يحافظُ على الصلاة في بيوت الله ﷻ؟

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]. هل لو قُرئ عليك القرآنُ وَجِل قلبُكَ وازددت إيمانًا، وازددت توكلًا ويقينًا في الله، وثقةً ورجاءً في الله ـ جَلَّ وَعَلا؟ هل أنت ممن قال اللهُ فيهم: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة:٧١].

هل فيك من صفات المؤمنين التي أخبر اللهُ عنها في قوله: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١١٢].

هل أنت من أهل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١١٧].

هل تحبُّ شرعَ الله وحكمه وتسلِّم لشرعه؟ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

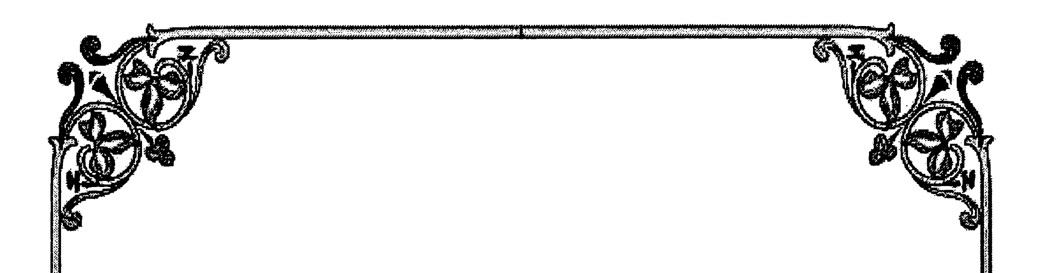
هل تحبُّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك؟ هل تحبُّ الرسول ﷺ أكثر من والدك وولدك والناس أجمعين؟ هل من صفاتك الحياء؟ هل تُكرم الضيف؟ وتَلْزَم الصَّمْت إلا عن الخير؟ هل يسْلَم المسلمون من لسانك ويدك؟ هل رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا؟ هل تسرُّك حسنتك وتسوءك سيئتك؟ هل تحافظُ على الوضوء؟.. هل.. هل؟!! أسئلة كثيرة.

فاعرض نفسك على صفات أهل الإيمان في القرآن والسنة تقف على الجواب، هل أنت من المؤمنين الصادقين أم أنت ممن يدَّعى الإيمانَ بالله رب العالمين، وسيد النبيين ﷺ؟

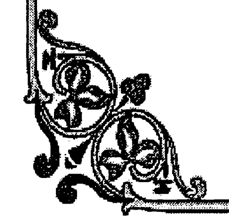
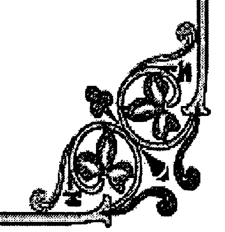
فكلَّما ازداد العبدُ إيمانًا بالله وعمِلَتْ جوارحهُ بطاعة الله أينعت شجرةُ الإيمان في قلبه وازداد حبُّه لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وهنا يتذوق العبدُ طعمَ الإيمان، ويجد حلاوته في قلبه، وينبعث نورُ الإيمان في القلب بعدما تُمحى سحائب الظُلَم والذنوب والمعاصي؛ فيرى نفسه دومًا على طاعة الله تعالى.

أسأل الله أن يملأ قلوبنا نورًا، وإيمانًا به وبرسوله؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

*****



التَّعَرُّضُ لِلْفِتَنِ

التعرض للفتن

حديثنا في هذا الفصل - بإذن الله - عن مرضٍ وبالٍ، وداءٍ عضالٍ، فيه خسران الدنيا والآخرة؛ لأنه يُعمي البصر عن رؤية الحق، وعن رؤية الدليل، ويُضلُّ صاحبه عن سلوك الصراط المستقيم.

إنه مرضٌ خطيرٌ جدُّ خطير.. إنه: «التعرض للفتن».

أيها الأحبة:

يجب على الأمة جميعها أن تفطن لهذا المرض لخطورته ووباله.. ولنبدأ حديثنا بتأصيل معنى الفتن في اللغة.

فقال ابنُ منظور في «اللسان»(١):

«الفتن: قال الأزهري وغيره: جماع معنى الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار.

وأَصلها مأْخوذ من قولك: فتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّد.

وقال ابن الأعرابي: الفتنة: الاختبار، والفتنة: المحنة، والفتنة: المال، والفِتْنة: الأَوْلادُ، والفِتْنة: الكُفْرُ، والفِتْنةُ: اختلافُ الناس بالآراء، والفِتْنةُ: الإِحراق بالنار، وقيل: الفِتْنة: الظُّلْم، والفِتْنة: الضلال والإِثم، والفتنة: الإضلال، وَقَوْله ﷻ: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢] يقول: ما أَنتم بِمُضِلِّين إِلا من أَضَلَّ الله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة: ١٩١] معنى الفِتْنة ههنا: الكفر، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: ١٩٣]، والفِتْنةُ: الفَضِيحة، وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٤١] قيل: معناه: فضيحته، وقيل: كفره، قال أَبو إِسحق: ويجوز أَن يكون اختِبارُه بما يَظْهَرُ به أَمرُه، والفِتْنة: العذاب، نحو تعذيب

(١) «لسان العرب» (١٠/ ١٧٨) بتلخيص، وانظر: «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٤٧٢)، و«الصحاح» للجوهري (٦/ ٢١٧٦)، و«النهاية» لابن الأثير (٣/ ٤١٠، ٤١١).

الكفار ضَعْفَى المؤمنين في أول الإسلام؛ ليَصُدُّوهم عن الإيمان.

والفِتْنةُ: ما يقع بين الناس من القتال، والفِتْنةُ: القتل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [النساء: ١٠١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]؛ أي: يقتلهم.

وأما ما جاء في «**الصحيحين**»[١] من حديث أسامة بن زيد قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ**»؛ فإنه يكون القتل والحروب والاختلاف الذي يكون بين فرق المسلمين إذا تحزبوا، ويكون ما يبلون به من زينة الدنيا وشهواتها، فيفتنون بذلك عن الآخرة والعمل لها. وقوله عليه الصلاة والسلام: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[٢].

أي: أخاف أن يعجبوا بهن، فيشتغلوا عن الآخرة والعمل لها، أو يزلُّوا في الوقوع في المعصية. والفتنة: الاختبار، وفتنه يفتنه: اختبره. وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]. قيل: معناه: يختبرون بالدعاء إلى الجهاد، وقيل: يفتنون بإنزال العذاب والمكروه».

وكما أن الابتلاء فتنة؛ كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]؛ فالخير والشر فتنة؛ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] أي: نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى؛ لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط؛ نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال[٣].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل المدينة، باب آطام المدينة (١٨٧٨)، ومسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٥) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٩٦)، ومسلمٌ، كتاب الرقاق باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٤٢).

وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] والمال فتنة، والأولاد فتنة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] أي: اختبار وامتحان من الله لكم؛ إذ أعطاكموها، ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟[١].

ولا زلنا نرى من هذه الفتن كل يوم أنواعًا وأشكالًا؛ نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ إنه على كل شيء قدير.

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن من أشراط الساعة: ظهور الفتن العظيمة التي يلتبس فيها الحقُّ بالباطل، فتزلزل هذه الفتنُ الإيمانَ في القلوب، حتى يصبح الرجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، كلما ظهرت فتنةٌ من الفتن قال المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، فيظهر غير هذه الفتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي هذه مهلكتي، ثم تنكشف فتظهر فتنةٌ أخرى، وهكذا لا تزال الفتن تظهر إلى قيام الساعة، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ؛ ففي الحديث الذي رواه الإمام مسلمٌ من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْـمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[٢].

وها نحن الآن نرى مصداق كلام النبي ﷺ؛ فكم من أناس يبيعون دينهم بعرض من الدنيا حقير، من أجل كرسيٍّ زائل، أو منصبٍ فانٍ، أو وظيفةٍ من الوظائف، أو شهوةٍ رخيصة، أو شبهةٍ حقيرة، وربما لا يتورع الرجلُ أن يكذب، أو ينافق، أو يخادع للوصول إلى هذه الغاية، فإذا ما وصل إلى الغاية التي أراد تَنكَّر لِخُلِّ وعوده وعهوده.

ولذا حذر النبيُّ ﷺ من فتنة الدنيا، كما في «**الصحيحين**» من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ أنه قال ﷺ: «**وَالله مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم**»[٣].

---

(١) المصدر نفسه (٤/ ٤٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٤٢٥) وفي =

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»، وأبو داود في «سننه»، وابن ماجه في «السنن»، والحاكم في «المستدرك»، وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبيُّ والألبانيُّ من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا** - أي: في هذه الفتن - **خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، فَكَسِّرُوا قِسِيَّكُمْ، وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرِبُوا بِسُيُوفِكُمُ الْحِجَارَةَ؛ فَإِنْ دُخِلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ**»(١) . أي: كالذي قُتل.

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ من حديث أم سَلَمَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ رَسُولُ الله ﷺ لَيْلَةً فَزِعًا - يعني: استيقظ ليلة من لياليها فزعًا - يَقُولُ: «**سُبْحَانَ الله! مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنْ الْفِتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنْ الْخَزَائِنِ، أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ** - أي: من يوقظ زوجات النبيِّ الطاهرات، لكي يصلين - **فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ**»(٢) .

وأحاديث الفتن كثيرةٌ جدًّا.

وقد أمر النبيُّ ﷺ أن يتعوذ العبد من هذه الفتن؛ كما في «**صحيح**» مسلم من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**تَعَوَّذُوا بِالله مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»(٣) .

= (٣١٥٨)، ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقاق، باب (٥٣) (٢٩٦١).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده (٤/ ٤٠٨)»، وأبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٥٩)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة (٣٩٦١)، والترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في اتخاذ سيف من خشب في الفتنة (٢٢٠٤)، وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٢٥، ٥٣١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٤٩)، و«الصحيحة» (١٦٨٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب العلم والعظة بالليل (١١٥)، وأطرافه (١١٢٦، ٣٥٩٩، ٥٨٤٤، ٦٢١٨، ٧٠٦٩).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٦٧).

وكان النبيُّ ﷺ يتعوذ في صلاته من فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال[١]، وهي أعصف وأخطر فتنة سيتعرض لها من يعيش على وجه الأرض في هذه اللحظات التي يخرج فيها الدجالُ، والعياذ بالله.

وروى **الطبراني في «المعجم الكبير»** عن عصمة بن قيس رضي الله عنه قال: كَانَ رسول الله ﷺ يَتَعَوَّذُ بِالله مِنْ فِتْنَةِ الْـمَشْرِقِ؛ قِيلَ لَهُ: فَكَيْفَ فِتْنَةُ الْـمَغْرِبِ؟ قَالَ: «**تِلْكَ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ**»[٢].

وفي لفظ: «**تِلْكَ أَعْظَمُ وَأَطَمُّ**».

وكثيرٌ من أفراد الأمة الآن يُعَرِّضُ نَفْسَه للفتن وهو لا يَعِيَ خَطَرَها! ولا يعلم كيف يكون حال قلبه إذا تعرض للفتنة؟!

وقد يتحمس شابٌّ أو تتحمس فتاةٌ ويريد أن يذبَّ عن الإسلام، أو أن يدفع شبهةً عن الإسلام، فيدخل إلى أيِّ موقع على الانترنت، أو أيِّ موقع من مواقع الدردشة، وهو يتصور أنه سيدحض الشبهات التي يُتهم بها الإسلام، وهو لم يُرسِّخ عقيدة التوحيد في قلبه بَعْد، وليس على بصيرة بالعلم الشرعي من الكتاب والسنة، وليس على بصيرة بالأدلة، ولا يعرف مراتبها ولا مناطاتها، ولم يقف على شبهات القوم وعلى ردود أهل العلم؛ فربما يدخل ولا يخرج، وهذا واقع ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؟

ولقد روى **أبو داود في «سننه» بسندٍ صحيحٍ**[٣] من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه

---

(١) انظر: «صحيح» البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام (٨٣٢)، وانظر أطرافه هناك، و«صحيح» مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، وروي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٨٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٣٨٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٢٠): «راوه الطبراني، ورجاله ثقات»، ونعيم بن حماد في «الفتن» (٧٤٨، ٧٤٩).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٧٥).

قال: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا».

فلا تعرض نفسك للفتنة؛ لأنك لا تضمن قلبك في الفتن؛ فقد روى **أحمد في «مسنده»**، **وهناد في «الزهد»**، **والبيهقي في «الشعب»**[(١)] من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ**».

فقلبك الآن على حال، وإذا تعرض لفتنة سيتحول إلى حال آخر، وفي الوظيفة في الصباح سيتحول إلى حالٍ ثالث، وفي الجامعة سيتحول إلى حالٍ رابع، وفي وسيلة المواصلات سيكون على حالٍ خامس، وفي مجلس الغيبة والنميمة، وأمام فضائيةٍ فاضحةٍ لا ترقب في مؤمن إلًّا ولا ذمة، ترى القلبَ على حالٍ آخر، وهكذا؛ فالقلب متقلب، وما سمِّي القلبُ قلبًا إلا لكثرة تقلبه.

وفي «**صحيح**» **مسلم**[(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ يقول: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**».

وفي «**الصحيحين**»[(٣)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ،**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٨)، وهناد في «الزهد» (١٢٣٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٢٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٢) عن أبي موسى ﷺ مرفوعًا وموقوفًا، وفيه أبو كبشة – وهو السدوسي – «مقبول» عند الحافظ؛ أي: حيث يتابع.
وقد توبع من غنيم بن قيس؛ أخرجه أحمد (٤/ ٤١٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» كما في «ظلال الجنة» (٢٢٧)، وابن أبي شيبة في «مسنده»؛ كما في «الإتحاف» (١/ ٣٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٣٥)، وابن ماجه في «المقدمة» (٨٨)، وله شواهد أخر؛ وقد صححه العلامة الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ٨٥)، والأرناؤوط في تحقيقه لـ «المسند» (٣٢/ ٤٣١)، وانظر «علل» الدارقطني (٧/ ٢٤٧، ٢٥٥).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠١)، ومسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦).

الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ».

ويزداد الأمر خطرًا إذا علمنا الفتن تُعرض على القلوب، وهذا مكمنُ الخطر؛ كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرِ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

والهوى مَلكٌ ظلومٌ غشومٌ جهولٌ، يصم الآذان عن سماع الحق، ويُعْمي الأبصار عن رؤية الدليل والخير، ولو كان كالشمس في ضحاها، والنهار إذا جلّاها، فصاحبُ الهوى لا يمكن أن يقبل أبدًا قولًا عن الله ولا عن رسول الله ﷺ. تقول له: الخنزير حرام، يقول لك: كان حرامًا؛ لأنه كان مريضًا وموبوءًا بالأمراض! أما الآن فالخنازير تُربَّى في المراعي الصحية، وتحت الرعاية الطبية؛ فما الداعي لتحريمها؟! تقول له: الذهب حرام، يقول: لماذا؟ ما الذي حرَّم الذهب على الرجال؟!

تقول له: الخمر حرام؟ يقول: نعم، ولكنها الآن لا تُسمَّى خمرًا، وإنما اسمها مشروبات روحية!! سمَّوْها بغير اسمها مجاراةً للعصر الذي نعيشه!

إن قلْتَ قال اللهُ قال رسولهُ	همزوك همزَ المنكر المتغالي
أو قلت قال الصحابة والأولي	تبع لهم في القول والأعمال
أو قلت قال الشافعي وأحمدُ	وأبو حنيفة والإمام العالي
صدُّوك عن وحي الإله ودينه	واحتالوا على حرام الله بالإحلال
يا أمةً لعبت بدين نبيها	كتلاعب الصبيان في الأوحال

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٤).

حاشا رسول الله يحكم بالهوى والجهل تلك حكومة الضلال[(١)]

• قال جَلَّ وعَلَا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]

○ يقول حذيفة [(٢)]:

«الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سَرَاجٌ يُزْهِرُ - أي: ينير - وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ».

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِتَنًا كَأَنَّهَا اللَّيْلُ، يَمُوتُ فِيهَا قَلْبُ الرَّجُلِ كَمَا يَمُوتُ بَدَنُهُ»[(٣)].

فكم من قلوب ماتت الآن في الصدور كما تموت الأبدانُ، وأصحابها لا يشعرون، تَحْجبُ الفتنُ القلوبَ - عن أنوار الإيمان - عن علام الغيوب؛ قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤، ١٥].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣٢- ٢٣٤) بتصرف.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٣٦) عن أبي البختري عن حذيفة، قال أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٥): «وأرسله» وقد رُوي مرفوعًا؛ أخرجه أحمد (٣/ ١٧)، وأبو نعيم (٤/ ٣٨٥) عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا؛ وفيه علتان: ضعْفُ ليث، والانقطاع بين أبي البختري وأبي سعيد، وضعفه الشيخ شعيب في تحقيق المسند (٢٩/ ١١)، وانظر: «مجمع الزوائد» (١/ ٦٣).

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن»(١٢١) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٥٣) عن الضحاك بن قيس بسندٍ ضعيف مرفوعًا، والحاكم (٦٢٣٤)، والطبراني في «الكبير»(٨/ ٢٩٨)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٤١٠)، وأخرجه نعيم بن حماد عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا (١١٣)، وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٦٥٤).

وروى الديلميُّ وأبو نعيم [(١)] **، وحسَّنه شيخنا الألباني** [(٢)] من حديث عليٍّ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنَ القُلُوبِ إلاَّ وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ القَمَرِ، بَيْنَا القَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ، إِذَا تَجَلَّتْ عَنْهُ أَضَاءَ**».

والسؤال الآن: كيف يعرف المرءُ هل أصابته الفتنةُ أم لا؟

والجواب: من حذيفة بن اليمان ﷺ يقول: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْلَمَ هَلْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا، فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ كَانَ رَأَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ، وَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ».

وفي لفظ أبي نعيم: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تُعْرَضُ عَلَى الْقُلُوبِ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْلَمَ هَلْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا، فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا، أَوْ يَرَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ» [(٣)].

أسأل الله ﷻ أن يحفظنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وتنقسم الفتن - في الجملة - إلى قسمين لا ثالث لهما:

١- فتن الشهوات.

٢- فتن الشبهات.

أما فتن الشهوات؛ فهي كثيرة؛ قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ فهذه صورةٌ من صور فتن الشهوات.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٩٦)، وقال: «هذا حديث غريب من حديث محمد بن عجلان عن سالم». والطبراني في «الأوسط» (٥٢٢٠)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٤/ ٦٥٥٢).

(٢) في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٣٣٩)، (رقم٢٢٦٨)، و«صحيح الجامع» (٥٦٨٢).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١١٠، ١٣٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٦٢٨)، وأخرجه الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٢٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ٢٥٨).

● وقال ﷺ - كما في «الصحيحين»[١] من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﵁ - وفيه: «وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».

فانظر إلى فتنة المال و إلى فتنة الدنيا؛ فالمال فتنته شديدة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥]؛ أي: اختبار وابتلاء؛ فالأولاد فتنة؛ نعم ستسأل عنهم؛ فهم لك محط امتحان واختبار!

وقد جعل الله الخير فتنة، كما جعل الشر فتنة؛ فقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء ٣٥]

وسأضع بين يديك ترمومترًا دقيقًا جدًّا تستطيع أن تتعرفَ به على ما بين يديك من النعم؛ هل هي نعمة أم نقمة؟ تنظر إلى المال الذي مَنَّ الله به عليك هل هو نعمة أم فتنة؟ الأولاد هل هم نعمة أم فتنة؟ الكرسي والمنصب الذي أنت فيه.. مركزك الاجتماعي؛ هل هو نعمة أم هو فتنة؟

○ **كيف أعرف ذلك؟دلني وبسرعة كيف أستطيع أن أفرق؟**

● **الجواب** - وعَضَّ عليه بالنواجذ ولا تضيعه؛ فما أغلاه! أقول: إذا كان المال - مثلًا - بين يديك يقربك إلى الله تبارك وتعالى فهو نعمة،كذلك إن جمعت المال من الحلال، وأدَّيْتَ فيه حق الكبير المتعال فهو نعمة، وإن جمعت المال من الحرام - ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى يزيد مالك - فاعلم بأنه الفتنة في ثوب النعمة؛ فكلُّ خير بين يديك في الظاهر إن قربك إلى الله فهو نعمة، وإن أبعدك عن الله فهو الفتنة في ثوب النعمة.

والمنصب إن كان يقربني من الله؛ فإنني أوظف هذه المكانةَ لله سبحانه، ولدينه - جَلَّ وعَلَا - ولخدمة المسلمين، ولا أوظف هذا الكرسيَّ أو المنصبَ لظلم الفقراء أو الضعفاء، أو للحصول على الشهوات الحقيرة الرخيصة،والنزوات الزائلة!! إن قرَّبك من الله سبحانه وتعالى فهو النعمة التي تستوجب الشكرَ، وإن أبعدك عن الله - جَلَّ وعَلَا - فاعلم بأنها فتنة، وإن لبست أمام عينيك ثوب النعمة، فإنها الفتنة

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٤٢٥) وفي (٣١٥٨)، ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقاق باب (٥٣) (٢٩٦١).

الحقيقية.

○ تدبَّر قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٤، ٤٥].

والشهوات كثيرةٌ جدًّا؛ لكنني أقول: مهما كانت الشهوة إن تاب منها العبدُ إلى الله تبارك وتعالى تاب الله عليه، وإن وقع في الزنا؛ وإن وقع في عمل قوم لوط؛ وإن شرب الخمر، وإن سرق؛ فمهما كانت الكبيرة ومهما كان خطر الذنب إن تاب العبدُ إلى الله فأقلع وندم وعمل صالحًا تاب التوابُ الرحيمُ عليه؛ فأهل السنة لا يكفرون بالكبائر؛ إنه فضل الله ـ جَلَّ وعَلَا.

● قال سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

●● أما فتن الشبهات:

فهي أخطر؛ لأن القلب إذا تشرب الشبهة، تصبحُ عقيدةً عند صاحبها، ربما يَقْتُلُ من أجلها، أو يُقْتَلُ هو من أجلها؛ لأنه يتصور أنه على عقيدة صحيحة، وأنه ينصر بذلك الدين، وهي في الحقيقة شبهة!!.

● **روى الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم، والدارمي وغيرهم** [(١)] **بسندٍ صحيح** من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة (٤٥٩٧)، والدارمي (٢٥١٨)، والحاكم (١/ ١٢٨) بسندٍ حسن عن معاوية رضي الله عنه.

● قال الحاكم: «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث» ووافقه الذهبي.

● وقال شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ١٢٢): «هذا حديث محفوظ من حديث معاوية» وأصل حديث الافتراق ثابت من طرق أخرى؛ كما عند أبي داود (٤٥٦٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، من حديث أبي هريرة مرفوعًا. وسنده حسن.

لَتفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله! مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ».

○ وفي لفظٍ عند الترمذي(١) : «عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

وهذه الشبهات الخطيرة، أفرزت فرقَ الضلال، وكما قال ابن القيم رحمه الله (٢) : «وهل أوقع القدريةَ والمرجئةَ والخوارجَ والمعتزلةَ والروافضَ وسائرَ طوائف أهل البدع فيما وقعوا فيه إلا سوء الفهم عن الله ورسوله».

هل تعلم أن الخوارج كفَّروا عليًّا رضي الله عنه ، وهو مَنْ هو؟! هو الذي تربَّى في حجر المصطفى صلى الله عليه وسلم وكفى.. كفروه رضي الله عنه بسبب شبهة! ولا يتسع الوقت لذكرها؛ وقد فصَّلت ذلك تفصيلًا في كتابي «الفتنة بين الصحابة» لمن أراد الرجوعَ إليه.

وأنا لا أعلم زمانًا انتشرت فيه فتنُ الشبهات كزمن الإنترنت والفضائيات؛ ربما كانت تعرض الشبهة قبل ذلك؛ فتظل محصورةً في مكانها على أضيق نطاق، وفي أضيق الحدود؛ أما الآن؛ فإن الشبهة تعرض على موقع الإنترنت أو في أي فضائية، فتجوب الأرض في التو واللحظة، وصارت الشبهات الآن تثار على الأصول والثوابت والكليات، ولا تثار على الفروع والجزئيات؛ فهناك شبهات تثار على ربنا - جَلَّ وعَلَا - وعلى نبينا صلى الله عليه وسلم ، وعلى قرآننا، وعلى أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم ، وعلى علمائنا، وعلى ثوابت وأصول وأحكام ديننا، ونظرًا لضعف العلم وقلته، وكثرة الجهل، ربما يحصل الرجل على أعلى الشهادات وهو لا يعلم شيئًا عن أسماء الجلال، ولا صفات الكمال، ولا عن النبي المختار، ولا عن الفرق بين الأركان والواجبات والمندوبات، ولا يفرق بين الحرام والمكروه، وهذا واقع أليم؛ قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١) وقال: «هذا حديث حسنٌ مفسر غريب»، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٨، ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا؛ وفي سنده الأفريقي وهو ضعيف؛ لذا ضعفه من هذا الوجه الحاكم، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع الصغير» (٧٥٣٢ـ فيض).

● وقال الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ١٦٥): «إسناده غريب».

(٢) «الروح» (ص٦٣ دار الكتب العلمية).

غَٰفِلُونَ ﴾[الروم: ٧] وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[النمل: ٦٦].

والجهل قبل الموت موتٌ لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور [١]

وفي نهاية هذا المبحث أودُّ أن أختمه بوضع بعض النقاط العملية؛ كدواء لهذا الداء الخطير؛ فما المخرج، وما هي الخُطُوات العملية لسبيل النجاة في زمان انتشرت فيه فتنُ الشهوات والشبهات؟

- **والجواب فيما يلي:**

- **النقطة العملية الأولى على الطريق: الصدق في طلب العون من الله.**

والله لا نجاة لي، ولا نجاة لك، إلا بصدق الاستعانة بالله سبحانه وتعالى؛ لا تغتر بعلم، ولا بطاعة، ولا بعبادة؛ بل الجأ إلى الله ـ جَلَّ وعَلَا ـ إذ لا منْجا ولا ملجأ منه إلا إليه؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة:١٨٦]؛ فلا حول لنا ولا قوة على فعل طاعة، أو على ترك معصية، أو على هروب ونجاة من فتنة إلا بتوفيقه سبحانه وتعالى.

○**قال ابن الجوزيُّ** [٢]: «سأل شيخٌ من أهل العلم تلميذًا عنده في حلقته، وقال: يا بنيَّ، ماذا تصنع لو مررت على غنم فنبحك كَلْبُ الغنم؟ قال: أدفع الغنم ما استطعت، قال: فماذا تصنع لو نبحك الثانية؟ قال: أردُّ الكلب ما استطعت، قال: فماذا تصنع لو نبحك الثالثة؟ قال: أفعل مثل ما فعلت، فقال: يا بنيَّ، ذاك أمر يطول، لكن إنْ أردت النجاة والعبور فاستعن بصاحب الغنم يَكُف عنك كلب الغنم، وإن أردت النجاة، فاستعن بالله، يكف عنك كيد الشيطان». لا مخرج لك من الفتن إلا بصدق الاستعانة بالله الرحيم الرحمن.

---

(١)«مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٠) و (٣/ ٢٦١)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٨، ١٣٧)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣).
في «تلبيس إبليس» (٤٧) بتصرفٍ.

● الخطوة الثانية: لزوم الاستقامة، وقت الشدائد.

فبعد ما لجأت إلى الله، وأديت العبادةَ، والصلوات في أوقاتها، وقراءة القرآن، والمحافظة على الأذكار، والاستغفار، و التذلل، و الدعاء، و التسبيح، والتحميد، والتهليل، و التكبير.. إلى آخر هذه الأنواع من أنواع العبادة.

اسمع ماذا يقول النبيُّ ﷺ ـ والحديث في «**صحيح مسلم**»[١] من حديث معقل ابن يسارﷺ: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»؛ أي: مَنْ عَبَد الله في زمن الفتن والقتال فأجره كأجر من هاجر إلى النبيِّ ﷺ من مكة إلى المدينة؛ فحافظ على العبادة في وقت الفتن.

● الخطوة الثالثة: حضور مجالس العلم.

لا تضيع تلك المجالسَ الطيبةَ؛ لتتعرف فيها على الله، وعلى رسول الله ﷺ، وعلى الحلال والحرام، وعلى السنة والبدعة؛ فمن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة.

● الخطوة الرابعة: الصحبة الطيبة.

لا تترك الأخيارَ؛ فهم الذين يذكِّرونك بالعزيز الغفار، ويحذرونك من النار، ويبعدونك عن الشر والأشرار.. داوم على صحبة هؤلاء.

● **وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بسندٍ حسنه الشيخ الألبانيُّ** من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»[٢].

● الخطوة الخامسة: الهروب والبعد عن الفتن بقدر الاستطاعة.

غيِّر بيئة الفتنة إلى بيئة طاعة؛ فهناك من أهل الفضل من يعيشون معك في هذه

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب فضل العبادة في الهرج (٢٩٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في كراهية المراء (٤٨٣٢)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٥٤، ٥٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٤١)، و«المشكاة» (٥٠١٨).

البيئة ويعيشون معك الزمان والمكان، ولكن الله - جَلَّ وعَلَا - وفَّقهم ونجَّاهم باجتهادهم وتذللهم وتضرعهم وعملهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فشتان بين شاب يذهب إلى بيت من بيوت الله ليصلي صلاة التراويح مع إخوانه وأحبابه، أو ليحضر مجلس علم، وبين شاب يذهب على قدميه إلى مقهى مثلًا؛ فهذا الشاب يعيش في نفس الزمان والمكان الذي يعيش فيه الشابُّ الأولُ الذي خرج إلى بيت من بيوت الله أو إلى داعية من دعاتنا؛ فاهجر بيئة الفتن، وابتعد عن الصحبة التي ستأخذك إلى جهنم، وخذ القرارَ برجولة وقوة؛ قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾

[مريم: ١٢].

● **الـخُطوة السادسة: استعذ بالله من الفتن.**

أي: اعتصم بالله، والجأ إليه، وامتنع به، فأين المفرُّ؟ لا يستطيع أحدُ أن ينصرك على نفسك أو على هواك أو على الشيطان إلا الرحيم الرحمن.

إني بليتُ بأربع ما سُلطوا عليَّ ... إلا لأجل شقاوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاصُ وكلهم أعدائي

إبليسُ يسلكُ في طريق مهالكي ... والنفس تأمرني بكل بلائي

وأرى الهوى تدعو إليه خَوَاطِري ... في ظلمة الشبهات والآراء

وزخارفُ الدنيا تقول أما ترى ... حسني وفخر ملابسي وبهائي(١)

إن كان الله معك فممن تخاف، وإن كان الله يحبك إن حققت تقواه فعلى أي شيء تحزن؟

وفي «صحيح» مسلم(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ**

---

(١) «كشف الخفاء» (١/ ٤٠، ١٤٣).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٩٠).

مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ».

وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**».

وما هي فتنة الممات؟ هي أن تنام على فراش الموت ولا تعلم بما سيختم لك؛ فكثير من الناس نام على فراش الموت ولم يستطيعوا أن يقولوا لا إله إلا الله، وقالوا كلامًا عجيبًا، وهناك من أهل الفضل من نام على فراش الموت؛ فابتسم وجهه، وتهلَّلت أساريره، وانطلق بلسان فصيح: لا إله إلا الله؛ نسأل الله أن يختم لنا ولكم بها.

فتذكر أيها المغرورُ.. أيها المغرورُ بماله.. أيها المغرور بكرسيه.. أيها المغرور بمنصبه.. أيها المغرور بجاهه.. أيها المغرور بسلطانه.. تذكر أيضًا أيها الساهي.. كيف أنت، وقد حلَّت بك السكراتُ، ونزل بك الأنينُ والغمراتُ، ثم تزداد عليك الكرباتُ إذا حاولت الشياطين ـ والعياذ بالله ـ أن تحول بينك وبين النطق بلا إله إلا الله؛ فقد ترى عند موتك شيطانًا عند رأسك، يريد هذا الشيطانُ أن يحول بينك وبين التوحيد، ربما يقول لك هذا الشيطانُ: مُت يهوديًّا، ربما يقول لك هذا الشيطان: مُت نصرانيًّا، ربما يشَوِّش عليك عند موتك، ويجعل لسانك يردد ما تعلق به قلبك في هذه الحياة.

وقد استدل بعض أهل العلم على ذلك بصدر حديثٍ صحيح، رواه مسلمٌ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ**»(٢).

وسُئل شيخ الإسلام ابن تيمية(٣) ـ طيب الله ثراه ـ عن مسألة عرض الأديان على

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر (١٣٧٧)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨)، واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الأشربة، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة، وأكل اللقمة الساقطة، بعد مسح ما يصيبها من أذى، وكراهة مسح اليد قبل لعقها، (٢٠٣٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٥) بتصرف، وانظر: «التذكرة»، للقرطبي (٣٣) وما بعدها.

العبد عند الموت (أي: يقول الشيطان للعبد مُت يهوديًّا أو مُت نصرانيًّا) **فقال ـ رحمه الله تعالى**: «مِنَ الناس مَنْ تُعْرض عليه الأديان قبل موته، ومنهم من لا تعرض عليه.. وهذا كلُّه من فتنة المحيا والممات التي أمرنا النبيُّ ﷺ أن نستعيذ منها في صلاتنا.

(ثم قال شيخ الإسلام): الشيطان أحرص ما يكون على إغواء بني آدم عند الموت، وقد ذكر عبد الله بن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: حضرتُ وفاة أبي، فكان يغرق ثم يفيق، ويشير بيده ويقول: لا، بعد، لا، بعد. ولما أفاق في لحظة صحوة بين السكرات والغمرات، يقول له ولده: يا أبي ماذا تقول؟ إنك تقول: لا، بعد. لا، بعد؛ فيقول الإمام أحمد: أيْ بُني! إنَّ الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله، يقول: يا أحمد، فُتّني (أي في الدنيا) وأنا أقول: لا بعد.. لا بعد حتى أموت على لا إله إلا الله!» [1].

فإذا كان العبدُ من المؤمنين الصادقين، أنزل اللهُ إليه ملائكةَ التثبيت لتثبيته بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ـ ٣٢].

وفي وقت تنزُّل الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة، قولان:

القول الأول هو: أن الملائكة تَنْزِل على أهل الإيمان والاستقامة، وهم على فراش الموت (وهو القول الذي يعنينا هنا).

يقول الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

القول الثاني: عند الخروج من القبور، يوم البعث والنشور.

ويقول الله ﷻ وهو يبين لنا سبحانه أن الموت حقٌّ لا مراء فيه، ولا شك: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

---

(١) أخرج هذه القصة البيهقي في «الشعب» (٨٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٨٣)، وابن عساكر (٥/ ٣٢٤، ٣٢٥).

والحقُّ أنك تموت والله حيٌّ لا يموت.. والحقُّ أنك ترى عند موتك ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب.. والحقُّ أن يكون قبرُك روضةً من رياض الجنة، أو حفرة من حُفر النيران: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]؛ أي: هذا هو الذي كنت منه تهربُ وتفرُّ وتجري، وقد جاءك، فلا محيد، ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص.. تحيد إلى الطبيب إذا جاءك المرضُ.. وتحيد إلى الطعام إذا أحسست بالجوع.. وتحيد إلى الشراب إذا أحسست بالظمأ.. ولكن ثُمَّ ماذا؟ أيها القويُّ الفتيُّ.. أيها الذكيُّ العبقريُّ.. يا أيها الوزيرُ، ويا أيها الأميرُ، ويا أيها الكبيرُ، ويا أيها الصغيرُ، ويا أيها الحقيرُ، ويا أيها الفقيرُ:

كل باكٍ فسيُبكَى ... وكل ناعٍ فسيُنْعى

وكل مذكورٍ سيُنْسى ... وكلُّ مذخُورٍ سيفنى

ليس غيْرُ الله يبقى ... من علا فالله أعلى

وصدق ربي إذ يقول: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ [القيامة:٢٦ـ٢٨].

قال ابن عباس: «إذا بلغت نفسه مَنْ يرقى بها، قالت الملائكة: مَنْ يصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟»[(١)].

وقال قتادة والضحاك وغيرهما: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: «من ذا يرقيه؟»[(٢)].

من يبذل له الرقية؟ من يقدِّم له العلاج؟ من يَحُول بينه وبين الموت؟! انظر إليه إنه صاحب الأموال والجاه والسلطان! إنه صاحب الحكم والوزارة.. التف الأطباءُ مِنْ حوله.. وربما نُقل بالطائرات فوْرًا إلى أفخم المستشفيات، والأطباء من حوله.. هذا متخصص في جراحة القلب، وهذا في جراحة المخ والأعصاب، وآخر في كذا وكذا، كلٌّ يبذل له الرقيةَ، ويقدم له العلاجَ!!

هم يريدون شيئًا، وملك الملوك قد قدَّر شيئًا آخر!!!

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (لسورة القيامة : ٢٦، ٢٧)، وعزاه السيوطي في «الدر» لابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، وابن أبي حاتم؛ وهو في «تفسيره» (لسورة القيامة : ٢٦، ٢٧) من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري؛ كما في المصدر السابق.

قال سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤].

وقال سبحانه: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة:٨].

عجز الأطباء وحاروا، والتفوا حوْلَه وداروا، ولكن انظر إليه؛ فلقد اصفرَّ وجهُهُ، وشحب لونُهُ، وبردت أطرافُهُ، وتجعَّد جلدُهُ، وبدأ يشعر بزمهرير قارس، يزحف إلى أنامل يديه وقدميه، يحاول المسكينُ جاهدًا أن يحرك شفتيه بكلمةِ التوحيد فيشعر أن الشفتين كالجبل لا يريد أن يتزحزح إلا لمن هوَّن ويسَّرَ له الله النطق بلا إله إلا الله.

فاللهم اجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله.. اللهم لا تَفْتِنَّا عند الموت برحمتك يا أرحم الراحمين.

فلا تُعرِّض نفسك للفتنة، وأكْثِرْ من الاستعاذة بالله، والاعتصام واللجوء إليه، ليعصمك الله تعالى من الفتن؛ قال جَلَّ وعَلَا: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

- **الخُطوة السابعة: احرص على طلب العلم الشرعي الصحيح من العلماء الربانيين والدعاة الصادقين.**

وكيف تعرف العالِمَ الرباني؟

قال إبراهيم النخعي رحمه الله[(١)]: «كنا إذا أتينا الرجلَ لنأخذ عنه نظرنا إلى سمته وصلاته، ثم أخذنا عنه».

هل هو مشابهٌ لهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم؟

ثم عبادة هذا العالم تظهر في كلامه؛ كان عالمٌ من العلماء يقول له ولده: يا أبت، ما لك إذا حدثت الناسَ أبكيتهم، وإذا حدث الناسَ غيرُك لا يبكون؟ فقال له: يا ولدي،

(١) أخرجه الهروي في «ذم الكلام» (٨٢١).

ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

فشتان بين كلمات تخرج باردة، وبين كلمات تخرج قد لفحتها حرارةُ الصدق وحرارة الإيمان، والحق أبلج والباطل لجلج؛ فاحرص على أن تتلقى العلمَ من العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين، وما أكثرهم بفضل رب العالمين في أمة سيد المرسلين؛ فلا يخلو من هذه الطائفة المباركة من أبناء الطائفة المنصورة زمان ولا مكان؛ لأنه بنور العلم يبدد الله تعالى لك ظلامَ الشبهات.

أما الجهل وسوء الفهم؛ فَهُما مَكْمَن الخطر في كل زمان ومكان.

قال ابن القيم رحمه الله:

«وهل أوقعَ القدريةَ والمرجئةَ والخوارجَ والمعتزلة والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع فيما وقعوا فيه إلا سوءُ الفهمِ عن الله ورسوله؟!»[(١)].

فقد يستدل أحدُهُم بآيةٍ صريحة، ولكنه يؤوِّلها تأويلًا متعسِّفًا باطلًا، أو بحديث صحيح، لكنه لا يفهم مرادَ الله تعالى ورسوله ﷺ.

نعم.. نحن لا ننكر أن أحد هؤلاء قد يستدل بالدَّليل الصحيح، لكنه يتأول الدَّليل، ولا يفهمه!، ولا يقف على مراتب الدَّليل، ولا يفهم مناطاته الخاصَّة والعامة!!

ومن ثمَّ؛ فإنه يستشهد بالدليل حتمًا في غير محله، وفي غير موضعه، ومن ثَمَّ يقع في هذه الفتنة الصمَّاء، فيشعل نارًا متأججة، وهو يعتقد أنه على الحقِّ والصَّواب، وهو غارق في الباطل والضَّلال؛ لسوءِ فهمِهِ عن الله وعن سيِّد الرِّجال ﷺ.

فما من مصيبة وقعت، وستقع! إلا بسبب هذا الفهم السيِّئ للنصوص القرآنية والنَّبوية.

○ فتدبر أخي الكريم؛ فالخوارج يُكَفِّرونَ عليًّا رضي الله عنه!! الذي قال له النبيُّ ﷺ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى غَيْرَ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي**»[(٢)].

---

(١) «الروح» لابن القيم (٦٣ط الكتب العلمية).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي =

يكفرون من شهد له النبيُّ ﷺ بقوله: «**لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ...**» (١).

يكفِّرون عليًّا لتأويلٍ فاسدٍ، وفهمٍ باطلٍ ضال، ويرددون دليلًا من كتاب الكبير المتعال. وأنا أسوقُ لفظَ القصةِ بِطولها من روايتين في غاية الأهمية:

○ فتدبر معي هذا الحوارَ البديعَ الذي دار بين ابن عباس رضي الله عنهما وبين الخوارج وزعمائهم من خلال هاتين الروايتين:

○ **الأولى**: عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عِيَاضِ بْنِ عَمْرٍو الْقَارِيِّ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ الله بْنُ شَدَّادٍ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها وَنَحْنُ عِنْدَهَا جُلُوسٌ مَرْجِعَهُ مِنَ الْعِرَاقِ لَيَالِيَ قُتِلَ عَلِيٌّ فَقَالَتْ لَهُ: يَا عَبْدَ الله بْنَ شَدَّادٍ، هَلْ أَنْتَ صَادِقِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ؟ تُحَدِّثُنِي عَنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ عَلِيٌّ، قَالَ: وَمَا لِي لاَ أَصْدُقُكِ؟

قَالَتْ: فَحَدِّثْنِي عَنْ قِصَّتِهِمْ؟ قَالَ: فَإِنَّ عَلِيًّا لَـمَّا كَاتَبَ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه وَحَكَمَ الْحَكَمَانِ خَرَجَ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ مِنْ قُرَّاءِ النَّاس فَنَزَلُوا بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: حَرُورَاءُ مِنْ جَانِبِ الْكُوفَةِ، وَإِنَّهُمْ عَتَبُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا: انْسَلَخْتَ مِنْ قَمِيصٍ أَلْبَسَكَهُ الله تَعَالَى وَاسْم سَمَّاكَ الله تَعَالَى بِهِ، ثُمَّ انْطَلَقْتَ فَحَكَّمْتَ فِي دِينِ الله، فَلاَ حُكْمَ إِلاَّ لله تَعَالَى، فَلَمَّا أَنْ بَلَغ عَلِيًّا رضي الله عنه مَا عَتَبُوا عَلَيْهِ، وَفَارَقُوهُ عَلَيْهِ: فَأَمَرَ مُؤَذِّناً فَأَذَّنَ أَنْ لاَ يَدْخُلَ عَلَى أَمِيرِ الْـمُؤْمِنِينَ إِلاَّ رَجُلٌ قَدْ حَمَلَ الْقُرْآنَ، فَلَمَّا أَنِ امْتَلأَتِ الدَّارُ مِنْ قُرَّاءِ النَّاس، دَعَا بِمُصْحَفٍ إِمَامٍ عَظِيمٍ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَصُكُّهُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: أَيُّهَا الْـمُصْحَفُ، حَدِّثِ النَّاس، فَنَادَاهُ النَّاس فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ، مَا تَسْأَلُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ مِدَادٌ فِي وَرَقٍ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِمَا رُوِينَا مِنْهُ، فَمَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أَصْحَابُكُمْ، هَؤُلاَءِ الَّذِينَ خَرَجُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ كِتَابُ الله عز وجل.

يَقُولُ الله تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا

=
الحسن رضي الله عنه (٣٧٠٦)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣١).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٧٠١).

﴿مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْظَمُ دماً وَحُرْمَةً مِن امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ، وَنَقَمُوا عَلَيَّ أَنْ كَاتَبْتُ مُعَاوِيَةَ: كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: وَقَدْ جَاءَنَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَالَحَ قَوْمَهُ قُرَيْشاً فَكَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» فَقَالَ سُهَيْلٌ: لاَ تَكْتُبْ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ: «**كَيْفَ نَكْتُبُ؟**». فَقَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَاكْتُبْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**» فَقَالَ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله لَمْ أُخَالِفْكَ، فَكَتَبَ: «**هَذَا مَا صَالَحَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله قُرَيْشاً**» **يَقُولُ الله تَعَالَى فِي كِتَابِهِ**: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾

[الأحزاب: ٢١].

فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ عَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَخَرَجْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا تَوَسَّطْنَا عَسْكَرَهُمْ، قَامَ ابْنُ الْكَوَّاءِ يَخْطُبُ النَّاس فَقَالَ: يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ، إِنَّ هَذَا عَبْدُ اللهَّ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ فَأَنَا أُعَرِّفُهُ مِنْ كِتَابِ الله مَا يَعْرِفُهُ بِهِ، هَذَا مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ وَفِي قَوْمِهِ: ﴿قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] فَرُدُّوهُ إِلَى صَاحِبِهِ وَلاَ تُوَاضِعُوهُ كِتَابَ الله؛ فَقَامَ خُطَبَاؤُهُمْ فَقَالُوا: والله لَنُوَاضِعَنَّهُ كِتَابَ الله فَإِنْ جَاءَ بِحَقٍّ نَعْرِفُهُ لَنَتَّبِعَنَّهُ، وَإِنْ جَاءَ بِبَاطِلٍ لَنُبَكِّتَنَّهُ بِبَاطِلِهِ، فَوَاضَعُوا عَبْدَ الله الْكِتَابَ ثَلاَثَةَ أَيَّام فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ كُلُّهُمْ تَائِبٌ، فِيهِمُ ابْنُ الْكَوَّاءِ حَتَّى أَدْخَلَهُمْ عَلَى عَلِيٍّ الْكُوفَةَ فَبَعَثَ عَلِيٌّ إِلَى بَقِيَّتِهِمْ فَقَالَ: قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِنَا وَأَمْرِ النَّاس مَا قَدْ رَأَيْتُمْ فَقِفُوا حَيْثُ شِئْتُمْ حَتَّى تَجْتَمِعَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ تَسْفِكُوا دَماً حَرَاماً أَوْ تَقْطَعُوا سَبِيلاً أَوْ تَظْلِمُوا ذِمَّةً، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمُ الْحَرْبَ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ.

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها: يَا ابْنَ شَدَّادٍ فَقَدْ قَتَلَهُمْ؛ فَقَالَ: والله مَا بَعَثَ إِلَيْهِمْ حَتَّى قَطَعُوا السَّبِيلَ، وَسَفَكُوا الدَّمَ وَاسْتَحَلُّوا أَهْلَ الذِّمَّةِ، فَقَالَتْ: الله؟ قَالَ آلله الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَقَدْ كَانَ، قَالَتْ: فَمَا شَيْءٌ بَلَغَنِي عَنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَتَحَدَّثُونَهُ يَقُولُونَ: ذُو الثُّدَيِّ وَذُو الثُّدَيِّ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُهُ وَقُمْتُ مَعَ عَلِيٍّ رضي الله عنه عَلَيْهِ فِي الْقَتْلَى، فَدَعَا النَّاسَ.

فَقَالَ: أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَمَا أَكْثَرَ مَنْ جَاءَ يَقُولُ: قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَسْجِدِ بَنِي فُلاَنٍ يُصَلِّي، وَرَأَيْتُهُ فِي مَسْجِدِ بَنِي فُلاَنٍ يُصَلِّي، وَلَمْ يَأْتُوا فِيهِ بِثَبَتٍ يُعْرَفُ إِلاَّ ذَلِكَ، قَالَتْ: فَمَا قَوْلُ

عَلِيٍّ رضي الله عنه حِينَ قَامَ عَلَيْهِ كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْعِرَاقِ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، قَالَتْ: هَلْ سَمِعْتَ مِنْهُ أَنَّهُ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ؟قَالَ: اللَّهُمَّ لاَ، قَالَتْ: أَجَلْ، صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ يَرْحَمُ اللهُ عَلِيًّا رضي الله عنه، إِنَّهُ كَانَ مِنْ كَلاَمِهِ لاَ يَرَى شَيْئًا يُعْجِبُهُ إِلاَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ وَيَزِيدُونَ عَلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ»(١).

○ **الرواية الثانية**: روى النسائي رحمه الله في «الخصائص» (٢) عن عبد الله بن عباس قال: لَـمَّا خَرَجَتِ الحَرُورِيَّةُ اعتَزَلوا فِي دارِهِمْ، وَكَانوا ستَّةَ آلافٍ، فقلتُ لعَلِيٍّ رضي الله عنه: يَا أميرَ المؤْمِنينَ، أَبْرِدْ بِالصَّلاَةِ، لَعَلِّي أُكَلِّمُ هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ، قَالَ: إِنِّي أَخافُهُمْ عَلَيْكَ، قُلْتُ: كَلَّا، فَلَبِسْتُ، وَتَرَجَّلْتُ، وَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ فِي دَارِ نِصْفِ النَّهَارِ، وَهُمْ قَائِلُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ.

فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا ابن عَبَّاسٍ؛ قَالُوا: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ لَهُمْ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ صَحَابَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصارِ وَمِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَصِهْرِهِ، وعليهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ، وهُم أعلَمُ بتَأْوِيلِهِ مِنْكُمْ، وَلَيسَ فيكُمْ مِنْهُمْ أحدٌ لأُبَلِّغَكُمْ مَا يَقُولُونَ، وتُخْبِرونَ بِمَا تقولُونَ فَانْتَحَى لِي نَفَرٌ مِنْهُمْ، قُلْتُ: أَخْبِرُونِي ماذَا نَقِمتُمْ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَابْنِ عَمِّهِ؟

قَالُوا: ثَلاَثٌ.

قُلْتُ: مَا هُنَّ؟

قَالُوا: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ؛ فإِنَّه حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ الله، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف: ٤٠].

وَمَا لِلرِّجَالِ وَمَا لِلْحُكْمِ؟ فَقُلْتُ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

قَالُوا: وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ، فَلَئِنْ كَانَ الَّذِينَ قَاتَلَ كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سَبْيُهُمْ وَغَنِيمَتُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ قِتَالُهُمْ، قُلْتُ: هَذِهِ ثِنْتَانِ، فَمَا

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٨٦، ٨٧)، وأبو يعلى (٤٧٤)، وابن عساكر (٢٧/ ١٠٤)، (٢٩/ ١٤٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥٣): «رواه أبو يعلى ورجاله ثقات»، وإسناده حسن؛ كما قال الشيخ شعيب في «المسند».

(٢) أخرجه النسائي في «الخصائص» (١٨٥)، وهو في «السنن الكبرى» (٥/ ١٦٥،١٦٧) وسندُهُ حسن.

الثَّالِثَةُ؟

قَالُوا: إِنَّهُ مَحَا اسْمَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ.

قُلْتُ: أَعِنْدَكُمْ سِوَى هَذَا؟ قَالُوا: حَسْبُنَا هَذَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا يَرُدُّ بِهِ قَوْلَكُمْ أَتَرْضَوْنَ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

فَقُلْتُ لَهُمْ: أَمَّا قَوْلُكُمْ: حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ، فَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَا قَدْ رَدَّ حُكْمَهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبْعِ دِرْهَمٍ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

فَنَشَدْتُكُمْ بِاللهِ أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ أَفْضَلُ أَمْ حُكْمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ، وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَوْ شَاءَ لَحَكَمَ وَلَمْ يُصَيِّرْ ذَلِكَ إِلَى الرِّجَالِ.

وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

فَجَعَلَ اللهُ حُكْمَ الرِّجَالِ سُنَّةً مَاضِيَةً، أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: قَاتَلَ فَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ، أَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ، ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يُسْتَحَلُّ مِنْ غَيْرِهَا؟ فَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَقَدْ كَفَرْتُمْ، وَهِيَ أُمُّكُمْ، وَلَئِنْ قُلْتُمْ: لَيْسَتْ بِأُمِّنَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فَأَنْتُمْ تَدُورُونَ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ، أَيُّهُمَا صِرْتُمْ إِلَيْهَا صِرْتُمْ إِلَى ضَلَالَةٍ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ.

قُلْتُ: أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَنْ تَرْضَوْنَ، أُرِيكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ كَاتَبَ الْمُشْرِكِينَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو وَأَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «**اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَا وَاللهِ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا قَاتَلْنَاكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ، اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا**

اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» ، فَوَاللهِ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ، وَمَا أَخْرَجَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ حِينَ مَحَا نَفْسَهُ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: فَرَجَعَ مِنَ الْقَوْمِ أَلْفَانِ ، وَقُتِلَ سَائِرُهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ.

فهناك فتن تحتاج إلى علم وبصيرة وفهم وتوفيق وإخلاص، وهناك فتن تحتاج إلى تجديد توبة؛ فكلما زلت قدمُك في بؤرة شهوة؛ فجدد التوبة والأوبة وأنت على يقين بأن الله - جَلَّ وعَلَا - سيفرح بتوبتك وأوبتك وهو الغني عنك.

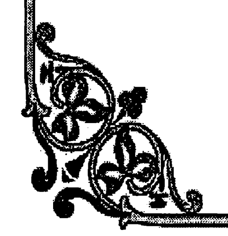
أسأل الله - جَلَّ وعَلَا - أن يجنبنا وإياكم الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يسترنا وإياكم في الدنيا والآخرة، وأن يردنا وإياكم إلى الحق ردًّا جميلًا، وأن يتقبل مني ومنكم جميعًا صالح الأعمال.

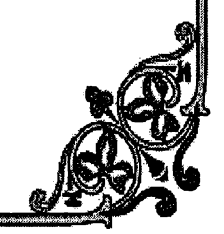
*****





تَسْوِيفُ التَّوْبَةِ





تسويفُ التوبة

حديثنا في هذا الفصل مع مرضٍ من أخطر الأمراض التي ابتلي بها كثيرٌ من المسلمين؛ ألا وهو «تسويف التوبة»؛ فالعبد لا يدري متى سيأتيه الموتُ، ويا تُرى على أيِّ حالٍ سيختمُ له؟ فوجب على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ أن لا يُسوِّفا وأن لا يتهاونا في ذلك؛ فلا أضرَّ من التسويفِ وطولِ الأمل؛ كما قال ابن القيم ﵀ (١).

- **وبدايةً أودُّ أن أعرِّف التسويف لغةً:**

فقد قال ابن منظور ﵀ (٢): «التسويفُ: التأخير؛ من قولك: سوف أفعل».

وقال ابن الأثير ﵀ (٣): «التسويف: المطل والتأخير».

وقال ابن فارس ﵀ (٤): «وأما التأخير؛ فالتسويف، يقال: سوَّفْتُه إذا أخرته، إذا قلت: سوف أفعلُ».

وقال الراغب الأصفهاني ﵀ (٥): «سوف: حرْفٌ يخصِّص أفعال المضارعة بالاستقبال، ويجرِّدُها عن معنى الحال، نحو: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥] تنبيهٌ أن ما يطلبونه - وإن لم يكن في الوقت حاصلًا - فهو مما يكون بعْدُ لا محالة، ويقتضي معنى المماطلة والتأخير، واشتق منه التسويف، اعتبارًا بقول الواعد: سوف أفعل كذا».

وبعد هذا التعريف اللُّغوي لكلمة التسويف التي معناها: التأخير؛ أخاطب أمتي الحبيبة؛ رجالًا ونساءً، شبابًا وشيوخًا، أخاطب الجميعَ بكلمات رقراقة، وأذكِّرهم - وأذكِّر نفسي قبل ذلك - بتعجيل التوبة، وعدم التسويف والتأخير؛ لأن الموت يأتي بغتة!!

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٧٤).
(٢) («اللسان» ٤/ ٧٥١).
(٣) «النهاية» (١/ ٨٢٤).
(٤) «معجم المقاييس في اللغة» (ص: ٤٩٨).
(٥) («المفردات» ص: ٤٣٥، ٤٣٦).

قال العلامة ابن القيم رحمه الله [١]: «إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها؛ فمتى أخرها عَصَى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبةٌ أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقلَّ أن تخطر هذه ببال التائب؛ بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة بما يعلمه من ذنوبه ومما لا يعلم؛ فإن ما لا يعلمه العبدُ من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنًا من العلم؛ فإنه عاص بترك العلم والعمل؛ فالمعصية في حقه أشد. وفي «صحيح» ابن حبان [٢]: أن النبيَّ ﷺ قال: «**الشِّرْكُ في هَذِهِ الأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»؛ فَقَال أَبُو بَكر: فَكَيفَ الخَلَاص منْهُ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وأَسْتَغفِركَ لِمَا لاَ أَعْلَم**»؛ فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد.

وفي «**الصحيح**» [٣] عنه ﷺ: أنَّه كان يدعو في صلاته: «**اللهم اغْفِرْ لي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي في أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهم اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَأي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذلك عِنْدِي، اللهم اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، وما أنت أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**».

وفي الحديث الآخر [٤]: «**اللهُمَّ اغْفِر لِي ذَنْبِي كُلَّه، دِقَّهُ وجِلَّهُ، خَطأَه وَعَمْدَه، سِرَّهُ وَعَلاَنِيته، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**».

---

(١) «المدارج»(١/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٢) هو في «المجروحين» (٢/ ٣٩٠) وضعَّفه هناك، وأخرجه كذلك الضياء في «المختارة» (١/ ٤٥) وضعَّفه من هذا الوجه الألبانيُّ في «الضعيفة» (٨ / ٢٣١) (٣٧٥٥)؛ لكن قوَّاه من وجهٍ آخر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في «الأدب المفرد» (٧١٦)، وله شاهدٌ عند أحمد (٤/ ٤٠٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. راجع: «صحيح الترغيب» (١/ ٩)؛ فقد حَسَّنهُ لغيره فيه. و«علل» الدارقطني (١/ ١٢١) و (١٤/ ١٩١).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ**» (٦٣٩٨، ٦٣٩٩)، ومسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧١٩) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. واللفظ لمسلم. ولفظة: «**أنت إلهي لا إله إلا أنت**» إنما هي من حديث ابن عباس عند البخاري (٧٤٩٩) ومسلم (٧٦٩). أما حديث أبي موسى الذي ساقه ابن القيم ففيه: «**أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**».

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظة: «**خطأه وعمده**» ليست عند مسلم.

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه». انتهي.

والذي يجب أنِ ينتبه إليه هو أن التوبة ليست مقصورةً على أهل الذنوب والمعاصي فقط؛ بل إنَ مقام التوبة لا يجوز أن يفارقه المؤمنُ على طول الدَّرْب حتى يلقى ربَّه ومولاه.

فمن ظن أن المذنبَ العاصي هو الذي تجب التوبةُ في حقه فحسب! فهذا فهمٌ مغلوطٌ.

فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وهي أول المنازل، وأوسطها، وآخرها؛ وحاجته إلى التوبة ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية والنهاية ضرورية.

فالتوبة؛ كما يقولُ ابن القيم رحمه الله [(١)]: «هي حقيقةُ دين الإسلام، والدين كلُّه داخل في مسمى التوبة»... إلى أن قال: «فالتوبة هي: الرجوع عن كلِّ ما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى كلِّ ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا، ويدخل في مُسَمَّاها الإسلام والإيمان والإحسان، ولهذا كانت غايةَ كلِّ مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وُجِد لأجلها الخلق والأمر».

لماذا؟ لأنه لا يحقق العبوديةَ لله تعالى إلا من حقق مقامَ التوبة؛ فالعبودية هي: ترك كلِّ ما حرم الله عز وجل إلى الإذعان والإقرار لله بكلِّ ما أمر أن تذعن به له تبارك وتعالى؛ فتُفردُ الله عز وجل بالعبودية والوحدانية، وأن تكفر بكلِّ الأنداد والأرباب والآلهة والطواغيت من دون الله؛ قال سبحانه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦].

يقول ابنُ القيم رحمه الله [(٢)]: «وأكثر الناس لا يعرفون قَدْر التوبة ولا حقيقتها فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا».

وقد تضافرت أدلةُ القرآن والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة على الدوام؛ لأن الإنسان لا ينفكُ عن معصية ظاهرةٍ أو باطنةٍ، ومن ثَمَّ وجب على كلِّ سالك إلى الله عز وجل

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٦).

(٢) المصدر السابق.

أن يكون دائمًا تائبًا إلى الله جلَّ وَعَلَا؛ قال سبحانه: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور:٣١]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [التحريم:٨]، لاحِظْ أن الأمر لمن حقق الإيمان؛ فلم يقل الله: يا أيها الذين أذنبوا، أو يا أيها العاصون، أو يا أيها المقصرون؛ بل قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [التحريم:٨]، وقال جلَّ وعلا: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات:١١].

وفي «صحيح مسلم»[(١)] من حديث الأغر المزني ﷺ أنه ﷺ قال: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى الله؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**.

فإذا كان هذا حال نبينا ﷺ الذي غفر اللهُ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة؛ فكَمْ نحتاج نحن إلى مرات من التوبة؟ إننا في حاجةٍ إلى ملايين المرات - وربِّ الكعبة -.

وفي «صحيح البخاري»[(٢)] عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«وَالله إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»**.

وفي «مسند» أحمد، و«سنن» الترمذيِّ وابن ماجه وغيرهم[(٣)] من حديث أنس ﷺ أنه ﷺ قال: **«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»**.

وفي «صحيح مسلم»[(٤)] عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ**

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢ / ٤٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٣٠٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٨)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة (٢٤٩٩) وقال: «حديث غريب»، وابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٤٢٥١)، وابن حبان (٦١٣)، وحَسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٥).

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٩).

حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

وفي «الصحيحين» (١) عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟».

ومعتقدنا أن الله ﷻ ينزلُ كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا؛ نزولًا يليقُ بكماله وجلاله؛ فلا تُعَطِّل، ولا تُشَبِّه، ولا تُمَثِّل، ولا تُحَرِّف؛ فكلُّ ما دار ببالك، فالله بخلاف ذلك؛ فنحن نؤمن بربٍّ ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا، وهو مستوٍ على عرشه لا يخلو منه عرشه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ (٢) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «يَقُولُ الله تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

فَمَنْ أَعْظَمُ مِنَ الله؟ وَمَنْ أَكْرَمُ مِنَ الله؟ وَمَنْ أَحْلَمُ مِنَ الله؟ لا أحد؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذي في «السنن» (٣) من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «قَالَ الله: يَا بْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي

---

(١) أخرجه البخاريُّ، أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] (٧٤٠٥)، ومسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٧٥/ ١٩).

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الدعوات (٣٥٤٠) وقال: «حديث حسن غريب»، وقد تقدَّم، وله شاهدٌ عند مسلم ببعضه، كتاب الذكر والدعاء (٢٦٨٧) وفيه: «وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

واعلم أن كلَّ فلاح ونجاح في الدنيا والآخرة إنما سببه التوبة، ولو لم يكن في فضل التوبة إلا أنها سبب محبة الرب للعبد لكفى!!

مَنْ أنا؟ ومَنْ أنت؟ لنكون أهلًا لمحبة ملك الملوك وجَبَّار السموات والأرض؟ تدبر قول ربك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وفي «صحيح البخاريِّ»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ».

ومن فضائل التوبة كذلك: أنها سبب لنور القلب ومحو أثر الذنب؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم، وصححه على شرط مسلم، وأقر الحاكمَ الذهبيُّ، وكذلك صحَّحه الألبانيُّ[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠١).
أقول: فالوليُّ هو المؤمنُ التقيُّ، وليس كما يفهم بعض الناس أن الولي هو الذي لا يصلِّي، وهو الذي يتبول على خلق الله! وهو الذي يقول: إنه يصلي كلَّ فرضٍ في الكعبة، وأمام الناس منفلتٌ من التكاليف والأوامر الشرعية! هل هو عند رب البرية أفضل من سيد البشرية؟! ومع ذلك لم يرفع الله عز وجل التكاليف عن حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم؛ فلقد قال الله له: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، يعني: الموت؛ فأنا أعجب لهؤلاء الذين يزعم أحدهم أن فلانًا من الأولياء، وهو لا يصلي، ولا يصوم، ولا يمتثل الأمر ولا يجتنب النهي، ولا يمتنع عن مصافحة النساء والنظر إليهن؛ بل يلتمسن منه البركة؛ فهذا ضلال؛ قال الشافعيُّ: «إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على سطح الماء، وهو غير ملتزم بشرع رب الأرض والسماء؛ فاعلموا بأنه وليٌّ من أولياء الشيطان، وليس وليًّا من أولياء الرحمن»؛ فأولياء الرحمن بنصِّ القرآن هم المؤمنون المتقون: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢،٦٣]. راجع: «تفسير ابن كثير» (١/ ١١٢) [البقرة آية ٣٤] بمعناه، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٥٠٢)، و«معارج القبول» (٢/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة «ويل للمطففين» (٣٣٣٤)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب (٤٢٤٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٥)، (٢/ ٥٦٢)، =

الْـمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ..».

لأن الفتنَ تعرضُ على القلب؛ كما في «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**».

فالفتن تعرض على القلب؛ فيتأثر بها إن أشربها، وحينئذٍ تترك في القلب نكتةً سوداء، ثم تعرض فتنةٌ أخرى، فيتشربها القلبُ؛ فتزيد بقعة السواد، وتعرض فتنة ثالثة ورابعة، وهكذا فيتشربها القلب؛ فتزيد بقعة السواد، فإن لم يتب العبدُ إلى الله عز وجل يزيد السواد، وربما يصل إلى درجة الران، فيحجب هذا الرانُ صاحبَ القلب عن الرحيم الرحمن؛ يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الْـمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ؛ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ** - أي ترك الذنب والمعصية - **وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ** - أي طهر قلبه وزال السواد منه - **فَإِنْ زَادَ** - أي من المعاصي والذنوب - **زَادَتْ** - أي زادت نكتة السواد - قال صلى الله عليه وسلم: **فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ عز وجل فِي كِتَابِهِ**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤، ١٥]».

كيف ينزع العبدُ ثوب الإيمان بالمعصية؟ قال صلى الله عليه وسلم؛ كما في «**الصحيحين**»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السارق حِينَ يَسْرِقُ وَهوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخمر حِينَ يَشْرَبُهَا وَهوَ مُؤْمِنٌ**».

قال أبو هريرة رضي الله عنه[(٣)]: «أي: إذا أذنب العبدُ خُلِع الإيمانُ من رأسه، فيكون عليه

=

وابن حبان في «صحيحه» (٧٧١)، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٠٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٦٧٠)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٦٩، ٣١٤١)، و«صحيح سنن الترمذيِّ وابن ماجه».

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا (١٤٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب إثم الزناة (٦٨١٠) وانظر (٢٤٧٥)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان باب نقصان الإيمان بالمعاصي (٥٧).

(٣) أخرجه المروزيُّ في «تعظيم قدر الصلاة» (٥٣٩).

هكذا. وقال بكفه، فإن نزع وتاب رجع إليه الإيمانُ».

وقال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف يُنزع الإيمانُ منه؟ قال: «هكذا، وشبَّك بين أصابعه، ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا وشبك بين أصابعه»[(١)].

وفي لفظٍ[(٢)] قال: «يُنزع منه نور الإيمان في الزِّنا».

وروى الطبريُّ في «تهذيب الآثار»، وابن عساكر في «التاريخ» بإسنادٍ منقطع[(٣)] عن عبد الله بن رواحة ﷺ أنه كان يقول: «إن مثل الإيمان مثل قميصك، بينما أنت وقد نزعته إذ لبسته، وبينما أنت قد لبسته إذ نزعته».

فالإيمان؛ كما سبق قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان؛ يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية؛ كما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة؛ أسأل الله أن يزيد الإيمان في قلوبنا.

والتوبة كذلك: سببٌ للحياة الكريمة الطيبة في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح:١٠-١٣].

وأيضًا من أعظم فضائل التوبة: أن الله ﷻ يفرح بتوبة عبده إليه، ولا نُشبِّه صفة الفرح لله بصفة الفرح عند المخلوقين؛ ففرح الله يليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى؛ قال ﷺ : «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب إثم الزناة (٦٨٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ تعليقًا بصيغة الجزم، كتاب الحدود باب الزنا، وشرب الخمر. قبل حديث (٦٧٢٢)، ووصله ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٩٤، ٩٥)، وحسَّنه الألباني هناك.

(٣) أخرجه الطبريُّ في «تهذيب الآثار» (٩٦٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٨ / ١١١، ١١٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ مختصرًا، كتاب الدعوات، باب التوبة (٦٣٠٩)، ومسلمٌ، كتاب التوبة باب الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٧) - واللفظ له - من حديث أنس ﷺ، ورواه البخاريُّ (٦٣٠٨)، ومسلمٌ (٢٧٤٤) عن ابن مسعود ﷺ، ورواه مسلمٌ (٢٦٧٥) عن أبي هريرة ﷺ، ورواه عن النعمان بن بشير ﷺ (٢٧٤٥)، وعن البراء بن عازب ﷺ (٢٧٤٦).

ففرح الله بتوبة التائب إليه أعظم من فَرْحةِ هذا العبد بعودة راحلته إليه.

قال ابنُ القيم رحمه الله [١]: «ولولا أن التوبةَ هي اسمٌ جامعٌ لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الربُّ تبارك وتعالى لِيَفْرح بتوبة عبده حين يتوب إليه هذا الفرح العظيم؛ فجميع ما يتكلَّم فيه الناسُ من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها».

وبالجملة؛ فإن اللهَ علَّق الفلاحَ على التوبة؛ فلا سبيل لنيل الخيرات في الدنيا والآخرة إلا بالتوبة إلى ربِّ الأرض والسموات؛ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١].

وأوَّلُ معاني التوبة: الاعتصام بالله جلَّ وَعَلَا، وإلا - فوربِّ الكعبة- إنه الخذلان والخسران في الدنيا والآخرة إن لم يعصمك ربُّك وإن لم تعتصم به؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١] هذا هو صراطُ التائبين؛ صراط المَرْضِيِّ عنهم من رب العالمين؛ فنحن ندعو الله ونتضرعُ إليه كلَّ يوم عشرات المرات أن يهدينا هذا الصراطَ في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]؛ فمن كَمُلتْ عصمتُه بالله لم يخذله اللهُ أبدًا؛ فمتى اعتصمتم بالله تولَّاكُمْ ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدُوَّان اللذان لم يفارقا العبد، وعداوتهما أضرُّ من عداوة العدو الخارجي؛ لأن العدو الخارجيَّ أنت تعرفه وتعرف قدراته وتُعِدُّ له العدة بحسبها، أما نفسك الأمارة والشيطان والهوى والدنيا؛ فهذه أعداء لابد من أن يفطن العبدُ السالكُ إلى ربه بخطرها:

إنِّي بُلِيتُ بأربعٍ ما سلَّطوا	إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى	كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي
إبليس يسلك في طريق مهالكي	والنفس تأمرني بكل بلائي
وأرى الهوى تدعو إليه خواطري	في ظلمة الشبهات والآراء

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٧).

وزخارف الدنيا تقولُ أما ترى حسني وفخر ملابسي وبهائي [(١)]

وأنشد بعضهم:

إنِّي بُلِيتُ بأربعٍ يرمينني بالنبل قد نصبوا عليَّ شراكا

إبليس والدنيا ونفسي والهوى من أين أرجو بينهن فكاكا

يا رب ساعدني بعفو إنني أصبحت لا أرجو لهن سواكا [(٢)]

فلا خلاصَ لك إلا إن اعتصمت بالله سبحانه وتعالى؛ فالله هو الوليُّ وهو المولى لأهل الإيمان؛ قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمد:١١]، والعبد أحوج إلى عصمة الله ونصرته له تبارك وتعالى، وإلاَّ - والله - لخسر الدنيا والآخرة؛ فما خَلَّى اللهُ بينك وبين الوقوع في الذنب إلا بعد أن خذلك بتخلِّيه عنك، وخلَّى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك وحال بينك وبين نفسك ما وقعت في الذنب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد أجمع أهلُ العلم أن الخذلان يقع حينما يَكِلُ اللهُ العبد لنفسه؛ فلولا ستر الله علينا لخذلنا، ولو وكلنا الله إلى أنفسنا طرفة عين لهلكنا!! فلحظاتُ الضعف التي يقع فيها أيُّ بشر، هي لحظات يُخَلِّي الله فيها بيننا وبين أنفسنا الأمارة بالسوء؛ فيظهر العبد على حقيقته من نقص وعيب وفضائح؛ نسأل الله أن يستر علينا في الدنيا والآخرة.

واتفق أهْلُ العلم كذلك على أن التوفيق كلَّ التوفيق أن يعصمك اللهُ ﷻ، وألا يكلك إلى نفسك طرفة عين، واعلم أن العبد الذي يفرحُ بالمعصية؛ لتحقيقه شهواته ورغباته ونزواته ـ دليلٌ على حبه ورغبته في المعصية، ودليلٌ على جهله بسوء عاقبة المعصية في الدنيا والآخرة، وأخطر من ذلك أن فرحه بالمعصية دليلٌ على جهله بقَدْر مَنْ عصاه، وفرح العبد بالمعصية أشدُّ ضررًا من الوقوع في المعصية ذاتها؛ فالمؤمن لا تتم له لذةٌ بمعصية أبدًا؛ بل لا يباشرُ المؤمنُ المعصيةَ إلا والحزنُ يمزِّق قَلْبه، ولكن سُكْرُ الشهوة وضعف البشرية يحجبه عن الشعور به؛ فمتى خلا قلبُهُ من هذا الحزن على المعصية،

---

(١) «كشف الخفا» للعجلوني (١/ ٤٠).
(٢) «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦٧).

واشتدت فرحته وغبطته بالمعصية؛ فليتَّهِم إيمانه، وليَبْكِ على موت قلبه؛ بل المؤمن ـ وهذه علامة من علامات الإيمان ـ إذا أذنب تراه محترقًا باكيًا متذللًا متضرعًا خائفًا وجِلًا، مُنكَّس الرأس بين يدي ربِّه، لا يرى في قلبه فرحًا؛ بل هو يعترفُ لربه أنه ما زلَّ إلا في لحظة ضَعْف، وإلا في لحظة سُكْر الشهوة، وإلا لبشريته الضعيفة؛ فإن تذكَّر وتابَ وأنابَ تراه منكسرًا بين يدي الله، خائفًا وجلًا مضطربًا، لا يشعر البتة بفرح ولا بغبطة ولا بسرور لارتكابه الذنب ولوقوعه في المعصية؛ فإن لم يجد العبدُ في قلبه هذا فليعلم أنه يحمل قلبًا ميتًا وهو لا يدري، وهذه لطيفةٌ قَلَّ من يلتفتُ إليها أو ينتبه لها، وهي موضعٌ مخوِّف؛ لأن العبد قد يهلكُ بحبه للمعصية وغبطته بها! لماذا؟ لأن العبد اشتدت فرحتُهُ بالمعصية مع غفلته عن التوبة إلى الحد الذي يشعر بنشوةٍ إذا ظفر بذنب أو معصية؛ فهذا العبدُ ستدفعُه هذه النشوةُ وهذه الغبطةَ وهذا السرورُ إلى الوقوع في الإصرار على المعصية؛ لأنه فرح بها؛ فلم تُؤْلِم قلبهُ ولم تُحرِّك جوارحه؛ فهو مستقرٌّ على المعصية، لا يرى عيب نفسه، ولا يرى فيها نقصًا، فيصرُّ عليها، ولا يجد في قلبه من الهم والاحتراق ما يحركه إلى التوبة. وهذا الاستقرار هو الاستقرار على المخالفة والعزم على المعاودة، وذلك ذنبٌ آخر لعلَّه أعظم من الذنب الأول بكثير!! وهناك من يسأل: أفعل الذنب وأتوب، ثم أرجعُ لفعله وارتكابه وأتوبُ، ثم أرجعُ مرةً ثالثةً ورابعةً.. وهكذا؛ فلماذا هذا التكرار؟!! والجوابُ: لأن العبد ربما ما تاب إلى الله ﷻ توبةً صادقةً؛ فأصعب شيء على أهل الصدق التوبة؛ ففرحك بالذنب سيوقعك في الإصرار عليه، وهذا من عقوبة الذنب؛ لأن الوقوع في الذنب يوجب ذنبًا أكبر من الذنب الأول... وهكذا؛ فالإصرار على المعصية معصيةٌ، ونحن لا نكفر بالإصرار؛ لكن الإصرار على المعصية معصية قد تصل إلى حد الكبيرة، لكن استحلال المعصية كفر؛ ففرق بين الإصرار والاستحلال؛ كأن يقول رجلٌ مثلًا: الخمر حرام؛ لكنني أستحلُّه؛ فهذا الاستحلال كفر أكبر، أمَّا أن يقول: الخمر حرام؛ لكنني لا أقدر على تركه؛ فهذا لا يكفر، ولا يخرج من الملة بالإجماع؛ وكثيرًا ما كان يؤتى برجلٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ يُقال له: «حمار» ليقام عليه الحدُّ من شُرْبِ الخمر؛ فلمَّا سبَّه أحَدُ الصحابة أنكر النبيُّ ﷺ، وقال[1]: «**لَا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَالله مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب ما يكون من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من =

فشتان بين الإصرار وبين الاستحلال، وقد لا يكون العبدُ مصرًّا بارتكابه للذنب مرة بعد مرة؛ بل قد يقع في الذنب ويتوب توبةً صحيحةً، وبعد ذلك يضعف فيقع في ذات الذنب، ويتوب توبةً صحيحةً، وهكذا... وهذا هو الذي قال فيه النبيُّ ﷺ؛ كما في «**الصحيحين**»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ؛ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ؛ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ؛ اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**».

فإذا آمن العبد بأن الله سبحانه وتعالى يراه، ومع ذلك فهو مقيمٌ على معصيته مجاهرٌ بها؛ فما أقل حياءَ العبد من الله تعالى!!

أما إذا اعتقد أن الله لا يراه فقد كفر كفرًا أكبر يخرجه من الملة؛ فالجهر بالذنب ذنبٌ أعظم؛ فالعبد دائر بين أمرين بين قلة الحياء من الله سبحانه وبين الكفر والانسلاخ من الدين؛ إذا اعتقد أن الله لا يراه، ولا يطلع عليه، وهو مقيم على معصيته!! فعلى العبد أن يعلم أن التوبة إلى الله تبارك وتعالى أمر شاقٌّ جدًّا يحتاج إلى مجاهدةٍ وصبرٍ ويقظةٍ تامةٍ للتخلُّص من الأعداء الذين يحولون بينه وبين التوبة؛ كالشيطان، والهوى، والدنيا، والنفس الأمارة بالسوء!!

قال ابنُ القيم رحمه الله[2]: «وشرائط التوبة ثلاثة: الندمُ والإقلاعُ والاعتذارُ؛ فحقيقةُ التوبة هي: الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبةُ؛ فإنه في ذلك الوقت يندمُ ويقلعُ ويعزمُ؛ فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خُلِقَ لها، وهذا الرجوع هو حقيقة

= الملة(٦٧٨٠) وفي لفظ أبي هريرة رضي الله عنه (٦٧٨١): «**لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**».

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥] (٧٥٠٧)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوبُ والتوبة (٢٧٥٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٢، ١٨٣) بتصرف.

التوبة، ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له؛ فأما الندم؛ فإنه لا تتحقق التوبةُ إلا به؛ إذ مَنْ لم يندم على القبيح؛ فذلك دليلٌ على رضاه به، وإصراره عليه».

فالندم هو ركن التوبة الأعظم؛ كما في «**مسند أحمد**»، و «**سنن ابن ماجه**» بسندٍ صحيحٍ [(١)] من حديث ابن مسعود ﷺ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**».

ثم يقول ابنُ القيم ﷺ: «وأما الإقلاع؛ فتستحيل التوبةُ مع مباشرة الذنب»؛ فلابد من الإقلاع عن الذنوب بعد الندم على وقوعك فيها فيما مضى؛ **قال**: «وأما الاعتذار؛ فهو الاعتذار إلى الله سبحانه بإظهار الضعف والمسكنة وأن العبد قد وقع لضعف نفسه، وضعف بشريته، وغلبة هواه، وانتصار الشيطان عليه»؛ لا أن يحتج العبدُ بالوقوع في المعصية بقدر الله كما سأبين؛ فالاعتذار أن يعتذر العبدُ بخطئه وتقصيره وجهله ونقصه وعيبه، وأن يسأل ربه سبحانه وتعالى أن يتوب عليه ليتوب إليه، وأن يغفر له ذنبه، وأن يستر عليه عيبه، فليعترف العبد ويقول: يا ربِّ والله ما وقعت في الذنب «استهانةً مني بحقك، ولا جهلًا به، ولا إنكارًا لاطلاعك عليَّ، ولا استهانةً بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتكالًا على عفوك، وحسن ظني بك، ورجاءً لكرمك، وطمعًا في سعة حلمك ورحمتك، وغرَّني بك الغرورُ، وغرتني النفسُ الأمارةُ بالسوء، وسترك المرخي عليَّ، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، ونحو هذا من الكلام الذي يُظهر فيه العبدُ ذُله وانكساره بين يدي الله تبارك وتعالى؛ فهذا من تمام التوبة، وإنما يسلُك هذا العقلاء من أولي الألباب من المتذللين إلى رب العالمين؛ فالله جلَّ وعلا يحب من عبده أن يتذلل إليه، وأن يتضرع إليه، وأن يُلحَّ عليه، وأن يكثر سؤاله» [(٢)].

أما حقائق التوبة؛ فهي تعظيم الجناية، واتهام التوبة، والغيرة لله، والغضب له إذا خُولِفتْ أوامره، ودونك تفصيل ذلك:

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٤٢٥٢)، وأحمد (١/ ٣٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣)، وابن حبان (٦١٢)، والحاكم (٤/ ٢٧١)، والطيالسي (٣٨١)، والحميدي (١٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢).

(٢) هذا كلام ابن القيم بتصرفٍ يسيرٍ.

فأولُ حقيقةٍ من حقائق التوبة: «**تعظيم الجناية**»، ومعناه: أن العبد إذا استهان بذنبه وجنايته لن يندم عليه؛ أما إن عظَّم جنايته، وعظَّم من خالف أمره؛ أسرع إلى التوبة، وحقَّق الندم، وعلى قدر تعظيم الجناية يكون الندمُ على فعلها، ولا يمكن للعبد أن يعظم جنايته إلا بثلاثة أشياء؛ الأول: تعظيم الأمر، الثاني: تعظيم الآمر، الثالث: التصديق بالجزاء؛ فقد يرتكب الإنسانُ كبيرةً من الكبائر، ويشعر أن ذبابة صغيرة تقف على أنفه، فهو يُذْهِبها بيده هكذا فتطير؛ فالمنافق ـ والعياذ بالله ـ لا يرى الذنب - وإن كبُر - شيئًا، أما المؤمن؛ فإنه يرى الذنب - وإن صغُر - كالجبل يحمله على كتفيه[1] !! لأن المؤمن يُعظم الأمر، ويعظم الآمر، ويصدق بالجزاء؛ فلو جاءك الأمرُ في أيِّ شيء من أمور الدنيا من رئيسك المباشر لن يكون تعظيمك لهذا الأمر كتعظيمك إذا جاءك من رئيس القطاع أو رئيس مجلس الإدارة؛ فتعظيم الأمر من تعظيم الآمر، فتصور أن الذي يأمر وينهى هو اللهُ ورسولُهُ؛ فقف على قَدْر هذا الأمر؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]؛ فتعظيم الآمر من أعظم الأسباب التي رحم اللهُ بها الأمة، وهذا هو الفارق بين ما كان عليه السلفُ وبين ما كان عليه الخلفُ؛ لأن السلف كانوا يعظمون الأمر والآمر، ولكن الخلف إلا من رحم ربك صاروا لا يعظمون الأمر؛ لأن قَدْرَ الآمر في قلوبهم وجلاله قلَّ!! فصارت النظرةُ إلى الأمر عاديةً أفعلُ أو لا أفعلُ! لكن انظر إلى حال السلف؛ كما في «**صحيح مسلم**»[2] عن أبي هريرة ﷺ قال: لَـمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ؛ فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ الله! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلاَةُ، وَالصِّيَامُ، وَالْجِهَادُ، وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا؛ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؛ بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ**

---

(١) كما عند البخاريِّ، كتاب الدعوات، باب التوبة (٦٣٠٨) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يَخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه، فقال به هكذا» قال أبو شهاب ـ أحد الرواة: «بيده فوق أنفه» أي: [هشهُ بلا مبالاةٍ].

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه لم يكلِّف إلا ما يطاق (١٢٥).

الْمَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة:٢٨٥]؛ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[البقرة:٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[البقرة:٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ».

فانظر إلى درجة التعظيم للأمر والآمر؛ فالمنهج هو المنهج؛ لكن قَلَّتْ في قلوبنا عظمةُ ربِّنا؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]؛ فلن تُعظم ذنبك وجنايتك إلا إذا عظَّمت الأمرَ، وتعظيمك للأمر لن يكون إلا إن عظَّمت الآمر، ثم بعد ذلك تصدِّق بالجزاء؛ بمعنى: أن الله يأمرك فإن فعلت منحك من الأجر ما يتوافق مع فضله وجوده وكرمه، وإن لم تفعل عاقبك وعذبك وحاسبك؛ فالمؤمن مصدق بالجزاء، لذلك فهو يمتثل الأمر، ويجتنب النهي، ويقف عند الحد؛ قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:١-٣]، وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ: مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وفي «**الصحيحين**»(٢) من حديث النعمان بن بشير ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ أَهْوَنَ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير سورة السجدة، باب قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة: ١٧] (٤٧٧٩،٤٧٨٠)، ومسلمُ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦١، ٦٥٦٢)، ومسلمُ، كتاب =

أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ».

فالمؤمن مُصدِّق بالثواب والعقاب.

الحقيقة الثانية من حقائق التوبة هي: «اتهام النفس»، وهذا معناه: اتهام التوبة، أي: أنك ما تبت إلى الله تبارك وتعالى بعد الذنب توبة ترضيه؛ فإنك لو شعرت أنك تبت إلى الله توبةً صالحةً ناصحةً حقيقيةً؛ فهذه بدايةُ الخطر؛ لأنك سترضى عن نفسك، والرضا عن النفس علامة شؤم في الدنيا، وعلامة شقاءٍ في الآخرة؛ بل يجب على المؤمن أن يكون مُتَّهِمًا لتوبته؛ فإنه لا يتهم توبته إلا إذا وقف على قَدْر الله وجلالهِ، وعلى عيوب نفسه وآفاتها.

قال ابنُ القيم رحمه الله (١): «فلأن التوبةَ حقٌّ عليه، ولا يتيقن العبدُ أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه الذي ينبغي له أن يؤديه عليه؛ فيخاف أنه ما وفَّاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبةُ عِلَّة، وهو لم يشعر بها؛ كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس»؛ كأن يموت لأحدٍ ولدٌ مثلًا أو يُهْدَم بيته، فيصرخ ويبكي، ويضع الترابَ على رأسه، ويلطم خده، ويشق جيبه، ويدعو بدعوى الجاهلية؛ بل وربما يُسْخِط ربَّه سبحانه وتعالى، ويتهم قدره؛ فإذا شعر بعد كُلِّ ذلك بالملل والتعب، وذهب إليه بعضُ الأفاضل ليقول له: يا أخي اتق الله واصبر، يقول: أنا صابر وماذا بيدي أن أعمل؟! فهذه «توبة أرباب الإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تابَ محافظةً على حاله، فتاب للحال لا خوفًا لذي العظمة والجلال، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكدِّ في تحصيل الذنب، أو تاب خشية وخوفًا على عرضه من المذلة أو اتقاء ما يخافه على عرضِهِ وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، أو نحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفًا من الله جَلَّ جلاله وتعظيمًا له ولحرماته، وإجلالًا له، وخشية من سقوط المنزلة عنده من البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة؛

=

الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا (٢١٣).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٥).

فهذه التوبة لونٌ، وتوبة أصحاب العلل لونٌ آخر»[١]؛ أي: من تاب حُبًّا لله، وإجلالًا له، وخوفًا منه وخوفًا من الطرد عن جلاله يوم القيامة؛ فهذه توبة الصادقين المخلصين؛ لكن من تاب خوفًا من علة؛ على جاهه، خوفًا على منزلته، أو من تاب؛ لأنه ليس فيه أمر الشهوة مثلًا؛ فهو ما نزل التوبة خوفًا من الله تعالى، بمعنى أنه لو كان يملك من القدرة على المعصية لفعلها؛ فهذه التوبةُ لونٌ!! وهذه التوبة لأصحاب الصدق والبصائر لونٌ آخر.

ومن اتهام التوبة أيضًا: «ضعف العزيمة»، بمعني: أن تتهم توبتك لضعف عزيمتك، ويلتفت قلبك بعد التوبة إلى الذنب، فإن تذكَّرت الذنب هيَّجك؛ فكم من الناس تاب إلى الله من معصيته، لكنه عندما جلس يومًا فتذكَّر هذه المعصية، وتذكَّر هذا اليومَ الذي كان فيه؛ هيجه الذنب، وتمنَّى من داخل نفسه أنه لو عاد إلى هذا الذنب وإن لم يصرح بلسانه؛ فمن اتهام التوبة: ضعف العزيمة، والحنين إلى الذنب المرة بعد الأخرى؛ فهو يتذكر حلاوة مُوَاقعةِ الذنب، فيتنفس نفسًا عميقًا، وربما هاجت نفسُهُ، واشتاق قلبُهُ؛ لمعاودة الذنب والرجوع إليه.

ومن اتهام التوبة أيضًا: «طمأنينة العبد»، ووثُوقه من نفسه بأنه قد تاب إلى الله، حتى كأنه قد أُعطِي منشورًا بالأمان من عذاب الله سبحانه!!

ومن علامات اتهام التوبة: «**جمودُ العين، واستمرارُ الغفلة، وألا يَسْتحدث بعد التوبة أعمالًا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة والوقوع في الذنب**»؛ فإن خلوت وتضرَّعت إلى الله سبحانه وتعالى، ووجدت عينك جامدة لا تعرف طريقًا إلى البكاء من خشيته؛ فاتهم نفسك، وحقِّق الخشية؛ فالخشية من الله ليست كلمة؛ فعلى قدر الخوف من الله في القلب تكون الدمعةُ، لاسيما إن كنت خاليًا؛ قال عبد الله بن مسعود ﵁: «اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وعند الخلوة، وفي مجالس الذكر ـ أي مجالس العلم؛ فإن لم تجد قلبك في هذه المواطن؛ فسل الله أن يمنَّ عليك بقلب؛ فإنه لا قلب لك»[٢].

فإذا ذاق العبدُ طعمَ الخشية، وطعمَ الخوف؛ رقَّت الجوارحُ كلُّها، وبكت العينُ،

---

(١) من كلمات ابن القيم «المصدر السابق» وما سيأتي كذلك بتصرف.
(٢) «الفوائد» لابن القيم (١٤٨).

واقشعرَّ البدنُ، وذلك في الخلوة، وهذه علامة صدق أيضًا؛ كما في «سنن الترمذيِّ»[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله**»؛ فالبكاء ثمرة الخشية، وأعرف الخلق بربه هو المصطفى ﷺ؛ كما في «**الصحيحين**»[٢] عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**فوالله إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بالله، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**».

وفي الحديث الذي رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي وغيرهم بسندٍ صحيح[٣] عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: «**رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، ولِصَدْرِه أزيزٌ كَأَزيزِ المِرْجَلِ**» يعني: من البكاء.

بل كان يبكي ﷺ إذا قُرِئ عليه القرآنُ؛ كما في «**الصحيحين**»[٤] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»؛ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، قَالَ: «**أَمْسِكْ**»؛ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.

وفي لفظٍ: «فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ».

فعلى قدر الخشية يكون البكاءُ؛ ولذلك أقولُ: ليس الخائف من يبكي ويمسح

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب فضائل الجهاد، باب فضل الحرس في سبيل الله (١٦٣٩)، وأبو يعلى (٧/ ٣٠٧)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٤٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٢٢)، و«صحيح الجامع» (٤١١٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة (٩٠٤)، والترمذيُّ في «الشمائل» (٣٢٢)، والنسائي، كتاب السهو، باب البكاء في الصلاة (١٢١٤)، وأحمد (٤/ ٢٥، ٢٦)، وابن خزيمة (٢/ ٥٣)، وابن حبان (٢/ ٤٣٩)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٤٤) و(٣٣٢٩).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن (٥٠٥٥)، وكتاب التفسير، باب ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ..﴾ [النساء: ٤١] (٤٥٨٢)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظهِ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر (٨٠٠).

عينيه، ثم بعد ذلك يتجرأ على معصية الله، ولكن الخائف من يترك ما يخاف أن يحاسبه الله عليه.

ولكن كيف تبكي عَيْنُك؟ والجوابُ: أن تجتهدَ في تحقيق الخوف والخشية من الله؛ فإذا ذاق قلبُك طعمَ الخشية والخوف وجدتَ البكاء من الخشية سهلًا وميسورًا جدًّا؛ قُمْ بالليل، وتضرع إلى الله، وابكِ بين يديه؛ فوالله ستشعر بلذة البكاء وحلاوته.

فمن علامات اتهام التوبة: «جمودُ العين» وطمأنينة العبد بأنه قد أُعطِيَ عهد أمانٍ بأن الله سبحانه وتعالى قد تاب عليه توبة لا يسخط عليه بعدها أبدًا؛ **فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات**؛ منها: أن يكون العبدُ بعد التوبة خيرًا مما كان قبل التوبة؛ فالتائبُ تراه منكسر القلب، خاشع الطرف، خائفًا من الله سبحانه، ترى عليه ذلةً وكسرةً قد لا يستطيع أهلُ البلاغة أن يعبروا عنها؛ فهي كسرةٌ خاصةٌ لا يذوق طعمها، ولا يعرف حلاوتها إلا من صدق في توبته، وقُبِلتْ وصحَّت إنابته.

ومن علامات التوبة المقبولة: ألا يزال الخوفُ مصاحبًا للتائب، وألا يأمن مكر الله طرفة عين حتى يلقاه؛ قال سبحانه: ﴿ **أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴾ [الأعراف:٩٩]، ولذلك كان الصادق ﷺ يكثر من قول [١]: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**».

وفي «**صحيح مسلم**» [٢] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**».

وكان ﷺ يقول [٣]: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**».

فالأمنُ من مكر الله علامة خسران، ولقد سُئِل الإمام أحمد؛ فقيل له: يا إمام متى يجد العبدُ طعمَ الراحة؛ فقال أحمد: «عند أول قدم يضعها في الجنة» [٤].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أُصْبُعي الرحمن (٢١٤٠)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ (٣٨٣٤)، وأحمد (٣/ ١١٢)، والحاكم (١/ ٥٢٦) من حديث أنس رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٩١)، و«صحيح سنن الترمذيِّ».

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم (٦٦٠٧).

(٤) أخرجه ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٩١)، وروي من وجهٍ آخر عند أبي نعيم في «حلية =

ولله درُّ القائل:

أحـــزان قلبـــي لا تـــزول حتـــى أُبـــشر بـــالقبول

وأرى كتـــابي بـــاليمين وتقـــرَّ عينـــي بالرســـول

فالمؤمن تراه دائمًا خائفًا وجِلًا؛ فخوفه مستمرٌّ إلى أن يسمع قول الـمَلَك حين يقبض روحه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:٣٠، ٣١]؛ حينئذٍ يسعدُ سعادةً لا يرى شقاءً بعدها أبدًا؛ فقد روى أحمد في «مسنده»، وابن ماجه في «سننه» بسندٍ صحيح [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**الـمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الملائِكَةُ** - أي: عند الموت - **فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ! كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ**».

ولا ريب ولا شك أن الخوفَ الشديدَ يكون من العقوبة العظيمة؛ فلو أن أحدنا ذهب إلى بيته، ووجد امرأته تسلِّمه ورقةً من مُحضرٍ، مكتوب له فيها: إنك مطلوب للنيابة غدًا! والله لن ينام، ولن يطرف النومُ عينيه، وسيظلُّ طوال الليل يفكر في جنايته التي طُلب بسببها للوقوف أمام قاضٍ من قضاة الدنيا؛ فهل فكَّرت في جناية ستقفُ بها أمام ملك الملوك جَلَّ جلالُه؟! يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم؟ إن فكَّرت في هذه الجناية في لحظة وقوفك بين يدي الله؛ لن أقول في جناية بل في جنايات؛ بل في ذنوب ومعاصٍ ربما نسيتها أو تناسيتها، ولكن ربِّي جلَّ وعَلَا - كما قال نبيه موسى ﷺ -: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]؛ فكم من مصيبة كنت نسيتها فذكَّرك الله إياها، وكم من معصية كنت أخفيتها أظهرها الله لك وأبداها؛ فيا حسرة قلبك وقتها وأنت واقفٌ بين يدي ربك سبحانه على ما فرطت في دنياك في طاعة

=
الأولياء» (١٠/ ١٣٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ١٣).

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٢)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات»، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٦٨).

مولاك: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة:١٩ ـ ٣٧]؛ فالخوفُ الشديدُ يقطع القلب، ولذلك تجد الإنسان جريئًا على الله؛ لأنه لا يعرفُ للخوف طريقًا ولا سبيلًا؛ فما تجرأ الزاني على الزنا إلا لعدم خوفه، وما تجرأ آكلُ الحرام على أكل الحرام إلا لعدم خوفه، وما تجرأ السارقُ على السرقة - وهو يعلم أن الله يسمعه ويراه - إلا لعدم خوفه من سيده ومولاه؛ فكلَّما ازداد الخوفُ من الله كلَّما تمزق وتقطع القلبُ حسرات على التفريط والتقصير في حق الله جَلَّ جلاله، وهذه حقيقة التوبة؛ لأن القلب حينما يتقطع حسرة على ما فات؛ فهذا دليل الندم، والندم توبة؛ كما قال ﷺ [(١)].

وفي «سنن» البيهقي، و«صحيح» ابن حبان وغيرهما بسندٍ صححه شيخُنا الألبانيُّ بمجموع طرقه [(٢)] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: **قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ: إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**.

إما أن تخاف اللهَ في الدنيا فتؤمَّنُ يوم القيامة، وإما أن تعيش جريئًا على الله في الدنيا لا تعرف للخوف سبيلًا؛ فسترى أشكال وألوان الخوف كلَّها في الآخرة.

فمن لم يتقطع قلبُهُ حسرات على ما فَرَّط في جنب ربِّ الأرض والسموات حتمًا سيتقطع قلبُه في الآخرة إذا حُقَّت الحقائق، وعاين ثوابَ المطيعين، وعقاب المذنبين العاصين!!

ومن مُوجبات التوبة الصحيحة المقبولة: كسرةٌ خاصةٌ تحصُل للقلب، ولا تكون

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٧)، وصحَّحهُ بشواهده الألباني في «الصحيحة» (٧٤٢، ٢٦٦٦).

إلا بعد الذنب والتوبةِ الصادقة منه؛ فتجد التائبَ المخْلِصَ مكسورًا، منكسر القلب، خاشع الطرف، ذليل النفس، لا ترى فيه عُجْبًا ولا كبرًا ولا غرورًا؛ لأنه يعلم تمامًا حقيقة نفسه، ويقف تمامًا على عيوبها وآفاتها وتقصيرها، وفي الوقت نفسه يعرف قَدْر الله وجلاَلَهُ؛ فليس شيء أحبَّ إلى الله سبحانه وتعالى من كسرة القلب وخضوعه وتذلله والإخبات إليه جلَّ شأنه، والانطراح بين يديه والاستسلام له، وما أحلى أن يعبر عن انكسار قلبه بين يدي ربه؛ فيقول: أسألك بعزِّك وذلي إلا رحمتني، وأسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك؛ هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيدٌ سواك، سبحانك! لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، أسألك سؤال المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبه إلا رحمتني.

ما أحلاها من كلمات حينما تصدق التوبةُ!!

ولله درُّ القائل:

بك أستجيرُ ومن يجيرُ سواك	فأجر ضعيفًا يحتمي بحماك
إني ضعيفٌ أستعينُ على قَويٍّ	ذنبي ومعصيتي ببعض قواك
أذنبتُ يا ربي وقادتني ذنوبٌ	ما لها من غافر إلاك
دنياي غرتني وعفوك شدَّني	ما حيلتي في هذه أو ذاك
لو أن قلبي شكَّ لم يك مؤمنًا	بكريم عفوك ما غوى وعصاك
يا مُنبت الأزهار عاطرة الشذا	هذا الشذا الفواح نفح شذاك
يا مجري الأنهار ما جريانها	إلا انفعالة قطرة لنداك
ربَّاه ها أنا ذا خلَّصت من الهوى	واستقبل القلبُ الخليُّ هداك
يا غافرَ الذنب العظيم وقابلًا للتوب	قلبٌ تائبٌ ناجاك
أتردُّه وتردُّ صادق توبتي	حاشاك ترفض تائبًا حاشاك
فليرض عني الناسُ أو فليسخطوا	أنا لم أعُدْ أسعى لغير رضاك

فالحقيقةُ الثانيةُ من حقائق التوبة: اتهام التوبة.

أما الحقيقة الثالثة؛ فهي: الغيرة لله تبارك وتعالى عند مخالفة الناس لأوامره وعدم الاعتذار عنهم والاحتجاج لهم بالقَدَرِ؛ لأن الله ﷻ أعظم وأحكم وأعدل من أن يحاكم صاحب عذر؛ فلا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجْلِ ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب إزالةً لأعذار خلقه؛ لئلا يكون لهم حجةٌ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥].

وفي «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».

فالتائب الصادق يغار إذا انتهكت حرماتُ الله، ويغار إذا خالف الناسُ أوامر الله؛ فهذه من حقائق التوبة: الغيرة لله عند مخالفة أوامره، وألا يحتج ولا يعتذر عن المذنبين بأن القَدَرَ هو الذي أكرههم على فعل المعاصي، ولقد فَصَّلْتُ ذلك في أبواب القدر من كتابي «**جبريل** ؑ **يسأل والنبي** ﷺ **يجيب**»؛ فالثابت أن لا عذر لأحدٍ البتة في معصية الله ومخالفة أمره مع علمه بذلك، وتمكُّنه من الفعل والترك؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات:٦]؛ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة[(٢)]: «**لكنودٌ**»؛ أي: لكفور لنعم الله»، وقال الحسن[(٣)]: «هو الذي يعد المصائب وينسى النعم»، يعني: إذا نزلت مصيبة به يقول: ما أكثر المصائب والبلايا، وينسى نعم الله سبحانه وتعالى التي أغرقه الله بها من ناصية رأسه إلى أخمص قدميه، ومن لحظة ميلاده إلى لحظة مماته؛ فنحن في سربالٍ فضفاضٍ من نعم الله سبحانه وتعالى وفضله وكرمه؛ قال سبحانه: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨]؛ قال أبو عبيدة[(٤)]: « ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ : هو قليل الخير»، والأرض الكنود هي الأرض التي لا نبت فيها، وقيل: التي

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

(٢) أخرج ذلك الطبريُّ في «تفسير سورة العاديات» من «تفسيره» (١٢/ ٦٧١)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٤٣٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) «تفسير البغوي» (١/ ٥٠٩).

لا تنبت شيئًا من المنافع.

وقال الفضيل بن عياض [1]: «الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءةِ الخصالَ الكثيرةَ من الإحسان».

ولولا جَهْلُه لعَلِم أنه هو نفسه الذي قعد في طريق مصالحه لنفسه؛ فنفسه الأمارة هي التي صدَّت الخيرَ عنه؛ فالإنسان الكنود هو الحجر في طريق الماء الذي به حياته، وهو السدُّ المنيعُ الذي سدَّ مجرى الماء إلى بستانِ قلبه ويستغيث مع ذلك: العطشَ العطشَ، وهو الذي وقف بنفسه في طريق الماء الذي به رِيُّ قلبه بذنوبه ومعاصيه، وجهله بحق ربه، وجهله بعيوب نفسه وآفاتها، ويصرخ: العطش العطش وهو لا يدري؛ فهو حجاب قلبه، وسبب بُعْدِه عن ربِّه، وطريق نبيه ﷺ، ولله درُّ القائل:

ما تَبْلُغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يَبلُغُ الجاهلُ من نفسه

فتبًّا لهذا الكنود الجاحد لنعم الله سبحانه الذي يشتكي وهو الجاني، ويتظلم وهو الظالم، ويَجِدُّ في الإعراض عن الله، ويقول: طردوني وأبعدوني!! ويحتج بالقدر على معصية الله سبحانه، ويقول: لولا أن الله قَدَّر عليَّ الزنا ما زنيتُ، والاحتجاج بالقدر - كما قلنا - لا يكون في المعائب؛ إنما يكون الاحتجاج بالقدر في المصائب؛ فنحن نعتقد اعتقادًا جازمًا أن الله خالق الخير والشر، ولكن الشر يُنسب لبني الإنسان، لكن بالنسبة للرحمن لا يجوز أن ننسب إليه الشر؛ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]؛ فهو شرٌّ بالنسبة لنا، ولكن بالنسبة للخالق هو الخير كل الخير؛ كما في دعاء النبيِّ ﷺ [2]: «**والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»؛ فالمؤمن لا يحتج بالقدر على معصية ربه، فها أنت تنكر على امرأتك أو على ولدك إن احتج عليك بالقدر؛ فإذا قَصَّرت امرأتُكَ في حقك وقمت لتعاقبها، وقالت: الله هو الذي قدر ذلك! فلن تقبل ذلك منها؛ فكيف تقبل أن تحتج بالقدر على معصية الله تبارك وتعالى؟!

«هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس: أزاح عللك، وأمكنك من

---

(١) المصدر السابق، وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٩١) وما سيأتي من كلماتٍ لابن القيم بتصرفٍ وتلخيصٍ.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١).

التزود إلى جنته، وبعث إليك الدليل ﷺ، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وما تحارب به قُطَّاع الطريق عليك؛ فأعطاك السمعَ والبصرَ والفؤادَ، وعرَّفك الخيرَ والشرَّ، والنافعَ والضارَّ، وأرسل إليك رسوله، وأنزل إليك كتابه، ويسره للذكر والفهمَ والعملَ، وأعانك بمددٍ من جنده الكرام يثبتونك ويحرسونك ويحاربون عدوك ويطردونه عنك؛ قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، وهم يكفونك مؤنته، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم؛ بل تظاهره وتواليه دون وليك الحق الذي هو أولى بك...»، والملائكة يريدون منك ألا تميل إلى العدو اللدود ألا وهو الشيطان، «وأمرك الله بشكره لا لحاجته إليك، ولكن لتنال بالشكر المزيد من فضله؛ فجعلت كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه من أكبر أسباب صرف فضل الله عنك، وأمرك الله بذكره ليذكرك بإحسانه، فجعلت نسيانه سببًا لنسيان الله لك: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة:٦٧]؛ ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر:١٩]، وأمرك بسؤاله ليعطيك فلم تسأله؛ بل أعطاك أجلَّ العطايا من قبل أن تسأله هل سألته الإيمان؟ هل سألته أن تخرج من بطن أمك مؤمنًا موحدًا؟ تشكو من يرحمك بعد ذلك إلى من لا يرحمك، وتتظلم ممن لا يظلمك إلى من يظلمك، وتدع من يعاديك ويظلمك، وإن أنعم سبحانه وتعالى عليك بالصحة والعافية والمال والجاه استعنت بنعمه وفضله على معاصيه، واحسرتاه دعاك إلى بابه فما وقفت عليه، ولا طرقته؛ بل فتحه لك فما ولجته ولا دخلته»، وا أسفاه إن دُعيت إلى التوبة وما أجبت، واحسرتاه إن ذُكِّرت بالله وإلى الإنابة إليه فما أنبت!! «أرسل إليك رسولًا يدعوك إلى دار كرامته، فعصيت الرسولَ وقُلْتَ: لا أترك ما أراه لشيء سمعت به»؛ أي: أنا سمعتُ بالجنة لكن لم أرها؟ لكني أرى الدنيا؛ فلا أترك ما أراه لشيء سمعت به، ومع هذا لم يقنطك من رحمته؛ بل أينما جئته وتبت إليه قَبِلَك، إن أتيته ليلًا قبلك، وإن أتيته نهارًا قبلك [1]، وإن تقربت منه شبرًا تقرب منك ذراعًا، وإن تقربت منه ذراعًا تقرب منك باعًا، وإن مشيت إليه

---

(١) كما في «صحيح مسلم» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيبسطُ يده بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٩).

هرول إليك[١] ، ولو لقيته بقراب الأرض خطايا ثم لقيته لا تشرك به شيئًا أتاك بقرابها مغفرة[٢] ، ولو بلغت ذنوبك عَنَانَ السماء ثم استغفرته غفر لك[٣] ؛ فمَنْ أعظم منه جودًا وكرمًا؟!

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، يخلق ويُعْبد غيره، ويرزق ويُشكر سواه[٤] ! خَيْرُهُ إلى العباد نازل وشرُّهم إليه صاعد، يتحبب إليهم بالنعم وهو الغني عنهم، ويتبغَّضُون إليه بالمعاصي في الليل والنهار وهم أحوج شيء إليه!! بالرغم من كلِّ ذلك مَنْ أقبل إليه منهم تلَقَّاه من بعيد، ومن أعرض عنه منهم ناداه من قريب، ومن ترك الحرام من أجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد رضاه أعطاه كل ما يريد، وأهْلُ ذكره هم أهل مجالسته، وأهْلُ شكره أهل زيادته، وأهْلُ طاعته أهل كرامته، وأهْلُ معصيته لا يقنطهم من رحمته، إن تابوا إليه فهو حبيبهم؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعائب، يشكر اليسير من العمل؛ فـ: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْـمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[٥] ، ومن شكره لليسير أنه قد أدخل بغيًّا من بغايا بني إسرائيل الجنة؛ لأنها سقت كلبًا[٦] ؛ أيُّ عملٍ هذا وأيُّ جزاء هذا؟ ما قيمة هذا الجزاء وما قَدْر

---

(١) كما في «صحيح البخاري» كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨] (٧٤٠٥)، ومسلمُ، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

(٢) كما في «صحيح مسلم» كتاب الذكر، باب فضل الذكر والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٣) انظر: «سنن» الترمذي، كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار (٣٥٤٠)، وأحمد (٥/ ١٦٧)، والدارمي (٢/ ٤١٤)، و«الصحيحة» (١٢٧).

(٤) ورد في هذا حديثٌ ضعيفٌ؛ أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٤٥٦٣)، والطبرانيُّ في «مسند الشاميين» (٩٧٤، ٩٧٥)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٠٤٨)، و«الضعيفة» (٢٤٧١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وانظر: «الضعيفة» رقم (٣٢٨٧).

(٥) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٦) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه (٣٣٢١، ٣٤٦٧)، ومسلمُ، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

هذا العمل؟! فإذا كانت الرحمة بالكلاب تغفر الخطايا للبغايا؛ فكيف تصنع الرحمةُ بمن وحَّد رب البرايا؟! فهو سبحانه وتعالى يشكر اليسير من العمل، ويغفر الكثيرَ من الزلل، رحمته سبقت غضبه [(١)]، وحلمه سبق مؤاخذته، وعفوه سبق عقوبته، وهو أرحم بعباده من رحمة الأم بولدها [(٢)]، وفرحة الله بتوبة العبد أعظم من فرحة هذا العبد بعودة راحلته إليه [(٣)]؛ فهيا ارجع إلى الرحيم؛ فلن تجد أرحمَ منه، ولا ألطف منه، ولا أكرم منه، ولا أفضل منه، اطرح قلبك بذلٍّ وانكسار بين يديه، سَلْه كلَّ شيء؛ فو الله لن تجد الأنسَ إلا معه، ولن تشعرَ باللذة إلا في رحابه وجنابه، ولن تشعر بالسعادة إلا في تقواه وطاعته.

ولستُ أرى السعادةَ جمع مال ... ولكنَّ التقيَّ هو السعيد

قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤]؛ فهيا عُد إليه فسيفرحُ بك ـ وهو الغنيُّ عنك؛ كما قال: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ**» [(٤)].

قال جلَّ جلاله:﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

يا ترى كم عدد الظالمين في الأرض ممن سوَّفوا التوبة و أخَّروها وأجَّلوها؟!

فكثيرٌ من المسلمين يسوف ويقول: إن شاء اللهُ سأصلي، وسأواظب على صلاةِ الجماعة، وحفظِ القرآن، وأداءِ العمرة من الشهر القادم، وسأترك الربا والحرام،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧]، (٧٤٢٢)، ومسلمُ، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٩)، ومسلمُ، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) سبق قريبًا.

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وسأسرع إن شاء الله في قيام الليل..وهكذا تجدُ التسويف بدون عزم أو عمل!!.

فيا من زللت في حفرة المعصية، وجذبتْ أشواكُ الذنوب ثيابك، يا من أسأت لنفسك، وقَصَّرت في حق نفسك لتقصيرك في حق ربك، وحق نبيك ﷺ، وإخوانك، ومجتمعك؛ هيا اطرح قلبك الآن بذلٍّ وانكسارٍ بين يدي العزيز الغفار، واعترِفْ له بخطئك، وضعفك، وفقرك، وبأنك لا تملك لنفسك من الأمر شيئًا على الإطلاق، واعترِفْ بأنك متبرئٌ من حولِكَ وطَوْلِكَ ومَالِكَ وقُوَّتِكَ وكُرْسيِّك ومَنْصِبك وتجارَتِك؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقُلْ بلسان الحال والمقال:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وبتُّ أشكو إلى مولاي ما أجدُ
وقلتُ يا أملي في كلِّ نائبة ... ومَنْ عليه لكشف الضرِّ أعتمدُ
أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها ... ما لي على حَمْلها صَبْرٌ ولا جلدُ
وقد مددتُ يدي بالذل مبتهلًا ... إليك يا خير من مُدَّت إليه يدُ
فلا تردنها يا رب خائبةً ... فبَحْرُ جُودِكَ يَرْوي كلَّ من يردُ

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ ... فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم إني مسلمُ[1]

أين يذهب المسيءُ إلَّا إلى المحسن؟ أين يذهب الفقيرُ إلَّا إلى الغني؟ أين يذهب الضعيفُ إلَّا إلى القوي؟ أين يذهب الذليلُ إلا إلى العزيز؟

هيا الجأ إلى من يلجأ إليه الخائفون، وعليه يتوكلُ المتوكلون، ولعظيم فضله تُبْسَطُ الأيدي، ويسأل السائلون، هيا إلى الكريم الحيي الذي يستحيي ﷻ إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين.

---

(١) «تاريخ بغداد» (٧/ ٤٤٨)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٤٦٢)، و«ديوان أبي نواس» (ص: ١٤٠).

لا تيأس ولا تقنط مهما عظم الذنبُ والبلاء، المهم أن تقلع عن الذنب، وأن تندم على ما مضى، وأن تعاهد ربك - جلَّ وَعَلَا - على عمل الصالحات حتى يرضى عنك.

من أكرمُ وأحلمُ من الله؟ أنت عبده وهو الخالق سبحانه يعلم ضعفنا وفقرنا وعجزنا.

يا نادمًا على الذنوب: أين أثر ندمك؟ أين بكاؤك على زلة قدمك؟ يا أسير المعاصي أما تخشى من الهاوية؟ يا أسير الخطايا أين دموعك وتوبتك وربك كل ليلة ينادي عليك هيًّا؟ لأن الموت لا يفرقُ بين صغير وكبير، وقوي وضعيف، وغني وفقير، وصحيح ومريض.

واأسفاه إن دعيت إلى التوبة وما أجبت!

واحسرتاه إن ذكرت بالله وبعظيم رحمته وما أنبت!

يا من سوفت التوبة متى ستعودُ إلى ربك؟ يا من أسرفت على نفسك إذا أردت سعادة الدنيا والآخرة، فأقبل إلى علام الغيوب وجدِّد التوبة والأوبة؛ يا من تريدون الدنيا لن تحصلوها إلا بالطاعة.

فإن أردت دنيا فعُدْ إلى الله، وحقق التوبة والندم على ما فات من الذنوب والمعاصي، والزم الأمر، واجتنب النهي والرجوع عن كل ما يكرهه اللهُ تعالى، واعلم يقينًا أن سعادة الدنيا والآخرة مترتبة على التوبة إلى الله تعالى.

والسؤال: فما هي علامات قبول التوبة؟ وكيف أعلم أن الله ﷻ قد قبل مني التوبة؟ فلقد تبت مرارًا وتكرارًا، ولكنني عدت إلى الذنب! ولا أدري أقبل الله توبتي أم ردَّني؟!!

فأول علامات قبول التوبة: أن ينتقل العبدُ بعد التوبة من طاعةٍ إلى طاعةٍ، ومن خيرٍ إلى خير؛ فيكون العبدُ بعد التوبة خيرًا مما كان عليه قبل التوبة.

ثانيًا: أن لا يزال العبدُ التائبُ خائفًا من الله تبارك وتعالى لا يأمن حتى بعد التوبة من مكر الله ﷻ؛ لأنه لو اغتر بطاعته؛ فهذه بداية الخذلان! وإنما يجب أن يلزم الخوف إلى أن يسمع قول الملك له: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، وحتى يقال له: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ

تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

العلامة الثالثة: أن تنظر إلى أهل المعصية نظرة إشفاق؛ فتخر لله ساجدًا أن حفظك من الوقوع في هذه المعصية، وتقترب من أهل المعاصي، وتذكرهم بالله برحمةٍ؛ لعل الله أن يجعل هداية أحد العاصين على يديك؛ فيكون لك الثوابُ والأجرُ كحمر النعم عند الله - جَلَّ وَعَلاَ -: «**فَوَاللهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»؛ كما قال النبيُّ ﷺ (١).

فلا تقل للعاصي: أنا العالم، وأنت الجاهلُ! أنا الطائعُ، وأنت المذنبُ!

قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وفرق كبير بين التائب الداعي إلى الله، المذكر بالله، وبين المعجب بنفسه، المغرور المتكبر بطاعته وعبادته!!

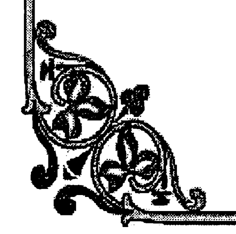
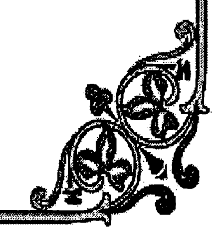
رابعًا من علامات قبول التوبة: كسرة خاصة تحصل للقلب، لا تكون إلا للمذنب التائب؛ فتراه مكسورًا خاشعًا ذليلًا لله سبحانه وتعالى، وهذا هو كمال العبودية لله تبارك وتعالى؛ تمام الذل مع تمام الحب؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ هذه بعض العلامات على قبول التوبة وصحتها، واللهَ أسأل أن يتوبَ علينا لنتوب إليه؛ اللهم لا تفضحنا بخفيٍّ ما اطلعت عليه من أسرارنا، ولا بقبيح ما تجرأنا به عليك في خلواتنا؛ اللهم إنا نسألك باسمك الأعظم الذي إن سئلت به أعطيت، وإن دعيت به أجبت أن تصرف قلوبنا جميعًا إلى طاعتك، وأن ترزقنا جميعًا قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ورضوانًا؛ اللهم تقبل منا واقبلنا، وتب علينا وارحمنا؛ إنك أنت التوابُ الرحيم، والحمد لله رب العالمين.

*****

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ (٢٩٤٢)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).



إِهْمَالُ العِلْمِ

إهمال العلم

نحنُ على موعدٍ مع مرضٍ كبيرٍ قد أصيبت به الأمةُ طوال السنوات الماضية؛ فتخلَّفت بسببه عن الركب، وتأخرت عن الريادة والسيادة والقيادة، وأصبحت تتسولُ الآن حين أصيبت بهذا المرض العضال على موائد الأمم الأخرى تبحث عن كل جديد في جانب العلم وفي جانب الدنيا؛ بل وبكل أسف تأخرت حتى في الجانب الشرعي منه!!

لذا فأنا أقول: كيف تُنصرُ الأمةُ وهي لا زالت تتسولُ على موائد أعدائها؟!!

لقد أضاءت الأمة شوارع الأندلس بالكهرباء في الوقت الذي لم تكن تعرفُ فيه فرنسا ولا بريطانيا الكهرباء، ولقد رصفت شوارع الأندلس قبل أن ترصف شوارع باريس على أيدي أسلافنا المسلمين الذين أبدعوا في جانب الدين والدنيا معًا، أما الآن فلم نبدع لا في جانب الدين ولا في جانب الدنيا، حتى الطاقة العلمية الشرعية تعطلت، قد يُحصِّل أحدُ أبنائنا أعلى الشهادات، لكنه - وبكل أسف - لا يُحسن قراءة سورة من كتاب الله قراءةً متقنةً للأحكام، وهذا أمرٌ يُدمي القلب؛ قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦]؛ بل يجبُ على الأمة أن تبدع في علوم الدنيا وعلوم الشرع معًا؛ لأنها أمة العلم، والقراءة، والإبداع، والتوكل على الله، وأمة السببية، كيف تستوردُ الأمةُ كل سلعة من الخارج؟ أين شبابُ الأمة؟ خاصة أن شباب الأمة ليس أقلَّ من شباب أوروبا الذي يصنعُ ويبدعُ ويخترعُ. وأنتم يا شباب الأمة أهل الدين والتوحيد والعلم والطهر، لماذا لا يبدعُ ولا يتقنُ شبابنا؟! لماذا لا يقدمُ شبابنا الآن إلى أوروبا وأمريكا العلم والعمل؟ إن لم تستطع الأمةُ أن تشق لنفسها طريقًا من العزة والكرامة وسط أحجار النظام العالمي الجديد بالعلم والعمل فسوف تُداسُ بالأقدام من كل أمم الأرض، ولن تبكي عليها بعد هذا اليوم سماءٌ ولا أرضٌ؛ فالأمة الآن في مفترق طرقٍ، إما أن تُثبت كرامتها وكيانها ووجودها بالعلم والعمل في جانب الدين والدنيا، وإما لا كرامةَ ولا عزةَ ولا سيادةَ ولا مكانةَ ولا وجودَ، وسَتُوطَأ بالأقدام من كل أمم الأرض؛ لأننا نعيش الآن عالـمًا لا يحترمُ إلا

الأقوياء، والقضية ليست قضية هتافات بحناجر ملتهبة، وليست قضية حرق للأعلام ولا الماكيتات؛ فيجب أن تُثبت الأمةُ كرامتَهَا وكيانَهَا ووجودَهَا بالعلم والعمل، بالعلم الشرعي والعلم الدنيوي، وتحول الأمةُ هذا العلم الشرعي والعلم الدنيوي لأهل الأرض إلى منهج حياة، وأن يشهد العالمُ كلُّه للأمة من خلال علمها وعملها وتوحيدها وسلوكها، وإلا فما أسهل التنظير... نعم نحن نحتاجُ إلى سنوات طويلة حتى نصل إلى ما وصل إليه الغربُ، ولكن لا بد من البداية؛ فالواجب على كل مسلم أن يبدعَ في موقع إنتاجه، وموطن عطائه أيًّا كان تخصصه، فكِّر واجتهد في أن تبدع لهذا الدين، وأن تنصره، وألا يكون همُّ كل واحدٍ أن يعيش لنفسه أو لامرأته أو لأولاده أو لمنصبه أو لكرسيه؛ بل اجعل الهم الأول هو نصرة دين رب العالمين وسيد المرسلين ﷺ.

وأنا قبل أن أكتبَ هذا المبحثَ مكثتُ طويلًا لأبحث عن كلمةٍ لا تجرحُ مشاعرَ أمتي، ولا أنتقصُ بها قدر أمتي، فوجدت أخيرًا هذه اللفظة «إهمال العلم»، وأعرضت عن لفظة «الجهل»؛ لأنها لا تليق بأمة العلم؛ تلك الأمةُ التي أنزل الله تبارك وتعالى على نبيها ﷺ أول آية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]؛ فأولُ آيةٍ تتنزلُ على قلب النبيِّ ﷺ تبتدأ بكلمة «القراءة»، ثم تتلوها كلمةُ «العلقة» كمرحلة من مراحل تكوين الإنسان في رحم أمة، ثم تتحدث عن القلم والكتابة والعلم، وكلُّها مواد يجبُ على الأمة أن تقف أمامها وقفةً طويلةً متأنيةً.

- **فما هو العلمُ لغةً؟**

قال ابنُ منظور في «لسان العرب» (١): «العلم نقيضُ الجهل».

وقال الرازيُّ في «مختار الصحاح» (٢): «وعَلِمَ الشيءَ يَعْلَمُه علمًا عرفه، ورَجُلٌ عَلَّامَةٌ أي عالم جدًّا، والهاء للمبالغة..».

---

(١) «لسان العرب» لابن منظور (٩/ ٣٧١)، و «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ١١٠).

(٢) «مختار الصحاح» (٢٦٩)، وراجع: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (١١٤٠)، و «المحيط في اللغة» (٢/ ٥٩).

- **واصطلاحًا:**

قال الجُرجَاني: «العلم هو: الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ»(١).

وقال ابن القيم في «مدارج السالكين»: «قال صاحب المنازل ـ رحمه الله تعالى: «العلم ما قام بدليل، ورفع الجهل» يريد أن للعلم علامةً قبله، وعلامة بعده، فعلامته قبله: ما قام به الدليلُ، وعلامته بعده: رفعُ الجهل»(٢).

وقال الفيروز آبادي: «العلم ضربان: نظريٌّ وعمليٌّ، ومن وجه ثالث: عقليٌّ وسمعيٌّ»(٣).

وقال ابن العربيِّ في «شرحه لسنن الترمذي»: «العلم أبينُ من أن يبيَّن»(٤).

وقال القسطلاني في «إرشاد الساري»(٥): «العِلْمُ مصْدَر عَلِمْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا».

- **والعلم قسمان: فرض عين، وفرض كفاية:**

قال ابن قدامة ـ رحمه الله تعالى: قد رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»(٦).

اختلف الناسُ في ذلك ـ أي: في بيان العلم المفروض ـ والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه، والمعاملة التي كُلِّفَها على ثلاثة أقسام؛ اعتقاد، وفعل، وترك...

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (١٩١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠).

(٣) «بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٨٨).

(٤) «عارضة الأحوذي» (١٠/ ٨٢)، و«فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٧٠).

(٥) «إرشاد الساري» (١/ ٢٢٤).

(٦) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٨٢٩، ٢٨٩٦)، والطبراني في «الأوسط» (٩)، وابن الجوزي في «الواهيات» (٦٤)، وابن عدي (٢/ ٧٩٠)، (٦/ ٢٠٩١)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٢/ ١٢٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٦٣ـ ١٦٦٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥ـ ١٨، ٣٠)، وهذا الحديث مرويٌّ عن جماعة من الصحابة: أنس وعبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وابن عباس والحسين بن علي وابن عمر وعلي بن أبي طالب وجابر ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ وانظر: طرقها جميعًا في «جامع بيان العلم وفضله»، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٠).

- **وهذا العلم ينقسم إلى قسمين:**

فرض عين: وهو ما يتعين وجوبُهُ على الشخص، من توحيد الله ومعرفة أوامره وحدوده في العبادات والمعاملات التي يحتاجُ إليها.

وفرض كفاية: وهو كلُّ علمٍ لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا؛ كالطب، والحساب، وأصول الصناعات؛ كالفلاحة والحياكة والحجامة، فلو خلا البلدُ عمن يقوم بهذه العلوم والصناعات أَثِمَ أهلُ البلد جميعًا، وإذا قام بها واحدٌ فقط وكفاهم سقط الإثمُ عن الباقين.

وقد يكون بعضُ العلوم مباحًا؛ كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار، وقد يكونِ بعضُها مذمومًا؛ كعلم السحر والطلسمات والتلبيسات؛ **فأما العلوم الشرعية؛ فكلُّها محمودة، وتنقسم إلى قسمين:**

الأول: محمود إلى أقصى غاياته، وهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا؛ فإن هذا العلمَ مطلوبٌ لذاته، والتوصل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحرم المحرومون على سواحله وأطرافه بقدر ما تيسر لهم.

الثاني: العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، وهي التي ذكرناها في فروض الكفايات؛ فإن في كلٍّ منها افتقارًا واستقصاءً»[(١)].

قال ابن عبد البر في كتابه الماتع «جامع بيان العلم وفضله»[(٢)]: «قد أجمع العلماءُ على أن من العلم ما هو فرض متعين على كلِّ امرئٍ في خاصة نفسه. ومنه ما هو فرضُ كفاية، إذا قام به قائمٌ سقط فرضُهُ على أهل ذلك الموضع.

واختلفوا في تلخيص ذلك، والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك مالا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة المقدسي (١٥ـ ٣٠) بتصرف وزيادة.
(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٦، ٥٨) بتصرفٍ يسيرٍ، و«شرح السنة» للبغوي (١/ ٢٨٩، ٢٩٠)، و «المجموع» للنووي (١/ ٤٩) وما بعدها.

وحده لا شريك له، ولا شبه له، ولا مثل له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

والشهادة بأن محمدًا عبده ورسولهُ وخاتم أنبيائه حق، وأن البعث بعد الموت للمجازات بالأعمال والخلود في الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة في الجنة، ولأهل الشقاوة بالكفر والجحود في السعير حق.

وأن الصلوات الخمس فريضةٌ، ويلزمه من علمها علم مالا يتم إلا به من طهارتها وسائر أحكامها، وأن صوم رمضان فرضٌ، ويلزمه علم ما يفسد صومه، وما لا يتم إلا به، وإن كان ذا مال وقدرة على الحج لزمه فرضًا أن يعرف ما تجب فيه الزكاة؟ ومتى تجب؟ وفي كم تجب؟ ولزمه أن يعلم بأن الحج عليه فرض مرة واحدة في دهره إن استطاع السبيل إليه، إلى أشياء يلزمه معرفة جملها، ولا يعذر بجهلها، نحو تحريم الزنا، وتحريم الخمر،وأكل الخنزير، وأكل الميتة، والأنجاس كلِّها، والسرقة، وتحريم قتل النفس المؤمنة بغير حق، وما كان مثل هذا كله مما قد نطق به الكتابُ، وأجمعت الأمةُ عليه، ثم سائر العلم وطلبه والتفقه فيه وتعليم الناس إياه وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم، والحكم به بينهم فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضهُ، فإذا قام به قائمٌ سقط فرضُه عن الباقين بموضعه لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجتهم فيه قول الله ﷻ:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

- **وزاد الإمام النووي في «المجموع» قسمًا ثالثًا:**

«النفل، وهو كالتبحر في أصول الأدلة والإمعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرضُ الكفاية، وكتعلم العامي نوافل العبادات لغرض العمل لا ما يقوم به العلماءُ من تمييز الفرض من النفل، فإن ذلك فرض كفاية في حقهم، والله أعلم»[١].

وقال الإمامُ الماورديُّ ـ رحمه الله تعالى:

«وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولاها وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين؛ لأن الناس بمعرفته يرشدون، وبجهله يَضلُّونَ».

---

(١) «المجموع» (١/ ٥٢)، وراجعه؛ فهو مهمٌّ.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[(١)].

وفيه تأويلان: أحدهما: علم ما لا يسع جهله من العبادات.

والثاني: جملة العلم إذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية، وإذا كان علمُ الدينِ قد أوجب اللهُ تعالى فرضَ بعضه على الأعيان، وفرض جميعه على الكافة، كان أولى مما لم يجب فرضه على الأعيان ولا على الكافة»[(٢)].

○ العلم النافع:

قال ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله تعالى:

«ذكر الله تعالى في كتابه العلم تارةً في مقام المدح، وهو العلم النافع، وذكر العلم تارة في مقام الذم، وهو العلم الذي لا ينفع، **فأما الأول**، فمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وما قص سبحانه وتعالى من قصة آدم وتعليمه الأسماء وعرضهم على الملائكة وقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].

وما قصَّ سبحانه من قصة موسى عليه السلام وقوله للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦]. فهذا هو العلم النافع.

وقد أخبر عن قوم أنهم أوتوا علمًا ولم ينفعهم علمهم، فهذا علمٌ نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به؛ قال تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥].

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) «أدب الدنيا والدين» (٥٢).

وقال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾[الأعراف:١٧٥، ١٧٦].

وأما العلم الذي ذكره الله تعالى على جهة الذم له؛ فقوله في السحر:

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴾[البقرة:١٠٢].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[غافر: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

وَجَاءت السُّنَّة أيضًا بتقسيم العلم إلى نافعٍ وغير نافعٍ، والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع، وسؤال العلم النافع.

ففي «صحيح مسلم» [(١)] عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقولُ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا». انتهى[(٢)].

قال ابن رجب رحمه الله: «فالعلم النافع من هذه العلوم كلِّها ضبطُ نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها،والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق،والمعارف، وغير ذلك. والاجتهادُ على تمييز صحيحه من سقيمه أولًا، ثم الاجتهادُ على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا،وفي ذلك كفاية لمن عقل وشغل بالعلم النافع، ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل واستعان عليه؛ أعانه وهداه ووفقه وسدَّده وفهمه وألهمه، وحينئذٍ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به، وهي

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٢).

(٢) «بيان فضل علم السلف على علم الخلف» (١٥ ـ ١٧).

خشية الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

- **وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدلُّ على أمرين:**

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله، وإعظامه، وخشيته، ومهابته، ومحبته، ورجاءه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبُّه ويرضاه، وما يكرهُه، ويسخطه من الاعتقادات، والأعمال الظاهرة والباطنة، والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسايرة إلى ما فيه محبة الله ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه، فإذا أثمر العلمُ لصاحبه هذا فهو علمٌ نافعٌ، فمتى كان العلمُ نافعًا ووَقَر في القلب فقد خشع القلب لله، وانكسر له، وذلَّ هيبةً، وإجلالًا، وخشيةً، ومحبةً، وتعظيمًا، ومتى خشعُ القلب لله وذلَّ وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا، وشبعت به؛ فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا، وكلُّ ما هو فانٍ لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش الذي ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة وإن كان كريمًا على الله»[1].

وقال ابن القيم في «مدارج السالكين»[2]:

«وَمَن فَارَقَ الدليل ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكل طريقٍ لم يصحبها دليلُ القرآن والسنة؛ فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم.

والعلم ما قام عليه الدليلُ، والنافع ما جاء به الرسولُ ﷺ».

○ **فضل العلم:**

قال الماورديُّ رحمه الله[3]: «اعلم أن العلم أشرفُ ما رغب فيه الراغبُ، وأفضل ما طُلب وجَدَّ فيه الطالبُ، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسبُ؛ لأن شرفه ينمُّ على صاحبه، وفضله ينمي عند طالبه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

---

(١) المصدر السابق (٤٥، ٤٦) بتصرفٍ يسيرٍ.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٨).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (٤٧- ٥٠ بتصرف).



فمنع سبحانه من المساواة بين العالم والجاهل؛ لما قد خُصَّ به العالمُ من فضيلة العلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

فنفى أن يكون غيرُ العالم يعقل عنه أمرًا، أو يفهم منه زجرًا... إلى أن قال: وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل؛ لأن فضل العلم إنما يُعرفُ بالعلم، وهذا أبلغ في فضله؛ لأن فضله لا يعلم إلا به، فلما عدم الجُهَّالُ العلم الذي به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله، واسترذلوا أهله، وتوهموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتناة والطُّرف المشتهاة أولى أن يكون إقبالهم عليها، وأحرى أن يكون اشتغالهم بها، وقد قال ابن المعتز في منثور الحكم: العالم يَعْرف الجاهلَ؛ لأنه كان جاهلًا، والجاهلُ لا يعرف العالمَ؛ لأنه لم يكن عالـمًا.

وهذا صحيح، ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين، وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين؛ لأن من جهل شيئًا عاداه.

وأنشدني ابن لَنْكَكَ لأبي بكر بن دُريد:

جهلـتَ فعاديـتَ العلـوم وأهلهـا ... كـذاك يعـادي العلم مَـنْ هـو جَاهلُـهْ

ومَـنْ كـان يَهْـوى أن يـرى متصَـدِّرًا ... ويَكْـره لا أدري أصـيبت مَقَاتِلُـهْ»[1]

وقال الشاعر:

وفي الجهـلِ قبل المـوتِ مـوتٌ لأهلـه ... وأجسـامهم قبـلَ القبـور قبـورُ

وأرواحهـم في وحشـةٍ مِـن جسـومهم ... فلـيس لهـم حتـى النشـور نشـورُ[2]

(١) «ديوان ابن دريد» (ص: ٩٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٦١)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٨، ١٣٧).

قلت: هذه الأبيات منسوبة للماوردي. انظر: «أدب الدنيا والدين»: (ص: ٢٧)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ١٦٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٥/ ٣٤٨). لكن البيت الثاني نصُّه:

وإن امرأ لم يَحيى بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

وقال الشافعي رحمه الله:

ومنزلـــةُ الســـفيه مـــن الفقيـــه كمنزلـــة الفقيـــه مـــن الســـفيه

فهـــذا زاهـــدٌ في قـــرب هـــذا وهـــذا أزهـــد منـــه فيـــه

إذا غلـــب الشـــقاءُ عـــلى ســـفيه تنطَّـــع في مخالفـــة الفقيـــه(١)

قال ابن القيم رحمه الله(٢):

«العلم هادٍ، وهو ترِكَةُ الأنبياء وتراثهم،وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأُنْس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوالُ والأعمالُ والأحوالُ، وهو الحاكم المفرِّق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال؛ به يُعرفُ اللهُ ويُعبدُ، ويُذكرُ، ويُوحَّدُ، ويُحمدُ، ويُمجدُ، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومنه دخل عليه القاصدون، وبه تُعرف الشرائع والأحكام،ويتميز الحلالُ من الحرام، وبه تُوصل الأرحام، وبه تَعْرف مراد الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة،والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل الصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام».

قال الشافعي ــ رحمه الله تعالى(٣):

ســـأطلب علـــمًا أو أمـــوتُ ببلـــدة يقـــل بهـــا هطـــلُ الـــدموع عـــلى قـــبري

وليس اكتسابُ العلم يا نفس فاعلمي بمـــيراث آبـــاءٍ كـــرامٍ ولا صِـــهْرِ

---

(١) «ديـوان الشـافعي» (١١٩). وانظـر: «الفقيـه والمتفقـه» (١/ ٤٢٣)، و «الآداب الشرعية» (١/ ٢٦٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٩).

(٣) انظر: «غذاء الألباب» للسفاريني (٢/ ٤٤٤).

ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى ليطلب علمًا بالتجلُّد والصبر

فإن نال علمًا عاش في الناس ماجدًا وإن مات قال الناسُ بالغ في العذر

إذا هجع النوَّامُ أسبلتُ عبرتي وأنشدت بيتًا وهو من ألطف الشعر

أليس من الخسران أن لياليًا تمرُّ بلا علم وتحسب من عمري

وأنشد عمرو بن الجاحظ(١) :

تعلَّم إذا ما كنتَ ليس بعالم فما العلمُ إلا عند أهل التعلُّم

تعلَّم فإن العلمَ زَيْنٌ لأهله ولن تستطيعَ العلمَ إن لم تُعَلَّمِ

تعلَّم فإن العلمَ أزينُ بالفتي من الحُلَّةِ الحسناءِ عند التَّكَلُّمِ

ولا خيرَ فيمن راح ليس بعالم بصير بما يأتي ولا متَعَلِّمِ

وأنشد أبو القاسم أحمد بن عمر بن عصفور رحمه الله ؛ فقال(٢) :

مع العلم فاسلك حيث ما سلك العلمُ وعنه فكاشف كل من عنده فهمُ

ففيه جلاءٌ للقلوب من العمى وعونٌ على الدين الذي أمره حتمُ

فإني رأيت الجهل يزري بأهله وذو العلم في الأقوام يرفعه العلمُ

يعد كبير القوم وهو صغيرهم وينفذ منه فيهم القولُ والحكمُ

وأي رجاء في امرئ شاب رأسُهُ وأفنى سنيه وهو مستعجم ندمُ

يروح ويغدو الدهر صاحب بطنه تركب في أحضانها اللحمُ والشحمُ

إذا سئل المسكين عن أمر دينه بدت رحضاء العي في وجهه تسمو

وهل أبصرت عيناك أقبح منظرٍ من أشيب لا علم لديه ولا حلم

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٤٧).
(٢) نفس المصدر (١/ ٢١٩).

هي السوءة السوءاء فاحذر شماتها ... فأولها خزي وآخرها ذم
فخالط رواة العلم واصحب خيارَهم ... فصحبتهم زينٌ وخلطتهم غنمُ
ولا تعدو عيناك عنهم فإنهم ... نجومٌ إذا ما غاب نجم بدا نجمُ
فو الله لولا العلم ما اتضح الهدى ... ولا لاح من غيب الأمور لنا رسم

والقاعدة تقول: مَنْ سَلَك طَريقًا بغير دليل ضَلَّ، وَمَنْ تمسك بغير الأصول زلَّ!! والدليلُ المنيرُ في الظلماء، والأصل العاصم من الأهواء هو العلمُ بفهمٍ وبصيرةٍ.

○ العلم في القرآن:

إنَّ من أعظم كرامات الله تعالى لأهل العلم أن الله - جلَّ وعلا - قد استشهدَ بهم على أجلِّ وأعظم مشهود عليه؛ ألا وهو التوحيد، وقَرَنَ شهادةَ أهل العلم بشهادته سبحانه، وشهادة ملائكته، وهي أعلى وأعظم درجات التعديل؛ فإن اللهَ تعالى لا يستشهدُ بمجروح!! فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

فشهد لذاته بالوحدانية، وثنَّى بالملائكة، وثلَّث بأهل العلم دون غيرهم من البشر، وهذه تزكيةٌ لهم وتعديلٌ.

يقول ابن القيم رحمه الله[(١)]: «استشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجلِّ مشهود به وهو التوحيد، وقرنَ شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم؛ فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح».

ثم رفع شأنهم، وأعلى منزلتهم؛ فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ولِمَ لا؟ وقد شهد اللهُ لهم بهذه الشهادة الزكية، وأخبر سبحانه أن أهلَ العلم هم أهل الخشية؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن مسعود رضي الله عنه[(٢)]: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا».

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٩)، وانظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢١٩).
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥)، وأحمد في «الزهد» (١٥٨)، والطبراني في «الكبير» =

ونفى اللهُ التسويةَ بين أهل العلم وأهل الجهل؛ فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩]؛ بل إن الله جعل الكلب المُعلم أفضل من الجاهل، وأباح الأكلَ من صيده؛ قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: ٤]، والعلم من أَجَلِّ النِّعَم التي أعطاها الله لنبيه ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣]، وهو أغلى ما يطلب في هذه الدنيا؛ بل لم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء في هذه الدنيا إلا من العلم؛ فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤]، وأخبر سبحانه وتعالى أن الجاهل بمنزلة الأعمى؛ فقال: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ [الرعد:١٩]؛ بل لقد ذمَّ الله الجهل في كتابه في آيات كثيرة:

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:١١١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٣٧].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر:٦٤].

فالعلمُ حياةٌ ونورٌ، والجهلُ موتٌ وظلمةٌ؛ قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ

=

(٩/ ٢١١)، وقد رُوي موقوفًا على مسروق؛ كما عند الدارمي (١/ ١٠٦)، وأبي نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٥).

وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾

[الأنعام:١٢٢].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٥، ١٦].

وجعل الله تعالى الجهل من صفات أهل النار؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:١٠، ١١].

فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون، والسمع والعقل هما أصل العلم، وبهما ينال؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾

[الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

وقال تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٦].

وحثَّ الله على النفير في طلب العلم، والتفقه في الدين، وتعليمه للناس؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢].

وأول سور القرآن نزولًا تدل على فضل العلم؛ قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾

[العلق:١ـ ١٠].

ومدح اللهُ تعالى أهلَ العلم، وأثنى عليهم، وشرَّفهم بأن جعلَ كتابه آياتٍ بينات في صدورهم، وهذه منقبةٌ لهم دون غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧-٤٩].

وشهد الله تعالى لمن آتاه العلمَ بأنه قد آتاه خيرًا كثيرًا؛ قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩].

قال ابن قتيبة، والجمهور: الحكمة: إصابةُ الحق والعمل به [(١)]، وهي العلم النافع والعمل الصالح. وأهل العلم هم المنتفعون بالأمثال التي يضربها اللهُ في القرآن للناس؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾

[العنكبوت:٤٣].

وكان عمرو بن مرة يقول: «ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾» [(٢)].

والحق يعلمه أهلُ العلم وهو ظاهر لهم؛ قال سبحانه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[سبأ: ٦].

واستشهد اللهُ بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٥، ٥٦].

وأخبر سبحانه أنه جعل أهلَ العلم أئمةً يهدون بأمره، ويأتم بهم من بعدهم؛ قال

---

(١) وانظر: «المفردات» للراغب (١٢٧)، و«تاج العروس» (٣١/ ٤١٣)، و«التعاريف» للمناوي (٢٩١)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٩٩)، و«تفسير الرازي» (٤/ ٦١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٣٢٧).

تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤]؛ أي: أئمة يقتدي بنا من بعدنا.

فأخبر سبحانه أنه بالصبر واليقين تُنَال الإمامةُ في الدين، وهي أرفع مراتب الصدِّيقين، واليقين هو كمال العلم وغايته، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامةُ الدين، وهي ولايةٌ آلتها العلمُ، يختص اللهُ بها من يشاء من عباده.

والدعوة إلى الله أشرفُ مقامات العبد وأجلُّها وأفضلُها؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

والدعوة لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه؛ بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حدٍّ يصل إليه السعي؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضلَهُ من يشاء (١).

○ العلم في السنة:

العلم مُقدَّم على القولِ والعملِ، وقد ترجم الإمامُ البخاريُّ في «صحيحه» في كتاب العلم بابًا بعنوان: (بابُ العلمِ قبلَ القولِ والعملِ)؛ إذ إن العلمَ شرطٌ لصحة القول والعمل، فلا يُعتبران إلا به؛ لأن العلم مصححٌ للنية التي يصح بها كلُّ قولٍ، وكلُّ عمل، فمن قال بغير علم ضلَّ وأضلَّ.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢، ٣]، ومن عَمِلَ بغير علم وقع في البِدَع. وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩]؛ فلقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية بأمرين؛ فبدأ بالعلم؛ فقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ثم أعقبه بالأمر الثاني وهو العمل؛ فقال تعالى:

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢١٩)، وما بعدها بتصرفٍ يسيرٍ.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الآية».

فلا طريق - أحبتي في الله - إلى معرفة الله تعالى، والوصول إلى رضوانه، والفوز بجنته إلا بالعلم النافع الذي أنزل به كتبه، وبعث رسُلَه.

والناس على حقٍّ وفي خيرٍ وهدىً ما دام العلم باقيًا في الأرض؛ فإن ذهبَ العلمُ بذهاب أهله وقع الناسُ في الضلال، هكذا قال سيدُ الرجال محمد ﷺ؛ ففي «**الصحيحين**» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الله لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا - وفي لفظٍ: رُؤَسَاء جُهَّالًا - فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(١).

وإنها لمصيبةٌ عظيمةٌ أن يتجرأ على الفتوى الآن كثيرٌ من الجهلاء، ممن لا يحسنون أن يفرقوا بين الدليل ومراتبه ومناطاته.. ممن لا يحسنون أن يفرقوا بين المجمل والمبين، والعام والخاص، والناسخ والمنسوخ!! فَمَن قال بغير علم أو بينة أوقع الناسَ في الضلال.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «إن دينَ الله الذي هو الإسلام مبنيٌّ على أصلين:

الأول: أن يُعبد الله وحده لا شريك له.

والثاني: أن يُعبد بما شرع على لسان رسوله ﷺ».

وهذان الأصلان هما حقيقةُ قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. وتحقيق الشهادة الأولى بتحقيق معنى لا إله إلا الله معرفةً وإقرارًا وعملًا، وتحقيق الشهادة الثانية بتحقيق معنى محمد رسول الله معرفةً وإقرارًا وعملًا.

ثم يقول: فبالشهادة الأولى يُعرف المعبودُ، وبالشهادة الثانية يُعرف كيف يُعبد؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم؟ (١٠٠)، وانظر طرفه هناك، واللفظ له، ومسلمٌ، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٨٠) بتصرف.

لأنه لا يمكن أبدًا أن نعرف كيفيةَ العبادة الصحيحة إلا عن طريق النبيِّ ﷺ ، ولا تُقبل العبادة إلا إذا كانت موافقةً لهَدْيه ﷺ .

سُئِلَ الفضيل بن عياض رحمه الله عن قولِ الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، قال: «أحسنه؛ أخلصه، وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكنْ صَوابًا لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكنْ خالصًا لم يُقبل، حتىَّ يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السُّنَّةِ»[(١)] .

- **وقد عدَّل النبيُّ ﷺ أهل العلم وزكَّاهم:**

فعن إبراهيمَ بن عبد الرحمن العذري مرسلًا، لكنه صحيحٌ بالشواهدِ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُه، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ**»[(٢)] .

وعَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله ﷻ ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ الله يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[(٣)] .

فالعلم يرفع صاحبه، ويعلي شأنه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٨) بإسنادٍ لا بأس به.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ١٥٣)،وابن حبان في «الثقات» (٤/ ١٠)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢٠٩)، وفي «الدلائل» (١/ ٤٣)، وابن عبد البر في «مقدمة التمهيد» (١/ ٥٩)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٤٦٣)، والآجري في «الشريعة» (١، ٢)، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (١، ٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧٣٢)، وروي عن أسامة بن زيد، وأبي أمامة، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وجابر بن سمرة رضي الله عنهم ، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٨).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها (٨١٧).

ولله درُّ القائل:

النـاسُ مـن جهـةِ الأصْـلِ أَكْفَـاءُ ... أبـوهم آدم والأمُّ حـواءُ

نفـسٌ كـنَفْسٍ وأروَاحٌ مُشَـابِهَة ... وأَعْظُـمٌ خُلِقَـتْ فـيهمُ وأَعْضـاءُ

فـإن يكـنْ لهـم مـن أصـلِهِمْ حَسَـب ... يفـاخِرون بـه..فـالطينُ والمـاءُ

مـا الفخـرُ إلا لأهـلِ العلـمِ إنهـم ... عـلى الهـدى لمـن اسـتهدى أدلاءُ

وقـدرُ كـلِّ امـرئٍ مـا كـانُ يُحسِـنه ... والجـاهلون لأهـلِ العلـم أعـداءُ

فَفُـزْ بعلـمٍ تعـشْ حيًّـا بـه أبـدًا ... فالناسُ موتَى وأهلُ العلمِ أحياءُ[(١)].

وانظر إلى تعظيم الملائكة لطالب العلم وحبها إياه وحياطته وحفظه ورضاها بما يصنع، ووضع الأجنحة: تواضع، وتوقير، وتبجيل، والحف بالأجنحة: حفظ وحماية وصيانة، فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفًا وفضلًا.

فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[(٢)].

وروى أحمد في «مسنده»، وأبو داود في «السنن»، والترمذيُّ في «السنن»[(٣)] من

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢١٨) بتصرفٍ يسيرٍ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود، واللفظ له، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وابن ماجه في «المقدمة»، باب فضل العلماء، والحث على طلب العلم (٢٢٣)، وحَسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٨)، و «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأحكام (٧١٩٥) معلقًا بصيغة الجزم؛ ووصله في «تاريخه» (٢/ ١/ ٣٨٠-٣٨٢)، وأحمد (٥/ ١٨٦، ١٩١)، وأبو داود، كتاب العلم، باب رواية حديث =

حديث خارجة بن زَيدِ بن ثَابت قَالَ: قَالَ زَيد بن ثَابت ﷺ: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُود، وقَالَ: «إِنِّي والله مَا آَمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي» فتَعَلَّمْتُه فَلَم يَمُر بِي نِصْف شَهر.

وقال أبو داود: إلا نصف شهر حتى حذفتهُ، قال أبي: فكنتُ أكتب له إذا كتب، وأقرأ له إذ كُتب إليه.

والفقه في الدين من علامات الخير، فمن أراد به الله خيرًا فقَّهه في دينه، ومن لم يرد به خيرًا لم يفقهه في الدين؛ ففي «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث معاوية ﷺ قَالَ: سمعت النبيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» [1].

ولقد اغرورقت عيني بالدموع، وأنا أستمع لهذه الكلمات الرقراقة الجميلة لشيخنا ابن باز رحمه الله وهو يذكّرنا بهذا الحديث؛ فقال:«فمن لم يتفقه في الدين ما أراد الله به خيرًا».

فإن الله يعطي الدنيا للمسلم والكافر [2]، ولا يعطي الفقه في الدين إلا لمن أحب ـ جَلَّ وَعَلاَ.

يقول الحافظُ ابنُ حجر رحمه الله: «يُفقِّهْهُ» أي: يُفهِّمه.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [3] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ فِي**

= أهل الكتاب (٢٦٤٥)، والترمذي، كتاب الاستئذان، باب في تعليم السريانية (٢٧١٥) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (١/ ١٤٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود والترمذي».

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين (٧١)، وانظر أطرافه هناك، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة (١٠٣٧).

(٢) قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة: ١٢٦].

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾ [الحجرات:١٣]، (٣٤٩٣)، وانظر طرفيه هناك، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب خيار الناس (٢٥٢٦).

هَذَا الأَمْرِ أَكْرَهُهُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَتَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ».

قال الحافظ في «الفتح» (١): فيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين.. وأرفع الأقسام من شرف في الجاهلية ثم أسلم وتفقه.

وهداية العلم من أعظم الهداية؛ فإذا اهتدى رجلٌ على يد عالم كان ذلك خيرًا من حمر النعم، وهي خيارها وأشرفها عند أهلها.

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) من حديث سهل بن سعد ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لعلي ابن أبي طالب ﷺ: «فَوَ الله لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».

وعلى الناس أن يوقروا طلاب العلم الصادقين، وأن يعرفوا لهم قدرَهم؛ فلقد كان النبيُّ ﷺ يرحب بطالب العلم؛ بل لقد كان شديدَ الحفاوةَ، عظيم الاهتمام بطالب العلم، وهذا طالب علم يجسد لنا هذه الحفاوة الكريمة؛ فعن صفوانَ بن عسَّال المرادي ﷺ قَالَ: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو في المَسْجِدِ مُتَّكِئٌ على بُردٍ لَهُ أَحْمَر، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ؛ فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِطَالِبِ العِلْم، طَالِبُ العِلْم لَتَحُفُّهُ الملائِكَةُ، وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ» (٣).

وكم قد فرط الناسُ في هذا الخير العظيم، فقد يجهزُ أحدُنا لمشروع تجاري أو اقتصادي أكثر من دراسة جدوى في الوقت الذي لا يفكرُ أن يمنح لنفسه ساعة واحدة ليتعلم فيها دين خالقه جلَّ وعلا.

فهو يعلم ظاهرًا من الدنيا، لكنه لا يعلم شيئًا عن ربه، ولا شيئًا عن أسماء جلاله،

(١) «فتح الباري» (٦/ ٦١٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب دعوة اليهود والنصارى، وعلى ما يقاتلون عليه (٢٩٤٢)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عليِّ بن أبي طالب ﷺ (٢٤٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٧٣٤٧)، واللفظ له، وغيرهما، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٣١): «رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله رجال الصحيح»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٩)، وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٨١)، و«الصحيحة» (٣٣٩٧)، وجوده البوصيري في «الإتحاف» (٤/ ٢٦٩).

أو صفات كماله... ولا يعلم شيئا عن نبيه ﷺ.

وربما تراه قد حصَّل شهادة الدكتوراه في جانبٍ (مهمٍّ) من جوانب العلم المادي؛ فنحن لا نقللُ من شأن هذه العلوم النافعة، لكن يجبُ أن يتعلم كلُّ مكلَّف - على الأقل - فروض الأعيان التي لا يصح أبدًا لمكلف أن يجهلها!

- **والعلم النافع هو الذي ينتفع به صاحبُه في الدنيا والآخرة.**

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1].

إن ترك الإنسانُ علمًا كأن يكون قد ألَّف كتبًا أو ترك أشرطة علميةً هادفةً، فإن كان لا يملك هذا، فاستغل ماله الذي آتاه الله ﷻ فاشترى كُتبًا وأودعها مكتبةً لطلاب العلم أو اشترى أشرطةً للعلماء وللدعاة، وبثها هنا وهناك، فهذا من العلم الذي يُنتفع به.

قال الشاعر:

إذا مات ابن آدم جاء يجري ... عليه الأجر عُدَّ ثلاث عشر

علوم بثها ودعاء نجلٍ ... وغرس النخل والصدقات تجري

وراثة مصحف ورباط ثغر ... وحفر البئر أو إجراء نهر

وتعليم لقرآنٍ كريمٍ ... شهيد في القتال لأجل بر

كذا من سنَّ صالحة ليُقْفَى ... فخذها من أحاديث بشعرٍ[2]

- **وأهل العلم لهم أجرٌ عظيم وكبير جرَّاء دعوتهم إلى الله، وهداية الناس على أيديهم، فلهم أجرُ كلِّ مَنْ عمل بعلمٍ بلَّغوه عن الله وعن رسوله ﷺ.**

ففي «صحيح مسلم»[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى**

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

(٢) «غذاء الألباب» للسفاريني (١/ ٤٠).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب العلم، باب من سنَّ سنَّة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤).



هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا».

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»[(١)].

وفي «صحيح مسلم»[(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

وروى أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه[(٣)] وغيرهم من حديث أنس وابن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم، أن النبيَّ قَالَ: «نَضَّرَ الله امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ».

وفي لفظٍ لأحمد: «نَضَّرَ الله عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي هذِهِ فَحَمَلَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ الفِقْهِ فِيهِ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ الْفِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ».

فأهل العلم دعا لهم النبيُّ ﷺ بالنُّضْرَةِ؛ وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه لأنهم مُبَلِّغُو الدين، وهم الذين حفظ الله بهم الدين، وهم بمثابة النور الذي يضيء

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٠)، (٥/ ٢٧٢، ٢٧٤)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الدال على الخير (٥١٢٩)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء الدال على الخير كفاعله (٢٦٧٠ ـ ٢٦٧١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٤٨٤). وصحَّحه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٦٦٠)، وقد أخرجه مسلمٌ (١٨٩٣)، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافه في أهله بخير، بلفظ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ».

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر(٢٦٩٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧)، (٣/ ٢٢٥)، (٥/ ١٨٣)، وأبو داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٦، ٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علمًا (٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٠٤).

للناس في ظلمة الجهل.

وفي «صحيح البخاري» (١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبيَّ قَالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ؛ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**» (٢).

وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قال: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا، فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**» (٣).

- **وطالب العلم لا يشبع من العلم، ولا يمل منه؛ بل هو في ازدياد.**

فعن أنس رضي الله عنه أن النبيَّ قَالَ: «**مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ؛ مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لاَ يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي الدُّنْيَا لاَ يَشْبَعُ**» (٤).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب العلم، باب فضل من عَلِمَ وَعَلَّمَ (٧٩)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها (٦٦)، وانظر طرفه هناك، ومسلمُ، كتاب السلام، باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم (٢١٧٦).

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٩٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولم أجد له علة»، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٧٩)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٩٦)، وابن =

* **والعلم يستثني صاحبه من اللعن والطرد من رحمة الله.**

فعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ وهو يقول: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرَ الله وَمَا وَالاَهُ، أَوَ عَالِـمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا**»(١).

* **والعلم من أفضل العبادات والقربات إلى الله ﷻ.**

فعن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه ﷺ قَالَ: «**فَضْلُ العِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ العِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ**»(٢).

• **وأهل العلم مغبوطون من الناس؛** فهم على رشاد من أمرهم، يعرفون كيف يتصرفون في نعم الله التي أنعم الله بها عليهم، يستطيعون أن يميزوا بين الحق والباطل، يعرفون حقَّ الله وحق الناس، فيعملون على مرضاة ربهم ﷻ.

ففي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(٣) من حديث ابن مسعود ﷺ أنه ﷺ قَالَ: «**لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله حِكْمَةً، فَهْوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**».

وروى **أحمد، والترمذيُّ، وابن ماجه** عن أبي كبشة الأنماري ﷺ أنه سمع

= الجوزي في «العلل» (١١٣)، ورُويَ عن ابن عباس وابن مسعود، وصحَّحه الألباني في «المشكاة» (٢٦٠).

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ (١٤)، حديث (٢٣٢٢)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٢)، وفي الباب عن أبي الدرداء وجابر وأبي سعيد وابن عباس وابن مسعود وأبي أمامة، وحسَّن الحديث الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٧٩٧)، و«الترغيب والترهيب» (٧٧).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (١٣٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١١ ـ ٢١٢) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٢ ـ ٩٣)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٠)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٩٨)، وابن الجوزي في «العلل» (٧٦)، وراجع: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٩٦) لابن عبد البر، وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم، انظرها عند ابن عبد البر، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٦)، و«صحيح الجامع» (٣٣٠٨، ٤٢١٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب إنفاق المال في حقه (١٤٠٩)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها (٨١٦).

رَسُولَ الله ﷺ يقول: «ثَلاَثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ الله عِزًّا، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالًا وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»(١).

- **وأوصى النبي ﷺ بطلبة العلم وحملته.**

روى **الترمذيُّ وابن ماجه وغيرهما** عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ: مَرْحَبًا، مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَاقْنُوهُمْ**» قُلْتُ لِلْحَكَمِ: مَا «اقْنُوهُمْ؟» قَالَ: عَلِّمُوهُمْ.

وفي رواية: «**وَأَفْتُوهُمْ**»(٢).

- **وجعل النبيُّ ﷺ طالبَ العلم بمنزلة المجاهد في سبيل الله تعالى.**

فلقد روى **أحمد، وابن ماجه، والحاكم** عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلاَّ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ**

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب ما جاء: مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥)، وقال الترمذيُّ: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب النية (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٠ - ٢٣١)، ووكيع في «الزهد» (٢٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٦٧)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٦٣)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ١٨٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٠٩٧)، وصححَّه الألباني في «صحيح سنن الترمذي وابن ماجه»، و«صحيح الترغيب والترهيب» (١٤).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء في الاستيصاء بمن طلب العلم (٢٦٥٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب الوصاة بطلبة العلم (٢٤٧) واللفظ له، وصحَّحه بشواهده الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٦٥١)، و«الصحيحة» (٢٨٠).

غَيْرِهِ»[(١)].

وكان الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله يقُولُ: «الناسُ إلى العلم أحوجُ منهُم إلى الطعام والشراب؛ لأن الرجُل يحتاجُ إلى الطعام والشراب في اليوم مرةً أو مرتين، وحاجتُهُ إلى العلم بعدد أنفاسه»[(٢)].

والحديثُ عن فضل العلم حديثٌ طويلٌ، ولهُ موضعٌ آخرُ، فإذا كان ذلك كذلك فإن أولى الناس بذلك هُمُ الدُعاةُ إلى الله ـ تعالى ـ بصفةٍ خاصةٍ، وأبناءُ الدعوة الإسلامية بصفةٍ عامةٍ.

فإن أولَ واجبٍ على الداعية «المُؤهل» الذي يشتغلُ بالدعوة إلى الله عز وجل قبل أن يخطُو على طريق الدعوة هُو طلبُ العلم الشرعي من نبعيه الصافيين الكريمين: القُرآن والسُّنة؛ ليكُون العلمُ دليلَهُ وهاديَهُ على طُول الطريق من أول قدمٍ إلى آخر قدمٍ ينتهي إليه.

والعلمُ الممدُوحُ الذي دل عليه الكتابُ والسُّنةُ هُو العلمُ الذي ورثهُ الأنبياءُ؛ كما قال النبيُ صلى الله عليه وسلم : «**وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[(٣)].

وقد قسم شيخُ الإسلام هذا العلم إلى ثلاثة أقسام:

«**القسمُ الأولُ**: علمٌ بالله وأسمائه وصفاته وما يتبعُ ذلك.

القسمُ الثاني: علمٌ بما أخبر اللهُ به مما كان من الأُمُور الماضية، وما يكُونُ من الأُمُور المُستقبلة، وما هُو كائنٌ من الأُمُور الحاضرة.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٧)، وأحمد (٢/ ٣٥٠، ٤١٨، ٥٢٧)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٢٠٩)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٩١)، والحاكم (١/ ٩١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بجميع رواته، ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة»، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده صحيح على شرط مسلم»، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦١٨٤)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٨٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٧٠).

(٣) تقدم قريبًا (ص: ١٧١).

القسمُ الثالثُ: العلمُ بما أمر اللهُ به من العُلُوم الـمُتعلقة بالقُلُوب والـجوارح من الإيمان بالله من معارف القُلُوب وأحوالـها، وأقوال الـجوارح وأعمالـها، وهذا يندرجُ فيه العلمُ بالأقوال والأفعال الظاهرة، ويندرجُ فيه ما وُجد في كُتُب الفُقهاء من العلم بأحكام الأفعال الظاهرة، فإن ذلك جُزءٌ من جُزءٍ من علم الدين»[١].

والسؤال المهم الذي يثور هنا هو: ما هي أهمُ الأسباب والطُرُق الـمُوصلة لتحصيل العلم الشرعي؟

والـجواب في عجالة سريعة:

أوَّلا: أن يلجأ الداعيةُ الصادقُ وطالبُ العلم الـمُخلصُ إلى الله - جلَّ وَعَلَا - وهُو الذي علَّم داوُد، وفهَّم سُليمان عليه السلام أن يُعلمهُ وأن يُفهمهُ، ولن يعرف قدر هذا الدُعاء وفضل هذه الاستعانة إلا من وجد بردها وذاق فضلها، وبالله إن فضلها لعظيمٌ!! ولقد كان النبيُ ﷺ نفسُهُ يلجأُ إلى الله - تعالى - مُستعينًا به سُبحانهُ أن يُعلمهُ، وأن ينفعهُ بما علمهُ؛ فيقُولُ: «**اللهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا**»[٢].

ثانيًا: بذلُ أقصى ما يُمكنُ من جُهدٍ ووقتٍ ومالٍ لطلب العلم والصبرُ على ذلك، والـحرصُ على أخذ العلم من أهله الـمُتحققين به، وقديمًا قالُوا[٣]: لقد كان العلمُ في صُدُور الرجال، ثُم انتقل إلى بُطُون الكُتُب، وصارت مفاتـحُهُ بأيدي الرجال، ولـما سُئل أحدُهُم: ما السببُ الذي يُنالُ به العلمُ؟ فقال: بالـحرص عليه يتبعُ وبالـحُبِّ لهُ يستمعُ، وبالفراغ لهُ يـجتمعُ[٤].

---

(١) بتصرفٍ يسيرٍ من «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٩٦، ٣٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠/ ٢٨١)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤١٩)، والترمذيُّ، كتاب الدعوات، باب العفو والعافية (٣٥٩٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥١، ٣٨٣٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٧٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣٧٢)، وصححه بشواهده الألباني في «الصحيحة» (٣١٥١).

(٣) «الموافقات» (١/ ٩٢).

(٤) أورده ابن عبد البر في «جامعه» (رقم: ٦٣٢).

ورحم اللهُ الشَّافعيَّ؛ حيث قال[١]:

أَخِـي لَـنْ تَنَـالَ الْعِلْـمَ إِلَّا بِسِتَّـةٍ سَـأُنْبِيكَ عَـنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَـانِ

ذَكَـاءٌ وَحِـرْصٌ وَاجْتِهَـادٌ وَبُلْغَـةٌ وَصُـحْبَةُ أُسْـتَاذٍ وَطُـولُ زَمَـانِ

يقُولُ الإمامُ الشاطبيُ ـ رحمهُ اللهُ تعالى: «وإذا ثبت أنهُ لا بُد من أخذ العلم عن أهله الـمُتحققين به؛ فلذلك طريقان:

الأول: الـمُشافهةُ، وهي أنفعُ الطريقين وأسلمُهُما لوجهين:

الوَجهُ الأوَّلُ: خاصيةٌ جعلها اللهُ ـ تعالى ـ بين الـمُعلم والـمُتعـلم، يشهدُها كُلُّ من زاول العلم والعُلماء؛ فكم من مسألةٍ يقرؤُها الـمُتعلِّمُ في كتابٍ، ويحفظُها ويُرددُها على قلبه، فلا يفهمُها، فإذا ألقاها عليه الـمُعلمُ فهمها بغتةً، وحصل لهُ العلمُ بها، وهذا الفهمُ يحصُلُ إما بأمرٍ عاديٍّ من قرائن الأحوال وإيضاح موضُوع إشكالٍ لم يخطُر للمُتعلم ببالٍ، وقد يحصُلُ بأمرٍ غير مُعتادٍ، ولكن بأمرٍ يهبُهُ اللهُ للمُتعلم عند مُثُوله بين يدي الـمُعلم ظاهر الفقر بادي الحاجة إلى ما يُلقى إليه؛ إذ يُفتحُ للمُتعلم بين أيديهم- أي: العُلماء- ما لا يُفتحُ لهُ دُونهُم.

الطَّريق الثَّاني لأخذِ العِلْمِ: مُطَالَعَةُ كُتُبِ الْمُصَنِّفِينَ وَمُدَوِّنِي الدَّوَاوِينِ، وَهُوَ أَيْضًا نَافِعٌ فِي بَابِهِ بِشَرْطَيْنِ، - وَمَازَالَ الْكَلَامُ لِلشَّاطِبِي:

الأَوَّلُ: أن يحصُل لهُ - أي: لطالب العلم - من فهم مقاصد ذلك العلم المطلُوب ومعرفة اصطلاحات أهله ما يتمُّ لهُ به النظرُ في الكُتُب.

والشَّرْطُ الثانِي: أن يتحرى كُتُب الـمُتقدمين من أهل العلم الـمُراد، فإنهُم أقعدُ به من غيرهم من الـمُتأخرين، وأصلُ ذلك التجربةُ والخبرُ: أما التجربةُ؛ فهُو أمرٌ مُشاهدٌ في أي علمٍ كان؛ فالـمُتأخرُ لا يبلُغُ من الرُّسُوخ في علمٍ ما بلغهُ الـمُتقدمُ، فتحقُّقُ الصحابة ﷺ بعُلُوم الشريعة ليس كتحقُّق التابعين، والتابعُون ليسُوا كتابعيهم؛ وهكذا إلى الآن، ومن طالع سيرهُم وأقوالهُم وحكاياتهم، أبصر العجب في هذا المعنى.

---

(١) «ديوان الشافعي» (ص: ١١٦).

وأما الخبرُ؛ ففي الحديث: «خيرُ القُرون قرني، ثُم الذين يلُونهُم، ثُم الذين يلُونهُم»[١]، وفي هذا إشارةٌ إلى أن كُل قرنٍ مع ما بعدهُ كذلك»[٢]. اهـ.

وأودُّ أن أُوضح أنهُ ليس معنى ذلك أن نُعرض عن كُلِّ ما هُو حديثٌ من الكُتُب والمُصنفات إعراضًا تامًّا؛ فمنها ما هُو مُفيدٌ في بابه كثيرًا، لما تمتازُ به من تحقيقٍ وتدقيقٍ وتبويبٍ وسُهُولةٍ في العرض؛ بل ومنها ما لا يُمكنُ بحالٍ أن يستغني عنهُ الباحثُ وطُلابُ العلم فضلًا عن الدُّعاة والعُلماء؛ ككُتُب الحديث المُحققة والمعاجم والفهارس، وفتاوى المجامع الفقهية المُعاصرة وغيرها؛ ولا مانع من استشارة العُلماء في هذا الجانب.

ثالثًا: من أهمِّ الأسباب والطُّرُق المُوصلة لتحصيل العلم الشرعي؛ تركُ الذُنُوب والمعاصي بتقوى الله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٨٨].

ولهذا كان عبدُ الله بنُ مسعُودٍ ﷺ يقُولُ: «إِنِّي لَأَحْسَبُ أَنَّ الرَّجُلَ يَنْسَى الْعِلْمَ قَدْ عَلِمَهُ بِالذَّنْبِ يَعْمَلُهُ»[٣].

ورحم الله بن المبارك؛ حيث قال[٤]:

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ ... وقد يُورث الذلَّ إدمانها
وتَركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٠)، ومسلمُ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة (٢٥٣٥) عن عمران ﷺ، وأخرجه البخاريُّ (٣٦٥١)، ومسلمٌ (٢٥٣٣) عن ابن مسعود ﷺ، ولفظه: «**خير الناس قرني**»، ولفظ: «**خير القرون...**» ليس ثابتًا.

(٢) بتلخيص من «الموافقات» (١/ ٩٦، ٩٧).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣١)، وأبو خيثمة في «العلم» (١٣٢)، ووكيع في «الزهد» (٢٦٩)، وأحمد في «الزهد» (١٩٥، ١٩٦)، والخطيب في «الاقتضاء» (٩٦)، وفي «الجامع لأخلاق الراوي» (١٨٥٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٩٥)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٩٩): «رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله موثقون إلا أن القاسم لم يسمع من جدِّه».

(٤) أخرجه ابن عبد البر في«جامع بيان العلم» (١١٠٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٤٦٧).

ولـما جلس الشافعيُّ بين يدي مالكٍ ـ رحمهُما اللهُ ـ وأُعجب مالكٌ بذكاء الشافعي وحفظه، قال لهُ: «يا شافعيُّ، إني أرى الله قد جعل في قلبك نُورًا؛ فلا تُطفئهُ بظُلمة المعصية»[١].

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لَا يُهْدَى لِعَاصِي[٢]

وليس معنى ذلك أنك لا تخطئ، ولكن ليكن الأصل عندك الطهارة والعفة والفضيلة.

فإن زل الداعيةُ أو طالبُ العلم فعليه أن يُحدث توبةً؛ فالكمالُ لله وحدهُ، والعصمةُ لأنبيائه ورُسُله ـ صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم أجمعين.

رابعًا: عدمُ الكبر والحياء؛ فالحياءُ يمنعُ من السُّؤال والتفقُّه في الدين، وهذا مذمُومٌ في هذه الحالة ـ لأن الحياءَ خيرٌ كُلُّهُ ـ ولهذا قالت عائشةُ رضي الله عنها: «نِعْمَ النِّسَاءُ نَسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ»[٣].

وقال مُجاهدٌ: «لا يتعلمُ العلمَ مُستحيٍ ولا مُستكبرٌ»[٤]، والكبرُ داءٌ عُضالٌ ينخرُ في جسد الدعوة، ويُعرضُ مسيرها لكثيرٍ من الأخطار؛ فلو لم يتكبر كُلُّ فردٍ من أفرادها - ينقُصُهُ العلمُ، وتعُوزُهُ المعرفةُ أن يذهب إلى العُلماء؛ وأن يُزاحم مجالسهُم - لـما رأينا مثل هذه الخلافات الحادة التي لا يُمكنُ بحالٍ أن نغُض الطرفَ عنها أو نتجاهلها، ورحم اللهُ الغزاليُ؛ حيثُ يقُولُ: «لو سَكَتَ من لا يعرفُ

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ١٠٤)، وانظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم (ص: ٣٤).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص: ٨٨)، وانظر: «الجواب الكافي» (ص ٣٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ - تعليقًا - في كتاب العلم، باب الحياء في العلم (١/ ٢٧٦)، ووصلَهُ مسلمٌ، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم (٣٣٢/ ٦١).

(٤) أخرجه البخاريُّ - تعليقًا - كتابُ العلم، باب الحياء في العلم (١/ ٢٧٦)، ووصله أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٧)، والدراميُّ في «سننه» (١/ ١١٢)، وقال الحافظ في «الفتح»: «إسنادٌ صحيحٌ على شرط المصنف».

قل الاختلافُ»[١]. وقال في عبارةٍ أُخرى[٢]: «ولو يُنكتُ من الأيدي من لا يدري لقل الخلافُ بين الخلق».

خامسًا: وقُطبُ الرحى بين هذه الأسباب، وبُوصلةُ الخير التي ستُحددُ المسارَ، وتُوضحُ الاتجاه لهذه الطُرُق هي: «الإخلاصُ»، وهذا هُو بابُ السعادة وسرُّ القبُول أن يكُونَ طلبُك للعلم الشرعي خالصًا لله ـ جلَّ وَعَلَا ـ وفي حديث كعب بن مالكٍ الأنصاري ﵁ قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ؛ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ فِي النَّارِ**»[٣].

وبعدُ؛ فإذا وُفق الداعيةُ لتحصيل هذا المُقوم الكريم؛ فليتريث قليلًا؛ ليحمل معهُ مُقومًا آخر لا غنى لزاد العلم عنهُ بحالٍ من الأحوال؛ ألا وهُو: «الفهمُ».

فإن من أخطر التحديات التي تُواجهُ الدعوةَ الإسلاميةَ المُعاصرةَ هُو التعامُلُ الخاطئُ من بعض أفرادها مع النُّصُوص العامة أو الخاصة، وذلك بسُوء فهمها، ومن ثَمَّ بالاستشهاد بها في غير محلها، أو بوضعها في غير موضعها، أو بدُون فهم المناطات العامة والخاصة التي لا بُد منها للربط الصحيح السليم بين دلالات النُّصُوص وحركة الواقع.

وللخُرُوج من هذا المأزق الحرج؛ فلا بُد من العودة إلى سلف الأُمة وعُلمائها الثقات لفهم نُصُوص الكتاب والسُّنة؛ فهذا هُو المنهجُ المُنضبطُ للفهم الصحيح.

---

(١) نقل هذه العبارة عن الغزالي؛ الإمام السيوطي في «الحاوي» (٢/ ١٠٩).

(٢) عزاها العلامة جمال الدين القاسمي في «قواعد التحديث» (٣٠٣)، للغزالي من كتابه «فيصل التفرقة»، ثم عقبها القاسمي بقوله: «أقول: هذا بمعنى قول سقراط: «لو سكت من لا يعلم لسقط الاختلاف» ا.هـ.

وقد وردت هذه العبارةُ بلا عزو لقائلها في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٢٩٤)، وكذلك وردت في «تاريخ ابن عساكر» (٢٣/ ٢٨٠) بلفظ: «لو سكت من لا يعلم لاسترحنا» ولم تُعز لأحدٍ.

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٢٦٥٤)، وابن حبان؛ كما في «الإحسان» (٧٧)، وفي «الموارد» (برقم: ٩٠)، والحاكم (١/ ٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٧١، ١٧٧٢)، وصححه لشواهده الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠١).

فَكُـلُّ خَـيْرٍ فِي اتِّبَـــاعِ مَـنْ سَـلَفْ وَكُـلُّ شَرٍّ فِي ابْتِـــدَاعِ مَـنْ خَلَـفْ[(١)]

فطلبُ العلم - أيُّها الأحبةُ - بدُون فهمٍ دقيقٍ ووعيٍ عميقٍ قد يضُرُّ ولا ينفعُ؛ بل وقد يُعرضُ لأضرارٍ خطيرةٍ، وسقطاتٍ كبيرةٍ، وزلاتٍ كثيرةٍ؛ بل إن سُوء الفهم عن الله ورسُوله أصلُ كُل بدعةٍ وضلالةٍ نشأت في الإسلام قديمًا وحديثًا، وهُو أصلُ كُل خطأٍ وخلافٍ في الأُصُول والفُرُوع.

ولذا يقُولُ الإمامُ ابنُ القيم - رحمهُ اللهُ تعالى: «وهل أوقع القدريةَ والمُرجئةَ والخوارجَ والمُعتزلةَ والجهميةَ والروافضَ وسائرَ طوائف أهل البدع - فيما وقعوا فيه - إلا سُوءُ الفهم عن الله ورسُوله؟!!»[(٢)].

ومن ثَمَّ نرى الإمام البُخاري - رحمهُ اللهُ تعالى - يُبوِّبُ بابًا عجيبًا في «صحيحه» بعُنوان: «بابُ الفهم في العلم» يقُولُ الحافظُ ابنُ حجرٍ - رحمهُ اللهُ تعالى -: «والفهمُ فطنةٌ يفهمُ بها صاحبُها من الكلام ما يقترنُ به من قولٍ أو فعلٍ»[(٣)].

وفي «**الصحيحين**» من حديث مُعاوية بن أبي سُفيان رضي الله عنهما قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقُولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[(٤)].

يقُولُ الحافظُ ابنُ حجرٍ: «يُفقههُ» أي: يُفهمهُ، ومفهُومُ الحديث أن مَنْ لَمْ يتفقَّه في الدين؛ أي: يتعلَّم قواعدَ الإسلام وما يتصلُ بها من الفُرُوع؛ فقد حُرم الخير»[(٥)].

ولا شك أن الناسَ يتفاوتُون في هذا الباب تفاوُتًا عظيمًا ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]، لا سيما إذا علمنا أن دلالةَ النُصُوص نوعان.

وهذا ما يُقررُهُ العلامةُ الإمامُ ابنُ القيم - رحمهُ اللهُ تعالى: فيقُولُ: «دلالةُ النُّصُوص نوعان: حقيقيةٌ وإضافيةٌ؛ فالحقيقيةُ تابعةٌ لقصد المُتكلم وإرادته؛ وهذه الدلالةُ لا تختلفُ.

---

(١) قاله صاحب «جوهرة التوحيد» - كما في «مجلة المنار» لمحمد رشيد رضا (٢٩/ ٦٥٩).

(٢) «الروح» (٦٣).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٩٩).

(٤) سبق قريبًا.

(٥) «فتح الباري» (١/ ١٩٨).

والإضافيةُ تابعةٌ لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته، وصفاء ذهنه، ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالةُ تختلفُ اختلافًا مُتباينًا بحسب تبايُن السامعين في ذلك»[١].

ثُم ذكر ابنُ القيم عدة أمثلةٍ لهذا الفهم الدقيق والوعي العميق للنُصُوص نذكُرُ منها هُنا بعضها؛ فيقُولُ: «وقد قال عُمرُ بنُ الخطاب ﷺ للصحابة[٢]: ما تقُولُون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ «أول سُورة النصر»؛ فقالُوا: أمر اللهُ نبيهُ إذا فتح عليه أن يستغفرهُ؛ فقال عُمرُ لابن عباسٍ: ما تقُولُ أنت؟ فقال ابنُ عباسٍ: هُو أجلُ رسُول الله ﷺ أعلمهُ إياهُ؛ فقال عُمرُ: ما أعلمُ منها غير ما تعلمُ»؛ يقُولُ ابنُ القيم: «وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يُدركُهُ كُلُّ أحدٍ. قال: وفهم ابنُ عباسٍ من قوله تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف:١٥] مع قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ﴾ [البقرة:٢٣٣] أن المرأة قد تلدُ لستة أشهُرٍ، ولم يفهمهُ عُثمانُ ﷺ فهم برجم امرأةٍ ولدت لستة أشهُرٍ، حتى ذكرهُ ابنُ عباسٍ، فأقر به[٣].

ولم يفهم عُمرُ بنُ الخطاب من قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا**» قتال مانعي الزكاة حتى بين لهُ الصديقُ ﷺ، فأقر به عُمرُ ﷺ»[٤]. اهـ[٥].

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب (٥١) (٤٢٩٤)، وفي كتاب «التفسير» (٤٩٧٠).

(٣) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (سورة البقرة آية:٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (لسورة البقرة: ٢٣٣)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٧/ ٣٥١)، وسعيد بن منصور في «سننه»، باب المرأة تلد لستة أشهر (٢٠٧٥)، قُلْتُ: ورُوي عن عمر وعلي؛ كما في «سنن سعيد بن منصور» (٢٠٧٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» («لسورة الأحقاف» آية رقم: ١٥)، والطبري في («تفسيره» لسورة الزخرف:٨١)، ومالك في «الموطأ» في الحدود، باب ما جاء في الرجم، باب رقم (١١) ، وراجع: «الدر المنثور» للسيوطي (تفسير البقرة والأحقاف).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٩٩)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٠).

(٥) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٤١٢، ٤١٥).

وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: خطب النبيُّ ﷺ؛ فقال: «**إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ**»، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ؟ إِنْ يَكُن اللهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ العَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا قَالَ: يَا أَبَا بَكْر لاَ تَبِكِ: «**إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا من أمتي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ؛ وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْـمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ**».

والأمثلةُ في هذا الباب كثيرةٌ جدًّا، والشاهدُ أننا بحاجةٍ ماسةٍ إلى عدم التعجُّل، وإلى فهمٍ دقيقٍ، ووعيٍ عميقٍ للنُّصُوص التي نتعاملُ معها حتى لا نُخطئ، ولا نضُر دعوتنا من حيثُ لا نشعُرُ؛ فإن الإخلاص وحدهُ لا يكفي في مثل هذه الدُّرُوب.

وحينئذٍ ـ فقط ـ يجبُ على الداعي أن يتحرك لدعوة الناس بعلمٍ وبصيرةٍ دُون كللٍ أو مللٍ، وأن يجُود بما مَنَّ اللهُ عليه من علمٍ؛ فالجُودُ بالعلم؛ كما قال ابنُ القيم(٢): «هُوَ من أعلى مراتب الجُود، والجُودُ بالعلم أفضلُ من الجُود بالمال؛ لأن العلم أشرفُ من المال». والأنبياءُ لم يُورثُوا مالًا، ولم يُورثُوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثُوا العلم؛ كما قال النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ(٣) ـ فمن أخذهُ فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ؛ أي: من أخذ العلم فقد أخذ بحظٍ وافرٍ؛ لأن الله يُعطي الدُّنيا والمال للكافر والمُؤمن؛ لكنهُ لا يُعطي العلمَ والدينَ إلا لمن يُحبُّ؛ نسألُ الله أن يجعلنا أهلًا لهذه الكرامة، وألا يحرمنا منها حتى نلقاهُ؛ إنهُ وليُّ ذلك ومولاهُ.

والناسُ في الجُود بالعلم على مراتب مُتفاوتةٍ، وقد شاء اللهُ سُبحانهُ وتعالى ألا ينفع بالعلم بخيلًا أبدًا.

فالعالمُ الربانيُّ عندهُ جُودٌ لا حصر لهُ ولا حُدُود.. العالمُ الربانيُّ يُبينُ الحقَّ في المسألة، ويُبينُ الأدلة من كلام الله، ومن كلام رسُول الله ﷺ، ومن أقوال أهل العلم..

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٦)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٢٣٨٢).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٠).
(٣) سبق تخريجه.

وهكذا لو نظرت إلى فتاوى عُلماء السلف بدايةً من أصحاب رسُول الله ﷺ لوجدت الجُودَ ثُم الجُودَ بالعلم، لا يبخلُ أحدُهُم، ولا يضنُّ بما مَنَّ اللهُ ﷻ به عليه من علم، ولذلك أنا أنصحُ الآن طلبة العلم ممن من اللهُ عليهم بالعلم - ولو كان قليلًا - بنصيحتين:

الأُولى: ألا يغتر بما عندهُ من علم.

الثانيةُ: ألا يجلس حتى يأتيهُ الناسُ؛ ليسمعُوا منهُ؛ بل يجبُ عليه ـ هُو ـ أن يتحرك بهذا النُور الذي معهُ؛ ليُحول هذا النُور وينقلهُ إلى من يعيشُون في ظلامٍ.

فما ترك النبيُّ ﷺ محفلًا من المحافل العامة إلا وذهب بنفسه؛ ليدعُو هؤُلاء الناس إلى الله ﷻ؛ حتى لقد طُرد ورُمي بالحجارة، ووُضع التُّرابُ على رأسه، ومع ذلك يُصرُّ إصرارًا عجيبًا على أن يُبلغ للناس دين الله تعالى، وهُو الذي يقُولُ: «**مَنْ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي**»[1]، ويقُولُ: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[2]. ويمُرُّ على الخيام، يخرُجُ من خيمةٍ إلى خيمةٍ، ومن الأُولى يدخُلُ إلى الثانية، ومن الثانية يدخُلُ إلى الثالثة.. طُرد من مكة، فذهب إلى الطائف، ومن الطائف إلى المدينة، ولما تم صُلحُ الحُديبية لم يقف أبدًا، وإنما دعا مُلُوك ورُؤُساء الأرض إلى الله سُبحانهُ وتعالى؛ فشتان شتان بين زهرةٍ من خلق الله لا تحبسُ عن الناس أريجها وعطرها، وبين زهرةٍ اصطناعيةٍ لا تحملُ من عالم الزُّهُور إلا اسمها. ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى**﴾ [يوسف:١٠٨].

وَفِي «**صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ**»[3] من حديث عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

---

(١) جزءٌ من حديث طويل؛ أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢)، وابن حبان (٦٢٧٤)، والبيهقيُّ في «الكبرى» (٩/ ٩)، والحاكم (٢/ ٦٨١) من حديث جابر بن عبد اللّه مرفوعًا، قال الهيثميُّ في «المجمع» (٦/ ٩): «ورجال أحمد رجال الصحيح»، وصحَّحهُ العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٦٣)؛ ونقل تصحيح ابن كثير له في «البداية والنهاية» (٣/ ١٥٩، ١٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٦٣)، (٥/ ٣٧١) من حديث شيخ من بني مالك بن كنانة مرفوعًا، وأخرجه البخاريُّ في «خلق أفعال العباد» (٢٧)، وابن خزيمة (١٥٩)، من حديث طارق المحاربي مرفوعًا، وأخرجه أحمد (٤/ ٣٤١) من حديث ربيعة بن عباد الديلي مرفوعًا، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح السيرة» (١٤٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...». كم تحفظُ من الآيات وما بلَّغت؟!! كم تحملُ من العلم الصحيح وما ذكَّرت؟!! كم جلست للتعلُّم بين أيدي العُلماء، وما قُمت ودعوت؟!! وربُّنا يقُولُ لحبيبه ﷺ من أول لحظةٍ: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر:٢]؛ فقام ولم يذُق طعمَ الراحة حتى لقي الله جلَّ وَعَلَا.

وما فارق النبيُّ ﷺ الدُّنيا حتى أتم اللهُ به الملة، وأكمل به الدين والشرعة، ونزل عليه قولُ الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]؛ حتى عمَّ الإسلامُ الجزيرة العربية بأسرها؛ بل سطع نُورُهُ بعد ذلك في مشارق الأرض ومغاربها؛ كُلُّ ذلك في وقتٍ لا يُساوي فِي حساب الزمن شيئًا على الإطلاق؛ كأنها لحظاتٌ من عُمُر الدُّنيا؛ فما أحوج المُسلمين بصفةٍ عامةٍ، وطلبة العلم والدُّعاة بصفةٍ خاصةٍ أن يتلمسُوا خُطى النبيِّ ﷺ في جهاده في الدعوة إلى دين الله تبارك وتعالى، وليُخرجُوا هذا العلم وهذا النُّور من السُّطُور إلى الصُّدُور، ومن الصُّدُور إلى الدُّور؛ ليكُون في دُنيا البشر واقعًا عمليًّا تطبيقيًّا، ومنهج حياةٍ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد:٩].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ [(١)]: «ومن الجُود به: أن تبذُلهُ لمن يسألُك عنهُ؛ بل تطرحُهُ طرحًا.

وَمِنَ الْجُودِ بِالْعِلْمِ: أن السائل إذا سألك عن مسألةٍ: استقصيت لهُ جوابها جوابًا شافيًا، لا يكُونُ جوابُك لهُ بقدر ما تدفعُ به الضرُورة؛ كما كان بعضُهُم يكتُبُ في جواب الفُتيا: «نعم» أو «لا»؟ مُقتصرًا عليها! ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك أمرًا عجيبًا، كان إذا سُئل عن مسألةٍ حُكميةٍ، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر مُتعلقات المسألة التي رُبما تكُونُ أنفع للسائل من مسألته، فيكُونُ فرحُهُ بتلك المُتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته.. فمن جُود الإنسان بالعلم: أنهُ لا يقتصرُ على مسألة السائل؛ بل يذكُرُ لهُ نظائرها، ومُتعلقها ومأخذها، بحيثُ يشفيه ويكفيه» انتهى.

وأضربُ لك مثالًا أخيرًا على ذلك من حديث النبي ﷺ حين سُئل عن ماء البحر؛

(١) «المدارج» (٢/ ٢٩٤).

كما في «المُوطأ» لمالكٍ، و «مُسند أحمد»، و«السُّنن الأربعة» وغيرها [(١)] من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه قال: سأل رجُلٌ النبيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ؛ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا؛ أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»؛ فلم يقتصر النبيُّ ﷺ في جوابه على سُؤال السائل؛ بل زاد عليه ما يحتاجُون إليه، وهذا يُسميه العُلماءُ بـ «جواب الحكيم» وهذا من جُوده ﷺ في بيان العلم ونشره وبثه وتبليغه للأُمة؛ نسألُ الله أن يجعلنا أهلًا للبلاغ عنهُ.

كما يجبُ على الداعي أن يُتوج العلمَ والفهمَ بالعملِ؛ فإننا في أمس الحاجة في هذا الزمن إلى دُعاةٍ أتقياء أصفياء يُحولُون الإسلام إلى واقعٍ ملمُوسٍ وإلى مُجتمعٍ يتحركُ، لا سيما إذا علمنا أنهُ أصبح يُحكمُ ـ في زماننا هذا ـ على الإسلام من خلالِ واقع المُسلمين المُر، وسُلُوك بعضهمُ المُنحرف!!

فلا يكفي أبدًا أن نشهد للإسلام شهادةً قوليةً ـ فقط ـ بل يجبُ أن نشهد لهُ شهادةً عمليةً كما شهدنا لهُ شهادةً قوليةً؛ لأن التناقُض بين القول والعمل يزرعُ بُذُور النفاق في القُلُوب؛ والعياذُ بالله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

نعم، فعلمٌ وفهمٌ لا يدفعُ صاحبهُ إلى العملِ والقُربِ من الله ـ جَلَّ وَعَلَا ـ والبُعد عن معصيته فلا خير فيه ولا بركة؛ بل قد يكُونُ وبالًا وحُجةً على صاحبه؛ فالعلمُ لا قيمة لهُ بدُون العمل.

---

(١) أخرجه مالك (١/ ٢٢، ٩٩)، (٢/ ٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٣٦١، ٣٩٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/ ١٣١)، والدارميُّ (٧٢٩، ٢٠١١)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (٨٣)، والترمذيُّ، كتاب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور (٦٩)، وقال: «حسن صحيح». والنسائيُّ، كتاب الطهارة، باب في ماء البحر (١/ ٥٠)، وفي كتاب الصيد، باب ميتة البحر (٧/ ٢٠٧)، وفي «الكبرى» (٥٨، ٤٨٦٢)، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (٣٨٦)، وفي كتاب الصيد، باب الطافي من صيد البحر (٣٢٤٦)، وابن خزيمة (١١١)، وابن حبان (١٢٤٣، ٥٢٥٨)، والحاكم (١/ ٢٣٧، ٢٣٩)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٩٧٦)، و«الصحيحة» (٤٨٠).

ومن ثَمَّ؛ فإنني أقولُ: إن كلَّ عِلْمٍ لا يفيدُ عملًا؛ فليس في الشرع البتة ما يدل على استحسانه[(١)].

وفي «صحيح» مسلم[(٢)] من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقول: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا»**.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليس العلمُ بكثرة الرواية، وإنما العلم نورٌ يقذفه الله في القلب»[(٣)].

وفي رواية: «ليس العلمُ بكثرة الرواية، إنما العلمُ خشيةُ الله»؛ فما قيمةُ أيِّ علم - مهما علا - إن لم يتحول إلى واقع عمليٍّ ومنهج حياة؟!!

وكان عبدُ الله بنُ مسعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا تَعَلَّمُوا، فَإِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا»[(٤)].

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «لَا تَكُونُ تَقِيًّا حَتَّى تَكُونَ عَالِمًا، وَلَا تَكُونُ بِالْعِلْمِ جَمِيلًا حَتَّى تَكُونَ بِهِ عَامِلًا»[(٥)].

وقال أيضًا[(٦)]: «إني لخائف يوم ينادي منادٍ، فيقول: يا عويمر؟ فأقول: لبيك رب لبيك. فيقول: أما علمت؟ فأقول: نعم؛ فيقال: كيف عملت فيما علمت؟ فتأتي كلُّ آيةٍ في كتاب الله زاجرةٌ وآمرةٌ تسألني فريضتها، فتشهد عليَّ الآمرة بأني لم أفعل، وتشهد على الزاجرة بأني لم أنته أو أترك، فأعوذُ بالله من قلب لا يخشع، ومن علم لا ينفع، ومن صوتٍ لا يسمع، وأعوذ بالله من دعاء لا يستجاب».

(١) «الموافقات» (٢/ ١١٣).

(٢) تقدم قريبًا. وهو فيه (برقم: ٢٧٢٢).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٨٥٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٤٠٠، ١٤٠١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٣٥) «رواه الطبراني، وإسناده جيد إلا أن عونًا لم يدرك ابن مسعود».

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٦٦)، والدارمي (٣٦٦)، والخطيب في «الاقتضاء» (١٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ١٦١).

(٥) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٢٣٩)، والدارمي (٢٩٣)، والخطيب في «الاقتضاء» (١٦، ١٧).

(٦) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٢١٥)، وأحمد في «الزهد» (١٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٣، ٢١٤).

ورحم اللهُ من قال:

إِذَا الْعِلْـمُ لَـمْ تَعْمَـلْ بِـهِ كَـانَ حُجَّـةً ... عَلَيْـكَ وَلَـمْ تُعْـذَرْ بِـمَا أَنْـتَ جَاهِلُـهْ

فَـإِنْ كُنْـتَ قَـدْ أُوتِيـتَ عِلْـمًا فَـإِنَّمَا ... يُصَـدِّقُ قَـوْلَ الْـمَرْءِ مَا هُـوَ فَاعِلُـهْ[1]

وما أحوجنا حقًّا إلى هذه الوصية الغالية التي رُويت بإسنادٍ لا يصحُّ عن عليٍّ بن أبي طالب ﵁؛ حيث يقول: «يا حملة العلم؛ اعملُوا به؛ فإنما العالـمُ من علم، ثُم عمل، ووافق علمُهُ عملَهُ، وسيكُونُ أقوامٌ يحملُون العلم لا يُجاوزُ تراقيهُم، تُخالفُ سريرتُهُم علانيتَهُم؛ ويُخالفُ عملُهُم علمهُم، يقعُدُون حلقًا فيُباهي بعضُهُم بعضًا؛ حتى إن الرجُل ليغضبُ على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعهُ، أُولئك لا تصعدُ أعمالُهُم في مجالسهم تلك إلى الله ﷿»[2].

فكم مِن مُذكرٍ بالله وهُو ناسٍ لله! وكم من مُخوفٍ بالله وهُو جريءٌ على الله! وكم من مُقربٍ إلى الله وهُو بعيدٌ عن الله! وكم من داعٍ إلى الله وهُو فارٌّ من الله! وكم من تالٍ لكتاب الله وهُو مُنسلخٌ من آيات الله[3]! وأختمُ الحديث عن ضرُورة هذا المُقوم بحديثٍ يهُزُّ القلب، ويُبكي العين؛ ألا وهُو حديثُ أُسامة ﵁ قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ: **«يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»**[4].

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٠/ ١٦)، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر (١٢٤٢)، والأبيات لسابق بن عبد الله البربري.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٣٧)، والخطيب في «الاقتضاء» (٩)، وفي «الجامع» (٣١)، والدارمي (٣٨٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٥٠٩) بإسناد ضعيف.

(٣) كما ورد عن ابن السماك؛ أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٩١٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧)، ومسلمُ، كتاب الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (٢٩٨٩).

ورحم اللهُ من قال:

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ الْـمُـعَلِّمُ غَيْـرَهُ هَـلَّا لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذَا التَّعْلِـيمُ؟
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السِّقَامِ مِنَ الضَّنَى وَمِـنَ الضَّـنَى تُـمْسِي وَأَنْـتَ سَـقِيمُ
لَا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِـيمُ
ابْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَانْـهَهَا عَـنْ غَيِّهَـا فَـإِذَا انْتَهَـتْ عَنْـهُ فَأَنْـتَ حَكِـيمُ
فَهُنَـاكَ يُقْبَـلُ مَـا تَقُـولُ وَيُقْتَـدَى بِالْقَـوْلِ مِنْـكَ وَيَنْفَـعُ التَّعْلِـيمُ[1]

وقال الآخر:

والعلـم لـيس بنـافع أربابـه مـا لم يغـد عمـلًا وحسـن تبصـر
سـيَّان عنـدي مـن لم يسـتفد عمـلًا بـه وصـلاة مـن لم يطهـر
فاعمـل بعلمـك تـوف نفسـك وزنهـا لا تـرض بالتضـييع وزن المـخسر [2]

ورحم الله مالك بن دينار؛ إذ يقول: «إن العالمَ إذا لم يعمل بعلمه زلَّت موعظتهُ عن القلوب كما يزل القطرُ عن الصفا»[3].

فإن وقع الداعيةُ أو طالبُ العلم في زلةٍ ناشئةٍ عن الغفلات التي لا ينجُو منها البشرُ فلا ينبغي أن تكُون سببًا ليتخلى عن دعوته.

كلَّا؛ فالكمالُ لله وحدهُ، والعصمةُ لأنبيائه ورُسُله؛ بل يجبُ أن يعتصم بالله - جلَّ وَعَلَا - وأن يُحدث توبةً لله - تعالى - وأن يُكثر من الاستغفار والعمل الصالح؛ امتثالًا

(١) الأبيات منسوبة لأبي الأسود الدؤلي؛ كما في كتاب «تحريم النظر في كتب الكلام» (ص٦٧) لابن قدامه المقدسي؛ و«جامع بيان العلم وفضله» (برقم: ١١٨٨)، وكذلك نسبت لابن السماك؛ كما في «شعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ٣١٦)، و«تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٥٩)، و«البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٥/ ١٣١)، ونسبت للمتوكل الليثي؛ راجع: «لآلئ اللآلئ» (رقم: ٤٨٧).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٦٥).

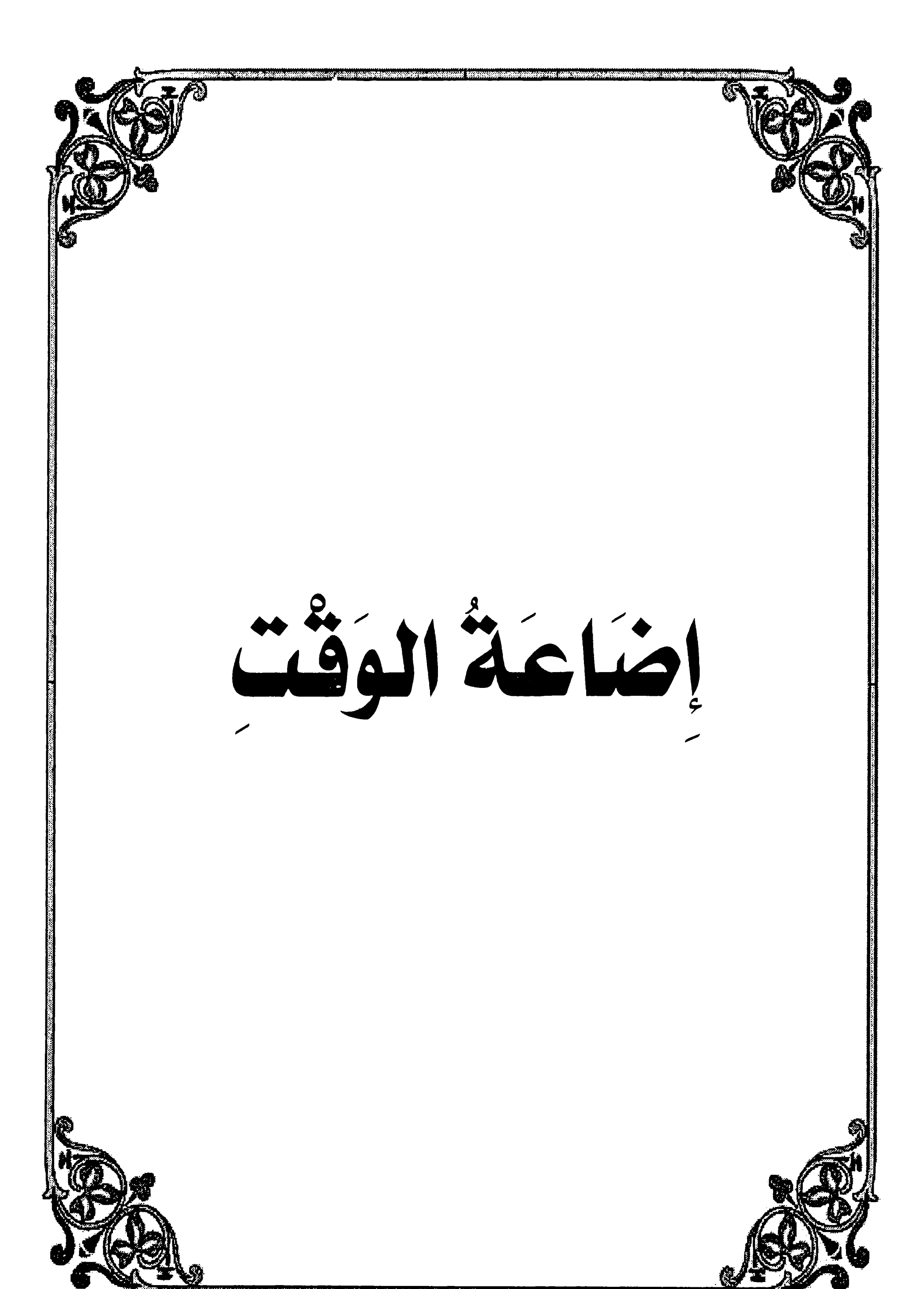
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٩١٦)، والخطيب في «الاقتضاء» (٦١)، وفي «تاريخ بغداد» (٤/ ١١٠).

لأمر رسُول الله ﷺ لـمُعاذٍ رضي الله عنه: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[1].

فاللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، ونفس لا تشبع، ودعوة لا يستجاب لها، ونَسْأَلُه تعالى أَنْ يُجَنِّبَنَا الزَّلَلَ، وأن يردَّ الأمة إلى القراءة والعلم والعمل ردًّا جميلًا؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَمَوْلَاهُ.

*****

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٨٧)، والدارمي (٢٧٩١)، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن أبي شيبة (٦/ ٨٩)، والحاكم (١/ ١٢١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٧٨) عن أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣٦) عن معاذ رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).



إِضَاعَةُ الوَقْتِ

إضاعة الوقت

إن إضاعة الوقت مرضٌ عضالٌ في غاية الخطر، لا ينتبه لخُطورته أكثرُ الناس مع أنه أغلىٰ رؤوس الأموال؛ لكنه عند الكثيرين أزهدُ رؤوس الأموال، فترىٰ أحدهم لا يتورعُ أن يهدر رأس ماله، وأن يضيع حياته وعمره؛ لأن الوقت هو الحياة، وهو الطاقة، والعمل، والإنتاج، والإبداع، والتقدم، والرقي، والحضارة؛ فهو كل شيء.

وكما **قال السلف**: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك؛ لكنني أودُّ أن أقول: الوقت هو الحياة؛ فهُو إما جنة وإما نار، وأنا أتألمُ غاية الألم وأنا أرىٰ هٰذا الإهدار إلىٰ حد السفه للوقت؛ فإهدار الوقت أخطر من إهدار المال؛ لأن المال إن أُهدر قد يُعوَّض، أما الوقت إن أُهدر فلا يعوض علىٰ الإطلاق.

وكم ضيعت الأمةُ ـ ولا زالت ـ تضيع كثيرًا من الأوقات في المباريات، فتراها تعطلُ المزارعَ والمصانعَ والطرقَ من أجل مباراة كرة، وتعطل الشركات من أجل لهو، وكم ضيعت من أوقاتها علىٰ أيدي شبابها في الشوارع والطرقات والأندية والملاهي والمنتديات.. إلىٰ غير ذلك.

ولقد كاد قلبي أن ينزفَ وأنا في عام من أعوام الحج في عرفات، في هٰذا اليوم الكريم المبارك الذي ينزل فيه ربنا ـ جَلَّ وعلا، وتبارك وتعالىٰ ـ تنزلًا يليق بكماله وجلاله، يباهي بأهل الموقف ملائكته؛ كما في «**صحيح**» مسلم[1] من حديث عائشة ﭫ قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ يَوْم أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ؛ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو؛ ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟**».

وجدتُ بعضَ الناس في هذا اليوم في خيمة كبيرة علىٰ جبل عرفات يلعبون «السُّلَّم والثعبان»، ووجدتُ مجموعةً أخرىٰ تلعب «الكوتشينة»، ورأيت مجموعةً أخرىٰ تشرب «الشيشة»؛ فوقفت مذهولًا مندهشًا، واقتربت منهم، وقلْت: ماذا تصنعون؟ أنسيتم أنكم في عرفات؟ أنسيتم أنكم في يوم عظيم كريم يغفر اللهُ فيه

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٨).

الخطايا؟ إذا بهم ينظرون إليَّ بابتسامة ويتعللون بأن اليوم طويل! فهم يقومون بممارسة هٰذه الأعمال والألعاب المحرمة إلىٰ أن ينقضي هٰذا اليومُ الطويلُ، إلىٰ أن ينقضي وقتُ الطاعات، إلىٰ أن ينقضي وقتُ مباهاة الله الملائكة!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن إضاعة الوقت انتحارٌ بطيء؛ فأنت - أيها الحبيب - تقتل نفسكَ والمجتمعُ كلُّه يراكَ، ولا ينصحك، ولا يأخذ بيدك، ولا يحول بينك وبين ارتكاب هٰذه الجريمة الشنعاء النكراء.

إن إضاعة الوقت مرضٌ لا يفطن إليه كثيرٌ من الناس مع شدة بلائه وخطورته علىٰ طاقات الأمة، في الوقت الذي انتشرت فيه البطالةُ بشكلٍ مؤلمٍ، وأنا أقولُ: لو انطلق كلُّ شابٍّ من هٰؤلاء ليبحث عن عمل - وليس بالضرورة أن تجدَ العملَ الذي يناسبك - لكن بالضرورة أن تجد عملًا ليشغل فراغك، وإلا فسأبين خطرَ الفراغ، ونعمة الفراغ التي انشغلَ عن ذكرها كثير من الخلق وكثير من الناس؛ فلو اجتمعت هٰذه الأوقاتُ الضائعةُ والمهدرةُ لأبدعت وقدمت الشيءَ الكثيرَ والكثيرَ؛ لأمة صارت وراء الرَّكب ببعيد، وتخلَّفت وتأخرت، وأصبحت تتسول الآن علىٰ موائد الفكر العلمي، والطبي، والهندسي، والكيميائي، والذَّرِّي.. إلىٰ عير ذلك.

لقد وقفت علىٰ تقاريرَ رسميةٍ، ولما قرأتها كِدْتُ أن أبكي؛ فقد قرأتُ تقريرًا يقارن بين عطاء موظف الجهات الحكومية الأوربية، والموظف في الجهات الحكومية المسلمة، فكان عطاءُ الموظف الأوروبي يتجاوز سبعَ ساعات، وعطاء المسلم لا يصل إلىٰ ساعة.

فإذا كان عطاؤك لا يصلُ إلىٰ ساعة؛ فكيف تتقدمُ الأمةُ مع إهدارها لهٰذه الأوقات والطاقات؟ فنحن نقتلُ الأوقات، ونقتل أمتنا معنا، ونقتل أنفسنا، وننتحرُ انتحارًا بطيئًا بهٰذه السياسة التي وصلت إلىٰ حدِّ السفه.

فالأمة لن تستطيع أن تستمر بين أمم الواقع المعاصر وعالم اليوم إلا بالعمل والإنتاج والعطاء والبذل؛ إلا بتحويل هٰذا الدين في حياتها إلىٰ واقع عملي ومنهج حياة؛ لتكون قادرةً بعد ذلك علىٰ أن تبلِّغ هٰذا الحقَّ لأهل الأرض بحق.. لتكون قادرةً علىٰ أن تنقل هٰذا النورَ إلىٰ من يعيشون في ظلام الشرك والجهل بالله تبارك وتعالىٰ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه؛ ولأن الغربَ لن يتقبلَ منا ونحن قد ابتعدنا كثيرًا عن هٰذا النور الذي نحمله، وعن هٰذا المنهج الذي نريد أن نبينه للآخرين.

والقولُ إن خالفَ العملَ بُذرت بُذورُ النفاقِ في القلوب؛ كما قال علام الغيوب: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]؛ فلا بد أن تشغل نفسك بأيِّ عمل حتىٰ ولو لم يتناسب مع قدراتك العقلية وأنت ترىٰ أنك تستطيع أن تعمل أفضل وأكثر من ذلك، لكن ابدأ بمرحلة ولو كانت قليلة وبعد ذلك يهيئ الله لك وترتقي إلىٰ وظيفة أو مهنة تناسبك، المهم ألا تترك نفسك فارغًا من أيِّ عمل أو مهنةٍ شريفة ولو كانت قليلة، حتىٰ لا تترك نفسك للمعصية.

أيها الأحبة الكرام: إن الوقتَ هو الحياة، والعاقل هو الذي يعرف قدرَ وقته وشرف زمانه، فلا يضيع ساعةً واحدةً من عمره إلا في خير للدنيا أو للآخرة.

فالوقت من أعظم نعَم الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]

وليلفت ربُّنا أنظارنا إلىٰ قدر الوقت وقيمة الوقت أقسم به في آياتٍ كثيرةٍ من قرآنه؛ فقال جلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر١-٣].

وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١، ٢]. وهكذا؛ فالله أقسم بالليل والعصر والفجر والصبح والضحىٰ ليبين قدرَ الوقت وأهميته ومكانته.

فالوقت هو العمر.. هو الحياة.

والعاقل هو الذي يدرك ذلك؛ فلا تراه في ساعةٍ من عمره إلا منشغلًا إما بعمل نافع للدنيا وإما بعمل نافع للآخرة.

وها هو نبينا ﷺ يعلِّمنا أن الإنسانَ سيسألُ عن ساعات عمره وعن أيام عمره؛ كما في الحديث **الصحيح الذي رواه الترمذيُّ** عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟**».

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه: «**عَنْ عُمُرُهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاهُ؟**»[(١)] .

وكان لقمان الحكيم يقول لولده: «أي بني إنك من يوم أن نزلت إلىٰ الدنيا، واستقبلت الآخرة، فأنت إلىٰ دار تقبل عليها أقرب من دار تبتعد عنها»[(٢)] .

لأن كلَّ يوم يمر عليك في دنياك يبعدك عن الدنيا يومًا ويقربك من الآخرة يومًا وأنت لا تدري.

فانشغلْ بما ينفعك في دنياك وأخراك، ولا تقتل نفسكَ بيدك، أعط الناسَ مالك، لكن لا تعطهم وقتك؛ لأن وقتك أغلىٰ من المال، والدراهم، والدنانير.

لذا فأنا أكررُ وأقولُ: إن الوقتَ هو الحياة؛ بل هو السعادةُ، فإن شغلنا أوقاتنا فيما ينفعنا في ديننا وأخرانا لسعدنا سعادة لا نشقىٰ بعدها أبدًا.

وأنا لا أقول: يجب أن نقضي الوقت كله في العبادات، وقد أصَّلْتُ قبل ذلك بأن أيَّ عملٍ من أعمال الدنيا صحت فيه النيةُ وكان العمل موافقًا لهدي سيد البشرية فأنت في عبادة متقبلة من رب البرية، حتىٰ لو كنت تستمتعُ بامرأتك في الفراش الحلال. فالعبادة ليست أمرًا هامشيًّا علىٰ جانب من جوانب الحياة؛ بل تَسَع الحياة كلَّها.

إن قتلةَ الوقت يقعون في مرض من أخطر الأمراض، ربما يقولُ البعض: أنا حرٌّ، لا تحاسبني علىٰ وقتي، أعمل في وقتي ما شئت!! أقول: لا؛ لست حرًّا، ليس هناك حريةٌ مطلقةٌ، وليس في أيِّ بلدٍ يتغنىٰ بالحرية ما يُعرف بالحرية المطلقة؛ فالحرية مقننة

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة (٢٤١٧)، والدارمي (٥٣٧)، وأبو يعلىٰ (٦٤٣٤) من حديث أبي برزة رضي الله عنه، وله شاهدٌ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة (٢٤١٦)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٩٧٧٢)، وصحَّحَهُ لشواهده الألباني في «الصحيحة» (٩٤٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٧٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٤٧) -زوائد المروزي-، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٣).

مقيدة؛ بل ستسألُ عن الوقت بين يدي ملك الملوك وجبار السمٰوات والأرض، وسيأتي وقتٌ علينا كلّنا ـ بلا استثناء ـ وستأتي لحظةٌ.. يعرف المرءُ قدر الساعة ويتمنىٰ أن لو عاد إلىٰ الدنيا ساعة، ويتمنىٰ أن لو طال به الزمنُ، في وقت لا ينفع فيه الندمُ، ولا يقبل فيه الرجاءُ؛ قال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون٩-١١].

وها هم سلفنا ـ رضوان الله عليهم ـ يعلمون كيف يكون الحرصُ علىٰ الوقت.

فها هو أحدُ السلفِ يقول: «ما ندمت علىٰ شيء كندمي علىٰ يوم غربت شَمْسُه نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي».

ولله درُّ القائل:

إذا مـــر بي يـــومٌ ولم أقتـــبس هـــدىً ولم أستفد علمًا فما ذاك مـن عمري[(١)].

ويقول ابن الجوزي رحمه الله[(٢)]:«رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمانَ دفعًا عجيبًا، إن طال الليلُ فبحديث لا ينفعُ، أو بقراءة كتاب فيه غزل وسمر، وإن طال النهارُ فبالنوم، وهم في أطراف النهار علىٰ دِجْلة أو في الأسواق».

ويزداد الأمرُ خطرًا إذا علمنا أن من أهم خصائص الوقت أنه يمر مَرَّ السحاب،

---

(١) «قرىٰ الضيف» لابن أبي الدنيا (٧/ ٣٨٢)، و«المنتظم» لابن الجوزي (٧/ ٧٣)، و«نهاية الأرب» (٣/ ١١٠)، و«غذاء الألباب» للسفاريني (٢/ ٣٤٨)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٢٢).

(٢) «صيد الخاطر» (١١٧، ١١٨).

ويجري جري الرياح؛ فالأيام تمر، والأشهر تجري وراءها، تسحب معها السنين، وتجر خلفها الأعمار، وتُطوىٰ حياة جيل بعد جيل.

وبين يدي الملك الجليل سيقف الجميعُ للسؤال عن الكثير والقليل؛ كما قال ربنا جلَّ وعلا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾

[الأنبياء: ٤٧].

سيعلم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وضيعوا أوقاتهم وأعمارهم سيعلمون وكأنهم ما لبثوا في هٰذه الدنيا إلا ساعة: ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

[المؤمنون ١١٤-١١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

ولذلك قال أحد السلف[1]: «كيف يفرح بالدنيا مَنْ يومُه يهدِمُ شهرَهُ، وشهرُهُ يهدِمُ عامَهُ، وعامُهُ يهدِمُ عمرَهُ، وكيف يفرح مَنْ يقودُهُ عمرُهُ إلىٰ أجلهِ، وتقودهُ حياتُهُ إلىٰ مَوتِهِ؟!». ولذلك كان لقمان يقول لولده: «أي بني، إنك من يوم أن نزلت إلىٰ الدنيا استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة، فأنت إلىٰ دار تُقبلُ عليها أقرب من دار تبتعد عنها»[2].

وكما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنما أنت أيام مجموعة كلَّما مضىٰ يوم مضىٰ بعضك، وإذا مضىٰ بعضُك مضىٰ كُلُّك»[3].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (١٩٥) عن بعض الحكماء، قال: فذكره.

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الليالي والأيام» (٢٦)، وانظر: «صفة الصفوة» (١/ ٦٣٨) ط المعرفة.



وكان الحسن رحمه الله يقول[١]: «ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلَّم يقول: يا أيها الناس، إني يومٌ جديدٌ، علىٰ ما يُعمل فيَّ شهيد، فإني لو قد غربت الشمسُ لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة».

ولقي الفضيلَ بنَ عياض ـ رحمه الله تعالىٰ ـ رجلٌ فقال له[٢]:

«كم عمرك؟ قال: ستون سنة، قال الفضيل: إذًا أنت منذ ستين سنة تسيرإلىٰ الله يوشك أن تصل، فقال الرجل: إنا لله وانا إليه راجعون.

فقال الفضيل: هل عرفت معناها؟ قال: نعم، عرفت أَنِّي لله عبدٌ وأَنِّي إليه راجع، فقال الفضيل: يا أخي مَنْ عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع عَرَف أنه موقوفٌ بين يديه: ومَنْ عرف أنه موقوفٌ عرف أنه مسئول، ومَنْ عرف أنه مسئول فليعدَّ للسؤال جوابًا، فبكىٰ الرجلُ، وقال: يا فضيل! وما الحيلة؟ قال يسيرة، قال: ما هي يرحمك الله؟ قال: اتق الله فيما بقي من عمرك يغفر الله لك ما قد مضىٰ، وما قد بقي من عمرك».

فيا مَن غرَّهُ طولُ الأمل، وعن الحقائق قد انشغل، أَفِقْ من سكرتك.

فالوقت هو أغلىٰ وأثمن رؤوس الأموال، ومع ذلك فإننا نرىٰ كثيرًا من إخواننا يقتلون الوقت قتلًا؛ بل ولا يقفون علىٰ أخطر العوائق التي تحول بينهم وبين الاستفادة من أوقاتهم وأعمارهم؛ لذا فأنا أودُّ أن أذكر نفسي وإخواني بأخطر عوائق الاستفادة من الوقت:

- **العائق الأول: اتباع الهوىٰ.**

والهوىٰ ملكٌ ظلومٌ غشومٌ جهولٌ يهوي بصاحبه إلىٰ الشر في الدنيا والهلاك في الآخرة، ويصم الأذنَ عن سماع الحق من العلماء، ويعمي البصرَ عن رؤية الخير والدليل والنور.

يقول ابن عباس: ما ذكر اللهُ الهوىٰ في موضع من كتابه إلا وذمه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣][٣]؛ فالهوىٰ إلهٌ يعبدُ. يزين

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الليالي» (رقم: ٢٤)، وراجع: (رقم: ٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٤) ترجمة الفضيل؛ ط إحياء التراث.

(٣) أورده ابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (١٢)، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «الأمثال» (٤١)، والشاطبي في «الموافقات» (٤/ ٣٩٣) بدون سند.

لك الباطلَ والحرامَ والمعصيةَ والشهواتِ والشبهاتِ، ويزين لك كل ما يبعدك عن دين رب الأرض والسمٰوات.

وحذَّر الله نبيًّا كريمًا من أنبيائه من الهوىٰ؛ فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وخاطب الله نبيه المصطفىٰ ﷺ بقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[الكهف: ٢٨]؛ فالله تعالىٰ يأمر نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع أهل الفضل والهمم العالية الصادقة أهل البذل والعمل لدين الله. والمتبع لهواه في هٰذه الآية هم السادة الكبراء من المشركين الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يفردَ لهم مجلسًا وأن يخصهم بوقت دون سائر الصحابة من الفقراء، فعاتبه ربُه تبارك وتعالىٰ في هٰؤلاء الفضلاء.

وفي الحديث الذي رواه البزار، والبيهقي وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ، أَمَّا الثَّلَاثُ الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ الله فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَكَلِمَةُ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ»**. وفي لفظ: **«وَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا»** (١).

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٦٤٩١)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٥)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (٩٣)، وفي «مساوئ الأخلاق» (٣٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٦٠، ٣٤٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧)، والدولابي في «الكنىٰ والأسماء» (٦١٧)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٤٩٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٩٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢) بسندٍ ضعيفٍ عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٤٦، ٤٧)، وفي «الكبير» (١١/ ٣٠١) بسند ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٩)، والبزار (٨٢) من طريقين ضعيفين عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا. وله شواهد أخرىٰ حسنه بمجموعها الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٢)، و«صحيح الجامع» (٣٠٣٩، ٣٠٤٥)، وراجع: «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٧)، و«المغني» للعراقي؛ كما في حاشية «الإحياء» (١/ ١٥).

هٰذا هو طريق الهلاك.. وهٰذا هو طريق النجاة.

فلو انقاد الإنسانُ لهواه زين له جلسةَ الفارغين وجلسة العاطلين البطالين، وزين له تحلل المتحللين من أوامر رب العالمين.

ترىٰ المسلمَ يقضي الساعات الطويلة علىٰ مقهىٰ أو يقضي جُلَّ الليل أمام المسلسلات والأفلام، وإن سألت واحدًا من هؤلاء ما السبب؟!!

يقول لك: أضيعُ الوقتَ!!!

وهو لا يدري أنه يقتلُ نفسَه وينتحرُ انتحارًا بطيئًا!

فلا تضيع ساعة من عمرك إلا وأنت في خير للدنيا أو في خير للآخرة؛ فالهوىٰ من أخطر العوائق التي تصرف العبدَ عن استثمار وقته فيما يرضي الله جلَّ وَعَلَا.

- **العائق الثاني: طول الأمل:**

جميلٌ أن تحمل أملًا في قلبك لتعمِّر الكونَ.. فالإنسان مفطُور علىٰ حُبِّ الحياة، ولا ينكرُ ذلك إلا جاهل بالقرآن والسنة.

جميلٌ أن أعيشَ في الدنيا وأنا أحملُ الأملَ في قلبي.

وأن أُعَمِّرَ بيتًا لأولادي، وأن أصل إلىٰ أعلىٰ المناصب وأرقىٰ الدرجات.

وأن أُحَصِّل الملايين من الأموال من الحلال الطيب.

هٰذا شيءٌ جميل؛ لكن الخطر أن يحول طولُ الأمل بينك وبين طاعة الله جلَّ وَعَلَا!!

فطولُ الأمل مع قتل الوقت وتضييع العمل مصيبةٌ كبيرةٌ ومرضٌ عضال إن أصاب الإنسان شغله عن طاعة الكبير المتعال، وفتنهُ بالدنيا، وأنساهُ الآخرة.

وفي لحظةٍ يرىٰ نفسه قد انتقل من معسكر الأحياء إلىٰ عسكر الموتىٰ بين يدي الله جلَّ وَعَلَا، ويتمنىٰ الرجعةَ والعودةَ ليعمل صالحًا؛ فيقال له: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

احذر طول الأمل، أن يحول بينك وبين طاعة الله سبحانه، وأن يمنِّيك بكلمة سوف تفعلُ وسوف تفعلُ وسوف تفعلُ!!

ولقد حذر النبيُّ ﷺ من طول الأمل، فقال لابن عمر كما في «صحيح

البخاري»(١): «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

هٰذا هو الفهم الحقيقي للأمل، ولقد قال تعالىٰ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

قال القرطبيُّ(٢):

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾؛ أي: يشغلهم الأملُ عن طاعة الله جَلَّ وَعَلَا.

فطولُ الأمل يُمنيك، وفي زيارة لي في أمريكا لفت نظري رجلٌ مسلمٌ عربيٌّ جارٌ للمسجد، ولكنه ما دخل المسجد مرة!!!

قالوا: لقد مَنَّ الله عليه بالأموال، وذكَّروه بالله فما تذكَّر!!! حذَّروه من النار فما خاف النار!!! ذكروه بكلام النبي المختار فما تحرك قلبه!!! ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فذهبتُ إلىٰ هٰذا الرجلِ ورأيته يبيعُ الخمرَ في محلِّه، ويبيعُ لحمَ الخنزير؛ فقلت له: يا أخي اتق الله ألست مسلمًا؟ المسجد إلىٰ جوارك ما خطوت إليه خُطْوةً، وذكَّرتُ هٰذا المسكين بكلام الله تعالىٰ وبحديث النبي ﷺ.

قال: يا شيخ أَعِدُك إن عُدْتُ إلىٰ بلدي بعدما أُحَصِّل من المال ما أريد أن أبني لله مسجدًا وأن أعكف فيه ولن أفارقه!!!

قلتُ له: أعطني هٰذه الفرصة لأوقع لك هٰذا العقد بهٰذه الصورة بينك وبين ملك الموت!!!

هل ضمنت يا مسكين أن تعود إلىٰ بلدك؟!!

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» (٦٤١٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٦٧).

قال: أُشهدُ الله ثم أشهدك أنني إذا أُصبتُ بحالةِ إعياءٍ وحالةِ صداع أضعُ ورقة الدولار من فئة المائة علىٰ رأسي فيطير الصداعُ والألمُ في الحال.

قلت: أنت عبدٌ للدولار، وأنت عبد للدرهم والدينار؛ كما قال النبيُّ المختار ﷺ: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، وَعَبْدُ الدِّرْهَم، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ؛ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ»**[1].

فالتسويف وطول الأمل من أخطر العوائق التي تحول بيننا وبين استفادتنا من أوقاتنا.

فوظف وقتك - أيها الحبيبُ - ولا تسوف؛ فسوف هٰذه قتَّالة؛ فالموت نراه كلَّ ساعة، ونودعُ كل يوم أحبابًا لنا، ونودع آخرين لا نعرفهم.. الموت لا يفرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين كبير وصغير، ولا بين أمير ووزير، ولا بين غني وفقير.. لقد مات سيدُ المرسلين، وإمامُ النبيين، وسيدُ الخلق أجمعين ﷺ، وقال له ربُّه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

أيا عبد كم يراك اللهُ عاصيًا ... حريصًا علىٰ الدنيا وللموت ناسيًا
أنسيت لقاء الله واللحد والثرىٰ ... ويومًا عبوسًا تشيبُ فيه النواصيا
إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقىٰ ... تجرد عريانًا ولو كان كاسيًا
ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها ... لكان رسول الله حيًّا وباقيًا
ولكنها تفنىٰ ويفنىٰ نعيمها ... وتبقىٰ الذنوب والمعاصي كما هي

- **العائق الثالث: الفراغ.**

وآهٍ من الفراغ علىٰ شبابنا وأخواتنا!! آهٍ من الفراغ وخطره!!

والفراغ نعمة من أجل النعم ونحن لا ندري!! كما في **«صحيح البخاري»** من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: **«نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛**

(١) أخرجه البخاريُّ،كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧).

الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»(١).

قال الحافظُ ابن حجر(٢):

«قال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسلُ عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعةُ الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقمُ، ولو لم يكن إلا الهرم؛ كما قيل:

يَسُرُّ الفتىٰ طول السلامة والبقا فكيف ترىٰ طول السلامة يفعل

يرد الفتىٰ بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل

والفراغ أنواع: الفراغُ القلبي، والفراغ النفسي، والفراغ العقلي.

الفراغ القلبي:

أن يفرغ القلب من الإيمان!! وهو أخطر أنواع الفراغ علىٰ الإطلاق. إذا فرغ القلبُ من الإيمان؛ فصاحبُ هٰذا القلب ميتٌ وإن تحرك بين الأحياء، فالقلب وعاءُ الإيمان؛ كما قال المصطفىٰ ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلاَ وَهِيَ: الْقَلْبُ»(٣).

فالقلب هو الملكُ والأعضاء جنودُهُ ورعاياهُ، فإن طاب الملكُ طاب الجنودُ والرعايا، وإن خبث الملكُ خبثت الجنودُ والرعايا؛ فإن عُمِّرَ القلبُ بالإيمان ما شعر الإنسانُ أبدًا بالفراغ؛ لأنه في كل لحظة سيتلذذ بالأنس بالله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة (٦٤١٢).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، وفي البيوع، باب الحلال بيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ وبينهما مشبهات (٢٠٥١)، ومسلمٌ، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

قال بعضُ السلف: مساكين والله أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولو يتذوقوا أطعم وأحلىٰ ما فيها. قيل: ما أطعم ما فيها؟! قال: ذكرُ الله والأنس بلقائه.

وفي الحديث الذي رواه أبو نعيم، **والديلمي وصححه الألباني** من حديث عَليٍّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ إِلاَّ وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ، بَيْنَمَا الْقَمَرُ يُضِيءُ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ إِذْ تَجَلَّتْ**»(١).

فكذلك نور الإيمان في القلب إن حُجِبَ نورُ الإيمان بسحائب الظلم والذنوب والمعاصي فَتَرَ الإنسانُ عن طاعة الله.

وفراغُ القلب من الإيمان سيُعرضُ القلب لكل أنواع الفتن؛ لأن الفتن تعرضُ علىٰ القلوب؛ كما قال ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا؛ نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا؛ نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا؛ فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»(٢).

فالقلبُ وعاءُ الإيمان، ومحطُّ الفتن؛ فإذا فرغ القلبُ من الإيمان تعرَّض الإنسانُ لكلِّ فتنةٍ وتشرَّبها في قلبه.

وعلاجُ الفراغ القلبي: بزيادة الإيمان؛ إذ إن الإيمان يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بالطاعات وينقصُ بالمعاصي والزلات؛ فالفراغ يجرِّئك علىٰ ارتكاب المعاصي في أي خلوة من خلواتك.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٩٦)، وفي «معرفة الصحابة» (٤٤١١) وقال: «هٰذا حديث غريب»، والطبراني في «الأوسط» (٥٢٢٠)، وأبو عبد الله بن منده في كتاب «الروح» - كما في «شرح حديث النزول» (٩٧)، و«الفتاوي» (٥/ ٤٥٥)، وكما في «نظم الدر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (تفسير النور/ ٢٦) - والديلمي في «مسند الفردوس» (٤/ ٦٥٥٢)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٩٨): «رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه أزهر بن عبد الله، قال العقيلي: حديثه غير محفوظ عن ابن عجلان، وهٰذا الحديث يعرف من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي موقوفًا، وبقية رجاله موثقون»، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٦٨)، و«صحيح الجامع» (٥٦٨٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا (١٤٤).

يقول عبد الله بن مسعود[١] : «تفقد قلبَك في ثلاثة مواطن، عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر والعلم، وفي وقت الخلوة بينك وبين ربك، فإن لم تجد قلبك في هٰذه المواطن فابحث عن قلبك فإنه لا قلبَ لك!!».

فإن القلبَ يمرضُ والإنسانُ لا يدري، وإن القلب يموتُ والإنسانُ لا يدري!!

إن الإنسان إذا مرض قلبُهُ بمرض من الأمراض العضوية أسرعنا إلىٰ الأطباء، وهٰذه فِطْرة؛ لكن القلب قد يمرضُ بالشهوات وقد يموتُ بالمعاصي والملذات وصاحبه لا يدري علىٰ الإطلاق!!!

يقول المصطفىٰ ﷺ ؛ كما في «**الصحيحين**» من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه : «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْـمَيِّتِ**»[٢] .

فالذاكرُ لله حيٌّ وإن حبست منه الأعضاءُ، والغافلُ عن ذكر الله ميت وإن تحرك بين الأحياء!!

وخذ هٰذه الوصفة البليغة من بعض العلماء لرجل مرض قلبُهُ ذهب إليه؛ فقال: لقد ابتليتُ بمرض قلبيٍّ فصف لي دواء؟

فقال: عليك بعروق الإخلاص، وورق الصبر، وعصير التواضع، ضَعْ هٰذا كلَّه في إناء التقوىٰ، وصُبَّ عليه ماء الخشية، وأوقد عليه نار الحزن علىٰ المعصية، وصفِّه بمصفاة المراقبة، وتناوله بكف الصدق، واشربه من كأس الاستغفار، وتمضمض بالورع، وابعد عن الحرص والطمع يذهب مرضُ قلبك بإذن الله.

أسأل الله أن يعيننا علىٰ هٰذا الدواء الناجح النافع.

والفراغ النفسي: فالفراغ النفسي خطيرٌ هو الآخر، لأن النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وإن لم تفطمها بالطاعات قادتك إلىٰ المعاصي والزلات.

والنفسُ أمَّارة بالسوء؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (١٥٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٧)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٧٩).

فيا أيها الأخُ الحبيبُ ويا أيها الوالدُ الكريمُ: اعلم أن الفراغ النفسي مقتلة لشبابنا؛ فإذا فرغت نفوسُهُم قاموا إلىٰ كل معصية، وانحرفوا في كل واد وفي كل طريق ضال.

إذا لم يجد الشاب عملًا يقومُ به، ورأىٰ نفسه في فراغ انشغل بالمعاصي.. انشغل بالفتن والشهوات.. انشغل بالأفلام والمباريات والمسلسلات.. انشغل بالمجلات الخليعة الجنسية الماجنة.. وبقراءة القصص التي تُحوِّل الزُّهَّاد العباد إلىٰ فُسَّاق فجار!!!

والنفس إذا ألجمتها بلجام الطاعة انقادت؛ لأن الله جلَّ وَعَلَا قد زكَّىٰ النفس ودلَّها علىٰ الطريقين؛ فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس ٧-١٠]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

فالناس صنفان: صنفٌ قد انتصر علىٰ نفسه وقهرها وألجمها بلجام الطاعة وجعل النفسَ مطية إلىٰ رضوان الله والجنة؛ أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم. وصنف قهرته نفسُهُ، وانتصرت عليه نفسُهُ، وغلبته وقادته إلىٰ كل شر في الدنيا وإلىٰ الهلاك في الآخرة؛ أسأل الله أن يحفظنا وإياكم من نفوسنا الأمارة بالسوء؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

والفراغ العقلي: حياتُه دمار، وآخرته بوار، بدليل تصايح أهل النار، وهم في النار بين يدي الواحد القهار يتصايحون أنهم كانوا يحملون عقولًا لا يعقلون بها.

قال الله ـ جلَّ وَعَلَا ـ عن النار: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١٠].

فيا أيها الأخ الحبيب: لقد آتانا اللهُ عقولًا هي من أعظم نعم الله علينا.. وحينما ذهبنا لزيارة إخواننا وأخواتنا في مستشفىٰ الأمراض العقلية، ودخلنا عنبرًا للنساء، ورأينا النساء بين أيدينا، وقد أعطاهن اللهُ كمال الخلق!! وفجأةً اقتربَت منَّا فتاةٌ في الثانية والعشرين من عمرها، ثم بعد ذلك رأينا هٰذه الفتاة قد أخذت جانبًا في العنبر، وتجردت من كل ثيابها كما ولدتها أمُّها، فخرجنا وقلت لإخواني يومها: أُشهدُ الله ثم أشهدكم أنني ما عرفت قدر نعمة العقل إلا في هٰذه اللحظة!!

- **العائق الرابع: الفتن:**

والفتن بين أيدينا كثيرة، وهي بالجملة تنقسم إلىٰ قسمين: فتن الشهوات، وفتن الشبهات.

ولا عونَ لك لتستفيدَ من وقتك وسط هٰذه الفتن إلا إذا استعنت بالله جَلَّ وَعَلَا، وحرصت علىٰ مجالس الخير والعلم.

أسأل اللهَ أن يحفظني وإيَّاكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه.

ثالثًا: كيف يطول عمرُك؟!

فالإنسانُ مفطور علىٰ حب الحياة، ويرجو أن لو طال عمره؛ بل ويتمنىٰ الخلودَ إن استطاع.

ولكن الموتَ يختطفُ الشابَ في ريعان شبابه!!

ويختطفُ الفتىٰ المدللَ الوحيدَ من بين أهله!!

ويختطفُ العروسَ ليلةَ عرسها!!

ويختطفُ الحاكمَ القوي الموهوبَ من بين حرسه وجنوده!!

فالأيام محسوبةٌ، والآجال معدودة، وما دام الموت هو نهاية الحياة؛ فإن العمر حينئذٍ قصير.

فالأيام تمرُّ، والأشهر تجري، والسنين تولي، والعمر ينقضي!!

فما دام الموتُ هو آخر المطاف؛ فالعمر إذن قصير، ولم يستطع العلم الحديث بل ولن يستطيع أن يَرُدَّ الشيخوخة إلىٰ شباب، أو أن يَحُول بين الإنسان وبين الموت.

ومع ذلك قد يستطيع الإنسان أن يطيل عمره!! كيف؟!

اعلم أن العمر الحقيقي للإنسان لا يقاس ولا يحسب بسنواته التي قضاها من يوم ولادته إلىٰ يوم وفاته، وإنما العمر الحقيقي للإنسان يوزن ويقاس بقدر ما قدَّم الإنسان في سنوات عمره من عظائم الأمور، وجلائل الأعمال الخيرات الصالحات الطيبات؛ فعمرك الحقيقي يوزن بتقواك وأعمالك الخيرة الصالحة.

وإلا فكم من عمر طالت آماده، وقلَّت خيراته وأمداده!!



وكم من عمر قلّت آماده، وكثرت خيراتُهُ وعظمت أمدادُه!!

لقد عاش نبيُّ الله نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عامًا في الدعوة إلىٰ الله، وقدَّر الله ـ جلَّ وَعَلَا ـ ألا يؤمن معه إلا قليل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

أما لو نظرت إلىٰ عمر المصطفىٰ محمد ﷺ، كم عاش؟ وكم عدد سنوات دعوته؟ عاش ثلاثة وعشرين عامًا في الدعوة فقط، ومع ذلك قدَّر الله له في هٰذا العمر القليل أن يقيم للإسلام دولة من فتات متناثر، فإذا هي بناء شامخ لا يطاوله بناء، واستطاع أن يرد الناس في صحراء تموج بالكفر موجًا إلىٰ الله العلي الأعلي جلَّ وَعَلَا؛ فهٰذه هي بركة عمر النبيِّ ﷺ؛ فكلُّ هٰذه الأعداد من هٰذه الأمة الميمونة ستأتي في ميزانه يوم القيامة.

وهٰذا هو صديق الأمة الأكبر في مدة ولايته التي لا تزيد علىٰ سنتين ونصف حَوَّلَ المحنَ التي أصابت الأمة إلىٰ منح.

في سنتين ونصف قضىٰ علىٰ فتنة الردة!!

في سنتين ونصف أنفذ بعثَ أسامة!!

في سنتين ونصف جمعَ القرآن الكريم وَرَدَّ الأمة إلىٰ منهج النبي الكريم ﷺ!!

وهٰذا هو فاروق الأمة عمر في عشر سنوات وستة أشهر هٰذه المدة القليلة التي لا تساوي أيَّ شيء في حساب الزمن يقدم عمر لدنيا الناس كافة قدوة لا تبلىٰ؛ بل ولن تبلىٰ؛ إنها قدوةٌ تتمثلُ في حاكم بركت الدنيا كلها علىٰ عتبة داره وهي مثقلة بالغنائم والأموال والكنوز والطيبات، فقام عمر ليسرحها سراحًا جميلًا.

إنه عمر الذي أرهب الملوك والحكام، وتحت قدميه جاءت مفاتيح أعظم الإمبراطوريات؛ إمبراطورية فارس، وإمبراطورية الروم، لقد جاءت إليه كنوز كسرىٰ وقيصر، فقام ﷺ لينثرها على الأمة، وليدرأ عن الناس فتنها، وقام ليستأنف سيره ومسراه مع ربه ومولاه في عبادته وتقواه. وانتصر الإسلامُ في عهدعمر شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، ورفرفت راية الإسلام على فرنسا، وعلى روسيا، في عشر سنوات وستة أشهر، إنها بركة الأعمار، إنها الأعمار الطويلة المزكاة المباركة من الله – جَلَّ وَعَلا –.

وهذا معاذ بن جبل شاب من شباب الأمة، أسلم في الثامنة عشرة من عمره،

وتوفي في الرابعة والثلاثين من عمره [(١)].

في هذه السنوات القليلة في عشر سنوات أو يزيد قليلًا استطاع معاذ أن يُسطِّر على جبين الزمان وعلى صفحات التاريخ والأيام هذا المجد، وهذه العظمة. وهذا الخلود؛ حتى قال له المصطفى ﷺ يومًا: «**يَا مُعَاذُ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»[(٢)].

وهذا هو عمر بن عبد العزيز شابٌّ في ريعان الشباب، في ولايةٍ استمرت سنتين ونصف، استطاع أن يضع يده على الداء الذي استشرى في أمة النبي محمد ﷺ، ونجح في أن يستلَّ جرثومته بيدٍ بيضاءَ نقيةٍ، وأن يعيد البشريةَ عودًا حميدًا، وكأنها تعيشُ في زمن الوحي، حتىٰ خرج المنادي يقول: «من كان عليه دينٌ؛ فسداد دينه من بيت مال المسلمين».

وهٰذا الشبلُ من ذاك الأسد.. سدَّ عمرُ بن عبد العزيز الديون، وبقيت البركةُ باركة في بيت المال، فخرج المنادي يقول: «من أراد من شباب المسلمين أن يتزوج فزواجه من بيت مال المسلمين»، فزوَّج الشباب، وبقيت البركةُ باركةً في بيت المال.

فخرج المنادي للمرة الثالثة وهي أعجب؛ ليقول: «أيها الناس من أراد حج بيت الله، وهو لا يستطيع فحج بيت الله علىٰ نفقة بيت مال المسلمين»، وخرج من أراد الحج، وبقيت البركةُ باركةً في بيت المال.

في مائة سنة فعل هٰذا؟! في ألف سنة؟! لا والله في سنتين ونصف. ألم أقل لكم بأن العمرَ يطول بجلائل الأعمال، وعظائم البطولات.. هٰذا هو عمرك الحقيقيُّ؛ فبادر أيها المسلم: أطل عمركَ بعمل الخيرات وعمل الطاعات؛ كما قال المصطفىٰ ﷺ في الحديث الذي رواه الحاكم في «**مستدركه**»، والبيهقي في «**الشعب**» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ،**

---

(١) كما في «الإصابة» لابن حجر (٦/ ١١٦).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب الاستغفار (١٥٢٢)، والنسائي، كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٣)، وأحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (-موارد- ٢٣٤٥)، والحاكم (١/ ٢٧٣)، وصححه علىٰ شرطهما، ووافقه الذهبي، وصححه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شَغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»(١).

اغتنم هٰذه الغنائمَ، ولا تضيع عمركَ، ولا تضيع ساعات وقتك؛ فإن العمر يولي وغدًا سترىٰ نفسك بين يدي الله.

وأخيرًا: أوجه رسالةً إلىٰ القتلة؛ بل إلىٰ شر القتلة.. إلىٰ من يقتلون الوقت قتلًا.. إلىٰ من يدمرون العمر تدميرًا.. إلىٰ من يضيعون الحياة تضييعًا! فأقول:

يا من تضيع الوقتَ: أنت تضيع عمرك، وتضيع حياتك، وتنتحر انتحارًا بطيئًا وأنت لا تدري؛ بل ولا يذكِّرك أحدٌ بهٰذه الجريمة الشنعاء التي ترتكبها في حق نفسك.

فيأيها القاتلُ لوقتك؛ بل لعمرك؛ بل لحياتك!!

والله الذي لا إله غيره ستندم يوم لا ينفع الندمُ، وستأتي عليك ساعةٌ ستعرفُ فيها قدرَ الساعة.. وسيأتي عليك زمنٌ تعرف فيه قدر الزمن.. وسيأتي عليك وقتٌ تعرف فيه قدر الوقت!!

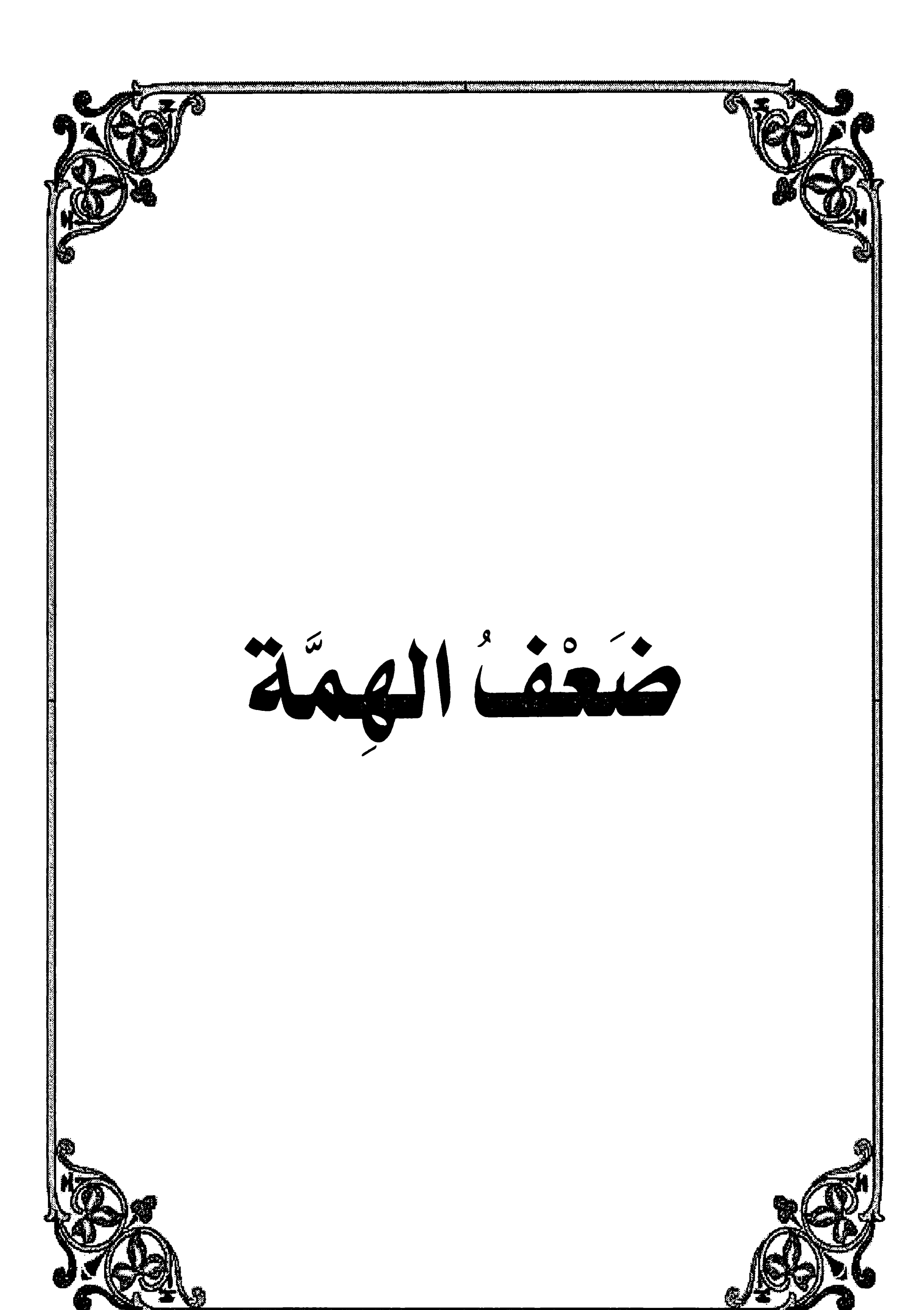
إذا نمت علىٰ فراش الموت ستتمنىٰ أن تعود إلىٰ الدنيا ساعةً واحدةً لتعمل فيها صالحًا لله جلَّ وَعَلَا.

فيا أيها الحبيبُ الكريمُ اعرف قدرَ وقتك، وشرف زمانك، وحقيقة عمرك، وحقيقة ساعات أيامك.. البدار.. البدار.. قبل فوات الأعمار؛ نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين، وأن يعيننا جميعًا على العمل الصالح، واغتنام الأوقات بالطاعات والقربات؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

*****

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٤١)، وصححه علىٰ شرطهما، ووافقه الذهبي، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١١١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٤٨)، وأخرجه وكيع في «الزهد» (٥)، وابن المبارك في «الزهد» (٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ١٢٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٢٩)، والبيهقي في «الآداب» (٨٠٩) وفي «الشعب» (١٠٢٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٤٨) عن عمرو بن ميمون عن النبي ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٧٧)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٥٥).





ضَعْفُ الهِمَّة

ضعف الهمة

حديثُنا في هذا الفَصْل مع مَرَضٍ خطيرٍ من أمراض الأمة أقعدها عن التقدُّم والرُّقي، وأقعدها كذلك عن قيادة الأمم من منطلق الرسالة التي شرفها الله - جلَّ وَعَلَا- بحملها، وحَمَّلَها إياها نبيُّها وحبيبُها ﷺ؛ حقًّا إنه مرضٌ مؤلمٌ؛ لأن ثماره مريرة تظهر في واقع نحياه الآن؛ إنه «**ضعف الهمة**».

وأودُّ في البداية أن أؤصِّل لك هذه الكلمة الكبيرة؛ ألا وهي «الهمة» تأصيلًا لغويًّا لتقف معي على معناها ومدلولها:

فالهمة في اللغة؛ مثل الهمِّ، وكلاهما اسمٌ للشيء الذي هممت به وأردته، يقولون في لغة العرب: هممتُ بالشيء همًّا إذا هممتُ على فعله وأردت فعله، همَّ بفعلِ الشيء يهم همًّا: إذا نواه وعزم عليه وأراده[(١)].

واصطلاحًا: **قال الجُرْجَاني**[(٢)]: «الهمة: تَوجُّهُ القلبِ وقصْدُه بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيره».

وقال الكفويُّ[(٣)]: «الهَمُّ: دواعي الإنسان إلى الفعل من خيرٍ وشرٍّ.. وهو اجتماع النفس على الأمر والإزماع[(٤)] عليه».

وقد أمر اللهُ عباده المؤمنين بالهمة العالية، والمسابقة إلى الخيرات، والتنافس في الطاعات؛ فقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]، ومدح المؤمنين بأنهم ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ١٣)، و«لسان العرب» (١٥/ ١٣٧).

(٢) «التعريفات» (٢٧٤).

(٣) «الكليات» (٩٦٠، ٩٦١)، و «النهاية» (٢/ ٩١٣).

(٤) أي: العزم. («الفروق اللغوية» ص: ٣٥٦).

لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وفي «المعجم الكبير» للطبراني، و «الأسماء والصفات» للبيهقي[(١)] من حديث الحسين بن علي رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا».

وفي «صحيح» مسلم[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بالله وَلَا تَعْجَزْ».

وفي «الصحيحين»[(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ».

والهمَّة لا يمكن على الإطلاق أن تكون عاليةً، تتعلق بمعالي الأمور وأشرافها، ومكارم الأخلاق،وعظائم الأعمال في الدين والدنيا، إلا بإرادةٍ قَوِيَّةٍ، وعزيمةٍ صادقةٍ؛ قال العلامة ابنُ القيم رحمه الله[(٤)]:

«وأما سعادةُ العلم؛ فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع، وصدق الطلب، وصحة النية، وقد أحسن القائل في ذلك:

فَقُـلْ لِـمُرْجِي مَعَـالي الأمـور ... بِغَيرِ اجْتِهَادٍ: رَجَوْتَ الـمُحَالَا

وقال الآخر:

لَوْلَا المَشَـقَّة سَـادَ النـاس كُلُّهـم ... الجُـودُ يفقـرُ والإقْـدَام قَتَّـالُ

(١) أخرجه الطبرانيُّ (٢٨٩٤)، والبيهقيُّ في «الأسماء» (ص: ٥٣)، وهو في «الصحيحة» (برقم: ١٦٢٧)، وله شواهدُ صحَّحَه بها الشيخ هناك.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان (٦١٥)، ومسلمٌ، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها (٤٣٧).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٠٨، ١٠٩).

وَمَنْ طمحَتْ همتُهُ إلى الأمور العالية فواجب عليه أن يشدَّ على محبة الطرق الدينية وهي السعادة وإن كانت في ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذي، وأنها متى أكرهت النفس عليها، وسيقت طائعةً وكارهةً إليها، وصبرت على لأوائها وشدتها أفضت منها إلى رياض مؤنقة، ومقاعد صدقٍ، ومقامٍ كريمٍ تجد كل لذة دونها لعب الصبي بالعصفور بالنسبة إلى لذات الملوكِ؛ فحينئذٍ حالُ صاحبِها كما قيل:

وكُنْت أَرَى أنْ قَدْ تَنَاهَى بي الهوَى إلى غَايَـةٍ مَـا بعـدهَا لي مَـذْهب

فَلَـما تَلاقَيْنَـا وعَاينـت حُسْـنها تيقنـت أني إنـما كنـت ألعـب

فالمكارم منوطةٌ بالمكاره، والسعادةُ لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة؛ فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد؛ قال مسلمٌ في «صحيحه»: قال يحيى بن أبي كثير: «لا يُنَال العِلْم بِراحَة الجِسْم»، وقد قيل: «مَنْ طَلَب الرَّاحة ترك الراحة».

فيـا وصْـل الحَبِيـب أمـا إليـه بغـير مشَـقّة أبـدًا طريـق

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّت بحجاب من المكاره، وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختصَّ اللهُ لها من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم». انتهى.

وللأسف الشديد تعلقت الأمةُ الآن بسفاسف الأمور، وبكثير من اللهو والهزل؛ بل والذي يدمي القلب أن الأمة حولت هذا الهزل إلى جدٍّ، وحولت سفاسف الأمور إلى معالي الأمور، وجعلت لهذه السفاسف احتفالات كبيرةً، ومهرجاناتٍ ضخمةً يُرَوِّج لها الإعلامُ على أنها فتحٌ جديدٌ على الأمة، أو نصرٌ من الانتصارات التي حُرِمَت منها الأمةُ منذ أمدٍ بعيدٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ألا فلنعلم أن الهمةَ العاليةَ رزقٌ من الله تعالى وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]؛ لكن ما من شيءٍ إلا وجعل الله - جلَّ وَعَلَا - له أسبابًا في الدنيا؛ بل وفي الآخرة.

ولا شك أن الطريقَ إلى الله تعالى يقطع بالهمم والقلوب لا بالأبدان؛ **قال ابن القيم**

رحمه الله[(١)]: «اعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله تعالى بقلبه وهمته لا ببدنه»؛ فالتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح؛ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢]، وقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧]، وقال ﷺ وهو يُشِير بيدِهِ إلى صَدْرِه ثلاثَ مرات: «**التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا**»[(٢)].

ولا شكَّ ولا ريبَ أن القلوب جَوَّالة؛ إما أن تجول حول السماء، وإما أن تجول حول الخلاء؛ إما أن تكون الهمةُ في كنف السماء تتعلق بالأمور الكبيرة، وبالقيم العظيمة، وبالأخلاق الكريمة، وبعظائم الأمور في الدين والدنيا والآخرة، وإما أن تكون الهممُ حقيرةً لا وزن لها ولا قيمة؛ لأنها هممٌ دنيئةٌ، تتعلق بشهواتٍ حقيرةٍ، ونزواتٍ رخيصةٍ، ومتاعٍ رخيصٍ زائلٍ؛ فمن يعيشُ لنفسه قد يعيشُ مستريحًا، وربما يعيش سعيدًا من وجهة نظره؛ لكنه يعيش فقيرًا ويموت فقيرًا حقيرًا، لن يُذْكر بعد الموت، لا وزن له ولا قيمةَ ولا كرامةَ في ميزان الرجال، وفي ميزان التقوى عند الكبير المتعال؛ فلا شكَّ أن صنفًا من الناس يحمل همَّ الدين، وهمَّ الأمة، وهمَّ الدَّعوة، وأن صنفًا آخر يحمل همَّ الطين، وهمَّ الشهوات، وهَمَّ النزوات!!

وكلَّما كان القلبُ أتمَّ حياةً كانت همته أعلى، وإرادته أقوى، ومحبته لله ولرسوله وللدين وللخير أسمى؛ فإن الإرادةَ والهمةَ والمحبة تتبع الشعورَ بالمراد المحبوب؛ فإذا أحببت شيئًا وكانت همتك عالية؛ فإنك تحاولُ جاهدًا بكل سبيلٍ أن تصل لتحصِّل هذا الشيء؛ لكن إذا كان القلب ميتًا أو مريضًا كانت الهمة هي الأخرى ميتة أو ضعيفة أو مريضة؛ فضعف الطلب والإرادة والهمة من ضعف الحياة في القلوب، ولله درُّ القائل:

نهارُك يا مَغْرورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ ... ولَيْلُك نَوْمٌ والرَّدَى لكَ لازِمُ
وتَكْدَح فِيمَا سَوف تنكر غبَّه ... كَذلك في الدُّنْيا تَعيشُ البَهَائِمُ

---

(١) «الفوائد» (١٤١).
(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

تُسَرُّ بما يَفْنَى وتَفْرح بالمنُى كما غَرَّ باللَّذَات في النَّوْم حَالمُ[١]

فهناك صاحبُ همةٍ مريضةٍ ضعيفةٍ لا يعيش إلا لشهواته ونزواته! **قال ابن القيم**: «والمقصود: أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة، وحياة القلب بالذكر، والتوبة، والإنابة، وترك الذنوب؛ كما قال عبد الله بن المبارك:

رأَيْتُ الذُّنوبَ تُميتُ القُلوبَ وَقَدْ يورثُ الذُّلَّ إدْمَانها
وَتَركُ الذُّنُوب حَيَاة القُلوب وخَيْرٌ لنفْسِكَ عِصْيانُها[٢]

فإن عصيت النفسَ الأمارةَ بالسوء، ووبختها على التقصير في حق الله، ووبختها على عدم السعي لطاعة الله؛ انتقلت بها من مرتبة النفس الأمارة إلى مرتبة النفس اللَّوَّامة؛ فإذا صارت النفسُ لا تشعرُ بالأنس ولا باللذة ولا بالسعادة إلا مع الله وفي طاعة الله، وتشعر بالوحشة والضنك والضيق في المعصية؟ ارتقيت بها إلى مرتبة النفس المطمئنة. هذه هي حياة الإرادة والهمة، وأصحابها هم الأحياء؛ فالحياة الطيبة تنال بالهمة العالية، والإرادة الخالصة، والمحبة الصادقة. وبقدر ما تتعنَّى، تنال ما تتمنَّى، والنعيم لا يدرك بالنعيم، وبحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة.

ولله درُّ المتنبي إذ يقول:

عَلَى قَدْر أهْل العَزْم تَأتِي العَزَائم وتَأتي عَلَى قَدْر الكِرَام المكَارِمُ
وتَعْظَم في عَيْن الصَّغِير صِغَارُها وتَصْغُر في عَيْن العَظِيم العَظَائِمُ[٣]

وإذَا كَانَتِ النّفُوس كِبَارًا تَعِبتْ في مُرَادِهَا الأجْسَامُ[٤]

فصاحب الهمة العالية يتعب بدنه؛ فلا يعرف معنى الراحة، ولا يعرف طعم النوم؛

---

(١) «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٥/ ٦٦)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٢٩٣) لابن القيم رحمه الله.
(٢) والأبيات لابن المبارك؛ كما في «ديوانه» (ص: ٢٢)، وهي في «المدارج» (٣/ ٢٦٤)، و«زاد المعاد» (٤/ ١٨٥).
(٣) «بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم (٥٩)، وهو في «ديوان المتنبي» (ص:٢٤٤، ٢٤٥).
(٤) وهذا البيت من قول المتنبي أيضًا؛ كما في «ديوانه» (١٣١).

فكبير الهمة دومًا في عناءٍ، وهو أبدًا في نصبٍ لا ينقضي.

فأين الهمةُ في أمة الإرادة والعزيمة والهمة، وفي أمة التوحيد والإيمان؟!!

وأنا لا أبالغ إن قُلْت: إن الأمةَ الآن تقتلُ الهممَ؛ بل وتقتل أصحابَ الهمم، وتطرد المبْدعين؛ فها أنت ترى المبدعين قد هجروا الأمةَ وراحوا هنالك في الشرق أو في الغرب، ليبدعوا هنا وهناك وهنالك، وربما لا تكرم الأمة من المبدعين إلا من بلغ وتجاوز السبعين إن أبقاه الله؛ بل ربما لا تكرم الأمة هذا المبدعَ إلا بعد موته، وتقدم صورة التكريم؛ سواء أكان التكريم معنويًّا أو ماديًّا لولدٍ من أولاده، أو إن شئت فقُل: حفيدٌ من أحفاده؛ فأيُّ تكريمٍ هذا؟!

أين عُلوُّ الهمةِ في الأمة؟ شتان شتان بين أمةٍ تعيشُ لمعالي الأمور، وبين أمةٍ تتعلق بسفاسف الأمور؛ فلما كانت همتها في السماء، دمدمت على العالم القديم كلِّه بصولجانه وجبروته، وجاءت بتاج كسرى ليوضع في حجر الأسد القابع في عرينه، في حجر عمر بن الخطاب ﷺ في مُدَّةٍ لا تساوي في حساب الزَّمن شيئًا [(١)].

ولما كانت همتها في السماء، أقامت للإسلام دولةً من فتات متناثر وسط صحراء تموجُ بالكفر والجهل موجًا؛ فإذا دولة الإسلام بناءٌ شامخٌ، لا يطاوله بناءٌ؛ في مُدَّة لا تساوي في حساب الزَّمن شيئًا على الإطلاق.

ولما كانت همتها في السماء، جَسَّد هذه الهمة أحدُ خلفائها؛ فقال وهو يخاطب السحابةِ في قلب السماء: «أيتها السحابة في أي مكان شئت فأمطري، فسوف يُحْمل إليَّ خراجُك إن شاء الله».

ولما كانت همتُها في السماء، وقف أحدُ جنودها الأقوياءُ في الإيمان واليقين، المتواضعين، الضعاف البنية والشكل والمظهر، أمام رستم قائد الجيوش الكسراوية الجرارة المهيبة؛ ألا وهو ربعي بن عامر ﷺ وقال له رستم: من أنتم؟ وما الذي جاء بكم إلى أرضنا وبلادنا؟ - فقد جاءه من المدينة-؛ فيقول هذا الجندي الذي عرف الغاية

---

(١) راجع: «تاريخ الطبري» (٤/ ٤٧٢)، و«البداية والنهاية» (٧/ ٦٨، ٦٩).

فارتفعت همتُهُ وعزيمتُهُ وإرادتُهُ إلي عنان السماء: «نحن قوم ابتعثنا اللهُ لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»[١].

لكن الأمةَ الآن تأخرت، وضعفت همتها وإرادتها. وأصبح واقعها مرًّا أليمًا؛ بل أصبحت مطمعًا لكلِّ أمم الأرض؛ بل وأصبحت تنتظرُ معونةً من يدِ عدوِّها؛ فكيف تستقل إذن سياسيًّا وإعلاميًّا وتعليميًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وثقافيًّا وفكريًّا وهي لا زالت تنتظر العطاء من يَدِ الأعداء؟ وهي لازالت تريد أن تستخرج الماء العذب الزلال من النار المشتعلة المتأججة؟!!!

قال المتنبي[٢]:

ولم أرَ في عُيُوب النَّاسِ عيبًا ... كَنَقْص القَادِرين عَلى التَّمام

وقال أبو القاسم الشابي[٣]:

ومَنْ لا يحبُّ صعُود الجبَال ... يَعِش أبَدَ الدَّهْر بَين الحفر

فشتان شتان بين أمة تحملُ همَّ الدين وهمَّ الدنيا - ولا حرج على الإطلاق أن تعمر الكونَ، وتبدع في الأرض؛ امتثالًا منها لأمر ربها وأمر نبيها ﷺ - وبين أمةٍ لا تعيش إلا للهو وللعب وللضحك، وللفوازير في شهر الطاعة والعبادة!!

شتان شتان بين أمة تحمل همَّ الدين، وأمة تحمل همَّ الطين، وأمة تحمل همَّ الدِّين والطِّين!!

شتان شتان بين أمةٍ تعمل للدنيا والآخرة وبين أمةٍ تعمل للدنيا وفقط!!

شتان شتان بين أُمَّة تمتثل أمرَ الله وتمتثل أمر رسول الله ﷺ، وهي في غاية الحبِّ لله

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٤٠١)، و «البداية والنهاية» (٧/ ٤٧).
(٢) كما في «ديوانه» (١٢٧).
(٣) كما في «ديوانه» (٥٨).

والرِّضا عن الله، وبين أمةٍ تجاهلت أمر الله- جلَّ وَعَلَا- وتجاهلت أمرَ رسوله ﷺ، وابتعدت عن الغاية التي من أجلها خلقت، ولأجلها ابتعثت!!

شتان شتان بين من يجمع المال من الحلال، وينفق المالَ في الأوجه التي ترضي الكبيرَ المتعالَ، وبين من يجمع المالَ ولا يعنيه من الحلال أم من الحرام!!

شتان شتان بين مَن يحرص على أن يستمتع بامرأة جميلة حسناء في الحلال أو في الحرام سواء، وبين مَن يحرص على ذلك في حدود شرع رب الأرض والسماء!!

شتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء؛ قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾

[الإسراء:١٨:٢٢].

فانظر إلى هذه الآيات التي يبين فيها ربُّ الأرض والسماوات الفارق الكبير بين هذين الفريقين؛ فريقٍ لا يريد إلا العاجلة ولا يعنيه غير العاجلة، وفريقٍ يستثمر العاجلة أو الدنيا للآخرة، ويسعى للآخرة في العاجلة (الدنيا) وهو مؤمن؛ فنحن لا نريد أبدًا أن نؤصلَ في قلوب وعقول أبناء أمتنا الحبيبة أن تتقاعس عن الدنيا، وأن تهمل الإبداع، وأن تهمل العلم والعمل والإنتاج والعطاء، وإنما نريد أن نؤصل في القلوب أن الدنيا مزرعة للآخرة؛ لكن بكل أسف نرى الأمة الآن فشلت في الدنيا ولم تعمل للآخرة؛ فهي الآن وراء ركب الأمم ببعيد، تتأرجح في سيرها؛ بل ولا تعرف طريقها الذي يجب عليها أن تسلكه، أو أن تسير فيه، وتتسول من جميع أمم الأرض، لقد أبطلت طاقتها العلمية والعملية والعددية، والذي يدمي القلب أن الطاقة الإيمانية والروحية هي الأخرى -وهي الأهم- قد عُطِّلتْ في الأمة!

وقال الله - جلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾[الواقعة: ١٠-١٤].

قال العلامة ابنُ القيم رحمه الله[(١)]:

«السابقون في الدنيا إلي الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان».

فعلى قدر السبق هنا يكون السبقُ هناك؛ فأين ترى هذا الصنفَ الكريمَ صاحب الهمة العالية؟ قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور:٣٦-٣٨].

فهؤلاء الرجال أصحاب همة عالية، وما أحوج الأمة الآن إلى الرجال، وضَعْ في اعتبارك أنه ليس في العلم الشرعي فقط؛ بل ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب؛ سواء كان في الطب، أو في الهندسة، أو في الذرة، أو في الكيمياء، أو في الجيولوجيا، أو في الفلاحة، أو في الصناعة، أو في التجارة، وفي كلِّ مجالات الحياة؛ بل لا أقلل من قدر عامل النظافة الذي يحمل القمامة على ظهره؛ فكلٌّ له دورٌ، وله مكانٌ ومكانةٌ، فنريد أن نعلى الهمة الآن في كلِّ مَجال، وفي كلِّ ميدانٍ، وأن تكون - أيها الحبيب- خير جنديٍّ في هذا الميدان العظيم؛ ألا وهو ميدان الإسلام والدين، وأن تحمل هذا النور بقلب صادقٍ، ونيةٍ صافيةٍ، وسريرةٍ وطويةٍ طاهرةٍ، وهمةٍ عاليةٍ، وإرادةٍ ثابتةٍ، وعزيمةٍ صادقةٍ، وأن تتحرك لتشهدَ شهادةً قوليةً وقلبيةً وعمليةً وخلقيةً وسلوكيةً مبدعةً منتجةً معطاءةً في ميدانك الذي تعمل فيه لدين الله تبارك وتعالى، في وقت تحرك فيه أهلُ الكفر وأهلُ الباطل لباطلهم؛ فما انتشر الباطلُ وأهله إلا يوم أن تخلَّى عن الحقِّ أهلُه!!

فكما نحمل همومًا كثيرة لدنيانا؛ فواجبٌ ثُمَّ واجبٌ أن نقوم بدورنا تجاه ديننا، وأن نعمل للدين والدنيا معًا، وما أرق هذا الدعاء وأجمله؛ ففي «**صحيح مسلم**»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ أَصلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ**

---

(١) «حادي الأرواح» (ص:٢٤٢) (الباب السابع والعشرون).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٠).

أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْـحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْـمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ».

فيا لها من عظمةٍ وروعةٍ، ويا له من تكاملٍ وشمولٍ، ويا لها من همَّةٍ في عنان السماء؛ بل فوق السماء.

وها هو صاحب أعلى همة عرفتها الدنيا بأسرها؛ إنه أعظم رسولٍ، وأكرمُ نبيٍّ. إنه الإمام الأعظم، والقائد الأعلى، والنبي المجتبى، والرسول المصطفى ﷺ . لقد نشأ في بيئة تصنع الحجارة بأيديها، ثم تسجد لها من دون الله -جلَّ وَعَلَا-، وكان لهذه الأصنام والآلهة المكذوبة المدعاة جيوشٌ من الغضب في أرض الجزيرة التي كانت تموج بالشرك والكفر موجًا، والتي تموج بالجهالة موجًا؛ فالقوم كان ينحر بعضهم بعضًا من أجل ناقة، فما ظنك بما سيفعلونه من أجل آلهتهم التي يذبحون لها آلاف النياق؟!

ومع ذلك نشأ رسولُ الله ﷺ وحْدَه في هذه البيئة الشركيةِ الظالمةِ الجاحدةِ، بهمَّة عاليةٍ، وإرادةٍ صَادِقَةٍ، وعزيمة في عنان السماء؛ امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [١، ٢]؛ فلم يذق طعمَ الراحة حتى لقي سيده ومولاه، واستطاع رسول الله ﷺ -بعد فضل الله -جلَّ وَعَلَا- عليه، ثم بفضل الأبطال الأبرار الأطهار الأخيار من المهاجرين والأنصار، الذين نصروه، وحملوا همَّ الدين على أكتافهم- أن يقيم للإسلام دولةً من فتات متناثر، وسط صحراء تموجُ بالجهل والكفر موجًا، فإذا هي بناءٌ شامخٌ لا يطاوله بناء، في مدَّةٍ لا تساوي في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق، وانتقل المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتركَ الرايةَ في أيدي هؤلاء الصادقين أصحاب الهمم الرفيعة، الذين عاشوا في الدنيا من أجل الآخرة، وزرعوا في الدنيا ليحصدوا في الآخرة، وما غاب عنهم حديث رسولهم وأسوتهم وقدوتهم صاحب الهمة الرفيعة ﷺ ؛ ففي **«سنن» ابن ماجه**، و**«مصنف» ابن أبي شيبة بسندٍ حسنٍ**(١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٧)، وكتاب الزهد، باب الهم بالدنيا (٤١٠٦)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٢٢)، وابن أبي شيبة (٨/ ١٢٦)، وفي «مسنده» (٣٤٥)، والبزار في «مسنده» (١٦٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٠٥) وقال: «غريب»، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٥٧)، والشاشي في «مسنده» (٣٠٤)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٧٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٣٠٩)، وذكره ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٢٢)، وقال أبوه رحمه الله : «هذا =

قال رسول الله ﷺ : «مَنْ جَعَلَ الْـهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْـهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ».

وفي «سنن» الترمذي بسند صحيح لغيره[(١)] من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ».

فانطلق هذا الجيلُ الفريدُ من الصحابة الكرام من أصحاب الهمم السامقة الشامخة ليغرسوا للإسلام شجرةً في أرض مقفرة، وليضيئوا للإسلام شعلةً في كل أرض مظلمة، وليحفروا للإسلام مجرى للحياة وسط أحجارٍ صلدةٍ وصخورٍ عاتيةٍ؛ فبالعلم والعمل، وبالهمة والعزيمة والإرادة استطاع هؤلاء أن يغيروا وجه الأرض، ومجرى التاريخ، وسيظل التاريخُ يقف أمام سيرتهم وقفة إعزازٍ وإجلالٍ وإكبار؛ فها هو الصديق- رضوان الله عليه - الذي بذل كلَّ ماله؛ بل وبذل نفسه؛ بل وبذل أولاده وبناته؛ بل وسخر غنمه وراعي غنمه لدين الله- جلَّ وَعَلَا- فأيُّ هِمَّة هذه؟ بل ويجعل من جسده عباءةً أو سربالًا يود لو سربل به حبيبه المصطفى ﷺ ، في الهجرة وفي غيرها، ليفدي رسول الله ﷺ بروحه ودمه.

نعم.. لقد كان الصديقُ رضي الله عنه صاحب همةٍ عاليةٍ، وعزيمةٍ صادقةٍ؛ فخرج ليدعو مَنْ حوله إلى دين الله تبارك وتعالى؛ فلم يكن كالزهرة الصناعية التي لا تحمل من الزهور إلا اسمها؛ بل كان زهرةً حقيقيةً من خلق الله تبارك وتعالى، لا تحبس عن الناس أريجها وعطرها.

=

حديث منكر»، وذكره الدار قطني في «العلل» (٦٨٨)، وله شاهدٌ عن ابن عمر رضي الله عنهما عند الحاكم (٢/ ٤٨١) و(٤/ ٣٦٤)، والبيهقي في «الزهد» (١٦)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٦٦)، وحَسَّنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٧١)، و«صحيح الجامع» (٦١٨٩).

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة القيامة (٢٤٦٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٦٤)، وهناد في «الزهد» (٦٦٩)، ووكيع في «الزهد» (٣٥٢)، والبزار في «مسنده» (٦٧٠٤)، وصححه لغيره الألباني في «الصحيحة» (٩٤٩).

تحرَّكَ الصديقُ بهذا النور الذي ملأ اللهُ به قلبَه، فدعا إلى الله تبارك وتعالى، وعاد في اليوم التالي إلى النَّبيِّ ﷺ بخمسة من العشرة المبشرين بالجنة[(١)]؛ فأسلم على يديه عثمان ابن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، والزبير ابن العوام، وأعلنوا إسلامهم بين يدي الله تبارك وتعالى، وهكذا بدأ الناس يدخلون في دين الله تبارك وتعالى يومًا بعد يوم، وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم[(٢)] قام النبيُّ ﷺ ليربي هؤلاء الأطهارِ؛ ليزكي نفوسهم، وليهذب أخلاقهم؛ لنرى منهم بعد ذلك العجبَ العجاب؛ بل والله يزول كلُّ عجب إذا علمنا أن الذي ربى هؤلاء هو المصطفى، وكفى! رباهم تربية ستظل الدنيا تقف أمام هذا المنهج التربوي وقفة إعزاز وإجلال وإكبار، وإذا كان كل تلميذ في العادة يقتبس من أستاذه ومعلِّمه؛ فلكُم أن تتصوروا كيف يكون الاقتباسُ إذا كان المربي والمعلم هو رسول الله ﷺ ؟

وإذا كان كلُّ منْهَج في العادة يترك طابَعَه على من يتربون عليه ويتتلمذون عليه؛ فلكم أن تتصوروا كيف يكون الطابعُ الذي ترك على قلوب وعقول الصحابة رضي الله عنهم؟

وما أمر رسول الله ﷺ يومًا بشيءٍ إلا وكان الصديقُ أسبق أصحاب الرسول ﷺ ، إلى فعل هذا الشيء؛ كما في «**صحيح مسلم**»[(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟**». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : أَنَا. قَالَ: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : أَنَا. قَالَ: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : أَنَا. قَالَ: «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

---

(١) «السيرة» لابن إسحاق؛ كما في سيرة ابن هشام (١/ ١٥٦)، و «مختصر سيرة الرسول ﷺ » للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص:١١٣، ١١٤)، و«زاد المعاد» (٣/ ١٩)، و«الثقات» لابن حبان (١/ ٥٣)، و «جزء في حديث خيثمة»، باب إسلام أبي بكر الصديق (ص:١٢٥).

(٢) كما في عامة كتب أهل السير وغيرهم، وانظر: «الإصابة» لابن حجر (ترجمة الأرقم بن أبي الأرقم) (١/ ٤١، ٤٢)، و«سبل الهدي والرشاد» للصالحي (٢/ ٣١٩، ٣٢٠).
وهناك أحاديث في أسانيدها مقال شديد؛ فراجع: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ٤٤، ٤٥)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٤/ ٢٩، ٣٠)، و «أخبار مكة» للفاكهي (٢٢٤١)، و«مستدرك الحاكم» (٣/ ٥٧٤)، و«الضعيفة» (٣٠٦٢).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (١٠٢٨).

«مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

لم يقل أبو بكر ﷺ: أنا صاحب رسول الله ﷺ - وهو كذلك - واعتمد وتواكل على هذه المنقبة!!! كلا؛ بل بذلٌ وعطاءٌ في كل ميدان.

وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللهِ، دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ -يَعْنِي الْجَنَّةَ -: يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ وَبَابِ الرَّيَّانِ**»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا عَلَى هَذَا الَّذِي يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، وَقَالَ: هَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ**».

وفي رواية **لابن حبان بسند صحيح**(٢) من حديث ابن عباس ﷺ قال: هَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ هو يَا أَبَا بَكْرٍ**».

وفي «**سنن**» **أبي داود والترمذي**(٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ يقول: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**». قُلْتُ: مِثْلَهُ. قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**». قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا.

ويحلو لي أن أقول – دومًا – هذه الكلمات(٤): هذا هو أبو بكر الصديق الذي عاين

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين (١٨٩٧)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (١٠٢٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٨٦٧)، والطبراني في «الكبير» (١١١٦٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٦): «رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» ورجاله رجال الصحيح، غير أحمد بن أبي بكر السالمي، وهو ثقة».

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة (١٦٧٨)، والترمذيُّ، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر ﷺ كليهما (٣٦٧٥)، وحسَّن إسناده الألبانيُّ في «المشكاة» (٦٠٢١).

(٤) وهي لابن القيم ﷺ (بتصرفٍ من كتابه «الفوائد» ص:٧٢).

طائر الفاقة، يحوم حول حَبِّ الإيثار، فألقى له الصديق حَبَّ الحُبِّ على روض الرضا، واستلقى الصديق على فراش الفقر آمنًا مطمئنًا، فرفع الطائر الحَبَّ إلى حوصلة المضاعفة، وتركه هنالك، ثم علا على أفنان[1] شجرة الصدق ليغرد للصديق بأعلى وأغلى فنون المدح وهو يتلو في حقه قول ربه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١]، والأتقى هو أبو بكر الصديق ﷺ.

وها هو عمر بن الخطاب ﷺ يقول يومًا لأصحابه: تمنوا؛ فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدارَ مملوءةٌ ذهبًا أنفقه في سبيل الله وأتصدق، وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءةٌ زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين: فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءةٌ رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان[2].

ولعل أكثر الأمة لا تعلم شيئًا عن سالم مولى أبي حذيفة؛ أحد السابقين الأولين، ومن أعظم فضائله الظاهرة؛ ما أخرجه البخاريُّ[3] من حديث ابن عمر ﷺ قال: «لَـمَّا قَدِمَ الْـمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ الْعُصْبَةَ - مَوْضِعٌ بِقُبَاءٍ - قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ كَانَ يَؤُمُّهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا».

فانظر كيف قَدَّم ركب الصحابة من المهاجرين الأولين السابقين سالـمًا ﷺ لإمامتهم؟!

أما معاذٌ؛ فهو جبلُ العلماء، القانتُ المطيع، ففي «**الصحيحين**»[4] من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**اسْتَقْرِئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ**

---

(١) أي: أغصان.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٠٢) من طريق: زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر به.
وفي إسناده أبو صخر حميد بن زياد بن أبي المخارق؛ قال الحافظ في «التقريب»: «صدوق يهم».

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب إضافة العبد والمولى (٦٩٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب معاذ ﷺ (٣٨٠٦)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ﷺ (٢٤٦٤).

عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ؛ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ».

وحذيفةُ صاحبُ سِرِّ رسول الله ﷺ[١].

فمن أبو عبيدة؟ هو أمين هذه الأمة[٢]، ويا لها من منقبةٍ وكرامةٍ؛ فعمر الذي يعرف أقدارَ الرجال، ويعرف موازين الرجال، ويعلم يقينًا أن الأمة لن تُرْفع إلا بأمثال هؤلاء الرجال. آهٍ لو عرفت الأمة أقدار الرجال.. آه لو قدمت الأمة الأكفاء في كل ميدان وفي كل مجال!

وها هو ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لَـمَّا تُوفِّي رَسُولُ الله ﷺ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا فُلَانُ هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النبيِّ ﷺ فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ. فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! أَتَرَى النَّاسَ يحتاجونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مَنْ ترى؟ قَالَ: فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى المسْأَلَة، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ، فَآتِيه وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ فتَسْفِي عَلَيَّ الرِّيَاحُ مِنَ التُّرَابِ، فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ الله، مَا جَاءَ بِكَ، أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ، فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ، فَبقي الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي، وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلِي يَسْأَلُونِي، قَالَ: هَذَا الْفَتَى كَانَ أَعْقَلَ مِنِّي[٣].

إن صاحبَ الهمَّة العالية يندمُ إذا فاتته طاعةٌ لم يفعلها؛ فهو يتحسَّرُ دومًا على كل ساعة مرت به دون أن يعمرها بذكر الله وطاعته ورضاه؛ خلافًا لخسيس الهمة التي يتحسَّر لفراق شهواته الرخيصة، ونزواته الحقيرة.

لقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يصلي على الجنازة ثم ينصرف دون أن يشهد دفنها،

---

(١) كما عند البخاري، كتاب الاستئذان، باب من ألقي له وسادة (٦٢٧٨).

(٢) كما عند البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه (٣٧٤٤)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه (٢٤١٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارميُّ (١/ ١٤١، ١٤٢)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٩٢٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٧٥)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٠٥٩٢، ٤٧٤٦)، والحاكم (٣/ ٤٢٣) وصححه، وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٤٥): «رجاله رجال الصحيح غير رزين الرماني، وهو ثقة».

ولكنه لما بلغه حديثُ النبيِّ ﷺ في ذلك ندم ندمًا شديدًا؛ ففي «**الصحيحين**»(١) - واللفظ لمسلم - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ**». قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ؟ قَالَ: «**مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ**». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما، يُصَلِّي عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَلَمَّا بَلَغَهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَقَدْ ضَيَّعْنَا قَرَارِيطَ كَثِيرَةً.

وفي رواية أخري لمسلم(٢): فَأَرْسَلَ ابْنُ عُمَرَ خَبَّابًا إِلَى عَائِشَةَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فَيُخْبِرُهُ مَا قَالَتْ. وَأَخَذَ ابْنُ عُمَرَ قَبْضَةً مِنْ حَصَى الْمَسْجِدِ يُقَلِّبُهَا فِي يَدِهِ، حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ؛ فَقَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: صَدَقَ أَبُو هُرَيْرَةَ، فَضَرَبَ ابْنُ عُمَرَ بِالْحَصَى الَّذِي كَانَ فِي يَدِهِ الْأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ فَرَّطْنَا فِي قَرَارِيطَ كَثِيرَةٍ.

وفي «**صحيح مسلم**»(٣) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه، يقول: كُنْتُ أبيتُ مَعَ رَسول الله ﷺ، فَأَتَيتُه بوضوئِه وحَاجَته؛ فقَالَ لي ﷺ: «**سَلْ**»، فَقلْتُ: أسألك مُرافقتَك في الجنَّة، قال ﷺ: «**أَوَغَيْرَ ذَلِكَ**». قلت: هو ذاك، قال ﷺ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»؛ فأرشده إلى العمل والاجتهاد في العبادة؛ فلابد أن تجتهد حتى تصل إلى هذه الدرجة؛ قال سبحانه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩]؛ أي: اقترب من الله - جلَّ وَعَلَا - بالطاعة والعمل والعبادة والخير، بخيري الدين والدنيا معًا.

ويُحكى أن عبد الله بن عمر اجتمع يومًا في الكعبة هو وعبد الله بن الزبير، ومصعب ابن الزبير، وعبد الملك بن مروان؛ فقال لهم مصعب بن الزبير: تمنوا فنحن في بيت الله - جلَّ وَعَلَا - فقالوا: ابدأ أنت يا مصعب؛ فقال مصعب: أنا أتمنى ولايةَ العراق، وأن أتزوج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله، فنال ما تمنى، قالوا: وأنت يا عبدالملك؟ فقال عبد الملك بن مروان: أنا أتمنى الخلافة، فنال ما تمنى، فقالوا: وأنت يا عبد الله؟ فقال عبد الله بن الزبير: أنا أتمني ولاية الحجاز وأن يُسَلَّم علي بالخلافةِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب من انتظر حتى تدفن (١٣٢٥)، ومسلمٌ، كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها (٩٤٥/ ٥٢).
(٢) (برقم: ٩٤٥ / ٥٦).
(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٩).

فقالوا: وأنت يا ابن عمر؟ فقال ابن عمر: فأما أنا فأتمنى الجنة [١].

وقيل لعمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة: زهدت في الدنيا؛ فقال: «إن لي نفسًا تواقة تاقت إلى أعَظم مناصب الدنيا؛ فلما نالت تاقت إلى مناصب الآخرة»[٢]، وفي رواية: «وإني لما أعطيت الخلافة تاقت نفسي إلى ما هو أعلى منها وهي الجنة».[٣]

وقال الغزاليُّ رحمه الله [٤]:

«ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يُستخلف تشترى له الحلةَ بألف دينارٍ، فيقول: ما أجودها لولا خشونةٌ فيها، فلما استُخلف كان يُشترى له الثوب بخمسة دراهم، فيقول: ما أجوده لولا لينه، فقيل له: أين لباسك، ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن لي نفسًا ذواقة، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافةَ وهي أرفع الطباق تاقت إلي ما عند الله عز وجل».

وفي رواية[٥]: «إن لي نفسًا تواقة تاقت إلى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها، وتاقت إلى الإمارة فوليتها، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها، وقد تاقت إلى الجنة، فأرجو أن أدركها إن شاء الله».

أحـــزانُ قَلْبـــي لاَ تَـــزُول   حَتَّـــى أُبَـــشَّر بـــالقَبُول

---

(١) أخرجه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (٩٣)، والفاكهيُّ في «أخبار مكة» (١٥٥)، وابن أبي الدنيا في «مجابو الدعوة» (٨٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ١٧١) و(٤٠/ ٢٦٧)، والمعافي ابن زكريا في «الجليس الصالح» (ص:١٦٥) عن الشعبي قال: فذكره، وفي إسناده إسماعيل بن أبان «كذاب»؛ كما قال شيخ الإسلام رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ورواه من طريقٍ آخر أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٩) بإسناد خير من الأول؛ كما بين ابن تيمية رحمه الله.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٤٠١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٠٨، ٢٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣١)، وراجع: «تهذيب الكمال» (٢١/ ٤٤٥)، و«المدهش» (٢٢٨) لابن الجوزي، و «لطائف المعارف» لابن رجب (٢٦٨)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٣٣١)، و«فيض القدير» (٣/ ١٥٩).

(٣) «البداية والنهاية» (٩/ ١٨٤)، والرواية كذلك عند ابن سعد وأبي نعيم وابن عساكر كما سبق.

(٤) «الإحياء» (٣/ ٣٥٥).

(٥) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٠١) ترجمة رجاء بن حيوة.

وأرَى كِتَـــابي بِـــاليَمِين وتَقَـــرَّ عَيْنِـــي بالرَّسُـــول

وقيل للإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة: يا إمام متى يجد العبد طعم الراحة؟

فقال الإمام: عند أوَّلِ قدم في الجنة[١].

حتى الأطفال كانوا أصحاب همةٍ عاليةٍ حين تعلموا في هذه البيوت المباركةِ معنى الهمة، وحقيقة الانتماء لهذا الدين؛ ففي «**الصحيحين**»[٢] من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَإِذَا أَنَا بين غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمَّاه! هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ الله ﷺ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، وَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ؛ فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: «**أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟**». قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ؛ فَقَالَ: «**هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟**» قَالَا: لَا فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ؛ فَقَالَ: «**كِلَاكُمَا قَتَلَهُ**».

فالأطفال كذلك يحملون همَّ هذا الدين، وأنا لا أنكر أن هناك الآن من أطفالنا على أرض فلسطين من يعلموننا نحن الكبار دروسًا في الهمة؛ فأنا لن أقطع الأمل قط في الله تعالى؛ بل ولن أقطع الأملَ في أمة النبيِّ ﷺ أبدًا؛ فقد تنام الأمةُ، وقد تمرض؛ لكن الأمةَ لا تموت ولن تموتَ؛ لأنها الأمةُ التي شرِّفت بحمل هذه الرسالة إلى أهل الأرض إلي أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها؛ فنحن نرى أطفالًا على أرض فلسطين يعلمون الكبارَ دروسًا في التضحية والفداء والهمة والبذل والعطاء.

مِنْ أيْن جَاءوا ولم يحملْ بهم نَبأُ ولا تَمَخَّـضَ عَـنْهم قَـطُّ مـؤتمرُ

---

(١) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١١٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمس (٣١٤١)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل (١٧٥٢).

جِيلٌ مِن الصَّخْرِ قَدْ قُدَّت مَلَامِحُه ... ومن رَمَاد الشَّظَايا أَوْرَقَ الشَّجَرُ
جيـــلٌ تَـــأَلَّق فِي آفَاقِـــه حَجَـــرُ ... أَسْتَغْفِر الله بَلْ هَزَّ الـوَرَى حَجَرُ
وَكَان مَا كَان منْ صَحْو ومنْ مَطَرٍ ... وأول الغيـــثِ قَطْـــر ثُـــمَّ يَنْهَمِـــرُ
وقَدْ رَمـوا عـدُوًّا بِأَحْجَار مُسَوَّمة ... عَـلَى رؤوسـهم أَلقَـتْ بها سـقَرُ
وَمَـا رَمَيْـتَ وَلَكِـنَّ الإِلَـهَ رَمَـى ... فَكَيْـف يُهـزَمُ مَـنْ بِـالله يَنْتَـصِرُ

بل لست مبالغًا حين أقول: حتى العُصَاة في هذه الأمةِ حملوا همَّ هذا الدين، وعلموا يقينًا حقيقةَ الانتماء لهذا الإسلام، وعلموا أن تقصيرهم ومعصيتهم وذنوبهم لم تعذرهم، ولم تمنحهم إجازةً مفتوحةً تسوغُ لهم عدمَ البذل والعمل لدين الله - جلَّ وَعَلَا-!!

فها هو أبو محجن الثقفي صاحب سعد بن أبي وقاص ﷺ كان فارسًا مغوارًا، ولكنه كان يضعفُ أمام الخمر، فكثيرًا ما كان يؤتى به شاربًا للخمر، ومع ذلك حين سمع النداء: (يا خيلَ الله اركبي) إلى القادسية بقيادة خال النبيِّ ﷺ سعد بن أبي وقاص، لم يتردد لحظةً في أن يمضي مع هؤلاء الأبطال للجهاد في سبيل الله، وهنالك في أرض الميدان ضعفت نفسُه مرةً أخرى فشرب الخمرَ، فجيء به إلى القائد أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص، وأمر بحبسه وسجنه ووضعه في قيود، وحكم عليه بالحرمان من المشاركة في المعركة؛ فالحدود لا تقام في أرض العدو - ثم بدأت المعركةُ، وسمع أبو محجن صَهِيل الخيول، ووَقْعَ السيوف والرماح فبكى، وأراد أن يشاركَ، وإليك الأثرَ بتمامه.

ففي **«مصنف عبد الرزاق»**(١) بسنده عن ابن سيرين قال:

كان أبو محجن لا يزال يجلد في الخمر، فلما أكثر عليهم سجنوه، وأوثقوه، فلما كان يوم القادسية رآهم يقتتلون، فكأنه رأى المشركين وقد أصابوا في المسلمين، فأرسل إلى أم ولد سعد أو إلى امرأة سعد يقول لها: إن أبا محجن يقول لك: إن خليت سبيله وحملتيه على هذا الفرس، ودفعت إليه سلاحًا، ليكونن أوَّلَ من يرجع إلاَّ أن يقتل. وقال أبو محجن

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩/ ٢٤٣، ٢٤٤)، وصحح سنده الحافظ في «الإصابة» (٧/ ٣٢٤)، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ١٠، ١١) من وجهٍ آخرَ من طريق: إبراهيم ابن محمد بن سعد عن أبيه قال: «أتي سعد بأبي محجن يوم القادسية.. ثم ساق الرواية.

يتمثل:

كَفَى حُزْنًا أن تلتقي الخيلُ بالقِنَا وَأُتْرَكُ مَشْدُودًا عَلَيَّ وثاقيا

إذَا شِئْتُ عنَانِي الحدِيدُ وغُلِّقَت مَصَارِيعُ مِنْ دُوني تَصُمُّ المُنَادِيا

فذهبت الأخرى؛ فقالت ذلك لامرأة سعد، فخلت عنه قيوده، وحمل بالقوم، فجعل لا يزال يحمل على رجل فيقتله، ويدقُّ صلبه، فنظر إليه سعد، فتعجب، وقال: من هذا الفارس؟ قال: فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى هزمهم اللهُ، فرجع أبو محجن وردَّ السلاح، وجعل رجليه في القيود كما كان، فجاء سعد، فقالت له امرأته - أو أم ولده: كيف كان قتالكم؟ فجعل يخبرها ويقول: لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلًا على فرس أبلق لولا أني تركت أبا محجن في القيود لظننت أنها بعض شمائل أبي محجن فقالت: والله إنه لأبو محجن، كان من أمره كذا وكذا، فقصت عليه القصةَ، قال: فدعا به وحلَّ عنه قيوده، وقال: لا نجلدك في الخمر أبدًا، قال أبو محجن: وأنا والله لا تدخل في رأسي أبدًا، إنما كنت آنف أن أدعها من أجل جلدك، قال: فلم يشربها بعد ذلك.

وما أكثر النماذجَ والأمثلةَ لأصحاب الهمة العالية لأسلافنا وسادتنا وعلمائنا؛ فهذا الإمام الشافعي رحمه الله يقول: «حفظتُ القرآن، وأنا ابن سبع سنين، وحفظتُ الموطأ، وأنا ابن عشر سنين»[(١)].

وقيل للشافعي: «كيف شهوتك للعلم؟» قال: «أسمع بالحرف مما لم أسمعه، فتودُّ أعضائي أن لها أسماعًا تتنعمُ به ما تنعمت به الأذنان»؛ فقيل له: «كيف حرصك عليه؟» قال: «حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال»؛ فقيل له: «فكيف طلبك له؟» قال: «طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره»[(٢)].

وقال الحافظ السخاويُّ: «وقع لشيخنا الحافظ ابن حجر أجلُّ مما وقع لشيخه المجد اللغوي الفيروز آبادي؛ فإنه قرأ «**صحيح البخاري**» في أربعين ساعة رملية، وقرأ

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٢/ ٦٢، ٦٣)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٤ / ٣٦٥، ٣٦٦)، وابن نقطة في «التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» (١٨).

(٢) «تذكرة السامع» (ص: ٥).



«**صحيح مسلم**» في أربعة مجالس سوى مجلس الختم في يومين وشيء، وقرأ «**سنن ابن ماجه**» في أربعة مجالس، وقرأ «**كتاب النسائي الكبير**» في عشرة مجالس، كلُّ مجلس منها نحو أربع ساعات، وقرأ «**صحيح البخاري**» في عشرة مجالس كل مجلس منها أربع ساعات». ثم قال السخاوي: «وأسرع شيءٍ وقع له - أي: لابن حجر- أنه قرأ في رحلته الشامية «**معجم الطبراني الصغير**» في مجلسٍ واحدٍ بين صلاتي الظهر والعصر، قال: «وهذا الكتاب في مجلدٍ يشتمل على نحو ألف حديث وخمسمائة حديث» [(١)].

وها هو مكحولٌ الشَّاميُّ يقول: «طفت الأرض في طلب العلم» [(٢)].

وقال أبو زرعة: «كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: ما يدريك؟ قال: ذاكرته وأخذت عليه الأبوابَ» [(٣)].

هؤلاء هم أصحاب الهمم السامقة الشامخة، وما أكثر النماذجَ في هذا الباب. ولو استطردتُ في ذكر أحوالهم ومواقفهم لاحتاج ذلك إلى مجلدٍ؛ بل إلى مجلدات، وقد استقصى عددٌ من إخواننا الفضلاء في هذا المجال بما فيه الكفاية؛ فجزاهم الله خير الجزاء.

فيا أيها المسلم ويا أيتها المسلمة نريد همًّا جديدًا، نريد بذرًا لهذا الدين؛ بل للدنيا والدين معًا، نريد عملًا للدنيا والآخرة معًا، هيا - جميعًا - لنجدد الهمةَ، ولنعلي الهمةَ، ولنجيش الطاقات الهائلة في الأمة لنعمل من جديد كما أراد ربنا وكما أراد نبينا ﷺ؛ لنسعد في الدنيا والآخرة؛ أسأل الله - جلَّ وَعَلَا - أن يعلي هممنا، وأن يطهر قلوبنا، وأن يرزقنا إرادةً صادقةً، وعزيمةً خالصةً، وأن يردنا إلى الحق ردًّا جميلًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

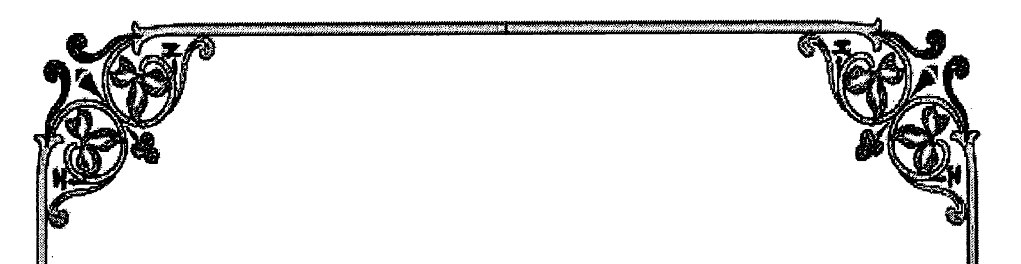
*****

---

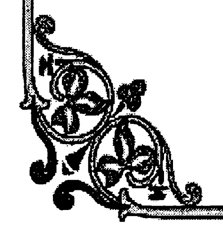
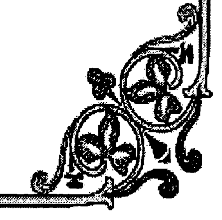
(١) «فتح المغيث» (٢/ ٥٢)، و «فهرس الفهارس» للكتاني (٢/ ١٠٤٧)، و «قواعد التحديث» للقاسمي (٢٢٦).

(٢) انظر: «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب (٩٧)، و«ميزان الاعتدال» (٤/ ١٧٧)، و«العبر» للذهبي (١/ ١٤٠)، و «تهذيب الأسماء» للنووي (٦٥٤).

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٤/ ٤١٩، ٤٢٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥/ ٢٩٦)، وصححه الذهبي في «السير» (١١/ ١٨٧).



التقصير في الدعوة والتبليغ

التقصير في الدعوة والتبليغ

حَدِيثُنا - في هذا الفَصْل - مع مرضٍ أُصيبت به الأمةُ منذُ زمنٍ بعيدٍ، فتأخرت بسببه عن المكانة التى أرادها لها ربها - جلَّ وعلا -.

إنه مرضٌ جعل الأمة وراء الرَّكْبِ ببعيدٍ بعْدَ أن كانت بالأمسِ القريبِ الدليلَ الحاذقَ الأَرِبَ، والقائدَ الأمينَ في الدروب المتشابكة في الصحراء المهلكة التي لا يهتدي للسير فيها إلا الأدلاءُ المجربون.

إنه مرضٌ يفتُّ في جسدِ الأمة؛ فأصبحت غثاءً لا وزنَ لها ولا قيمةَ عند أمم الأرض!!! إنه التقصيرُ في الدعوة والتبليغ؛ فهل تُصدِّق أن أمةَ الدعوة والبلاغ والتوحيد والسنة قد قصَّرت تمامًا في أشرفِ وظيفةٍ، وأعظمِ واجبٍ؛ ألا وهو: واجبُ البلاغِ لأهلِ الأرض.

وما كُرمت الأمةُ وشُرِّفت إلا بحمل هذه الرسالة؛ قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فهذه الخيرية ليست عشوائيةً اعتباطًا، وليست ذاتيةً ولا عرقيةً ولا عصبيةً؛ إنما هي خيريةٌ مستمدةٌ من هذه الرسالة الكريمة التي شُرِّفت بحَمْلِها إلى أهلِ الأرض.

إن الدعوةَ إلى الله تعالى عملٌ جليلٌ من أجَلِّ الأعمال، وعبادةٌ عظيمةٌ من أعظم العبادات؛ فلقد جعل اللهُ لحامل رايتها ولوائها شرفًا عظيمًا، ومكانةً عاليةً كريمةً؛ فقال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

إن الدعوة إلى الله تعالى هي وظيفةُ الأنبياء والمُرسلين الذين اصطفاهُمُ اللهُ ﷻ لحمل رسالته وتبليغها إلى الناس؛ لتعبيد العباد لربهم، وإخراجهم من الظلُمات إلى

النور.

وامتن اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - على لبنة تـمامهم، ومسك ختامهم مُـحمدٍ ﷺ؛ فأبقى هذه الوظيفة الشريفةَ في أُمته من بعده إلى يوم القيامة، فورث عُلماءُ أُمته هذه التركة الضخمة، والـمسئُولية الكبيرة، والشرف العظيم، شرف الدعوة إلى الله ﷻ.

وَفِي «صحيح مسلم»[(١)] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ؛ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ؛ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»**.

فانطلق هؤُلاء الـحواريون والأصحابُ ومن تبعهُم بإحسانٍ - مُقتفيًا أثرهُم، سالكًا طريقهُم - براية الدعوة إلى الله ﷻ؛ تاركين الديار والأوطان، باذلين في سبيلها الـمُهج والأرواح، ولا هَمَّ لـهُم سوى إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة؛ فأعز اللهُ بهمُ الإسلامَ، وارتفعت رايتُهُ على بلاد السند، والهند، والتركستان، والصين، وبلاد الروس شمالًا، وقلب أُورُوبا، حتى قال «لين بول» في كتابه «العربُ في أسبانيا»: «.. فكانت أُورُوبا الأُميةُ تزخرُ بالجهل والحرمان، بينما كانت الأندلُس تـحملُ إمامةَ العلم، وراية الثقافة في العالم».

وقد جسَّد لنا هذا المدَّ العظيم والسلطان الكبير أحدُ خُلفاء الـمُسلمين الذي وقف يومًا - ببغداد -؛ ليُخاطب السحابة في كبد السماء، ويقُولُ لـها[(٢)]: أيتُها السحابةُ، أمطري حيثُ شئت، فسوف يُـحملُ إلينا خراجُك إن شاء اللهُ!! فانظُر إلى سعة الـمُلك، وعظمة الدولة، وعز السلطان؛ فرحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

وهكذا بلغت دولةُ الإسلام وامتدت، ثُم إنهُ خلف من بعدهم خُلُوفٌ خلدُوا إلى

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب، بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٥٠).

(٢) انظر «مجلة المنار» لمحمد رشيد رضا (٢٠/ ١٦٦)، وأورده في «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٣/ ١٢٨) عن هشام بن عبد الملك.

الأرض وإلى الوحل والطين!! عاشُوا لأنفُسهم، وشهواتهم، ونزواتهم، ورغباتهمُ الحقيرة، وكراسيهمُ الزائلة!! عاشُوا لعُرُوشهم وفُرُوجهم؛ فانحسر هذا المدُّ المُباركُ؛ بل وهانت الأُمةُ، وضاعت هيبتُها، وزال سُلطانُها، وولَّى مجدُها، ومُسخت هويتُها؛ بل واحتُلت أرضُها، وطمع فيها الضعيفُ قبل القوي، والذليلُ قبل العزيز، والبعيدُ قبل القريب، وتكالبت عليها أُممُ الأرض، وتحقق فيها قولُ من لا ينطقُ عن الهوى - بأبي هُو وأُمي - كما في حديث ثوبان: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**» قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، فَمِنْ قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**لا، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يُجْعَلُ الْوَهْنَ فِي قُلُوبِكُمْ، وَيُنْتَزَعُ الرُّعْبُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ؛ لِحُبِّكُمُ الدُّنْيَا، وكَرَاهِيَتِكُمُ الْمَوْتَ**» (١)؛ فانشغلت الأمةُ عن الدعوة إلى الله بالعروش الزائلة، والكراسي الفانية، والدنيا الحقيرة، والشهوات الرخيصة، في الوقت الذي ابتعدت فيه البشريةُ كثيرًا عن منهج الله ورسُوله ﷺ، وأصبحت تَعْرفُ كثيرًا عن عُلُوم الدنيا في وقتٍ جهلت فيه خالقها - جَلَّ وَعَلَا - وأضحت غارقةً في بُحُور الشهوات، وساقطةً في شباك الشبُهات إلا من رحم الله؛ فمن لهؤلاء؟ من يدعُوهُم إلى الله ﷻ؟ من يُقيمُ عليهم حُجة الله في الأرض؟ من يستنقذُهم من عذاب الله في الآخرة؟! من يتحملُ تبعة هؤلاء؟! ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

إنها تبعةٌ تقصمُ الظهرَ، وتخلعُ الفُؤاد!! قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥].

إنها الأمانةُ الكبيرةُ؛ فإما أن نكُون أهلًا لها بتأديتها وإبلاغها، وإما أن نكُون (خونةً!!) بتضييعها ونسيانها!! قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

وقال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام (٤٢٩٧)، والطيالسي في «مسنده» (٩٩٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٦١٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٨٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٢٩٧) (١٠٣٧٢)، والروياني في «مسنده» (٦٥٤)، وصحَّحهُ لغيره الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٥٨)، و«صحيح الجامع» (٨١٨٣).

﴿ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

بل ويُخاطبُ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - نبيهُ ﷺ الذي أمرهُ بالقيام بقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]؛ فقام، ولم يقعُد حتى لقي الله ﷻ؛ يُخاطبُهُ ربهُ بقوله سُبحانهُ: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن:٢٢، ٢٣].

أي: لا يُجيرُنِي أحدٌ مِن الله، ويُخلِّصُني مِن عذابِهِ - إِن عصيتُهُ - ولن أجِدَ مِن دُونِهِ مُلتحدًا؛ أي: ملجأً ومُنتصرًا؛ إلّا إبلاغِي الرِّسالة الّتِي أوجب أداءها عليَّ؛ كما قال تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧][1].

وهكذا لا يُمكنُ التفلتُ من هذه المُهمة الشاقة، والأمانة الثقيلة، إنها التكليفُ الصارمُ، والواجبُ المُتحتمُ، والأمرُ الجادُّ اللازمُ الذي لا مفرَّ من أدائه؛ فاللهُ من ورائه.

فالدعوةُ إلى الله ﷻ واجبُ هذه الأمة الخاتمة التي اختارها اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - للقيادة - بقُوةٍ وجدارةٍ - بما معها من الحق الذي قامت من أجله السمواتُ والأرضُ، وخُلقت الجنةُ والنارُ، وأنزل اللهُ الكُتُب، وأرسل الرسُل.

وقد قيَّد الله ﷻ للأمةِ الآن هذه الوسائل الضخمة التي من خلالها يستطيع كلُّ عالم وداعية أن ينشر دين الله تعالى؛ فَلِمَ لا توظف الأمة هذه الإمكانات من وسائل الإعلام؛ من الفضائيات والإنترنت وغير ذلك توظيفًا يليق بمكانة أمة الدعوة والبلاغ؟!

وأنا أسألُ وأقولُ: هل توجد الآن فضائيةٌ واحدةٌ في الأمة على مستوى الدعوة تخاطبُ أهل الأرض بلغة أهل الأرض؟!

فهذه أمانةٌ كبيرةٌ ضخمةٌ يجب على الأمة مجتمعة أن تقوم بها، وأن تتحمل مسئوليتها أمام الله ﷻ؛ فنحن نريد أن نبلغ الإسلام بكماله وشموله وجماله وجلاله

---

(١) قاله ابن كثير - بتصرفٍ يسيرٍ - في («التفسير» ٤/ ٥٢١).
قلت: وفي الآية وجه آخر من أوجه معاني التفسير؛ انظره عند ابن كثير وغيره.

بكلِّ لغات أهل الأرض؛ فنخاطب من يتحدثون الإنجليزية والألمانية والإيطالية والفرنسية والأسبانية كلٌّ بلغته؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وأنا لا أقلل من قدر هذا الطرح الدعوي في فضائياتنا المباركة التى بدأت تخاطب الأمة الآن خطابًا دينيًّا عن الله ورسوله ﷺ، ولكننا نحتاجُ أن نخاطب العالم بأسره؛ فوالله الذي لا إله غيره إننا مسئولون عن البشرية كلها بين يدي الله تعالى إن قصرنا في البلاغ.

فلابُد إذن من الدعوة والبلاغ، ولقد دلت الأدلةُ من القُرآن والسنة على وُجُوب الدعوة إلى الله ﷻ وأنها من أكرم الفرائض التي افترضها اللهُ ﷻ على هذه الأُمة المُباركة، ومن هذه الأدلة القُرآنية: قولُ الله ﷻ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ - رحمه الله تعالى: «﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ مُنتصبةٌ للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعرُوف، والنهي عن المُنكر ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ والمقصُودُ من هذه الآية: أن تكُون فرقةٌ من هذه الأُمة مُتصديةً لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كُل فردٍ من الأُمة بحسبه»[1].

ومنها: قولُ الله ﷻ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

ومنها: قولُ الله ﷻ: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [الشورى:١٥].

ومنها: قولُ الله ﷻ: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص: ٨٧].

ومنها: قولُ الله سُبحانهُ: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧].

ومنها: قولُ الله ﷻ: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١ / ٤٧٨) وما بعدها.

وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

يقُولُ ابنُ القيم رحمه الله: «فلا يكُونُ الرجُلُ من أتباعه حقًّا حتى يدعُو إلى ما دعا إليه، ويكُون على بصيرةٍ»(١).

ويقُولُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ - رحمه الله تعالى: «وإنما حازت الأُمةُ قصبَ السبق إلى الخيرات بنبيها مُحمدٍ - صلواتُ الله وسلامُهُ عليه - فإنهُ أشرفُ خلق الله، وأكرمُ الرسُل على الله، وبعثهُ اللهُ بشرعٍ كاملٍ عظيمٍ، لم يُعطهُ نبي قبلهُ، ولا رسُولٌ من الرسُل؛ فالعملُ على منهاجه وسبيله يقُومُ القليلُ منهُ ما لا يقُومُ العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامهُ»(٢).

ولو التفت الدُّعاةُ إلى الله تعالى إلى هذا المعنى المهم في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ما دعا أحدٌ إلى جماعةٍ معينةٍ، أو إلى حزبٍ بعينه، أو إلى عصبيةٍ أو منصبٍ أو هوى، وإنما الدعوة يجب أن تكون إلى الله تعالى وحْدَه؛ فلندع هذه العصبيةَ البغيضةَ التي مزَّقت الأمة، وشتَّت شملها، وفرَّقت صفها!!!

فسبيلُ النبيِّ ﷺ: الدعوة؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣].

○ **أَمَّا الأدلة النبويَّة فهِيَ أيضًا كثِيرَةٌ، ومِنهَا:**

مَا ثبت فِي «**صحيح البخاري**»(٣) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمه الله(٤): «**ولو آيةً**» أي: واحدةً؛ ليُسارع كُلُّ سامعٍ إلى تبليغ ما وقع لهُ من الآي، ولو قل؛ ليتصل بذلك نقلُ جميع ما جاء به ﷺ» ا. هـ.

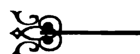
---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٤)، وانظر: «إعلام الموقعين» (٤/ ١٣٧)، و«المدارج» (٢/ ٤٨٢) بتصرف.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

(٤) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٨).



قُلتُ: سُبحان الله! فكم من المُسلمين يحفظُ مئات الآيات، وعشرات الأحاديث، ولكنهُ مُضيعٌ لأمر رسُوله ﷺ الذي يدُل على الوُجُوب حيثُ لم تأت قرينةٌ تصرفُهُ من الوُجُوب إلى غيره. مع ما فيه من الفضل؛ «فبلِّغُوا» تكليفٌ، و«عَنِّي» تشريفٌ، و«لَوْ آيَةً» تخفيفٌ!!

وَمِنْهَا: ما أخرجه أحمد في «المسند»، والترمذي في «السنن» وابن ماجه، والشافعي في «مسنده» من حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ مِنْ سَامِعٍ»(١). وَفِي رِوَايَةٍ: «فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ».

وفي خُطبته يوم النحر قَالَ ﷺ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»(٢).

وهكذا تظل هذه القاعدةُ الجليلةُ باقيةً خالدةً ترِنُّ في أُذُن الزمان والأيام؛ ألا وهي: ليُبلغ الشاهدُ الغائب.

ومنها: قولُ النبيِّ ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(٣)؛ فلا تحرم نفسك من هذا الخير العظيم، وكُن صاحبَ هِمَّةٍ عاليةٍ، وعزيمةٍ صادقةٍ، وإرادةٍ قويةٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧)،و الحميديُّ في «مسنده» (٨٨)، والترمذيُّ، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، في المقدمة، باب من بلغ علمًا (٢٣٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/ ٢٠٠)، والشافعيُّ في «مسنده» (١١٩٠)، والشاشيُّ في «مسنده» (٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣١)، والبيهقيُّ في «الشعب» (١٧٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٦ و٦٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥١٢٦)، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٧٦٤)، و«صحيح الترغيب» (٨٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» (٦٧)، ومسلمٌ، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومنها: قولُهُ ﷺ لعلي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[١].

وَهي: الإبلُ النفيسةُ[٢]؛ قال ابنُ حجرٍ رحمه الله[٣]: «قيل: المُرادُ خيرٌ لك من أن تكُون لك، فتتصدق بها، وقيل: تقتنيها، وتملكُها».

قال النووي رحمه الله[٤]: «وفي هذا الحديث بيانُ فضيلة العلم والدعاء إلى الهُدى وسن السنن الحسنة». يا لهُ من فضلٍ عظيمٍ لا يتخلَّى عنهُ إلا عاجزٌ محرُومٌ؛ فكُل طاعةٍ لله عز وجل يقُومُ بها هذا الذي هداهُ اللهُ على يديك - أيها الداعي - يثقُلُ بها ميزانُك من حيثُ لا تدري في حياتك؛ بل وبعد موتك! هذا هُو شرفُ الدعوة إلى الله عز وجل.

وهكذا يتضحُ لنا من خلال الأدلة السابقة المُوجزة، حُكمُ الدعوة إلى الله عز وجل.

يقُولُ شيخُنا ابنُ بازٍ رحمه الله: «والدعوةُ إلى الله تعالى على حالين:

إِحْدَاهُمَا: فرضُ عينٍ.

وَالثَّانِيَةُ: فرضُ كفايةٍ.

فهي فرضُ عينٍ عند عدم وُجُود من يقُومُ باللازم كالأمر بالمعرُوف، والنهي عن المُنكر إذا كُنت في بلدٍ، أو قبيلةٍ، أو منطقةٍ من المناطق ليس فيها من يدعُو إلى الله، ويأمُرُ بالمعرُوف، وينهى عن المُنكر، وأنت عندك علمٌ؛ فإنهُ يجبُ عليك عينًا أن تقُوم بالدعوة، وتُرشد الناس إلى حق الله، وتأمُرهُم بالمعرُوف، وتنهاهُم عن المُنكر، أما إذا وُجد من يقُومُ بالدعوة، ويُبلغُ الناس، ويُرشدُهُم؛ فإنها تكُونُ في حق الباقين العارفين

---

(١) جزءٌ من حديثٍ طويلٍ؛ رواه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٠١)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) «شرح مسلم» للنووي (١٥/ ١٧٨).

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٤٧٨).

(٤) «شرح مسلم» (١٥/ ١٧٨ و ١٧٩).

بالشرع سُنةً، لا فرضًا»(١).

ثُم يُبينُ الشيخُ رحمه الله حُكمَ الدعوة في عصرنا الراهن؛ فيقُولُ: «ونظرًا إلى انتشار الدعوة إلى المبادئ الهدامة، وإلى الإلحاد، وإنكار رب العباد، وإنكار الرسالات، وإنكار الآخرة وانتشار الدعوة النصرانية في الكثير من البُلدان، وغير ذلك من الدعوات الـمُضللة، نظرًا إلى هذا؛ فإن الدعوة إلى الله عز وجل اليوم أصبحت فرضًا عامًّا، وواجبًا على جميع العُلماء، وعلى جميع الحُكام الذين يدينُون بالإسلام، فرضٌ عليهم أن يُبلغُوا دين الله حسب الطاقة والإمكان؛ بالكتابة، والخطابة، وبالإذاعة، وبكُل وسيلةٍ استطاعُوا، وألا يتقاعسُوا عن ذلك؛ فإن الحاجة بل الضرُورةُ ماسةٌ اليوم إلى التعاوُن، والاشتراك، والتكاتُف في هذا الأمر العظيم أكثر مما كان قبلُ، ذلك لأن أعداء الله قد تكاتفُوا، وتعاونُوا بكُل وسيلةٍ للصد عن سبيل الله، والتشكيك في دينه؛ ودعوة الناس إلى ما يُخرجُهُم من دين الله عز وجل؛ فوجب على أهل الإسلام أن يُقابلُوا هذا النشاط الـمُلحد بنشاطٍ إسلامي، ودعوةٍ إسلاميةٍ على شتى الـمُستويات، وبجميع الوسائل، وبجميع الطرُق الـمُمكنة، وهذا من باب أداء ما أوجب اللهُ على عباده من الدعوة إلى سبيله»(٢).

ومع كُل هذا نرى سلبيةً قاتلةً عند الكثيرين انطلاقًا من فهمٍ مغلُوطٍ مقلُوبٍ لقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وقد خشي الصديقُ رضي الله عنه - من قبلُ - هذه السلبية الناتجة عن هذا الفهم الخاطئ، فقام في الناس خطيبًا؛ ليُوضح لهُمُ المعنى الصحيح لهذه الآية الكريمة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثُم قال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقُولُ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ، وَلَا يُغَيِّرُونَهُ يُوشِكُ اللهُ عز وجل أَنْ يَعُمَّهُمْ**

---

(١) من أقوال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في الدعوة، إعداد الأخ / زياد بن محمد السعدون، (ص ١٤، ١٥)، وانظر أيضًا: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١٥ / ١٦٥، ١٦٦).

(٢) نفس المصدر (ص ١٨) بتصرفٍ يسيرٍ.

بِعِقَابِهِ».

وفي روايةٍ صحيحةٍ أُخرى قال: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»[1].

فالواجبُ على المُسلم أن يأمُر بالمعرُوف، وأن ينهى عن المُنكر حسب استطاعته وقُدرته؛ فإن لم يستجب لهُ الناسُ في هذه الحالة فلا ضير يلحقُهُ من تقصير غيره - إن شاء اللهُ - لأنهُ حينئذٍ يكُونُ قد أدى الواجب الذي عليه.

ويُعلِّقُ شيخُ الإسلام وحسنةُ الأيام - ابنُ تيمية - على هذه الآية السابقة، ويقُولُ: «والاهتداءُ إنما يتم بأداء الواجب؛ فإذا قام المُسلمُ بما يجبُ عليه من الأمر بالمعرُوف، والنهي عن المُنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضُرهُ ضلالُ الضلال، وذلك يكُونُ تارةً بالقلب، وتارةً باللسان، وتارةً باليد. فأما القلبُ فيجبُ بكُل حالٍ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعلهُ فليس بمُؤمنٍ؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[2].

وقال: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[3].

وقيل لابن مسعُودٍ رضي الله عنه: من ميتُ الأحياء؟ فقال: «الذي لا يعرفُ معرُوفًا، ولا يُنكرُ مُنكرًا»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٥٣)، والحميديُّ (٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١)، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٨)، والترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، وقال: «صحيح»، وفي كتاب تفسير القرآن (٣٠٧٥)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٩٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٦٤).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص (٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٦٦٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٩٠) و(١٠٦٧٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٢/ ٢٩٠)، عن حذيفة رضي الله عنه، ولم أجده عن ابن مسعود، وإنما أورده عنه شيخ الإسلام في مصنفاته؛ كالاستقامة (٢/ ٢١٢) وغيره.

وهُنا يغلطُ فريقان من الناس: فريقٌ يترُكُ ما يجبُ من الأمر والنهي تأويلًا لهذه الآية (١)، والفريقُ الثاني منْ يُريدُ أن يأمرَ ويَنهى؛ إمَّا بلسانِهِ، وإما بيده مطلَقًا من غيرِ فقهٍ، وَحِلْمٍ، وَصَبْرٍ، ونظرٍ فيما يصلُحُ من ذلك، وما لا يصلُحُ، وما يقدرُ عليه، وما لا يقدرُ عليه؛ فإن الأمرَ والنهي وإن كان مُتضمنًا لتحصيل مصلحةٍ، ودفع مفسدةٍ، فينظُرُ في المُعارض لهُ، فإن كان الذي يفُوتُ من المصالح أو يحصُلُ من المفاسد أكثر لم يكُن مأمُورًا به، بل يكُونُ مُحرمًا إذا كانت مفسدتُهُ أكثر من مصلحته، ويكُونُ الأمرُ بذلك المعرُوف المُستلزم للمُنكر الزائد عليه أمرًا بمُنكرٍ، وسعيًا في معصية الله ورسُوله» (٢). اهـ.

وأُلْفِتُ نظرك - أخي الحبيب - إلى أن دولة الإسلام قد أُقيمت بالدعوة قبل أن يشرع الجهادُ؛ فأول معركة بين الشرك والإيمان، والتقى فيه الحق بالباطل كانت هي معركة بدر، وذلك بمدينة رسول الله ﷺ.

لذا أقول بملأ فمي: الجهاد ليس غاية، وإنما وسيلةٌ لأعظم غاية.

فلا ينبغي أن تتقاعس أمةُ الدعوة عن الدعوة والبلاغ لدين الله تعالى، ونحن لا نريدُ أن تتحول الأمة كلُّها إلى دعاة على المنابر، وإنما نريد أن تتحول الأمةُ كلها دعاة على منبر الإسلام العظيم؛ كلٌّ واحد في موقع إنتاجه، وموطن عمله وعطائه؛ فإن لم تحسن أن تبلغ عن الله بآية أو عن رسول الله ﷺ بحديث؛ نَبخُلُقِكَ وَسُلُوكِكَ وصدقِكَ وإتقانِكَ لعملِكَ؛ فالشرق والغرب لن يحكم على ديننا من خلال هذه الحلقات عبر الفضائيات، أو من خلال المجلدات التي تطبع، وإنما من خلال أخلاقنا وعملنا وتقدُّمنا؛ فما قيمة التنظير إن لم يتحول في حياتنا إلى واقع عملي ومنهج حياة؟! فكثير من المسلمين يقفون حجر عثرة في طريق الدعوة إلى الله بأخلاقهم وسلوكياتهم، حين يرى الرجلَ في الشرق والغرب مسلمًا لا يصلي، أو يعاقر الزنا، أو يشرب الخمر!!!

فالدعوة العامة إلى دين الله تعالى واجبة على كل مسلم ومسلمة، كلٌّ بقدر استطاعته وطاقته.

---

(١) أي آية المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾.

(٢) بتصرفٍ من «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٢٨/ ١٢٦ - ١٣٧).

هذا - بإيجازٍ - هُو حُكمُ هذه التبعة الثقيلة، وهذا الشرف الكبير في آنٍ؛ فلنكُن أهلًا لهذه الأمانة الكبيرة، ولنتحرك جميعًا كُل بحسب طاقاته وقُدُراته؛ فشتان بين زهرةٍ حقيقيةٍ تنشُرُ أريجها، وتُطيبُ المكان بريحها وعبيرها، وبين زهرةٍ صناعيةٍ لا تحملُ من عالم الزهُور إلا اسمها!!

وكأني أنظُرُ - الآن - إلى صديق الأُمة أبي بكرٍ ﷺ وهُو يُرددُ شهادة التوحيد بين يدي رسُول الله ﷺ في هُدُوءٍ ويقينٍ دُون تلعثُمٍ أو ترددٍ!!

وكيف يتلعثمُ الصديقُ - صاحبُ القلب الحي الكبير - أو يترددُ، وهُو الذي ما فارق صاحبهُ الأمين سنواتٍ طوالًا، فلم يرهُ كذب مرةً، أو خان أمانةً، أو أخلف وعدًا، أو غدر عهدًا قط!! بل لقد ملأ شبابُهُ رُبُوع وأرجاء مكة الـمُكرمة شرفًا، وطُهرًا، وعفةً، وكرامةً!!

فلم تأخُذهُ عن الطهر نزوةٌ، ولم تُنزلهُ عن علياء العظمة دَنِيَّةٌ، ولم تكُن قُريشٌ مُجاملةً لهُ، أو مُمتَنَّةً عليه يوم أن خلع عليه إجماعُها في بيت الله الحرام لقب «الأمين» يوم أن كادت الفتنةُ تعصفُ بأشرافها!!

فكيف يترددُ أصحابُ العُقُول النيرة والقُلُوب الحيَّة الخيرة في تصديق هذا الأمين الطاهر الذي فاضت طهارتُهُ على جميع العالمين؟! كيف يتلعثمُ الصديقُ ﷺ في تصديق صاحبه الأمين الذي لم يكذب على أهل الأرض قط!! فهل من الـمُمكن أن يكذب على رب السماء والأرض؟! إنهُ أمرٌ مُستحيلٌ في العُقُول النيرة، ومن يومها بعد أن شرح اللهُ صدرهُ للإسلام لم يهدأ لهُ بالٌ، ولم يقر لهُ قرارٌ؛ بل لقد تحرك بهذا النور يدعُو إلى الله ﷻ كُل من يثقُ في رجاحة عُقُولهم من أصحابه والـمُقربين إليه - فإن الدعوة لا زالت في طورها السِّرِّي - ولم يلبث إلا قليلًا وقد عاد الصديقُ الـمُباركُ بخمسةٍ من أشراف قُريشٍ ومن سادة الناس شرح اللهُ صُدُورهُم للإسلام بدعوة أبي بكرٍ ﷺ؛ أتدرُون من هُم هؤُلاء الأشرافُ الكرامُ؟!!

عُثمانُ بنُ عفان ﷺ، والزبيرُ بنُ العوام ﷺ، وعبدُ الرحمن بنُ عوفٍ ﷺ، وسعدُ بنُ

أَبِي وقاصٍ ﷺ، وطلحةُ بنُ عُبيد الله ﷺ[١].

فما عليك إلَّا أن تبذر، ودع النتائج بعد ذلك إلى الله تبارك وتعالى، وأذكر أن أختًا فاضلةً في مدينة الرياض في حفل تكريم لملاكم ألمانيٍّ، تقدمت هذه الأخت بحجابها الشرعي، وقدمت له هديةً عبارةً عن ترجمة لمعاني القرآن باللغة الألمانية، فأخذ هذا الألماني هذه الهدية وسافر إلى بلده، وبعد عشرين سنة! بعد أن اعتزل الملاكمة جلس يُرتِّب مكتبته الخاصة، فوقع في يده هذا الكتاب، فجلس على المكتب وفتح الكتاب من ناحية، وقرأ تفسير سورة الفاتحة، وفتح الكتاب من الناحية الأخرى، وقرأ تفسير سورة الإخلاص، قال هذا الألمانيُّ: فوقع حبُّ الإسلام في قلبي، وانطلقتُ مباشرة إلى إخواني في مركز إسلاميٍّ، وقلت: دلوني كيف أدخل هذا الدينَ العظيمَ؟ فاغتسل ونطق الشهادتين وعلَّموه الصلاة فصلى، ومن هذه اللحظة قال لهم: هل عندكم مطبوعات تتحدثُ عن الإسلام باللغة الألمانية؟ قالوا: نعم؛ فقال: أريد أن أستغل ما بقي من العمر في الدعوة إلى هذا الدين الذي شرح اللهُ صدري إليه، وأخذ مجموعةً من الكتب والمنشورات وفي خلال سنة واحدة أسلم على يديه قرابة مائة رجل وامرأة، وهؤلاء المائة في ميزان الأخت الفاضلة التي أهدته الكتابَ من عشرين عامًا مضت.

وكنتُ في إحدى الزيارات مع بعض علمائنا لأمريكا، وفي المطار تأخرت الطائرةُ، فقال شيخٌ من شيوخنا الأجلاء: ارفع الأذان يا محمد، فرفعت صوتي بالأذان في المطار، ولفت الأذانُ أنظارَ الجميع، وبعد الأذان قال لي الشيخ: صل بنا، فصليت، وأطلت في الصلاة، وقرأت سورة مريم ثم سورة أخرى، وبعد الانتهاء من الصلاة وجدنا حلقة كاملة من الرجال والنساء منهم من يصورُ بالفيديو، ومنهم من يصور بالكاميرا،ثم اقترب منا رجلٌ، ثم قال لي: من أنتم؟ ولفت نظَرَه سجودُنا، كيف وضعتم جباهكم على الأرض بدون فراش؟ فبدأت أبين له بكلماتٍ قليلةٍ ويسيرةٍ، فقال: إنه يصاب بحالات قلق نفسي واضطراب، وإنه لا يشعر براحةٍ ولا انشراح إلا إذا فعل كهيئتنا ونحن سجود، ووضع جبهته وأنفه على الأرض، يقول: ففرحت لأنني وجدت مَنْ له

(١) راجع: «السيرة» لابن إسحاق؛ كما في «سيرة» ابن هشام (١/ ١٥٦)، و«زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ١٩)، و«الثقات» لابن حبان (١/ ٥٣).

مثل حالاتي ويفعلون مثل ما أفعل، قلت له: هذه صلاة وهذا سجود ولسنا مثلك، فقال: دلوني على هذا الدين، فأعطيناه عنوان المركز الذي سننزلُ عليه، وبعد خمسة أيام جاء بزوجته وابنه، وجلس في المركز الإسلامي، وأسلم وأسلمت زوجته وابنها لله رب العالمين.

وهناك شاب من شبابنا في أمريكا في مصعد لأدوارٍ عاليةٍ جدًّا، شاهدته فتاة أمريكية جميلةٌ وغنيةٌ، وقدر الله ﷻ في بعض الأدوار أن خلا المصعدُ إلا من هذا الشاب وهذه الفتاة، فخافت الفتاة، وظلَّت تراقبهُ مراقبةً دقيقةً، ولكن الشابَ لم يلتفت إليها قط؛ فلما نزل استوقفته الفتاة، وسألته كيف لم تفكر في التعدي عليَّ؟ فقال: ديني يُحرِّم عليَّ هذا، فاستنكرت هذا، فأخرج لها كبريتًا، وقال لها: هل تستطيعين أن تتحملي نار هذا الكبريت؟ قالت: لا؛ فقال: وأنا لا أستطيعُ أن أتحمل عذاب الله تبارك وتعالى في نار جهنم، فعرضت عليه هذه الفتاةُ أن تتزوجه؛ فقال لها: لن أفعل هذا إلا إن أسلمتِ، فأسلمت لله تبارك وتعالى وتزوجته، ووضعت كل ما تملك بين يدي الشاب بفضل الله، ثم بفضل دعوته لدينه بأخلاقه وسلوكه.

والنماذج كثيرةٌ جدًّا؛ لكن: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

فهيا - أيها الأحبابُ - لنتحرك لدين الله، ولدعوة الله ﷻ، وإن ابتُلينا، وأُوذينا، وضُيق علينا؛ هيا لنسير على نفس الطريق الذي سار عليه من قبلُ نُوحٌ، وإبراهيمُ، ومُوسى، وعيسى، ومُحمدٌ، وإخوانهُم من الأنبياء والمُرسلين، هيا لنحُوز هذا الشرفَ الكبيرَ، والفضل الجزيل ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣].

هيا لنُعلن في وجه الباطل الذي أعلن عن دعوته في تبجح واستعلاءٍ؛ بل وفخرٍ وخُيلاء!! فنُعلن لهُ دعوتنا في عزةٍ وإباءٍ، ونقُول بملء أفواهنا: هذه دعوتُنا دعوةُ الرسُل والأنبياء، دعوةٌ لا تُمالئُ حاكمًا، ولا تُنافقُ ظالمًا، ولا تتعايشُ مع كُل قيم الباطل الزائفة!!

إنها دعوةُ الحقِّ الذي يدمغ الباطلَ، ودعوة النور الذي يُبدِّد الظلماء، ودعوة الهدى

الذي يذهب الضلال!!

وأمتنا هي التي تحمل النورَ الحقيقيَّ الذي ينيرُ للبشرية طريقها، والذي ينتشلُ البشرية من هذا الظلام الدامس إلى النور الحقيقي.

فقم أيها العملاق الحنون ودثِّر العالم كلَّه ببردتك ذات العبق المحمدي الطاهر... قُمْ وضُم العالم كله إلى صدرك، وأسْمِعْه خفقات قلبك الذي وحَّد الله - جَلَّ وَعَلَا -... قم واسق الدنيا كأس الفطرة لتروى بعد ظمأ، ولتهتدي بعد ضلال، ولتعود إلى الحق بعد انحراف واعوجاج.

قم وأَسْمِع الدنيا عن الله وعن رسوله ومصطفاه ﷺ وآله ومن والاه.

ويا من منَّ الله عليك بالمال وظِّف جزءًا من مالك للدعوة، وأنا أقول: لماذا لا يتبنى أهلُ المال في كلِّ أنحاء الأرض طبع الكتب والكتيبات والأشرطة، وإرسال بعثات من الدعاة والمشايخ والعلماء إلى جميع البلدان للبلاغ عن الله تعالى بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، والكلمة الرقيقة الرقراقة المهذبة.. فمن الشجر ما يثمرُ في الصيف، ومنه ما يثمر في الشتاء، ومنه ما يثمر في الربيع، ومنه ما يثمر في الخريف،أما الشجرة المباركة الطيبة التي ضربها الله - جَلَّ وَعَلَا - في القرآن مثلًا للكلمة الطيبة؛ فهذه الشجرة لا تتأثرُ بصيفٍ ولا بشتاءٍ ولا بربيعٍ ولا بخريفٍ، ولا تحطمها معاول الهدم والبطش والطغيان؛ بل ولا تقتلعها الريح، ولا تؤثر فيها عواملُ التعرية؟ لأنها شجرة أَبيَّة كريمة متغلغلة في قلب الصخور، وفي أعماق الأرض؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾

[إبراهيم: ٢٤ – ٢٦].

فهيا لنتحرك جميعًا للدعوة إلى الله ﷻ في الليل والنهار في كُل مكانٍ، في المسجد، في البيت، في المصنع، في الشارع، في المدرسة، في السوق، في المتجر، في كُل مكانٍ، فنحنُ جميعًا رُكابُ سفينةٍ واحدةٍ، إن نجت نجونا جميعًا، وإن غرقت غرقنا جميعًا، كما في

حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ؛ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ؛ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»(١).

وواقعُ البشرية - الآن - يفرضُ على أُمة الدعوة والبلاغ أن تتحرك وتتحمل مسئولياتها بصدقٍ وأمانةٍ بعد أن وقعت في تقصيرٍ شديدٍ مرتين، مرةً حين ابتعدت - هي - كثيرًا عن منهج الله ورسُوله، وأضحت عاجزةً عن الدعوة إلى الله على أرض الواقع بأخلاقها، وسُلُوكها، وتقدمها، وإبداعها، وإنتاجها، وقصرت مرةً أُخرى في دعوة أهل الأرض إلى دين الله - جلَّ وَعَلَا - بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة.

وإلا فمن لهؤُلاء الذين يعيشُون في الظلام إلا من يحملُون مشاعل النور؟!!

ومَن لهؤُلاء الذين انحرفُوا عن الهُدى إلا مَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بمصادر الهُدى من القُرآن والسنة؟! نعم... البشريةُ تحتاجُ - جدًّا - لهذا النور والهُدى.

فهي تهذي كالسكران، وتضحكُ كالمجنُون، وتجري كالمُطارد، تئن من الألم، وقد أحرقها لفحُ الهاجرة القاتلُ، وأرهقها طُولُ المشي في التيه والظلام، وأضناها السيرُ في طريق الضلال، حُرمت من الأمن، وراحت تبحثُ عنهُ وسط الركام؛ رغم كثرة الوسائل الأمنية الحديثة، والتخطيط العلمي والنفسي لمُحاربة الجريمة!!

وحُرمت مِن راحة الضمير، وانشراح الصدر، وطُمأنينة النفس؛ رغم كثرة الوسائل العلمية والطبيةِ الحديثة!!

نعم؛ تعيشُ في ضيقٍ ونكدٍ رغم كثرة الحدائق الغناء، والبساتين الخضراء، تعيشُ في ضنكٍ وفقرٍ رغم كثرة الأسواق، وضخ المليارات من الدولارات؛ فكثيرٌ من الناس يمُوتُ جُوعًا، وكثيرٌ يفترشُ الأرض، ويلتحفُ السماء!!

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة؟ (٢٤٩٣، ٢٦٨٦).

قد تملكُ من الماديات كُل شيءٍ، وهي في الحقيقة قد فقدت كُل شيءٍ؛ حين أعرضت عن منهج الله، وانحرفت عن طريق رسُول الله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٧].

وهذا الواقعُ الأليمُ يُحتمُ على أُمة الدعوة والبلاغ أن تنهض برسالتها، وأن تُجيش طاقاتها؛ لدعوة البشرية إلى الله بمنهج رسُول الله ﷺ؛ بعيدًا عن المناهج الدعوية المُنحرفة - تنظيرًا وتطبيقًا - التي أساءت إلى منهجنا الدعوي الرباني من ناحيةٍ، وصدَّت كثيرًا من الناس عن الحق من ناحيةٍ أُخرى!!

فلا ريب أن الحق معنا، ولكننا لم نُحسن - إلى الآن - أن نشهدَ لهذا الحقِّ شهادةً عمليةً خُلُقيةً سُلُوكيةً، ولم نُحوله - بعدُ - في حياتنا إلى واقعٍ عملي، ومنهج حياةٍ، ولم نُحسن أن نُبلغ هذا الحقَّ لأهل الأرض بحق.

وإن الباطل مع غيرنا؛ لكنهُ يُجيدُ أن يُلبس الباطلَ ثوبَ الحق، ويصل بالباطل إلى حيثُ ينبغي أن يصل الحق، وهُنا ينزوي حقُّنا ويضعُفُ كأنهُ مغلُوبٌ، وينتفخُ الباطلُ وينتفشُ كأنهُ غالبٌ؛ وهُنا نتألـمُ لحقنا الذي ضعُف وانزوى، وللباطل الذي انتفخ وانتفش؛ فنُعبرُ عن ألمنا - هذا - بصُورةٍ من صُورتين لا ثالث لهُما:

إما أن نُعبر عن ألمنا بصُورةٍ مكبُوتةٍ سلبيةٍ مهزُومةٍ؛ فنزداد هزيمةً نفسيةً على هزيمتنا، وانعزالًا عن المُجتمع والعالم!!

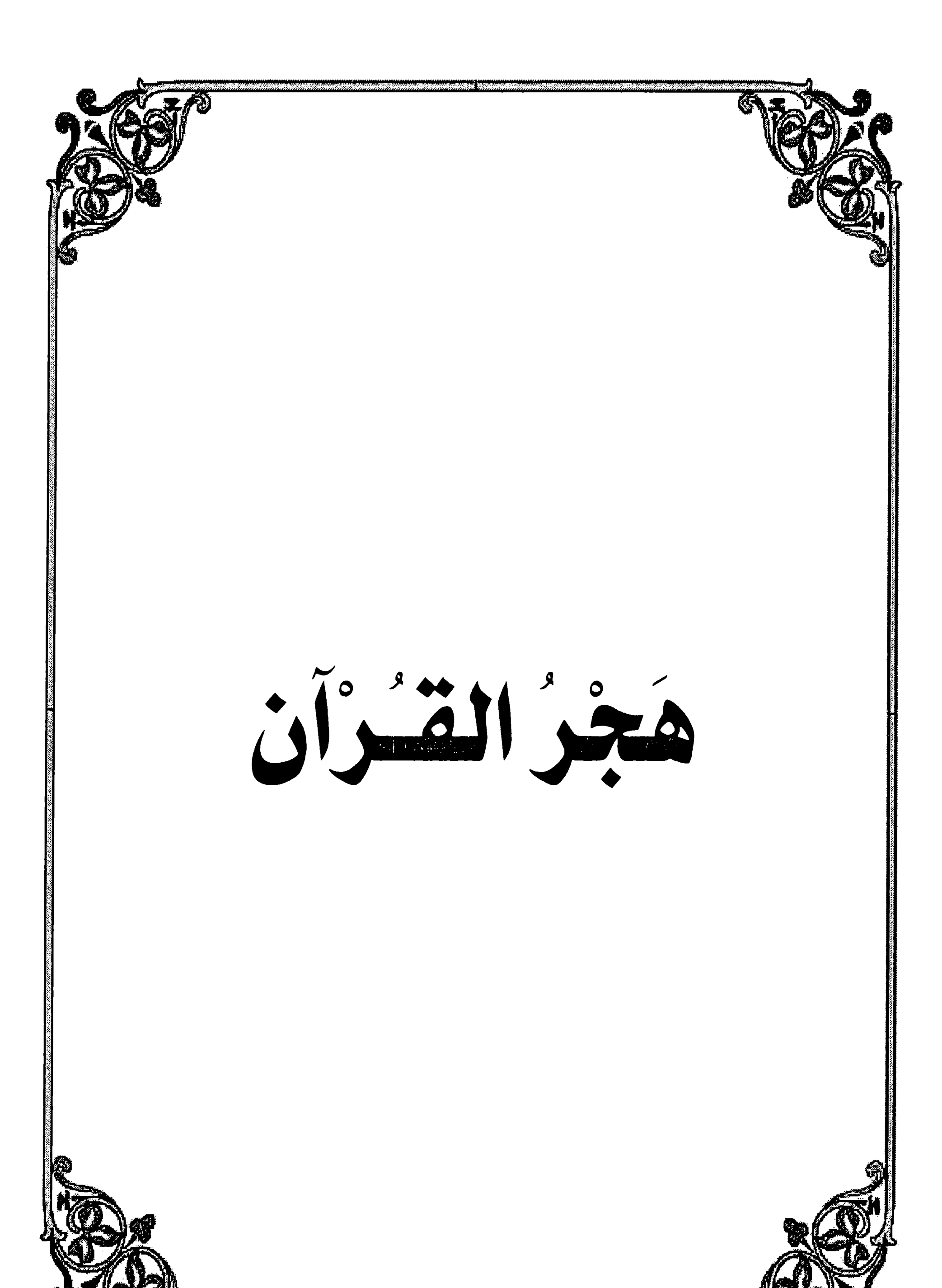
وإما أن نُعبر بصُورةٍ مُتشنجةٍ مُنفعلةٍ؛ بل صاخبةٍ؛ بل - رُبما - دمويةٍ؛ فنخسر الحق مرةً بعد مرةٍ - حتى ونحنُ في طريقنا للذود عن الحق - لأن أهل الأرض سيزدادُون - حينئذٍ - بُغضًا للحق الذي معنا، وخوفًا منهُ، وإصرارًا على الباطل الذي معهُم، ونُصرةً لهُ!!

ومن هُنا تبرُزُ حاجتُنا - نحنُ الـمُسلمين خاصةً، والبشرية عامةً - إلى منهج النبي ﷺ في الدعوة إلى الله؛ لأنهُ المنهجُ الأوحدُ الذي يسبرُ أغوار النفُوس، ويفتحُ القُلُوب والعُقُول للسماع عن الله - جلَّ وَعَلَا- فمن المُحال أن نُحقق ذلك إلا إذا امتلكنا مفاتيح هذه النفُوس البشرية؛ فالحياةُ البشريةُ من خلق الله، ولن تُفتح مغاليقُ فطرتها إلا بمفاتيح من صُنع الله، ولن تُعالج أمراضُها وعللُها إلا بالدواء الذي يُقدمُ لـها من الله بيد رسُول الله ﷺ ؛ فنحنُ لا نتعاملُ مع ملائكةٍ بررةٍ، ولا مع شياطين مردةٍ، ولا مع أحجارٍ صلدةٍ؛ بل نتعاملُ مع نُفُوسٍ بشريةٍ؛ فيها الإقبالُ والإحجامُ، والخيرُ والشر، والحق والباطلُ، والفُجُورُ والتقوى، والهُدى والضلالُ.

ولا سبيل - مُطلقًا - لفتح هذه القُلُوب، وإقناع هذه العُقُول بهذا الحق الذي معنا، إلا بالمنهج النبوي في الدعوة إلى الله؛ فهُو منهجٌ توقيفيٌّ، ليس من حقِّ أيِّ أحدٍ يسلُكُ طريق الدعوة إلى الله أن يحيد عنهُ؛ فاتباعُ منهجه ﷺ ليس تطوعًا ولا اختيارًا، وإنما هُو واجبٌ شرعي لا مفر من أدائه؛ فاللهُ من ورائه.

أَسأَلُ الله - جلَّ وعلا - ألا يحرمنا وإياكم من شرفِ الدَّعوة، وأن يَرُدَّ الأمةَ إلى الدعوةِ الحقِّ ردًّا جميلًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

*****



هَجْرُ القُرْآن

هجرُ القرآن

حديثنا في هذا الفصل مع مرضٍ عضالٍ، وداءٍ في غاية الخطر؛ ألا وهو: «هجر القرآن»؛ ذلكم القرآن الذي يهدي للتي هي أقومُ؛ إنه أصلُ السعادة في الدنيا والآخرة، وحبل النجاة الممدود لنا من السماء؛ فعجيب حقًّا أن تهجر الأمةُ القرآن الكريم!!

والهجر لغةً [١]: «ضدُّ الوصل، وهو مصدر قولهم: هجرت الشيء هجرًا إذا تركته وأغفلته».

والقرآن كلام الله - جلَّ وعلا - الذي هو منبع كلِّ حكمة، وأصل كل فضيلة، وهو أصل الأصول، وطريق الوصول إلى النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة مع الحبيب الرسول ﷺ.

إنَّ العلوم وإن تباينت أصولها، وشرَّقت وغرَّبت فصولُها، وتنوَّعت أبوابُها وعلومها - وأنا لا أُقلل من قدرها وشأنها - إلا أن أعلاها قدرًا، وأغلاها مهرًا، وأسماها مبنى، وأعظمها معنى، وأصحها دليلًا، وأقومها قيلًا، وأوضحها سبيلًا، هو كلام الله - جلَّ وَعَلَا - وما يتعلق به من علوم؛ فهو شمس ضحاها، وبدر دجاها؛ فشرفُ العلم بشرف معلومه وموضوعه، وموضوع القرآن الكريم كلام الرحيم الرحمن سبحانه وتعالى، ويكفي أن نعلم أن القرآن: كلام الله تعالى؛ فكلامُ الله فضله على كلِّ كلام كفضل الله - جلَّ وعلا - على كلِّ الخلق.

- **فما هو القرآن؟**

القرآن لغةً [٢]: مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، وهو مرادف للقراءة؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]؛ أي: لا تتعجل يا محمد ﷺ في قراءة القرآن

---

(١) «النهاية في غريب الحديث» (٢ / ٨٩٣)، و «لسان العرب» (٩ / ٣٢)، و «معجم مقاييس اللغة» (١٠٤٦).

(٢) «لسان العرب» (٧/ ٢٨٣)، و «النهاية» (٢/ ٤٢٩).

خلف جبريل؛، ولكن تمهَّلْ واتبع قراءته[١]؛ فإن الله - جلَّ وَعَلَا - سيجمعُ لك القرآنَ في صدرك، وسيعلمك تلاوته وقراءته، وسيعلمك بيانه وتأويله ومعناه. وسمي قرآنًا؛ لأنه يجمع السورَ، فيضمها.

أما القرآن اصطلاحًا[٢]: فهو كلام الله - جلَّ وعلا - المنزل على قلب محمد ﷺ، المعجز في لفظه ومعناه، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه، المنقول إلينا بطريق التواتر، المكتوب في المصحف من سورة الفاتحة إلى سورة الناس.

يتكون من ثلاثين جزءًا، ومن مائة وأربع عشرة سورة[٣]، وأجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك على أقوال[٤].

ولا خلاف بين علمائنا[٥]: أن الله - جلَّ وَعَلَا - أنزل القرآن على قلب المصطفى ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة منجمًا؛ أي: مفرقًا، بحسب الحوادث والأحوال، أو للإجابة على الأسئلة والاستفسارات التي كانت توجه إلى النبي ﷺ؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ومُكْث؛ أي: مهل، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]، ولا خلاف بين علمائنا[٦]: أنه نزل في شهر رمضان؛ كما في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ونزل دفعةً واحدةً من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم بعد ذلك نزل مفرقا منجمًا كما بينت[٧]؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣]، وفي «تفسير» الطبري وابن أبي حاتم، و«**السنن الكبرى**» للنسائي،

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله: «أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى». («التفسير» ٤ / ٣٤).
(٢) «مناهل المعرفة» (١/ ١٩) وما بعدها.
(٣) «مناهل العرفان» (١/ ١٧) بزيادة.
(٤) «البرهان» (١/ ٢٤٩) وما بعدها، و «مناهل العرفان» (١/ ٢٨٨، ٢٨٩).
(٥) «الإتقان» (١/ ١٤٦ وما بعدها)، و «البرهان» (١/ ٢٢٨ وما بعدها)، و «مناهل العرفان» (١ / ٣٢ وما بعدها).
(٦) «مناهل العرفان» (١ / ٤٠) وما بعدها، و«الإتقان» (١ / ١٤٦) وما بعدها.
(٧) المصادر السابقة.

و«**مستدرك**» الحاكم [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عنهما قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة».

وفي «**صحيح**» البخاري [(٢)] من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: «لَبِثَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ».

وفي «**الصحيح**» [(٣)] أيضًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: «أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ ﷺ».

ولا خلاف أيضًا بين علمائنا [(٤)]: أن أول آية نزلت منه قول الله - جلَّ وعلا -: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وفي «**الصحيحين**» [(٥)] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ

---

(١) أخرجه الطبريُّ (٢٢٧٧٨)، وابن أبي حاتم؛ كما في «الدر المنثور» (٤ / ٣٧١)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٨٩)، والحاكم (٢ / ٢٢٢، ٥٣٠)؛ قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب وفاة النبي ﷺ (٤٤٦٤، ٤٤٦٥)، وفي كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٤٩٧٨، ٤٩٧٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ (٣٨٥١).

(٤) «الإتقان» (١ / ٩١)، و «المناهل» (١/ ٨١) وما بعدها.

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الوحي (٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ [العلق: ١-٣] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى؛ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟! قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ».

واختلف علماؤنا[1] في آخر ما نزل من القرآن الكريم؛ فمن أهل العلم من قال: إن آخر ما نزل من القرآن الكريم قول الله - جلَّ وَعَلَا -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، لكن هذا القول مرجوح؛ لأن هذه الآيةَ الكريمةَ نزلت عشية عرفة في يوم جمعة في حجة الوداع على قلب النبيِّ ﷺ[2]، والراجح: أن آخر ما نزل من القرآن الكريم قولُ الله - جلَّ وَعَلَا - في آخر سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾»[3].

---

(١) «الإتقان» (١ / ١٠١) وما بعدها، و«المناهل» (١ / ٨٥) وما بعدها.

(٢) كما عند البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع (٤٤٠٧)، وانظر: (٤٦٠٦، ٧٢٦٨)، ومسلم، كتاب التفسير (٣٠١٧).

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٠٥٧)، وابن جرير في «تفسيره» (٦٣١٤، ٦٣١٥، ٦٣١٨)، والواحدى في «أسباب النزول» (٩، ١١)، وأبو عمرو الداني في «البيان في عد آي القرآن» (٣٨)، والطبراني في «الكبير» (١١ / ٣٧١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦ / ٣٥٥): «رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات». وزاد في «الدر المنثور» (١ / ٧٠٦) نسبته إلى أبي عبيد =

وقال سعيد بن جبير: «آخر ما نزل من القرآن كلِّه: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ... ﴾ عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول»(١).

ونقل أبو حيان هذا القول عن الجمهور(٢).

ولقد كان النبيُّ ﷺ يحفظُ ما يعرضه عليه جبريلُ عليه السلام من القرآن الكريم عن ظهر قلب، ويجمع كُتَّاب الوحي من الصحابة الكرام كلما نزل عليه شيءٌ من القرآن أمْلى عليهم مما حفظه في قلبه فيكتبون ويحفظون، وحَفِظ القرآنَ من الصحابة جمعٌ غفير؛ فالقرآنُ حفظ في صدر النبيِّ ﷺ وقلبه الطاهر، وكان سيد الحفاظ، مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمور القرآن وغيره، وكان يحي الليل به، وكان جبريل يعاوده في كل عام مرة، وفي العام الذي توفي فيه النبيُّ ﷺ قرأ على جبريل القرآن مرتين(٣).

فحفظه في صدره، ثم في صدور أصحابه، ثم انتقل بعد ذلك إلى الصحائف والسطور، فكان الصحابةُ يكتبون آيات القرآن على العسب (أي: جريد النخل)، واللِخَاف (أي: الحجارة الرقيقة)، والرقاع (أي: الجلود)، وقطع الأديم (أي: الجلد)، وعظام الأكتاف والأضلاع، ثم بعد ذلك جمع في المصحف في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم بعد ذلك جمع في مصحف إمامٍ واحدٍ في عهد عثمان رضي الله عنه بعد موقعة أذربيجان(٤).

أما عن لغة القرآن: فهي العربية التي تكلَّم بها النبيُّ ﷺ، وهذا شرفٌ للعرب وللعربية لا يدانيه شرفٌ؛ قال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

= وعبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في «المصاحف»، وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» (٧ / ١٣٧).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٩٩١)، وأخرج ابن جرير مثله (٦٣١٨) عن ابن جريج.

(٢) «البحر المحيط» (٢ / ٢٥٨) ط الفكر.

(٣) كما في «صحيح» البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٢٤) من حديث فاطمة رضي الله عنها قالت: أسرَّ إلي النبي ﷺ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي**».

(٤) راجع تفصيل ذلك في كتابي «جبريل يسأل» (٢ / ٣٧٨ – ٤٠٠).

وقد آن الآوان أن تعتز الأمةُ بلغة القرآن التي يسَّرها اللهُ تعالى لها؛ فقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

ولكن بكلِّ أسفٍ أُهملت اللغةُ، وضاعت بين العربِ أهلِ العربية؛ بل إننا نرى كثيرًا ممن يتصدرون للدعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - لا يتقن الحديث باللغة العربية، ومن جميل ما قرأتُ: عن ابن أبي مليكة قال: قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب ﷺ؛ فقال: من يقرئني مما أنزل الله على محمد؟ فأقرأه رجل «براءة»؛ فقال: «أن الله بريء من المشركين ورسولِهِ» بالجر! فقال الأعرابي: أَوَقد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله بَرِئَ من رسوله فأنا بريء منه!! فبلغ عمرَ مقالةُ الأعرابي فدعاه؛ فقال: يا أعرابي أتبرأُ من رسول الله ﷺ؟ قال: يا أميرَ المؤمنين إني قدمت المدينةَ ولا علم لي بالقرآن، فسألت منْ يُقْرِئني فأقرأني هذا سورة «براءة»؛ فقال: «وأذان من الله ورسوله... أن الله بريء من المشركين ورسولِهِ»، فقلت: أوقد برئ الله من رسوله، فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فقال عمر ﷺ: ليس هكذا يا أعرابي، قال: فكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٣]؛ فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر عمر بن الخطاب ﷺ أن لا يقرئ الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي فوضع علم النحو[(١)].

فالقرآنُ الكريم كنزُ مَعَانٍ، ونهرُ حقائق، وبرجُ زواهر، وعالمُ عِلْم، ومعينُ دُرَر، وعذُوبة لفظ، وجمالُ معنى، ولو وقفنا مع القرآن لاحتجنا إلى أعمار على أعمار؛ لأنه كلام العزيز الغفار، وهذا هو أعظم دليل على إعجاز القرآن؛ فمصدرية القرآن دليلٌ على إعجازه.

لقد تحدَّى الله به البشرية عامة، وتحدَّى به المشركين خاصة، وما زال التحدي قائمًا إلى يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ فلما عجزوا عن الإتيان

---

(١) أورده صاحب «كنز العمال» (٢ / ٤٤٧)، وعزاه لابن الأنباري في «الوقف والابتداء»، وانظر: «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» لابن الأنباري (ص٣)، و«تفسير القرطبي» (١ / ٢٤).

بقرآن مثله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، فلما عجزوا خفف الله التحدي إلى أقل درجاته، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدةٍ؛ فعجزوا؛ قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فالقرآن الكريم معجزةٌ كبرى، ونعمةٌ عظمى؛ قال البيهقيُّ (١) رحمه الله: «واختلف أهلُ العلم في إعجاز القرآن:

منهم من قال: إعجازه من جهة البلاغة وحسن اللفظ دون النظم.

ومنهم من قال: إعجازه في نظمه دون لفظه؛ فإن العرب قد تكلمت بألفاظه.

ومنهم من قال: إعجازه في إخباره عن عدد الحوادث، وإنذاره بالكوائن في مستقبل الزمان ووقوعها على الصفة التي أنبأ عنها.

ومنهم من قال: إعجازه في أن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله، وصرف الهمم عن معارضته مع وقوع التحدي وتوفر الدواعي إليه؛ لتكون آية للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه.

وقد ذهب بعض العلماء إلى إثبات الإعجاز للقرآن من جميع هذه الوجوه، ولا معنى لقول من زعم أن لا إعجاز في لفظه؛ لأن الألفاظ مستعملة في كلام العرب ومتداولة في خطابها؛ لأن البلاغة ليست في أعيان الأسماء ومفرد الألفاظ وحسب دون أن تكون هذه الأوضاع معتبرة بمحالها ومواضعها المصرفة إليها والمستعملة فيها.

قال الشيخ أبو سليمان رحمه الله: وبيان ذلك أن العربَ قد تعرف لفظ الصدع في لغتها، وتتكلم به في خطابها، ثم إنك لا تجده مستعملًا لهم في مثل قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، ويستعمل العربُ اسم الضرب، ثم لا تجده لهم

(١) «الاعتقاد» للبيهقي (ص: ٢٩٤ – ٢٩٧).



مستعملًا في مثل قوله: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١]، وكذلك لفظ النبذ، ثم لا تجده لهم في مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨]. إلى ما يجمع هذا الكلامُ من الوجازة والاختصار وحذف المقتضى وإعمال الضمير والاقتصار على الوحي المفهم، وكقوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ [يس: ٣٧] فإن حقيقته نخرج منه النهار، إلا أن موضع البلاغة هاهنا في السلخ أنه إخراج الشيء مما لابسه وعسُرَ انتزاعه منه لالتحامه به، وذلك قياس الليل ومثاله، وكقوله عزَّ وجل: ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٥]؛ أي: يوم لا يُعقِبُ للمعذبين غدًا، ولا ينتج لهم خيرًا، قال: وقد استحسن الناس في الإيجاز قولهم: (القتل أنفى للقتل)، وبينه وبين قول الله سبحانه ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩] تفاوت في البلاغة والإيجاز.

وبيان ذلك أن في هذا الكلام كل ما في قولهم (القتل أنفى للقتل) وزيادة معان ليست فيه، منها: الإبانة عن الفداء لذكر القصاص، ومنها: الإبانة عن الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة، ومنها: بُعده عن التكلف، وسلامته من تكرار اللفظ الذي فيه على النفس مشقة، وعلى السمع مؤونة.

قال الشيخ: وقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، أوجز في العبارة؛ فإنه عشرة أحرف، وقول من قال: (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر حرفًا، قال: وإذا تأملت هذه المعاني من القرآن وتتبعتها منه كثر وجودك لها، وإنما ذكرنا هذا القدرَ ليكون مثالًا مرشدًا إلى نظائر منه.

وأما إعجازه من جهة النظم؛ فالمعجز منه نظم جنس الكلام الذي باين به القرآنُ سائرَ أصناف الكلام التي تكلمت بها العربُ؛ فإن أجناس كلام العرب التي تكلمت بها خمسة:

١- المنثور الذي تستعمله العرب في محاورة بعضهم بعضًا.

٢- والشعر الموزون.

٣- والخطب.

٤- والرسائل.

٥- والسجع.

وكل نوع منها نمطه غير نمط صاحبه، ونظم كلام القرآن مباين لهذه الوجوه الخمسة مباينة لا تخفى على من يسمعه من عربي فصيح، أو ذي معرفة بلسان العرب من غيرهم، حتى إذا سمعه لم يلبث أن يشهد بمخالفته لسائر هذه الأنواع من الكلام، والحجة إنما قامت على قريش وسائر العرب بوقوفهم على ذلك من أمره، وأن هذا الفرقَ بينه وبين سائر الكلام هو موضع الحجة.

وبذلك صار معجزًا للخلق، وقائمًا مقام الحجج التي بعث الله بها رسله واحتج بها على الناس مثل: فلق البحر، وإحياء الموتى، ومنع النار من الإحراق، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] إلى أن قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤] الآية». ا. هـ.

وإنَّ مما لاشك فيه ـ لدى العقلاء والفصحاء ـ أن للقرآن الكريم منزلةً بين سائر الكتب الإلهية التي تقدمته في النزول، وقد تتجلى هذه المنزلةُ العاليةُ للقرآن العظيم بإمعان النظر في النقاط التالية:

● **أولاً:** كون القرآن ناسخًا لها لفظًا وحُكمًا؛ فلا تُقْرأ للتعبد، ولا يُعمل بما فيها من شرائع وأحكام، وذلك لِمَا داخلها من تحريف، وما أصابها من تضييع ونسيان، ولأنها كانت شرائع خاصة ببني إسرائيل، أو موقوتة بزمن معين، في الوقت الذي أنزل القرآن الكريم ليكون كتابًا للعالمين: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

● **ثانيًا:** كونه مهيمنًا عليها رقيبًا شهيدًا، فما صححه منها وأقره فيها صحَّ وقرَّ، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخيلًا عليه ليس منها بطل وانتفى؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

●**ثالثًا:** لتعهد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بحفظه إلى أن يرفعه إليه، وليس ذلك لغير القرآن؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

وكما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن

بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١،٤٢].

في حين أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ استحفظ الأمم السابقة على كُتُبها: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة:٤٤].

ولكنهم لم يحافظوا عليها ولم يحفظوها، بل ضيَّعوها وحرَّفوها كما سبق.

أما القرآن فعلى مدى الزمان لم تستطع يدُ العدوان أن تحرف فيه شيئًا لا بزيادة أو نقصان.

• **رابعًا:** اشتماله على كل خير، وإرشاده لكل كمال، وهدايته إلى سعادة الدَّاريْن، كما أن فيه الرحمةَ بأتم معانيها، تلك التي تشمل الإنسانَ، والجانَ، والحيوانَ، والكافرَ والمؤمنَ، والحي والميتَ، وفيه الشفاء التام العام لجميع الأمراض العقلية، والنفسية، والقلبية، فيه الشفاء من الكفر، والشرك، والقلق، والاضطراب، والحيرة، والخوف، والكبر، والحسد، والكسل، والعجز، والبخل، والشح، والظلم، والخوف؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

• **خامسًا:** فيه التبيان لكلِّ شيء مما يحتاج إليه الإنسانُ وتتوقفُ عليه سعادةُ الدنيا والآخرة، وكذا الهداية الكاملة، والرحمة التامة، والبشرى بخيري الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩].

• **سادسًا:** فيه النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية، والمبدد لسائر الجهالات النفسية، والمبيِّن لسائر الحقائق والأسرار الكونية؛ كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

وفيه الحق الإلهي الثابت في نفسه، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق.

قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:١٠٥].

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٤٨].

أي: متلبسًا به، مشتملًا عليه، مؤيدًا له ومقررًا.

• **سابعًا:** فيه الذكر الإلهيُّ الذي تَحيا عليه القلوب، وتطيب بتلاوته الأرواح،

وتزكو بالعمل به النفوس ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف:٤٤].

وكذا الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة، والزاجرة عن كل رذيلة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

نعم رحمة وهداية للمؤمنين [١].

● **ثامنًا:** شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها، واحتواؤه على أعظم منهج ربانيٍّ يحقق السعادة في الدنيا والآخرة: «فالإيمان به يقتضي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والاعتبار بأمثاله، والاتعاظ بقصصه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتلاوته آناء الليل والنهار، والذب عنه لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، والنصيحة له ظاهرًا وباطنًا بجميع معانيها» [٢].

ولِمَ لا؟ وإن مَنْ يبتغي الحق، ويريد الوصولَ إلى التعاليم الإلهية الصحيحة لا يجد أمامه غير القرآن الكريم؛ فهو الكتاب الذي حُفِظت أصوله، وسَلِمت تعاليمه، وتلقته الأمةُ عن محمد ﷺ، عن جبريل، عن الله، الأمر الذي لم يتوفر لكتاب مثله، وأنه الجامع لأسمى المبادئ وأقوم المناهج، وخير النظم، والحافل بكل ما يحتاج إليه البشرُ من حيث العقائد والعبادات والآداب والمعاملات، والنظم، وأنه الكفيل بخلق الفرد الكامل، والأسرة الفاضلة، والمجتمع الصالح، والحكومة العادلة، والكيان القوي الذي يقيم الحقَّ والعدلَ، ويرفع الظلمَ، ويدفع العدوانَ، وأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الخلافة، ووراثة الأرض [٣].

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة: ١٥، ١٦].

---

(١) «عقيدة المؤمن» لأبي بكر الجزائري (ص ٢٤٠ – ٢٤٥) بتصرف.

(٢) «معارج القبول» للحكمي (٢ / ٧٨) بتصرف.

(٣) «العقائد الإسلامية» لسيد سابق (ص ١٤٧ – ١٤٨) بتصرف.

• **تاسعًا:** هذا القرآن هو الروح التي تتوقف عليه حياةُ الإنسان الفاضلة الكريمة، وأن الناس بدون أن تسري فيهم الروحُ القرآنيةُ أموات حقًّا لا ينتفعون بوجودهم ولا بحياتهم المادية؛ قال تعالى في هذا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولكن من الذي ينتفع بالقرآن بما فيه من خير وهدى ونور وبيان؟ إنهم مَنْ اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

١ـ الإسلام:

بأن يسلم المرءُ لله تعالى قلبه ووجهه؛ طالبًا رضاه، منفذًا لأوامره،متجنبًا نواهيه وما يَسْخَطه الله من اعتقاد وقول وعمل؛ قال سبحانه:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[النحل: ٨٩].

٢ـ الإيمان:

بأن يؤمن المرء إيمانًا عامًّا بكل ما جاء به الرسول ﷺ ، ويؤمن إيمانًا خاصًّا بما في القرآن من الهدى والخير، يحمله على تعرفه عليه ومدارسته والعمل بما فيه؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

٣ـ الإحسان:

بأن يحسن المرء في إيمانه وإسلامه؛ فيعيش يراقب الله تعالى في كل ما يأتي ويذر، وما يقدم وما يؤخر، يراقبه في طاعته كما يراقبه في معصيته ويراقبه في محابه فيأتيها، ومساخطه فيتجنبها؛ قال تعالى:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٢، ٣].

٤ـ التقوى:

بأن يتقي الله تعالى في أن يشرك به أو أن يعصيه، بترك ما أوجب عليه، أو انتدبه

إليه، أو بفعل ما حرمه عليه، أو كرهه له: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

- **وكلمة أخيرة:**

إن من استكمل هذه الصفات، وحققها فقد استوجب كُلَّ ما في القرآن من خير وهدى، وتحقق له ذلك كاملًا، فحصل له الشفاءُ في صدره وبدنه، والرحمة في قلبه، والنور في بصيرته، والذكر والموعظة في قلبه، والبيان في لسانه، والحق في حكمه، والبشرى في حياته وآخرته.

وأما من لم يستكمل تلك الصفات فإنه لم ينتفع بما في القرآن من الهدى والخير، وليس ذلك عائدًا إلى أن القرآنَ نفد منه هداه وخيره اللذان كانا فيه، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه، وإن لذلك مثلًا نضربه: هو وجود مريض يوصف له دواء نافع، ويقدم له، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله، فيبقى الدواء في خزانته، ويبقى هو يعاني من آلام مرضه إلى أن يكره على استعمال الدواء فيشربه، فيشفى من مرضه، أو لا يُكْرهه أحدٌ على شربه واستعماله، فيبقى يعاني من أسقامه وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت.

فهل الذنب ذنب الدواء؟ والجواب: لا، إن الذنب ذنب المريض نفسه الذي لم يستعمل الدواءَ، وهو بين يديه، فكان حاله كحال من قال:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول [(١)]. ا هـ.

فالقرآن له فضلٌ كبيرٌ، وقدرٌ عظيمٌ، وأجرٌ وفيرٌ، وهو نعمة امتن اللهُ بها على عباده؛ فهو كلام الله سبحانه وتعالى وكفى.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ

---

(١) «عقيدة المؤمن» (ص ٢٤٦ – ٢٤٧) بتصرف، و «حقيقة الإيمان» (٢ / ٨٢).

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٢٩، ٣٠].

وفي «**الصحيحين**»(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ**».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرٌ لَكَ فِي الأَرْضِ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الوحي، باب ٥(٦)، وانظر أطرافه هناك، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٢٣٠٨).
وقوله: «وَكَانَ أَجْوَدُ» قال النوويُّ: «الرفع أشهر، والنصب جائز»، راجع: «الفتح» (١/ ٤١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٢)، وابن المبارك في «الزهد» (٨٤٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩٩٦)، والطبراني في «الصغير» (٩٤٩)، والبيهقي في «الأدب» (١٠١٤)، وأورده الهيثمي في «المجمع»(٤/ ٢١٥)، وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه، ورجال أحمد ثقات، وفي إسناد أبي يعلى ليث بن أبي سليم وهو مدلس»، وقال (١٠/ ٣٠١): «رواه الطبراني في «الصغير» وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وقد وثق هو وبقية رجاله»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٣)، و«الصحيحة» (٥٥٥).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ الله وَرَسُولَهُ فَلْيَنْظُرْ فِي الْمُصْحَفِ**»[(١)].

وفي لفظٍ: «**فَلْيَقْرَأْ**».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**»[(٢)].

والمراد بقوله: الماهر بالقرآن؛ أي الذي يقرأ القرآن بمهارة، ويحسن الأداء؛ فمنزلته مع الملائكة، والذي يقرأ القرآن بصعوبةٍ له أجران؛ أجر التلاوة وأجر مواصلته للقراءة بمشقة وصعوبة، ولاشك أن الأول أفضل لما دلت عليه المعيةُ الكريمةُ، من صحبة الملائكة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ! زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ! ارْضَ عَنْهُ؛ فَيَرْضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً**»[(٣)].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لَوْ كَانَتْ سُورَةً وَاحِدَةً لَكَفَتِ النَّاسَ**»[(٤)].

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٠٩)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٨٥٥)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠١٧)، وحسنه الألباني في«صحيح الجامع» (٦٢٨٩)، و«الصحيحة» (٢٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، سورة عبس (٤٩٣٧)، ومسلمٌ، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتعتع فيه (٧٩٨) واللفظ له.

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب فضائل القرآن، باب (١٨)، (٢٩١٥)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، والدارمي، كتاب فضائل القرآن (٣٣١١)، والحاكم (١/ ٥٥٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «صحيح»، وحسنه الألباني في«صحيح الجامع» (٨٠٣٠).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الصوم، باب المرأة تصوم بغير إذن زوجها (٢٤٥٩)، وأحمد (٣/ ٨٠، ٨٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٠٤٤)، والحاكم (١/ ٤٣٦)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٣٠٣)، وأبو يعلى (١٠٣٧)، وابن حبان (١٤٨٨)، وانظر: «إرواء الغليل» (٧/ ٦٤، ٦٥)، و«الصحيحة» (١/ ٧٥١).

بِهِ آخَرِينَ»(١).

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لله تَعَالَى أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ»، قيل: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ»(٢).

وعن جابر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، ومَاحِلٌ مصَدَّقٌ، من جْعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، ومنْ جْعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»(٣).

وروى البخاريُّ ومسلم(٤) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَذِنَ الله لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنَ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ».

وروى مسلمٌ(٥) عن عقبة بن عامر ﷺ قال: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ في الصُّفَّةِ؛ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله! نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ».

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٧، ١٢٨، ٢٤٢)، والطيالسي (٢١٢٤)، والنسائي في «الكبرى»، كتاب فضائل القرآن، باب أهل القرآن (٨٠٣١)، والحاكم (١/ ٥٥٦)، وقال: «قد روى هذا الحديث من ثلاثة أوجه عن أنس هذا أمثلها» ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٣)، (٩/ ٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢٩٨٨)، (٢٩٨٩)، والدارمي (٣٣٢٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٦٥).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٢٤) من حديث جابر ﷺ، وقد روي موقوفًا عند ابن أبي شيبة (١/ ٤٩٧ و ٤٩٨)، وعبد الرزاق (٦٠١٠)، وجوَّد المرفوع الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٠١٩)، والشيخ الأرناؤوط في تحقيقه على ابن حبان، وراجع: «علل ابن أبي حاتم» (٤/ ٦١٩)، و «علل» الدارقطني (٧٤٨).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن (٥٠٢٣)، وانظر أطرافه هناك، ومسلمٌ، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢)، واللفظ له.

(٥) أخرجه مسلمٌ، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه (٨٠٣).

وروى مسلمٌ [(١)] عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**».

وعن بريدة ﷺ قال: كُنتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ؛ فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ، الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ؛ فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لاَ يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولاَنِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ**» [(٢)].

- **ومن أعرض عن القرآن ورفضه ؛ فهذا جزاؤه!!**

روى البخاريُّ [(٣)] عن سمرة بن جندب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَهَدْهَدُ الْحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى. قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللهِ، مَا هَذَانِ؟**

---

(١) أخرجه مسلمٌ: كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٦١)، وابن ماجه ـ مختصرًا ـ كتاب الأدب، باب ثواب القرآن (٣٧٨١)، والدارمي (٢٣٩١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٩٢ و ٤٩٣)، والحاكم (١/ ٥٥٦ و ٥٦٠ و ٥٦٧) بإسناد حسَّنه الحافظ ابن كثير في «التفسير» (١/ ٦٤)، لكن فيه بشير بن المهاجر فيه ضعف، وقد أنكر حديثه غير واحد من الأئمة، وقال الحافظ: «صدوق لين الحديث». ومن ثم قال الألباني: «فمثله يحتمل حديثه التحسين». ثم قال: «وتكلم – الحافظ ابن كثير– على رواية بشير بكلام حسن، ثم قال – يعني: ابن كثير –: لكن لبعضه شواهد».

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب (٩٣)، (١٣٨٦)، وكتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧).

قَالَ: قَالاَ لِي: انْطَلِقْ؟ قَالَ: فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّي وَجْهِهِ، فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ - قَالَ: وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ: فَيَشُقُّ قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى...».

وفيه: «أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ».

أفبعد هذا الفضل الجزيل للقرآن وأهله تهجره الأمة، وهو أصل عزها، ونبع شرفها، ومعين كرامتها ووجودها وبقائها؟!

أفبعد هذا الثوب العظيم لكتاب الله تعالى يليق بالمسلم أن لا يطبق أوامره وأحكامه، وفيه الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة؟!

ولقد بين العلامةُ ابن القيم رحمه الله أنواع الهجر للقرآن؛ فقال[1]:

«أحدها: هجرُ سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجرُ العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]».

- **فأولاً: هجر السماع:**

لقد قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]؛ فالقرآن لو نزل على جبل لتصدَّع من خشية الله! والناسُ في ذلك ثلاثة أصناف[2]:

---

(١) «الفوائد» (ص: ٨٢).

(٢) المصدر السابق بتصرفٍ (ص: ٩-١١).

الصنف الأول: ميت القلب؛ فهذا لو سمع القرآنَ كلَّه ما تدبر وما تأثر.

الصنف الثاني: حي القلب؛ لكنه مُعرِضٌ عن القرآن، لا يسمع بأذنه ولا بقلبه؛ فهؤلاء هم أهل الغفلة.

الصنف الثالث: منتفع بالآيات المتلوة والمرئية؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]؛ فهو حيُّ القلب إذا سمع من الله أصغى بسمعه، واستجمع كلَّ كيانه وجوارحه؛ فالمؤمن يسمعُ كتابَ الله فيشعر بالأنس والسعادة والراحة والفرح والسرور؛ فهو يبكي تارةً، ويقشعر جلده تارةً، ويبتسم تارةً، ويفرح تارةً، ويُقبل على الله تارةً، ويطير قلبه شوقًا إلى الجنة تارةً، ويطير قلبه هربًا وخوفًا من النار تارةً؛ لأنه مع كتاب الله - جلَّ وعلا - وكفى.

ولو طهرت القلوبُ ما شبعت من كلام علام الغيوب [١]، ولك أن تتعرَّف على حال الإيمان في قلبك من خلال هذه القضية؛ قال ابن مسعود: «اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وعند الخلوة» [٢].

ثم هل تعلم أن وصية الكافرين لبعضهم البعض ألا يسمعوا لهذا القرآن؟ فكانوا يخافون على أنفسهم سماعه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ أي: شوِّشوا على القرآن، ولا تدعوه يصل إلى الآذان، ولا تنصتوا له؛ لأنه يقلب القلوب، ويَسْبي العقول، وكلُّ من استمع إليه حَبَا إليه، ولو وصل القرآنُ إلى الأذان لصدَّع جلالُ القرآن عناد الكبر في القلوب!!

ويفسر لنا الإمامُ السعديُّ هذه الآيةَ تفسيرًا بديعًا؛ فيقولُ: «يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن، وتواصيهم بذلك؛ فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، فـ ﴿الْغَوْا فِيهِ ﴾ ؛ أي: تكلَّموا بالكلام الذي لا فائدة فيه؛ بل فيه المضرة، ولا تمكنوا - مع قدرتكم- أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم،

---

(١) كما ورد عن عثمان لكن بإسناد منقطع؛ أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الفضائل» (٧٧٥) وفي «زوائد الزهد» (ص:١٢٨)، وهناد في «الزهد» (١١٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٠٠).

(٢) «الفوائد» (١٥٦).

ولسان مقالهم، في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ﴾ وهذه شهادة من الأعداء، وأوضحُ الحقِّ، ما شهدت به الأعداءُ؛ فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه؛ بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلبون؛ فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه»[١].

فالقرآن حين يُسمع بأُذنٍ واعيةٍ، وقلبٍ حاضرٍ يعمل جلالُه في القلوب عملًا.

نعم... لقد صدَّع جلالُ القرآن عنادَ الكبر والكفر في قلوب المشركين؛ فلم يتمالك المشركون جوارحهم بعدما انقادت قلوبُهم وعقولهم للقرآن الكريم في السنة الخامسة من البعثة النبوية الطاهرة[٢]، كانت رحى الصراع دائرة على أشدها بينه وبين المشركين، وقرأ النبيُّ ﷺ سورة النجم بمكة، ولك أن تتخيل حلاوة القرآن وجلاله حين يتلوه أطهر الخلق محمد ﷺ؛ فالقرآن لو أنزله الله على جبل لتصدع من خشية الله -جلَّ وعلا- قام النبيُّ ﷺ يقرأ هذه الآيات: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٥]، وفي آخر السورة قرأ آيات كريمات تطير لها القلوب، وتتحرك لها الأفئدة: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩﴾ [النجم: ٥٩ - ٦٢] وخر النبيُّ ﷺ ساجدًا لله تعالى، فلم يتمالك أحدٌ من المشركين نفسه، فخروا كلُّهم سجدًا خلف النبيِّ ﷺ؛ ففي «صحيح» البخاري[٣] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الـمُسْلِمُونَ وَالـمُشْرِكُونَ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ».

فليست التلاوة لبشرٍ عاديٍّ؛ فلك أن تتصور حلاوةَ وجلالَ وجمالَ القرآن وهو يخرج من فم الحبيب ﷺ؛ فالجميع سجد في التوِّ واللحظة؛ حتى الجن، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (لسورة فصلت: ٢٦).

(٢) كما قال أهل السير؛ ذكره الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١).

وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ﴾ [الجن: ١، ٢].

وفي «مصنف» ابن أبي شيبة، و«المنتخب» لعبد بن حميد، و «الدلائل» لأبي نعيم(١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: حُدِّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَكَانَ سَيِّدًا حَلِيمًا، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ؛ وَرَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ وَحْدَهُ فِي الْمَسْجِدِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلا أَقُومُ إِلَى هَذَا فَأُكَلِّمُهُ فَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا، لَعَلَّهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهَا بَعْضَهَا وَيَكُفَّ عَنَّا؟، قَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَقَامَ عُتْبَةُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِيمَا قَالَ لَهُ عُتْبَةُ وَفِيمَا عَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَلَمَّا فَرَغَ عُتْبَةُ؛ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاسْمَعْ مِنِّي»، قَالَ: أَفْعَلُ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [فصلت: ١ – ٤]؛ فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ، يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا وَأَلْقَى بِيَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا يَسْمَعُ مِنْهُ، حَتَّى انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ، إِلَى السَّجْدَةِ فَسَجَدَ فِيهَا، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟»، قَالَ: سَمِعْتُ، قَالَ: «فَأَنْتَ وَذَاكَ»، فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بِالله لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ، قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟، قَالَ: وَرَائِي أَنِّي وَالله سَمِعْتُ قَوْلا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ وَاللهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلا السِّحْرِ، وَلا الْكَهَانَةِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطِيعُونِي وَاجْعلُوهَا بِي، خَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ، فَوَالله لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأٌ؛ فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَالله يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ؛ قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ.

وها هو الوليد بن المغيرة والد فارس الإسلام، وسيف الله المسلول خالد رضي الله عنه لما سمع الوليدُ القرآنَ قال كلماتٍ رقراقةً؛ كما في «مستدرك» الحاكم، و «الدلائل»،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٥٦٠)، وعنه عبد بن حميد في «المنتخب» (١١٢٣)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٢٥٨)، وله شاهدٌ عن ابن عمر عند البيهقي في «الدلائل» (٢ / ٢٠٥، ٢٠٦)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح السيرة» (١٥٩ – ١٦١).

و «الشعب» للبيهقي [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْـمُغِيرَةِ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا عَمِّ إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعَرَّضَ لِمَا قِبَلَهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهَا، أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ، قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَـمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ، قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثِرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر: ١١].

فإياك وهَجْر السماع - أيها الحبيبُ - وأنت الآن تستطيع أن تسمع القرآن في مكتبك أو في سيارتك عبر شريط الكاسيت؛ فلا تحرم نفسك من هذا الخير ولا تجعل بيتك خاليًا من سماعه؛ ففي «صحيح» مسلم [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ من الْبَيْتِ الذي تُقْرَأُ فيه سُورَةُ الْبَقَرَةِ**»؛ فعلى المسلم أن يكثر السماع للقرآن، وأن ينصت لسماعه من غيره، وقد قال تعالى في حال الصلاة: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وصاحب القلب الحيِّ هو الذي يصغي بأذن رأسه وقلبه ليسمع عن الله تعالى قرآنه، لينتفع بآيات الله المتلوة؛ بل والمرئية.

- **ثانيًا: هجر التلاوة:**

روى الترمذيُّ، والحاكمُ، والطبرانيُّ وغيرهم بسندٍ صحيح [(٣)] من حديث عبد الله

---

(١) أخرجه الحاكم (٢ / ٥٥٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٢ / ١٩٨ - ٢٠٠)، و «الشعب» (١٣٥) بإسنادٍ جوَّده العراقي في «تخريج الإحياء» (١ / ٢٧٤)، وصححه الألباني في «صحيح السيرة» (١٥٨، ١٥٩).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٨٠).

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر (٢٩١٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والدارمي في «سننه» =

ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**».

هل من المعقول أن يتخلَّى مسلمٌ أو مسلمةٌ عن هذا الفضل؟ محرومٌ ومخذولٌ منْ يتخلَّى عن قراءة القرآن الكريم - ورب الكعبة -؛ ففي «**صحيح**» مسلم [(١)] من حديث أبي أمامة الباهليِّ ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَؤُوا القُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**».

وفي «**الصحيحين**» [(٢)] من حديث عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ قال: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ؛ لَهُ أَجْرَانِ**».

وفي «**الصحيحين**» [(٣)] من حديث ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**».

والحسد هنا بمعنى الغبطة، وليس بمعنى تمني زوال النعمة؛ فالغبطة في أبواب الخير مطلوبة؛ قال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وفي «**مسند**» أحمد، و «**سنن**» الترمذي وغيرهما [(٤)] بسندٍ صحيحٍ من حديث عبد الله بن عمرو ﵄

= (٣٣٠٨، ٣٣١٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٤٦ - ٨٦٤٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥٩٩٣، ٦٠١٧)، والحاكم (١ / ٥٥٥)، وقال: «حديث صحيح الإسناد بصالح بن عمر» وقال الذهبي: «صالح ثقة، خرج له مسلم، لكن إبراهيم بن مسلم ضعيف»، وابن نصر المروزي في «قيام الليل» (٧٠، ١٢١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٦٦٠)، و «صحيح الجامع» (٦٤٦٩).

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، سورة عبس (٤٩٣٧)، ومسلمٌ، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «**رجل آتاه الله القرآن...**» (٧٥٢٩) وانظر طرفه (٥٠٢٥)، ومسلمٌ، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقهٍ، أو غيره فعمل بها وعلَّمها (٨١٥).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (١٤٦٤) والترمذي، كتاب =

أن النبي ﷺ فقال: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا».

وهل يشترط في ذلك الحفظ ليرتفع العبد في الدرجات؟ فيها قولان: والراجح - والعلم عند الله -: أن الثواب الوارد في الحديث يشمل حافظ القرآن عن ظهر قلب والقارئ العامل له ولو لم يكن حافظًا حتى لا نضيق ما وسع الله تبارك وتعالى[1].

فلا تحرم نفسك من أعلى منازل الجنان مع سيد النبيين وإمام المرسلين محمد ﷺ.

وفي «الصحيحين»[2] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

لقد شبَّه النبيُّ ﷺ المؤمن الذي يقرأ كتاب الله بالتفاحة ريحها طيب وطعمها طيب، ثم شبَّه المؤمن الذي لا يقرأ بالثمرة طعمها طيب ولا ريح لها؛ فرجل آتاه الله القرآن فهجره وصدَق عليه قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

فالله ما أنزل هذا الكتابَ ليكون مجرد كتابٍ للتلاوة فحسب! أو ليكون مجرد كتاب تاريخ أو كتاب فلك أو طب! كلَّا؛ بل ما أنزل الله هذا الكتاب إلا ليكون منهج

= فضائل القرآن، باب (١٨)، (٢٩١٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (٢/ ١٩٢)، و (٣/ ٤٠)، وابن ماجه (٣٧٨٠)، وابن أبي شيبة (١٠ / ٤٩٨)، والحاكم (١/ ٥٥٢)، والبيهقي في «السنن» (٢/ ٥٣) والبغوى في «شرح السنة» (١١٧٨)، وابن حبان (٧٦٦)، وهو في «صحيح الترمذي»، و «صحيح الجامع» (٨١٢٢).

(١) راجع: «الفتاوى الحديثية» لابن حجر الهيتمي (١١٣)، و «مرقاة المفاتيح» (٦ / ٤٩٥) و«فيض القدير» (٢ / ٥٠٥)، و «التيسير بشرح الجامع الصغير» (١ / ٦٨٧)، و«فتاوى اللجنة الدائمة» (٢٩ / ١٢٣، ١٢٤)، و «عون المعبود» (٣ / ٢١٢)، و «تحفة الأحوذي» (٧ / ٣٧٧)، و«الصحيحة» (تحت حديث: ٢٢٤٠)، و«لقاءات الباب المفتوح» لابن عثيمين (٤٦/ ١٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام (٥٤٢٧)، ومسلمٌ، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب فضيلة حافظ القرآن (٧٩٧).

حياة؛ بل حياة للحياة؛ فما أنزله إلا ليقيم به النبيُّ ﷺ أمةً...، وإلا ليربي به النبي ﷺ العقول والقلوب والضمائر والأخلاق؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

لقد غلِّقت القلوبُ وَوُضِع عليها الأقفالُ تلو الأقفال؛ فالأمة - إلا من رحم الله - تسمع القرآن الكريم منذ مئات السنين! فالقرآن الذي أقام به النبيُّ ﷺ للإسلام دولةً وسط صحراء تموج بالكفر.. القرآن الذي حول الحفاة العراة الغلاظ إلى قمم شماء، لا زال بين أيدينا، ولكن الأمة - إلا من رحم الله - يوم أن انحرفت عنه ذلت، وهانت، وأصبحت قصعةً مستباحةً لعبَّاد البقر في الهند الذين يصبون الآن جام غضبهم على المسلمين في كشمير، وأصبحت كذلك قصعةً مستباحةً لأنجس أمم الأرض من اليهود، وتحكَّم في الأمة الضعيفُ قبل القوي، مع أن الأمة ليست ضعيفة؛ فالأمة تملك كُلَّ مقومات القوة بلا نزاع حتى السيولة المادية؛ فالأمة تملكها، فضلًا عن المناخ، فضلًا عن الموارد، فضلًا عن الأعداد؛ فضلًا عن الطاقة البشرية الهائلة؛ فضلًا عن الوسطية لهذه الأمة، الأمة تسمى بمنطقة الشرق الأوسط؛ فالأمة ليست ضعيفة، ولكنها هُزمت يوم أن نحَّت كتاب الله، وأعداؤنا يعلمون تمام العلم أن الأمة لا كرامة لها إن نَحَّت أو هجرت كتاب الله - جلَّ وَعَلَا؛ قالها جميع المستشرقين؛ قالوا: «لا يمكن أبدًا لأوروبا أن تسيطر على الشرق الأوسط إلا إذا قضيت على القرآن»، ويوم أن قام رجلٌ أرْعَنٌ أحمق في مجلس العموم البريطاني، وأمسك كتاب الله في يده ومزقه، ثم داسه بالقدم، وقف رئيس وزراء بريطانيا ليقول له: يا أرعن! يا أحمق! أنا ما قصدت أن يمزق القرآنُ كأوراق، وإنما قصدت أن يمزق القرآن في قلوب الأمة، ولا يتحول القرآن في واقع الأمة إلى منهج حياة، وها نحن نقرأ القرآن؛ لكن الذي لا يقرأُ القرآنَ من المنافقين كالريحانة طعمها مرٌّ، وإن كان ريحها طيب!! فهذا هو واقع الأمة وحالها، تسمع كلام ربِّها ليل نهار، ولكنها لاتمتثل لأمره، ولا تجتنب نهيه، ولا تقف عند حدِّه، فقد استبدلت الأمة بالعبير بعرًا، وبالثريا ثرى، وبالرحيق المختوم حريقًا محرقًا مدمرًا، فأحرقها وأهانها ودمرها؛ فمثل الأمة حين نَحَّت القرآن كمثل الجُعل يتأذى من رائحة المسك الفواح ويسعد برائحة القذر والنتن في المستراح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فوالله ثم والله لن ترى الأمةُ عزًّا، ولن ترى الأمةُ كرامةً، ولن ترى الأمةُ سيادةً؛ إلا إذا فاءت من جديد إلى كتاب ربها - جلَّ وعلا - لتَردِّد ما رَدَّده الجيلُ القرآنيُّ الفريدُ أولَ مرةً: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ فكلام الله تعالى له تأثير في باطن العبد وظاهره، وإن العباد متفاوتون في ذلك فمنهم من له النصيبُ الأوفرُ في ذلك التأثير الباطني والظاهري، وهو المؤمن القارئ للقرآن، العامل به، ومنهم من لا نصيب له البتة وهو المنافق الحقيقي، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه وهو المرائي؛ فالمرائي يعاقبه الله بضد قصده ونيته في الدنيا قبل الآخرة.

نسأل اللهَ أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يرد الأمة بزعمائها وأبنائها إلى القرآن ردًّا جميلًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وفي «**صحيح**» البخاري [١] من حديث عثمان بن عفان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».

قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على حديث عثمان [٢]: «ولا شك أن الجامعَ بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره، جامع بين النفع القاصر، وبين النفع المتعدي»؛ أي: نفع نفسه، ونفع غيره.

يا من تظنون أن العملَ للإسلام مسئولية الدعاة والشيوخ؛ فمن طلابنا من حفظ القرآن كلَّه. ومنهم من حفظ نصف القرآن، ومنهم من حفظ ربع القرآن؛ لكنْ مِنْ هؤلاء من سمع هذا الحديثَ عن رسول الله ﷺ فشرع على الفور في مسجده الذي يصلي فيه إلى جوار بيته وجمع إخوانه من الكبار والصغار، وعقد لهم حلقة ليعلِّمَهم ما علَّمه اللهُ من القرآن؛ ابتغاء مرضات الرحيم الرحمن - جلَّ وَعَلَا -.

كيف يكون الحالُ لو أن كلَّ واحد منا علَّم ما عَلِم وحفظَ من كتاب الله - جلَّ وعلا - إلى غيره؟ والله لتغيرَّ حالُنا، واستقام أمرُنا، وصلحت شئون حياتنا.

من الذي فكر في حديث رسول الله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**» [٣].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧، ٥٠٢٨).

(٢) «فتح البارى» (٨/ ٦٩٣).

(٣) سبق قريبًا.

فمن الذي تحرك قلبه امتثالًا لأمر نبيه المصطفى ﷺ - الذي يتغنى بحبه - فجاء على مجموعة من الكبار أو من الصغار وقال: لا بد أن أتخلص من هذا الحمل الثقيل، ومن هذه الأمانة العظيمة فعقد جلسةً بعد الفجر، أو بعد العصر، أو بعد المغرب، بحسب ما يتيسر لإخوانه الذين سيجلسون إليه؛ ليؤدي هذه الأمانة الثقيلة التي حمَّلها إياه رسولُ الله ﷺ ؛ فلا شك أن من يتعلَّم القرآن ويعلمه من جملة من عناهم الله تبارك وتعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

- **ثالثًا: هجر التدبر:**

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، لا يكن همك آخر السورة؛ بل اقرأ القرآن، واجتهد قدر المستطاع أن تعيش مع المعنى، وكن على يقين بأن الله سيفتح عليك بالمعاني التي لم تكن تتذوق حلاوتها ولا طعمها قبل قراءتها بتدبر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ فالله - جلَّ وَعَلَا - يفتح على كلِّ عبدٍ من عباده على قدر تفتح القلب، وعلى قدر حضوره؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وكُلٌّ بحسب تقواه وتَفتُّح قلبِهِ وسمعِهِ وتدبرِهِ لكلام الله - جلَّ علاه -.

- **رابعًا وخامسًا: هجر العمل بالقرآن والوقوف عند حلاله وحرامه، وهجر التحاكم إليه.**

أين أحكام القرآن في الأمة؛ في إعلامها، وتعليمها، وأحكامها، وسياستها الخارجية والداخلية؟

ووالله لن تُحَلَّ مشكلاتنا إلا إذا عُدنا من جديد إلى كتاب الله - عز وجلَّ -.

وما ذلت الأمةُ لأحقر وأرذل أمم الأرض من اليهود والنصارى والملحدين إلا يوم أن أعرضت عن القرآن، ولم تعمل به، ولم تتحاكم إليه.

فأنا أعلنها بملء فمي، وأعلى صوتي:

يوم أن استبدلت الأمةُ بالعبير بعرًا، وبالثريا ثرى، وبالرحيق المختوم حريقًا محرقًا، ويوم أن تركت الأمةُ سفينة النجاة، وركبت قوارب الشرق الملحد تارة، وقوارب الغرب الكافر تارةً، وقوارب الوسط الأوربي تارةً أخرى، غرقت في أوحال الذل

والهوان، وفي بحارٍ من الظلمات والفتن!! ولا عزة للأمة ولا كرامة لها إلا إذا وقَّرت القرآن، وعادت إليه من جديد، وهي تردد بصدق قولة السابقين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فبالقرآن تحولت الأمةُ العربيةُ إلى أمة مسلمة أذلت الأكاسرةَ وأهانت القياصرةَ، وغيرت مجرى التاريخ في مدة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا؛ فتحولوا في قلب الجزيرة العربية من رعاة للإبل والغنم إلى سادةٍ وقادةٍ لجميع الدول والأمم يوم أن أنصتوا بآذان القلوب وآذان الرؤوس إلى القرآن يتلى على رسول الله ﷺ، فانطلقوا ليحولوا هذا القرآن في دنيا الناس إلى واقع يتألق سموًّا وعظمةً وجلالًا، بل تفاعلوا مع القرآن بصورة مذهلة للعقول في هذا الزمان، وحين سمع أعرابيٌّ رجلًا يومًا يتلو قول الله جلَّ وَعَلَا: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٢،٢٣].

فقال الأعرابي: من ذا الذي أغضب الكريم حتى يقسم؟![1].

إلى هذا الحد من التفاعل مع القرآن؟! كانت الآية تنزل فيقرؤها النبيُّ ﷺ فتتحول في التوِّ واللحظة إلى واقع. كان الصحابةُ في المدينة يشربون الخمر ولم تحرم بعد، فلما دخل صحابي عليهم، وكؤوس الخمر بينهم وقرأ عليهم قول الله جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة:٩٠].فلما قرأ الآية عليهم، والله ما أكمل صحابي جرعة الخمر في يده، لم يقل واحدٌ منهم: نكمل هذه الجرار، وهذه الكؤوس وننتهي، لا؛ بل قام أنس ابن مالك فسكب آنية وجرار الخمر[2]، وسكب الصحابةُ الخمرَ في الشوارع حتى سالت في طرقات المدينة، وقالوا على لسان رجلٍ واحدٍ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

أقول: لما حول الصحابةُ ـ رضوان الله عليهم ـ القرآنَ الكريمَ إلى واقع عملي،

---

(١) رواها ابن قدامة في «التوابين» (ص: ٢٧٣ – ٢٧٤) تعليقًا عن الأصمعي قوله. وانظر: «الكشاف» للزمخشري (٤ / ١٧)، والقرطبي في تفسير الآية.

(٢) كما عند البخاري، كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق (٢٤٦٤)، ومسلمٌ، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر (١٩٨٠).

ومنهج حياة سادوا الأمم، وحولوا العالم كلَّه إلى عالم كثيب أهيل، وأحالوه ركامًا في ركام في مدة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق، لما قرأ العربي في الجزيرة قول الله وتحرك القرآنُ في قلبه، وانتفضت للقرآن جوارحُهُ، وتحول هذا الكلامُ في حياته إلى منهج حياة صار قائدًا.. والله ما عرفنا عمر بن الخطاب، وما عرفنا خالد بن الوليد، وما عرفنا الصديق، وما عرفنا أبي بن كعب، وما عرفنا زيد بن ثابت، وما عرفنا الصحابة إلا بعد أن أحياهم ربنا تبارك وتعالى بفضل هذا القرآن، إلا بعد أن أخرجهم ربنا سبحانه وتعالى من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد والإيمان بهذا القرآن الذي كان يتلوه عليهم النبي ﷺ .

وظلت الأمةُ ترفل في ثوب العزة والكرامة، وهي تطبق آيات وأحكام هذا الكتاب، فلما نحَّت أمرَ القرآن صارت قصعةً مستباحةً لأمم الأرض، وأعلنها أعداؤنا مرارًا وتكرارًا: لابد أن يظل القرآنُ بعيدًا عن ساحة المعركة؛ لأن القرآن لو نزل إلى ساحة المعركة لتحولت المعركةُ إلى جهاد في سبيل الله، وهذا هو الذي حرك الدنيا كلَّها وحرك العالم كلَّه يوم أن تحولت المعركةُ على أرض فلسطين إلى معركة يظلل سماءها كلامُ رب العالمين وكلامُ سيد المرسلين، حينما ترددت لفظةُ الجهاد، وكلمة الشهادة.

والله لا كرامة الآن لأي زعيم ولا لأي حاكم إلا بفضل أطفال الحجارة هؤلاء؛ الذين ردُّوا للأمة الآن شيئًا من اعتبارها، وكرامتها، وعزتها، ولأول مرة في التاريخ الحديث نرى أن اليهود أنفسهم يعيشون الآن حالة فزع ورعب مع ما يتحصنون به من ترسانة عسكرية أمريكية حديثة لم يسبق لها مثيلٌ، ولما علم أولادنا وشبابنا في أرض المعركة أن الأمة تخلت عنهم ولم تنصرهم، وأن العالم الغربي الكافر لا ينصر إيمانًا ولا توحيدًا فعاهدوا الله جلَّ وعلا على الجهاد في سبيله، وردَّدُوا القولة الجميلة: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾[آل عمران: ١٦٠].

وعلموا يقينًا قول الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وردَّدُوا بيقينٍ منقطعِ النظير قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وحققوا قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[المائدة:٥١].

وسعدوا كثيرًا بقراءة قول الله - جلَّ وعلا -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ ﴾[آل عمران:١١٨].

لما تعامل جيلُنا الآن في أرض فلسطين مع القرآن، وفهم هذه الآيات، وعلم عقيدةَ اليهودِ لا على ألسنة البشر، ولا على ألسنة المفكرين والكُتَّاب؛ بل عرف شبابنا عقيدة القوم من كلام رب العالمين، ومن كلام سيد النبيين وسيد الصادقين ﷺ؛ فانطلقوا بهذه العقيدة التي حولت مجريات الأمور كلَّها، وتغيرت تمامًا؛ فما الذي حرك هؤلاء؟ والله ما حرك هؤلاء إلا كلام الله وكلام الصادق رسول الله ﷺ.

فمن أكبر المصائب التي ابتليت بها الأمة أن تهجر القرآن، وألا تتحاكم إليه في كلِّ صغيرة وكبيرة، فالقرآن له حُكْم يا أمة القرآن في الحب والبغض، والولاء والبراء، والعطاء والمن، وفي الإعلام والتعليم، والسياسة الداخلية والخارجية، وفي مأكلنا ومشربنا، وملبسنا وملابس نسائنا، وفي شواطئ بحارنا؛ بل وفي كلِّ جزئية من جزئيات حياتنا.

فلا يجوز لمسلم أن ينفلت يمنةً أو يسرةً عن حكم الله في كتابه تبارك وتعالى؛ قال ﷻ: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[الأنعام: ٣٨]، وقال ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥].

فيجب على الأمة أن تعودَ إلى القرآن، لتمتثل أوامره أمرًا أمرًا، ولتجتنب مناهيه نهيًا نهيًا، ولتقف عند حدوده حدًّا حدًّا.

- **سادسًا: هجر التداوي بالقرآن.**

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء: ٨٢]؛ وكلمة «من» هنا - كما يقول الجمهور من علمائنا من المفسرين - ليست تبعيضية، وإنما لبيان الجنس.

فالقرآن شفاءٌ من كل أمراض القلوب؛ من الشركِ والغلِّ والشكِّ والحقدِ والحسد والضغائن إلى غير ذلك، ولا حرج أن نقف مع بعض آيات القرآن على سبيل أنها رقية شرعية، وقد علَّمنا نبينا ﷺ أن المؤمن يرقي نفسه بها؛ لكن لا ينبغي أن نقول القرآن كتاب طبٍّ نبحث فيه عن علاج للسرطان أو للإيدز إلى غير ذلك.

ونحن على يقين مطلق أن الأمةَ أو البشريةَ لو عادت إلى القرآن، فامتثلت أوامره، واجتنبت نواهيه، ووقفت عند حدوده، لسعدت في الدنيا والآخرة، ولطهرها الله من كل بلاء بدنيٍّ عضوي وقلبي؛ لقوله - جلَّ وَعَلَا -: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾

[طه: ١٢٣ - ١٢٧].

وهناك بعض الآيات في القرآن علَّمنا رسولنا ﷺ أن نرقي بها؛ كالفاتحة - مثلًا - وهي الراقية، والواقية، والكافية؛ ففي «**الصحيحين**» [(١)] - واللفظ لمسلم - من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاء العَرَب فَلَمْ يُقْرُوهُم، فَبَيْنَمَا همْ كذلكَ إِذْ لُدِغَ سيد أولَئكَ فَقَالُوا: هَلْ معكُمْ من دَوَاء أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُم لَمْ تُقْرُونا ولاَ نفْعَل حَتَّى تَجْعَلُوا لَنا جُعْلًا فَجَعَلُوا هم قَطِيعًا منَ الشَّاءِ، فَجَعَل يَقْرَأ بأُمِّ القُرْآنِ ويَجْمَعُ بُزَاقَه ويَتْفُل فَبَرَأَ فَأَتَوْا بالشَّاءِ فَقَالُوا: لاَ نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: «**وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ**».

ثم قراءة آية الكرسي، وقراءة آيتين من آخر سورة البقرة، وقراءة سورة الإخلاص والمعوذات؛ فما قرأ أحدٌ هذه الآيات إلا وشفاه الله تبارك وتعالى شريطة أن يكون على يقين، لا أن يجرب كلام رب العالمين وكلام سيد المرسلين ﷺ.

- **والسؤال:**

هل أنزل اللهُ القرآنَ ليُقْرأ على الأموات في القبور؟!!

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإجازة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب (٢٢٧٦)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (٢٢٠١).

هل أنزل اللهُ القرآنَ ليوضع في عُلَب القطيفة الفخمة الضخمة التي توضع في مؤخرة السيارة، وفي غرف الصالونات؟!

هل أنزل اللهُ القرآنَ ليوضع في البراويز الفضية والذهبية ويعلق على الجدران والحوائط؟!

هل أنزل اللهُ القرآنَ ليحلِّي به النساءُ صدورَهُن في مصاحف صغيرة؟!

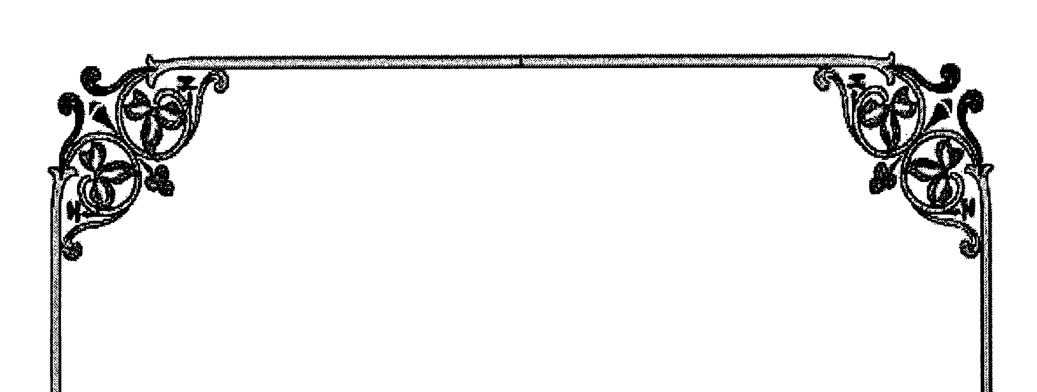
هل أنزل اللهُ القرآنَ ليهديه الحكامُ والزعماءُ إلى بعضهم البعض؟!

فترى الحاكم يستلم المصحف منحنيًا على كتاب الله ليقبله بخضوع جسديٍّ كامل كأنه عثمان بن عفان ، في الوقت الذي يُضيِّع فيه شريعة هذا القرآن الذي قال فيه الرحيم الرحمن: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١، ٢]؛ أي: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به أو لتشقى الأمة من بعدك به أو لتشقى بحدوده وأوامره ومناهيه وتكاليفه! كلا؛ بل لقد أنزل الله عليك القرآن لتقيم به أمة، ولتحيي به أمة، ولتقيم به دولة، ولتسعد به البشرية في الدنيا والآخرة؛ قال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩].

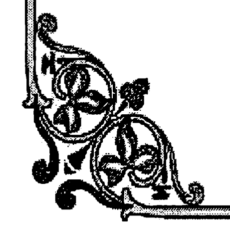
فلابد من العودة للقرآن؛ فنتمثل آياته وأوامره، وتكاليفه وحدوده أمرًا أمرًا، وتكليفًا تكليفًا، ونهيًا نهيًا، وحدًّا وحدًّا؛ بل وكلمةً كلمةً، بل وحرفًا حرفًا، فالعودة إلى القرآن ليست نافلة، ولا اختيارًا؛ قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فلا عزة لنا ولا كرامة إلا إن عدنا إلى القرآن لنردد مع الصادقين الأولين: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

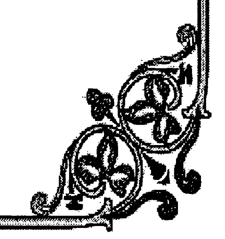
نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل القرآنَ العظيمَ ربيع قلوبنا، ونُور أبصارنا، وجَلَاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، وأن يجعله قائدًا لنا إلى جنات النعيم؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

*****



ضَعْفُ اليَقِين







ضعف اليقين

حديثنا في هذا الفصل عن مرض خطير أقعد الأمةَ عن مكانتها، وأخَّرها عن ريادتها وسيادتها؛ ألا وهو مَرض: «ضعف اليقين».

- **فما معنى اليقين لغةً واصطلاحًا؟**

اليقين لغة: كما قال ابن منظور وغيره:«العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر، واليقين؛ نقيض الشك »[١].

واصطلاحًا: «الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع؛ وقيل: عبارة عن العلم المستقر في القلب لثبوته من سبب متعين له بحيث لا يقبل الانهدامَ »[٢].

واليقين أصلُ الإيمان؛ كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «اليقين الإيمان كلُّه»[٣].

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله [٤]: «ومراد ابن مسعود: أن اليقين: هو أصل الإيمان، فإذا أيقن القلبُ انبعثت الجوارحُ كلُّها للقاء الله بالأعمال الصالحة؛ حتى قال سفيانُ الثوري: لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي، لطار اشتياقًا إلى الجنة وهربًا من النار».

والإيمان، كما هو معروف عند أهل السنة والجماعة، هو نطق باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله [٥]: «اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، به تفاضل العالمون، وإليه شمَّر العالمون، وفيه تنافس المتنافسون، وإذا تزوج الصبرُ باليقين

---

(١) «لسان العرب» (٩ / ٤٦١)، و «مجمل اللغة» لابن فارس (٧١٥)، و «الصحاح» للجوهري (٧/ ٦٩)، و «معجم مقاييس اللغة» (٦ / ١٥٧).

(٢) «الكليات» للكفوي (١٥٦٤)، و «التعريفات» للجرجاني (٢٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ «تعليقًا» في كتاب الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**» (فتح ١/ ٤٥)، ووصله الطبراني في «الكبير» (٨٥٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٨)، ووكيع في «الزهد» (٢٠٢)، وصححه الحافظ في «الفتح» (١/ ٤٨)، وقد روي مرفوعًا، وحكم عليه بالنكارة الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٤٩٩).

(٤) «فتح الباري» (١/ ٦٣).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٤١٣) بتصرف.

ولد بينهما حصول الإمامة في الدين؛ قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]

فاليقينُ روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح وهو حقيقة الصديقية.

ومتى وصل اليقينُ إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا.. وانتفى عنه كلُّ ريب وشك، وسخط وهم وغم، فامتلأ محبةً لله، وخوفًا ورضًى به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابة إليه». ا هـ.ملخصًا.

واليقين كشرط من شروط لا إله إلا الله هو: «اليقين المنافي للشك؛ بأن يكون قائلُها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا».

فإن الإيمانَ لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن؛ فكيف إذا دخله الشك؟

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥].

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا؛ أي: لم يشكُّوا، فأما المرتاب؛ فهو من المنافقين - والعياذ بالله - الذين قال الله فيهم:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة:٤٥] » انتهى[(١)].

وقد استوقفني رجلٌ في المطار، وقال: أريدُ أن أسألك سؤالًا؛ فقلت له: سلْ؛ فقال: ربنا ظالم!! فقلتُ: أعوذ بالله!!

كيف تصفُ الله - جلَّ وعلا - بالظلم؟!! فقال: إنكم كلَّ ليلة تدعونه لينصر الإسلام والمسلمين؛ فأين هذه النصرة؟! ألا يرى هذه الدماءَ التي تسفك، والأشلاءَ التى تمزق في فلسطين والعراق وفي كل مكان؟!! فقلت: سبحان الله! إلى هذا الحدِّ يوصف ربُّنا - جلَّ جلاله - بهذا؟!!! فقلت له: أين تعمل يا هذا؟ قال: في شركة كذا، فقلت: فأنا أسألك: إذا كانت هناك شركة أخرى غير التى تعمل بها وزَّعت مكافأة ولم تعطك أنت منها؛ فهل ستحزن لذلك؟ فقال: لا؛ لأننى لا أعمل لها حتى أستحق هذه المكافأة؛ فلِمَ أحزن حينئذٍ؟ فقلت له: وأنت لم تعمل لله شيئًا حتى ينصرك. ثم قلْتُ له:

(١) «معارج القبول» (٢/ ٤١٩).

أستحلفك بالله هل أنت صليت الفجرَ اليوم؟ قال: لا. قلت: منذ متى لم تقرأ القرآنَ؟ قال: لا أذكر منذ متى!!!! وهكذا تعصف رياح الشك الآن بقلوب قلقلة كثيرة؛ لأنهم فقدوا اليقين في رب العالمين وسيد المرسلين ﷺ؛ وفي منهج الخالق الذي ضمن به السعادةَ للبشرية كلها في الدنيا والآخرة، فريحُ الشكوك لا تهبُّ على قلوب المؤمنين الذين استنارت قلوبُهُم بالإيمان، واستقر فيها اليقينُ، لم تعصفُ هذه الرياحُ الخبيثةُ بإيمانهم وإسلامهم، ولا بالثوابت والأركان والأصول والكلِّيات.

ولا شك أن هذا اليقين لو وقع في القلب لذاق صاحبُهُ حلاوة الإيمان، ومتى تذوق المؤمنُ حلاوة هذا الإيمان انعكس على جوارحه وأقواله وأعماله، فحول هذا الإيمان إلى واقع، فلا يمكن بحال أن يستقر الإيمانُ في قلب ثم ينقادُ لغير الله، أو يحب غير الله أو يسأل أو يستعين أو يستغيث بغير الله، أو يقبل حكمًا غير حكم الله ورسوله، أو يوالي من عادى الله ورسوله، أو يعادي من والى الله ورسوله.

نعم.. فليس الإيمانُ كلمةً تقالُ باللِّسان فقط، ولكن الإيمان حقيقةٌ ذات تكاليف، وأمانةٌ ذات أعباء، قال الحسن [1]:

«ليس الإيمانُ بالتحلِّي ولا بالتَّمنِّي، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قبل منه، ومن قال خيرًا وعمل شرًّا لم يقبل منه».

وفي «**صحيح**» مسلم، من حديث الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ ﷺ **أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله** ﷺ يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**» [2].

قال النوويُّ رحمه الله: «**قال صاحب التحرير** رحمه الله: معنى رضيت بالشيء: قنعت به، واكتفيت به، ولم أطلب معه غيره، فمعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى، ولم يسع في غير طريق الإسلام، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ، ولا شك في أن من كانت هذه صفته. فقد خلصت حلاوةُ الإيمان إلى قلبه، وذاق طعمه».

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١/ ٢٢) و(١٣/ ٥٠٤)، وعبد الله بن المبارك في «الزهد» (١٥٦٥)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٣٢٢)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٥٦).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا فهو مؤمن (٣٤).

وقال القاضي عياض رحمه الله: «معنى الحديث: صحَّ إيمانه، واطمأنت به نفسُهُ، وخامر باطنه؛ لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته، ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه؛ لأن من رضي أمرًا سهل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبَهُ الإيمانُ، سهل عليه طاعاتُ الله تعالى ولذَّت له، والله أعلم»[١]. انتهى.

وفي «**الصحيح**» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي مَسِيرٍ قَالَ: فَنَفِدَتْ أَزْوَادُ الْقَوْمِ قَالَ: حَتَّى هَمَّ بِنَحْرِ بَعْضِ حَمَائِلِهِمْ.

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، لَوْ جَمَعْتَ مَا بَقِيَ مِنْ أَزْوَادِ الْقَوْمِ فَدَعَوْتَ الله عَلَيْهَا قَالَ: فَفَعَلَ.

قَالَ: فَجَاءَ ذُو الْبُرِّ بِبُرِّهِ، وذُو التَّمْرِ بِتَمْرِهِ قَالَ: وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَذُو النَّوَاةِ بِنَوَاهُ قُلْتُ: وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ بِالنَّوَى؟ قَالَ: كَانُوا يَمُصُّونَهُ وَيَشْرَبُونَ عَلَيْهِ الْمَاءَ قَالَ: فَدَعَا عَلَيْهَا حَتَّى مَلأَ الْقَوْمُ أَزْوِدَتَهُمْ قَالَ: فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنِّي رَسُولُ الله لَا يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[٢].

وهنا يشترط النبيُّ صلى الله عليه وسلم شرطًا مع قول: لا إله إلا الله ليكون قائلها من أهل الجنة، وهو كما يتضح من الحديث «عدم الشك» وهذا هو اليقين.

وفي الحديث الذي رواه مسلمٌ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعثَهُ بنعليه وقال: «.. **اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**..»[٣].

وفي «**صحيح**» البخاري[٤] من حديث شداد بن أوس الثقفي رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا**

---

(١) «صحيح مسلم» بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا (٢/ ٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٧).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣١).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦)، وباب ما يقول إذا أصبح (٦٣٢٣).

عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». فاليقين هو المنافي للشك.

ويُجمل القولَ الإمامُ النوويُّ رحمه الله **فيقولُ**: «الذي يستحق به العبدُ المدحَ والولايةَ من المؤمنين، هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح؛ وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لا يستحق اسم مؤمن، ولو عرفه وعمل، وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم مؤمن، وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولم يعمل بالفرائض، لا يسمى مؤمنًا بالإطلاق، وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمنًا بالتصديق، فذلك غير مستحق في كلام الله تعالى؛ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته.

وقال ابن بطال في باب من قال: «الإيمان هو العمل»: فإن قيل: «قد قدمتم أن الإيمان هو التصديق، قيل: التصديق هو أول منازل الإيمان، ويوجب للمصدق الدخول فيه، ولا يوجب له استكمال منازله، ولا يسمى مؤمنًا مطلقًا، هذا مذهب جماعة أهل السنة أن الإيمان قول وعمل».

ثم قال ابن بطال في باب آخر: «قال المهلب: الإسلام على الحقيقة هو الإيمان الذي هو عقد القلب المصدق لإقرار اللسان الذي لا ينفع عند الله تعالى غيره».

ثم يقول الإمام النوويُّ - رحمه الله تعالى: «فإذا تقرر ما ذكرناه من مذاهب السلف وأئمة الخلف، فهي متظاهرة متطابقة على كون الإيمان يزيد وينقص..»

ثم يقول: «ولهذا يكون إيمانُ الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشُّبه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض؛ بل لا تزال قلوبُهُم منشرحةً نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، أما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك؛ فهذا مما لا يمكن إنكاره ولا يتشكك عاقلٌ في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يساويه

تصديق آحاد الناس»[١].

فاليقين شرط من شروط «لا إله إلا الله» أي: أن يقولها قائلها بلسانه، ويصدقها بقلبه، ويحققها بأقواله وأعماله، وهذه هي حقيقة الإيمان؛ واليقين هو الإيمان كلُّه؛ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد خصَّ اللهُ أهلَ اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين؛ فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠].

فلن تتأثر بهذه الأدلةِ والبراهينِ إلا إذا امتلأ قلبُكَ باليقين؛ وإلا فكيف تنتفعُ باليقين إذا لم تملكه في قلبك؟

كيف تنتفعُ بهذا الدين والإيمان إذا هبت ريحُ الشك على قلبك أو إذا لم يكن لديك يقينٌ بالمنهج؟ والكون كلُّه من سمائه إلى أرضه، ومن عرشه إلى فرشه مشحون بالآيات التي لو وقفت أمامها لتعرفت على الخالق، وأذعنت له، وأفردته بالطاعة والعبادة.

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ

وخصَّ اللهُ أهلَ اليقين بالهدى والفلاح؛ فقال رب العالمين: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١-٥].

وأهل اليقين هم أهل الإيمان وأصحاب الجنان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[الحجرات:١٥]؛ أي: لم تعصف ريحُ الشكوك بحقيقة الإيمان واليقين في قلوبهم.

وفي «صحيح»[٢] مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ قَالَ -: اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»**.

---

(١) «صحيح مسلم» بشرح النووي ـ ملخصًا ـ كتاب الإيمان، باب الإيمان يزيد وينقص، والإيمان قول وعمل (١/ ١٤٥ بتصرف)، وما بعدها.

(٢) تقدم قريبًا.



وبيَّن اللهُ أنَّ أهلَ النار ما كانوا من أهل اليقين؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية:٣٢].

قال سفيان الثوري: «لو أن اليقين استقر في القلب كما ينبغي لطار فرحًا وحزنًا؛ شوقًا إلى الجنة، أو خوفًا من النار»(١).

وهناك علامة لليقين، وهي: النظر إلى الله في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال؛ فصاحب القلب الذي ذاق حلاوةَ اليقين يراقب الله في السر والعلن، لا يغيب عن قلبه، ولا عن بصره، ولا عن سمعه قول ربه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة:٧].

وصاحبُ اليقين يرجع إلى الله في كل شيء؛ ليُرضي بعمله ربه سبحانه وتعالى، هل هذا العمل على مراد الله وعلى شرع رسول الله ﷺ؟ وهل هذا العمل يرضي اللهَ تبارك وتعالى؟ فهو يرجع إلى الله في كل شيء، ويستعين بالله في كل شيء؛ إذ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم؛ فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خُذِل فهو المخذول.

هذه علامات اليقين؛ فما أوجه اليقين؟

○ أوجه اليقين ودرجاته:

اليقين على ثلاثة أوجه (٢): يقين الخبر، ويقين الدلالة، ويقين المشاهدة.

- **يقين الخبر:**

وهو أن يسكن القلبُ للخبر؛ فكيف يكون سكونُ القلب؟ وكيف تكون ثقةُ القلب لخبر عن الله ورسوله؟ فإذا جاء الخبر عن الله، وإذا ثبت الخبرُ عن رسول الله ﷺ؛ فهذا يقين الخبر؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٩٤،٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٧) واللفظ له.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٠٠).

وقال في حق نبيه ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:١-٤].

وقال تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

فيقين الخبر: أن يثبت الخبرُ عن الله وعن الصادق رسول الله ﷺ.

أما يقين الدلالة: فهو أن الله تبارك وتعالى مع أنه أصدق القائلين - والخبر من الله كل الصدق؛ بل هو الصدق واليقين، ومع ذلك؛ فإن الله تعالى يقيم الأدلة على صدق خبره؛ فهذا يقين الدلالة، فهو يثبت وحدانيته تبارك وتعالى بالدليل القاطع في القرآن؛ كما في قوله سبحانه:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٠-٦٤].

ولله درُّ من قال:

لله في الآفاق آياتٌ لعلَّ ... أقلَّها هو ما إليه هداكا

ولعلَّ ما في النفس من آياته ... عَجَبٌ عُجابٌ لو ترى عيناكا

والكون مشحونٌ بأسرار إذا ... حاولت تفسيرًا لها أعياكا

قل للطَّبيب تخطَّفته يدُ الردى ... مَنْ يا طبيب بِطبِّهِ أرداكا

قل للمريض نجا وعوفي بعد ما ... عجزت فنونُ الطب مَنْ عافاكا

قل للصَّحيح يموتُ لا من علّة ... مَنْ يا صحيحُ بالمنايا دهاكا

بل سائل الأعمى خطا وسط الزحام بلا اصطدام مَنْ يا أعمى يقود خطاكا

بل سائل البصير كان يحذر حفرة فهوى بها مَنْ ذا الذي أهواكا

وسل الجنين يعيش معزولًا بلا راعٍ ومرعى مَنْ ذا الذي يرعاكا

وسل الوليد بكى وأجهش بالبكاء لدى الولادة ما الذي أبكاكا

وإذ ترى الثعبان ينفث سمَّه فَسَلْهُ مَنْ يا ثعبان بالسموم حشاكا

واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا وهذا السمُّ يملأُ فاكا

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهدًا وقل للشهد من حلَّاكا

بل سائل اللبن المصفى من بين فرثٍ ودمٍ مَنْ ذا الذي صفاكا

وإذا رأيت النبت في الصحراء يربو وحده فاسأله مَنْ أرباكا

وإذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله مَنْ يا نخل شق نواكا

وإذا رأيت البدر يسري ناشرًا أنواره فاسأله مَنْ أسراكا

وإذا رأيت النار شبَّ لهيبُها فاسأل لهيب النار مَنْ أوراكا

وإذ ترى الجبل الأشمَّ مناطحًا قمم السحاب فسله من أرساكا[1]

وصدق من قال:

سَلِ الواحة الخضراء والماء جاريا وهذي الصحاري والجبال الرواسيا

سَلِ الروض مزدانًا سل الزهر والندى سَلِ الليل والإصباح والطير شاديا

سَلِ هذه الأنسام والأرض والسما سَلْ كلَّ شيء تسمع الحمد لله ساريا

فلو جنَّ هذا الليل وامتد سرمدًا فمن غيرُ ربي يرجع الصبح ثانيا

لا رب غيره، ولا معبود سواه.. أإله مع الله؟

---

(١) هذه القصيدة نسبت لإبراهيم بديوي، وهو شاعر سوداني معاصر.

انظـــر لتلـــك الشـــجرة ذات الغصـــون النـــضره
كيـــف نَمَـــتْ مـــن حبَّـــة وكيـــف صـــارت شـــجره
ابحـــث وقـــل مـــن ذا الـــذي يخـــرج منهـــا الثمـــره
ذاك هـــــو الله الـــــذي أنعمـــــه منهمـــــره
ذو حكمـــــة بالغـــــة وقـــــدرة مقتـــــدره
وانظـر لتلـك الشـمس التـي جـــذوتها مســـتعره
فيهـــا ضـــياء وبهـــا حـــرارة منـــتشره
فابحـث وقـل مَـنْ ذا الـذي يخـــرج منهـــا الـــشرره
ذاك هـــــو الله الـــــذي أنعمـــــه منهمـــــره
ذو حكمـــــة بالغـــــة وقـــــدرة مقتـــــدره

ورحم الله من قال:

فيـــا عجبًـــا كيـــف يعـــصى الإلـــه أم كيـــف يجحـــده الجاحـــد
ولله في كـــــل تحريكـــــة وفي كـــلِّ تســـكينةٍ شـــاهد
وفي كـــل شيءٍ لـــه آيـــة تـــدلُّ عـــلى أنـــه الواحـــد[(١)]

وقال أبو نواس:

تأمـــل في نبـــات الأرض وانظـــر إلى آثـــار مـــا صـــنع المليـــك
عيـــون مـــن لُجَـــيْنٍ شاخصـــات بأحـــداق هـــي الـــذهب الســـبيك
عـــلى قضـــيب الزبرجـــد شـــاهدات بـــأن الله لـــيس لـــه شريـــك[(٢)]

ولعل أجمل ما ذكر في هذا الباب؛ ما قاله قسُّ بنُ ساعدة الإيادي، وكان من الناس

---

(١) أخرجه هذه الأبيات البيهقي في «الشعب» (١٠٥، ١٠٦)، والخطيب في «تاريخه» (٦ / ٢٥٣)، وابن عساكر (١٣ / ٤٥٣)، والشجري في «أماليه» (٤٤٠)، ونسبت هذه الأبيات للشافعي ولأبي العتاهية ولابن المعتز.
(٢) «تفسير ابن كثير» لسورة البقرة (الآية: ٢٢).

الذين يعبدون الله على دين إبراهيم ﷺ قبل بعثة النبي ﷺ؛ يقول ﷺ: «أيها الناس؛ اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعُوا،، وإذا وعيتم فانتفعوا وقولوا، وإذا قلتم فاصدقوا، من عاش مات، ومن مات فات، كل ما هو آت آت، مطرٌ ونبات، وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وضوء وظلام، وليل وأيام، وبر وآثام، إن في السماء خبرًا، وإن في الأرض عبرًا يحار فيهن البصر، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحار لا تفور».

ثم يقول بعدها:» شرقٌ وغربٌ، وسلمٌ وحربٌ، ويابسٌ ورطبٌ، وأجاجٌ وعذبٌ، وشموسٌ وأقمارٌ، ورياحٌ وأمطارٌ، وليلٌ ونهارٌ، وإناثٌ وذكورٌ، وبرارٍ وبحورٌ، وحبٌّ ونباتٌ، وآباءٌ وأمهاتٌ، وجمعٌ وأشتاتٌ، وآياتٌ في إثرها آياتٌ، ونورٌ وظلامٌ، ويسرٌ وإعدامٌ، وفقيرٌ وغنيٌّ، ومحسنٌ ومسيءٌ، تبًّا لأرباب الغفلة، بل هو إله واحد، ليس بمولودٍ ولا والد، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، رب الآخرة والأولى »[1].

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢ / ٨٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦ / ١٤٥)، وأبو سعيد النقاش في «فنون العجائب» (٤٠)، والخطيب في «تاريخه» (٢ / ٢٨١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١ / ٢١٣) من طريق: اللخمي عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس مرفوعا، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩ / ٦٩٧): «رواه الطبراني والبزار، وفيه اللخمي وهو كذّاب»، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢ / ١٠٢) وفي «الزهد» (٦٩٦) من طريق أبي حمزة الثمالى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا، وقد حكم عليه بالوضع ابن الجوزي في «الموضوعات» (١ / ٢١٤)، وقال: «وهذا الحديث من جميع جهاته باطل»، وأبو الفتح الأزدي كما في [«اللآلىء المصنوعة» (١٦٧)، و«الفوائد المجموعة» (٢٥١)] ، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢ / ١٠١) من حديث أنس مرفوعًا، وأخرجه العسكري في «الأوائل» (١٥) عن ابن مسعود مرفوعًا، وله طريق أورده الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢ / ٢٣٠) من حديث عبادة، أخرجه الخرائطي في «هواتف الجنان» وحكم الحافظ ابن كثير على سنده بالغرابة، ثم أورد له طرقًا وأوجهًا أخرى، ثم قال: «قال البيهقي: وإذا رُوي الحديث من أوجه أخر، وإن كان بعضها ضعيفًا دلَّ على أن للحديث أصلًا، والله أعلم». ومن أهل الحديث من حسن الحديث بطرقه الكثيرة، ومن هؤلاء الإمام السيوطي، وقد دافع وردَّ على من ضعَّف الحديث بقوة، فقال: «فلو وقف الحافظ ابن حجر على هذه الطرق لحكم للحديث بالحسن لما تقدم من الطرق وخصوصًا الطريق الذي في «زيادات الزهد» لابن حنبل (٣٥٥) فإنه مرسل قوي الإسناد، فإذا ضم إلى هذه الطريق الموصولة التى ليس فيها واهٍ ولا متَّهمٍ حكم بحسنه بلا توقف»، راجع: «الفوائد =

قال جلَّ وَعَلَا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٥ - ٧٩].

فمع أن الخبرَ من رب العالمين ومن سيد الصادقين ﷺ؛ فإن اللهَ يقيمُ الأدلةَ على صدق خبره، وصدق خبر رسله وأنبيائه، فيجري المعجزات على أيدي الرسل؛ ليثبت للخلق صدقهم، وأنه من عند الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٣،٢٤].

فالله سبحانه وتعالى يقدم اليقين لأهل اليقين من جهتين: من جهة يقين الخبر، ومن جهة يقين الدلالة؛ فالخبر من الله، ومع ذلك يقيم الأدلة على صدق الخبر، فيقدم البراهين على أن الله هو الإله الحق، ويقدم البراهين على أن دينه هو الحق، وعلى أن الرسلَ والأنبياءَ هم أهل صدق، وأنهم مرسلون من قبل الله -جلَّ وَعَلَا-؛ لينتقل بالناس بعد ذلك إلى مرتبة يقين المشاهدة، بمعنى: أن ينتقل المؤمن بعد يقين الخبر إلى يقين الدلالة إلى يقين المشاهدة، فينظر إلى كل خبر عن الله وعن رسول الله ﷺ وكأنه يراه بعينيه، وكأنه يشاهده.

قال أحدُ السلف[1] :

«إني رأيت الجنة والنار حقيقة. قيل له: وكيف؟ قال: رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ، ورؤيتي لهما بعينيه آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني؛ فإن بصري قد يزيغ وقد

=
المجموعة»، و «تنزيه الشريعة» (١ / ٢٤١، ٢٤٣)، و «الإصابة» (ترجمة قس بن ساعدة) (٥/ ٤٢٨).

(١) ذكره ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٤٠٠).

يطغى، بخلاف بصرِهِ ﷺ »؛ فقد قال فيه ربه العلي: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٧].

قال عامر بن عبد الله بن عبد قيس رحمه الله: «والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»(١)؛ لأنه انتقل إلى يقين المشاهدة لكل خبر انتقل إليه عن الله وعن رسوله ﷺ.

هذه هي أوجه اليقين؛ فما هي درجاته؟

اليقين له درجات، وهي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

أما علم اليقين: فهو قبول ما ظهر من الحق، والإيمان بما غاب للحق، والوقوف على ما تصف به الحق؛ أي: قبول ما ظهر من الأوامر والنواهي والحدود على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

فالمؤمن يكون على يقين بأن ما جاء به النبيُّ ﷺ هو علم اليقين.

والإيمان بما غاب للحق: أي يكون على إيمان كامل بالصراط، والميزان، والجنة، والنار، والملائكة؛ أي: تؤمن بالغيب، والإيمان بالغيب أول صفة من صفات المتقين المؤمنين؛ فلو أثبت الله - عَزَّ وَجَلَّ - صفة له في كتابه فعليك الإيمان بها، ولو أثبت رسول الله ﷺ اسمًا أو صفة لله - جلَّ وَعَلَا - فعليك أن تؤمن بهذا الاسم وتلك الصفة على مراد الله وعلى مراد رسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]؛ فعلم اليقين هو العلم الثابت عن الله ورسوله ﷺ.

قال عالم إنجليزيٌّ مشهورٌ: «إن كل ما وصل إليه العلمُ الحديثُ إلى يومنا هذا إنما هو مجرد احتمالات؛ فإن نظرية تخرج اليوم لتنقضها نظريةُ بعد اليوم، أو لتزيد عليها، أو لتنقص منها».

أما عين اليقين: فهو العلم الذي لا يحتاجُ صاحبُه إلى دليل؛ فمثلًا لو أخبرك رجلٌ

---

(١) انظر: «الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ٢٠٣)، وعزاه السبكي في «الطبقات» (٦/ ٦١)، وعلي القاري في «المصنوع» (٢٥٤) إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بأن الشمس طالعة في وسط النهار؛ فهل يحتاجُ ذلك إلى دليل؟ فوجودها وظهورها هو الدليل نفسه.

أما حق اليقين: فهي مرتبةُ الرسل والأنبياء عليهم السلام الذين رأوا كل شيء بأعينهم؛ فالنبيُّ ﷺ رأى الجنة والنار وهو في الدنيا؛ كما في «**الصحيحين**»(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: انْخَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا نَحْوًا مِنْ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ انْصَرَفَ، وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ؛ فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا اللهَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ كَعْكَعْتَ، قَالَ ﷺ: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ؛ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا**».

ورأى رسولُ الله ﷺ الجنة؛ بل دَخَلَهَا؛ كما في «**الصحيحين**»(٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ**». وذلك ليلة المعراج المباركة.

فالنبيُّ ﷺ انتقل من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين إلى مرتبة حق اليقين؛ فالجنة والنار بالنسبة لنا الآن هما علم يقين؛ لأن الذي بلغنا بهما رسول الله ﷺ عن رب العالمين؛ فإذا قامت القيامةُ وأُزلفت الجنةُ للمتقين وعاينها الخلائقُ، وبُرِّزت الجحيمُ للغاوين وعاينها الخلائقُ انتقلوا إلى مرتبة عين اليقين؛ فإذا أدخل أهلُ الجنة الجنة، وأدخل أهلُ النار النار انتقلوا إلى حق اليقين.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة (١٠٥٢)، ومسلمٌ، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام (٣٣٤٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١٦٣).

ومثال آخر: لو أن رجلًا أخبرك بأن عنده عسلًا وهو صادق؛ فهذا علم اليقين؛ فإن أحضر لك العسلَ ورأت عينُك العسلَ؛ فهذا عين اليقين، فإن أطعمك قليلًا من العسل، فهذا حقُّ اليقين.

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٩٤]، كل هذا الذي سبق يقول تعالى فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٥، ٩٦].

وقال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١ - ٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٤٤-٥٢].

فعلم اليقين: علم عن الله ورسوله ﷺ.

وعين اليقين: أن ترى بعينيك.

وحق اليقين: أن تنتقل لتعيش في هذا النعيم؛ أسأل الله أن نكون من أهله، وليعيش أهل الجحيم في الجحيم، ونعوذ بالله من النار!!

○ شموس في سماء اليقين:

فتعالوا بنا - أيها الأفاضل - لندخل بستان اليقين؛ فما أرقه وأجمله!

وأعظم الخلق تحقيقًا لليقين هم الأنبياء والرسل عليهم السلام.

تدبر معي يقين نبي الله نوح عليه السلام الذي قام امتثالًا لأمر ربه ليصنع سفينةً على الرمال؛ قال جلَّ وَعَلَا: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٧ - ٣٨].

أيُّ عقلٍ لهذا الرجل؟ يصنعُ سفينةً على الرمال!! أين المياه؟ أين البحار والأنهار والمحيطات؟ إن الماء بعيدٌ كلَّ البعد عن الموطن الذي يصنع فيه نوح السفينة، ومع ذلك فهو ممتلئ القلب باليقين لأمر ربه تبارك وتعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ [هود:٣٧].

فصنع نوحُ الفلك فكان ما تعلمون، فلما زاد البلاءُ، واشتد الاضطهادُ، وتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء الحار: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠].

فكانت النتيجةُ الحاسمةُ: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر١١-١٤].

وهذا نبيُّ الله إبراهيم يُلْقى في النار؛ كما في «صحيح» البخاري [١] من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل»، قالَها إبْراهِيم حِينَ أُلْقِي في النَّار، وَقالَها مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالُوا: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٧٣، ١٧٤].

أما الأثر المشهور: أن جبريل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام، وقال: ألك حاجة؟ فقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي. فلا أصل له [٢].

وهذا نبيُّ الله موسى عليه السلام عندما كان فرعون وجنده من خلفه والبحر أمامه والمستضعفون مع نبي الله موسى يخشون من فرعون وبطشه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [الشعراء:٦١].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ﴾ (٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

(٢) انظر: «السلسلة الضعيفة» (٢١)، وقال ابن تيمية رحمه الله: «موضوع»، وقال أيضًا: «كلام باطل»؛ كما في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٣٩)، و«تنزيه الشريعة المرفوعة» (١/ ٢٥٠).

أي: جَمْعُ نبي الله موسى وجَمْعُ فرعون ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:٦١].

فقال صاحب اليقين موسى عليه السلام: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

وهذا صاحب أعلى يقين عرفته الأرض، نبينا محمد ﷺ؛ كما قال تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠].

وفي «**الصحيحين**»[1] من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا؛ فَقَالَ: «**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»؛ فالمشركون قد أحاطوا بالغار من كل ناحية؛ ومع ذلك يرد النبيُّ ﷺ على الصديق بقلب ذاق حلاوة اليقين، وأيُّ قلب سيذوق حلاوة اليقين إن لم يذقها قلبُ سيد المرسلين؟!

وقال لأبي بكر رضي الله عنه لما أدركهم سراقةُ بن مالك على فرس له؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أُتِينا. فقال ﷺ: «**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**»[2].

بل لقد جاءه خبابُ بن الأرت وقال: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ قَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ، أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ**».

ثم قال: «**وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٦٥٣)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٥، ٣٦٥٢)، ومسلمٌ، كتاب الأشربة، باب جواز شرب اللبن (٢٠٠٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٢)، وكتاب مناقب الأنصار (٣٨٥٢).

فانظر إلى يقين النبي ﷺ في نصرة دين الله وهو في أشد مراحل الاستضعاف؟! وأنا أقول بقلب يملؤه اليقين: مع هذا الذل الذي تحياه الأمة؛ فإن الجولةَ المقبلةَ لدين سيد المرسلين، فلقد بشر بها النبيُّ ﷺ في أحلك الأوقات، في الوقت الذي جاء فيه الصحابة وقد ظهر عليهم العذابُ، وتلوَّن جسدُهُم تحت وقع السياط: «**وَالله لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ**»؛ أي: هذا الدين، وأتمَّ الله الدين، وفَتَحَ الحبيبُ مكةَ، ودخل الناسُ في دين الله أفواجًا، وعليه نزلَ قولُ الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

قد يقولُ قائلٌ: إنك تحدثنا عن الأنبياء وهؤلاء صفوة الله من خلقه، وهؤلاء مختارون من قبل الله ربَّاهم على عينه، واصطنعهم لنفسه جَلَّ جلاله؛ لكن هناك من البشر من جسَّد اليقين في دنيا الناس تجسيدًا لا يستطيع بليغٌ على وجه الأرض أن يُعبِّر عنه؛ اللهم إلاَّ أن تعبر عنه كلمات القرآن الكريم.

فمع موقف سحرة فرعون الذين كانوا من دقيقةٍ واحدةٍ يغترون بفرعون وببطشه وبجبروته، ويقولون على مرأى ومسمع من الخلق وقد اجتمع الناس في ساحةٍ واسعةٍ، وها هو نبيُّ الله موسى في وَسْطِ هذه الحَلْقَةِ، فرعون يجلس باستعلاء يريد أن يُثبت هزيمة نبي الله موسى، وأن يُعَرِّيه من صفة الرسالة والنبوة، ويَنْزلُ السحرةُ بكبرٍ واستعلاءٍ إلى ساحةِ النزال، ويُعْلنونها صريحة: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾

[الشعراء:٤٤].

وكان ما كان، فبمجرد أن ألقى السحرةُ عِصيَّهم وحبالهم، وخُيِّل إلى الناس من سحر السحرة أنها تسعى، ولم تكن قد تحولت في الحقيقة إلى ثعابين، ويُلقي نبي الله موسى عصاه فتتحول إلى ثعبانٍ ضخم تلتقط في التو واللحظة كلَّ هذه العِصي وكلَّ هذه الحبال، وسحرة فرعون يعلمونَ السِّحر حقيقة، فلما رأوا الآية والمعجزة قد تجسَّدت على وجه الأرض علموا يقينًا أنه رسولُ الله من عند الله، تدبر قول ربك: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[الأعراف:١٢٠-١٢٤].

وها هي حلاوةُ اليقين التي باشرت القلوب: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١].

وفي أوائل سورة طه: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢].

ما أروَعَهُ من مشهدٍ! وما أجَلَّها من كلمات ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف! لا ضير في التصليب على جذوع النخل! لا ضير في القتل! ولا حرج في الشهادة؛ لأننا قد آمنا بربنا، وذاقت قلوبُنَا حلاوة اليقين والإيمان بالله؛ إنه اليقين الذي لا يتزعزعُ ولا يهتزُ؛ إنه اليقين الذي يرتقي بالقلب من حمأ الطين إلى أعلى عليين؛ إنه اليقين الذي يسمو بالقلب إلى ما لم يكن يطمع إليه الخيال؛ إنه اليقين الذي استعذبَ به سحرةُ فرعونَ كلَّ عذاب!! وكأنه لازمٌ عليهم أن يستأذنوه في هذا النور الذي تسلل إلى قلوبهم فأحياها بعد موات، وكأنه كان من الواجب عليهم أن يقتلعوا اليقين الذي ثبت في أعماق أرواحهم: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه: ٧١].

لكن هيهات هيهات إذا ذاقت القلوبُ حلاوةَ الإيمان برب الأرض والسموات، فإما عظماء فوق الأرض، وإما عظام تحت الأرض ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢]؛ فمهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظمت فهي حقيرة؛ لأن الليل مهما طال لابد من بزوغ الفجر؛ ولأن العمر مهما طال لابد من دخول القبر.

وها هو الغلامُ المباركُ - غلام الساحر والراهب - الذي جسَّد اليقين في دنيا الناس، حينما دخل على الملك وتحدَّاه أن يقتله، وأخذه الملك، وأرسل زبانيته ليسقطوه من فوق جبل شاهق، فما أن علا هؤلاء بالشاب المبارك على حافة وقمة الجبل إلا وتضرع إلى الله - جلَّ وَعَلَا - بهذه الدعوات التي يجللها ويزينها اليقينُ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ**».

يعني: اللهم اكفني شرهم بما شئت، فارتج الجبل، وكلُّهم على قمة الجبل، ويُهلك الله الطواغيت المجرمين، وينجي اللهُ هذا الغلامَ المباركَ الأمينَ، وينزل الغلامُ مرة أخرى، ويذهب إلى هذا الملك الظالم فيراه الملك فترتعد فرائصُهُ، فأرسله مع مجموعة أخرى في قرقور - أي: في مركب صغير - وفي عرض البحر ألقوه، وركبوا به، وتوغَّلوا به في أعماق أعماق البحر، وأرسل اللهُ جنديًّا من جنوده، وما يعلم جنود ربك

إلا هو، فارتج القرقور - أي: المركب - بهم، فأغرقهم الله جميعًا، ونجَّاه بعد ما تضرع إليه بقوله: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ» ودخل على الملك مرة أخرى فارتعدت فرائصه، واضطربت جوارحه.

وقال هذا الغلام في يقين كلامًا مدويًا: «إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. انظروا إلى يقين هذا الغلام؛ فإنه يريد أن يبلغ كلمة التوحيد إلى كل الخلق، ومن يجمع له كل الخلق إلا الملك؟!

«فَجُمِعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ»؛ جمع الملك الخلق جميعًا - أوامر ملكية! - فاجتمع البشرُ، وكأن القيامةَ قد قامت، وصلبوا الغلام، وأمام الناس أخذَ الملكُ سهمًا من سهام الغلام، وقال: «بِاسْمِ اللهِ»؛ لأنه يدَّعِي الألوهية، والغلام يريد أن يثبت للخلق كذبه، قال الملك: «بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ»، مات في التَّوِّ واللحظة، فصرخ الخلقُ جميعًا. وقالوا: «آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ»[1].

إنَّه اليقين الذي ملأ قلب هاجر حين تركها إبراهيم ﷺ مع رضيعها المبارك إسماعيل عند زمزم، لا إنس ولا أُنس، ولا بيت ولا شجر، لا ترى هاجرُ إلا صحراء مقفرة، وجبالًا قد سودتها حرارةُ الشمس، ورمالًا انعكست عليها أشعةُ الشمس المحرقة، ومع ذلك تركها إبراهيمُ ورضيعها معها جرابٌ فيه تمر، وسقاء فيه ماء، فتتعلق به هاجرُ، وتقول: إلى من تتركنا في هذا الوادي الذي لا إنس فيه ولا شيء؟ وإبراهيم لا يلتفت إليها؛ فقالت هاجرُ: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فقالت: «إذًا لاَ يُضَيِّعُنَا »[2]؛ فهل ضيعها ربُّها؟ والله ما ضيعها، وها هي تطوف سبعة أشواط بين الصفا والمروة تبحث عن طعام وشراب بعد ما نفذ ما معها، واللبن في ثديها نفذ، وعلى المروة تسمع صوتًا؛ فتقول: «صَهٍ صَهٍ »، فنظرت عند إسماعيل، فوجدت جبريل ينادي

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود (٣٠٠٥).

(٢) انظر: «صحيح» البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: يزفون النسلان في المشي (٣٣٦٤، ٣٣٦٥).

عليها، ويقول: من أنت؟ قالت: «أَنَا أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ » قال: «إِلَى مَنْ وَكَلَكُمَا؟» قالت: «إِلَى الله »، قال: «وَكَلَكُمَا إِلَى كَافٍ» [(١)].

قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]، وفجرَّ الأرض وصعد، وخرج ماءُ زمزم، وما زال هذا الماءُ يروي الموحدين في مكةَ والمدينةِ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا إسماعيل عندما أراد أبوه أن يذبحه في رؤيا رآها؛ فماذا قال ابنه البار؟: ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أرأيـــتم قلبًـــا أبويًّـــا   يتقبـــل أمـــرًا يأبـــاهُ
أرأيـــتم ابنًـــا يتلقـــى   أمـــرًا بالـــذبح ويرضـــاهُ
ويجيـــب الابـــن بـــلا فـــزعٍ   افعـــل مـــا تُـــؤمر أبتـــاهُ
لـــن أعـــصي لإلهـــي أمـــرًا   مـــن يعـــصي يومًـــا مـــولاهُ
واســـتل الوالـــد ســـكينًا   واستســـلم ابـــنٌ لـــرداهُ
ألقـــاه برفـــق لجبـــين   كـــي لا تتلقـــى عينـــاهُ
وتهـــزَّ الكـــونَ ضراعـــاتٌ   ودعـــاءٌ يقبلـــه اللهُ
تتـــضرع للـــرب الأعـــلى   أرض وســـماء وميـــاهُ
ويجيـــب الحـــق ورحمتـــه   ســـبقت في فضـــل عطايـــاهُ
صـــدقت الرؤيـــا لا تحـــزن   يـــا إبـــراهيم فـــديناهُ

وهذه أم موسى عليه السلام: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧].

وتُلقي الأمَّ رضيعَها المبارك، ويتهادى التابوتُ حتى يقف أمام قصر فرعون!!

إلهي رحماك! إنه هو الذي يبحث عنه فرعونُ؛ لكن الله الذي أمرها أن تلقيه، هو

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٣/ ٦٩)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٣/ ١١٢) عن عليٍّ رضي الله عنه، وحسَّنها الحافظُ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٤٠٢).

وحده القادرُ على أن يحميه ويمنعه، فألقى اللهُ حُبَّ موسى في قلب امرأة فرعون، فلما نظرت إلى وجهه الأزهر الأنور قالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ [القصص:٩]. ويحرِّم الله المراضع كلَّها على موسى، لتأتيه أمه لترضعه كما وعدها سبحانه، ولك أن تتخيل معي أم موسى؛ فها هي تجلسُ في قصر فرعون لتضم موسى برحمةٍ وحنانٍ لترضعه، وفرعون يجلس إلى جوارها: أرضعيه، أشبعيه، أكرميه؛ فبالأمس القريب كانت تخشى على موسى من فرعون وَمَلَئِهِ، وهي اليوم ترضع موسى في قصر فرعون بأمره!!

وها هو صاحب أعلى يقينٍ في الأمة كلِّها بعد نبيها ﷺ ؛ إنه يقين أبي بكر ﵁ ؛ ذلكم العملاق الذي علَّم الدنيا كلَّها حلاوة اليقين، فلما قيل له: يقول صاحبك: إنه أُسري به من مكة إلى القدس إلى السموات العلا وعاد في ليلة، فيردُّ بيقينٍ عجيبٍ: أَوَ قد قال ذلك؟ فيقولون: نعم. فيقول: «إِنْ كَانَ قَدْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ صَدَقَ»[(١)] .

وعمر بن الخطاب في الحديبية يقول للنبيِّ ﷺ كلامًا شديدًا ظل يخشى عاقبته حتى لقي ربه - عزَّ وجلَّ - يقول: يَا رَسُولَ الله، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟ قال: «بَلَى».

قال: أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حَقًّا؟

فيقول: «بَلَى».

قال: أَوَ لَيْسُوا عَلَى الْبَاطِلِ؟

فيقول: «بَلَى».

وفي لفظ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ؟

فيقول: «بَلَى».

فيقول عمر: فَلِمَ نُعْطِ الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟!

فيقول رسولُ الله ﷺ : **«يَا عَمَرُ، إِنِّي رَسُولُ الله، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»**.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣ / ٦٢، ٦٣) وصححه، ووافقه الذهبي، ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٢ / ٣٥٩ - ٣٦١)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١٤٣٠)، وضياء الدين المقدسي في «فضائل بيت المقدس» (٥٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٠ / ٥٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٠٦).

فيترك عُمر النبيَّ ﷺ ويذهب إلى أبي بكر ويقول: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ الله حَقًّا؟ فيقول: «بَلَى».

أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟فيقول: «بَلَى».

فيقول عمرُ: فَلِمَ نُعْطِ الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟!

وفي لفظٍ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ؟

فيقول الصديق ﷺ بيقينٍ لِعُمَرَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ! إِنَّهُ لَرَسُولُ الله، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَإِنَّ الله لَنَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَالله إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ [(١)].

يعني: إياك أن تحيدَ عن طريقه.

وتدبر موقف الصديق ﷺ كذلك حين تُوفي رسولُ الله ﷺ؛ كما في «**صحيح** البخاري»[(٢)] من حديث عائشة ﷺ زوج النبي ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ ﷺ بِالسُّنْحِ. قال إسماعيلُ: يعني: بالعالية -، فَقَامَ عُمَرُ ﷺ يقول: وَالله مَا مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: وَالله مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَبَّلَهُ، وَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُذِيقُكَ اللهُ ﷻ الْـمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ، لا يَمُوتُ، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآيَةُ كُلَّهَا، فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ، وأخرجه البخاريُّ، كتاب الجزية والموادعة (٣١٨٢)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب صلح الحديبية في الحديبية (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف ﷺ.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الفضائل، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**» (٣٦٦٧، ٣٦٦٨).

واعلموا أن هذه الأمة تحتاج إلى اليقين؛ فلقد جرَّبت الأمةُ الشرقَ الملحدَ فلم تُفلح، وجرَّبت الأمةُ الغربَ الكافرَ فلم تُفلح، وجرَّبت الأمةُ الوسطَ الأوربي الظالم فلم تُفلح، فما أحوج الأمة إلى اليقين في رب العالمين، وإلى اليقين في سيد النبيين ﷺ، وإلى اليقين في المنهج الذي بين يديها، وبدون هذا اليقين لن تنتفع الأمةُ بشيء، وأنا أقولُ: يوم اختل هذا اليقينُ في قلوب الأمة - إلا من رحم ربي - ضعفت الأمةُ، وهانت، وراحت لتبحث عن قوارب للنجاة عند أولئك الذين حققوا النصر في الجولة الأخيرة من الغربيين، فركبت قوارب تصطدمُ مع دينها فغرقت، واستبدلت بالعبير بعرًا، وبالثريا ثرى، وبالرحيق المختوم حريقًا، وتأخرت وسارت وراء الركب البشري ببعيد!!

ولن تكون كلمةُ الأمة من رأسها إلا إذا كانت لقمتها من فأسها.

لأن الأمة إذا كانت تنتظرُ معونتها وسلاحها من يد عدوها فكيف تنتصرُ؟! أمة لا زال شبابها في غفلة بعيدًا عن الإبداع والإنتاج والعمل والعطاء!! أمة لا زالت تنتظرُ قطع الغيار للسيارات والدراجات من أوروبا كيف تبدع هذه الأُمة؟ وكيف يكون لها قيمةٌ وكرامةٌ ووجودٌ بين أمم الأرض، وقد اختل لديها اليقين؟! مع أنها تملك أعلى وأشرف وأسمى ما يُمتلك في هذه الحياة!!

فماذا فقد من امتلك الإسلام؟ وماذا امتلك من فقد الإسلام؟!!

يا أمة الإسلام: عودي بيقين كما أن أعداءك يعلمون بيقين أن هذه الأمة لن تنصر إلا بالعودة إلى هذا الدين؛ فهذا يقينهم الغائب عنا نحن المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فأمتنا بهذا الدين هي خير أمة؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

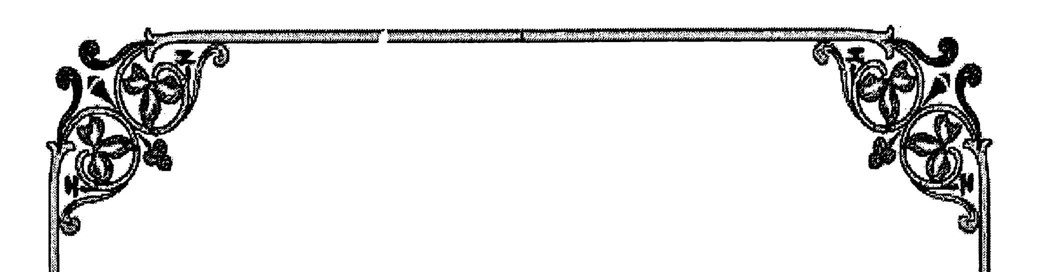
فلا سعادةَ، ولا سيادةَ، إلا إذا حوَّلت الأمةُ اليقينَ إلى واقع، وها نحن نرى الآن على أرض القدس فوق الثرى الطاهر والتراب المبارك شبابًا؛ بل ونساءً وأطفالًا حوَّلوا اليقين على هذه الأرض إلى واقع، نرى طفلًا يلاحق يهوديًّا مجرمًا مدججًا بالسلاح لا يملك هذا الطفل في يده إلا حجرًا يُغَرِّد بأحلى معاني اليقين.

نعم... طفل لم يتجاوز الثانية عَشرةَ مِن عمره يقف أمامَ دبابة من الدبابات، وبينه وبين الدبابة ما لا يزيد على عشرة أمتار؛ ليقذف مدفع الدبابة بحجر في يده!! لقد علَّم هؤلاء الأطفالُ اليهودَ بأن محمدًا ﷺ ما مات وما خلف بنات؛ بل خلف أطفالًا ورجالًا جسَّدوا مرةً أخرى في عالم الواقع حلاوة اليقين ولذة الإيمان.

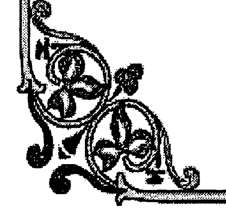
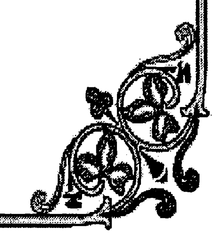
فلا تظن أن الذي ذكرته قد مضى زمانه؛ كَلَّا؛ بل نرى امرأةً تُجسِّد الآن اليقين؛ فاليقين ليس صعب المنال، ولكنه يحتاج إلى رجال من المؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم مَنْ قضى نَحْبَهُ ومنهم مَنْ ينتظر؛ كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

نسأل اللهَ تعالى أن يملأ قلوبنا باليقين؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

*****



ضَعْفُ الثقَةِ وَالتسْلِيم

ضعف الثقة والتسليم

حَديثُنا في هذا الفَصْلِ الذي بين يديك عن مرضٍ يصيبُ أُمَّتَنَا بهزيمةٍ نفسيةٍ قاتلةٍ؛ ألا وهو مرض: «ضعف الثقة»؛ ذلكم المرض الذي ابتليت به الأمةُ طوال السنوات الماضية بعد زوال الخلافة، ومن يومها إلى يومنا هذا لا زالت الأمةُ مصابةً به إلا من رحم اللهُ من أفراد، وأسأل الله أن يشفي كلَّ فردٍ من أفراد هذه الأمة من كل الأمراض المهلكة، وأن يردَّ الجميعَ إلى الحقِّ ردًّا جميلًا.

فما معنى الثقة؟

الثقة؛ كما قال الهرويُّ [1]: «سواد عين التوكُّل، ونقطة دائرة التفويض، وسويداء قلب التسليم».

يا له من تعريفٍ عالٍ لمعنى الثقة؛ فهي ليست مجردَ كلمة؛ بل هي منهجٌ كاملٌ تحتاج إلى أن تُذكَّر به الأمةُ في هذه الآونة من جديد.

ووالله لو جدَّدت الأمةُ ثقتها في ربها وفي دينها ونبيها ﷺ وفي المنهج الحق الذي أتانا به ما رأينا هذا الواقع المرير!!

ولا يمكن على الإطلاق أن يتذوق أحدٌ حلاوةَ الثقة إلا إذا عرف اللهَ تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا؛ لأنه كيف تثقُ في الحق تبارك وتعالى وأنت لا تعرفُ أسماء جلاله، ولا تقف على صفات كماله؛ فلا يتذوقُ هذه الحلاوة إلا من عرف الملكَ الجبارَ القهارَ العزيزَ القويَّ الحكيمَ الخبيرَ... إلا إذا عرف خالقه الموصوف بالقدرة والقوة والإرادة والملك والإحاطة والعلم... إلى غير ذلك.

ولو علمت يقينًا أنه ﷻ مالك الملك، وملك الملوك، والكون كلُّه بسماواته وأرضه في قبضته تبارك وتعالى، ولا تستطيع قوةٌ على وجه الأرض أن تفعل في الكون شيئًا إلا بأمره وتحت سمعه وبصره وإرادته؛ فلا يمكن أن تسقط قنبلةٌ أو طائرةٌ أو قاذفةٌ أو

(١) كما في «المدارج» للعلامة ابن القيم (٢/ ١٣٧).

صاروخٌ في أيِّ مكان إلا بأمره وتقديره؛ قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وما من جبلٍ على وجه الأرض إلا ويعلم اللهُ ما في وعره، وما من نهرٍ أو بحرٍ إلا ويعلم اللهُ ما في قعره ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

[فاطر: ١١].

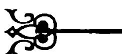
وقد علَّق ابنُ القيم على قول الله جلَّ وعلا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص:٧]؛ **فقال:** «فإنَّ فِعل أمِّ موسى هو عين الثقة بالله تعالى؛ إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف».

○ فها هي أم موسى تؤمر بإلقاء ولدها في اليم، فتمتثل الأمرَ ثقةً في وعد الله بالنجاة، وتأتي البشارة من الله - جلَّ في علاه: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

والهديةُ إذا أتت من الملك أتت مُضَمَّخةً بطيبه؛ فتصور فضل الله تبارك وتعالى على أمِّ موسى حينما حققت ثقتها في الله على أرض الواقع.

ونجَّى الله موسى بسترٍ رقيقٍ لا يخطر على بالٍ، ألا وهو ستر المحبة؛ فلما نظرت امرأة فرعون إلى وَجْهِ موسى الأزهر الأنور قالت قولتها الجميلة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص:٩]؛ فينجي الله موسى بسترِ المحبة حينما قُذفت في قلب امرأة فرعون، ويُحرِّم اللهُ المراضعَ على موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لترضعه أمهُ كما وعد ﷻ، تدبر معي أيها الحبيب لتتذوق طعم الثقة؛ أسأل الله أن يذيقنا حلاوتها؛ فليست الثقةُ بالتنظير!!

فشتان شتان بين العلم النظري وبين أن تتحول هذه الصفةُ فيك إلى حقيقةٍ وواقع، وهذا يحتاجُ إلى جَهْدٍ على القَلْب وإلى عمل! فما أيسر التنظير وما أسهله؟ يحرِّم اللهُ المراضعَ على أم موسى؛ لأنه جلَّ وعلا وعدها أن يرد موسى إليها، وتصوَّر معي هذا



المشهدَ العجيبَ من مشاهد الثقة، أو إن شئت فقل: من مشاهد ثمرات الثقة في الله جلَّ وَعَلَا؛ ففرعون يُجْلِس أُمَّ موسى إلى جواره، ويُصْدِر لها الأوامر القاطعة الحاسمة بإرضاعه وإشباعه؛ فيقول لها: أرضعيه، أشبعيه، أكرميه! وقد كانت بالأمس القريب جدًّا تخشى على موسى من فرعون وملئه، وهي الآن ترضعُ موسى في قصر فرعون بأمره!!

○ وها هي أمُّ إسماعيل هاجر عليها السلام التي جَسَّدت ثقتها في الله أيضًا تجسيدًا يتألق في دنيا الناس، وما زال يتألق سموًّا وعظمةً وروعةً وجلالًا؛ حين قالت لإبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام حينما أراد أن يتركها في هذا الوادي الذي لم يكن فيه شيء، لا ترى فيه هاجر إنسًا ولا أُنسًا، ولا شجرةً ولا بيتًا، ولا طيرًا ولاماءً، لا ترى إلا رمالًا انعكست عليها أشعةُ الشمس المحرقة، فكادت الأشعةُ أن تسرق الأبصار، لا ترى إلا جبالًا سوَّدتها حرارةُ الشمس التي تصهر الحديد، وتذيب الصخر، ومع ذلك تعلَّقت بإبراهيم حين همَّ بتركها مع رضيعها، وقالت [(١)]: «**يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا؛ فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَتْ** (قولتها التي تجسد حلاوة الثقة): **إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا**»، وفي روايةٍ [(٢)]: «**رَضِيتُ بالله**»؛ كلمةٌ يسيرةٌ كلُّنا يعرفها؛ لكن شتان شتان بين من سمعها ورددها، وبين مَنْ ذاق طعمها، وعرف حلاوتها، ورزقه الله في قلبه بردها.

وهنا تدبر ثمرةَ الثقة، فهل ضيعها اللهُ؟ لا والله؛ فلما نفد الشرابُ، ونفد التمرُ، وجفَّ اللبن في ثديها بدأ الغلامُ يتلبط في حجرها في هذا الجو القاتل، وتركت ولدها، وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وشاء اللهُ أن يُبقي هذه السُّنةَ ألا وهي سنة السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط، تكريمًا لهاجر وإسماعيل وإبراهيم؛ فأبقى الله هذه السُّنة في أمة محمد ﷺ، فهو أولى الناس وأمته بإبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:٦٨].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: يزفون: النسلان في المشي (٣٣٦٤).
(٢) عند البخاريِّ (٣٣٦٥).

وفي رواية عند الطبريِّ بسندٍ حسنه الحافظ ابن حجر[(١)] من حديث عليٍّ رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام نزل إلى الأرض عند إسماعيل بالقرب منه عند موضع زمزم الآن؛ فسمعت هاجرُ وهي في الشوط الأخير على المروة صوتًا؛ فقالت لنفسها: «صَهٍ صَهٍ» يعني: كأنها تريد أن تُسْكت نفسها؛ لأنها تسمع صوتًا جيدًا غريبًا، التفتت هاجر إلى الرضيع، فوجدت المَلَكَ يُلامس الأرضَ بجناحيه، وجدت جبريل عليه السلام، فناداها جبريلُ، وهي على جبل المروة وهو يقول: «مَنْ أَنْتِ؟»؛ فقالت هاجر الفقيهة البليغة: «أَنَا هَاجَرُ أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ» - فنسبت نفسها إلى إبراهيم؛ لأن إبراهيم يعرفه أهلُ السماء - فقال لها جبريل: «وإلى مَنْ وَكَلَكُما؟» - يعني: في هذا المكان - فقالت هاجر: «وَكَلَنا إلى الله» - أي: تركنا إلى الله - فقال جبريل عليه السلام: «وَكَلَكُمَا إِلى كَافٍ»[(٢)]؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦].

○ **إنها الثقةُ** التي ملأت قلبَ نبي الله نوح وهو يصنعُ السفينةَ على الرمال حيث لا ماء، ومع ذلك يخاطبه ربُّه بقوله: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

وهنا يمتثلُ نوحُ أمر ربه بكلِّ ثقة: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨]؛ فردَّ عليهم نوح صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨].. لم ير نوحُ صلى الله عليه وسلم نقطةَ ماءٍ إلى حين صُنْعِهِ للسفينة؛ لكن انظر إلى الثقة المطلقة في أمر الله ووعده، قال: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٩]، وهنا نتعلم أمرًا غايةً في الأهمية، وهو: أن نبذر بذرًا صحيحًا لدين الله، وندع النتائج بعد ذلك لمالك الملك؛ فها هو نوح يصنع الفلكَ، ويتضرعُ لربه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١٠ - ١٤].

---

(١) في «الفتح» (٦/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (لسورة البقرة: ١٢٧)، و «التاريخ» (١/ ١٥٢ و١٥٣)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٩٩٤) من طريق: أبي إسحاق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب قال: فذكره.

○ إنها الثقةُ التي ملأت قلبَ نبيِّ الله أيوب الذي ابتلاه الله - جلَّ وَعَلَا - بمرض أقعده، وابتلاه الله ببلاء فَقَدَ فيه كلَّ ما يملك، فقد فيه أولادَهُ ومالَهُ وكلَّ شيء، ولم يُبق الله - جلَّ وَعَلَا - له إلا قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا على البلاء صابرًا، وزوجةً وفيةً تقيةً صابرةً، وحين دعا ربَّه ليرفع عنه هذا البلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

ولم يأمر الله - جلَّ وَعَلَا - نبيه أيوب بالتحرك إلى بلدٍ أوروبيٍّ أو أمريكيٍّ ليعالج هناك في مستشفى، وإنما في مكانه الذي هو فيه؛ قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، وفجَّر الله له بهذه الضربة عينًا من الماء اغتسل منها وشرب؛ فطهَّر الله بدنه من الظاهر والباطن من كلِّ داء.

○ إنها الثقةُ التي ملأت قلبَ نبيِّ الله يونس وهو في بطن الحوت، في ظلمات فوقها ظلمات؛ قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وإياك أن تفهم معنى الآية خطأ؛ فمعنى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نضيقَ عليه، وليس معناها أن يونس عليه السلام قد شك في قدرة الله؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦] ؛ أي: فضيق عليه رزقه.

○ إنها الثقة التي ملأت قلبَ الحبيبِ المصطفى ﷺ وهو في الغار: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، وفي «**الصحيحين**»[(١)] من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا؛ فَقَالَ: «**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»؛ فما ترك سببًا من الأسباب إلا وأخذ به، فلتنقطع كلُّ الأسباب؛ فإنه ﷺ يأخذ بالأسباب وهو على ثقةٍ أنها وحدها لا تضرُّ ولا

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٦٥٣)، وكتاب مناقب الأنصار (٣٩٢٢)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨١).

تنفعُ ولا تمنعُ إلا بأمر مسبب الأسباب جلَّ وَعَلَا.

ووالله ما عرفنا بشرًا حقَّقَ الثقة في الله كما حققها سيدُ البشرية محمد ﷺ؛ فكلُّ حياة النبيِّ ﷺ تجسيدٌ للثقة في الله وفي وعده تبارك وتعالى، وفي أشد الأوقات إيذاءً واضطهادًا، ومحاربة للدعوة، ولصاحب الدعوة، أَعْلَنها بكلِّ ثقة لخباب بن الأرت رضي الله عنه؛ فقال: «والله لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ الله أو الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1].

ولم تمض سنواتٌ إلَّا ورسول الله ﷺ يأمر بلالًا أن يرتقي الكعبةَ؛ ليرفع من فوق ظهرها نداءَ الحق: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، في سنواتٍ لا تُعدُّ في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق، وهكذا لو استطردتُ مع المواقف لطال بنا المقامُ، لاسيما لو دخلت بستان الصحابة رضي الله عنهم؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]، وأنا - والله - أشعر بشيءٍ من الجفاء لو تحدثت عن الثقة إن لم أتحدث عن ثقة أبي بكر رضي الله عنه في ربِّهِ سبحانه.

فهل رأيتم بشرًا على وجه الأرض بعد الأنبياء والمرسلين قد حقق الثقةَ في الله تبارك وتعالى وفي وعده كما حققها الصديقُ رضي الله عنه؟ هل فكَّرت في رجلٍ يأمره المصطفى ﷺ بالبذل والإنفاق؛ فيأتي هذا العملاقُ بكلِّ ما يملك؟! أنا أقول بأنه لا يقدر على ذلك إلا أبو بكر! يأتي بكلِّ ما يملك ويدفعه للنبيِّ ﷺ بطيب نفسٍ، وسخاوةِ ضميرٍ؛ فيقول له النبيُّ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟»؛ فَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ الله وَرَسُولَهُ[2].

مواقف نردِّدها كثيرًا؛ لكنها تحتاجُ منا إلى وقفات؛ لنتعامل معها تعاملًا جديدًا،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة (٣٦١٢).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٧٥)، وحسن إسناده الألباني في «المشكاة» (٦٠٢١)، وهو في «صحيح أبي داود والترمذيِّ».

وأنا لا أسوقُ هذه المواقفَ من أجل الثقافة الذهنية الباردة، ولا من أجل الاستمتاع السالب للمواقف، إنما من أجل أن تحولها الأمةُ الآن إلى واقع؛ فالأمة غنيةٌ، وكثيرةٌ، وقويةٌ، لكنها ضعفت وذلَّت يوم أن فقدت الثقة في الله، وفي منهج الله، وفي المبلِّغ عن الله ﷺ!!

في الوقت الذي تثق فيه الأمةُ في هؤلاء المجرمين الظالمين الذين لُطِّخت أيديهم بدماء الأبرياء الأبرار، تثق في هؤلاء الذين لا يرقبون في مسلم - فضلًا عن مؤمنٍ - إلًّا ولا ذمة، تثق في أن تستخرج الماءَ العذبَ الزلال من بين نارٍ مشتعلةٍ متأججةٍ، تثق في أن يلج الجملُ - الضخم - في سمِّ الخياط! تثق في أن تتخلَّى الأفاعي عن سُمِّها! تثق في أن تتخلَّى الكلاب عن نباحها! تثق في أن تتخلَّى الحمير يومًا عن نهيقها! وأنا أعجب كيف تثق الأمة في ذلك؟!!

أمرٌ عجيبٌ يدمي القلبَ، ويؤلم الفؤادَ!! أن الأمةَ إلى هذه اللحظة ما زالت تثق في هؤلاء المجرمين، ولم تحقق الأمة إلى هذه الساعة شيئًا من ثقتها في الله ربِّ العالمين - إلا من رحم الله من أفرادٍ قلائل- أين الثقة في الله التي تغير وجه الأرض؟ أين الثقة في الله التي تفعل المستحيل من منظور الخلق؟ أين الثقة التي ينصر الله بها الدين؟!

هلَّا قرأتم قول الله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠]؛ لأن الله هو الذي خلق اليهود، وهو الذي جَسَّد لنا نفسيات القوم، وأظهر لنا ما تحمله صدُورُهم من خيانةٍ وغلٍّ وحقدٍ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:١١٨].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

لذا؛ فأنا أقولُ: إن الأحداثَ التي تجري الآن على أرض فلسطين؛ إنما هي مرحلةٌ من أعظم المراحل التي تمرُّ بها أمتُنا في إطار التربية؛ لأن التربية للأمة ليست على أيدي الحكام، ولا على أيدي العلماء؟ إنما هي تربيةٌ سماويةٌ من ربِّ الأرض والسماء بالأحداث والابتلاءات؛ للتمييز والتمحيص، وإقامة الفرقان؛ ليتمايز أهل الإيمان إلى فُسطاطين لا ثالث لهما: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه؛ لأن حالة الغبش التي تحياها الأمةُ لا تنصر دينًا، ولا تنصر قضية؛ فلابد من إزالة هذا الغبش؛ فالأمة لا ينقصها عتادٌ ولا سلاحٌ، ولا كثرة عدد ولا عدة؛ بل إن في الأمة شبابًا تحترق قلوبهم الآن شوقًا للشهادة، ووالله لو رُفعت راية الجهاد في سبيل الله لسبقنا أطفالنا وشبابنا؛ لأن الكلَّ ملَّ حياة الذلِّ والمهانة، إما أن نكون عظماء فوق الأرض بتوحيدٍ وكرامةٍ، وإما أن نكون تحت الأرض؛ فالأمة لا تحتاج إلَّا إلى الثقة في الله وفي رسوله ﷺ.

فلا كرامةَ للأمة إلا بالإسلام؛ هذه هي الراية التي رَفَعَتْ شأن الأمة، وهي المظلة التي ظللت سماءَ الأمة، وجعلتها تحيا حياة العزة والسؤدد والكرامة.

أَبِي الإســلامُ لا أَبَــا لي ســواهُ إذا افتخــرُوا بقــيسٍ أو تمــيم

فالكلُّ يريد أن يخرج للجهاد ليسدَّ بصدره فُوَّهة المدافع؛ ليعلم هؤلاء اليهودُ أن محمدًا ما مات، وما خلَّف بنات؛ بل خلَّف رجالًا يشتاقون الآن لصحبة مصعب بن عمير، وخالد بن الوليد، بل ورؤية حبيبهم وقرة عيونهم ﷺ؛ فالأمة لا تخلو أبدًا في عصرنا وإلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها ممن يحملون هذه الثقة التي تحاكي ثقة هؤلاء الأخيار الأطهار؛ فأبناء الطائفة المنصورة لا يخلو منهم زمان ولا مكان. وقد قلْتُ وسأقولُ: إنني ألمحُ هذه الثقةَ على أيدي أطفال أمتنا في أرض فلسطين، أراها هناك مجسدةً على أيدي هؤلاء الأطفال الذين علَّموا الكبار معنى الثقة:

مِنْ أَيْنَ جَاؤوا وَلَمْ يَحْمِلْ بِهِمْ نَبَأٌ وَلَا تَمَخَّضَ عَنْهُمْ قطُّ مؤتمرُ

جِيلٌ مِنَ الصَّخرِ قَدْ قُدَّتْ مَلامِحُه وَمِن رَمَادِ الشَّظَايَا أورَقَ الشَّجَرُ

جِيــلٌ تَــأَلَّقَ في آفَاقِــهِ حَجَــرٌ أَسْتَغْفِر اللهَ بَلْ هَزَّ الوَرَى حَجَرُ

وَكَان مَا كَانَ مِنْ صَحْوٍ وَمِنْ مَطَرٍ وَأَوَّلُ الغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْهَمِرُ
وَقَدْ رَمَوْا عدوًّا بِأَحْجَارٍ مُسَوَّمَةٍ عَلَى رُؤُوسِهِمْ أَلْقَتْ بِهَا سَقَرُ
وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الإِلَهَ رَمَى فَكَيْفَ يُهْزَمُ مَنْ بِالله يَنْتَصِرُ؟!

وهم لا يملكون شيئًا إلا حجرًا يجابهون به مدرعةً أو دبابةً، ونرى ذلك كلَّ ليلة بأعيننا.

إننا كذلك نلمحُ الثقةَ عند كثير من المسلمين في كثير من البيوت، ولو أذن لكلِّ مسلمٍ أن يبين موقفًا من مواقف الثقة حين امتلأ قلبُهُ بالثقة في الله، والله لسمعنا العجب العجاب، فها أنا ذا أذكر هذا الرجلَ الكريمَ المباركَ من آبائنا يحدثني وأنا ألقي محاضرةً في مكة - شرفها الله - وأخبر أنه كان مريضًا بالشلل النصفي، وهذا الرجل منَّ الله عليه بالأموال، فسافر إلى هنا وهناك من أجل الشفاء، ولم يُقَدِّر اللهُ له الشفاء، وفي يوم جلس مع أولاده، وقال لهم: أريد أن أعتمر، وهناك - في بيت الملك - اتركوني لأسأل الحق تبارك وتعالى، وأنا عندي ثقة أنه لن يخذلني، فَقَدَّرَ الله - جلَّ وَعَلَا -، وحملوا والدهم إلى بيت الله الحرام، وأقعدوه على كرسيٍّ؛ فقال لهم: أنزلوني عند صحن الطواف لأكون قريبًا من الكعبة، فأنزلوه، وخلال ساعةٍ ونصف لم يَدْعُ الله إلا بدعوة واحدة فقط، كان يقول: يا رب لا تخرجني من بيتك إلا على قدمي أو على المقابر، حتى تعب من البكاء فنام على الكرسي، وشاهد رؤيا في هذه اللحظات، يقول: سمعت هاتفًا ينادي عليَّ بصوتٍ عالٍ ويقول لي: قم وتحرك، فاستيقظت من النوم، فوقفت ومشيت، وبعد ثماني خطوات تذكَّرتُ أنِّي مشلول، فظللت أتضرع وأقول: يا ملك. يا ملك.

فو الله ما خيَّب من رجاه، وسيظل أهلُ الثقة في الأمة بفضل الله إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها.

أقولُ: فلولا كمال ثقة نبينا ﷺ ما قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ، ولولا كمال ثقة أمِّ موسى بربها ما ألقت بولدها، ولولا كمال ثقة هاجر بربها ما قالت لإبراهيم عليه السلام: «**إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا**»؛ إلى غير هذه المواقف المشرقة؛ فالثقة هي سويداء قلب التسليم.

ولو شبهنا «التسليم» بجسد؛ فإن سويداء قلب هذا الجسد هو «الثقة» في الله تعالى؛ فإن

القلبَ أشرف ما فيه سويداؤه، وهي المُهجة التي تكون بها الحياة؛ فلو كان «التفويض» قلبًا لكانت «الثقة» سويداءه، ولو كان «التفويض» عينًا لكانت «الثقة» سوادها، ولو كان «التفويض» دائرةً لكانت «الثقة» نقطتها ومحور ارتكازها، وكثيرٌ من الناس يفسرون «التوكل» بالثقة، ومنهم من يفسر «التوكل» بالتفويض، ومنهم من يفسره بالتسليم، ومقام التوكل يجمع كلَّ ذلك [1]؛ فالتوكل هو جماع الإيمان، ونهاية تحقيق التوحيد، وهو: صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب.

ونسبة الثقة إلى التوكل؛ كنسبة الإحسان إلى الإيمان، وعنوانها أمن العبد - أي: أن يشعر العبد بالأمان - من فوت المقدور، وانتقاض المسطور، فيظفر بروح الرضا، وإلا فبعين اليقين، وإلا فبلطف الصبر.

أي: من تحقق بمعرفة الله تبارك وتعالى على أن ما قضاه ربُّه وقدره لا مردَّ له البتة، ولو اجتمع أهلُ الأرض عليه؛ فيكون عندك طمأنينةٌ إلى أن ما قضاه ربُّك لك، وقدَّره عليك لا يفوتك؛ كما في الحديث [2]: «**احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**».

قال تعالى: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الأنعام: ١٧].

هل يستطيع بشرٌ أن ينقض ما سُطِّر في اللوح المحفوظ عند الملك؟!! وقد تحدَّثتُ بالتفصيل عن مراتب الإيمان بالقدر في جزء مستقلٍّ مطبوع، وقُلْتُ: **إنَّ أوَّل مرتبة هي**: مرتبة العلم، **والمرتبة الثانية**: الكتابة، وفيها خمسة تقادير: التقدير الأول: التقدير الأزلي، التقدير الثاني: التقدير في يوم الميثاق، التقدير الثالث: العُمُري، التقدير الرابع: الحولي،

(١) «المدارج» (٢/ ١٣٨).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (باب ٥٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣، ٣٠٣). وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

والتقدير الخامس: اليومي. **والمرتبة الثالثة**: هي المشيئة والإرادة، **والمرتبة الرابعة**: هي مرتبة الخلق.

وحين يشعرُ العبدُ بهذا الأمن يظفر بروح الرِّضا في أيِّ وضعٍ كان، وإلا فبعين اليقين، أي: عنده يقينٌ مطلقٌ إلى أن ما قضاه ربُّه وقدره إنما هو الخير والحق، ولا يستطيعُ أحدٌ أن ينقضه أو يدفعه، أو أن يردَّه، وإلا فبلطف الصبر، وذلك إن لم يستطع أن يحقق الرضا، واختلف علماؤنا: هل الرضا بالمقدور - يعني: بالبلاء - واجبٌ أو مندوبٌ؟ فقال المحققون: الراجح أنه مندوبٌ، وليس واجبًا؛ فليس كلُّ أحدٍ يستطيع أن يرتقي إلى هذه الدرجة، ألا وهي: درجة الرضا بالابتلاء، والمحن، والفتن؛ فمن لم يستطع فليرتقِ إلى درجة عين اليقين، وإلا فبلطف الصبر؛ فأقل الدرجات: أن يصبر على قَدَرِ وَبَلَاءِ وَابْتِلَاءِ رَبِّ العالمين له، وحينئذٍ يتم التسليمُ الذي ذكرتُ أنه سويداء الثقة.

○ **والتسليم نوعان** (1): تسليمٌ للحُكْم الشرعي، وتسليمٌ للحُكْم الكوني القدري.

إنَّ الواثق في الله - تبارك وتعالى - يسلِّم بحكم الله الشرعي؛ فيمتثل الأمرَ، ويجتنب النهيَ، ويقف عند الحدِّ؛ لأنه واثقٌ في شرعه، وفي تكليفه، وأحكامه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

[النور:٥١، ٥٢]

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]؛ فهو تحكيمٌ لله ورسوله، وشعورٌ بعدم الحرج، وتسليمٌ لحكم الله وحكم الصادق رسول الله ﷺ؛ فهناك تسليم للحكم الشرعي، وهو تسليم المؤمنين الصادقين العارفين العالمين بالله تعالى؛ فشعارهم

---

(1) «المدارج» (٢/ ١٤٠).

مع أحكام رب العالمين دائمًا فوق أي أرضٍ وتحت أي سماءٍ هو: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، أما شعار المنافقين؛ فهو: سَمْعٌ وعصيانٌ؛ سَمْعٌ وإعراضٌ، سَمْعٌ وصدودٌ؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦٠، ٦١].

أما التسليم للحكم الكوني القدري؛ فقد زلَّت فيه أقدامٌ، وضلَّت فيه أفهامٌ، وحيَّر الأنامَ، وأوقع الخِصامَ، وقد أخلَّ في هذا الباب كثيرٌ من الأقوام؛ إنها قضية الرضا والإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره، وقد تقدم الكلامُ على ذلك بما فيه الكفاية.

ولكنني أقول لك: إن غابت عنك الحكمة مِن الابتلاء؛ فهي ما غابت عن رب الأرض والسماء، وما يحدث للأمة الآن من أزماتٍ فبعلم وسمع الحكيم الخبير، وهنا أقول: ليس أحدٌ أغيرَ على الحقِّ وأهله من الله، وليس أحدٌ أرحمَ بالمستضعفين في فلسطين من الله.

فما عرف الثقةَ في الله، ولا ذاق طعمها، ولا حلاوتها مَنِ اعترض على تقديره وقضائه سبحانه وتعالى!

والذي يذوق طعمَ الثقة في الله يعلم يقينًا أن الله عز وجل ما قضى وقدَّر إلا الخير؛ فكلُّ شيء يصيبك فاعلم بأنه الخير، ولا يخفى علينا ما حدث لأمنا عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك؛ فقد رُمِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم في عرضه، ورميت أمُّ المؤمنين في شرفها، ورُمِي الصديق في طهارة بيته، ورُمِي صفوان بن المعطل بالخيانة، وزلَّ فيها عددٌ من الصحابة الأفاضل؛ ومع كلِّ هذا يُذَكِّرُهُمْ ربهم بقوله: ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور:١١]؛ فلقد رُفعت مكانةُ الصديقة بنت الصديق، واحتلَّت المكانةَ الأولى بدون منازع بعد هذه الفتنة العضيبة!!

وظهرت كرامةُ ومكانةُ الصديق، وبَانَ من خلالها أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بشرٌ لا يعلم الغيبَ؛ فالأمة تتربى الآن بالأحداث من الحكيم الخبير تبارك وتعالى.

- **وأول التسليم: ألا تطلب على التوحيد دليلاً.**

كيف تطلب دليلًا على مَنْ هو دليلٌ لكلِّ شيء؟

كيف يطلب العقلاء دليلًا على وحدانية الخالق؟

وفي كــــلِّ شيءٍ لَـــــهُ آيـــــةٌ تَــدُلُّ عَــلَى أَنَّــهُ الوَاحِــدُ

وهذا كمن يطلب دليلًا على أن الشمسَ مضيئةٌ في وسط النهار! وهي بنورها وإشراقها قد ملأت الأفق.

ولـــيس يصـــحُّ في الأذهـــانِ شيءٌ إِذَا احتــاجَ النَّهَــارُ إلى دَلِيــل

ولله درُّ الأعرابيِّ الذي قال [(١)]: «البعرةُ تدلُّ على البعير، وأثرُ السير يدلُّ على المسير؛ فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فجاج، وبحارٌ ذاتُ أمواج، أفلا يدلُّ كلُّ ذلك على اللطيف الخبير؟».

فأول التسليم: ألا تطلب على التوحيد دليلًا، اللهُمَّ إلَّا إذا كنت تطلبُ الدليلَ الذي يُعَرِّفُك طريقَ ربك ﷻ؛ لأن كلَّ الطرق مسدودة إلا من طريق المصطفى ﷺ.

لن تستطيعَ أن تتعرفَ على ربِّ العزة بأسماء جلاله، وصفات كماله، وقدرته وعظمته، وتوحيده وعبوديته إلا من خلال هدي سيد البشرية محمد ﷺ؛ لأن أعرف الخلق بربه هو النبيُّ ﷺ؛ فهو الدليل الذي يدلك على حقيقة التوحيد، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وتمام التسليم بالخلاص من كلِّ شبهةٍ تُعارض الخبرَ [(٢)].

إن قيل له: الخمر حرام، أو الذهب على الرجال حرام، أو الخنزير حرام، فشعاره التسليم.

إذا أُمِرَ بإعفاء لحيته، لا يحاول أن يتكلَّف المعاذير! إن قرأ: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١]، لا يعترض كما اعترضت تلك القائلةُ: أيكون البوَّاب ضِعْفَ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣١١).

(٢) «المدارج» (٢/ ١٤١).

الدكتورة! في الميراث؟! ونَسِيَتْ أو تناست أن هذا شرع ربِّ العالمين وأحكم الحاكمين تبارك وتعالى.

فالمؤمن الذي تمَّ تسليمُهُ لا يعارض الخبرَ الرَّبانيَّ والنبويَّ بشبهة، أو شهوة تعارض الأمرَ، أو إرادةٍ تعارضُ الإخلاصَ، أو اعتراضٍ يعارض القدرَ والشرعَ، وصاحب هذا التخلص؛ هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا مَن أتى الله به؛ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]، وأستطيع بعد هذا التقسيم البديع لابن القيم أن أُقسِّمَ الثقة بإيجازٍ إلى ثلاثة أقسام: الثقة في الله؛ الثقة في المنهج؛ الثقة في المبلغ عن الله تبارك وتعالى.

- **أولاً: الثقة في الله ﷻ:**

روى البخاريُّ(١) من حديث البراء بن عازب ﷺ أنه لما انتهت معركةُ أُحدٍ نَادَى فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاَءِ فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوؤُكَ، قَالَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: اعْلُ هُبَلُ، اعْلُ هُبَلُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ تُجِيبُوهُ؟**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»، قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ تُجِيبُوهُ؟**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**».

إنها الثقةُ في الله؛ قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج:٧٨]، ثقة في وعده لمن آمن به واتقاه؛ فَمَنْ توكل عليه كفاه، وَمَن اعتصم به نجاه، وَمَنْ فوض إليه أموره هداه؛ قال جَلَّ في علاه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٣٠٣٩).

- **ثانيًا: الثقة في المنهج:**

أن تعلم الأمةُ أنه لا مخرجَ لها، ولا نجاة إلا إذا عادت إلى منهج الله الذي حدَّد لها طريقَ النجاة في جانب العقيدة، وفي جانب العبادة، وفي جانب التشريع، وفي جانب الأخلاق، وفي جانب السلوك، وفي جانب التربية، وفي كلِّ جوانب الخير في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]؛ فهذا القرآن لو تمسكت به الأمةُ لظلت على الطريق المستقيم، وسعدت في الدنيا والآخرة بحبل الله المتين، ونوره المبين، وذكْرِه الحكيم، وصراطه المستقيم.

- **ثالثًا: الثقة في المبلِّغ:**

وهو النبيُّ ﷺ. يعني: أن تثق الأمةُ في رسول الله ﷺ، وأن كلَّ ما جاء به من عند الله هو الحق الذي لا مراء ولا شك فيه؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١].

ومن بديع ما قرأت ما **رواه البخاريُّ**[1] من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: **«يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟»** قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: **«فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ»** قُلْتُ - فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي -: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟ **«وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى»** قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: **«كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٤١٣) و (٣٥٩٥).

عَلَيْكَ؟ فيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ» قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ».

ألم يصف رسولُ الله ﷺ تبرجَ العصر الحالي وصفًا دقيقًا؛ كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».

أولم يخبر الصادقُ ﷺ عن هذه الصورة المزرية في تحكُّم الرويبضات في العالم الآن؛ كما في «مسند» أحمد، و«مستدرك» الحاكم بسند صحيح[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ» قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ».

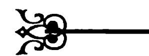
بل؛ ومن أعجب ما اطَّلعت عليه في المؤتمر الثامن للإعجاز العلميِّ في القرآن والسنة بدولة الكويت، ظهر عالمٌ أمريكيٌّ اسمه «أنطوني جستن»، هذا الرجل سمع حديث رسول الله ﷺ كما في «الصحيحين»[3] - واللفظ لمسلم - من حديث

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨)، وفي كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٥٦/ ٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩١)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب شدة الزمان (٤٠٣٦)، والحاكم (٤/ ٤٦٥، ٤٦٦)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «في إسناده إسحاق بن أبي الفرات»، وقال الذهبي في «الكاشف»: «مجهول»، وقيل: منكر، وذكره ابن حبان في «الثقات».
وقد روي عن أنس رضي الله عنه عند أحمد (٣/ ٢٢٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٨٨٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (٤٩٣٥). وانظر رقم (٤٨١٤)، ومسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين (٢٩٥٥).



أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**». قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ**». قَالَ: «**وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى، إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وعَجْبُ الذنب عبارةٌ عن قطعةٍ من العظم مثل حبة العدس في آخر السلسلة الفقرية في نهاية العصعص.

فالرجل متخصص في الوراثة الجزئية، اكتشف أن في هذه العظمة الصغيرة خلايا جزعية، واكتشف أن هذه الخلايا أيضًا موجودةٌ في منطقة النخاع، فأخذ خليةً جزعية من عجب الذنب فوجد أن بها برنامجًا وراثيًّا كاملًا لتكوين الجسد الإنساني فأخذها وأخذ خليةً من منطقة النخاع ووضعها في رأس ضفدعة، فوجد أن خلية عجب الذنب تهاجر إلى منطقة العصعص وخلية النخاع لم تترك مكانها.

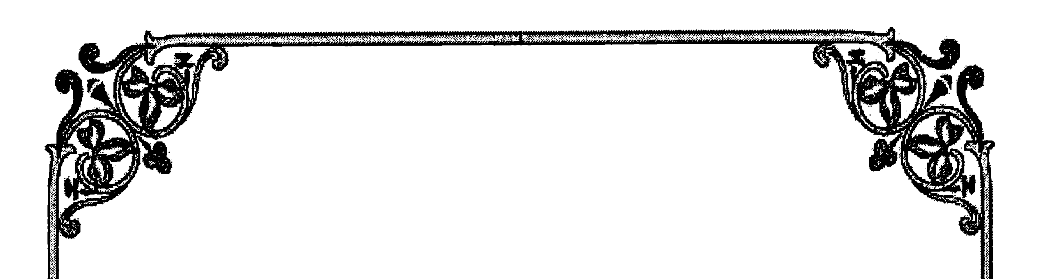
ثم عرَّض الخليتين للقتل، وجد أن كل الخلايا التي تؤخذ من أي منطقة تموت إلَّا الخلايا الجزعية التي أخذها من عجب الذنب.

فلا بد أن تثق في النبيِّ ﷺ فيما أخبر عن الله - جلَّ وَعَلَا - ونثق في وعده بأن الجولة القادمة لدين الله تبارك وتعالى، وأنها لأمة النبيِّ ﷺ حتى لا نصاب باليأس والقنوط.

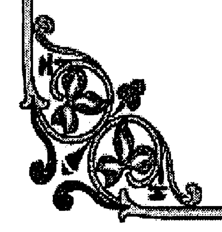
○ **أيها الأفاضل**: ما أحوجنا إلى الثقة في الله، وإلى الثقة في منهج الله، وإلى الثقة في رسول الله؛ المبلغ عن الله ﷻ.

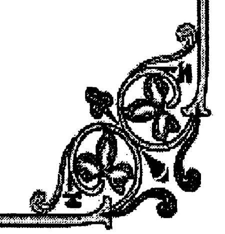
أسألُ اللهَ أن يملأ قلوبنا ببرد الثقة فيه، وحلاوة التوكل عليه، ولذة اليقين فيه؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

*****



العَجَلَةُ وَعَدَمُ التَّـأني





العجلة وعدم التأني

حدِيثُنا في هذا الفصل مع مرضٍ قد يوقعنا في الإفساد ونحن نريد الإصلاحَ، وقد يوقعنا في الضَّررِ والحرج ونحن نريد النفع، فَأنَا لا أقللُ من شأن الغيرة الصادقة لدين الله - جَلَّ وعَلَا، ولا أقلل أبدًا من قدر الحماس الزائد لدين الله تبارك وتعالى؛ لكن يجبُ على أمتنا أن تكون على بصيرةٍ وعلمٍ وفهمٍ بالواقع، بواقعها ابتداء، ثم بواقع الآخرين من حولها؛ إنه مرضُ «العجلة وعدمِ التأنيِّ»، وقد تعمَّدتُ أن أتحدث عن هذا المرض بعد المرَضَيْن السابقين؛ ألا وَهُمَا: «ضعف: الثقة واليقين»؛ لأُبين لأمتي الحبيبة أن العاطفةَ المتأججةَ لدين الله تبارك وتعالى المفرغة من علم وبصيرة وفهم للواقع ومعرفة حقيقية لقدرات وإمكانات الأمة وقدرات الآخرين من حولنا من أعداء هذا الدين؛ قد يوقعنا هذا التعجلُ والتحركُ دون هذه الضوابط في حرجٍ بالغٍ وضررٍ شديدٍ؛ فمن تعجَّلَ الشيء قبل أوانه عُوقب بحرمانه!!!.

فما هي العجلة؟

لغةً: السرعة خلاف البطء[(١)].

واصطلاحًا[(٢)]: «طلب الشيء قبل أوانه، (وقبل الوقت اللائق).

وهو من مقتضى الشهوة؛ فلذلك صارت مذمومةً في عامة القرآن حتى قيل: «العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» قال تعالى: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[الأنبياء: ٣٧] ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾ [طه: ١١٤] ، ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ ﴾ [طه:٨٣]، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ ﴾ [طه: ٨٤]؛ فذكر أن عجلته وإن كانت مذمومةً فالذي دعا إليها أمرٌ محمودٌ، وهو طلب رضا الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل:١]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ [الرعد:٦]، ﴿ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النمل: ٤٦] ، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ [الحج: ٤٧]، ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ

---

(١) «لسان العرب» (٦ / ١٠٢)، و«النهاية» لابن الأثير (٢ / ١٦٥)، و«مجمل اللغة» (٤٦٠).
(٢) «المفردات» للراغب (٤١٠).

ﭐﺳﺘِﻌﺠَﺎﻟَﻬُﻢ بِٱلۡخَيۡرِ ﴾ [يونس: ١١]، ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ، قال بعضهم: من حمأٍ، وليس بشيء بل تنبيهٌ على أنه لا يتعرى من ذلك، وأن ذلك أحد الأخلاق التي ركب عليها، وعلى ذلك قال: ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾ [الإسراء: ١١] ، وقال: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨]؛ أي: الأعراض الدنيوية، ووهبنا له ما نشاء لمن نريد أن نعطيه ذلك، ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص:١٦] ، ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٠]» انتهى.

فالعجلة قد توقع صاحبها في الهلاك في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ [الأنبياء:٣٧].

قال القاسميُّ في «محاسن التأويل»[1]:

«﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾ [الإسراء:١١] جعل لفرط استعجاله وقلَّة صبره كأنه مخلوقٌ منه، كقولك: «خلق زيد من الكرم»؛ تنزيلًا لما طبع عليه من الأخلاق، منزلة ما طبع هو منها من الأركان، إيذانًا بغاية لزومه له، وعدم انفكاكه عنه؛ فالآية استعارة مكنية، بتشبيه العجل لكونه مطبوعًا عليه بمادته، ويجوز أن تكون تصريحية. والمراد بالإنسان: الجنس. ومن عجلته: مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند قول الله تعالى: ﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾ [الإسراء: ١١]:

«يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر؛أي: بالموتِ، أو الهلاكِ، والدمارِ، واللَّعنةِ، ونحو ذلك؛ فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ ﴾ [يونس: ١١] وكذا فسره ابن عباس ومجاهد، وقد تقدم في الحديث: «**لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إلاَّ بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**»[2]، وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾». انتهى.

(١) (٧/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل (٣٠٠٩).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ ﴾ [يونس:١١]: «يخبر تعالى عن حلمه، ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم في حال ضَجَرِهِم وَغَضَبِهِم، وأنَّه يعلم منهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم، والحالة هذه لطفًا ورحمةً؛ كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركةِ والنَّماء. ولهذا قال: ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ [يونس:١١] أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم؛ ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك؛ كما جاء في الحديث عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ**» ثم قال: وقال مجاهدٌ في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه»؛ فلو يعجِّل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم». انتهى.

وقال الله -جَلَّ وعَلَا-: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴾ [الكهف: ٥٨]، والمعنى: لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب؛ لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حليمٌ لا يعجل بالعقوبة؛ بل يمهل ولا يهمل[1]؛ فما ذكر الله -جَلَّ وعَلَا- العجلة إلا وذمها، إلا في حالةٍ واحدةٍ - سأذكرها - لكن تدبر كيف تُهلكُ العجلةُ صاحبها في الدنيا؛ بل وفي الآخرةِ كذلك؟!

روى **البخاريُّ ومسلمٌ**[2] من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: التَقَى النَّبِيُّ ﷺ وَالـمُشْرِكُونَ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ فَاقْتَتَلُوا، فَمَالَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي الـمُسْلِمِينَ رَجُلٌ لاَ يَدَعُ مِنَ الـمُشْرِكِينَ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا فَضَرَبَهَا بِسَيْفِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَجْزَأَ أَحَدٌ مَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَقَالُوا: أَيُّنَا من أَهْلِ الجَنَّة إِنْ كَانَ هَذا مِنْ أَهْلِ النَّار؟ فَقَالَ رَجُلٌ منَ القَوْم: لأَتْبَعنَّه؛ فَإِذَا أَسْرَع وَأَبْطَأَ كُنتُ

---

(١) «تفسير السعدي» ص: (٤٣١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم وما يُخاف منها (٦٤٩٣)، وكتاب الجهاد والسير، باب لا يقال: فلان شهيد (٢٨٩٨)، ومسلمٌ، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (١١٢).

مَعَهُ حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ الْـمَوْتَ فَوَضَعَ نِصَابَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَجَاءَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

فهذا الذي استعجل الموت، هلك في الآخرة، وهذا هو جزاء التسرع والعجلة دون فهم أو بصيرة!!

وفي «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث أنس ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْـمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ[(٢)]؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟**». قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلَا قُلْتَ اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**». قَالَ فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ.

قال النووي ﷺ[(٣)]: «وفي هذا الحديث النهي عن الدعاء بتعجيل العقوبة».

فانظر كيف تعجل هذا الرجلُ بهذا الدعاء الذي لا يطيقه أحدٌ حتَّى صَارَ ضعيفًا هزيلًا كاد بسببه أن يهلك أو يموت!!

وقد يتعجل الإنسانُ الإجابةَ، فيصاب بالحسرةِ[(٤)] وتركِ الدعاء إن لم يحقق اللهُ تعالى له ما يريد!!

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهية الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (٢٦٨٨).

(٢) أي: ضعف. «شرح مسلم» (١٧/ ١٣) للنووي.

(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٧ / ١٣).

(٤) قال ابن منظور في «لسان العرب» (٢/ ٤٤٠): «الحسرة: أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه، وقال ﷻ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾؛ أي: حسرة وتحسرًا».

روى البخاريُّ ومسلمٌ[١] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلاَ أَوْ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**».

وفي رواية: قِيلَ: وكَيْفَ يَعْجَل يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ اللهَ فَلَمْ يَسْتَجِبِ اللهُ لِي**».

وفي روايةٍ:[٢] «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ ما لم يَدْعُ بِإِثْمٍ أو قَطِيعَةِ رَحِمٍ ما لم يَسْتَعْجِلْ**».

قِيلَ: يَا رَسُول الله! مَا الاسْتِعْجَال؟ قال: «**يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**».

قال أهل اللغة[٣]: «يقال حسر واستحسر إذا أعيا وانقطع عن الشيء، والمراد هنا أنه ينقطع عن الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩]؛ أي: لا ينقطعون عنها؛ ففيه: أنه ينبغي إدامة الدعاء، ولا يستبطئ الإجابة».

قال ابن بطال[٤]: «المعنى أنه يسأم فيترك الدعاءَ فيكون كالمانِّ بدعائه، أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة؛ فيصير كالمبَخِّلِ للرَّبِّ الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ولا ينقصه العطاء».

قال الحافظ: «وفي الحديث أدبٌ من آداب الدعاء وهو أنه يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (٦٣٤٠) ومسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي (٢٧٣٥).

(٢) لمسلم (٢٧٣٥ / ٩٢).

(٣) كما في «شرح صحيح مسلم» للنووي (٩/ ٦١).

(٤) كما في «الفتح» (١١/ ١٤٥).

بل لقد ثبت في الحديث الذي رواه أبو يعلى في «مسنده»[١] من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**التَّأَنِّي مِنَ الله، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**».

قال المناويُّ في «**فيض القدير**»[٢]: «التأني؛ أي: التثبت في الأمور «من الله والعجلة من الشيطان»، **قال ابنُ القيم**[٣]: «إنما كانت العجلة من الشيطان؛ لأنها خفَّةٌ وطَيشٌ وحِدَّةٌ في العبد تمنعه التثبت والوقار والحلم، وتوجب وضع الشيء في غير محله، وتجلب الشرور، وتمنع الخيور، وهي متولدةٌ بين خلقين مذمومين: التفريط والاستعجال قبل الوقت... والعجلة قرينة الندامة؛ فقل من استعجل إلا ندم».

وفي «مسند» **أحمد، و**«سنن» **الترمذي والنسائي وأبي داود**[٤] من حديث فضالة ابن عبيد ﷺ قَالَ: بَينَا رَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ إذْ دَخَلَ رجُلٌ فَصَلَّي فقال: اللَّهُمَّ اغْفِر لي وارْحَمْني؛ فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَجِلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فَاحْمَدِ اللهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَلَيَّ ثُمَّ ادْعُهُ**». قَالَ: ثُمَّ صَلَّى رَجُلٌ آخَرُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَحَمِدَ اللهَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّهَا الْمُصَلِّي ادْعُ تُجَبْ**».

فالتعجل - مثلًا - لمواجهة العدو دون إعداد العدة التي أمرني الله ﷻ بها، أو أن أستعد لمواجهة رجلٍ ظالمٍ يملك من أسباب القوة ما لا أملكه أنا؛ فهذا ليس من البطولة ولا من الشهامة ولا الرجولة كما يتصور كثيرٌ من شبابنا وأحبابنا؛ بل لابدَّ أن تكون بصيرًا، وفقيهًا، ومتأنيًا، وحكيمًا، فتفعل الشيء في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٢٥٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٦٧)، وفي «الكبرى» (١٠/ ١٠٤)، وقال الهيثميُّ في «المجمع»(٨/ ١٩): «رجاله رجال الصحيح»، وحسَّن إسناده الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٩٥)، وله شاهدٌ عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ عند الترمذيِّ (٢٠١٢)، والطبرانيِّ في «الكبير»(٦/ ١٢٢)، والرويانيِّ في «مسنده» (١٠٩٦)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٣٤٣) وفيه ضعف.

(٢) (٣/ ٣٥٧).

(٣) «الروح» (٢٥٨).

(٤) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الدعوات، باب: (٦٤) (حديث ٣٤٧٦، ٣٤٧٧) وقال: «حسن صحيح»، وأبو داود، كتاب الوتر، باب الدعاء (١٤٨١)، والنسائيُّ، كتاب السهو، باب التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة (٣/ ٤٤)، وأحمد (٦/ ١٨)، وابن خزيمة (٧٠٩)، وصححه الألباني في «صحيح السنن».

ينبغي وبالقدر الذي ينبغي.

فلا تتصورْ أن من يقومُ ليُناطح الصخورَ الصماءَ أن ذلك من البطولة؛ بل البطولة والرجولة الحقيقية أن تكون بصيرًا بواقعك، وبالحكم الشرعي الذي ينطبق على واقعك الذي تريده، وتسير من خلاله لخدمة دين الله تبارك وتعالى.

وهذا التأصيل الذي أؤصله إنما هو منهج البشير النذير ﷺ الذي علَّم الدنيا اليقين، والثقة، والصبر، والتوكل على الله، ومع ذلك هو الذي علم الدنيا التَّأني والرفق، والحكمة، وعدم العجلة، وأرسى هذه القواعدَ لأصحابه ابتداءً، ولأمَّته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ودائمًا نحن في حاجة أن ننقب عن الدواء في منهج ربِّ الأرض والسماء، ومنهج سيد الأنبياء ﷺ، حتى لا نضر ونحن نريد النفعَ، وحتى لا نُفسد ونحن نريد الإصلاح.

وفي «سنن» الترمذي، و «المنتخب» لعبد بن حميد، و «المعجم الكبير» للطبراني[(١)] من حديث عبد الله بن سرجس المزني رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«السَّمْتُ الْحَسَنُ وَالتُّؤَدَةُ وَالِاقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»**؛ أي: من أخلاق أهل النبوة.

وروى الإمام أبو داود في «سننه» بسند صحيح[(٢)] من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«التُّؤَدَةُ**[(٣)] **فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلاَّ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ»**.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة (٢٠١٠)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥١٢)، والطبراني في «الأوسط» (١٠١٧)، وفي «الصغير» (١٠٦٥)، والضياء في «المختارة» «(٤/ ١٣، ١٤)، وللحديث شواهد. وقد حَسَّنه العلامة الألباني في «صحيح» الترمذي.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرفق (٤٨١٠)، والحاكم (١/ ١٣٢)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٩٤)، وفي «الزهد» (٧١٤، ٧١٥)، وأبو يعلى (٧٩٢)، وصححه الألبانيُّ على شرط مسلم في «الصحيحة» (١٧٩٤).

(٣) قال ابن منظور في «اللسان» (٩/ ١٩٣): «والتؤدة: ساكنة وتفتح: التأني والتمهل والرزانة؛ قالت الخنساء:

فتَــى كَــان ذَا حلــم رزيــنٍ وتــؤدةٍ ... إذا ما الحُبَى من طائفِ الجَهْلِ حُلَّتِ

قال الأزهريُّ: وأما التؤدَة بمعنى التأني في الأمر».

فالعَجَلَةُ مذمومةٌ في كلِّ شَيء، إلا في شيءٍ واحدٍ، وهو العمل للآخرة، وفي الإسراع للطاعاتِ، والخيراتِ، والحسناتِ، والقرباتِ، وهنا أقول: تعجل، وسابق الزمن، ولا تبطئ، وكن صاحبَ همةٍ عاليةٍ، وإرادة قوية؛ فلقد قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١]، وقال - جَلَّ وعَلا -: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[المطففين:٢٢-٢٦]، وقال تعالى لنبيه موسى ﷺ: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[طه: ٨٣،٨٤]؛ أي: لتزداد عني رضًا.

قال السعديُّ(١): «أي: «ما الذي قدمك عليهم؛ ولِمَ لَمْ تصبر حتى تَقْدُمَ أنت وهم؟ قال: ﴿ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ [طه: ٨٤]؛ أي: قريبًا مني، وسيصلون في أثري. والذي عجلني إليك يا رب: الطلب لقربك، والمسارعة في رضاك، والشوق إليك».

ومِنْ أَنْفَسِ ما قاله ابن القيم رحمه الله(٢): «السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان».

أما في جانب الدنيا؛ فقد قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك:١٥]؛ لذا قال الشاعر:

لا تعجلَنَّ فَلَيْس الـرِّزْق بالعَجَـل ... الرِّزْقُ في اللَّوْح مَكْتُوبٌ مَعَ الأجلِ
فلَـوْ صَـبَرْنَا لَكَـان الـرِّزْق يَطْلُبُنـا ... لكنَّـه خُلِـقَ الإنْسَـان مِـنْ عَجَـلِ

وفي «سنن» ابن ماجه، و«صحيح» ابن حبان، و«مستدرك» الحاكم(٣) -واللفظ لهما-

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص:٤٦٠).
(٢) «حادي الأرواح» (٢٤٢).
(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤)، والحاكم (٢/ ٤، ٥)، وابن حبان (٣٢٣٩، ٣٢٤١) عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا. وله شاهدٌ عن ابن مسعود رضي الله عنه
=

من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ لِيَمُوتَ حَتَّى يَبْلُغَهُ رِزْقٌ هُوَ لَهُ، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فِي أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الْحَرَامِ**».

وفي روايةٍ[(١)]: «**وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ الله؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَه إِلاَّ بِطَاعَتِهِ**».

فالعجلة غير محمودةٍ في غير أمور الآخرة؛ فلا تتعجل؛ لأنك لو استسلمت لشهوات هذه الحياة لن تفيق إلا وأنت في معسكر الموتى، وستندم حين لا ينفع الندم؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقوله: «لَعَلِّي» تفيد عدم تأكده أنه سيعمل صالحًا!! **قال القرطبيُّ في «تفسيره»**[(٢)]: «و«لعلَّ» تتضمن ترددًا، وهذا الذي يسأل الرجعة قد استيقن العذاب، وهو يوطن نفسه على العمل الصالح قطعًا من غير تردد؟ فالتردد يرجع إما إلى رده إلى الدنيا، وإما إلى التوفيق؛ أي: أعمل صالحًا إن وفقني؛ إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو ردَّ إلى الدنيا».

والآية نظيرُها قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

فكُلُّ شيءٍ يتعجل فيه الإنسان قبل الأوان؛ فهو من العجلة التي هي من الشيطان، التي لا يحبها الله - جَلَّ وعَلَا -، ولا يحبها رسول الله ﷺ.

= عند ابن أبي شيبة (٨/ ١٢٩)، والحاكم(٢/ ٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٢٩٩). وشاهدٌ آخر عن حذيفة رضي الله عنه؛ أخرجه البزار في «مسنده» المعروف بـ «البحر الزخار» (٧/ ٣١٥) (٢٩١٤)، وثم شواهد أخر صححه بها الألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٧و ٢٨٦٦)، و«ظلال الجنة» (٤٢٠).

(١) كما عند الطبراني في «الكبير» (٨/ ١٦٦)، وأبي نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا. قال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٤/ ٨٥): «رواه الطبراني في «الكبير» وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف»، وله شواهد كما في المصدر السابق. وراجع: «علل» الدارقطني (٥/ ٢٧٣).

(٢) (١٥/ ٨٦، ٨٧) ط مؤسسة الرسالة.

أما الأناة؛ فكما في «صحيح مسلم» [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**»،وهكذا يجب فيك هاتين الصفتين إن اتصفت بهما.

فكن عاقلًا، حليمًا، بصيرًا، وليس معنى ذلك أن تكون جبانًا؛ فشتان بين هذا وذاك!!

فأرجو أن يُفرِّق إخواني بين هذه المعاني وبين الحماس الفوار لدين الله المتفلت من الضوابط الشرعية؛ القرآنية والنبوية؛ لأن كثيرًا من شبابنا يتحركون لدين الله تبارك وتعالى فيقولون أقوالًا، ويفعلون أفعالًا من منطلق الحماس والغيرة، ونحن لا نشكك في إخلاصهم، لكن هذا الإخلاص وحده لا يكفي، كما أن الحماس وحده لا يكفي؛ إلا أن يكونا منضبطين بضوابط الشرع الحكيم.

نعم.. الحماس قد يدفعنا أحيانًا إلى العجلة وعدم التأني والصبر. والواجب أن تكون الأقوالُ والأفعالُ؛ بل والاجتهادات الحركية المتجددة!! بتغير الظروف والأحداث؛ يجب أن تكونَ جميعها منبثقةً من خلال منهجٍ مضبوطٍ وفق الأصول الشرعية.

«والشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالحِ العبادِ في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلُّها، ورحمةٌ كلُّها، ومصالحُ كلُّها، وحكمةٌ كلُّها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل؛ فالشريعة عدلُ الله بين عباده، ورحمتهُ بين خلقه، وهي نورُه الذي به أبصر المبصرون، وهداهُ الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كلِّ عليل، وطريقهُ المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل؛ فهي قرَّة العيون، وحياة القلوب، ولذةُ الأرواح، وكُلُّ خيرٍ في الوجود فإنما هو مستفادٌ منها، وحاصلٌ بها.. ومن ذلك: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم شرع لأمته إيجابَ إنكار المنكر ليحصلَ من المعروفِ ما يحبه الله ورسوله. فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكرُ منه وأبغضُ إلى الله ورسوله؛ فإنه لا يسوغ إنكاره. ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين (١٧)، وأصله في البخاريِّ (٥٣) بدون هذه اللفظة.

الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل. فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكةَ أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله عليه مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه، من عدم احتمال قريش ذلك لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهدٍ بكفر»(١).

وأنا لا أرى ماءً يجري في جدول من الجداول أو نهر من الأنهار، إن اصطدم طريقَ الماء حجرٌ أو صخرةٌ عاتية لا يمكن أن يُصِرَّ الماء على أن يشق الصخرة نصفين حتى لا يحوِّل مساره، إنما يبحث الماءُ عن مجرى آخر ليتواصل سيره؛ فهكذا يجب على الأمة ألا تصطدم بالصخور والأحجار، وإنما يجب عليها أن تعد العدة كما أمرها وكلفها ربها وكلفها نبيها ﷺ، أما أن تناطح الصخور الصماء فستتحطم رؤوس أفرادها، وتبقى الصخورُ الصماء صلبةً عاتيةً؛ فلا أريدُ على الإطلاق أن يتحمسَ الشبابُ حماسًا متفلتًا من الضوابط الشرعية، والقواعد المرعية.

قال الشاعر:

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ ... مَا هَكَذَا يَا سَعْدُ تُورَدُ الإِبِلُ

سنسفكُ الدماء باسم الجهاد، وسنفسدُ باسم الغيرة على الدين، وسنبتدعُ باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!!!

وهنا أتوجه بنصيحة خالصة من كلِّ قلبي لكل شبابنا الغيور، وأقول: إن طريقة التغيير بالسلاح والعنف والقوةِ نوع من الاستعجال الذي لا يأتي بالثمرة المرجوة، ولا يجدي بشيء، وهذا ملاحظٌ جدًّا لكل شباب الصحوة - أسأل الله أن يحفظهم - وهذه المحاولة الهدف منها الوصول إلى الغاية بأقصر طريق، ولكن هذا غير صحيح؛ بل إن عاقبة هذا الأمر وضرره أكبر بكثير من كل صورة أخرى، وأتمنى أن لو استفدنا من التجارب التي تمر بها الأمةُ.

نعم أيُّها الأحباب.. نحن نريد انقلابًا شاملًا، ولكن ليس انقلابًا دمويًّا ثوريًّا!!

---

(١) بتصرفٍ من «إعلام الموقعين» (٣/ ٦، ٧) ط ابن تيمية.

ولكنه انقلابٌ للقلوب.. انقلابٌ للعقول، وردها كليةً إلى الإسلام.. إنه الانقلابُ الصحيح الذي حدث في الماضي والذي سيحصل في المستقبل بمشيئة الله تعالى، ولن يكون ذلك الانقلاب إلا بعمل علنيٍّ واضحٍ وضوحَ الشمس في وضَحِ النهار دون خوف أو اختفاء.

نعم.. انشروا دعوتكم علنًا، وادعوا الناسَ إلى الإسلام جهرًا، وحوِّلوا القلوب واقلبوها من الجاهلية إلى الإسلام، وذلك بسلاحِ من الخُلق العَذْب، والشمائل الكريمة، والصفاتِ الطَّيبة، والسلوك الصادق، والحكمةِ البالغة، والموعظة الحسنة، وبعد كل ذلك لا تتعجلوا النتائج والمصائر؛ فمن تعجَّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، والله - جَلَّ وعَلَا - لا يعجل بعجلة أحد، وليس أحدٌ أغير على دينه وأوليائه من الله - جَلَّ وعَلَا - فلنبذر بذرًا صحيحًا موافقًا للكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، ولنترك النتائج إلى الله - جَلَّ وعَلَا - الذي يملك الأمر كلَّه!!

لا تتعجلوا هدايةَ النَّاسِ... ولا تتعجلوا هلاكَ الله للمكذبين وتقولوا: يا ربِّ دَعَوْنَا الناس كثيرًا فلم يَسْتجِبْ إلا القليل... ولا تقولوا: يا رب لقد صبرنا كثيرًا فَلِمَ لا تأخذ الظالمين؟! هذا ليس من شأننا أبدًا.. إنما هو لله - جَلَّ وعَلَا - وينبغي تأدبًا مع الله، أن يُتْرَك الأَمْر كله لله يفعل ما يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولا تقوم الدعوات إلا بمثل هذه القلوب المتجردة التي تتجه إلى الله تعالى، لا تريد دينًا ولا جاهًا، إنما تريد وجهه، وتتمنى رضاه ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف:١٠٨]، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وهنا أقول: لا يجوز للعالم أو المفتي أن يفتي في مسألةٍ إلا بعلمين(١):

الأول: فهم الواقع.

والثاني: فهم الواجب في الواقع؛ أي فهم الأدلة الشرعية التي تنسحب على واقع هذه المسألة؛ فمن اليسير جدًّا أن نحمِّس شبابنا أو أن نحرك عواطفهم؛ لكن من الخيانة

---

(١) راجع: «إعلام الموقعين» (١ / ٨٧، ٨٨).

لله ولرسوله وللمؤمنين أن يكون العالم أو من يتصَدَّرُ للفتيا جاهلًا بواقع أمته أو غير فاهم لمناطات الأدلة من الكتاب والسنة والربط بينها وبين واقعه الذي يحياه وتحياه البشرية من حوله. فلنستق المنهجَ الرباني والنبوي المتكامل؛ فالرسول ﷺ هو القدوة، والأسوة، والمربي، الذي حول منهج الله في أرض الله إلى واقع عمليٍّ وإلى منهج حياة؛ ودونكم هذا المثال الرشيد في قصة الحديبية حين رفضت مكَّة دخول النبي ﷺ وأصحابه على الرغم أنه أتى بملابس الإحرام؛ بل وساق معه الهدي، وجاء معتمرًا، فَجَاءَ سُهَيْل بن عَمْرو[1]، فقَالَ: هَاتِ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبينَكُم كِتَابًا، فَدَعَا النبيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فقَالَ النبيُّ ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**».

قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْـمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**» ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**» فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ»؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَاللهِ! إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**»؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ**»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْـمُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْـمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْـمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْـمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ**» قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَجِزْهُ لِي**» قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «**بَلَى فَافْعَلْ**» قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْـمُسْلِمِينَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان رضي الله عنهما. وهو في البخاريِّ، كتاب الصلح (٢٦٩٨، ٢٦٩٩)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير (١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

أُرَدُّ إِلَى الْـمُشْرِكِينَ، وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ، وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الله.

وفي روايةٍ عند أحمد[(١)]: وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعَاشِرَ الْـمُسْلِمِينَ أَتَرُدُّونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَفْتِنُونِي فِي دِينِي. قَالَ: فَزَادَ النَّاسُ شَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْـمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ»**.

قَالَ: فَوَثَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَعَ أَبِي جَنْدَلٍ فَجَعَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ: اصْبِرْ أَبَا جَنْدَلٍ؛ فَإِنَّمَا هُمُ الْـمُشْرِكُونَ وَإِنَّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ. قَالَ: وَيُدْنِي قَائِمَ السَّيْفِ مِنْهُ، فقال عمر ﷺ: رَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ، قَالَ: فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ، وَنَفَذَتِ الْقَضِيَّةُ..

وفي رواية الصحيح: قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ الله ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: **بَلَى**، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: **«إِنِّي رَسُولُ الله، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي»**، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: **«بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟»**، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: **«فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ»**، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ الله حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ، قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ الله ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَالله إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ، قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا، قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَصْحَابِهِ: **«قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا»** قَالَ: فَوَالله مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ / ٣٢٣).

لَهَا مَا لَقِي مِنْ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ الله، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ ﴾ [الممتحنة: ١٠] فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ.

وكان هذا الصلحُ فاتحةَ خيرٍ على المسلمين؛ فلابد من البصيرة والتأني والتؤدة وعدم العجلة والتسرع حتى لا يندم الإنسانُ على أقواله وأفعاله؛ فيندم حين لا ينفعُ الندم!! فلا تخط خُطوةً إلا بعد أن تتبين خطاك؛ ولا يكون الرجل من أتباع النبي ﷺ حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه النبي ﷺ على بصيرة[1].

وأختم هذه الجزئيةَ بكلماتٍ مهمَّةٍ؛ فأقول:

إنَّ الحقَّ معنا؛ لكننا لا نحسن أن نشهدَ لهذا الحقِّ شَهَادَةً خُلقيةً عملية على أرض الواقع، ولا نحسن أن نبلِّغ هَذا الحقَّ لأهل الأرض بحقٍّ، وإن الباطلَ مع غيرنا، لكنه يُحسن أن يلبس الباطلَ ثوبَ الحقِّ، ويُحسن أن يصل بالباطل إلى حيث ينبغي أن يصل الحق، وحينئذٍ ينزوي حقُّنا ويضعف كأنه مغلوب!! وينتفخُ الباطلُ وينتفشُ كأنه غالب، كما هو الواقع!! وهنا نتألَّم لحقنا الذي ضعف وانزوى، وللباطل الذي انتفش وانتفخ، فنعبر عن ألمنا هذا بصورة من صورتين لا ثالث لهما:

إما أن نُعبِّر عن ألمنا بصورةٍ مكبوتةٍ سلبيةٍ، فنزداد هزيمةً نفسيةً على هزيمتنا، وانعزالًا عن المجتمع والعالم!! وإمَّا أن نعبر عن ألمنا هذا بصورةٍ متشنجةٍ منفعلةٍ، وأحيانًا دموية مخزية، فيزداد أهلُ الأرض بغضًا للحقِّ الذي معنا وإصرارًا على الباطل الذي

---

(١) كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٤)، و«إعلام الموقعين» (٤/ ١٣٠)، و«المدارج» (٢/ ٤٨٢).

معهم، فنخسر الحقَّ مرَّةً بعد مرة، مع أننا على الحق وغيرنا على الباطل!!! فالقضية- أيها الأفاضل- هي كيف ندعو الناس؟ وكيف نُبَلِّغ الحق لأهل الأرض بحق؟

وأقول - مرارًا: إننا لا نتعاملُ مع ملائكة بررة، ولا مع شياطينَ مردة، ولا مع أحجار صلدة، بل نتعاملُ مع نفوسٍ بشَريَّةٍ فيها الإقبالُ والإحجامُ، فيها الخيرُ والشرُّ، فيها الحلالُ والحرامُ، فيها الفجور والتقوى، فيها الطاعة والمعصية، أو لم يُقل خالق النفس البشرية - جَلَّ وعَلَا -: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾

[الشمس: ٧، ٨].

فلنتعامل مع النفس البشرية من هذا المنطلق، لنسبر أغوارها، لنتغلغل إلى أعماقها، ولن يكون ذلك أبدًا - أيُّها الأحبة - إلا بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، والكلمة الرقيقة الرقراقة.

ثم أرى طائفةً من النَّاس يتعجَّلون في الحكم على الآخرين بالتفسيق والتبديع وربما بالتكفير!!! بدعوى الجرح والتعديل.

وأنا لا أنكرُ الجرحَ والتعديلَ؛ بل إن ذلك أمرٌ شرعيٌّ دلَّ عليه الكتاب والسنة، ولا ينكر ذلك طويلب علم.

فمنهج السلف والأئمة من بعدهم الذين ساروا على ربهم، وسلكوا سبيلهم أنهم يُعَدِّلون من يستحق التعديل، ويجرحون من يستحق التجريح لا على سبيل الهمجية أو العجلة أو الطيش أو الجهل أو الهوى؛ بل إن هؤلاء الأفذاذ الأطهار من المنصفين الصادقين لا يتكلَّمون بجرح فلانٍ أو تعديلِ فلانٍ إلا بدليلٍ واضحٍ، وبرهانٍ ساطعٍ.

فالكلام في الخَلْقِ يحتاج إلى ورعٍ تامٍّ، وتأنٍّ وعدم استعجال، وبراءةٍ من الهوى والميل؛ كما قال الذهبيُّ رحمه الله في «الموقظة»[1].

---

(١) (ص: ٨٢).

وقال اللكنوي في «الرفع والتكميل» [(١)]:

«يشترط في الجارح والمعدل: العلمُ، والورعُ، والصدقُ، والتجنبُ عن التعصب، ومعرفة أسباب الجرح والتزكية، ومن ليس كذلك؛ لا يُقبل منه الجرحُ ولا التزكية».

وقال التاج السبكي:

«من لا يكون عالـمًا بأسباب الجرح والتعديل لا يقبل منه جرحٌ ولا تعديلٌ».

وقال الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ»[(٢)]:

«حقٌّ على المحدث أن يتورع في ما يؤدِّيه، وأن يسأل أهل المعرفة والورع ليعينوه على إيضاح مروياته، ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقلة الأخبار ويجرحهم جهبذًا، إلا بإدمان الطَّلَب، والفحص عن هذا الشأن، وكثرة المذاكرة، والسهر والتيقظ والفهم مع التقوى والدين المتين، والإنصاف، والتردد إلى مجالس العلماء، والتحري، والإتقان، وإلا تفعل:

فَـدَعْ عَنْـكَ الكِتَابَـةَ لَسْـتَ مِنْهَـا ... وَلَـوْ سَـوَّدتَّ وَجْهَـكَ بِالمِـدَادِ

قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فإن آنست يا هذا من نفسك فهمًا وصدقًا ودينًا وورعًا، وإلا فلا تتعنَّ، وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأيٍ ولمذهبٍ؛ فبالله لا تتعب، وإن عرفت أنك مخلِّطٌ مخبِّطٌ، مهملٌ لحدود الله، فأرحنا منك، فبعد قليلٍ ينكشف البهرجُ، وينكب الزغلُ، ولا يحيق المكرُ السيءُ إلا بأهله» ا.هـ.

ولا شكَّ أن التأني والتورع في القول وعدم العجلة في إصدار الأحكام على الآخرين ثمرة من ثمار المراقبة لله تعالى والخوف منه،وهي مرتبةٌ أَشَدُّ من التورع عن الذهب والفضة؛ **قال العلامة ابن القيم** رحمه الله [(٣)]:

---

(١) (ص: ٥٢) وانظر: «فتح المغيث» للسخاوي (١/ ٣٠٧).

(٢) (١ / ٤).

(٣) «الجواب الكافي» (ص:٥٤).

«ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك.. ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه!! حتى يُرى الرجل يشارُ إليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا ينزل منها أبعد مما بين المشرق والمغرب..وكم ترى من رجلٍ متورِّع عن الفواحش والظلم ولسانُه يفري في أعراض الأحياء والأموات لا يبالي ما يقول».

أجل.. فكم من الناس يتجرأُ على إصدار الأحكام على الآخرين دون ورعٍ أو تبينٍ أو تثبتٍ فيجرحُ فلانًا.. ويعدِّل فلانًا وليته عالم من علماء الجرح والتعديل.. أو ليته أَلَمَّ على الأقل بقواعد هذا العلم حتى لا يقع في جور وظلم..بل ومن الناس من تجاوز هذا بجرأة متناهية فجلس يكفر هذا وذاك، ويحكم لهذا بالجنة وذاك بالنار!!

وهذا ردٌّ فعل طبيعيٍّ حينما تنْفَلت الألسنةُ من قيودها الشرعية وحدودها المرعية التي حدَّهَا ربُّنَا - جَلَّ وعَلَا - وبَيَّنَها نبيُّه ﷺ، ولو تَأَمَّل العاقلُ في بعض ما ورد من النصوص التي وردت بشأن خطورة الكلمة لتوقف ألف مرَّة قبل أن ينطق بكلام ويرمي به هنا وهناك.. وإليك بعضها:

يقول الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي هريرة ؓ أن النبيَّ ﷺ قال: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**».

وفي حديث معاذ بن جبل ؓ -الطويل- أن النبيَّ ﷺ قال لمعاذ: «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ**». **قُلْتُ**: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**». **فَقُلْتُ**: يَا نَبِيَّ الله، وَإِنَّا لَـمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير (٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٣٧)، والترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة =

وفي «الصحيحين»[(١)] عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**».

وفيهما[(٢)] عنه أيضًا أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

وكان سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - يعرفون خطورةَ الكلمة وحصائد الألسن؛ حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ دخل يومًا على أبي بكر الصديق ﷺ وهو يجبذ لسانه؛ فقال عمر: مه؟ غفر الله لك.

فقال له أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد[(٣)].

وما أدق ما قاله العلامةُ ابن دقيقٍ العيد رحمه الله[(٤)]: «أعراض الناس حفرةٌ من حفر النار، وقف عليها المحدثون والحكام».

فعلَى كُلِّ مسلمٍ أنْ يتأمَّل كثيرًا قبل أن يقدم على الكلام في الآخرين، وأن يسأل نفسه بصدقٍ ما سيكون جوابي عند الله - تعالى- يوم القيامة إذا سألني - جَلَّ وعَلَا - لماذا قلت في فلانٍ كذا وكذا؟ وما الذي دفعك إلى هذا؟

=
(٢٦١٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، والحاكم (٢/ ٤١٣)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٨٣، ٢٦٩) و (١٠/ ١٢٩)، و«الشعب» (٤٩٥٨، ٣٣٤٩)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٤١٣)، و«صحيح الجامع» (٥١٣٦).

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (٦٤٧٧، ٦٤٧٨)، ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب الكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

(٢) انظر السابق.

(٣) أخرجه مالكٌ في «الموطأ» (١٥٦٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٢٣٧)، وابن وهب في «جامعه» (٣٠٣، ٣٠٤)، وأبو داود (٣٠)، وابن أبي عاصم (١٨، ١٩)، وابن المبارك (٣٦٩)، وهناد (١٩٠٣)، ووكيع (٢٨١) - كلهم في «الزهد» - وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٥).

(٤) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٢ / ١٨).

هل هو الإخلاص والنصح الصادق لله ورسوله ﷺ وللمسلمين؟ أم لهوى.. أو لحسد أو لبغض أو لغير ذلك؟!!

فلتكن - أخي الحبيب- على حذرٍ شديدٍ، واعلم بأن الله - جَلَّ وعَلَا - يعلم السر وأخفى.

ثمَّ في علاجنا لمرض العجلةِ أُوَجِّهُ نصيحةً لطلبةِ العلم الذين يتعجلون الطَّلب، وهذه آفةٌ عظيمةٌ تعتري كثيرًا من طُلاب العلم الشَّرعيِّ؛ فتراهم يتركون الطريق بعد مدةٍ قصيرة جدًّا ولا يثبتون!!

والواجبُ على طالب العلم الذي يريد أن يصل إلى ما يصبوا إليه أن يصبر وألا يتعجل، وأن يجاهد نفسه؛ فالنفس كالطفل إن عودتها على شيء اعتادت عليه، فلا بدَّ لطالب العلم أن يتحمَّل المشقة، بل والأذى في طلب العلم، فلقد كان علماؤنا يرحلون المسافات الطويلة من أجل تحصيل العلم، ولم يكن في أزمانهم هذه السبلُ الميسرة من السيارات والطائرات، وإنما كانوا يرحلون على ظهور الدواب تحت حرارة الشمس المحرقة في الفيافي والقفار؛ بل ربما على الأقدام، ينتقل الواحدُ منهم من بغداد إلى خراسان، ومن خراسان إلى مصر، ومن مصر إلى مكة.. وهكذا فلا تتعجل - أيها الطالبُ - ولكن اصبر واجتهد في الطلب، وعلى قدر صبرك واجتهادك يتفَضَّلُ الله عليك.

ورحم الله مَنْ قال:

اصبر على مضضِ الإدلاج بالسحر	وبالرواح على الحاجات والبكرِ
لا تعجزن ولا يضجرك مطلبها	فالنجع يتلف بين العجز والضجرِ
إني رأيت وفي الأيام تجربة	للصبر عاقبة محمودة الأثرِ
وقلَّ من جدَّ في أمر يطالبه	واستصحب الصبر إلا فاز بالظفرِ[١]

وعن الفضل بن سعد بن سالم قال: كان رجلٌ يطلب العلم فلم يقدر عليه، فعزم على تركه، فمرَّ بماءٍ ينحدر من رأس جبل على صخرةٍ قد أثَّر الماءُ فيها، فقال: الماء على

(١) الخطيب في «الجامع» (١٥٩٨).

لطافته قد أثر في صخرة على كثافتها، والله لأطلبن العلم فطلب فأدرك[(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَّهُ**»[(٢)].

وقال الجنيد: «ما طلب أحدٌ شيئًا بجدٍّ وصدقٍ إلا ناله؛ فإن لم ينله كله نال بعضه» وقال: «باب كل علم نفيس جليل مفتاحه بذل المجهود»[(٣)].

ثُمَّ إنَّ من العجلة المذمومة الممقوتة عدم التَّثَبُّت من الأخبار؛ فالله تعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

فيجب أن نتثبتَ وأن نتروي لاسيما ونحن نعيشُ الآن زمانًا نرى فيه الإشاعةَ تطير، فتتلقف الإشاعةَ أبوابُ الدعاية الكاذبة؛ فلا يخلو - ربما- مكانٌ إلا وقد عرف أهله بهذه الإشاعة الكاذبة، وقديمًا طيَّر رأس النفاق عبد الله بْنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُول إشاعةً كاذبةً مزَّقت كبد المصطفى ﷺ وآلمت فؤاده؛ فلقد طير إشاعةً خبيثةً اتَّهم فيها أمَّ المؤمنين عائشة ﵂ بالفاحشة، وسقط في هذه الحادثة بعض الأفاضل من جرَّاء العجلة وعدم التثبت في الأخبار؛ فالتَّأني - حقًّا - من الله، والعجلة من الشيطان؛ كما تقدم عن النبي ﷺ.

قال الحافِظُ ابن كثير ﵀[(٤)]:

«يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يُحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه. وقد نهى اللهُ عن اتباع سبيل المفسدين، ومن ها هنا امتنع طوائفُ من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال

---

(١) الخطيب في «الجامع» (١٥٩٥).

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «العلل» (١/ ٧٦)، والخطيب في «تاريخه» (٩/ ١٢٧)، وروي عن أبي الدرداء موقوفًا عليه، وإسناده صحيح؛ كما في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٦١٧، ٩٠٣)، و«العلم» لأبي خيثمة (١١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٣٩٨)، وصحَّحَ الحديث بشواهده الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢)، و«صحيح الجامع» (٢٣٢٨)، وانظر: «علل الدارقطني (٦/ ٢٢٠) و (١٠/ ٣٢٦).

(٣) الخطيب في «الجامع» (١٥٩٤، ١٥٩٧).

(٤) في «تفسيره» (١٣/ ١٤٤، ١٤٥).

فسقه في نفس الأمر، وقَبِلَها آخَرُون لأنَّا إنما أُمِرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمُحَقِّق الفسق لأنه مجهول الحال».

وقال العلامة السعديُّ في «تفسيره»[(١)]:

«من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسقٌ بخبرٍ أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجردًا؛ فإن في ذلك خطرًا كبيرًا، ووقوعًا في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حقٍّ بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا للندامة؛ بل الواجب عند خبر الفاسق التثبت والتبين.

فإن دلت الدلائلُ والقرائنُ على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه كُذِّب؛ ولم يعمل به، ففيه على أن خبر الصادق مقبولٌ، وخبر الكاذب مردودٌ، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا».

أخي الحبيب:

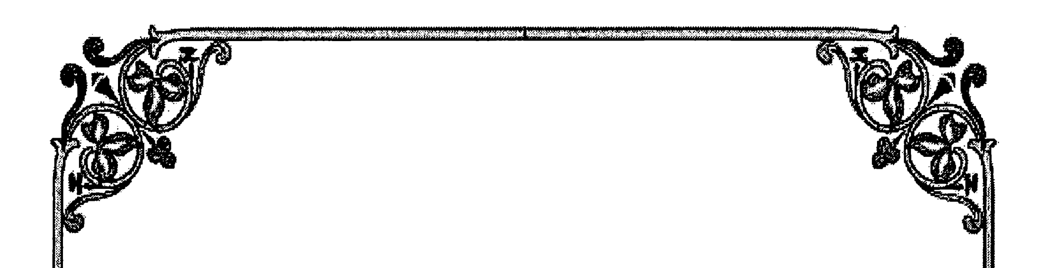
إن العَجِلَ لا يَكَاد يلحق، كما أن الرافق لا يكاد يُسْبق، وإن من سكت لا يكاد يندم، كذلك من نطق لا يكاد يسلم، والعجل يقول قبل أن يعلم، ويُجيب قبل أن يفهم، ويحْمد قبل أن يُجرِّب، ويذُمُّ بعدما يَحْمَدُ، يعزمُ قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعجِلُ تصحبه النَّدَامة، وتعتزلهُ السلامة[(٢)].

أسأل الله أن يبصرنا وأن يفهمنا وأن يعلمنا، وأن يردَّنا إلى الحقِّ ردًّا جميلًا، إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

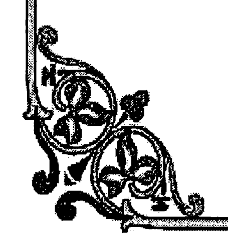
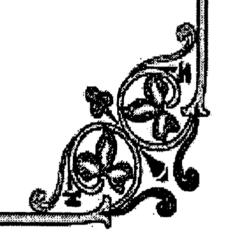
*****

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٩٤٣، ٩٤٤).
(٢) «روضة العقلاء» لابن حبان (ص: ٢٢٣).



الهَزِيمَةُ النَّفْسِيَّةُ

الهزيمة النفسية

لقد ابتُلِيَ المسلمون بنكباتٍ وأزماتٍ كثيرةٍ مرورًا بأزمة الرِّدَّة الطاحنة، والهجمات التتارية الغاشمة، والحروب الصليبية الطَّاحنة، وسقوط الأندلس، وزوال ظلِّ الخلافة، وضياع القدس الشريف!!

فإن الأمةَ مع كلِّ هذه الأزمات والنكبات كانت تملكُ مقوماتِ النَّصر من إيمانٍ صادقٍ بالله، واعتزازٍ بهذا الدين.. أما اليوم فقد فقدت جُلَّ مقومات النصر!! في الجانب الإيماني، والجانب المادي على السواء؛ فهزمت هزيمةً نفسيةً نكراء طوال السنوات الماضية، وتأخرت عن القيادة والريادة، والعِزَّة والسِّيَادة بسبب هذا المرض العضال؛ ألا وهو «**الهزيمة النفسية**»، والمهزوم نفسيًّا مشلول الفكر والحركة؛ فلا يستطيع أن يفكر، فضلًا عن أن يتحرك على أرض الواقع بخُطُواتٍ عمليةٍ ليغير شيئًا من هذا الواقع المرير!!

وها نحن نرى مظاهرَ قاتلةً، وأعراضًا خطيرةً تُتَرْجِم هذه الهزيمةَ النفسيةَ القاتلة؛ فما هي أعراض هذا المرض الخطير؟

○ **أيها الأحبة: إن للهزيمة النفسية أعراضًا كثيرةً خطيرةً أهمها ما يلي:**

- **أولاً: تنحية الشريعة الربانية وتحكيم القوانين البشرية:**

وهذا بلا منازع هو أخطر أعراض الهزيمة النفسية التي نكبت بها الأمةُ المحمدية في العصر الحديث.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ فالأيام دول، والصراع بين الحق والباطل صراعٌ دائمٌ لا ينتهي ولن ينتهي إلى أن يرث اللهُ الأرضَ وَمَنْ عليها.

ولا شك على الإطلاق أن الدولة والجولة الآن للغرب الذي انتصر في الجولة الأخيرة، فراحت الأمةُ المهزومةُ عسكريًّا، واقتصاديًّا، وثقافيًّا وفكريًّا، وعلميًّا، ونفسيًّا

تحاكي الغربَ الذي انتصر في هذه الجولة؛ والمهزوم نفسيًّا مولع بتقليد المنتصر.

قال ابن خلدون في «مقدمته» [(١)]:

«إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب؛ في شعاره، وزيِّه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده، والسببُ في ذلك أن النفس أبدًا تعتقدُ الكمالَ في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادًا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه - والله أعلم - من أن غلب الغالب لها ليس بعصبيةٍ ولا قوةِ بأسٍ، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضًا بذلك عن الغلب، وهذا راجعٌ للأول، ولذلك ترى المغلوبَ يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها؛ بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم؛ كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلبُ على أهله زي الحامية وجُند السلطان في الأكثر؛ لأنهم الغالبون لهم، حتى إنه إذا كانت أمةٌ تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظرُ بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله. وتأمل في هذا سر قولهم: العامة على دين الملك، فإنه من بابه، إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم، والمتعلمين بمعلميهم، والله العليم الحكيم، وبه ﷻ التوفيق.

ويا ليت الأمةَ راحت تنقل أروعَ ما وصل إليه الغربُ في الجانب العلمي والتكنولوجي [(٢)]! ولكنها بكل أسف نقلت أحطَّ وأخسَّ ما وصل إليه الغربُ في الجانب العقدي، والإيماني، والأخلاقي، والتربوي، والرُّوحي؛ حتى رأينا من بني

---

(١) الباب الثالث والعشرون (١/ ١٢٣).

(٢) فلا ينبغي أن ندفن رؤوسنا في الرمال كالنعام، لننكر ما وصل إليه الغرب في وقتنا الحالي.

جلدتنا من يدندن على هذا الوتر، يمجد الغرب ويسبح بحمده، حتى قال قائل: قد عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رئاتهم والنجاسات التي في أمعائهم!! ولله درُّ القائل:

قَالُوا لَنَا: الغَرْبُ، قُلْتُ: صِنَاعَةٌ!! وسياحةٌ ومظاهرٌ تغرينَا
لَكِنَّهُ خَاوٍ مِنَ الإِيمَانِ لَا يَرْعَى ضَعِيفًا أَوْ يَسُرُّ حَزِينَا
الغَرْبُ مَقْبَرَةُ المَبَادِئِ لَمْ يَزَلْ يَرْمِي بِسَهْمِ المُغْرِيات الدِّينَا
الغَرْبُ مَقْبَرَةُ العَدَالَةِ كُلَّمَا رُفِعَتْ يدٌ أَبْدَى لَهَا السِّكِّينَا
الغَرْبُ يكفُرُ بالسَّلامِ وإنَّمَا بِسَلامِهِ الموهُومِ يَسْتَهْوِينَا
الغَرْبُ يَحْمِلُ خِنْجَرًا ورَصَاصَةً فَعَلامَ يَحْمِلُ قَوْمُنَا الزَّيْتُونَا
كُفْرٌ وَإِسْلَامٌ فَأَنَّى يَلْتَقِي هَذَا بِذَاك أَيُّهَا اللَّاهُونَا
أَنَا لَا أَلُومَ الغَرْبَ فِي تَخْطِيطِهِ لَكِنْ أَلُومُ المُسْلِمَ المَفْتُونَا
وَأَلُومُ أُمَّتَنَا التي رَحَلَتْ عَلى دَرْبِ الخُضُوعِ تُرَافِقُ التِّنِينَا
وَأَلُومُ فِينَا نَخْوةً لَمْ تَنْتَفِضْ إِلَّا لِتَضْرَبنا عَلَى أَيْدِينَا!!

فراحت الأمةُ تقلدُ الغربَ المنتصرَ في هذه الجولةِ، وظنت الأمةُ المسكينةُ!! أنها بتنحيتها للشريعة الربانية وتحكيمها لشريعة الغرب العلمانية!! ظنت أنها قد ركبت قوارب النجاة وسط هذه الرياح الهوجاء والأمواج المتلاطمة، فخابت الأمةُ وخسرت، وغرقت الأمةُ وأغرقت، ولا زالت الأمةُ إلى هذه الساعة تجني ثمار الخذلان واليأس والهزيمة النفسية؛ بل والعسكرية، والاقتصادية، والعلمية، وقد حذرنا النبيُّ ﷺ من هذا التقليد الأعمى، ومن هذا الذوبان الخطير في هذه المناهج التي تصطدم اصطدامًا مباشرًا مع منهجنا القرآني والنبوي؛ ففي «**الصحيحين**»[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**» قُلْنَا يَا رَسُولَ الله الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟

(١) تقدم قريبًا.

قَالَ: «فَمَنْ؟»؛ أي: فمن غير هؤلاء؟!! نعم... راحت الأمةُ تتبعُ سننَ اليهود والنصارى في كُلِّ شيء حذو القذة بالقذة! وبعد سنوات طوال ما جنت الأمةُ إلا الحنظلَ والمرارةَ، والتميع والتفسخ، والتحلل الأخلاقي!!

بل كُرِّمَ الآن أساطينُ الفسادِ الأخلاقي على أعلى مستوىً؛ فذابت الأمةُ في هذه البوتقات، وراحَتْ تُكَرِّم مَنْ ينبغي أن يقام عليهم الحدُّ، وأمرُّ من ذلك أنها راحت تضايقُ وتضيِّقُ على من ينبغي أن يُرفع على الرؤوس وتحمله الأعناقُ!!

فحاكت الأمةُ هذا الغربَ محاكاةً عمياء دونما تفرقة بين التقدم والتطور الصناعي، والتخلف والتدهور الأخلاقي.

فيجب على المؤمن أن لا يقلد غيره تقليدًا أعمى؛ بل الواجبُ على المسلم أن يدور مع الحق حيثما دار.

والعودة إلى شريعة رب البرية ليست نافلةً ولا تطوعًا ولا اختيارًا؛ فإن الحياةَ البشريةَ من خلق الله، ولن تفتحَ مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولن تعالَجَ أمراضُها وعللها إلا بالدواء الذي يقدم لها من عند الله، ولا يُمْكن أبدًا أن يتعدى هذا الدواءُ؛ كتابَ الله وسنة الحبيب رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١، ٢].

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى-[١]:

«فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم؛ فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟! أليس هذا أولى أن يكون محبطًا لأعمالهم؟!»

أسأل اللهَ أن يرد الأمةَ إلى الشريعة الربانية ردًّا جميلًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

- **ثانيًا: اليأس من إمكانية التغيير:**

وهذا عَرَضٌ خَطِيرٌ أصاب كثيرًا من المسلمين في هذه الأيام ممن يرددون هذه الكلماتِ التي أصبحت تمثلُ معتقدًا لدى غالب المسلمين؛ فهم يرددون: «لا فائدة»، «أنت تُؤذِّن في خرابة»، «أنت تنفخ في رماد»، «عش عصرك» «ربِّ أولادك» «تفرغ لتجارتك.. لأولادك.. لمكتبك.. لكرسيك.. لوظيفتك!!» «هلك الناس»!!

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نارًا نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخُ في رماد

إلى آخر هذه الكلمات الخطيرة التي تزيدُ المهزومَ هزيمةً، والنشيطَ يأسًا وخذلانًا!!

وقد شخَّصَ المصطفى ﷺ هذه النفسيات المهزومة تشخيصًا دقيقًا؛ كما في «**صحيح مسلم**»[٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ. فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**».

قال الإمام النوويُّ رحمه الله[٣]: «أهلكهم برفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر، ومعناها: أشدهم هلاكًا، وأما رواية الفتح؛ فمعناها: هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة.

واتفق العلماءُ على أن هذا الذمَّ إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٥).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول: هلك الناس (٢٦٢٣).

(٣) «مسلم بشرح النووي» (١٦/ ١٧٥).

واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم؛ لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزنًا لما يرى في نفسه، وفي الناس من النقص في أمر الدين، فلا بأس عليه». اهـ.

فلا ينبغي على الإطلاق أن نحكمَ على الأمة بالهلاك؛ فلا ينقطعُ الخيرُ في أمة النبي ﷺ قط؛ فسيبقى الخيرُ فيها ما بقيت الأرضُ؛ فالأمة فيها مصلحون ومفسدون، فيها الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال؛ فلا ينبغي أن نغضَّ الطرفَ عن أوجه الخير الكثيرة، وننظر بعين واحدة إلى الضلال والضعف والشر والمفسدين!! بل هناك في الأمة كواكبُ نيرةٌ، وقممٌ شامخةٌ تردد مع السابقين الأولين قولتهم الخالدة: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

فهذا عَرَضٌ خطيرٌ من أعراض الهزيمة النفسية؛ ألا وهو: اليأس من إمكانية التغيير لهذا الواقع المُرِّ الأليم الذي تحياه الأمة، ويريد كثيرٌ من أبنائِها أن يفرضوا سياسةَ الأمر الواقع على النشطين ممن يتحركون لدين الله ودعوة الله جلَّ وَعَلَا.

- **ثالثًا: السلبية القاتلة في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

لقد ظللت سماءَ الأمة سحابةٌ قاتمةٌ من هذه السلبية القاتلة؛ فترى المسلمَ يرى أخاه المسلم على معصية، ويهز كتفيه ويمضي وكأن الأمر لا يعنيه، ولا يفكر في كلمةٍ مهذبةٍ رقيقةٍ يُحوِّل بها قلب هذا الذي يرتكب المنكر.

ولم أر في عيوبِ الناس عيبًا كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلى التَّمامِ[(١)]

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ[(٢)] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**».

وقال ﷺ ؛ كما في «**صحيح مسلم**»[(٣)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ**

(١) البيت للمتنبي؛ كما في «ديوانه» (١٢٧).
(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).
(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩).

الإِيمَانِ».

ولكن وبكل أسف ترى التخاذلَ؛ فالكلُّ يقول: لا شأنَ لي، وهل أنا الذي سأغير الكون؟ بل ويفهم بعضهم هذه الآية فهمًا خاطئًا؛ ألا وهي قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ولقد خشي الصديقُ ﷺ هذا الفهمَ المغلوطَ للآية؛ ففي «سنن» أبي داود والترمذي وابن ماجه، و «مسند» أحمد، و«صحيح» ابن حبان[١] من حديث أبي بكر الصديق ﷺ قال: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ».

وتغيير المنكر كما نعلم جميعًا يكون بالضوابط الشرعية المعلومة، وسنفرد فصلًا خاصًّا لهذه المسألة في مبحث «التقصير في الدعوة والبلاغ»؛ فلا عذرَ لك أمام الله ﷻ؛ فنحن جميعًا رُكَّابُ سفينةٍ واحدةٍ فيها الصَّالحُ والطَّالحُ، وإن نجت السفينةُ نجا الجميعُ، وإن هلكت هلك الجميعُ؛ كما في «الصحيح» من حديث النعمان بن بشير ﷺ قال: قال ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا[٢] عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ[٣] نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٨)، والترمذيُّ، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، وفي تفسير القرآن (٣٠٥٧)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥)، والنسائيُّ في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف»(٦٦١٥)، وأحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٠٤)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٩١)، وقال الشيخ شاكر: «إسناده صحيح»، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٦٧١)، و«صحيح الجامع» (١٩٧٣، ١٩٧٤).

(٢) استهموا: الاستهام طلب السهم والنصيب، والمراد به: الاقتراع.

(٣) أخذوا على أيديهم: يقال: أخذت على يد فلان: إذا منعته عما يريد أن يفعله.

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة؟ (٢٤٩٣)، وفي الشهادات: باب =

فدعك من هذه السلبية القاتلة، وكن إيجابيًّا، واغرس بقدر استطاعتك، واترك النتائجَ بعد ذلك إلى الله تعالى. ووالله لو لم تؤثر كلماتُك في أصحاب المنكر في التو واللحظة، فستؤتي ثمارها وأكلها، وستعمل عملها في القلب ولو بعد حين. لكن بالكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، والابتسامة المشرقة في الوقت الذي تبغَض فيه المنكر من كل قلبك.

فما كان الرفقُ في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه.

- **رابعًا: الدِّفاع عن الإسلام كمتهم في قفص الاتهام:**

وهذا عَرَضٌ خطيرٌ؛ فالغرب يشنُّ الآن هجماتٍ طاحنةً، ويثير من آنٍ لآخر - بل في كل آنٍ - شبهاتٍ حقيرةً وشكوكًا خطيرةً ضدَّ الإسلام مثل: الإسلام دين إرهابٍ يدعو إلى سفك الدماء! الإسلام دين تطرف!! الإسلام ظلم المرأةَ!! البيت للمرأة المسلمة سجن مؤبد!! الزوج سجان قاهر!! الأمومة تكاثر حيواني!! لماذا تزوج محمدٌ تسعةً؟! لماذا يتزوج الرجلُ في الإسلام أربعة؟! لماذا حرَّم الإسلامُ الخلوة بين الرجل والمرأة؟!! لماذا حرَّم الإسلامُ الاختلاط؟! ولماذا أمر الإسلامُ المرأة بالحجاب وقيَّدها؟! لماذا تُقطع يدُ السارق؟! لماذا يُرجم الزاني؟! الخ... شُبهات كثيرة تُثار!!

فينبري للرد على هذه الشبهات فريقٌ من أهل العلم، ولكن بمنطق أن الإسلامَ متهمٌ في قفص الاتهام؛ فتأتي الردودُ ضعيفةً وهزيلةً؛ لأنها ردود المهزوم نفسيًّا.

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩]؛ فكن قويًّا عزيزًا رافعًا رأسك إلى عنان السماء لتعانق كواكبَ الجوزاء؛ فأنت تنتسبُ إلى دين رب الأرض والسماء وشريعة سيد الرسل والأنبياء، وأنت مسلم، والمسلم لا يُهزم أبدًا؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩].

فالأمة تمتلكُ كُلَّ مقومات النصر بالإيمان بالله، والثقة فيه، وفي المنهج الذي تسير

= القرعة في المشكلات (٢٦٨٦).

عليه. لكن حين فقدت الأمة جُلَّ مقومات النصر نُكِبَت بالأزمات والهزائم؛ بالإضافة إلى هذه الهزيمة النفسية النكراء!!

ومن الجفاء أن أَذْكُرَ هذا العَرَضَ الخَطِير ولا أُذَكِّرُ بهذا الوجه المضيء المنير لسلفنا الصالح يوم أن اعتزوا بهذا الدين وارتفعت به رؤوسُهُم لتعانق كواكبَ الجوزاء.

أو إن شئت فقل لفضلهم وكرمهم تنزلت كواكبُ الجوزاء لتتوج هذه الرؤوسَ التي وحَّدت الله - جَلَّ وَعَلَا-.

فهذا هو ربعيُّ بن عامر؛ ذلكم البطلُ المسلمُ، إنه ضعيفُ البِنْيَةِ؛ لكنه قويُّ الإيمان الذي ركَبَ جواده، وانطلق لمقابلة قائد الفرس، وقد تقدمت القصةُ؛ ولكني أردتُ هنا أن أنبه على أمر مهمٍّ، ألا وهو: الاستعلاء، والعزة بهذا الدين، وأراد الحرسُ أن يُدخلوا ربعي بن عامر على رستمٍ وهو يمشي على قدميه، فأبى ودخل على ظهر جواده، فسأله رستم قائد الجيوش الكسروية وقال: من أنتم وما الذي جاء بكم؟!

فقال ربعيٌّ: نحن قومٌ ابتعثنا اللهُ لنخرجَ العبادَ من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. ابتعثنا اللهُ بدينه لندعوَ الناسَ؛ فَمَن حَالَ بيننا وبين دعوة الناس إلى دين الله قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله.

قال رستم: وما موعود الله؟!

قال ربعيٌّ: الجنة لمن مات على ذلك، والنصر لمن بقي منا.

فقال رستم: لقد سمعت مقالتك؛ فهل لكم أن تؤجِّلوا هذا الأمرَ لننظرَ فيه ولتنظروا؟!

فقال ربعيٌّ: كم أحب إليكم، يوم أو يومان؟

قال رستم: لا؛ بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

قال ربعيٌّ: لا، قال رستم: ولم؟! قال: ما سنَّ لنا رسولُ الله ﷺ أن نُؤَجِّل الأعداء

عند اللِّقاء أكثر من ثلاث؛ فانظر أمرك وأمرهم.

قال رستم: أسيدهم أنت؟ قال: لا. ولكنَّ المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم (١).

فهذه عزَّةُ القوم، أمَّا الأمةُ الآن فقد شربت كؤوسَ الذُّل والهوان ألوانًا وأصنافًا وأشكالًا، وراحت لتركع ولتخضع في محراب الشرق الملحد تارة ومحراب الغرب الكافر تارة أخري، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

إننا نزعم بكلِّ ثقةٍ أننا نملك النورَ الذي يضيء للبشريَّة كلِّها طريقها وسط هذا الظلام الدَّامس؛ لأننا نمتلكُ منهجَ الله - جَلَّ وَعَلَا - الذي يعلم مَن خلق وهو اللَّطيف الخبير.

فالأمة قصَّرت في أنها لَمْ تُثبت للآخرين أن هذا المنهجَ قابلٌ للتطبيق، وأن هذا المنهجَ ينقل الأمةَ من كلِّ شقاء إلى كلِّ خيرٍ وسعادةٍ في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

فالإسلام ليس متهمًا في أي جانب؛ لذا فواجبٌ أن تكون ردودنا عن الإسلام والشبهات التي تثار عليه بكلِّ قوَّةٍ وعزَّةٍ واستعلاءٍ.

- **خامسًا: الخوف من إظهار الهوية الإسلامية:**

وهذا عَرَضٌ فتَّاكٌ من أعراض الهزيمة النفسية؛ فالمسلم الآن يخشى في ظلِّ هذه الظُّروف أن يُظهر اتِّباعهُ للنَّبيِّ ﷺ في أموره وأحواله، وأن يظهر هُويته بعزةٍ واستعلاءٍ، ويخشى أن يُتَّهم بالإرهاب والتطرف، ويخشى أن يُتَّهم بالجمود والرَّجعيَّة والتَّخلُّفِ، وضيقِ الأُفُقِ، وعدم القدرةِ على الانفتاح العصريِّ.. إلى آخر هذه التهم

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢ / ٤٠١)، و «البداية والنهاية» لابن كثير (٧ / ٤٧).

التي يغني بطلانُها عن إبطالها، وفسادها عن إفسادها، وكسادها عن إكسادها!!

بل تجد المسلمَ الآن - إلا من رحم الله - إذا تعامل مع غير المسلمين أو سافر إلى بلاد الشرق والغرب قلدهم تقليدًا أعمى في قصَّة شعره وطريقة لبسه وأكله؛ فهو يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويلبس كما يلبسون!! ويتكلم كما يتكلمون!! بل ويخشى أن يقول: هذا حلال وهذا حرام! أو هذه سنة وهذه بدعة! وهذا حقٌّ وهذا باطل!! لأنه مهزومٌ من داخله، لقد هُزم نفسيًّا؛ فلا تراه يعتزُّ بدينه ولا بأخلاقه وسلوكه، ورحم اللهُ من قال:

وممـــا زَادَنِي فَخْــــرًا وتِيهًـــا وَكِـدْتُ بأخْمَـصي أَطَـأُ الثريَّـا
دخَـولي تحت قولِـك يـا عبـادي وَأَنْ أَرْسَــلْت أحمــد لي نبيَّــا[1]

فارفع رأسك، واعتز بتوحيدك، وأعلِن هُويتكَ بكلِّ كرامة، وأعلن السنةَ وتمسكك بهذا الدين؛ فأنت لك وظيفة، ولك غاية..لا تعش كهؤلاء الذين قال الله في حقهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فأنا أتألمُ حينما أرى الآخرين مِن غير المسلمين يعتزون بهُوِّيتهم وملابسهم وعقيدتهم وثقافتهم وتقاليدهم، ونحن بكل سهولة نتخلَّى عن عقيدتنا وأخلاقنا وأخلاق مجتمعنا الإسلامي!!

أحبتي في الله: إن هذه الأعراضَ كانت نتيجةً لأسبابٍ عديدةٍ؛

○ فما هي أسباب الهزيمة النفسية؟

أسبابُ الهزيمةِ النَّفْسية في واقعنا عديدةٌ عجيبةٌ؛ منها: أسبابٌ داخليةٌ، وأخرى خارجيةٌ، وأستهلُّ الحديثَ بالأسباب الداخلية؛ لأنه بكل أسف يقلل غالب المسلمين من شأنها مع أن الله ﷻ قال:

---

(١) «غذاء الألباب» (٤/ ٥٨) للسفاريني، و«مرقاة المفاتيح» (١/ ١٦) للملا علي القاري، و«حاشية قليوبي» (١/ ١٨)، و «حاشية البيجرمي على الخطيب» (١/ ٢٧)، و«روح المعاني» (٦/ ٣٧) وهذه الأبيات للقاضي عياض رحمه الله.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالهزيمةُ من الداخل من عند أنفسنا.

○ أولا: الأسباب الداخلية:

- **السبب الأول: ضعف الإيمان عند غالب المسلمين.**

فهذا - بلا منازع - أخطرُ سبب من أسباب الهزيمة النفسية، والإيمان ليس قولًا باللسان فحسب، ولكن الإيمانَ قولٌ باللسان، وتصديقٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان، يزيد وينقص، ويقوى ويضعُف، وهذا أصلٌ من أصول أهل السنة، وقد جَسَّد لنا الحبيبُ المصطفى ﷺ هذه الحالة تجسيدًا دقيقًا في حديثه الصحيح الذي رواه أبو نعيم في «الحلية»، وفي «معرفة الصحابة»، والطبراني في «الأوسط»، والديلمي في «مسنده»، وحسَّنه الألبانيُّ من حديث عليٍّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«مَا مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ إِلاَّ وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ، بَيْنَمَا الْقَمَرُ يُضِيءُ، إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ، إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ؛ وَبَيْنَمَا الرَّجُلُ يَتَحَدَّثُ، إِذْ عَلَتهُ سَحَابَةٌ فَنَسِيَ، إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَذَكَرَ»**[(١)].

فكما تحجب السحابةُ نورَ القمر عن أهل الأرض؛ فكذلك تحجبُ سحبُ المعاصي والذنوب نور الإيمان في القلب؛ فيبقى في ظلمةٍ ووحشةٍ، فتُضْعف هذه السحبُ المظلمةُ الإيمانَ في القلب، فإذا انقشعت تلك السحبُ بالتوبة والأوبة والاستعانة بالله ازداد الإيمانُ في القلب، وأشرق القلبُ بأنوار التوحيد، وقوي صاحبُ هذا الإيمان؛ كما أن سحابة السماء إذا انقشعت وصَل نورُ القمر إلى الأرض.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٩٦)، وفي «معرفة الصحابة» (٤٤١١) وقال: «هذا حديث غريب»، والطبراني في «الأوسط» (٥٢٢٠)، وأبو عبد الله بن منده في كتاب «الروح» [كما في «شرح حديث النزول» (٩٧)، و«الفتاوى» (٥/ ٤٥٥) كلاهما لشيخ الإسلام؛ وكما في «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (تفسير النور/ ٢٦)] والديلمي؛ كما في «الكنز» (١٣/ ١٤٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٩٨): «رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه أزهر ابن عبد الله، قال العقيلي: حديثه غير محفوظ عن ابن عجلان، وهذا الحديث يعرف من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي موقوفاً، وبقية رجاله موثقون»، وحسَّن الحديث الألبانيُّ رحمه الله في «الصحيحة» (٢٢٦٨)، و«صحيح الجامع» (٥٦٨٢).

وإذا أردت أن تتعرفَ على سرِّ الإيمان إذا استقرَّ وازداد في القلوب؛ فارجع إلى التاريخ المشرق المنير وعُدْ إلى أصحاب الحبيب محمد ﷺ الذين حوَّلهم الإيمان من رعاةٍ للإبل والبقر والغنم إلى سادةٍ وقادةٍ لجميع الأمم؛ فانطلقوا بهذا الإيمان إلى أعظم الامبراطوريات على هذه الأرض، وأقاموا للإسلام دولة وسط صحراء تموج بالكفر موجًا في مُدَّة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا.

الإيمان هو الذي جعل هذا البدويَّ الذي لا ذِكْر له في أرض الجزيرة يُرفع إلى عنان السماء يوم أن ترَّس بجسدهِ على الحبيب المصطفى ﷺ ليجعل من ظهره حائط صد منيع؛ لتتحطم عليه رماح وسيوف الأعداء ليحمي رسول الله ﷺ وهو يقول للحبيب ﷺ: «نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ يَا رَسُولَ الله!!»[١].

الإيمان هو الذي جعل هذا العربي البدوي في أرض الجزيرة يقول للحبيب ﷺ: «وَالله لَا نَقُولُ لك كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ نَقُولُ لَكَ يَا رَسُول الله: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُون»[٢].

إنه الإيمان الذي يصنعُ الأعاجيبَ؛ فضعْفُ الإيمان سببٌ خطيرٌ من أسباب الهزيمة النفسية عند غالب المسلمين في هذه الأيام، أسأل اللهَ أن يزيد إيماننا؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

- **السبب الثاني: ترك الجهاد في سبيل الله:**

فترك الجهاد سبب الذلِّ والهوان والاستسلام؛ ففي «**مسند**» **أحمد**، و«**سنن**» **أبي داود** من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى**

---

(١) كما عند البخاريِّ، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه (٣٨١١)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الرجال مع النساء (١٨١١).

(٢) كما عند البخاريِّ، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (٣٩٥٢) عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

دِينِكُمْ»(١).

إن أعداء الأمة يعلمون علمَ اليقين أن الأمةَ إذا رَفَعت من جديدٍ راية الجهاد في سبيل الله أذلَّت الشرقَ والغربَ، ولذا فهم يحرصون كلَّ الحرص على أن تُنحَّى الأمةُ عن الجهاد وروح الجهاد، وعلى ألا تُربَّى هذه الأجيالُ على سِيَرِ الجهاد وسِيَرِ الأبطال الفاتحين؛ لتظلَّ الأمةُ ذليلةً مبعثرةً كالغنم في الليلة الشاتية الممطرة! فلا عزَّة لهذه الأمة إلا إذا عادت من جديد لترفع رايةَ الجهاد في سبيل الله العزيز الحميد، ولترفع ذروة سنام هذا الدين.

- **السبب الثالث: عدم المعرفة عند غالب المسلمين بطبيعة الطريق:**

إن الطريق إلى الله ليس هَيِّنًا سهلًا مفروشًا بالورد والزهور؛ بل إن الطريق مفروشٌ بالدِّمَاء والأشلاء، محفوفٌ بالعنت والأذى والابتلاء، فيأتي كثيرٌ من الناس يرددون كلمةَ الإيمان في وقت الرخاء وهم يظنون أن الكلمة هينة، فإذا ما تعرض أحدُهم على الطريق لمحكٍّ عمليٍّ من الفتن والأذى انقلب على عقبيه، وتخلَّى عن طريق الله - جَلَّ وَعَلَا -!!

قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[الحج:١١].

فلا بدَّ من معرفة طبيعة الطريق حتى لا تنزلق مع أول منعطف من المنعطفات على طريق المحن والفتن والابتلاءات؛ قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:١-٣].

نعم فلا بد أن تعي هذه الطبيعةَ؛ حتى لا تنقلبُ على عقبيك؛ فمن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢، ٨٤)، وأبو داود، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة (٣٤٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبير» (٥/ ٣١٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٤١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٠٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١). والعينة: نوعٌ من أنواع البيوع الربوية المحرمة.

مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٤].

- **السبب الرابع: عدم المعرفة عند غالب المسلمين بالقدرات والإمكانات والطاقات مع قلة الطموحات:**

فهذا سببٌ خطيرٌ من أسباب الهزيمة النفسية، ونحن دائمًا نقلِّلُ من شأن الطاقات والقدرات والإمكانات الهائلة التي منَّ الله بها علينا؛ من أرضٍ ومناخٍ وأموال وثروات وعنصر بشري هائل جبار؛ فضلًا عن إسلام رضيهُ العزيزُ الغفَّار للبشرية كلِّها دينًا، ومع ذلك ترى من أبناء الأمة من يقلل من قدر هذه القدرات والطاقات والإمكانات التي حَبَا الله بها هذه الأمة الميمونة.

إن أموالَ المسلمين هي التي تدير دفة السياسة العالمية في بنوك الشرق والغرب.

إن عقولَ المسلمين والعرب هي التي تخططُ وتبني وتعمِّر في بلاد الشرق والغرب.. اسألوا عن علماء الذرة!! اسألوا عن علماء الجيولوجيا!! اسألوا عن علماء الهندسة!! عقولٌ إسلاميةٌ وعربيةٌ حُجِر عليها في بلادها؛ فقوبلت بقانون الروتين القاتل للإبداع، فَرَحَلت فاسْتُقْبِلت في بلاد الشرق والغرب استقبال الأبطال الفاتحين، ومنحوا الإمكانات الهائلة للعمل والعطاء والإبداع.

لقد مررتُ على جسرٍ رهيبٍ جدًّا في نيويورك على المحيط لو نظرت إليه كاد عقلك أن يطيش، وكانت المفاجأة حينما وصلنا إلى الشاطئ الآخر ووقف مرافقي؛ فقال لي: هل تعلم أن الذي صمم هذا الذي ترى مهندسٌ مسلمٌ من باكستان؟!!

إن سلاحًا واحدًا كسلاح البترول استخدمه المسلمون والعرب استخدامًا صحيحًا للحظات فانقلبت الموازين كلُّها.

لذا أقول: إن عندنا قدراتٍ وطاقاتٍ وإمكاناتٍ وثرواتٍ هائلة، ولكننا لا نحسن الاستخدامَ؛ بل ونقلل دائمًا من شأن هذه القدرات والطاقات في الوقت الذي لا نرى فيه طموحًا على الإطلاق؛ فلا يمكن أبدًا أن ترى شابًّا يطمح الآن إلا في أن يتخرج من الجامعة، أو أن يتزوج بفتاةٍ جميلةٍ، أو أن يسكن سكنًا مؤثثًا تأثيثًا فاخرًا، وإن من الله

عليه بسيارةٍ فالحمد لله..وهكذا.

لكن هل فكَّر في هذا الدِّين؟! هل فكَّر في أن يغيِّر أُمَّتَه؟ إنه لا يفكِّر أبدًا في هذا؟! ولا يطمح لهذا؟! بل ويظل غالبًا لا ينظر إلا تحت قدميه!!

وصدق من قال:

وَمَــنْ يَتَهَيَّــبْ صُــعُودَ الجِبَــال يعِــشْ أَبَــدَ الــدَّهْر بــين الحفــر [١]

وأختم هذه الأسباب بهذا السبب المهم ألا وهو:

- **السبب الخامس: النظرة الضيقة للزمان والمكان.**

فشبابنا - الآن - ينظرون للمكان والزمان نظرةً ضيقةً، فتصيبهم هذه النظرةُ باليأس والقنوط؛ فيهزم المرءُ هزيمةً نفسيةً قاتلة، فيشلُّ عقلُه وفكره؛ بل وحركته إن كان يستطيع أن يفعل شيئًا؛ ويتوقف تمامًا عن فعل أي شيء؛ مع أنه لو خرج بها من قريته أو مدينته أو دولته، ونظر نظرةً أوسع وأعمق، ونظرة أشمل إلى المكان؛ ليَعْلَم يَقِينًا أن الأرض ما خلت (ولن تخلو أبدًا) من أبناء الطائفة المنصورة التي لا يخلو منها زمانٌ ولا مكان بشهادة الصادق سيد ولد عدنان.. فكن شمولي النظرة، لا تنظر إلى الزمان نظرةً ضيقةً؛ فشبابنا الآن يقولون: ضاع الدينُ.. هُزمت الأمةُ.. إن الإسلام يتعرض لأشد الهجمات..بل إن المسلمين يتعرضون لأشدِّ الضربات على أيدي الأعداء!! إذن لا فائدة!! كثرت الفتن!! قل الملتزمون!! كثرت المتبرجاتُ!! الكتاتيب توقفت!! إذن بعد مدة لن نرى حافظًا للقرآن!!.إلى آخر هذه الكلمات؛ مع أنه لو نظر نظرة واسعة للزمان لعلم يقينًا أن الأمة قد نكبت نكبات أشد، ومع ذلك غيَّر الله الواقع، وبدَّل الله الحال.

فإذا كانت الأمةُ تمرُّ - الآن - بمرحلةٍ من مراحلِ الضَّعف والهزيمة، فلطالما مرت بمراحل تمكينٍ وقوةٍ وعزةٍ.

أخي الحبيب: إني أقول لك بلغةٍ يحدوها الأمل، وبقلبٍ ملأه اليقين: إن هذا

---

(١) تقدم عزوه.

الواقعَ سيتغيرُ، وإن هذا الحالَ سيتبدلُ - بفضل الله تعالى-.

لقد هجم التتارُ على المسلمين فَمُلِئت شوارعُ بغداد بأكوام اللحوم والأشلاء، وصارت الدماء في الشوارع كالأنهار بلا مبالغة، تعفنت الجثث من كثرة اللحوم والأشلاء، بل ولم تصلَّ صلاة جماعةٍ في مسجدٍ واحدٍ من مساجد بغداد أربعين يومًا!! إلى هذا الحدِّ؟! نعم أغلقت المساجد...!!

كان المسلم يخشى أن يخرج إلى المسجد خوفًا من القتل!!

كان المسلم إذا رأى التتاريَّ، يقف في مكانه لا يتحركُ خطوةً من شدة الرعب حتى يأتي المجرمُ التتريُّ ليقتله بسيفه ويذبحه كما تذبح النعاج!! انظر إلى حجم الهزيمة من الدَّاخل؟!

ومع ذلك سلَّط اللهُ على التتار من هزمهم شر هزيمة، وغَيَّر اللهُ الحالَ، وبدل الله الواقع[1].

وهجم الصليبيون على المسلمين وقتلوا في بيت المقدس ما يزيد على سبعين ألف مسلم، ووضعوا الصلبان على كلِّ حوائط المسجد الأقصى؛ بل ومنعت الصلاة في المسجد الأقصى ومع ذلك قيض الله للأقصى من يطهره، وبدَّل اللهُ الحالَ، وغَيَّر الله الواقع[2]؛ فالمسلمون الآن يصلون كل الصلوات في المسجد الأقصى مع هذا الاحتلال اليهودي لأرض فلسطين واغتصابهم للأقصى، وأقول: إن كان الله قد قيَّض للأقصى من يطهره؛ فإننا على يقين جازم أن الذي قيَّض للأقصى من طَهَّره حيٌّ لا يموت.

لَئِنْ عَرَف التَّاريخُ أَوْسًا وخَزْرَجًا ... فللــه أَوْسٌ قَــادِمُون وَخَــزْرَج

وإنَّ كُنُـوز الغَيْـب تُخْفِـي طَلائعًـا ... صــابرةً رَغْـم المكائـدِ تخـرُج!!

---

(١) وقد استفاض في ذكر أفاعيل التتار؛ الحافظ ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» في أحداث سنة ٦٥٦هـ (١٣/ ٢٠٠ وما بعدها)، وراجع: «السلوك والمعرفة لدول الملوك» للمقريزي (١/ ١٣٤).

(٢) راجع في ذلك: «المنتظم» لابن الجوزى (٩/ ١٠٨)، و «البداية والنهاية» (١٢/ ١٥٦)، و«الكامل» لابن الأثير (٤/ ٣٦٣) سنة ٤٩٢ هجريَّة.

يا قدسُ هَذَا زَمان الليل فاصْطَبري فالصُّبح مِنْ رَحم الظَّلْماء مَسْراه
مَادَامَ في القَلْب عَهْدٌ قد حفِظْنَاه وفي اليَمِين كِتَابٌ مَا تَرَكْناه
يا قُدْسُ لا تَقْنَط فَالحَقّ مُنْتَصِر وصَاحِب الحَقِّ لَيْسَ يَرُدُّه الله

وهجم القرامطةُ على المسلمين في بيت الله الحرام، فقتلوا المسلمين في الكعبة، وذبحوهم كما تذبح الخرافُ، وهم يلبسون ملابس الإحرام، وامتلأ بيتُ الله بالدماء والأشلاء، وانطلق المجرمُ أبو طاهر القرمطي قائد القرامطة، فانتزع الحجر الأسود من الكعبة المشرفة، وصرخ في جوف بيت الله ورفع رأسه إلى السماء وقال: أين الطير الأبابيل؟! أين الحجارة من سجيل؟! تحدٍّ سافرٍ، وفتنةٌ قاسيةٌ تعصفُ بالقلوب، وظلَّ الحجرُ الأسودُ بعيدًا عن الكعبة المطهرة ما يزيدُ على عشرين عامًا، ومع ذلك غير اللهُ الحالَ، وبَدَّل اللهُ الواقعَ[1]، وردَّ الله تعالى الحجرَ، وأصبحت الكعبةُ الآن مزينة بالحجر الأسود، ولله الحمد.

فيا أيها المسلمون! لا تيأسوا ولا تقنطوا، ولا تنظروا للزمان ولا للمكان نظرةً ضيقة؛ فهذا من أخطر أسباب الهزيمة النفسية الداخلية.

○ **أما الأسباب الخارجية للهزيمة النفسية:**

فنراها بالجملة تتمثلُ في هذا السببِ الخطيرِ؛ ألا وهو:

- **التضخيم والتهويل من قوة أعداء الإسلام:**

وهو وتَرٌ يُعْزَفُ عليه بالليل والنهار بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ بأن الأعداء لديهم أجهزة حديثة تلتقط أرقامَ الثياب الداخلية، أو أي قطعة معدنية تحملها في يدك!!! وأن عندهم القنابل النووية والجرثومية، والدبابات، والصواريخ، والتكنولوجيا الحديثة..

ونحن لا نودُّ أن ننفي ما وصل إليه الغربُ في هذا الجانب، ولكننا نود أن نقول: ينبغي أن نعلم يقينًا أن الله ﷻ ما أمر المسلمين بالإعداد إلا على قدر الاستطاعة؛ فقال

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (١١/ ٦٣ - ١٦٠) سنة ٣١٧ هجريَّة.

سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وعبَّر الله - جلَّ وَعَلَا - بالقوة بصيغة التنكير، ليبحث المسلمون عن القوة التي تناسب كلَّ عصرٍ ومصرٍ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠].

فما عليك إلا أن تبذلَ أقصى ما في استطاعتك؛ فإن عَلِمَ اللهُ منك أنك قد عملت أقصى ما في طاقتك وما في وسعك؛ فاصبر واطمئن، وَكِلِ النتائج إلى من بيده الكون كله.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

والله لو عَلِمَ المسلمون قَدْر قوة الله، وازداد إيمانهم وثقتهم بالله، لغير اللهُ الحالَ، ولبدَّل اللهُ الواقع؛ لأن الله ﷻ لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

فلنعُد إلى الله ابتداءً ولنحقق الإيمانَ؛ لأن اللهَ قد علَّق النصرةَ به؛ فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]؛ فلا ينبغي أن نضخمَ من قوة الأعداء في الوقت الذي يجب علينا فيه أن نبذل أقصى ما في استطاعتنا لإعداد القوة، وقد شاء اللهُ أن يرينا كيف أرغم الفتناميون أمريكا، ووضعوا أنفها في التراب؟!!

وكيف وضع الصوماليون (الحفاة العراة الجياع) أنف أمريكا في التراب؟!! يوم أن جرَّ شبابُ الصومال بعضَ الجنود الأمريكيين في الشوارع والطرقات، ونقلت وكالات الأنباء هذه الصورة؛ فاضطرت أمريكا أن تسحب جيوشها من الصومال في الحال.

كيف وضع المسلمون في البوسنة أنف - لا أقول الصرب فحسب - وإنما أقول

كيف وضع المسلمون في البوسنة أنف تآمرٍ عالميٍّ حاقدٍ يهوديٍّ صليبيٍّ علمانيٍّ رهيبٍ؟!!!

وكل المراقبين كانوا يقررون أن الحرب في البوسنة لن تستمر أكثر من أسبوع وصمد المسلمون في البوسنة!!

بل وقرر المراقبون كذلك أن الحرب في الشيشان لن تستمر أكثر من ثلاثة أيام وصمد المسلمون في الشيشان، ومرَّغوا أنف الدُّبِّ الرُّوسيِّ الغبيِّ في التراب.

والأفغانُ يوم أن صَدَقوا الله، ورفعوا الراية للجهاد في سبيل الله وضعوا أنف الدب الروسي في التراب، ويوم أن رفعوا الرَّاية للعصبيَّة المنتنة سلَّط الله بعضهم على بعض!! لِنَعي سنةً ربانيةً (في الكون) لا ينبغي أن نتجاهلها أبدًا.

أيها الأحبة: يجب علينا أن نعي هذه الحقيقةَ، وألا نبالغَ؛ لأن هذه المبالغةَ تزيد المهزومَ هزيمةً، وتزيد المنتصر على نفسه خذلانًا وتكاسلًا.

فلا ينبغي أن تعتقد الأمة أنها ستنتصر لأنها فاقت أعداءها عدَّة وعتادًا؛ فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[التوبة:٢٥،٢٦].

فلا داعي لهذا التضخيم المتعمد لأعداء الله تبارك وتعالى، وتزدادُ الخطورةُ إذا ضخَّمنا قوة العدوِّ في الوقت الذي نقلل فيه من قدر طاقاتنا وإمكاناتنا؛ فلقد منَّ اللهُ على الأمة بطاقات جَبَّارةٍ وقدراتٍ هَائلةٍ؛ من موقع، ومناخ، وثرواتٍ، وبترولٍ، وموارِدَ، وموادَّ معدنيةٍ، وعنصرٍ بشريٍّ جبارٍ، وعقولٍ مذهلةٍ تفكر وتبدع.

فالتضخيم لقوَّة الأعداء والتهوين والتضعيف لقوة وطاقات المسلمين؛ يصيب كثيرًا من الناس بالإرجاف والهزيمة القاتلة.. ثم ها نحن نرى جهلًا بطبيعة الطريق من بعض أحبابنا، فيصابون أيضًا بهذا المرض الفتَّاك المدمِّر؛ لأنهم يتصورون أن من يسير على طريق الله تبارك وتعالى يدخل قصر السَّعادة والرَّاحة من نوافذه قبل أبوابه، فالطَّريق

يا أمتي الغالية ليس مفروشًا بالورد والرَّياحين؛ بل هو طريقٌ طويلٌ حافلٌ بالعقبات والأشواك؛ فلا ينبغي للأمة أن تتوقف؛ بل عليها أن تشق لنفسها طريقًا من العزة والكرامة وسط هذه الأحجار والأشواك في الواقع المعاصر، وذلك لن يكون إلا بالعلم والفهم والعمل والأخلاق والسلوك والبذل والإنتاج والعطاء في كلِّ ميادين ومجالات الحياة.

فلا بد أن تأتي المحنُ والعقباتُ للسائرين على طريق الدَّعوة إلى الله تبارك وتعالى؛ طريق الإيمان؛ حتى لا يثبت على الصف إلا من صفت نفسه، وطهرت سريرته، وكي لا يبقى أحدٌ من أصحاب المصالح والمكاسب المادية والمعنوية؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج:١١].

وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[العنكبوت:١-٣].

وقال سبحانه: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾[البقرة: ٢١٤].

وأخيرا: فما هو العلاج؟

والعلاج في نقاطٍ سريعةٍ لا تحتاج إلى تفصيل:

- **أولاً: معرفة أسباب الدَّاء:** فإن تشخيص الدَّاء نصف الدواء.

- **ثانيًا: العودة الجادة الصادقة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ**، وتربية أفراد الأمة على العقيدة الصحيحة بشمولها وكمالها، ولا بدَّ أن نعي أن العقيدة الآن هي التي تحرك العالم كلَّه؛ فالحرب في الشيشان حربٌ عَقَدِيَّةٌ، والحرب في الصومال حرب عَقَدِيَّةٌ، والحرب في فلسطين حربٌ عَقَدِيَّةٌ، والحرب في العراق حرب عَقَدِيَّةٌ، والحرب في كشمير حرب عَقَدِيَّةٌ، والحربُ في البوسنة حربٌ عَقَدِيَّةٌ.

فلا بُدَّ أن نغرس العقيدةَ الصحيحةَ في قلوب أبنائنا وشبابنا.

• **ثالثًا: التخلُّص من الوهن الذي حذَّر منه النبيُّ ﷺ**: كما في «مسند» أحمد، و«سنن» أبي داود من حديث ثوبان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْـمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**». قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الْـحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْـمَوْتِ**»(١).

• **رابعًا: تربية شباب الأمة على روح الجهاد في سبيل الله**: الذي لا عزة للأمة إلا به بعد تحقيق الإيمان، وترسيخ العقيدة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١٠، ١١].

• **خامسًا: العودة الصحيحة إلى التاريخ وسير السلف الصالح**: لا لمجرد الثقافة الذهنية الباردة، وإنما لأخذ العبرة من ناحية، ولتتدفق في عروق الأجيال دماء الغيرة والعزة والكرامة من ناحية أخرى.

• **سادسًا: الاعتزاز المطلق بهذا الدين وفي نصرة رب العالمين**: قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور:٥٥].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم على أمة الإسلام (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، والطيالسي في «مسنده» (٩٩٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٣١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٠١) (١٤٥٢)، و«مسند الشاميين» (٦٠٠)، وصححه لغيره شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٩٥٦)، و«صحيح الجامع» (٨١٨٣).

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

فَقُمْ وابذلْ لدين الله تعالى، ولا تتقاعس ولا تتخاذل، وكُنْ على ثقةٍ ويقينٍ مطلقٍ أن الله جَلَّ في علاه سيُغيِّر الحالَ، ويبدِّل الأوضاعَ، وسَيُمكِّن لهذا الدين العظيم إن نحن قمنا بواجبنا؛ قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٠].

فإن كانت الأمة تَمُرُّ بمرحلةٍ من مراحل الضَّعف؛ فلطالما مرت بمراحل كثيرةٍ من مراحل العزِّ والتَّمْكين؛ أسأل الله أن يعيد للأمة مكانتها وريادتها وسيادتها وعزَّها ومجدها، وأن يرزقنا وإياكم العزَّ والاستعلاء بالإيمان بهذا الدين، وأن يردَّ الأمة إليه ردًّا جميلًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

*****





الوَهَنُ

الــــوَهـــنُ

حديثُنا في هذا الفَصْل مع مرضٍ خطيرٍ، وعلةٍ كبيرةٍ تملأُ الأرضَ خرابًا بعد أن كانت عامرةً بأهلها، وتُضَيع الأمة وتشرِّد أبناءها، إنه مرضٌ فتاك يكسب بُغض الله ورسوله، ويجلب التمزقَ والهلاكَ، ويُعين على هتك الأعراض، وسفك الدماء، واغتصاب الأموال!!

إنه داءٌ ومرضٌ مريرٌ يأخذ بالأمم والأفراد ابتليت به أمتنا المسكينة، وحين أُصيبت به هذه الأمةُ الميمونةُ أصبحت غثاءً كغثاء السيل تعيشُ على ضفاف مجرى الحياة الإنسانية كدول أو كدويلات متناثرة متصارعة متحاربة؛ تَفْصِل بينها حدودٌ جغرافيةٌ مصطنعةٌ، ونعراتٌ قوميةٌ جاهليةٌ، وترفرفُ على سمائها راياتُ القومية والوطنية، وتحكُم الأمةَ بسبب هذا المرض قوانينُ الغرب العلمانية، وتدورُ بالأمة الدواماتُ الفكريةُ والثقافيةُ والسياسيةُ والعسكريةُ والاقتصاديةُ والتعليميةُ، فلا تملكُ الأمة نفسها عن الدوران، ولا تختارُ لنفسها حتى المكان الذي تريد أن تقف فيه أو تدور؛ فذلَّت بعد عزَّة، وجهلت بعد علمٍ، وضعفت بعد قوة، وأصبحت في ذيل القافلة البشرية بعد أن كانت بالأمس القريب تقود القافلة البشرية كلَّها بجدارة واقتدار، وأصبحت الأمةُ مستعدةً للذوبان والانصهار في بوتقات شرقية وغربية تصطدمُ اصطدامًا مباشرًا مع منهج الأمة الأصيل مع كتاب ربها - جلَّ وعلا - وسنة نبيها ﷺ، وصدق في الأمة قولُ الصادق الذي لا ينطق عن الهوى؛ كما في «**الصحيحين**»[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لاتَّبَعْتُمُوهُمْ**»[2] قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٦)، ومسلمٌ، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩).

(٢) وفي رواية البخاريِّ: «**لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**».

أعرفتم هذا المرَض؟ أفطنتم إلى هذا الداءِ؟ إنه مرض «الوَهَن»؛ ذلكم الداءُ الذي دبَّ في أُمة البشير النذير ﷺ .

○ **فما معنى الوهَن لغةً واصطلاحًا؟**

● **الوهَنُ لغةً:** بسكون الهاء وفتحها: الضعف والجبن والخوف.

قال ابن منظور(١) : «الوَهَن: الضعفُ في العمل والأمر، وكذلك في العَظْمِ ونحوه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان: ١٤] جاء في تفسيره ضعفًا على ضعف؛ أي: لزمها بحملها إياه أن تضعُف مَرَّةً بعد مرة، وقيل: وهنًا على وهن؛ أي: جهدًا على جهد، والوَهَنُ لغةٌ فيه».

واصطلاحًا: الضعْفُ في العلم، وانكسارُ الجد بالخوف(٢) .

لذا حذَّر اللهُ تعالى منه؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ **قال القرطبيُّ** رحمه الله(٣) : «أي لا تضعفوا ولا تجبنوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لما أصابكم».

وهكذا ينبغي أن يكونَ شأنُ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ومهما كان كيدُ الكافرين قويًّا؛ فإنه لا ينبغي أن يهابه أهلُ الحق؛ لأن الله تعالى مُوهنه ومضعفه؛ كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ١٨].

فأهل الحق هم الأعلون بنصرة الله لهم، ومن ثَمَّ فلا ينبغي أن يطلبوا وقفَ القتال مع أعدائهم أو الدخول في سِلْم العدو؛ لأن حليفهم وناصرهم لا ولم ولن يُهْزم أبدًا، ومن كان اللهُ معه فكيف يخاف من عواقب معركة مهما كانت؟! ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى

(١) «لسان العرب» (١٥/ ٤١٧)، و«المفردات» (٦٩٢)، و«القاموس المحيط» (١٥٩٩).
(٢) «بصائر ذوي التمييز» (١٦١٧)، و «تفسير القرطبي» (٤ / ٢٣٠).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٤ / ١٣٩).

ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥][١] .

وفي «مسند» أحمد، و «سنن» أبي داود وغيرهما[٢] من حديث ثوبان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**». قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**».

وربُّ العزَّة يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

فحبُّ الحياة رأسُ كلِّ خطيئة!!

○ **لذا؛ فأنا أقولُ:** ما سادت الأمةُ أممَ الأرض، وما دمدمت على العالم القديم كلِّه بصولجانه وجبروته إلا حين امتلأت القلوبُ بحب الآخرة ومعرفة حقيقة الحياة الدنيا، ويوم امتلأت القلوبُ بحب الدنيا، وتهالك الخلقُ على الدنيا تهالكًا لا نظير له في تاريخ هذه الأمة!! وعاشت الأمةُ طوال السنوات الماضية للدنيا، وللشهوات الحقيرة، وللنزوات الرخيصة، وللكراسي الزائلة، وللمناصب الفانية، هانت الأمةُ وجبنت عن لقاء عدوها؛ بل وجبنت عن أن تتحرك بهذا النور الذي مَنَّ الله به عليها لتبلِّغه لأهل الأرض، وما أرقَّ وأجملَ موقف ربعي بن عامر ﷺ الذي يجسد حالَ أمةٍ عشقت الآخرةَ، وعرفت حقيقةَ الدنيا، وعلمت يقينًا أن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظمت فهي حقيرة؛ لأن الليلَ مهما طال لابد من طلوع الفجر، ولأن العمرَ مهما طال لابد من دخول القبر، وعَلِمت أن الدنيا دار ممر، وأن الآخرة هي دار المقر؛ فأخذت

---

(١) «نضرة النعيم» (١١ / ٥٧١٥- ٧١٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥ / ٢٧٨ واللفظ له)، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على أمة الإسلام (٤٢٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١ / ١٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٢ / ١٠١) (١٤٥٢)، وصححه بمجموع طرقه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٨)، و «صحيح الجامع» (٨١٨٣).

هذه الأمةُ من ممرها لمقرها، ولم تفضح أستارَهَا عند من يعلم أسرارها، فعزَّت وسادت أمم الأرض بالخُلُقِ، والعلم، والتوحيد، وأخلاق محرر العبيد نبينا ﷺ، والتاريخُ لا زالت صفحاتهُ مفتوحةً لكلِّ عاقلٍ منصفٍ يريد أن ينصفَ الحقَّ والحقيقة قبل أن ينصف أهلها من الموحدين المسلمين؛ فلقد رفرفت رايةُ التوحيد والسنة والعلم والعمل خمسين عامًا في مدة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق.

ولكنَّ الأمةَ راحت تبتعدُ رويدًا رويدًا عن هذا النورِ والشرفِ والعلمِ والفهمِ والعمل، فأصيبت بـ (الوهن!!) وذلت وهانت، واحتقرتها وأهانتها أممُ الأرض!!

فلما تعلقت القلوبُ بالدنيا، وكرهت الموت والآخرة، وكرهت لقاء الله - جلَّ وعلا - وراحت تتكالبُ على هذا الحطام الزائل؛ بل - ربما - يبيع المرءُ دينه من أجل هذه الدنيا الحقيرة؛ كما في «**صحيح مسلم**»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**».

وهذا هو سبب الوهن الذي أصاب الأمة فجعلها قصعةً مستباحةً لكلِّ أمم الأرض، وها نحن نرى أمم الأرض تأتي من أقصى بلاد الدنيا إلى عُقْر دار الأمة طمعًا فيما حباها الله به من موارد، ومن أرزاق، ومن عطاءات؛ فطمع فيها الضعيفُ قبل القوي، والقاصي قبل الداني، والذليل قبل العزيز، وأصبحت الأمة غثاء؛ كما تقدم في حديث نبينا ﷺ، ونُزعت المهابةُ (تمامًا!!) من قلوب أعدائها؛ فالتكالب على الدنيا يورث الذل؛ **ففي «سنن» أبي داود، و«مسند» أحمد**[2] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،**

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٤٢، ٨٤)، وأبو داود، كتاب البيوع، باب النهي عن العينة (٣٤٦٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥ / ٢٠٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٥ / ٣١٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٤١٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٢٣)، وقال في «الصحيحة» (١١): «وهو حديثٌ صحيحٌ لمجموع طرقه. **والعينة**: أن يبيع شيئًا من غيره بثمن مؤجل، ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقدًا؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فهذا مع التواطؤ يبطل البيعين؛ لأنها حيلة».

وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

وفي «**صحيح**»[1] **البخاري** من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: ورأى سكة وشيئًا من آلة الحرث؛ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الذُّلَّ**».

أي: من شغلهُ الحرثُ والزرعُ عن القيام بالواجبات كالحرب ونحوه؛ قال الألباني: «وإلى هذا ذهب البخاريُّ؛ حيث ترجم للحديث بقوله: «باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع، أو مجاوزة الحد الذي أمر به»؛ فإن من المعلوم أن الغلو في السعي وراء الكسب يلهي صاحبه عن الواجب، ويحمله على التكالب على الدنيا، والإخلاد إلى الأرض، والإعراض عن الجهاد...».

فلا أعلم زمانًا تكالب فيه أهلُه على الدنيا كهذا الزمان!! فالدنيا إلى زوالٍ وإلى فناءٍ، وها نحن نرى الموت كل يوم بأعيننا على شاشات الفضائيات؛ لكن قلَّ من يتذكرُ الموت،وقلَّ من يستعد للموت، وقلَّ من يعي حقيقة دنياه؛ فقد يحمل أحدُنا الميت على كتفيه؛ لكنه ما زال غافلًا عن الموت؛ بل وما فكَّر أن يستعد للقاء الله - جلَّ وعلا، ولا زالت الدنيا تملأ قلبَه، وتسيطرُ على وجدانه وفؤاده، حتى وهو في الجنازة لم يتذكر الآخرة!!

فأيُّ أمةٍ هذه التي تريدُ بعد ذلك أن تجعل لنفسها كرامةً بين أمم الأرض وهي بهذا الحرص والجشع والطمع والتكالب على الدنيا إلا من رحم الله تبارك وتعالى.

فأرحامٌ تدفعُ، وأرضٌ تبلعُ، وقومٌ يأتُون، وآخرون يرحلُون في كلِّ لحظة، ومع ذلك فمعظم الناس في غفلةٍ عما هو آت، مثَلُهم في ذلك كمثل أمواج البحر المتلاطمة المتلاحقة، كلما انكسرت على الشاطئ موجةٌ تبعتها موجةٌ وموجةٌ وموجةٌ، ومثلُهم كمثل المياه المتدفقة في الأنهار والبحار والمحيطات؛ فالماء الذي وقعت عينك عليه اللحظة يختلف تمامًا عن الماء الذي وقعت عليه عينك قبل لحظة؛ فالماء يجري ويتغير، وكذلك الحياة تجري وتتغير، وسيأتي الوقتُ الذي تنطفئ فيه نجومُ السماء، وتجفُّ فيه

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المزارعة، باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع (٢٣٢١).

عيونُ الآبار، وتتوقف فيه مياهُ البحار والمحيطات والأنهار، وينتهي الوجودُ الإنساني كلُّه ليقوم الخلق جميعًا للوقوف بين يدي العزيز الغفار؛ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

انتهى كلُّ شيءٍ في هذه الحياة الدنيا وتغيَّر، وتوقف الوجود الإنسانيُّ كلُّه!! قف مع هذه اللحظة؛ فساعتك تبدأ بموتك، وقيامتك تبدأ بموتك، وستنتقل من عالم الدنيا إلى عالمٍ آخر، يختلف تمامًا عن عالمك الذي تعيش فيه؛ فالحياة تمضي مسرعةً، فهذا اليوم الذي أنت فيه لو عُدْت إلى اليوم الذي كان يقابله في الأسبوع الماضي لاستشعرت أنه كان قبل ساعة! فالأعمارُ تجري، والأيام تمرُّ، والأشهر تجرى وراءها، تسحبُ معها السنين، وتجرُّ خلفها الأعمار، وتُطْوى حياةُ جيلٍ بعد جيل، وبعدها سيقف الجميعُ بين يدي الملك الجليل للسؤال عن الكثير والقليل؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]؛ فما حقيقة الدنيا؟ والجواب على هذا السؤال في قول الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]؛ فانظر إلى حقيقة الدنيا لتعلم حقيقة الدار التي جعلها الحقُّ تبارك وتعالى لنا محط ابتلاءٍ وامتحانٍ واختبارٍ؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٥ - ٤٩].

ويبين لنا النبيُّ ﷺ حقيقةَ الدنيا؛ كما في «سنن» **الترمذي**، و «سنن» **ابن ماجه**[١] من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»؛ فانظر إلى الدنيا بزخارفها، كم هي هينة على الله تعالى؟! فالدنيا هينة لا تساوي عنده جناح ذبابة أو بعوضة؛ فلم التهالكُ عليها؟!!

وفي «**صحيح مسلم**»[٢] من حديث المستورد بن شداد ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَاللهِ! مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمَا تَرْجِعُ**».

وروى أحمد، والترمذيُّ، وابن ماجه[٣] عن عبد الله بن مسعود ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**».

وضرب النبيُّ ﷺ أروع الأمثلة للدنيا كي لا يغتر بها أحدٌ.

فروى أحمد، وابن حبان، والبيهقي[٤] عن أبيِّ بن كَعْب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا وَإِنْ قَزَّحَهُ، وَمَلَّحَهُ، فَانْظُرُوا إِلَى مَا يَصِيرُ**».

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ (٢٣٢٠) وقال: «حديث غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٠)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٤٣)، و «صحيح الجامع» (٥٢٩٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨).

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الزهد، باب (٤٤) (٢٣٧٧)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠١، ٤١٩٦)، وابن حبان (٧٢٤٢)، والبيهقي في «السنن الكبير» (٣/ ٣٩١)، وفي «الشعب» (١٠٤١٥)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٦٨)، و«الصحيحة» (٤٣٨)، ورُوي عن ابن عباس؛ فراجع: «الصحيحة» أيضًا (٤٣٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦)، وابن حبان (٧٠٢)، والضياء في «المختارة» (١٢٤٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٥)، والطبراني في «الكبير» (٥٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٤)، والبيهقي في «الشعب» (٥٦٥٢، ١٠٤٧٣)، وفي «الزهد» (٤١٤)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٩٥)، و «الصحيحة» (٣٨٢).

وروى الحاكم[١] عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا قَلِيْلًا، وَمَا بَقِي مِنْهَا إِلاَّ القَلِيْلُ مِنَ القَلِيْلِ، وَمَثَلُ مَا بَقَي مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ كَالثَّغْبِ - يَعْنِي الغَدِيْر - شُرِبَ صَفْوُهُ، وَبَقِيَ كَدَرُهُ**».

ورحم الله من قال:

قَـدْ نَـادَتِ الـدُّنْيَا عَـلَى نَفْسِـهَا ... لَـوْ كَـانَ فِي الْعَـالَمِ مَـنْ يَسْـمَعُ

كَـمْ وَاثِـقٍ بِـالْعُمْرِ أَفْنَيْتُـهُ ... وَجَـامِعٍ بَـدَّدْت مَـا يَجْمَـعُ[٢]

فالدنيا ممر ومعبر إلى الآخرة؛ فتزوَّد فيها بالطاعات والقربات «**فالدُّنْيَا سِجْنُ المؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»؛ كما أخبر ﷺ[٣] .

فَمَنْ أحبَّهُ اللهُ حماهُ مِن الدنيا وشهواتها؛كما قال ﷺ : «**إِنَّ اللهَ** عز وجل **لَيَحْمِي عَبْدَهُ الـمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَـحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَـخَافُونَهُ عَلَيْهِ**»[٤] .

وكان النبيُّ ﷺ يوصي أصحابه والمؤمنين الصادقين من بعدهم بهذه الوصية الجليلة التي قالها لابن عمر رضي الله عنهما ؛ كما في «**صحيح البخاري**»[٥] ، وأخذ النبيُّ ﷺ بمنكبيه يومًا، وقال له: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

والغريب ـ وإن طالت غربته ـ فإنه يفكر حتمًا في العودة إلى أهله ووطنه وبلده، وعابر السبيل ـ أي: المسافر ـ وإن طال سفره؛ فإنه يفكر حتمًا في العودة.

وكان ابنُ عمر رضي الله عنهما يقول: «**إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ**

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٠)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، والديلمى (١/ ٢/ ٢٢٦)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٣٧)، و«الصحيحة» (١٦٢٥).

(٢) «تاريخ بغداد» (٤/ ٦٦).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧) عن محمود بن لبيد رضي الله عنه ، والحاكم (٤/ ٣٠٥) عن أبي سعيد رضي الله عنه ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٨١٤)، و«المشكاة» (٥٢٥٠)، وانظر: «سنن» الترمذيِّ، كتاب الطب، باب ما جاء في الحمية (٢٠٣٦).

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ : «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» (٦٤١٦).

تَنْتَظِرِ المَسَاءَ»[١].

وأنا أعلمُ أن الجميعَ يحفظُ هذا الحديث، لكن بكلِّ أسف، لا يُفكر كثير مِنَّا في حقائقه ولا في معانيه، ووالله لو تدبَّرناه وَوَعَيْنَاهُ، واحتلَّ مِنَّا مكانةً في القلوب، لتبدَّل حالُنا، وتغيَّر أمرنا؛ فلو ذهب كلُّ واحدٍ منا إلى فراشه كلَّ ليلة، وهو يعلم يقينًا صادقًا أنه قد لا يأتي عليه الصباحُ، ولو علم أن الموت سيفاجئه ساعة الفجر لن ينام الليل، وإن نام فلنْ ينام إلا على طاعة، أو قد تاب إلى الله على أقل حال.

فنحن نسمعُ الحديثَ ونقرؤه، ولكننا نحتاجُ إلى تدبُّره، ونحتاج إلى تذوُّقه وتذوق معناه، ونحتاجُ إلى أن نحوِّل كلماته الجميلة في حياتنا إلى واقع عمليٍّ وإلى منهج حياة.

قال الشاعر:

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِرٍ ... وَلاَ بُدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرِ

وَلاَ بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَمْلِ عُدَّةٍ ... وَلاَ سِيَّمَا إِنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرِ

وقال غيره:

وَمَا هَذِهِ الأَيَّامُ إلاَّ مَرَاحِلُ ... يَحُثُّ بِهَا دَاعٍ إِلَى المَوْتِ قَاصِدُ

وَأَعْجَبُ شَيْءٍ لَوْ تَأَمَّلْتَ أَنَّهَا ... مَنَازِلُ تُطْوَى وَالْمُسَافِرُ قَاعِدُ

وقال آخر:

يَا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ نَهَارٍ يَقُودُهَا ... إِلَى عَسْكَرِ المَوْتَى وَلَيْلٍ يَزُودُهَا

وقال آخر:

نَسِيرُ إِلَى الآجَالِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ... وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ المَوتِ حَقًّا كَأَنَّهُ ... إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الأَمَانِيُّ بَاطِلُ

وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ زَمَنَ الصِّبَا ... فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَاعِلُ

تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلاَئِلُ

---

(١) أورده البخاريُّ بعد الحديث السابق في «صحيحه».

وقال غيره:

مَـضَى أَمْسُـكَ الْـمَاضِي عَلَيْكَ مُعَـدَّلا ... وَأَعْقَبَـــهُ يَـــوْمٌ عَلَيْـــكَ جَدِيـــدُ

فَـإِذا كُنْـتَ بِـالأَمْسِ اقْتَرَفْـتَ إِسَـاءَةً ... فَـــثَنِّ بِإِحْسَـــانٍ وَأَنْـــتَ حَمِيـــدُ

فَيَوْمُـــكَ إِنْ أَعْتَبْتَـــهُ عَـــادَ نَفْعُـــهُ ... عَلَيْـكَ وَمَـاضِي الأَمْـسِ لَـيْسَ يَعُـودُ

وَلا تَـرْجُ فَعْـلَ الخـير يومًـا إِلَى غَـدٍ ... لَعَـــلَّ غَـــدًا يَـــأْتِي وَأَنْـــتَ فَقِيـــدُ

وأنشد بعضُ السلف:

إِنَّـــا لَنَفْـــرَحُ بِالأَيَّـــامِ نَقْطَعُهَـــا ... وَكُـلُّ يَـوْمٍ مَضَـى يُـدْنِي مِـنَ الأَجَـلِ

فَاعْمَـلْ لِنَفْسِـكَ قَبْـلَ المَـوْتِ مُجْتَهِـدًا ... فَـإِنَّمَا الـرِّبْحُ وَالخُسْـرَانُ فِي العَمَـلِ[1]

ثم يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

أنت الآن في صحة فاستخدم هذه الصحة في طاعة الله، فأنت لا تدري؛ فإن (المرض) الآن نسمع عن كثيرٍ من أشكالِهِ وألوانِهِ؛ أسأل الله أن يشفي مرضى المسلمين.

«وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»، وأنتم ترون الآن أن موت الفجأة قد كَثُرَ والموت الآن - بل في كل آن - لا يترك صغيرًا ولا كبيرًا، ولا صحيحًا ولا مريضًا، ولا امرأةً ولا رجلًا؛ فإن أقربَ غائب ننتظره جميعًا هو الموت!!

فكن - أيها الحبيب - في الدنيا كأنك غريب، والغريب لابد وأن يعود يومًا إلى موطنه، أو عابر سبيل، وعابر السبيل لابد أن يعود إلى وطنه، وأنت ستعود يومًا إلى الله - جلَّ وعلا؛ فحتمًا ستأتي نهاية الدنيا، وستترك كل شيء؛ ستترك الكرسي والمنصب؛ إذ لو دام الكرسيُّ لغيرك ما وصل إليك، وستترك الذي جمعت، وشغلك طوال عمرك عن مولاك للورثة؛ لتُسأل أنت عنه بين يدي ملك الملوك وجبار السموات والأرض: من أين اكتسبته؟ وفيما أنفقته؟ وتترك وجاهتك ومكانتك، ولا يبقى لك في الدنيا ولا في الآخرة إلا ما تركت من بصمات خير، وأعمال صالحات، وعلمٍ يُنتفع به، وذكرٍ جميلٍ

(١) انظر هذه الأبيات في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، الحديث الأربعون.

طيبٍ، وإلا فكم من أناسٍ قد رحلوا يلعنهم خلق الله، ويدعو عليهم عبادُ الله، ولا ذكرَ لهم ولا كرامة، ولا وجود لهم ولا مكانة، وكم من أناس رحلوا من مئات السنين لا زالوا معنا بفضل الله - جلَّ وَعَلَا - يُذكرون بالخير، ويُذكرون بالدعاء، وما ذُكر واحدٌ منهم إلا ودمعت العيون، ورقت القلوبُ؛ فلا زال رسولُ الله ﷺ بيننا بهديه وعلمه وسنته، ولا زال معنا أصحاب رسول الله ﷺ، ما ذكرهم مؤمنٌ إلا ورق قلبُهُ، وخشع فؤادُهُ، وبكت عينُهُ، ولا زال بيننا أهلُ الصلاح، وأهل الدين والعبادة والزهد والورع، مع أنهم رحلوا عن دنيانا؛ فحتمًا ستأتي نهايتك وستموت، يموت الصالحون ويموت الطالحون، يموت المجاهدون يموت القاعدون، يموت المستذلون للعبيد ويموت الشرفاء الذي يأبون الذل، ويموت ذووا الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ويموت التافهون الحريصون على الحياة بأي ثمن؛ فالكلُّ يموت؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

إنها الحقيقة الكبيرة التي تناسيناها وتجاهلناها، حتى أصابنا الوهنُ.

إنها الحقيقة التي يسقط عندها جبروتُ المتجبرين، وعنادُ المتألهين، وطغيانُ البغاة الظالمين.

إنها الحقيقة التي تصبغ الحياةَ البشريةَ كلَّها بصبغة الذل والعبودية لقهار السموات والأرض.

إنها الحقيقة التي شرب كأسها العصاةُ والطائعون، بل وشرب كأسها الأنبياءُ والمرسلون؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]؛ فالكلُّ سيموت، وسيذوقُ الجميع الموت؛ قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ

مِنْهُ ﴾ [ق: ١٩]؛ فالموت له سكرات وكربات؛ ففي «**صحيح البخاري**»[(١)] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ رِكْوَةٌ أَوْ عِلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**»؛ فتذكر - أيها الساهي - كيف أنت وقد حلَّت بك السكرات، ونزل بك الأنينُ والغمراتُ؟!

فالموت حقٌّ لا مراءَ فيه ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ والحق أنك تموتُ والله حيٌّ لا يموت.. والحقُّ أنك ترى عند موتك ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب.. والحقُّ أن يكون قبرك روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩]؛ أي: هذا الذي كنت منه تهربُ وتفر وتجري، وقد جاءك فلا محيد،ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص.. تحيد إلى الطبيب إذا جاءك المرضُ.. وتحيد إلى الطعام إذا أحسست بالجوع.. وتحيد إلى الشراب إذا أحسست بالظمأ.. ولكن ثُمَّ ماذا؟ أيها القويُّ الفتيُّ.. أيها الذكيُّ العبقريُّ.. يا أيها الوزير.. يا أيها الأمير.. يا أيها الكبيرُ، ويا أيها الصغيرُ.. يا أيها الحقير، ويا أيها الفقير:

كـــلُّ بـــاكٍ فســـيُبكَى ... وكـــلُّ نـــاعٍ فســـيُنْعَى
وكـــلُّ مـــذكورٍ سَيُنْسَـــى ... وكـــلُّ مـــذخورٍ سَـــيَفْنَى
لـــيس غـــير الله يبقـــى ... مَـــنْ عَـــلا فـــالله أعـــلى

كأني به وهو على فراش الموت وقد التف الأطباءُ حوله وداروا؛ فهذا متخصصٌ في جراحات المخ، وهذا متخصصٌ في جراحة القلب، التفوا حوله وهو مَنْ هو؟ صاحب الجاه، صاحب السلطان، والأموال، والملك، يريدُ الأطباء أمرًا وملك الملوك يريد أمرًا آخر.. انظر إليه وقد شحب لونُهُ، وتجعَّد جلدُهُ، وبردت أطرافُهُ، وبدأ يشعر بزمهرير قارس[(٢)]، يزحف إلى أنامل يديه وقدميه، يحاول جاهدًا أن يحرك لسانه وشفتيه بكلمة التوحيد، فيشعر أن الشفتين كالجبل لا يريد أن يتزحزح إلا لمن يسر اللهُ لهُ النطقَ بكلمة التوحيد، وكأني به في هذه اللحظات والناسُ من حوله يقولون: فلان لا يحرك لسانه،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٩).
(٢) أي: برد شديد. («اللسان» ٤/ ٤٠٩).

ولا يعرف أهله وجيرانه وأحبابه وإخوانه، كأني به وهو يسمع الحوارَ ويسمع الخطابَ، ولكنه لا يقدر على الجواب، وفي لحظة صحوة بين السكرات والكربات ينظر إلى أهله وينظر إلى الأطباء، وإلى الباكين، فينظر إليهم نظرة رجاء واستعطاف، ويرد عليهم بلسان الحال: يا أولادي، ويا زوجتي، ويا أهلي، ويا أحبابي: أنا أخوكم، أنا أبوكم، وأنا حبيبكم، أنا الذي بنيتُ لكم القصورَ، وعمرتُ لكم الدورَ، وَنَمَّيتُ لكم التجارة، وجمعتُ لكم الأموال، أنا الذي بذلتُ وفعلتُ؛ فلا تتركوني وحْدِي، ولا تفردوني في لحدي؛ فمن منكم يتنازل عن عامٍ من عمره؟ من منكم يزيد في عمري سنة أو سنتين.. شهرًا أو شهرين.. يومًا أو يومين.. ساعة أو ساعتين؟!

وهنا يعلو قولُ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٩٦].

سبحانك يا من ذللت بالموت رقابَ الجبابرة! سبحانك يا من أنهيت بالموت آمال القياصرة! سبحانك يا من نقلتهم بالموت من القصور إلى القبور! ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن مداعبة النساء والجواري والغلمان إلى مقاساة الهوان والديدان! ومن التنعم في ألوان الطعام والشراب إلى التمرغ في ألوان الوحل والتراب!!!

دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ... وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكِهَا يَا مُذْنِبُ

لَمْ يَنْسَهُ الْمَلَكَانِ حِيْنَ نَسِيتَهُ ... بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لاهٍ تَلْعَبُ

وَالرُّوحُ منكَ وَدِيعَةٌ أُوْدِعْتَهَا ... سَتَرُدُّهَا بِالرَّغْمِ مِنْكَ وَتُسْلَبُ

وَغُرُورُ دُنْيَاكَ الَّتِي تَسْعَى لَهَا ... دَارٌ حَقِيقَتُهَا مَتَاعٌ يَذْهَبُ

اللَيْـــلُ فَـــاعْلَمْ وَالنَّهَـــارُ كِلاهُمَـــا أَنْفَاسُـــنَا فِيهَـــا تُعَـــدُّ وَتُحْسَـــبُ

فمهما بلغت قوتُك، ومهما كانت سطوتك ومكانتك؛ فأنت على فراش الموت إنسانٌ ضعيفٌ لا تملك حولًا ولا قوةً، قد فقدت كُلَّ الأسباب، وضاع منك كلُّ شيء!!

«ولما حضرت عبدَ الملك بن مروان الوفاةُ، نظر إلى غسَّال بجانب دمشق يلوي ثوبًا بيده، ثم يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك: ليتني كنت غسَّالًا آكل من كسب يدي يومًا بيوم، ولم آل من أمر الدنيا شيئًا، فبلغ ذلك أبا حازم؛ فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموتُ يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموتُ لم نتمن ما هم فيه.

وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ... ﴾ [الأنعام:٩٤] الآية ومات.

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز: كنت أسمعُ عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخفِ عليهم موتي ولو ساعةً من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه، خرجت من عنده فجلست في بيت آخر، بيني وبينه باب، وهو في قبةٍ له، فسمعته يقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]، ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركةً ولا كلامًا، فقلت لِوَصِيفٍ له: انظر أنائم هو؟، فلما دخل صاح فوثبت؛ فإذا هو ميت.

وقيل له لما حضره الموت: أعهد يا أمير المؤمنين، قال: أُحذِّركم مِثْلَ مصرعي هذا؛ فإنه لا بد لكم منه.

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دُعي له طبيب، فلما نظر إليه قال: أرى الرجلَ قد سقي السم، ولا آمن عليه الموت، فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضًا على مَنْ لم يسق السم، قال الطبيب: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قد عرفت ذلك حين وقع في بطني، قال: فتعالج يا أمير المؤمنين، فإني أخاف أن تذهب نفسُك، قال: ربي خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته، اللهم خِرْ لعمر في لقائك، فلم يلبث إلا أيامًا حتى

مات.

وقيل: لما حضرته الوفاةُ بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننًا، وأظهر بك عدلًا، فبكى ثم قال: أليس أُوقَفُ فأُسْئَلُ عن أمر هذا الخلق؟ فوالله لو عدلتُ فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله، إلا أن يلقنها الله حجتها؛ فكيف بكثير مما ضيعنا، وفاضت عيناه؛ فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات.

ولما قرب وقتُ موته قال: أجلسوني، فأجلسوه؛ فقال: أنا الذي أمرتني فقصَّرت، ونهيتني فعصيت، ثلاث مرات، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحد النظر، فقيل له في ذلك؛ فقال: إني لأرى خضرة ما هم بإنس ولا جن، ثم قبض رحمه الله.

وحكي عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩].

وفرش المأمونُ رمادًا واضطجع عليه، وكان يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه.

وكان المعتصمُ يقول عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت.

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته، فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين؛ فقال: ليس إلا هذا، لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة»[1].

أين المال والسلطان؟ أين الملك والصولجان؟ أين الظالمون والجبابرة؟ أين الأكاسرة والقياصرة؟

أين الظالمون وأين التابعون لهم ... في الغَيِّ بل أين فرعون وهامان

وأين من دوَّخوا الدنيا بسطوتهم ... وذكْرُهم في الورى ظلم وطغيان

هل أبقى الموت ذا عزٍّ لعزته ... أَوْ هل نجا منه بالسلطان إنسان

لا والذي خلق الأكوان من عدم ... الكلُّ يفنى فلا إنس ولا جان

---

(١) ما تقدم من آثارٍ من «إحياء علوم الدين» (٤ / ٤٨٠، ٤٨١).

وفي «**الصحيحين**»[1] من حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؛ فَقَالَ: «**لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ الله وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ الله فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**».

فالوهن؛ حبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموت، مع أنني لا أعلم حقيقة أوضح من هذه الحقيقة لكل أهل الأرض بصفة عامة، ولأمة التوحيد والإيمان بصفة خاصة.

أيها الأحبة: إن الموت خيرُ واعظ، ومن لم يتعظ بالموت فلا اتعظ ولا واعظ له، فكفى بالموت واعظًا.

يقول القرطبيُّ ﵀[2]: «اعلم أن الموتَ هو الخطبُ الأفظع، والأمرُ الأشنع، والكأسُ الذي طعمها أكره وأبشع، وأنه الأهدم للذات، والأقطع للراحات، والأجلب للكربات، فإن أمرًا يُقطِّع أوصالك، ويُفرِّق أعضاءك، ويَهْدِم أركانك، لهو الأمر الفظيع، والخَطْب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم».

وفي الحديث الذي **رواه الطبرانيُّ في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية»، والحاكم في «المستدرك»، وحَسَّنَ إسناده الألبانيُّ في «الصحيحة»**[3] من حديث سهل بن سعد ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ وَعَظَهُ جِبْريل؛ فقال: «**يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ، فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ، فَإِنَّكَ مُفَارِقُه، واعْمَلْ مَا شِئْتَ، فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، واعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**».

فتفكَّر يا مغرور في الموت وسكراته، وصعوبة كأسه ومرارته؛ فيا للموت مِنْ وعدٍ ما

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧)، ومسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (٢٦٨٤).

(٢) «التذكرة» للقرطبي (٢٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥) وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٣)، وله شواهد عن جابر ﵁ عند الطيالسي (١٧٥٥)، وعن علي ﵁ عند أبي نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٠٢)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢/ ٥٠٥).

أصدقه، ومِنْ حاكمٍ ما أعدله؛ فكفى بالموت مُفزعًا للقلوب، ومُبكيًا للعيون، ومُفرقًا للجماعات، وهَادمًا لِّلذات، وقاطعًا للأمنيات.

وكان يزيدُ الرقاشي رحمه الله يقول[1] :

«ويحك يا يزيد، من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ مَنْ ذا يصومُ عنك بعد الموت؟ مَنْ ذا يترضى عنك ربَّك بعد الموت؟ فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك؟ وانتقالك من موضعك؟ إذا نقلت من سعةٍ إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأُخِذْت من فراشك وغطائك على غرر، وغطوك من بعد لين لحافك بترابٍ ومدر؛ فيا جامعَ المال، والمجتهد في البنيان؛ ليس لك من مالك والله إلا الأكفان؛ بل هي للخراب والذهاب، وإن جسمك للتراب والمآب..ثم قال يزيد: يا أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي الحياة!! مَن الموتُ طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو مع ذلك ينتظر الفزع الأكبر. كيف يكون حاله؟».

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول:

«أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمِّلٌ للدنيا، والموت يطلبه، وغافلٌ ليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٌ بملء فيه، وهو لا يدري أأرضى الله أم أسخطه؟ وأبكاني: فراق الأحبة، محمدٌ وحزبُه صلى الله عليه وسلم ، وأحزنني المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله تبدو السريرة علانية، ثم لا يدري إلى الجنة أم إلى النار؟!»[2] .

قال القرطبي رحمه الله [3] :

«يا هذا! أين الذي جمعت من الأموال، وأعددت للشدائد والأهوال؟ لقد أصبحَتْ كفُّك منه عند الموت خالية صفرًا، وبُدِّلت بعد غناك ذلًّا وفقرًا؛ فكيف أصبحَتْ يا رهين الأوزار؟ ويا مَنْ سُلب من الأهل والديار! أو ما علمت يا مغرور أنه لابد من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال؛ فلن ينفعك ثمَّ قيلٌ ولا قال؛ بل يُعدُّ عليك

---

(١) «التذكرة» للقرطبي (١٣). بتصرفٍ وتقديم وتأخيرٍ.
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٣٥)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٧) عن سلمان رضي الله عنه، وذكره القرطبي في «التذكرة» (٨٠).
(٣) «التذكرة» (٨٢، ٨٣) بتصرفٍ يسيرٍ.

بين يدي الملك الدَّيَّان ما بطشتِ اليدان، ومشتِ القدمان، ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان؛ فإن رحمك الله فإلى الجنان، وإن كانت الأخرى كانت النيران؛ فيا غافلًا عن هذه الأحوال إلى كم الغفلة والتوان، أتحسب أن الأمر صغير! وتزعم أن الخطب يسير، وتظن أنه سينفعك حالك إذا آن ارتحالك، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك، أو يغني عنك ندمك إذا زلَّت بك قدمك، أو يعطف عليك محبوبك ومعشرك إذا ضمك محشرك، كلا والله ساء ما تتوهم، ولا بد لك أن تعلم (يومًا من الأيام)، لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظات تسمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تنقلب مع الأهواء، وتخبط خبط عشواء، يعجبك التكاثر بما لديك، لا تذكر ما بين يديك، يا نائمًا في غفلة وفي خبطة يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان؟ أتزعم أنك ستترك سدىً؟! وألا تحاسب غدًا؟! كلا - والله - لن يدفع عنك الموت مالٌ ولابنون، ولا ينفع أهلَ القبور إلا العملُ المبرور؛ فطوبى لمن سمع ووعى، وحقَّق ما ادَّعى، ونهى النفس عن الهوى، وعَلِمَ أن الفائز من ارعوى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم:٣٩، ٤٠].

فانتبه من هذه الرقدة، واجعل العمل الصالح لك عُدَّة، ولا تتمنَّ منازل الأبرار، وأنت مقيم على الذنوب والأوزار، عاملٌ بعمل الفُجار؛ بل أكثر من الأعمال الصالحات، وراقب الله في الخلوات، رب الأرض والسموات، ولا يغرنك الأمل، فتزهد عن العمل». انتهى.

لا شيء مما ترى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويفنى المالُ والولدُ
لم تُغن عن هرمزٍ يومًا خزائِنُه ... والخلدَ قد حاولت عادٌ فما خَلَدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياحُ له ... والإنسُ والجنُّ فيما بينها تَرِدُ
أين الملوكُ التي كانت لعزَّتِهَا ... من كلِّ أوبٍ إليها وافدٌ يفدُ
حوضٌ هنالكَ مورودٌ بلا كذبٍ ... لا بد من وِرْدِهِ يومًا كما وَرَدُوا[1]

---

(١) «الزهد» لهنَّاد (٥٧١)، و«تاريخ دمشق» (٤٤/٣١٦، ٣١٨)، و«تاريخ الطبري» (٢/٥٧٦)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (١/٣٥٨)، و«البداية والنهاية» (٢/٢٩٨)، و«التذكرة» (١٢، ١٣).

أيـا مـن يـدَّعي الفَهْـمَ إلى كَـمْ يـا أخـي الـوَهْم
تعـبُّ الـذنْب والـذنْب وتُخطـي الخطـأ الجَـم
أمـا بَـانَ لَـكَ العَيْـبُ أمـا أنْـذَرَكَ الشَّـيْب
ومـا في نصـحِهِ ريـبٌ ولا سـمعك قـد صـم
أمَـا أَسْـمَعَكَ الصَّـوْتُ أمـا نـادَى بـكَ المَـوْتُ
أمـا تَخْشَـى مـنَ الفَـوْتِ فَتَحْتَـاط وتَهْـتَم
وتـنفضَّ إلى اللَّهْـوِ كَـأَنَّ المـوت مـا عـم
كـأني بِـكَ تـنحط إلى اللَّحْـدِ وتـنغط
وقـد أسـلمك الـرهط إلى أضْـيَقَ مِـنْ سَـم
هنـاك الجسـم ممـدودٌ ليسـتأكله الـدود
إلى أن ينخـر العُـودُ ويمـسي العظـمُ قـد رم
فـزوِّد نفسـك الخـير ودعْ مـا يعقـب الضـير
وهيـئ مركـبَ السَّـيرِ وخَـفْ مِـنْ لُجَّـة الـيمِّ
بـذا أوصـيك يـا صـاحُ وقـد بُحتُـك مـن بـاح
فطـوبى لفتـىً راح
بقـرآن الـربِّ يهـتم وبـآداب محمـدٍ يـأتم

تزوَّد يا أخي:

تـزود مـن الـدنيا فإنـك لا تـدري إذا جـنَّ ليـلٌ هـل تعيـشُ إلى الفجـر
فكـم مـن عـروسٍ زيَّنوهـا لزَوْجهـا وقـد أُخـذت أرواحهُـم ليلـةَ القـدرِ
وكـم من صـغارٍ يُرْتَجى طُولُ عمرهم وقـد أُدخلـت أرواحُهُـم ظلمـةَ القـبرِ
وكـم من سـليمٍ مـاتَ من غـيرِ علَّـةٍ وكـم من سقيمٍ عـاشَ حينًا مـن الـدَّهرِ

وكم من فتًى يُمْسي ويُصبحُ لاهيًا ... وقد نُسجَت أكفَانُه وهُوَ لا يَدْرِي

وكم من ساكنٍ عندَ الصباحِ بقصرِهِ ... وعند المِسا كان من ساكن القبرِ

فكن مخلصًا واعمل الخيرَ دائمًا ... لعلكَ تحظَى بالمثوبةِ والأجْرِ

وداوِم عَلى تَقْوَىَ الإلهِ فإنها ... أمانٌ من الأهوالِ في موقفِ الحشْرِ

دَعِ الحِرْصَ على الدُّنيا، وذكِّر نفسك بالموت دائمًا، وتذكَّر قَوْلَ القائل:

أيا عبدُ كم يراكَ الله عاصيًا ... حريصًا على الدنيا وللموت ناسيا

أنسيتَ لقاءَ الله واللَّحد والثرى ... ويومًا عبوسًا تشيبُ فيه النَّواصيا

لو أن المرء لم يلبس ثيابًا من التُّقى ... تجرَّد عريانًا ولو كان كاسيا

ولو أن الدنيا تدومُ لأهلها ... لكان رسولُ الله حيًّا وباقيا

ولكنها تفنى ويفنى نعيمها ... وتبقى الذنوبُ والمعاصي كما هي

ذَكِّر نَفْسَكَ دَائِمًا وقُلْ لَهَا:

يا نفسُ قد أَزِفَ الرَّحِيلُ ... وَأَظَلَّك الخطبُ الجليلُ

فتَأَهَّبي يا نَفْسُ لا ... يلعبُ بِكِ الأَمَلُ الطَّويلُ

فلتنزلنَّ بمنزلٍ ... يَنْسَى الخليلَ به الخليلُ

وليرْكَبنَّ عَلَيْكِ فِيـ ... ـهِ منَ الثَّرَى حِمْلٌ ثقيلُ

قُرِنَ الفَنَاءُ بِنَا فما ... يَبْقَى العَزِيزُ ولا الذَّلِيلُ

ولقد سأل سليمان بن عبد الملك أبا حازم الزاهد العابد الورع؛ فقال له: يا أبا حازم ما لنا نحب الدنيا ونكره الموت؟

فقال أبو حازم: لأنكم عمرتم دنياكم، وخربتم أُخراكم؛ فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمار إلى الخراب. قال: صدقت.

فقال سليمان: فما لنا عند الله يا أبا حازم؟

قال: اعرض نفسك يا أمير المؤمنين على كتاب الله. قال سليمان: فأين أجد ذلك؟

قال: في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قال سليمان: فأين رحمة الله يا أبا حازم؟

قال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال سليمان: فكيف العرض على الله غدًا؟

قال أبو حازم: أما العبد المحسن فكالغائب يرجع إلى أهله وأحبابه، وأما العبد المسيء فكالآبق يرجع إلى سيده ومولاه [(١)].

وقيل لحاتم الأصم: بما حققت التوكلَ والزهدَ في الدنيا؟

قال: بأربعة أشياء: علمتُ بأن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي، وعلمتُ أن عملي لا يتقنه غيري فانشغلت به، وعلمت بأن الموتَ ينتظرني فأعددت الزادَ، وعلمت بأن الله مطلعٌ عليَّ فاستحييت أن يراني على معصية [(٢)].

وقيل لبعضهم: بما حققت الزهدَ في الدنيا؟

قال: بثلاثة أشياء: رأيت القبرَ موحشًا ولم أجد مؤنسًا، ورأيت الطريقَ طويلًا ولم أحمل الزادَ، ورأيت جبَّار السماوات والأرض قاضيًا يوم القيامة وليس معي حجة ولا أجد من يدافع عني.

وعن سفيان بن عيينة يقولُ: دخل هشامُ بن عبد الملك الكعبة؛ فإذا بسالم بن عمر ابن الخطاب ﷺ؛ فقال له: يا سالم سلني حاجتك؛ فقال: إنِّي أستحي من الله تبارك وتعالى أن أسأل في بيت الله غير الله؛ فلما خرجا خرج في إثره، فقال له: الآن قد خرجت؛ فسلني حاجتك، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا؛ فقال له سالم: أما والله ما سألت الدنيا ممن يملكها؛ فكيف

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٦ / ٦٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٢ / ٣٠، ٣٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨ / ٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٧٤)، والخطيب في «تاريخه» (٨ / ٢٤٣).

أسأل الدنيا ممن لا يملكها؟[١]

ولقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٢]:

«والمقصود أن كلَّ أحدٍ صائرٌ إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، وسواءٌ عليه جاهد أو لم يجاهد؛ فإن له أجلًا محتومًا، وأمدًا مقسومًا؛ كما قال خالد بن الوليد حين جاء الموتُ على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفًا، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي؛ فلا نامت أعين الجبناء»[٣].

هؤلاء هم الأبطال الذين باعوا الدنيا، وزهدوا فيها، وعرفوا حقيقتها.. لكن الأمةَ حين أصيبت بالضعف والجبن والهزيمة النفسية ذلت وهانت، واحتقرتها وأهانتها أممُ الأرض!! لذا فلا كرامة للأمة من جديد إلا إذا غرست للدنيا لتحصد هنالك في الآخرة.

ولما علم الفطناءُ والعقلاءُ حقيقةَ هذه الدار حرثوها وزرعوها، وفي الآخرة تُجنى الثمار.

ورحم الله من قال:

إن لله عبـــادًا فطنـــا ... طلَّقُـوا الـدُّنيا وخـافوا الفتنـا

نظـروا فيهـا فلـمَّا علمـوا ... أنهـا ليسـت لحـيٍّ وطنـا

جعلوهـا لُجَّـةً واتخـذوا ... صـالحَ الأعـمال فيهـا سـفنا[٤]

ما أجمل هذه الكلمات وأروعها؟! جعلوها لجة؛ أي: ماء، متخذين صالح الأعمال فيها سفنًا؛ ليعبروا بهذه السفن وسط هذه الأمواج المتلاطمة من أمواج الفتن - فتن الشبهات والشهوات - ليعبروا بهذه الأعمالِ الصالحات إلى جنة ربِّ الأرض

(١) أخرجه أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٨٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٠ / ٦٤).
(٢) في «تفسيره» (١ / ٦٥٠).
(٣) أخرجه أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٨٣٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٦ / ٢٧٣).
(٤) انظر: «رياض الصالحين» (ص: ٣٨).

والسماوات.

فالدنيا ليست مذمومةً على الإطلاق، وهذا من التأصيل العلميِّ الذي أودُّ أن أركِّزَ عليه.

فليس هناك ذمٌّ في القرآن والسنة لذات الدنيا إطلاقًا[١]؛ لا لزمانها - ألا وهو الليل والنهار - ولا لمكانها - ألا وهي الأرض - ولا لخيراتها وما أودع الله ﷻ فيها.

كيف وهو القائل - جلَّ وعلا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]؟؛ فالليل والنهار آيتان من آيات العزيز الغفار.

قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٧ - ٣٩].

والأرض آيةٌ أخرى؛ يقول الله ﷻ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

والجبال، والأنهار، والبحار، والأشجار، والثمار، والخيرات كلُّها من نعم الله ﷻ على عباده في هذه الأرض؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إذًا؛ الذم الوارد في القرآن في شأن الدنيا إنما هو مُنْصَبٌّ فقط على كل ما يرتكب في الدنيا من معصية لا تُرْضِي الحقَّ ﷻ، بدءًا من الشرك بالله - وهو أخطر المعاصي وأكبرها - إلى أقل معصية، إلى أن تُلقي حجرًا على الطريق يعوق حركة الناس.

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» (٣٦٩) ط دار الحديث.

لذلك يقول عليٌّ ﷺ: «الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ نَجَاةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، فَهِيَ مَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ، وَمُصَلَّى أَنْبِيَاءِ اللهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، رَبِحُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَاكْتَسَبُوا فِيهَا الْجَنَّةَ»[(١)].

فأنت لن تُحصِّل الجنةَ في الآخرة إلا إذا غرست - هنا - في الدنيا.. إلا إن عبرت هذه القنطرة عبورًا: إما أن يوصلك إلى جنات النعيم، أو إلى الأخرى؛ أسأل الله أن يعيذني وإياكم من الأخرى.

روى «**البخاريُّ ومسلمٌ**»[(٢)] من حديث أنسٍ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**».

فانظر إلى حقيقة الدنيا، ولا تنظر إليها نظرةً خاطئةً؛ بل ابدأ الحياةَ، ولا تيأسْ، ولا تقنطْ، ولا تحزنْ، واعلم أنك هنا في أيام إن وظفتها توظيفًا صحيحًا لخيري الدين والدنيا؛ فأنت في جنة، وإن لم تدخل جنة الدنيا لن تدخل جنة الآخرة!!

فالمؤمنُ يعيش في سعادةٍ ورضا؛ لأنه يعلم تمامًا حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، ولا يوجد عنده تمزقٌ داخلي، ولا يوجد عنده تشتت؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذه هي جنة الدنيا ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] في الآخرة.

أسألُ الله أن يطهر قلوبنا من الوهن، ومن الجبن، ومن الخور والضعف، وأن يردَّنا إليه ردًّا جميلًا، وأن يعيد للأمة كرامتها وعزتها ومكانتها؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

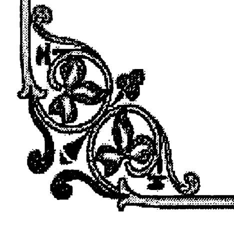
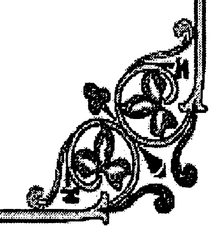
*****

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (١٠٨)، و «ذم الدنيا» (١٤٧) بسندٍ فيه نظر؛ كما قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه (٢٣٢٠)، ومسلمٌ، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٣).



تجاهل
السنن الربانية

تجاهل السنن الربانية

حدِيثُنا في هذا الفصل مع مرضٍ أصاب الأمة بالهزيمة في كلِّ جوانب الحياة؛ ألا وهو: «تجاهل السنن الربانية».

وقد يتساءلُ الكثيرون عن هذا المرض الذي رُبَّما لأول مرةٍ يسمعون عنه؛ بل وأكثر الأمة لا تعرف شيئًا عن حقيقته؛ فضلًا عن ضرره وخطورته!!!

وأستهِلُّ هذا الفصلَ المهمَّ بهذه الكلمات؛ فأقول: لقد ابتليت الأمةُ الميمونةُ بنكباتٍ وأزماتٍ كثيرةٍ على طول تاريخها؛ مرورًا بأزمة الرِّدة الطَّاحنة، والهجمات التتارية الغاشمة، والحروب الصليبية الطاحنة، لكنَّ الأمة مع كل هذه الأزمات والمآزق كانت تمتلكُ مقومات النصر من إيمانٍ صادقٍ، وثقةٍ مطلقةٍ في الله، واعتزازٍ بهذا الدين، فكتب الله -جَلَّ وعَلَا- لها النصرةَ والعزةَ والتمكينَ، ولكنَّ واقع الأمة المعاصر واقعٌ مرٌّ أليمٌ، فقدت فيه الأمة جُلَّ مقومات النصر بعد أن انحرفت الأمة انحرافًا مروعًا عن منهج رب العالمين، وعن سبيل سيد المرسلين ﷺ، انحرفت الأمةُ ووقعت في انفصام نكد بين منهجنا المضيء المنير وواقعها المؤلم المر المرير، فانحرفت الأمة في الجانب العقدي، والجانب التَّعبدي، والجانب التشريعي، والجانب الأخلاقي، والجانب الفكري، بل وحتى في الجانب الرُّوحي، وما تحياه الأمة الآن من واقعٍ أليمٍ وقع وفق سننٍ ربانيةٍ لا تتبدلُ ولا تتغيرُ، ولا تحابي هذه السننُ أحدًا من الخلق بحالٍ مهما ادَّعى لنفسه من مقومات المحاباة، بل ولن تعود الأمةُ إلى عزها ومجدها إلا وفق هذه السنن التي لا يجدي معها تعجل الأذكياء ولا وَهْم الأصفياء!!

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ووالله لقد غيَّرت الأمةُ وبدَّلت في جميع جوانب الحياة؛ فتأمل ستجدُ الأمةَ استبدلت بالعبير بعرًا، وبالثريا ثرى، وبالرحيق المختوم حريقًا محرقًا مهلكًا مدمرًا، وظنت الأمةُ المسكينةُ أنها يوم أن نحَّت شريعةَ الله وشريعةَ رسوله ﷺ وراحت تلهث وراء الشرق الملحد تارةً، ووراء الغرب الكافر تارةً أخرى، وظنت أنها قد ركبت قارب

النجاة، فغرقت الأمة وأغرقت، وهلكت الأمةُ وأهلكت، ولن تعود الأمة إلى سيادتها وريادتها إلا إذا عادت من جديد إلى أصل عزها، ونبع شرفها، ومعين كرمها، ومعين بقائها ووجودها، إلى كتاب ربها وسنة حبيبها ورسولها ﷺ .

إن كثيرًا من أفراد أمتنا الآن يرددون هذه الكلمات: نحن أحباب النبيِّ ﷺ ونحن أتباع النبي ﷺ ، ودع الأمرَ للبركة!! وأنا لا أنكرُ البركة؛ فلقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

ولكن الشرط - كما نصت عليه الآية - هو الإيمان والتقوى؛ فالسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

لذا أقول: إن اللهَ خلق الكون وخلق فيه أسبابًا وقوانين ونواميس محددة لا تتخلف هذه الأسبابُ والقوانينُ والنواميسُ أبدًا إلا إذا شاء الله في الوقت الذي يشاء إذا أراد أن يبدل الأرض غير الأرض والسموات؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ فمنذ أن خلق الله الكون؛ فالشمس تجري في مستقر لها لا تتبدلُ ولا تتأخرُ، ولا تنحرف يمنةً أو يسرةً، والقمر يسير في منازله لا يتأخر ولا يتخلف؛ كما قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

كذلك سُنن الله تعالى في معاملته لكل الخلق لا تتبدلُ ولا تتغيرُ. لذا أقول بلا مواراةٍ: لقد هُزم المسلمون في أحد بعد بدر الكبرى!! لأن بعض الرماة قد تخلَّى عن سببٍ من أسباب النصر؛ ألا وهو طاعة النبي ﷺ ؛ فلقد أمرهم النبيُّ ﷺ أن لا يفارقوا الجبل؛ ففي «**صحيح البخاري**»[1] من حديث البراء ﷺ قال: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ؛ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ، وَقَالَ: «**لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا**»، وفي رواية في «الصحيح»

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٤٠٤٣).

كذلك[١]: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ - وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا - عَبْدَ الله بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»، وبالفعل انتهت المعركةُ، وحُسمت لصالح المسلمين، وترك الرماةُ مواقعهم لجمع الغنائم، لكن الرسول ﷺ أمرهم ألا يفارقوا مواقعهم بالميدان إلا بأمر منه، ففارقوا الميدان، ووقعوا في مخالفة لأمر نبوي، قال عبد الله بن جبير: «أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ الله ﷺ قَالُوا: وَالله لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ»[٢]؛ فصار النصرُ هزيمةً، وتغير ميزانُ المعركة، وتعرض النبيُّ ﷺ بالفعل للقتل؛ بل كسرت رباعيته، وشج وجهُهُ، ودخلت حلقتا المغفر في وجنتيه الشريفتين.

ففي «**الصحيحين**»[٣] من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه وهو يَسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: جُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ الله ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ.

وفي روايةٍ[٤]: «وَجُرِحَ فِي وَجْهِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِرَمْيَةٍ أَصَابَتْهُ، حَتَّى دَخَلَ بَعْضُ الْمِغْفَرِ فِي وَجْهِهِ، وَكُسِرَتْ الْبَيْضَةُ أَيْضًا عَلَى وَجْهِهِ بِرَأْسِهِ بِرَمْيَةٍ رَمَاهُ بِهَا بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ».

وانتشر خبرُ قتله في الميدان، بعدما انتقلت الدَّفة، وكانت الدولةُ أول النهار

---

(١) عند البخاريِّ، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٣٠٣٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ يوم أحد (٤٠٧٥)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب في غزوة أحد (١٧٩٠) واللفظ له.

(٤) عند ابن أبي شيبه في «المسند» (١١٩) بسند صحيح، وورد نحوه عند الحاكم (٣/ ٢٩) عن عائشة بسند فيه متروك.

للمسلمين على الكفار، فأحاط الكفارُ بالمسلمين، وألقى بعض الصحابة السلاح بالفعل، واستسلموا للموت، وقتل من قتل من الصحابة[(١)]، ومرَّ أنس بن النضر ﵁ بقوم من الصحابة، فوجدهم قد ألقوا السلاح؛ فَقَالَ: مَا يُجْلِسُكُمْ؟ فَقَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ الله ﷺ! قَالَ: «فَماذا تَصْنَعُون بالحيَاة بَعْده؟ قُومُوا فَمُوتُوا على مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ القَوْم، فَقَاتَل حتَّى قُتِل»[(٢)]؛ كُلُّ ذَلِكَ لتَتَعلم الأمةُ بعد الصحابة أن مجرد المخالفة لأمرٍ واحدٍ من أوامر رسول الله ﷺ يكون سببًا في الهزيمة.

أنا أسألُ وأقولُ: كيف وقد خالفت الأمةُ الآن جُلَّ أوامر رسول الله ﷺ؟!

ولذلك لما قال بعضُ الصحابة: كيف نُهزم وقائد المعركة رسول الله ﷺ؟!

كيف نُهزم والمشركون هم أعداؤنا؟ جاء الجواب من الله العليم الحكيم؛ فقال جلَّ من قائل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

قال الإمام أبو عبد الله القرطبي ﵀[(٣)]:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ الألف للاستفهام، والواو للعطف، ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ أي: غلبة ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يوم بدر بأن قتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين، والأسير

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»؛ كما في «سيرة ابن هشام» (٣/ ٣٠)، ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٤٥)، وفي رواية «الصحيحين» البخاري (٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣) من حديث أنس ﵁ قَالَ عَمُّه حين هُزم الناسُ يوم أُحُد: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي المسلمين - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُون، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ الله مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ».

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٦١٠).

في حكم المقتول؛ لأن الآسر يقتل أسيره إن أراد؛ أي: فهزمتموهم يوم بدر، ويوم أحدٍ أيضًا في الابتداء، وقتلتم فيه قريبًا من عشرين، قتلتم منهم في يومين، ونالوا منكم في يوم أحدٍ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ أي: من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل، ونحن نقاتل في سبيل الله، ونحن مسلمون وفينا النبي والوحي، وهم مشركون؟!

﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني: مخالفة الرُّماة، وما من قوم أطاعوا نبيهم في حرب إلا نصروا؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون».

وقال السعديُّ رحمه الله[1]:

«﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللَّوم، واحذروا من الأسباب المُردية ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله؛ فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤].

فلا ينبغي أن تعلق الأمةُ أخطاءها على الحكام، ولا على العلماء، ولا على الأعداء؛ بل يجب على كل مسلم أن ينظر في تقصيره مع ربه؛ وفي خلله هو بينه وبين ربه تبارك وتعالى، ولا تجعل -أيها المسلم- من غيرك مشجبًا، لتعلق عليه أخطاءك وتقصيرك؛ فما عليك إلا أن تبذل ما أمرت به لدين الله، وأن تدع النتائج بعد ذلك لله تبارك وتعالى؛ فليس أحدٌ أغير على الدين من الله، وليس أحدٌ أغير على المسلمين ممن تسفك دماؤهم، وتمزق أشلاؤُهم من ربهم تبارك وتعالى.

فبسبب أن الأمة غَيَّرت وبدَّلت، ولم تأخذ بأسباب النصر والتمكين تحوَّل النصرُ إلى هزيمة، وتحول التمكينُ إلى ضعف وهوان، وتحوَّل العزُّ والكرامةُ إلى ذلة ومهانة، وتحوَّل العلمُ والعلا إلى جهل وتخلفٍ وتأخرٍ؛ ووقعت الهزائمُ العسكريةُ والاقتصاديةُ والسياسيةُ وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٦٦).

تَبۡدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٢].

وقال الله جَلَّ وعَلَا: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾

[فاطر:٤٣].

وقال الله جَلَّ وعَلَا: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ : ١٤٢].

وقال الله جَلَّ وعَلَا: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى:٣٠].

فالأمة تجاهلت سننَ الله في الكون، وتصورت أنها لمجرد انتسابها لخير أمةٍ أخرجت للناس وللمصطفى ﷺ دون امتثال لأمر الله وأمر رسوله، ودون اجتنابٍ لنهي الله ونهي رسوله، ودون وقوفٍ عند حد الله وحد رسوله؛ فلمجرد هذا الانتساب تعتقد أن الله تعالى سينصرها ويكتب لها الغلبة على كل أمم الأرض!! ولكن.. هيهات هيهات؛ فالله تعالى هو رب الكافر والمؤمن على السواء؛ فكما يرزق المؤمنين فإنه يرزق الكفار؛ فهل يتصورُ أحدٌ أن الكافر لو أخذ بذرة وزرعها في التربة التي تناسبها واعتنى بها وسقى الأرض ورعاها، هل تتصور بعد ذلك أن الأرض لن تعطي الكافر الثمر؛ لأنه كافر؟!

والجواب: لا؛ لأن هذا مخالفٌ للسنن الربانية، ولو أن مؤمنًا موحدًا بالله -جَلَّ وعَلَا- وضع البذرة في الأرض وأهملها، ولم يرو الأرض ولم يعتن بالزرع؛ فهل تتصور أن الزرع سيعطيه الثمر؟

والجواب: لا؛ لأنه مخالفٌ للسنن الربانية، فإنْ أَخَذَ الكافرُ بالأسباب رزقه اللهُ وأعطاه نتيجة الأخذ بالأسباب، وإن أخذ المؤمنُ بالأسباب رزقه اللهُ وأعطاه نتيجة

الأخذ بالأسباب، وإن تخَلَّى المؤمنُ عن الأخذ بالأسباب لن يُحَصِّل الثمرة، ولن يُحَصِّل النتيجة، ولن يحقق نصرًا ولا تمكينًا ولا عزًّا ولا استخلافًا في الأرض، ولن يستطيع أن يشق لنفسه طريقًا من العزَّة والمكانة والسيادة والكرامة بين أمم الأرض؛ بل لن تبكي عليه سماءٌ ولا أرضٌ، ولو كان موحدًا لله- جَلَّ وعَلَا-؛ فتلك سنن لا بدَّ أن تحفظها الأمةُ الآن، ولابد أن تعيها وألا تغفل عنها أو تنام! حتى لا نتهم ربنا - جَلَّ وعَلَا - بالظلم أو بأنه خلق الكون وتخَلَّى عنه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

[العنكبوت:٤٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾

[القصص: ٥٩].

فإذا خالفت الأمةُ سننَ الله الربانية التي أودعها الكون؛ فكما قال ﷺ: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[١]، وفي «**الصحيحين**»[٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

وفي «**الصحيحين**»[٣] من حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ**»، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**».

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ (٢٧٥٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ (٢٠٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٧٨٨)، وانظر: (٣٤٧٩)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (١٦٨٨).

لذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٤].

وقال الله- جَلَّ وعَلَا-: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد:٣٨].

وقال - جَلَّ وعَلَا-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

[المائدة: ٥٤ : ٥٦].

إنها سننٌ لا تتغيَّرُ ولا تتبدلُ، وإن الصراع بين الحق والباطل قديمٌ بقدم الحياة على ظهر الأرض، والحرب بينهما سجال، والأيام دول؛ كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠].

والإسلام العظيم منذ أن بزغ فجره واستفاض نوره لازال إلى يومنا هذا مستهدفًا من قبل أعدائه الذين يشنون عليه حروبًا ضارية على كل الجبهات وفي جميع الميادين!! والذين لا يتَّفقُون على شيء قدر اتفاقهم على الكيد للإسلام، واستئصال شأفة المسلمين، ولازال التحدي قائمًا إلى يومنا هذا؛ فمن السنن الربانية الثابتة:

● سنة التدافع بين الحق والباطل: منذ أن خلق اللهُ السموات والأرض، ومنذ خلق آدم وابنيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ قال الله - جَلَّ وعَلَا -: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾[البقرة:٢٥١].

وقال الله - جَلَّ وعَلَا-: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠].

فالصراع بين الحقِّ والباطل، وبين الإيمان والكفر، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين الخير والشر صراعٌ دائمٌ مستمرٌّ لا تهدأ معاركهُ، ولا تخبو جذوته، ولكنَّ الباطل مهما

انتفخ وانتفش كأنه غالب فإنه زاهق، والحق مهما انزوى وضعف كأنه زائل فإنه ظاهر ولو بعد حين؛ قال - جَلَّ وعَلَا -: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال - جَلَّ وعَلَا -: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١٨].

تلك حقيقةٌ مؤكدةٌ، وسنةٌ ثابتةٌ قامت عليها السمواتُ والأرضُ وقام عليها أمرُ المعتقدات والدعوات إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها.

ثم تأتي سنةُ الابتلاء لأهل الحق للتمحيص؛ لأن كثيرًا من الناس يسيرون على الدَّرب مع السَّائرين ما داموا هم يُحصِّلون المكاسب المادية والشهرة، فإذا ما جاءت المحن والفتن ميزت الصفَّ المسلمَ؛ كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فلا يثبت على الطريق إلى الله - جَلَّ وعَلَا - إلا من صفت نفسُهُ، وطهرت سريرتُهُ، وأخلص نيته لله تبارك وتعالى، وكان جديرًا بأن يسير على درب الأنبياء والمرسلين، على طريق نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسائر النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢].

قال ابن القيم في «زاد المعاد» [(١)] :

«إن الله سبحانه اقتضت حكمتُهُ أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبُها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته، ومن لا يصلح، وليمحِّص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكيرِ الامتحان، كالذَّهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشِّه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السَّبك والتَّصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذِّب العبد ونقي، أذن له في دخول الجنة».

نعم.. لا بُدَّ من التمحيص؛ فليس الإيمانُ كلمة تُردَّد باللسان وفقط، ولكن الإيمان قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان، وهو حقيقةٌ ذات تكاليف، وأمانةٌ عظيمةٌ ذات أعباء، ولا يمكن على الإطلاق أن يتعرف العبدُ على حقيقة الإيمان في قلبه إلا إذا تعرَّض للمحن والفتن والابتلاءات؛ فتأتي المحنُ لتصفي الصف، من الذي يثبت على الطريق؟ ومن الذي يظل على الدرب رافعًا للراية؟ وهذه الفئةُ المؤمنةُ هي الفئةُ القليلةُ التي تستحقُّ السيرَ على طريق الرسل والأنبياء؛ فكثيرٌ من الناس لمجرد أنه قد يتعرض لمحنةٍ لا يتورع أن يتنازل عن دينه أو أن يتخلى عن شرف الدعوة إلى الله في مقابل أن يظل محافظًا على شهوةٍ حقيرةٍ أو نزوةٍ رخيصةٍ أو على دنيا زائلةٍ أو كرسيٍّ فانٍ!!!

فإن ثبت أهلُ الإيمان على الدرب بعد هذه المحن والفتن والابتلاءات فهم بموعود الله تبارك وتعالى أهلٌ للنصرة والتمكين والعزِّ والاستخلاف، فكما تَفْتِنُ النارُ الذهبَ لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به[(٢)]، كذلك تصنعُ الفتنُ بالنفوس تصهرها فتنفي عنها الخبث.

وحسْبُ المؤمنين الذين تصيبهم الفتنةُ، ويقع عليهم البلاءُ حسبهم أن يكونوا هم المختارين من الله تعالى؛ ليكونوا أمناء على حق الله ﷻ وعلى دينه.

فالله لا يبتلي ليعذب - حاشا وكلَّا - وإنما يبتلي ليهذب. وهذا الإعدادُ الحقيقيُّ

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩).

(٢) راجع مادة «فتن» من «اللسان» (١٠/ ١٧٨)، و«الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (ص٢٣٠) في «الفرق بين الفتنة والاختبار».

لأهل الإيمان لتحمُّل الأمانة الكبرى، والمسئولية العظمى، والعقيدة العليا؛ فهم في حاجةٍ إلى إعدادٍ خاصٍ لا يتم إلا بالمعاناة، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر على الآلام، وبالثقة المطلقة في الملك العلاَّم، وفي نصره وثوابه رغم طول الفتنة وشدَّة الابتلاء، حتى يُطرد من الصف كل منافقٍ خبيثٍ رفع الراية مع الرافعين، وبكى مع الباكين، ودعا مع الداعين!!

وهكذا جعل الله - جَلَّ وعَلَا - حتى لهذا النصر والعز والاستخلاف والتمكين أسبابًا وشروطًا لا بُدَّ من تحقيقها، وعدم تجاهلها؛ فإن تجاهُلَها سبب آخر من أسباب الهزيمة بعد الهزيمة، والانتكاسة بعد الانتكاسة، والتأخر بعد التأخر في كلِّ ميادين الحياة؛ في الجانب العلمي والاقتصادي والسياسي والعسكري والإعلامي والفكري والتربوي؛ فلابد أن تعي الأمةُ هذه السننَ الربانيةَ في الكون؛ لكي تبدع في كل مجال من هذه المجالات، حتى لا تعتمد على مجرد الانتساب؛ فللتمكين والسعادة والنجاح في الدنيا والآخرة شروط لابدَّ من استيفائها وعدم إهمالها.

ولا تستطيع أيُّ قوة على وجه الأرض أن تنصر أو تعز أو تمكن للأمة إلا إذا شاء الله تبارك وتعالى؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:١٢٦]

وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٠]؛ فلو صدَّقت الأمةُ هذه الآيةَ لكفى، ولو حوَّلتها الأمةُ إلى منهج حياة لكفى؛ فوالله لو امتلكت الأمةُ عدةَ وعدد أهل الأرض وخذلها ربُّ السماء والأرض لن تنصر ولن تسعد في الدنيا والآخرة، وإن نصرها الله - جَلَّ وعَلَا - فلن تستطيع قوةٌ على وجه الأرض مهما امتلكت من العَدَدِ والعُدَّةِ والسِّلَاحِ والمالِ أن تخذلها وتهزمها ما دامت قد استعانت بالله، وبذلت الأسباب التي قد أمَرَها الله بها في حدود قدراتها وإمكاناتها.

فلا بُدَّ من الأخذ بأسباب الإبداع والتفوق في الجانب العلمي والعملي وفي كلِّ مجالات الحياة.

وها هو النبيُّ ﷺ يعلِّم الأمةَ كلَّها في شخصه الطاهر كيف كان يأخذ بالأسباب

ويعمل بهذه السنن الجارية، فحين اجتمع البرلمانُ الشركيُّ في دار الندوة بمكة[1] ؛ لاتّخاذ أخطر قرار عرفته البشريةُ؛ ألا وهو قتل سيد البشرية ﷺ، للقضاء على تيار نور هذه الدعوة نهائيًّا، ولكن هيهات هيهات؛ فكما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

[الأنفال:٣٠]

فلما خطَّطُوا لقتله ﷺ، خطَّط النبي ﷺ للهجرة[2]، وأَخذ بكلِّ أسباب الحيطة والحذر؛ فلقد أمر النبيُّ ﷺ عليًّا رضي الله عنه أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطَّلعون من صِير الباب ويرصدونه، ويريدون بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها [3] !!

ففي «مسند» **أحمد**، و «مصنف» **عبد الرزاق** [4] وغيرهما بسندٍ حسَّنه الحافظان ابن كثير وابن حجر -رحمهما الله- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [الأنفال:٣٠] قال: «قَالَ تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ؛ فَقَالَ

---

(١) راجع: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٨٠) [مؤامرة قريش على رسول الله ﷺ]، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦)، باب مكر المشركين برسول الله ﷺ وعصمة الله رسوله وإخباره إياه بذلك حتى خرج مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه مهاجرًا، و«زاد المعاد» (٣/ ٥٠).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٧٥): «وقد كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته ﷺ، وذلك في يوم الاثنين؛ كما رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٧) بسند فيه ابن لهيعة من حديث ابن عباس قال: «ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين»، وله شاهدٌ عند ابن أبي شيبة عن ابن عباس وجابر. قال ابن كثير (٣/ ١٠٧): «وفيه انقطاع»، وجزم ابن إسحاق بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول. «الفتح» (٧/ ٢٦٨).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٥١، ٥٢).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٨)، وعبد الرزاق (٥/ ٣٨٤)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٠٧)، وابن أبي عمر العدني في «مسنده» كما في «إتحاف الخيرة» (٦/ ٦٩) قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٠): «رواه أحمد والطبراني وفيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح»، والحديث حسَّنه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٧٩)، وابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٧٨).

بَعْضُهُمْ: إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ. يُرِيدُونَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ اقْتُلُوهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ. فَأَطْلَعَ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَبَاتَ عَلِيٌّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى لَحِقَ بِالغَارِ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسَبُونَهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ؛ فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللهُ مَكْرَهُمْ، فَقَالُوا: أَيْنَ صَاحِبُكَ هَذَا؟ قَالَ لاَ أَدْرِي، فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ خُلِّطَ عَلَيْهِمْ، فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ، فَمَرُّوا بِالغَارِ فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ، فَقَالُوا: لَوْ دَخَلَ هَا هُنَا لَمْ يَكُنْ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ. فَمَكَثَ فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ».

فلم يدع النبيُّ ﷺ سببًا من أسباب التوكل على الله إلا وأخذ به، وعليه فالمفترض أن المتجه من مكة إلى المدينة لابد أن يتجه شمالًا؛ لكنه ﷺ اتَّجه جنوبًا؛ لأن المطاردين سيبحثون في كلِّ الطرق التي تؤدي إلى المدينة، فليتجه النبيُّ ﷺ جنوبًا؛ وليمكث في الغار حتى تهدأ حركةُ الباحثين عنه بين الصخور والجبال؛ بل وحتى بين حبَّات الرمال!! وبالفعل يمكث النبيُّ ﷺ ثلاث ليال وعبد الله بن أبي بكر يبيت في مكة يسمع الأخبار، وفي جوف الليل ينطلق إلى النبيِّ ﷺ ليخبره بما خطط به وله المشركون، وقبل أن يصبح الصباح يكون في مكة، ليصبح بين أهلها وكأنه بات بينهم، وعامر بن فهيرة يأتي بالأغنام؛ لتزيل بآثار أقدامها آثار أقدام النبي ﷺ وصاحبه، وأسماء تأتي بالزاد، وعبد الله ابن أريقط مشرك؛ لكنه خبير بالطرق - وقد تأكد النبيُّ ﷺ من أمانته - ليدلَّ النبيَّ ﷺ وصاحبه على أقرب الطرق المؤدية إلى المدينة - إلى يثرب - وهذا هو الأخذ بالأسباب؛ ولا ينبغي على الإطلاق أن نفهم التوكلَ على غير هذا؛ فالتوكل على الله هو جماع الإيمان، وهو نهاية التحقيق في التوحيد، وهو صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب؛ فلم يدع النبيُّ ﷺ من الأسباب شيئًا، ومع ذلك في لحظة من اللحظات انقطعت هذه الأسباب؛ فهاهم المشركون يحاصرون الغار من كل ناحية، والصديق في حوار هامس وَجِلٍ يقول؛ كما في «**الصحيحين**»[(١)] من حديث أبي بكر الصديق ﷺ قال: نَظَرْتُ إِلَي أَقْدَامِ المشْرِكين على رؤوسِنَا ونَحْنُ فِي الغَارِ فقُلْتُ: يَا رسُول الله، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: «**يا أَبَا بَكْرٍ! ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا؟**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الأنصار وفضلهم (٣٦٥٣)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨١) واللفظ له.

وفي روايةٍ للبخاري:(١) عن أبي بكر ﷺ قال: كُنْتُ معَ النَّبيِّ ﷺ في الغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ القَوْمِ، فقُلْتُ: يا نَبِي الله، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا، قَالَ: «**اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»، إنه قَلْبٌ مُطْمَئِنٌّ مَوْصولٌ بِرَبِّه تبارك وتعالى.

وفي روايةٍ مرسلةٍ عن الحسن البصري قال (٢):

انطلق النبي ﷺ وأبو بكر في الغار، وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحدٌ، وكان النبي ﷺ قائمًا يصلي وأبو بكر يرتقب؛ فقال أبو بكر للنبيِّ ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أئل، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره؛ فقال النبيُّ ﷺ: «**يا أَبَا بَكْرٍ لا تَخَفْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**».

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠]؛ فما تعبدنا الله تعالى إلا بالأخذ بالأسباب، ولكن شتان بين المؤمن وغير المؤمن؛ فالمؤمن يأخذُ بالأسباب وهو على يقين مطلق أن الله تعبده بها؛ لكنه يعلم أنها وحدها لا تضر ولا تنفع؛ فكل شيء يجري في الكون بقدر الله وتدبيره؛ فالنصر والعزة من عنده؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، والتمكين منه تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٢٢).

(٢) أخرجه أبو بكر أحمد بن على بن سعيد القاضي المروزي في «مسند أبي بكر» كما في «البداية والنهاية» (٣/ ١٧٩)، و«الفتح» (٧/ ٢٧٩)، وقال ابن كثير: «وهذا مرسلٌ عن الحسن، وهو حسنٌ بحاله من الشاهد، وفيه زيادةُ صلاة النبي ﷺ في الغار، وقد كان ﷺ إذا أحزنه أمر صلى».

وقال تعالى في حقِّ ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٤].

وهنا نقفُ وقفةً متأنيةً كريمةً مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فالتمكين من الله ﷻ، لا يسودُ حاكمٌ، ولا يزولُ حاكمٌ، ولا تسودُ دولةٌ، ولا تزولُ دولةٌ إلا بأمر مالك الملك، وملك الملوك، وأحكم الحاكمين، ورب العالمين، لا تعتقد أن هناك حاكمًا يظهر في زمن من الأزمنة بعيدًا عن قدر الله، قد يبرز ويسود حاكمٌ من الحكام لا لشيء فيه هو، لا لقدرةٍ ذاتيةٍ فيه، وإنما لقدرٍ يريدُه ربُّ العالمين ﷻ.

تدبر القاعدة البيانية التي تؤصل هذه القاعدةَ الإيمانيةَ التي يجبُ أن تُرسَّخ في القلوب؛ قال ﷻ: ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران:٢٦].

فلا بُدَّ أن تُرسخ هذه العقيدةُ في قلوبنا، وكلُّ شيء في الكون لا يقع إلا بتقدير الله وحكمته، فإن غابت عنا الحكمةُ، فهي لا تغيب عن أحكم الحاكمين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

فذو القرنين مكَّن اللهُ له: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٤]، آتاه الله أسباب القوة والنصر والتمكين والفتح ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: أخذ هذا الحاكمُ العادلُ الموحدُ بأسباب القوة والنصر والتمكين، ولم يفرِّط في الأخذ بالأسباب، لقد آتاه اللهُ الأسباب فاعتنى بها وقدَّرها، وأخذ بها، وحوَّلها في دنياه، وفي واقعه إلى واقع عملي، وإلى منهج حياة؛ فكان أخذه بأسباب الفتح سببًا من أسباب تمكين الله ﷻ له في الأرض.

وفي «**صحيح مسلم**»[1] من حديث أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ، وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ** - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - **لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا**

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام» (١٧٩).

انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ الله يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر: ٦٧]؛ فبعد تحقيق هذه السنن الثابتة من الأخذ بالأسباب، وتصحيح العقيدة، وترسيخ الإيمان في القلوب يأتي التمكينُ والاستخلافُ في الأرض للمؤمنين؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧]، ولم يقل الكسالى النائمين أو المقصرين؛ بل ولم يقل المسلمين؛ فيجب أن تحقق الأمةُ الإيمان على مراد الله وعلى مراد رسول الله ﷺ ؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]؛ ولكن قد يسأل سائلٌ:كيف أنصرُ الله تعالى؟

والجواب في آية كريمة جامعة؛ قال الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:٣٩:٤١]؛ وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

فيجبُ علينا أن ننصر الله بامتثال أوامره، وباجتناب نواهيه، وبالوقوف عند حدوده، واتباعِ أوامر رسوله ﷺ.

فلابد من الإعداد الإيماني: التعبدي والأخلاقي والعلمي والتعليمي والإعلامي

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾[الزمر:٦٧] ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

والثقافي والاقتصادي والعسكري والتربوي؛ من أجل أن تحقق الأمة النصر، وتجني الثمرةَ، يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال:٦٠].

فالهزيمةُ النفسيةُ التي تشل الفكرَ فضلًا عن الحركة لا يمكن على الإطلاق أن تجني الأمةُ بسببها نصرًا ولا كرامةً؛ فلابد أن تعي الأمةُ هذه السننَ الثابتةَ، ثم فلتعلم الأمة - كما قلت وأقول ذلك مرارًا وتكرارًا:

أن مخالفة أوامر الله - جَلَّ وعَلَا - والوقوع في الذنوب والمعاصي من أخطر أسباب الذل والهلاك وهوان الأمم؛ قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

قال ابنُ المبارك:

رأيتُ الذُّنوبَ تُميتُ القُلوبَ ... وقَدْ يُورِثُ الذُّل إدْمَانُها

وتَرْكُ الذُّنُوب حَيَاةُ القُلوبِ ... وخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُها[1]

وقد روى ابن ماجة، والحاكم، والطبراني وغيرهم بسندٍ صحيحٍ[2] عن عبد الله بن

(١) سبق عزوها.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات (٤٠١٩)، وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٣٢٧)، والحاكم (٤/ ٥٨٢)، وصححه، ووافقه الذهبيُّ، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٤٦)، و«الأوسط» (٤٦٧١)، وفي «مسند الشاميين» (١٥٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٣)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١١)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣١٤، ١٠٥٥٠)، والروياني في «مسنده» (١٤٢٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/ ٢٦٠)، وأخرجه الحاكم (٢/ ١٢٦)،والبيهقي (٣/ ٣٤٦) عن بريدة ﷺ مرفوعًا، وللحديث شواهد صححه بها الألباني في «الصحيحة» (١٠٦، ١٠٧)؛ بل وصححه كذلك الهيتميُّ في «الزواجر» (١/ ٣٢٨)، والبوصيري في «الإتحاف» (٢٠٤٩).

عمر ﷺ قال: كُنْتُ عَاشِرَ عَشَرَةٍ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ جَبَلٍ، وَحُذَيْفَةُ، وَابْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَأَنَا، فَقَامَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**». قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ**»، ثُمَّ سَكَتَ الْفَتَى، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِالله أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ الله، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**».

ثُمَّ لابُدَّ من أن نتذلل بعد ذلك إلى الله تبارك وتعالى ونتضرع إليه بالدعاء، وأن نتبرأ من حولنا وقوتنا مع الأخذ بالأسباب؛ قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

ومن السنن الجارية أن اللهَ ينصرُ الحقَّ ولو بعد حين، وكثيرٌ من الناس ينظرون إلى واقع الأمة على أنه لا يمكن على الإطلاق أن يتغير، ولا يمكن للأمة أن تُنصر، ولا يمكن للدين أن يسود في ظل هذا الواقع الأليم!!

ولكن هذه النظرةَ التشاؤميَّةَ مخالفةٌ للنصوص الشرعية وللتاريخ المشرق المضيء؛ فَلَكَمْ مَكَّن اللهُ للأمة، ونصرها، وفتح لها البلدان والأمصار - بعد أن كانت شتاتًا متفرقةً - بفضل إيمانها بربها ونبيها ﷺ وتمسكها بالكتاب والسنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

وقد بشَّر النبيُّ ﷺ الأمةَ بالنصر والتمكين؛ فقد روى **أحمد، وابن أبي شيبة، والنسائي في «الكبرى»، والبيهقي في «الدلائل» بسندٍ حسَّنه الحافظ ابن حجر**[1] عن البَراء بن عازب رضي الله عنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَعُرِضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لاَ تَأْخُذُ فِيهَا الْـمَعَاوِلُ، فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ؛ فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ - قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ - ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ؛ فَقَالَ: «**بِسْمِ الله**». فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَالله إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْـحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**». ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ الله**». وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ؛ فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَالله إِنِّي لأُبْصِرُ الْـمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**». ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ الله**». وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ؛ فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَالله إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

لذا أعيدُ القولَ مرَّة أخرى بأنَّ هذِه سننٌ لابُدَّ من أن تعيها الأمةُ، وأن تعملَ بها، كما أمر اللهُ ورسولُهُ ﷺ؛ فإن تجاهل هذه السنن سببٌ خطيرٌ من أسباب هزائمنا وتخلفنا وتأخرنا في كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة؛ فلتأخذ الأمةُ بأسباب الإبداع والنصر والعز والاستخلاف والتمكين والتفوق والنجاح في كلِّ المجالات، وأن تعلق قلوبها بعد ذلك بمسبب الأسباب - جل جلاله -، وإلا فلن تستطيع أن تشقَّ لنفسها طريقًا من العزَّة والمكانةِ والسيادة والكرامة وسط عالمٍ معاصرٍ لا يحترم إلا الأقوياء، وهذا لن يكون إلاَّ بالعلم والعمل معًا؛ أسأل الله - جَلَّ وعَلَا - أن يبصرنا، وأن يردَّ أمتنا إلى الحق ردًّا جميلًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

*****

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٣٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٥٨)، وأبو يعلى (١٦٨٥)، والروياني في «مسنده» (٤١٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (١/ ٣٩١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٢١)، والخطيب في «تاريخه» (١/ ١٣١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٨٩): «رواه أحمد، وفيه ميمون أبو عبد الله، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات»، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٥٠٥)، ووافقه الألباني في «فقه السيرة» (٢٩٧).





الاكْتِئَاب

الاكتئاب

أبتدأُ هذا الفصلَ بهذه الكلمات التي طالماذكَّرت لها؛ فأقول: لا ينبغي أن يكون العلماءُ والدعاةُ إلى الله بموضوعاتهم وأطروحاتهم في حقل الدعوة المبارك في وادٍ، وأن تكون البشريةُ عامة والأمة خاصة بمشكلاتها وأزماتها في وادٍ آخر.

لقد طالعتُ خبرًا مؤلـمًا في جريدة الأهرام الرسمية منذ أيام قلائل، ففزعت لأجله فزعًا شديدًا!! حين قرأت أن أكثر من مليون مسلم في بلدنا الحبيبة مصر مصابون بمرض «الاكتئاب»، وأكثر من مائة مليون وثلاثمائة ألف في العالم كلِّه مصابون كذلك بنفس المرض!!! وفوجئت بأن مرض «الاكتئاب» هو المرض الثاني بعد أمراض القلب على مستوى كوكبنا الأرضي!!

فأعلى نسبة موجودة الآن في المرضى: المبتلون بأمراض القلب؛ أسأل الله أن يشفي صدورَنا وأمراضَ قلوبنا، وإذ بمرض «الاكتئاب» يحتل المرتبةَ الثانيةَ من بين هذه الأمراض!!

فلقد بلغ (٣١٪) من عدد الحالات النفسية في أوربا وأمريكا، و(٢٥٪) في مصر من المصابين بالمرض بحالات اكتئاب.

فأردت في هذا الفصل أن أقف مع هذا الداء العضال، ومع هذا الشر والوبال؛ لنُسْمِعَ الأمةَ عن الله ورسوله في كل داء؛ لنُشخِّص الداء بدقة وأمانة، ولنحدِّد كذلك الدواء لهذا الداء بدقةٍ وأمانةٍ من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ؛ لأن كثيرًا من الناس يتصور أنه لا دواء لهذه الأمراض العصرية في القرآن والسنة؛ بل وقد يستغرب بعضهم ويتساءل: ما علاقة الدين بالاكتئاب؟!!!

أتريدون – أيها الدعاة – أن تُدْخلوا أنوفكم في كل شيء؟!!!

وما من قضية من القضايا التي تمتُّ إلى الدين أَوْ لا تَمُتُّ إلى الدين إلا ونسمع منكم طرحًا وحديثًا عنها، وكأنه لا حلَّ لها ولا علاج ولا دواء إلا في كتاب ربِّ

الأرض والسماء، وفي سنة وشرع إمام الأنبياء وسيد الأتقياء؟!!!

والجواب: بلى، ونقول ذلك بأعلى الصوت، وملء الفم، وبكل ثقة واطمئنان؛ فالبشرية عامة تهذي كالسكران، وتضحك كالمجنون، وتجري كالمطارد؛ تئن من الألم؛ وقد أحرقها لفح الهاجرة القاتل، وأرهقها طولُ المشي فيه التيه والظلام، وأضناها السيرُ في طريق الضلال، حرمت من الأمن، وراحت تبحث عنه وسط الركام؛ رغم كثرة الوسائل الأمنية الحديثة، والتخطيط العلمي والنفسي لمحاربة الجريمة!

وحرمت من راحة الضمير، وانشراح الصدر، وطمأنينة النفس؛ رغم كثرة الوسائل العلمية والطبية الحديثة!!

نعم.. تعيش في ضيق ونكد رغم الحدائق الغنَّاء، والبساتين الخضراء، تعيش في ضنك وفقر رغم كثرة الأسواق، وضخِّ المليارات من الدولارات؛ فكثيرٌ يموت جوعًا، وكثيرٌ يفترش الأرض، ويلتحف السماء!! فهي تبحث عن مخرج وعن دواء، بل وتبحث عن أيِّ شيء، وهي في الحقيقة تملك من الماديات ووسائل الحياة الدنيا كلَّ شيء، ولكنها حين أعرضت عن منهج الله وشرعه قد فقدت كل شيء!!

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٣ – ١٢٧].

فالحياة البشرية من خلق الله، ولن تُفتح مغاليقُ فطرتها إلا بمفاتيح من عند الله، ولن تُعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يُقدَّم لها من الله بيد الطاهر الصادق رسول الله صلى الله عليه وآله ومن والاه.

كلماتٌ هامةٌ أرجو أن تُحفَر في القلوب والعقول.. ويَخفُّ أَلمي، ليقيني أن جُلَّ الأمة ستستمع إلى هذه الكلماتِ؛ لأنني لا أودُّ أن تكون كلماتي هذه محصورةً في هذا السِّفْر الكريم فحسب؛ بل وددتُ أن لو أسمعتُ كلَّ مسلم في الأمة، وكلَّ مسلمة في الأمة على انفراد وحده: أنه لا يوجدُ داءٌ إلا وله دواء عند رب الأرض والسماء، إلا وله دواء

في شرع سيد الأنبياء ﷺ؛ فلقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مَا أَنْزَلَ الله دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**»[(١)]. هذا كلام الصادق المصدوق ﷺ؛ فهل تصدقون الصادق؟!

وفي «**صحيح**» **مسلم**[(٢)] عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءَ بَرَأَ بِإِذْنِ الله عَزَّ وَجَلَّ**».

ولاحظ أن لفظة «داء» ذكرها النبيُّ ﷺ في الحديث نكرة، والنكرة في السياق تفيد الشمول والعموم.

وفي «**مسند**» **أحمد**، و«**سنن**» **ابن ماجة**[(٣)] عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ عز وجل لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ، مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**».

قال ابنُ القيم رحمه الله[(٤)]: «فقد تضمَّنت هذه الأحاديثُ إثبات الأسباب والمسبِّبات، وإبطالَ قولِ مَن أنكرها، ويجوزُ أن يكون قوله: «**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ**»، على عمومه حتى يتنَاول الأدواءَ القاتِلة، والأدواء التى لا يُمكن لطبيب أن يُبرئها، ويكون الله عز وجل قد جعل لها أدويةً تُبرئها، ولكن طَوَى عِلمَها عن البَشَر، ولم يجعل لهم إليه سبيلًا؛ لأنه لا عِلم للخلق إلا ما علَّمهم الله، ولهذا علَّق النبيُّ ﷺ الشِّفاءَ على مصادفة الدواء لِلداء، فإنه لا شيءَ من المخلوقات إلا له ضِدّ، وكلُّ داء له ضد من الدواء يعالَج بضدِّه، فعلَّق النبيُّ ﷺ البُرءَ بموافقة الداء للدواء، وهذا قدرٌ زائدٌ على مجرد وجوده، فإنَّ الدواء متى جاوز درجة الداء فى الكيفية، أو زاد فى الكمية على ما ينبغي، نَقَلَه إلى داء آخر، ومتى قصر عنها لم يَفِ بمقاومته، وكان العلاج قاصرًا، ومتى لم يقع المُداوِي على الدواء، أو لم يقع الدواء على الداء، لم يحصُل الشفاء، ومتى لم يكن الزمان صالحًا لذلك الدواء، لم

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (٢٢٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٧، ٤١٣، ٤٤٣، ٤٤٦، ٤٥٣)، والحميدي (٩٠)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٨)، وأبو يعلى (٥١٨٣)، والحاكم (٤/ ١٩٦، ١٩٧) و (٤/ ٣٩٩)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٣١) و«الأوسط» (٧٠٣٦)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٣٤٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٥١).

(٤) «زاد المعاد» (٤/ ١٤- ١٧).

ينفع، ومتى كان البدنُ غيرَ قابل له، أو القوةُ عاجزةً عن حمله، أو ثَمَّ مانعٌ يمنعُ من تأثيره، لم يحصل البُرء لعدم المصادفة، ومتى تمت المصادفةُ حصلَ البرءُ بإذن الله ولا بُدَّ، وهذا أحسنُ المحملَيْن في الحديث.

والثانى: أن يكون مِن العام المراد به الخاصُ، لا سيما والداخل في اللَّفظ أضعاف أضعافِ الخارج منه، وهذا يُستعمل فى كل لسان، ويكونُ المراد أنَّ الله لم يضع داءً يَقْبَلُ الدواء إلا وضع له دواء، فلا يَدخل في هذه الأدواء التي لا تقبل الدواء، وهذا كقوله تعالى في الرِّيح التي سلَّطها على قوم عاد: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥] أي: كل شيءٍ يقبلُ التدمير، ومِن شأن الرِّيح أن تدمِّره، ونظائرُه كثيرة.

ومَن تأمَّل خلْقَ الأضداد في هذا العالَم، ومقاومةَ بعضِها لبعض، ودفْعَ بعضِها ببعض، وتسليطَ بعضِها على بعض، تبيَّن له كمالُ قدرة الرب تعالى، وحِكمتُه، وإتقانُه ما صنعه، وتفرُّدُه بالربوبية، والوحدانية، والقهر، وأنَّ كل ما سواه فله ما يُضاده ويُمانِعُه، كما أنه الغنيُّ بذاته، وكُلُّ ما سِواه محتاجٌ بذاته.

وفي الأحاديث الصحيحةِ الأمرُ بالتداوي، وأنه لا يُنَافي التوكلَ، كما لا يُنافيه دفْع داء الجوع، والعطش، والحرّ، والبرد بِأضدادها، بل لا تتم حقيقةُ التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نَصَبها الله مقتضياتٍ لمسبَّباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقَدَحُ في نفس التوكل، كما يَقْدَحُ في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن مُعطِّلُها أنَّ تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجزاً يُنافي التوكلَ الذي حقيقتُه اعتمادُ القلب على الله في حصولِ ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفْع ما يضرُّه في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب؛ وإلا كان معطِّلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبدُ عجزه توكلاً، ولا توكُّلَه عجزًا.

وفيها رد على مَن أنكر التداوي، وقال: إن كان الشفاء قد قُدِّرَ، فالتداوي لا يفيد، وإن لم يكن قد قُدِّرَ، فكذلك. وأيضاً، فإنَّ المرض حصل بقَدَر الله، وقدَرُ الله لا يُدْفَع ولا يُرد، وهذا السؤال هو الذى أورده الأعراب على رسول الله ﷺ. وأما أفاضلُ الصحابة، فأعلَمُ بالله وحكمته وصفاتِه من أن يُورِدوا مِثْلَ هذا، وقد أجابهم النبيُّ ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدويةُ والرُّقَى والتُّقَى هي مِن قَدَر الله، فما خرج شيءٌ عن

قَدَره، بل يُرَدُّ قَدَرُه بقَدَرِه، وهذا الرَّدُّ مِن قَدَره. فلا سبيلَ إلى الخروج عن قَدَرِه بوجه ما، وهذا كردِّ قَدَرِ الجوع، والعطش، والحرِّ، والبرد بأضدادها، وكردِّ قَدَرِ العدُوِّ بالجهاد، وكلٌّ من قَدَرِ الله: الدَافِعُ، والمدفوعُ، والدَّفْعُ.

ويقال لمُورِدِ هذا السؤال: هذا يُوجبُ عليك أن لا تُباشر سبباً من الأسباب التى تَجلِبُ بها منفعة، أو تَدَفعُ بها مضرَّة، لأن المنفعة والمضرَّة إن قُدِّرَتا، لم يكن بدٌّ من وقوعهما، وإن لم تُقدَّر لم يكن سبيلٌ إلى وقوعهما، وفي ذلك خرابُ الدِّين والدنيا، وفسادُ العالَم، وهذا لا يقوله إلا دافعٌ للحق، معانِدٌ له، فيَذكر القَدَرَ ليدفعَ حُجةَ المُحقِّ عليه، كالمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، و﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]؛ فهذا قالوه دفعاً لحُجَّة الله عليهم بالرُّسُل.

وجوابُ هذا السائل أن يُقال: بقي قسمٌ ثالث لم تذكره، وهو أنَّ الله قَدَّر كذا وكذا بهذا السبب؛ فإن أتيتَ بالسَّبب حَصَلَ المسبَّبُ، وإلا فلا.

فإن قال: إن كان قَدَّر لي السَّببَ، فعلتُه، وإن لم يُقدِّره لي لم أتمكن من فعله.

قيل: فهل تقبل هذا الاحتجاجَ من عبدِك، وولدِك، وأجيرِك إذا احتَجَّ به عليك فيما أمرتَه به، ونهيتَه عنه فخالَفَك؟، فإن قبلته، فلا تَلُمْ مَنْ عصاك، وأخذ مالك، وقَذفَ عِرْضَك، وضيَّع حقوقَك، وإن لم تَقبلْه، فكيف يكونُ مقبولاً منك في دفع حُقوق الله عليك.. وقد رُوي في أثر إسرائيلي: «أنَّ إبراهيمَ الخليلَ قال: يا ربِّ؛ مِمَّن الدَّاء؟ قال: مِنِّي. قال: فمِمَّنْ الدَّوَاءُ؟ قال: مني. قال: فَمَا بَالُ الطَّبِيبِ؟ قال: رَجُلٌ أُرْسِلُ الدَّوَاءَ عَلَى يَدَيْهِ».

وفى قوله ﷺ: «**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاء**»، تقويةٌ لنفس المريضِ والطبيبِ، وحثٌّ على طلبِ ذلك الدواءِ والتفتيشِ عليه، فإنَّ المريض إذا استشعرتْ نفسُه أن لِدائه دواءً يُزيله، تعلَّق قلبُه بروح الرجاء، وبَردت عنده حرارة اليأس، وانفتَحَ له بابُ الرجاء، ومتى قَويتْ نفسُه انبعثتْ حرارتُه الغريزية، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويتْ هذه الأرواح، قويت القُوَى التي هي حاملةٌ لها، فقهرت المرضَ ودفعتْه. وكذلك الطبيبُ إذا علم أنَّ لهذا الداءِ دواءً أمكنه طلبُه والتفتيشُ عليه.

وأمراضُ الأبدانِ على وِزَانِ أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضاً إلا جعل له شفاءً بضده، فإنْ علمه صاحبُ الداء واستعمله، وصادف داءَ قلبِه، أبرأه بإذن الله تعالى».

ثم أضاف ابن القيم قائلًا[1]:

«وكان علاجه ﷺ للمرض ثلاثة أنواع:

أحدها: بالأدوية الطبيعية.

والثاني: بالأدوية الإلهية.

والثالث: بالمركب من الأمرين.

ونحن نذكر الأنواع الثلاثة من هديه ﷺ، فنبدأ بذكر الأدوية الطبيعية التى وصفها واستعملها، ثم نذكر الأدوية الإلهية، ثم المركبة.

وهذا إنما نشير إليه إشارة، فإن رسول الله ﷺ إنما بُعث هاديًا، وداعيًا إلى الله، وإلى جنته، ومعرِّفًا بالله، ومبينًا للأمة مواقع رضاه وآمرًا لهم بها، ومواقع سخطه وناهيًا لهم عنها، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم، وأخبار تخليق العالم، وأمر المبدأ والمعاد، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها، وأسباب ذلك.

وأما طبُّ الأبدان؛ فجاء من تكميل شريعته، ومقصودًا لغيره، بحيث إنما يستعمل عند الحاجة إليه، فإذا قدر على الاستغناء عنه، كان صرف الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح، وحفظ صحتها، ودفع أسقامها، وحمايتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدًّا، وهى مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة؛ وبالله التوفيق».

فلا بد وحتمًا أنه ما من داء إلا وله دواء، وهذا يعرفهُ العلماءُ الأتقياء الأصفياء. أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم بِمَنِّه وكَرَمِهِ.

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٤).

فتعالوا بنا لنقف مليًّا مع الاكتئاب، أسأل الله أن يحفظني وإياكم من الاكتئاب، ومن جميع الأمراض؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

○ وأستهلُّ ذلك ببيان معنى الاكتئاب في لسان العرب؛ فأقول:

● **الاكتئاب لغة:** «(كأب) الكآبةُ: سُوءُ الحالِ والانكِسارُ من الحُزن؛ كَئِبَ يَكْأَبُ كَأْباً وكأْبةً وكآبة، كنَشْأَةٍ ونشاءة، ورَأْفَةٍ ورَآفة، واكْتَأَبَ اكتِئاباً: حَزِنَ واغْتَمَّ وانكسر فهو كَئِبٌ وكَئِيبٌ، والكآبةُ: تَغَيُّر النَّفْس بالانكسار مِن شِدَّةِ الهمِّ والحُزْن»[١].

●● **والكآبة:** «تتولَّدُ من حصول الحب وفوت المحبوب، فتحدث بينهما حالة سيئة تسمى الكآبة»[٢].

فالاكتئاب مرضٌ نفسيٌّ يصيبُ صاحبه بالهموم، والأحزان، والآلام، والأسقام؛ فهو يصيب النفس، والقلب، والروح، والبدن في آنٍ. ولذلك أعجبُ لهذه الكلمات النبوية البليغة، التي جمع بينها النبيُّ ﷺ في سياقٍ واحدٍ؛ ففي «**صحيح**» **البخاري**[٣] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**».

قال البغويُّ رحمه الله[٤]: «وأكثر الناس على أن لا فرق بين الهم والحزن، وهما متقاربان، إلا أن الحزن يكون على أمر قد وقع، والهم فيما يتوقع ولم يكن بعد».

قال ابن بطال رحمه الله[٥]:

«وكذلك الهم والحزن لا ينبغي للمؤمن أن يكون مهمومًا بشيء من أمور الدنيا، فإن الله تعالى قد قدَّر الأمور فأحكمها، وقدَّر الأرزاق، فلا يجلب الهمُّ للعبدِ فى الدنيا خيرًا، ولا يأتيه بما لم يقدر له، وفي طول الهمِّ قِلَّة رضًا بقدر الله وسخطه على ربِّه.

---

(١) «لسان العرب» (١٢/ ٥)، و«تاج العروس» (٤/ ٩٢)، و«النهاية» (٢/ ٥١٣).
(٢) «روضة المحبين» لابن القيم (ص: ٣٧).
(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة (٢٨٩٣).
(٤) «شرح السنة» (٥/ ١٥٦)، وراجع: «فتح الباري» (١١/ ١٧٨)، و«فيض القدير» (٢/ ١٩١).
(٥) «شرح صحيح البخاري» (١٠/ ١٢٠) لابن بطال رحمه الله.

وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: اللهم رضني بالقضاء، وحبِّبْ إليَّ القدر حتى لا أُحب تقديم ما أخرت ولا تأخير ما قدَّمت.

ومن آمن بالقدر فلا ينبغي له أن يهتم على شيء فاته من الدنيا، ولا يتهم ربَّه ففيما قضى له الخيرة، وإنما ينبغي للعبد الاهتمام بأمر الآخرة، ويفكر في معاده وعرضه على ربِّه، وكيف ينجو من سؤاله عن الفتيل والقطمير، ولذلك قال ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**». فهاهنا يحسن الهم والبكاء».

فالاكتئاب يصيب صاحبه بالهموم والأحزان، والآلام والأسقام!

وقد جمعتُ أكثر من خمسة وأربعين عَرَضًا من أعراض الاكتئاب، ولا يتسع المقام لذكر جميعها.

إلا أن من أخطر أعراض الاكتئاب: الهروب من الواقع! ولكن إلى أين؟!!

إلى مستنقع المخدرات!!!

أو إلى المواقع الإباحية القذرة النجسة على الإنترنت!!!

أو إلى غرف الشات، أوما يعرف بغرف الدردشة!!!

أو الهروب إلى صحبة السوء!!!

أو الهروب إلى المقاهي أو إلى الشوارع!!!

هروبٌ من الواقع بأيِّ صورة من صور الهروب.. لأن المكتئب محبَطٌ؛ بل ويتحول بعد هذا الإحباط إلى حالة من حالات التمرُّد!!

التمرد على البيت، وعلى الوالدين، وعلى المجتمع، وعلى القيم والأخلاق، والظلم الاجتماعي (الأسود!!)، ليصل في المرحلة قبل الأخيرة إلى التمرد على (الذات!!)؛ ألا تسمع من يقول: إن فلانًا كارهٌ نفسه وذاته؟!

ثم يصلُ حتمًا في نهاية المطاف إلى آخر مرحلةٍ من مراحل التمرد؛ ألا وهي: التمرُّد على الله جَلَّ وعَلَا!!

ثم من أخطر أنواع الاكتئاب: العزلة الشعورية بكلِّ صورها وأشكالها المادية والمعنوية؛ فالعزلة الشعورية عزلةٌ معنويةٌ؛ لكنها لا تتوقف عند هذا الحد، وإنما تنعكس على العزلة عن المجتمع، فالمكتئب يريد أن يكون وحْدَه، يريد أن يقضي جُلَّ الوقت نائمًا، لا يريد أن يكلِّم أحدًا، ولا يريد أن يسمع أحدًا، ولا يريد أن يشارك أحدًا، ولا يريد أن يشارك مجتمعه في أيِّ عملٍ فعَّال؛ لأنه سلْبِيٌّ.

وهذه أخرى من أعراض الاكتئاب: السلبيةُ القاتلة!!

فالمكتئب لا يريد أن يقضي أو أن يشغل وقت فراغه بعملٍ للدين أو بعمل للدنيا؛ فهو يعيش في بحورٍ من الأوهام، وفي بحورٍ من الخيالات.

ولا أريد أن أطيل النفس في سرد الأعراض وشرحها؛ فهي معروفةٌ للجميع؛ فما أكثر أعراض الاكتئاب.

وأخطرها عندي كذلك: الهمُّ، الذي استعاذ منه النبيُّ ﷺ في أولى كلماته المذكورة آنفًا؛ حيث دعا بهذا الدعاء: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ، وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ**».

فانظر إلى هذا الجمع البديع بين أمراض القلب وأمراض البدن، التي تصيب الإنسان، وتستوجب أن يستعيذ من هذه الآلام والهموم والأحزان بالرحيم الرحمن ﷻ.

وكأني أسمع هذه الملايين المكتئبة في الكوكب الأرضي تردد هذه الكلمات وتقول:

وفوقي سحابٌ يمطر الهم والأسى ... وتحتي بحارٌ بالأسى تتدفق[1]

---

(١) هكذا وقع هذا البيت في «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ١٧٢)، وعنه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٦/ ٥٥٩-٥٦٠/ ط. دار هجر)، وهكذا وقع في «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٦/ ٩٣)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٤/ ٢٦١). ووقع الشطر الأول في «تاريخ الإسلام» للذهبي (٤٠/ ٢٥٣-٢٥٤)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٣/ ٤١٢) كذلك أيضًا، بينما وقع الشطر الثاني في «تاريخ الإسلام»:

وتحتي بحارٌ بالدموع تَدَفَّقُ

وفي «مرآة الجنان»:

=

فهذا قول المكتئبين، وهذهِ مشاعر المحبطين، وَمَنْ فقدوا الهوية، وفقدوا الأمل، وفقدوا الرجاء، وفقدوا التفاؤل، وفقدوا الثقة في النفس، وفقدوا الثقة في المجتمع، وفقدوا الثقة في القدوات والـمُثل، وفقدوا الثقة في الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نعم.. هو يشعر بإحباطٍ لما يرى من تفاوتٍ مروِّع في الطبقات بين الأغنياء والفقراء، فمنطقةُ الوسط لا يعيش فيها إلا قلة، وإنما هو يرى بونًا شاسعًا جدًّا بين من يلعبون بالأموال وينثرونها نثرًا تحت أرجل العاهرات والفاسقات والراقصات، وبين من يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء، ولا يجدون لقمة الخبز؛ بل ويقفون الطوابير الطويلة للحصول على رغيف العيش!!

ثم هو مصاب بالإحباط؛ لأنه بلغ الثلاثين؛ بل جاوز الخامسة والثلاثين من عمره ولم يتزوج بعدُ، فقد قضى جُلَّ عمره يُحصِّل ويقرأُ ويذاكرُ. وبعد حصوله على الشهادة لا يجد عملًا أو وظيفة!! ثم لو وجد عملًا؛فكم سيتقاضى؟ وهل يكفيه هذا الراتبُ ليفتح بيتًا؟ أو ليتزوج؟! وإن لم يساعده والده، وإن لم يساعده أهل الخير والفضل؛ فقد لا يخطر بباله أصلًا أمر الزواج، فيصاب حينئذٍ بالإحباط والألم، وبالعزلة والأسى، وبالهمِّ والحزن... إلى غير ذلك.

○ والأهمُّ أن نتساءل جميعًا: **ما هي أسباب الاكتئاب؟**

● **والجواب**: للاكتئاب أسبابٌ كثيرةٌ وأنت تستطيعُ أن تستخرج من كلِّ عرض

=

وتحتي بحارٌ للهوى تتدفق

وأما بالنسبة لقائله، فقد ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (١/ ١٧٢) أنه من شعر أحمد الرفاعي رأس الطائفة المعروفة بالرفاعية – على ما قيل –، فقال: «وكان للشيخ أحمد مع ما كان عليه من الاشتغال بعبادته شعر، فمنه – على ما قيل –:...«ثم ذكر عدة أبيات منها هذا البيت. هكذا ذكر ابن خلكان، ولم يجزم بنسبته إليه، بل قال: «على ما قيل». بينما ذكر ابن الجوزي – كما في «تاريخ الإسلام» للذهبي (٤٠/ ٢٥٣) – أن تلك الأبيات كانت سبب وفاة أحمد الرفاعي، وأنها لما أنشدت بين يديه تواجد عند سماعها تواجدًا كان سبب مرضه الذي مات فيه. قال: وكان المنشد لها الشيخ عبد الغني بن نقطة حين زاره. قال ابن العماد في «شذرات الذهب» (٤/ ٢٦١): «فمفهوم كلام ابن الجوزي أن الأبيات لغيره، مع أن ابن خلكان ذكر أنها من نظمه». ا.هـ

ذكرتهُ سببًا أو عدة أسباب، وها أنا ذا أقدِّم بعضًا منها في هذه العجالة، ثم أردفها بالعلاج.

إذ لا يمكن البتة أن نقف على حلٍّ لمشكلة إلا إذا كان عندنا تصورٌ دقيقٌ لأسبابِ هذه المشكلة؛ فالحكم عن الشيء فرعٌ عن تصوره.

وكما قال العلامة ابنُ القيم - رحمه الله تعالى -[1] : «لا يجوز للعالِمِ أن يفتي في مسألة إلا بعِلْمَين: الأول: فهم الواقع، والثاني: فهم الواجب في الواقع». أي فهم الأدلة الشرعية التي تنسحبُ على واقع هذه المسألة، وهو ما يسميه علماء الأصول عندنا بتحقيق المناط.

أيها الأفاضل: أخطرُ أسباب الاكتئاب: الإعراض عن الله؛ بل ورَبِّ الكعبة أنا أرى أن الإعراض عن الله سببٌ لكل بلاء، وسببٌ لكل داء، وسببٌ لكل انتكاسة، وسببٌ لكل هزيمة، وسببٌ لكل قطرة دم تسفك، وسببٌ لكل بيتٌ يهدم، وسببٌ لكل همٍّ يصيب قلبًا على قدر هذا الهم؛ فالهموم متفاوتة.

ولو ظللتُ أُردِّد وأكرر هذه الكلمات، وأقول أول أسباب الهم والاكتئاب، وأول أسباب البلاء والشقاء: الإعراض عن ربِّ الأرض والسماء، والله ما أبعدت النجعة، وما بالغت لو ظللتُ أكررها في طول حديثنا. وكما قال تعالى في الآية المتقدم ذكرها: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

صدق ربي: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؛ فهؤلاء الذين يملكون المال وهم بعيدون عن منهج الكبير المتعال، وهدي سيد الرجال ﷺ يعيشون حياة الضنك والشقاء والتعاسة؛ ففي **«صحيح» البخاري**[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،**

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٨٧، ٨٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦، ٢٨٨٧)، وكتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٤٣٥).

أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

ولقد كنتُ في زيارة لأمريكا، فأخبرني بعض إخواني عن رجلٍ وسَّع الله عليه من نعيم الدنيا، وهو مقيمٌ بجوار مركز إسلاميٍّ في مدينة بروكلن في ولاية نيويورك، ولكنه للأسف الشديد لم يصلِّ قط!! ولم يساعد ولو بدولارٍ واحدٍ في أيِّ عملٍ من أعمال الخير في المركز، فطلب إخواني مني أن أذهبَ معهم إلى هذا الرجلِ لأذكره بالله تعالى لعلَّ الله تعالى أن يرقِّق قلبه على كلماتك، فذهبت معهم إليه، وسلَّمت عليه، فردَّ السلام، فجلسنا معه، وتكلَّمنا معه، وذكَّرناه بالله، وظللتُ أقول له: قال الله تعالى، وقال رسوله ﷺ ؛ فإذ به يقول: لا تتعب نفسك أيها الشيخ! وأعدك عندما أعود إلى بلدي أن أبني مسجدًا لله ﷻ وأتفرغ بعد ذلك للعبادة والصلاة والطاعة؛ فقلتُ: هذا شيءٌ حسنٌ، لكن ائتني بورقةٍ وقلمٍ؟ فقال: ولمِ؟ فقلت: لا تخف، فأتى بهما، فقلت له: اكتب؟ قال: وماذا أكتب؟ قلت: سنكتب عقدًا ليوقع عليه ملكُ الموت، فلا يأتيك إلا عندما تعود إلى وطنك وتبني مسجدًا، وتتفرغ للطاعة والعبادة! فضحك وفطن إلى ما رميتُ به إليه، ثم قال لي: هل تصدِّق يا شيخ أنه إذا انتابتني حالة صُداع أُخرج الورقة من فئة المائة دولار، وأضعها على رأسي، فيطير الصداعُ في الحال؟!! فقلت: أنت عبد للدينار، وصدق النبيُّ المختار ﷺ : «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ**... الحديث».

فلقد جعل هذا الرجلُ الدولارَ قبلته وكعبته؛ فهو يعيش من أجل الدرهم والدينار، ويحيا من أجل جمع المال!!!

نعم.. قد يعيش الإنسانُ في قصر فاخر؛ لكنه يشعر بالاختناق والضيق، والنكد والهم، فلا يشعر براحةٍ ولا طمأنينة ولا سعادة؛ فالمال نفسه يتحول إلى ضنك؛ يصبح النعيمُ ضنكًا، ويصبح الرخاءُ ضنكًا، وتصبح السعة ضنكًا وضيقًا؛ فلا تتوهم أن الفقرَ مع أهل الإيمان الذين ذاقت قلوبهم حلاوةَ الإيمان سببٌ من أسباب الاكتئاب!! كلَّا كلَّا.

فقد يعيش إنسانٌ في غرفة واحدةٍ أو في منزلٍ متواضعٍ مكوَّنٍ من غرفتين، ومعه زوجته وأولاده؛ لكنه يحس بالرضا والنعيم، وبراحة البال، واستقرار الضمير،

وانشراح الصدر، وطمأنينة النفس؛ فقضية السعة والضيق ليست في سعة المكان، ولكن في الصدور، ولذلك يمتنُّ ربنا تعالى على رسولنا ﷺ بهذه النعمة، فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، وقد كنت ألقي محاضرة في مدينة لوس أنجلوس؛ فأدخل عليَّ إخواني رجلًا أمريكيًّا يريد أن يردد الشهادة؛ فسألته: لماذا تريد أن تنطق بالشهادة؟ فذكر لي أنه ملياردير يمتلك الأموالَ والشركاتِ، ومع ذلك فقد حاول الانتحار ست عشرة مرة، لكن الله يقدر له الحياة؛ فمع هذا الثراء سأم الحياة وملَّها!! نعم.. فالإنسان بدنٌ وروحٌ، والبدن أخذ كل ما يريده ويشتهيه، وبقيت الروحُ تصرخ في أعماقه تبحث هي الأخرى عن غذائها ودوائها، ولما أراد أخونا أن ينطق الشهادة بكى وارتجف جسَدُهُ، وأراد الإخوة أن يُسكتوه؛ فقلت: دعوه، اتركوه؛ فلما سكن بكاؤه، قلت له: ما الذي أبكاك. فقال في ترجمة شبه حرفية تقريبًا: ما هو السِّر في هذه الكلمة التي نطقتُ بها الآن؟ إنني أشعر الآن بحلاوةٍ ماذقت طعمها في صدري قبل النطق بهذه الكلمة!!

قُلْت: إنها نعمة شرح الصدر للإسلام، ولا يذوقها إلا مَنْ ردَّدها وهو صادق؛ نسأل الله أن يشرح صدورنا بالإسلام والإيمان والإحسان.

فهل ذقت هذه الحلاوةَ؟

فالمؤمن الذي ذاق قلبه طعمَ الإيمان، وحلاوة الإيمان - كما سأبين- لا يمكن أبدًا أن يصاب بالاكتئاب، قد يصيبه همٌّ؛ بل أقول لك: إن أيَّ مسلم على وجه الأرض الآن لا يحملُ في قلبه همًّا حقيقيًّا، فليفتش عن حقيقة إسلامه، وشرف انتسابه للدين؛ لأنه كيف يصحُّ لك انتسابٌ للدين، وأنت لا تحملُ في قلبك همَّ الدين، أو همَّ الأمة، بل ولا همَّ الآخرة؟!!

وربِّ الكعبة إن من يحملون هموم أمتهم لا يعرفون للراحة طعمًا، ولا يجدون للنوم وقتًا.

لأن من يعيش لنفسه أو لأسرته أو لشهوته أو لكرسيه الزائل أو لمنصبه الفاني أو لتجارته الزائلة، قد يعيش سعيدًا، وقد يعيش مستريحًا؛ لكنه يعيش حقيرًا، ويموت فقيرًا. أما أصحاب الهمم العالية، الذين يحملون همَّ أمتهم، وهمَّ دينهم، وهمَّ الآخرة؛ فهؤلاء قد يتألمون، وقد تعصف الهمومُ بقلوبهم، لكنهم هم الرجال الأقوياء الكبار؛

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

قال المتنبي:

على قدر على أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتعظمُ في عين الصغير صغارُها وتصغرُ في عين العظيم العظائمُ

وقال أيضًا:

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام(١)

فصاحبُ الهمة العالية والإراد القوية يتعب بدنه؛ بل ويتعب من حوله؛ فلا يعرف معنى الراحة، ولا يعرف طعم النوم؛ لأن له همًّا يعيش من أجله، وله غاية يعيش لها؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالنعيم ذاته يتحول إلى ضنك وشقاء، إذا أعرض الإنسانُ عن ربِّ الأرض والسماء.

وإذا رأيت أهلَ الكفر والإلحاد يتقلبون في النعيم والرخاء في الليل والنهار؛ فليس هذا دليل رضا العزيز الغفار؛ كما في «**مسند أحمد**»، **والطبري في** «**تفسيره**»، و«**الزهد**» **لابن المبارك**، و«**المعجم الأوسط**» **للطبراني**(٢) من حديث عقبة بن عامر ﷺ أنه ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**». **ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ** ﷺ : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ

---

(١) سبق عزوها قريبًا.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، وفي «الزهد» (١٢)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٢١)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ١١٥)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٧٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠)، و«القضاء والقدر» (٢٦٠، ٢٦١)، و«الآداب» (٨١٩)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٦٠٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٧٧)، (٥٤/ ١٢٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤١٣)، و«صحيح الجامع» (٥٦١).

ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنعام: ٤٤، ٤٥].

ثم أنا أسألك - أخي وحبيبي في الله -: هل تَقْبَل أن أقدِّم لك الآن مائدةً من الطعام عليها ما لذَّ وطاب، وأقول لك: كُلْ هذا الطعام، ولكن حين تصل إلى نهاية هذه المائدة من الطعام سينتظرك على نهاية المائدة رجلٌ ليقتلك؛ هل ستأكل؟ وبأي عقلٍ، وبأي فكرٍ، وبأي بطنٍ ستأكل؟!!!

أريدُ أن أقول: ما قيمةُ متاع الدنيا بكلِّ أشكاله وألوانه إن كانت نهايته جهنم؟! أخاطب العقلاء: ما قيمة نعيم نهايته النار والجحيم؟! ألم تقرأ قول رب العالمين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[محمد: ١٢].

فما قيمة هذا المتاع حينئذٍ؟!!! والله لا وزنَ له ولا قيمةَ ولا كرامةَ.

وما قيمة ساعات في الدنيا تعيشها قابضًا على الجمر، صابرًا على القدر خيره وشره، لتنعم بعد ذلك نعيمًا أبديًّا لا نهاية له؟!!!

○ ومن أخطر أسباب الاكتئاب:

● **الفراغ القاتل**؛ فالفراغُ مقتلةٌ ومفسدةٌ، وسببٌ للعجزِ والكسلِ.

قال أبو العتاهية:

إن الشـــباب والفـــراغ والجِـــدّه   مفســـدةٌ للمـــرء أيُّ مفســـدهْ[1]

فلا تترك نفسك فارغًا من عمل للدين أو للدنيا؛ لأن هذا يصيبك بالسآمة والاكتئاب والإحباط.. ليس بالضرورة أن تجد الوظيفة التي تتلاءم مع شهادتك، لأنني أخشى عليك الفراغ.

وكم من إخوة من أهل الفضل يَشْكُون إليَّ أنهم لا يجدون فعلًا عمَّالًا؛ لأن كل ابنٍ من أبنائنا يريد أن يكون مديرًا، أو نائبًا لمديرٍ وإلا فلا!!

(١) في «ديوانه» (ص:٣٨٤) ط. دار المعرفة. وهذا البيت من أجود ما قاله أبو العتاهية وأعجبه؛ كما قال رحمه الله.

وهذه النظرة ليست صائبة؛ فمن ذا الذي بدأ بهذه البداية؟! فيا أخي الحبيب ابدأ بعمل بسيط أو براتبٍ قليل وارفع عن نفسك الفراغ وارفع عن والديك ألم النفقة عليك. وعلى إخوانك الصغار، وسيفتح اللهُ عليك إن شاء اللهُ من حيث لا تحتسب.

إن لم تجد عملًا في قريتك أو في مركزك أو في محافظتك فهاجر في أرض الله تعالى، وما أوسعها، وما أعظم فضله ﷻ. وستجد وربِّ الكعبة - إن صدقت - مراغمًا كثيرًا وسعة.

○ والفراغ أنواع: فراغٌ قلبيٌّ، وفراغٌ نفسيٌّ، وفراغٌ بدنيٌّ، وفراغٌ عقليٌّ.

وأخطر أنواع الفراغ عندي: الفراغ القلبي، ثم الفراغ العقلي.

ألم تقرأ قول الربِّ العلي في شأن أهل النار: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟﴾؛ [أي: قال أهل النار] ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١٠].

أي: لو كان عندنا عقلٌ، لكُنَّا من أول المنتفعين بكلام الرسل وبما جاؤوا به من الحق والهدى، لكننا كنا نحتقرهم ونستهزأ بهم ونسخر منهم، ولم نفتح لهم قلوبنا وعقولنا وأفهامنا.

قال السعديُّ رحمه الله **معلقًا على الآية الكريمة**: «فجمعوا بين تكذيبهم الحاضر، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال؛ بل جعلوا ضلالهم، ضلالًا كبيرًا؛ فأي عناد وتكبر وظلم، يشبه هذا؟ ﴿وَقَالُوا۟﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسلُ، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله، علمًا ومعرفةً

وعملًا.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم في الإيمان بحسب ما مَنَّ الله عليهم به، من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير».

ومن أخطر أسباب الاكتئاب: صحبة السوء؛ التي تسقي الأوهام والخيالات، وتدفع الإنسان إلى مستنقع آسنٍ عفنٍ من المخدرات، ومن الصور الفاضحة، ومن الأفلام الإباحية النجسة القذرة التي خرَّبت كثيرًا من بيوتنا.

ومن ذلك: غياب القدوة:

إن غيابَ القدوة في كلِّ مجالات الحياة، وتقديم التَّافهين؛ سببٌ خطيرٌ.. لماذا لا تقدم الأمةُ الأكفاءَ في مراكزهم؟! لماذا لا يحتلُّ الأكفاءُ أماكنهم بلا مجاملة؟!! إن كان وَلَدِي ليس كفؤًا لهذا العمل، فلينحَّ عن هذا العملِ، وإن وجد من هو أكفأ منه وإن كان ابنَ أقلِّ موظفٍ، فليتقدم هذا، وليتأخر ذاك إن كان متجردًا صادقًا.

إن الأمةَ الخائنةَ هي التي تقدِّم من ليس أهلًا لأن يتقدم، هي التي تسند الأمرَ إلى غير أهل، هي التي تؤخر الأكفاء، هي التي تؤخر من يصلح.

وسرُّ عظمة المصطفى ﷺ في إخراجه هذا الجيل الفريد الذي لم ولن تعرف البشريةُ له مثيلًا؛ لأنه ﷺ وضع كلَّ صحابيٍّ في المكان الذي يتناسب مع قدراته وإمكاناته؛ فهذا مصعب داعية إلى المدينة، ومعاذ إلى اليمن، وخالد في فنون القتال والحروب، وزيد بن ثابت في جمع القرآن وكتابته، وتعلم السريانية؛ فكلُّ واحدٍ من هؤلاء وُضِعَ في تخصصه ومجاله.

فالأمة الأمينة هي التي تقدِّم الأكفاءَ، وهي التي تقدِّم الرجلَ المناسبَ للمكان المناسب في الوقت المناسب.

ولله درُّ الصديق رضي الله عنه حين عزل أبا عبيدة بن الجراح، وولَّى مكانه خالد بن الوليد، وأنتم تعلمون من هو أبو عبيدة؟ لقد وسمه الصادق المصدوق ﷺ بهذا الوسام

العظيم؛ فقال: «وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[١].

وكفى أبا عبيدة شرفًا بهذه المنقبة، ومع ذلك يعزله أبو بكر الصديق عن قيادة الجبهة في بلاد الشام، ويرسل إليه أبو بكر رسالةً رقراقة جميلة؛ فيقول - بعدما حمد الله وأثنى عليه - «**أما بعد: من أبي بكر إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام الله عليك، وبعد؛ فإني قد عزلتك، ووليت خالد بن الوليد، فاسمع له وأطع، ووالله ما وليت خالدًا القيادة إلا لأني أعلم أن له فطنةً في الحرب ليست لك، وأنت عندي يا أبا عبيدة خير منه. أراد الله بنا وبك خيرًا، والسلام**»[٢].

هل سمعت رسالةً أروع وأنصع من هذه الرسالة قط؟

هؤلاء هم القادة والسادة والأئمة الأطهار الذين نصر اللهُ بهم دينَ نبيه المختار، وصلى الله وسلم وبارك على من ربَّى وعلَّم وأدَّب.

فرجل الساعة الآن خالد.

فليتقدم خالدٌ، ويتنازل أبو عبيدة عن إمارة الجيوش وقيادة الجبهة! ليصبح جنديًّا مطيعًا بعد أن كان بالأمس القريب قائدًا مطاعًا.

هل قام بانقلاب عسكريٍّ في المدينة؟!!

هل خرج على الصديق؟! أوانقلب على خالد؟! كلَّا؛ فهؤلاء لا يعملون من أجل الكراسي الزائلة، ولا من أجل المناصب الفانية؛ إنما هؤلاء هم أهل العزِّ والاستخلاف والتمكين، لا يَعْنيهم إلا أن يكونوا على الطريق، سواءٌ كانوا في المقدمة أو في المؤخرة؛ ففي «صحيح» **البخاري**[٣] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ؛ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح (٣٧٤٤)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح ﷺ (٢٤١٩) من حديث أنس ﷺ.

(٢) انظر: «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء» (٣/ ١٤٥) ط . عالم الكتب.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦، ٢٨٨٧)، وكتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٤٣٥).

كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

فهو رجلٌ لا يريد طبلًا ولا زمرًا بالباطل، لا يعنيه أن يكون في الصدارة مع القادة أو في المؤخرة مع الجند، ما دام على الطريق يعمل لله سبحانه وتعالى.

قمة التجرد والإخلاص والأمانة والصفاء.

ويُتوفى الصديقُ ﷺ ويتولى الخلافة من بعده فاروقُ الأمة الأواب عمرُ بن الخطاب ﷺ، وها هو ﷺ يرى رؤية أخرى وهي أنه لا يتقدم أحدٌ على أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ، فعزل عمر بن الخطاب خالدًا، وولَّى مكانه أبا عبيدة بن الجراح مرة أخرى؛ فماذا كانت النتيجةُ؟

يتنازل خالدٌ ﷺ عن القيادة لأخيه أبي عبيدة، ليصبح خالدٌ نفسه جنديًّا مطيعًا بعد أن كان بالأمس القريب قائدًا مهابًا مطاعًا.

فليتقدم الأكفاءُ، وليتأخر من دون هؤلاء؛ فهذا هو التجرد والصدق والصفاء.

أما أن يوجد شابٌّ متفوقٌ مبدعٌ حاصلٌ على تقدير (ممتاز)، ولا يُمكَّن من التعيين في الجامعة بسبب المحسوبية الظالمة، أو الروتين القاتل الذي يَقْتل الإبداع والمبدعين؛ فماذا تتوقع من هذا؟ وماذا ننتظر له وللآلاف من أمثاله؟!!

فلنفتش بصدق - إن كنا صادقين في البحث عن علاج - عن الأسباب، ولنبدأ جميعًا العلاج بإزالة هذه الأسباب.

فلا يجوز أبدًا أن نجامل الآن مخلوقًا على حساب الدين، فأمتنا إن لم يستفق فيها الحداةُ المخلصون، والدعاةُ الصادقون، وربِّ الكعبة ستغرق؛ لأن الله لا يجامل أحدًا من الخلق بحال، مهما ادعى لنفسه من مقومات المجاملة أو المحاباة.

○ فما العلاج؟

أيها الأحبة: قد تكون كلماتُ العلاج سهلةً، لكن تطبيقها يحتاج إلى مجاهدة. وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

○ وأول خُطْوة عملية على طريق العلاج لكلِّ مكتئب في الأرض عامة، وفي الأمة خاصة:

- **العودة إلى الله:**

فليس هناك شرحٌ للصدر، ولا سعادةٌ في القلب، ولا في البيت، ولا سعةٌ في الرزق، ولا طمأنينةٌ، ولا راحةٌ، ولا سكينةٌ، ولا ثباتٌ، إلا بالعودة إلى رب الأرض والسماوات.

شَرِّق ما شئت، وغرِّب ما شئت، لكنك لن تشعرَ بالأنس إلا مع الله، ولن تشعر بالرضا إلا وأنت مع الله، ولن تشعر بالسعادة إلا وأنت مع الله؛ قال جلَّ علاه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

قال العلامة السعدي رحمه الله[١]:

«أي: حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له».

فهي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرًا[٢].

وهذا ترمومتر أدفعه لكلِّ مسلم اليوم: إن لم يطمئن قلبُك بذكر الله؛ فاعلم بأن في قلبك مرضًا يحتاج إلى دواء، وإلى علاج؛ فإن شعر القلب بالطمأنينة والسكينة في حالة الذكر لله جَلَّ وعَلَا، فاعلم بأنك تحمل قلبًا؛ فمن لم يجد قلبه في الذكر، فلا قلب له؛ **قال عبد الله بن مسعود:** «اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: في مجالس الذكر، وعند سماع القرآن، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجد قلبك في هذه المواطن، فسل الله أن يمن عليك بقلب، فإنه لا قلب لك»[٣].

---

(١) (ص: ٣٧٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٩٥).

(٣) «الفوائد» لابن القيم (١٥٦).

والقلب هو الأساس؛ كما في «**الصحيحين**»[(١)] من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».

بل لا مدار للنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة إلا على هذا القلب؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فاحرص على أن ترطب لسانك بذكر مولاك، وليس المراد بالذكر أن تقتصر على أذكار الصباح والمساء فحسب؛ فهذا مفهوم ضيقٌ لمعنى الذكر؛ بل هناك أذكارٌ مطلقةٌ في كل وقت، وأي ساعة من ليلٍ أو نهارٍ، وأذكار مقيدة دبر الصلوات إلى غير ذلك.

ومن هذه الأذكار: ما رواه الإمام أحمدُ في «مسنده»، وابنُ حبان، وغيرهما بسند صحيح[(٢)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ بَصَرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**».

- **ثانيًا: التقوى:**

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلمٌ، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهة (١٥٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٤٠)، وابن حبان (٩٧٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢)، والبزار في «مسنده» (١٩٩٤)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٢٩٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ١٧)، و«الدعوات» (١٥٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٩)، وقال بعدما أورد له شاهدًا: «وجملة القول أن الحديث صحيح من رواية ابن مسعود وحده، فكيف إذا انضم إليه حديث أبي موسى رضي الله عنهما، وقد صححه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم».

إذا كانت العبادةُ هي الغاية من خلق الخلق؛ فإن الله قد جعل التقوى غاية العبادة؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

والتقوى ليست كلمةً ترددها الألسنةُ فحسب؛ بل هي منهجٌ ودينٌ، والدين هو التقوى؛ فهو امتثال الأمر واجتناب النهي.

والتقوى؛ كما قال طلق بن حبيب: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»[1].

قال الحافظ ابن رجب في «جامعه»[2]:

«وأصل التقوى: أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه؛ فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه.

وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله عز جل كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]؛ فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه؛ فالمعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي؛ قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]؛ فهو سبحانه أهل أن يُخشى ويُهاب ويُجل ويُعظَّم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء، والعظمة، وقوة البطش، وشدة البأس، وفي الترمذي[3]

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٤).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢٨٧، ٢٨٨) الحديث الثامن عشر.
(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب التفسير، باب ومن سورة المدثر (٣٣٢٨) وقال: «هذا حديث غريب، وسهيل ليس بالقوي في الحديث، وقد تفرد سهيل بهذا الحديث عن ثابت»، وأخرجه كذلك أحمد (٣/ ١٤٢، ٢٤٣)، والدارمي (٢٧٢٤)، وابن ماجه (٤٢٩٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٦٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي».

عن أنس رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ في هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] قال الله تعالى: «أنا أهل التقوى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا آخر، فأنا أهل أن غفر له».

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله، وإلى مكانه كالنار، أو إلى زمانه كيوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨].

ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهي أعلى درجات التقوى؛ قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١ – ٤]». اهـ.

والله من حقق التقوى رزقه اللهُ، ويسَّر له أمره، وفرَّج له كربه.

فمن اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده؛ قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ – ٩].

- **ثالثًا: تجديد الإيمان مع العمل الصالح، ولا تحقرن من المعروف شيئًا:**

ولا تتوهم أن من يعيشون بعيدًا عن الإيمان والعمل الصالح يعيشون حياة طيبة!! لا وربِّ الكعبة؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، هل يستوي من أحيا الله قلبه بالتوحيد والإيمان والهدى مع من مات قلبُهُ واسودَّ بظلام الكفر والشرك والضلال؛ لا يستوي هذا الحي الذي يحيا حياة حقيقية مع هذا الميت الذي يتخبط في ظلام الكفر والشرك والضنك بكل أشكاله وألوانه؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ

مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولاحظْ أن الله قد سمى الوحي روحًا وسمى الوحي نورًا؛ فهذه هي الروح الحقيقية وكذلك هي الحياة الحقيقية؛ حياة العيش في كنف الله.. حياة العيش في عبودية الله، وطاعته، ومن لم يحيى هذه الحياة فحياته أخسُّ من حياة البهائم! هذا الذي يعيش من أجل الطعام والشراب والشهوات!! قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧] فالحياة الحقيقية هي الحياة في طاعة الله - جَلَّ وعَلَا - وهي أن تستمد النور من نور الوحي من الأنبياء والمرسلين؛ لذا سمى اللهُ وحيه نورًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، فأخبر أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة؛ فالله سبحانه وتعالى يبين أن الحياة الطيبة لا تكون إلا بالوحي.. إلا باتباع الرسل، فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد هذه الروحَ: فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا؛ فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة؛ فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وقد جعل الله الحياةَ الطيبةَ لأهل معرفته ومحبته وعبادته(١)؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]؛ فهذه الحياة الطيبة لا تكون إلا بالعمل الصالح مع الإيمان، قيل: إن الحياة الطيبة هي القناعة والرضا وسعة الرزق، غير ذلك؛ والصوابُ، أنها حياة القلوب ونعيمه، وبهجته، وسروره بالإيمان، ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فإنه لا حياةَ أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة؛ كما قال بعض السلف: «إنه لتمر بي أوقاتٌ أقول

---

(١) «المدارج» (٣/ ٢٣٨، ٢٣٩).

فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب»، وقال غيره: «إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا».

وإذا كانت حياةُ القلوب حياةً طيبةً تبعته حياة الجوارح؛ فإنه مَلِكُها، ولهذا جعل الله المعيشةَ الضنك لمن أعرض عن ذكره[١]؛ فالحياة الطيبة هي حياة القلب بعبوديته للرب وحده.

فهيا جدد الإيمانَ في قلبك، واصدق في طلب العون من الله، وتضرع بين يديه، والجأ إليه بصدق، واطرح قلبك بذل وانكسار بين يدي الرحيم الغفار، ثم ابتعد عن بيئة الفتن والمعاصي، واقترب من بيئة الطاعة والإيمان، والزم المسجد وحضور مجالس العلم التي تجدد الإيمان، وتدفعك إلى العمل الصالح، وتزيد في قلبك الإيمان؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤] وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] نسأل الله أن يرزقنا هذه الحياةَ الطيبةَ، وأن يثبتنا على الحق والإيمان حتى نلقاه.

- **رابعًا: المحافظة على الصلوات، والمداومة على السجود، والإكثار من التسبيح:**

ولا شك ولا ريب أن غير المسلم لا يقبل هذا منه إلا إذا دخل في هذا الدين العظيم.

هل تتوقع أن النبيَّ محمدًا ﷺ كان يضيق صدرُه أحيانًا مع أن الله شرح له صدره؟! فأرجو أن تتصورَ من شرح اللهُ صدْره، إذا ضاق صدره، ما حجمُ الهمِّ الذي يحملُه ليضيق صدره بسببه؟! هل تدبَّرْت معي ما ذكرتُ؟ لقد قال تعالى مخاطبًا حبيبه ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

أي: من المصلين.

فافزع إلى الله فيما نابك وضاق منك صدرُك بالتسبيح والتحميد والصلاة يكفك،

---

(١) المصدر السابق.

ويكشف الغمَّ عنك[١]، ففي الصلاة كشفٌ للغمة، وتفريجٌ للكربة، وشرحٌ للصدر، وتثبيتٌ للأمر.

وكان النبيُّ ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة[٢]، وكان يقول: «**قُمْ يَا بِلاَلُ أَقِمْ فَأَرِحْنَا بِالصَّلاَةِ**»[٣]؛ فالاستعانة بالصلاة أعظم دواء عند حدوث أيِّ ضيق على وجه العموم؛ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

قال الإمام الطبري رحمه الله[٤]:

«فإن قال لنا قائل: فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله، وترك معاصيه، والتعري عن الرياسة، وترك الدنيا؟ قيل: إن الصلاة فيها تلاوة كتاب الله، الداعية آياته إلى رفض الدنيا وهجرنعيمها، المسلية النفوس عن زينتها وغرورها، المذكرة الآخرة وما أعد الله فيها لأهلها. ففي الاعتبار بها المعونة لأهل طاعة الله على الجد فيها».

فالصلاة راحةٌ وطمأنينةٌ، وسعادةٌ وسكينةٌ، وهي قرةُ عينِ النبيِّ ﷺ، وراحة نفسه، والعبد إذا أقبل ولجأ بها إلى الله تعالى من أي نصبٍ أو وصبٍ أو همٍّ أو غمٍّ أو حَزَنٍ؛ فإنه سيشعرُ بالمواساة والمناجاة والتأييد من الله تعالى له، فينجو من المهالك، ويسلم من المعاطب والمخاوف، ومن متاعب الدنيا وأشغالها.

فاستعن بالصلاة في جميع أمورك، وأكثر فيها من التضرع والابتهال والذكر

---

(١) «تفسير ابن عجيبة» (٣/ ٤٢٧).

(٢) كما عند أبي داود، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، وحسَّن سَنَدَه الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٧٢)، وحزبه؛ أي: نزل به أمر مهم، أو أصابه غمٌّ؛ كما في «النهاية» (١/ ٣٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٦)، وأحمد (٥/ ٣٦٤، ٣٧١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

(٤) في «تفسيره» (١/ ٣٧٢).



والدعاء، فإن أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد[(١)]؛ فأكثر من السجود؛ كما قال النبي ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه[(٢)]؛ فالصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وإذا ضاق صدرك كذلك؛ فقُلْ: سبحان الله وبحمده.

والمعنى: أُنزهك يارب عن كلِّ نقص وعن كلِّ عيب، وأحمدك على صفات الكمال ونعوت الجمال.

فمن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر؛ كما أخبر النبي ﷺ[(٣)].

- **خامسًا الصبر على البلاء وعلى المصائب:**

فإن وقعتَ في ضيق أو كرب، أو تعرضت لمحنة أو ضنك أو ابتلاء، فعليك أن تستعين بالله تعالى على هذا بالصبر على ما قدَّر اللهُ جَلَّ وعَلَا، والذي يعينك على تحقيق الصبر أن تقوم لتطرح قلبك بذلٍّ وانكسار بين يدي العزيز الغفار؛ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] أي: لن تستطيع الصبرَ إلا إن صبَّرك الله جَلَّ وعَلَا، وهذا هو معنى الاستعانة، ومعنى لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فكن على يقين إن لم يصبرك الله فلن تصبر.

---

(١) كما عند مسلم في «صحيحه»، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ففي «صحيح مسلم»، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «سَلْ». فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوَغَيْرَ ذَلِكَ؟». قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ».

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٦٤٠٥)، ومسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد أورد العلامة ابن القيم عدة تعريفات للصبر؛ فمنها[١]:

تجرع المرارة من غير تعبُّس، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة، وقيل: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة؛ كالمقام مع العافية.

وقيل: هو الثبات مع الله وتلقي بلاءه بالرحب والدعة.

وقيل: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقيل: هو ترك الشكوى.

وقد قيل:

الصبر مثل اسمه، مرٌّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

والذي يدفعك إلى التصبر بعد الاستعانة بالله تعالى: النظر إلى حسن الجزاء في الدنيا والآخرة لمن صبر. وعلى حسب الوثوق بذلك يخف حِمْل البلاء، وقد أجمع عقلاءُ كل أمة على أن النعيمَ لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإن قدر التعب تكون الراحة.

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله ياختيارك وغير اختيارك[٢].

ومما يبعث على الصبر في البلاء: تهوين البلية:

فإذا أصبت بمصيبة أو وقع بك ابتلاء؛ فهوِّن على نفسك، وذلك بأمرين:

قال ابنُ القيم رحمه الله[٣]:

«**أحدهما**: أن يعد نعم الله عليه وأياديه عنده. فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة

---

(١) «المدارج» (٢/ ١٥٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٦٠).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٦١).

من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي، وتعداد أيادي المنن: يتعلق بالحال. وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل، وأحدهما في الدنيا، والثاني يوم الجزاء.

ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عثرت، فانقطعت إصبعها فضحكت، فقال لها بعضُ من معها: أتضحكين وقد انقطعت إصبعك؟! فقالت: أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها».

قال أحد السلف: «إني إذا أصبت بمصيبة فحمدت الله عليها واسترجعت، أحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن في ديني، وأحمده إذ لم تكن أكبر مما كانت، وأحمده إذ رزقني الله الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لطلب الأجر والثواب»[1].

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]. اللهم اجعلني وإياكم من الصابرين.

---

(١) أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢/ ٣٤٧، رقم ٩٥٠٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٤٢): من طريق الغلابي، نا العباس بن بكار، نا أبو بكر الهذلي، عن الشعبي: أن شريحًا قال: «**إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني**».

وهذا سند ضعيفٌ جدًّا، فيه أبو بكر الهذلي. قال الحافظ ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ترجمة رقم ٨٠٠٢): «قيل: اسمه سلمى - بضم المهملة - ابن عبد الله، وقيل: روح. أخباري، متروك الحديث». ا.هـ.

وروى ابن أبي الدنيا في «الشكر» (رقم ٨٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٤١-٤٢): من طريق أبي مسهر، عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال شريح: «**ما أصيب عبدٌ بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاثُ نِعَمٍ: أن لا تكون كانت في دينه، وأن لا تكون أعظم مما كانت، وأنها كائنة فقد كانت**».

وهذا سندٌ ضعيفٌ؛ فإن سعيد بن عبد العزيز لم يدرك شريحًا.

- **سادسًا: الرضا:**

وهو أعلى من مقام الصبر، ومقام الحمد أعلى منهما.

والرضا من المنازل العظيمة التي مَنْ نزل فيها فقد نزل منزل الإحسان العظيم، وهي منزلة رقراقة كرقة حروفها ومعانيها.

والرضا لغة: ضد السخط؛ كما في «اللسان»[(١)].

واصطلاحًا: هو سرور القلب بمُرِّ القضاء[(٢)].

وقال الراغب: «ورضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمرًا لأمره ومنتهيًا عن نهيه، قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]»[(٣)].

وقد أجمع العلماء – رحمةً من الله بنا – على أن الرضا مستحبٌّ وليس بواجب، ولو كان الرضا واجبًا لشقَّ علينا جدًّا، لكنه مؤكد استحبابه؛ كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من المحققين[(٤)]؛ إذ لم يجئ الأمرُ به، وإنما جاء الأمر بالصبر، لكن جاء الثناء والمدح من الله جل عَجَلّ لأهل الرضا.

والرضا الحقيقيُّ: أن تكون راضيًا عن الله تبارك وتعالى؛ فإنك إن رضيت عن الله تعالى رضي الله عنك، ورضَّاك بكلِّ شيء.

قيل ليحيى بن معاذ – رحمه الله تعالى -: متى يبلغ العبدُ مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام العبد نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت»[(٥)].

---

(١) (٤/ ١٦٤).

(٢) «التعريفات» للجرجاني (١١٣).

(٣) «المفردات» (٢٠٣).

(٤) قال ابن القيم رحمه الله في «المدارج» (٢/ ١٦٤): «وقد أجمع العلماء على أنه مستحب، مؤكد استحبابه، واختلفوا في وجوبه على قولين».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٦٦).

والرضا له ثمرات عظيمة؛ فمن ذلك:

أن يعلم العبدُ أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا الربِّ تعالى عنه، وفي «**صحيح مسلم**» (١) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**».

فإذا رضي العبدُ عنه بالقليل من الرزق: رضي الله تبارك وتعالى منه بالقليل من العمل، وإذا رضي العبدُ عن ربه واستوت عنده جميعُ الحالات رضي الله سبحانه وتعالى عنه؛ بل وزاد الرضا؛ فالسخط باب الهمِّ والغمِّ والحزن، والسخط هو عدم الرضا، وهو بابٌ لشتات القلب، وكشف البال، وسوء الحال؛ بل ويوقع العبدَ في الضنك في الدنيا، والخسران في الآخرة! والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضا يخلصه من ذلك كلِّه، ولقد اجتمع ذات يوم وهيب بن الورد، وسفيان الثوري، ويوسف بن أسباط؛ فقال الثوري: «فقد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم، أما اليوم: فوددت أَنِّي ميت؛ فقال له يوسف بن أسباط: ولِمَ؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة، فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء، فقال الثوري: ولم تكره الموت؟ قال: لعلِّي أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا، فقيل لوهيب: أيُّ شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أحبُّ ذلك إليَّ أحب إلى الله، فقبَّل الثوري بين عينيه، وقال: روحانيةٌ وربِّ الكعبة» (٢).

فمن أعظم ثمرات الرضا: أنه يُذهب شتاتَ القلب، ويفتح له بابَ جنة الدنيا قبل جنة الآخرة؛ فالرضا يوجبُ للعبد الطمأنينة، وبَرْد القلب، وسكونه، وقراره، ويذهب انزعاج القلب، وقلقه، وتشتته.

ومن ثمرات الرضا: أنه يخلص العبدَ من مخاصمة الرب في أحكامه وقضائه؛ فالعبد

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (٢٧٣٤).

(٢) «الإحياء» (٤/ ٣٥٥)، و«المدارج» (٢/ ٢٠٦).

عبدٌ والربُّ ربٌّ، ونحن لا نملك أن نتهمَ رجلاً من العقلاء من أهل العلم إن قال أو سكت: أنه سكت بدون حكمة أو قال بدون حكمة؛ لأن هذا ليس من الأدب، فإذا كنت لا تستطيعُ أن تنفي الحكمةَ عن رجلٍ من أهل الأرض في عطائه ومنعه؛ فهل يجوز أن تنفي الحكمة عن ربِّ السماء والأرض في عطائه ومنعه؟! وهو القائل - جَلَّ شأنه: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وأَصْلُ كُلِّ شرٍّ، وأَصْلُ كُلِّ بلاءٍ في هذه الدنيا كان بسبب السخط وعدم الرضا؛ فإن أولَ مَنْ وقع في هذا الذنب هو إبليس [١]، حين سخط على الله وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ اعترض، وجادل، وناقش، مع أن الله ﷻ أفرده بالأمر المباشر ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢]؛ فخاصم ولم يرض، وسخط على الله - جَلَّ وعَلَا!! فأول معصية ارتكبت مخاصمة الله في أمره وقضائه بالكبر والعناد والإعراض، أما الرضا فإنه يخلص العبد من مخاصمة الربِّ - جَلَّ وعَلَا - في أحكامه، وفي قضائه وقدره، ويذهب غيظ القلب وهمه، ويرضى العبد عن ربه سبحانه وتعالى؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ**» [٢]، لذا لما مات إبراهيمُ ابن نبينا ﷺ؛ قال ﷺ: «.. **إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**» [٣].

ومن ثمرات الرضا: أن الرضا يجعل العبدَ سليمَ القلب نقيًّا من الغش والدغل والحقد والغل.

قال ابنُ القيم [٤]: «فلا ينجو من عذاب الله إلا مَنْ أتى اللهَ بقلب سليم، كذلك

---

(١) قال ابن القيم: «وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية». («المدارج» ٢/ ٢٠٣).

(٢) سبق، وهو صحيح.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**إنا بك لمحزونون**» (١٣٠٣)، ومسلمُ، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٥).

(٤) «المدارج» (٢/ ١٩٩).

وتستحيل سلامةُ القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلَّما كان العبدُ أشد رضًا كان قلبه أسلم؛ فالخبث والدغل والغش قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضا، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا».

فالعبد حين يعلم أن الرزاقَ هو الله، وأن اللهَ حكيم في عطائه، حكيم في منعه؛ فهو في رضاً، ولا يتسرب الحقد إلى قلبه.

وكذلك من ثمراته: أن من ملأ قلبه من الرضا ملأ الله صدره غنًى وأمنًا وقناعةً، وفرَّغ قلبه لمحبته تعالى، والإنابة، والتوكل عليه؛ فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله!!

وكذلك الرضا يثمر الشكر - الذي هو من أعلى مقامات الإيمان؛ بل هو حقيقة الإيمان - والسخط يثمر ضده، وهو كفر النعم، وربما أثمر له كفر المنعم، فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات، أوجب له ذلك شكره، فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين، وسلك سبيل الكافرين[(١)].

ومن ثمرات الرضا: أن الرضا يخرجُ الهوى مِن القلب؛ فالراضي هواه تبع لمراد سيده ومولاه، يقول الله: «أمرت ونهيت» والعبد الراضي يقول: بكلِّ حبٍّ: «سمعت وأطعت» فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبدًا؛ فكلُّ ما رضيه الله للعبد الراضي؛ فهو راضٍ عنه، لا يحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل هو في غاية الحب لله، والرضا عن الله.

ومنها: أن الله إذا رضي عن العبد - ورضا الله عن العبد أكبر من الجنة - وما فيها - فإنه في سعادة غامرة لا سعادة بعدها أبدًا؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، أي: أكبر من الجنة وما فيها من نعيم.

وفي «**صحيح البخاري ومسلم**»[(٢)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ

---

(١) «المدارج» (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

قال: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وفي رواية في «**صحيح مسلم**»(١) من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ؛ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عز وجل».

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، اللهم ارزقنا الحسنى ولا تحرمنا الزيادة؛ فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وَجْهِ الله تبارك وتعالى في الجنة.

إذًا؛ العبد الراضي له الرضوان من الكريم في جنات النعيم، واعلم أن العبد الراضي أبدًا هو محبٌّ لله في كلِّ موطن، وفي كلِّ نَفَسٍ، وفي كل وقت، لا يفارق الحبُّ قلبه؛ فهو في مزيد متصل من الأجر ولو فترت جوارحه عن أيِّ عمل من أعمال الحب.

نسأل الله أن يرزقنا الرضا عنه، وأن يرضى عنا؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه.

- **سابعًا: الإيمان بالقدر خيره وشره:**

وهو ركنٌ سادسٌ من أركان الإيمان بالله - جَلَّ وعَلَا - فلا يصح الإيمان بدونه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١).

ﵟذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍﵞ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

وللإيمان بالقدر ثمرات عديدةٌ؛ فمنها: الرضا واليقين؛ فصاحب الإيمان بالقدر يعيش عيشةً هنيةً، ويحيا حياةً كريمةً طيبةً؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لن يصيبه إلا ما قدره له رب العالمين، ولن يخطئه ما قدره له رب العالمين.

ورحم الله من قال:

كن عن همومك معرضًا ... ودع الأمورَ إلى القضا

وانعم بطول سلامة ... تسليك عما قد مضى

فلربما اتسع المضيـ ... ـق وربما ضاق الفضا

الله يفعلُ ما يريـ ... ـد فلا تكن متعرضًا

ومن تلك الثمرات الجليلة: صدق الاستعانة برب العالمين.

فمن آمن بالقدر وعلم أن كُلَّ شيء بقدر الله تبارك وتعالى وتخلص من حوله وطوله وقوته وعقله، ولجأ إلى حول وطول الله ومدده وقوته، فصدق في الاستعانة بالله تعالى؛ فَمَن أعانه اللهُ فهو المعان، ومن خُذل فهو المخذول.

ومن ذلك:

الصبر على الشدائد والمصائب؛ فلا شك أن المؤمنَ بالقدر يعلم يقينًا أنه ما من شدة ومصيبة تقع في الكون إلا بإذن الله وأمره وتقديره؛ فالمؤمن الذي يشاهد القدرَ ينظر إلى المصيبة أو إلى الألم، سواء كان هذا الألم في نفسه أو أهله أو ماله أو أمته؛ فهو ينظر إليه على أنه تقدير الملك الحق، وأن الدنيا كلها دار ابتلاء، وبوتقة اختبار، وليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر!!

فلا توجد لذة في الدنيا خالصة أبدًا، وإلا فما الفارق بينهما وبين الجنة إن كانت لذات الدنيا خالصة من الشوائب والكدر، فلا فرق بين لذة الدنيا ولذة النعيم في الآخرة! لكن شاء الله تعالى أن يكون كلُّ نعيم في الدنيا مشوبًا بالكدر والنقص، ليكون نعيم الجنة هو النعيم الكامل.

فالدنيا دار ابتلاء وفتن ومصائب؛ فأول مرحلة من مراحل التعامل مع المصائب للمؤمن بالقدر: أن يرضى ويُسلِّم، ثم يُسلِّي نفسه بالصبر الجميل؛ فالإيمان بالقدر من أعظم الأدوية التي تعين المرء على الشدائد والمصائب.

ورحم الله من قال:

يا صاحبَ الهم إن الهمَّ منفرجٌ	أبشر بخير فإن الفارجَ اللهُ
إذا بُليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشفُ البلوى هو اللهُ
اللهُ يحدث بعد العسر ميسرةً	لا تجزعنَّ فإن الكاشفَ اللهُ
والله مالك غير الله من أحدٍ	فحسبك اللهُ في كلٍّ لك اللهُ

فإن استقرت هذه العقيدةُ في القلب شعر العبدُ بالراحة والرضا واليقين؛ بل ودخل جنة الدنيا قبل جنة الآخرة، وكان من أهل السعادة والحياة الرضية الطيبة.

وفي «صحيح» **مسلم**(١) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».

- **ثانيًا: الانشغال بأيِّ عملٍ حلالٍ من أعمال الدنيا:**

ومعايشة هموم الناس، ومعايشة المجتمع والواقع الذي حولك، والخروج من هذا النوم والكسل والعجز إلى ساحة العمل والبذل والعطاء؛ قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وفي «صحيح» **مسلم**(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى الله من الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كان كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ**

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤).

قُلْ: قَدَرُ الله وما شَاءَ فَعَلَ؛ فإن لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَان».

- **تاسعًا: ثم فلتحرص على صحبة الأخيار:**

فإن هناك قومًا إذا رأيت وجوههم ذكَّروك بالطاعة وفعل الخير والثبات على الإيمان، ولتحرص على مجالس العلم بين أيدي العلماء الربانيين ممن تجدد كلماتهم الإيمان في القلوب، فمن الناس من تذكر وجوههم بربنا؛ فكيف بكلماتهم عن الله ورسوله؟

ففي **«مسند أحمد»، والبخاري في «الأدب المفرد»**[1] من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟»**. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: **«الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ تَعَالَى»**. ثُمَّ قَالَ: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ»**. أي: المشقة.

فالصحبة الطيبة الصالحة قد تؤثر في الإنسان تأثيرًا يتضاعف على تأثير البيت نفسه؛ فاصحب الصالحين الأخيار الذين تذكرك وجوههم بالعزيز الغفار.

وفي **«الصحيحين»**[2] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً»**.

فلا تكتئب ولا تحزن، واطرد الهم والغم، ولا تيأس، ولا تقنط، وتفاءل ولا تتشاءم، ودع القلق، وانتظر الفرج.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٣)، وعبد بن حميد (١٥٨٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب من لا يؤبه له (٤١١٩)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢٣٠٦) عن أسماء رضي الله عنها. وفي إسناده شهر بن حوشب وهو ضعيف. لكن له شواهد؛ فمنها ما أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٧٠٨) من حديث ابن عمر، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.
وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٩٩) من حديث الحسن مرسلًا.
وأخرجه ابن وهب في «الجامع» (٤٧) عن محمد بن المنكدر مرسلًا.
وصححه بمجموع هذه الطرق الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين (٢٦٢٨).

عسى فرجٌ يكون عسى نعلَل نفسنا بعسى

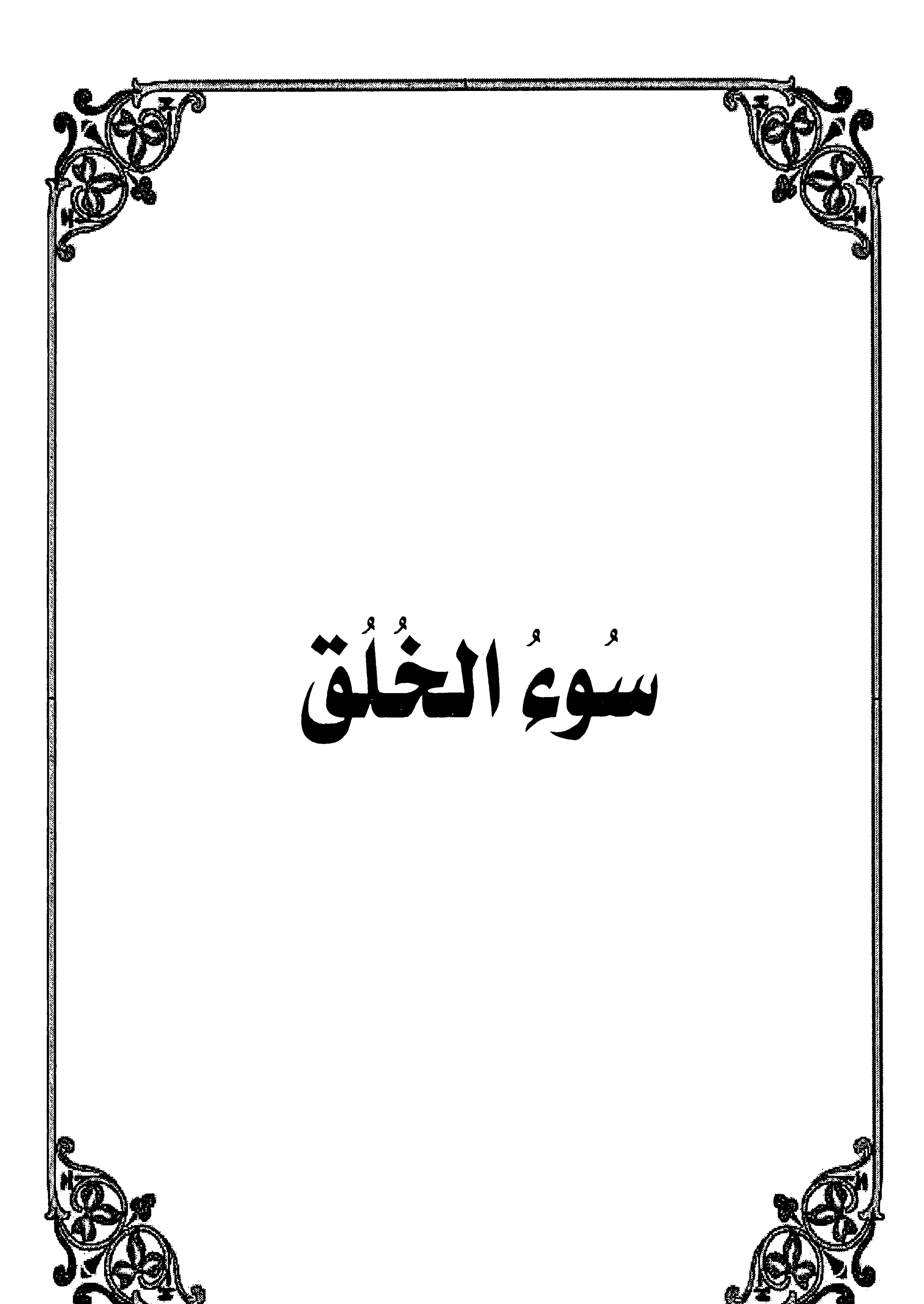
فلا تقنط وإن لاقيت هماً يقبضُ النّفَسا

فأقرب ما يكون المرءُ من فرجٍ إذا يئسا

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذه كلماتُ مكلومٍ، وزفراتُ مهمومٍ، أسأل الله أن يجعل لها آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، وأسأل الله أن ينفعني وإخواني وأخواتي بها، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

*****



سُوءُ الخُلُق

سوء الخلق

لقد أصبح سوءُ الخُلُق سمةً بارزةً عند الكثيرين، وأصبح عملةً نادرةً أن ترى إنسانًا خلوقًا، حَسَن المُحيَّا، طَيِّب النَّفْس، مُهَذَّب الخلق، كريمَ الطبع، عفيفَ اللسان، زَكيَّ القَلْب، بَشوشَ الوَجْه، حَسَنَ المعاملة مع الآخرين!!

نعم.. لستُ مبالغًا إن قُلْتُ: إن أفرادًا قلائل هم الذين يتخلَّقون بهذه الأخلاق المجيدة، ويتصفون بهذه الصفات الحميدة.

فما أحوج الأمةَ الآن بصفةٍ عامة، وبلدنا بصفةٍ خاصة بكلِّ طوائفها من العلماء والدعاة وطلبة العلم إلى حسن الخلق، والتحلِّي بمحاسن الأخلاق.

فكم من مظاهر خلابة؛ لكنك إن فتشت فيها عن حُسْن الخلق انقلب إليك بَصَرُك خاسئًا وهو حسير؛ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وفي الأثر المرويِّ عن علي رضي الله عنه[١]: «يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ اعْمَلُوا بِهِ؛ فَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ، وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ وَتُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلاَنِيَتَهُمْ، يَجْلِسُونَ حِلَقًا فَيُبَاهِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ عَلَى جَلِيسِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَيْرِهِ وَيَدَعَهُ، أُولَئِكَ لاَ تَصْعَدُ أَعْمَالُهُمْ تِلْكَ إِلَى اللهِ عز وجل».

وكم من صاحب لِحيةٍ لم يتخلَّق بأخلاقِ صاحب السنة! وكم من صاحبة نقابٍ وحجابٍ لم تتخلَّق بأخلاق صاحب السنة!! أنا أتكلَّم هنا عن الصفوة؛ فما ظنك بالعامة؟!!

إنَّ الأمة - الآن تحتاج - إلى أن تتربى على حسن الخلق بحُكَّامها، وعلمائها،

---

(١) أخرجه الدارميُّ في «السنن» (١/ ٢٠٦)، وابن عبد البر في «جامعه» (١٢٣٧)، والخطيب في «الجامع» (٣٢) وفي «الاقتضاء» (٩) بإسنادٍ ضعيفٍ.

ورجالها، ونسائها، وأطفالها؛ فالأزمة الآن - وربِّ الكعبة - هي أزمة خلقٍ وتربية!!

إن أرضَ الدعوة - الآن - تحتاجُ إلى علماء ربانيين صادقين لا يجاملون - أبدًا -على حساب المنهج والتربية والخلق.

ربما لا ترى - الآن - شابًّا من شبابنا يرحم والدًا من آبائنا في المسجد؛ فضلًا عن وسيلة المواصلات، أو الشارع، أو في وظيفةٍ من الوظائف - إلا من رحم ربك - ربما يدخلُ عليك في وظيفتك - وأنت مسئولٌ - رجلٌ في سنٍّ والدك فتنظر إليه باستهتارٍ شديدٍ، ولا تعطيه مكانته من التوقير والاحترام والإجلال!!

وربما ترى الأختَ تلبسُ النقابَ، ولكنها ربما خلعت جواربها وقُفَّازها، وأظهرت نصف وجهها، وربما تضحكُ في محلٍّ عام ضحكةً تلفت أنظارَ من في المحلِّ جميعًا!!

وربما ترى رجلًا يحافظ على الصلوات في بيت الله؛ لكنه سبَّابٌ لعَّانٌ فحَّاشٌ في كل ألفاظه في البيت؛ فيحتاج إلى حسن الخلق.

وربما ترى مسئولًا يقف الناسُ بين يديه لمركزه ومنصبه؛ لكنه إن تكلم وتحرك لسانه لا يتكلم إلا بالسب واللعن والطعن!

وربما ترى مهندسًا قد وكَّله الله على أموال المسلمين؛ لكنه متخصِّصٌ في الغش والخيانة، يبني العمارات الشاهقةَ وبعد سنة أو سنتين تخرُّ العمارةُ على كلِّ من فيها، فيقتل من يقتل، ويهلك من يهلك!!

وربما ترى ابنًا في البيت يسبُّ أباه وأخاه الأكبر منه، وأخته، ويضرب أمه ويُهينها!!

وربما ترى بنتًا خرجت من بيتها عن قصدٍ وعن عمدٍ وهي شبهُ عاريةٍ على مرأى ومسمع من أبيها وأمها!!

فنحن قد لا نحتاجُ إلى كثيرٍ من الجوانب المادية الأخرى كما نحتاج إلى حسن الخلق.

فما قيمةُ علمك إن لم تكن حَسَن الخلق؟ ما قيمة العلم عند رجلٍ إن زلَّ أخوه زلَّةً

في حقِّه نسي كلَّ فضائله ومناقبه؟!

فحُسْن الخلق - أيُّها الإخوة - ليس كلمةً؛ إنما هو منهجٌ ودينٌ؛ لذا ستعجبُ إن عَلِمْتَ أن النبيَّ ﷺ إنما لَخَّص المنهج الذي بعث به في إتمام حسن الخلق؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**»(١).

- **فما هو حُسْنُ الخلق؟**

الحُسْنُ: ضد القبح، يُقال: امرأةٌ حسناءُ يعني جميلةً، ويقال: رجلٌ حسنٌ يعني جميل، والحُسَّانة؛ كما قال أهل اللغة هو: أَحَسَنُ مِنَ الحسن، والخلق: اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلق عليها(٢).

قال الجُرجانيُّ - وهو من أهل اللغة: «الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة، يصدر عنها الأفعالُ بيسر وسهولة من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورَوِيَّة؛ فإن كان الصادر عنها الأفعالَ الجميلةَ عقلًا وشرعًا بسهولةٍ سُمِّيت هذه الطبيعة أو الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر من هذه الهيئة أو الطبيعة الأفعالَ القبيحةَ سُمِّيت هذه الهيئة أو الطبيعة خُلقًا سيِّئًا»(٣).

○ **أنواعُ الخلق وأقسامهُ:**

- **القسم الأول: الخلق الجبلي:**

وهو الذي فُطر الشخصُ عليه؛ كما في «**صحيح مسلم**»(٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ لِلأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله؛ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**».

---

(١) سيأتي تخريجه - إن شاء الله -.

(٢) راجع: «مقاييس اللغة» (٢/ ٥٧، ١١٤)، و«القاموس المحيط» (٤/ ٢١٥ و ٢١٦)، و«لسان العرب» (١٣/ ١١٥ ـ ١١٧).

(٣) «التعريفات» للجرجاني (ص: ١٣٦) بتصرفٍ يسيرٍ، وانظر: «الإحياء» للغزالي (٣/ ٥٨).

(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ (١٧، ٢٥)، ورواه أيضًا برقم (١٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وفي روايةٍ[(١)]: قَالَ: يَا رَسُولَ الله! أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا»، قَالَ: الحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ.

فالأخلاق عنده غريزية فطرية غير متكلِّفة؛ بل هي سجية وطبيعة فيه.

- **القسم الثاني: وهو المكتسب:**

وعليه أدلةٌ كثيرةٌ من الشرع؛ بل ومن الواقع أيضًا؛ قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

قال السعديُّ رحمه الله **في تفسير الآية**: «﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد فاز وربح من طهَّر نفسه، ونقَّاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق».

وقال: «قولُه تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]؛ أي: طهَّر نفسه من الذنوب، ونقَّاها من العيوب، ورقَّاها بطاعة علام الغيوب، وعلَّاها ورفع قَدْرها وشأْنها بالعلم النافع والعمل الصالح».

فالناسُ صنفان: صنفٌ يقهر نفسه ويلجمها بلجام التقوى والخوف من الله، ويجعل النفسَ مطيةً إلى الطاعة والخير، وصنفٌ تركبه نفسه وتقوده إلى كل شهوة وشبهة.

والحاصل أن هاتين الآيتين كما هو واضحٌ بجلاء يَدُلَّان على أن الأخلاق تتغير بالتربية والتزكية.

ولا شك أنَّ الإيمانَ يُهذِّب الأخلاق، ويزكِّي أصْحَابه، ويُطَهِّر الضمائرَ والقلوبَ، وشتَّان شتَّان بين أخلاقِ رجلٍ يحافظ على الصلوات، مجددٍ للإيمان، مصححٍ للعقيدة،

---

(١) عند البخاريِّ في «الأدب المفرد» (٩٧٥)، وفي «خلق أفعال العباد» (٢٨)، وأبي داود، كتاب الأدب، باب في قبلة الجسد (٥٢٢٥) من حديث الزارع بن عامر العبدي رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (٤/ ٢٠٥، ٢٠٦)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٨٤)، وفي «خلق أفعال العباد» (٢٧) من حديث أشج عبد القيس به، وصحَّحه الألبانيُّ في «الظلال» (١٩٠)، و«صحيح الأدب» وغيرهما.

يواظبُ على دروس العلم، وبين أخلاق رجلٍ آخر لا يجلسُ إلا في أماكن اللهو والمجون والفتن والمعاصي.

ففي «الصحيحين»(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً**».

وأظنكم - جميعًا - تعلمون أخلاقَ عمر ﷺ قبل الإسلام؛ تلك الأخلاقُ التي قادته يومًا أن يفكِّر في أن يقتل رسولَ الله ﷺ، ولكن انظر إليه بعدما زكَّى الله نفسه بالإيمان، وشرح اللهُ صدرَه للإسلام، كان لا يقبل نسمة هواءٍ باردةٍ تهبُّ على رسول الله ﷺ إن كان يعلمُ أنها تؤذي حبيبه ومصطفاه؛ فلقد تغير تمامَ التغيير، وتحوَّل إلى محبٍّ صادقٍ.

ففي «صحيح البخاري»(٢) من حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**»؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَالله لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**».

قال الخطابيُّ - فيما نقله عنه الحافظُ في «الفتح»(٣):

«حُبُّ الإنسان لنفسه طبع، وحُبُّ الإنسان لغيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حُبَّ الاختيار؛ إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك (٥٥٣٤)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء (٢٦٢٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كان يمين النبي ﷺ؟ (٦٦٣٢).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (١١ / ٥٣٦).

قال الحافظ:

«قُلْتُ: فعلى هذا فجواب عمر أولًا كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبيَّ ﷺ أحب إليه من نفسه؛ لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيارُ، ولذلك حصل الجوابُ بقوله: الآن يا عمر؛ أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب».

وها هم سحرةُ فرعون يُظهرون خُلُقَهم في هذه الكلمات: ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٤]؛ فلما رأوا المعجزةَ تتحقق بين أيديهم، وتحولت عصا موسى بالفعل إلى حيةٍ عظيمةٍ حقيقية، وهم يعرفون تمامًا - فهم أعلم من غيرهم - بأن عصيهم لا تتحول إلى ثعابين؛ وإنما هم يسحرون أعينَ الناس فقط، يقول تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]؛ فهذا خيالٌ وليس واقعًا حقيقيًّا؛ فلما رأوا العصا تحولت إلى ثعبان حقيقيٍّ بكلِّ يسرٍ وسهولةٍ، وبدون تلكؤ خرُّوا سُجَّدًا لله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٧ - ٥٠]، و﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ [طه:٧٢].

إذًا؛ فالأخلاق تتغير بالتربية والتزكية والتهذيب، وبالتحلُّم والتعلُّم، وبالإيمان، والتقوى، والدعاء.

يقول القزوينيُّ - وهو من أهل اللغة [(١)]: «حُسْنُ الخلقِ سلامةُ النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال، وقد يكون ذلك في ذات الله، وقد يكون فيما بين الناس، أما ما يتعلقُ بذات الله ﷻ؛ فهو أن يكون العبدُ منشرح الصدر لأوامر الله تعالى ونواهيه بفعل ما فرض اللهُ عليه، طيب النفس به، سلسًا نحوه، وينتهي عما حرم اللهُ عليه، راضيًا به، غير متضجر منه، ويرغب في نوافل الخير، ويترك كثيرًا من المباح لوجهه تعالى وتقدَّس، إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية من فعله، مستبشرًا لذلك، غير ضجرٍ منه، ولا متعسرٍ به».

(١) «مختصر شعب الإيمان» للقزويني (١١٦، ١١٧).

فمقتضى حسن الخلق مع الله أن يقول الله: «أمرتُ ونهيتُ»، وأن يقول العبدُ صاحب الخلق الحسن: «سمعتُ وأطعتُ»، يقول تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

أما في المعاملات بين الناس؛ فصاحبُ الخلق الحسن يكون سمحًا لحقوقه، لا يطالب غيره بها، ويُوفي ما يجب لغيره عليه منها؛ فهو لا يرى لنفسه حقًّا على غيره؛ فما الذي يُعطيني الحق أن أرى لنفسي حقًّا على غيري؟ فصاحب الخلق الحسن لا يعامل الناس هكذا؛ بل تراه سمحًا في حقوقه، سليم الصدر، طيب النفس.

قال الماورديُّ[١]: «حسن الخلق: أن يكون سهل العريكة، ليِّن الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة».

وجِمَاعُ حُسْن الخلق مع الناس أمران؛ هما بذلُ المعروف قولًا وفعلًا، وكفُّ الأذى قولًا وفعلًا، وهذا إنما يقوم على خمسة أركان: العلم، والجود، والصبر، وطيب العود، وصحة الإسلام.

أما العلم؛ فلأنه يعرف به معالي الأخلاق، وسفاسف الأخلاق، فيمكنه العلم من أن يتحلى بمعالي هذه الأخلاق ومن ترك سفسافها، والله ﷻ يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفاسفها؛ كما أخبرنا بذلك نبينا ﷺ[٢].

أما الجود؛ فبسماحة النفس؛ فهو يبذلُ وينقادُ لكل ما تأمره به النفسُ الباذلةُ السخية من كرمٍ وفضلٍ.

وأما الصبر؛ فلأنه إن لم يصبر على احتمال ذلك والقيام بأعباء كل ذلك لن يصل إليه.

أما طِيبُ العُودِ؛ فهذه منَّةٌ من الله تعالى عليه أن يخلقه سلسًا سهلًا غير معقدٍ، سريع الاستجابة لداعي الخيرات.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماورديِّ (٢٣٧).

(٢) سيأتي - إن شاء الله -.

أما صحة الإسلام؛ فهي جماع ذلك، والمصحح لكلِّ خلقٍ حسن؛ فإنه بحسب قوة إيمانه، وتصديقه بالجزاء، وحسن موعود الله وثوابه، يسهل عليه تحمُّل ذلك؛ بل ويتلذذ بالصبر على كل العقبات التي تصادفه في طريق تحقيق ذلك، والله الموفق والمعين [1].

أيها الأفاضل: لقد أمرنا اللهُ تعالى في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن بحسن الخلق؛ أكتفي منها بهذه النصوص الكريمة: أبدأ هذه الآي بقول الله تعالى في حقِّ صاحب أعظم خلق؛ الذي زكَّاه ربُّه - جَلَّ وعَلَا - بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال الله ﷻ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣].

وقال الله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وقال الله جَلَّ وعَلَا: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣].

وقال الله ﷻ في صفات عباد الرحمن: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا

---

(١) «تهذيب السنن» لابن القيم (١٣/ ١٣٠ شرح «السنن»)؛ راجع في هذا الباب: «نضرة النعيم» (٥/ ١٥٦٩ ـ ١٥٧٢).

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٧٠﴾ [الفرقان:٦٣ - ٧٠].

وقال الله ﷻ حكايةً عن لقمان وهو يوصي ولده: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٧ - ١٩].

وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال جَلَّ وعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

ومن النصوص النبوية في ذلك ما يلي: **روى أبو داود والترمذيُّ في «سننيهما»، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» وغيرهم**[(١)] من حديث عائشة ﵂، وكذلك من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**». وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على ثقل حسن الخلق في الميزان.

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»، والحاكم في «مستدركه» وقال: «صحيحٌ على شرط مسلم»[(٢)] من حديث أبي هريرة ﵁ أن

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٤٧٩٨)، وأحمد (٦/ ٦٤، ٩٠، ١٣٣، ١٨٧)، والحاكم (١/ ٦٠)، وابن حبان (١٩٢٧)، وصحَّحه العلامة الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٩٣٢)، و«الصحيحة» (٧٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٣٨١)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، وأبو يعلى في «مسنده» كما «إتحاف الخيرة» (٥٢١٧)، والحاكم (٢ / ٦١٣)، والطحاويُّ في «المشكل» (٤٤٣٢)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٩٧٨) من حديث أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «**صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية «**مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**» عند البزار في «مسنده» (٨٩٤٩)، والقضاعيِّ في «مسنده» (١١٦٥)، وتمَّام في «فوائده» (٢٧٦)، والبيهقيِّ في «الكبرى» (١٠/ ١٩١)، والخرائطيِّ في «مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ» (١) .

وله شواهدُ عدَّة؛ فأخرجه ابن وهب في «جامعه» (ص: ٧٥)، وفي «مصنفه» (٧/ ٤٤٠) من طريق زيد بن أسلم مرسلًا، وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٣) عن مالك - وهو في «الموطأ» (٣٣٥٧) بلاغًا بلفظ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْخُلُقِ**». وأخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» =

النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ».

لاحظ أن النبيَّ ﷺ لخَّص الغاية من بعثته ورسالته في إتمام مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومَعالي الشيم والأحوال التي يشهد بحسنها كلُّ عاقل، ونهى عن سفسافها ومساوئها ومرذولها!

ولا غرو إذا فهمنا الأخلاق بمعناها العام في ذلك في أدب العبد مع ربه، ومع نبيِّه، ومع الخَلْق، وهي بهذا المعنى الواسع تعني الدينَ كلَّه، أما إذا قَصَرْنا الأخلاق على المعنى الجزئي في التعامل مع الخلق فحسب؛ فهذا أسلوبٌ نبويٌّ بليغٌ يلفت به الأنظارَ لبيان عِظَم الأخلاق، وجلال قدرها ومكانتها؛ كقوله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»[1]، وقوله: «الحَجُّ عَرَفَةُ»[2] وكلا المعنيين مراد. وأمر بها ﷺ بوضوحٍ وجلاءٍ، وأعلنها لأهل مكة صراحة بلا خفاء؛ ففي «الصحيحين»[3] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي، فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَأْتِيهِ الخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ ائْتِنِي. فَانْطَلَقَ الأَخُ؛ حَتَّى قَدِمَهُ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ، فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ».

=

(٢٠/ ٦٥)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٩٨٠) وغيرهما من حديث معاذ مرفوعًا بلفظ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ عَلَى تَمَامِ مَحَاسِنِ الأَخْلاَقِ»، وفي إسناده عبد الرحمن بن أبي بكر الجدعاني وهو ضعيف؛ كما قال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٣٣١)، وأخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» (٦٨٩٥)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٩٧٩)، والبغويُّ في «شرح السنة» (٣٦٢٢) و(٣٦٢٣) من حديث جابر مرفوعًا. راجع: «الضعيفة» (٢٠٨٧)، و«المجمع» (٨/ ١١٧)؛ فبان أن الحديث صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ كما قال الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤ / ٣٣٣ و٣٣٤). وانظر: «الصحيحة» (٤٥)، و«صحيح الجامع» (٢٣٤٩).

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان (٥٥) عن تميم الداريِّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٩ و ٣١٠)، وأبو داودَ (١٩٤٩)، والترمذيُّ (٨٨٩)، والنسائيُّ (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصححه الألبانيُّ في «الإرواء» (١٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر رضي الله عنه (٣٨٦١)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٢٤٧٤).

وتدبَّر معي هذا الحديث الجميل الذي رواه الترمذيُّ في «السنن»(١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ؛ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «**الْمُتَكَبِّرُونَ**».

وفي رواية في «**الصحيحين**»(٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا**».

وفي «مسند» أحمد، و«سنن» أبي داود والترمذي وغيرهم(٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللهَ لَيَبْغَضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ**».

والفاحش لا يُخرج إلا الفحش والبذاءة، لا يحسن الكلامَ الطيبَ، ولا يجيد إلا السبَّ واللعن، حتى مع زوجته، وهي أقربُ الناس إليه؛ بل حتى مع أولاده، فربما لا ينادي على ولده إلا بالسباب، ولا يأمر امرأته إلا بالفحش من القول؛ فليحذر وليتذكر قول صاحب الخلق ﷺ: «**وَإِنَّ اللهَ لَيَبْغَضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ**»!!

وفي «سنن» الترمذي(٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ**».

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨)، وصحَّحه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٧٩١).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٩)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢١).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب حسن الخلق (٤٧٩٩)، والترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد في «مسنده» (٦/ ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٤٦٤)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٨٧٦)، و«صحيح الجامع» (٥٦٣٢).

(٤) أخرجه الترمذيُّ، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ (٢٠٠٣)، وصححه العلامة الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٧٢٦).

وروى أبو داود في «السنن»، والطبراني في «الكبير»، و«الأوسط»، والبيهقيُّ في «الكبرى» وغيرهم بسندٍ حسنٍ بشواهده [(١)] من حديث أَبِي أُمَامَةَ الباهلي رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ**».

ويقولُ أَنَسٌ رضي الله عنه [(٢)]: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ؛ فَقُلْتُ - والقائِلُ أَنَسٌ: وَاللهِ لاَ أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي - قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - فَقَالَ: «**يَا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ.

فواللهِ ما عَنَّفَهُ ولا وَبَّخَهُ؛ بل لاطفه وداعبه! بالله لو أمرت ولدك أن يذهب إلى قضاء حاجة وتلكَّأ ماذا سيكون حالك؟! صلَّى الله على صاحب الخلق، ولم أجد أبدًا في تاريخ الدنيا كلِّها، ولا في تاريخ البشر بشرًا أرحم من رسول الله ﷺ.

وفي «**صحيح مسلم**» [(٣)] من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الأُولَى، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي - قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ».

تصوَّرْ كَمْ طفلًا من أولاد الصحابة يسلِّمُ عليهم رسول الله ﷺ ويمسحُ بيديه الشريفتين على خدَّي كلِّ واحدٍ منهم؟ فالنبيُّ ﷺ يقول لأنسٍ: «**يَا أُنَيْسُ**»، وكان يلاطف السيدة عائشة؛ فيقول لها: «**يَا عَائِشُ**».

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٤٨٠٠)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٨٠١٧)، وفي «الكبرى» (٢٠٩٦٥)، (١٠/٢٤٩)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٧٤٨٨) و«الأوسط» (٤٦٩٣)، وفي «مسند الشاميين» (١٥٩٤)، والرويانيُّ في «مسنده» (١٢٠٠)، وحسَّنه بشواهده الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٧٣).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣١٠).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبيِّ ﷺ ولين مسه والتبرك بمسحه (٢٣٢٩).

قال أَنَسٌ ﵁[١]: «والله لَقَدْ خَدَمْتُه تِسْعَ سِنِينَ مَا علِمْتُه قَالَ لِشيءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وكَذَا؟ أو لِشَيْءٍ تَرَكْتُه: هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذا؟».

وفي لفظ «**الصحيحين**»[٢]: قال أَنَسٌ ﵁: «خَدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَالله مَا قَالَ لِي: أُفًّا قطُّ، وَلاَ قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا؟».

وفي «مسند» أحمد، و«سنن» أبي داود والترمذي وغيرهم، من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هي الْحَالِقَةُ**»[٣].

قال الله - جَلَّ وعَلَا: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤]؛ فالإصلاح بين الناس من أعظم القربات، وكذا الأمر بالمعروف، ويتبعه النهي عن المنكر؛ فهو من شروط خيرية الأمة؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»، والترمذيُّ في «سننه» واللفظ له بسندٍ حسن[٤] من حديث ابن مسعود ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ**»؛ أي: لا يتعالى، ولا يعرف الكبر.

والأحاديثُ كثيرةٌ جدًّا في بيان منزلة حسن الخلق.

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٨)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٤)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٣٩١)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين (٤٩١٩)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٥٦) (٢٥٠٩)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٣٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤١٥)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة عن رسول الله ﷺ (باب ٤٥) (٢٤٨٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصحَّحه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٩٣٨).

- **وأودُّ أن أقف مع فضائل حسن الخلق:**

فمنها: أن حسن الخلق امتثالٌ لأمر الله في آياتٍ كثيرةٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وكذلك امتثالٌ لأمر النبيِّ ﷺ؛ كما في حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال له: «**اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1]. وهذا ثابتٌ أيضًا عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

ومن فضائل حسن الخلق: أن الله أثنى به على نبيه ﷺ؛ فقال جَلَّ وعَلَا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

ومنها: أنَّ مَن رزقه اللهُ حُسْنَ الخلق يفوز بمحبة الله تعالى، وهذه منزلة عظيمة؛ كما قال - عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ الله إِلَى الله أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[2].

وقد ذكرتُ حديث رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»[3]؛ فحسن الخلق يجعلك محبوبًا لله، محبوبًا لرسول الله ﷺ.

وحُسْن الخلق من أسباب النجاة من النار؛ كما قال - عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ كَانَ لَيِّنًا هَيِّنًا سَهْلًا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ**»[4].

وحُسْن الخلق يثقل ميزان العبد يوم القيامة؛ كما ذكرت حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وحُسْن الخلق يدلُّ على كمال إيمان العبد؛ كما في الحديث: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/١٥٣، ١٥٨، ١٧٧)، والترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب معاشرة النساء (١٩٨٧)، والدارميُّ (٢٧٩١)، والحاكم (١/١٢١)؛ وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٣)، و «صحيح الجامع» (٩٧).

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (٤٧٨) (١/١٨٣)، وفي «الأوسط» (٦/٢٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/٤٤٣)،وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٧٩)، و «الصحيحة» (٤٣٢) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه.

(٣) تقدم آنفًا.

(٤) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٥٠٦٠)، والبيهقيُّ في «الكبرى» (١٠/ ١٩٤)، والحاكم في«المستدرك» (١/ ٢١٥)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبيُّ، وصحَّحه العلامة الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٤٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا»[(١)]. وحُسْنُ الخلق محبوبٌ إلى الله؛ فالله يحبُّ معالي الأمور؛ كما في الحديث الذي رواه **الطبرانيُّ** في **«الكبير»**، **والبيهقيُّ** في **«الأسماء والصفات»** **وغيرهما**[(٢)] بسندٍ صحيح من حديث الحسين بن علي ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»**.

وحُسْن الخلق خيرُ عطاءٍ من الله ﷻ للعبد؛ كما في الحديث الذي رواه **أحمد** في **«مسنده»**، **وابن ماجه** في **«السنن»**[(٣)] بسندٍ صحَّحه شيخُنا الألبانيُّ ﷺ من حديث أسامة بن شريك ﷺ عن النبيِّ ﷺ: **«خَيْرُ مَا أُعْطِيَ الإِنْسَانُ خُلُقٌ حَسَنٌ»**.

وحُسْن الخلق يبلغ به صاحبه درجة الصائم القائم؛ كما تقدَّم؛ ففضائل حسن الخلق عظيمةٌ كريمةٌ جليلةٌ. وأنا أعجب لدين تتبوأ فيه الأخلاقُ هذه المكانةَ السامقةَ، والمنزلةَ الرفيعةَ العاليةَ، حَتَّى سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ فَقَالَ: **«تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ»**[(٤)].

قال ابنُ القيم ﷺ[(٥)]: «جمع النبيُّ ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله تُصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يُصلح ما بينه وبين خلقه؛ فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته».

وبعد الحديث عن فضائل حسن الخلق ومنزلته الرقراقة؛ أودُّ أن أبين أصوله

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠)، وأبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢)، والترمذيُّ، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (١١٦٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٨٤).

(٢) أخرجه الطبرانيُّ (٢٨٩٤)، والبيهقيُّ في **«الأسماء»** (ص: ٥٣)، وهو في «الصحيحة» (برقم: ١٦٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٩١)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٦)، وابن أبي شيبة في **«مسنده»** (٧٨١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٢١)، و«الصحيحة» (٤٣٢).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٨٩، ٢٩٤)، والترمذيُّ (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، والطيالسي (٢٥٩٦) بسندٍ حَسَّنه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٧٧).

(٥) «الفوائد» (ص: ٥٤).

وأركانه؛ فَحُسْنُ الخلق يقومُ على أربعة أركان، ومنشأ جميع الأخلاق السافلة أيضًا على أربعة أركان، ستتعرف عليها بإيجازٍ أولًا، ثم أتحدثُ مع أساس الخُلُقِ مع الخَلْق؛ فلقد ذكر ابنُ القيم رحمه الله في هذه الثانية: أحد عشر مشهدًا.

فأقولُ: حُسْن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور أبدًا قيامُ ساقه إلا عليها؛ ألا وهي: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

قال ابنُ القيم رحمه الله[1]: «**فالصبر** يحملُ الإنسانَ على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم، والأناة، وهذه هي أركان الحكمة؛ فالحكمةُ التي امتن اللهُ بها على من يشاء من عباده، وهم أهل الفضل والخير؛ كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

أركانها: «العلم والحلم والأناة».

وآفاتها وأضدادها ومعاول هدمها: «الجهل والطيش والعجلة»[2].

أما العفة - وهي الركن الثاني من أركان حسن الخلق: فهي تحمل العبدَ على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل؛ بل وتحمل العفةُ صاحبها على الحياء، والحياء رأسُ كلِّ خير؛ بل وتمنع العفةُ صاحبَها عن الفحشاء، وعن البخل، وعن الكذب، وعن الغيبة والنميمة.

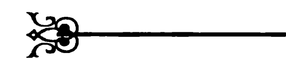
أما الركن الثالث من أركان حسن الخلق؛ فالشجاعة: والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار الأخلاق الفاضلة، والشيم الكريمة، وتحمله الشجاعةُ على الإقدام والبذل والسخاء؛ بل وتكبح الشجاعةُ صاحبَهَا عن البطش والظلم؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»[3]؛ نسأل اللهَ أن يرزقنا هذا الخلقَ النبيل؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٤).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٤٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٦١١٤)، ومسلمٌ، كتاب البر، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



والعَدْل - الذي هو الركن الرابع من أركان حسن الخلق - يحمل صاحبَهُ على التوسط في كلِّ شيء؛ فالوسط العدل؛ كما قال النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - فالعدل يحمل صاحبه على الوسطية بين طرفي الإِفراط والتفريط، ويحمل صاحبَه على خلق الجود والسخاء الذي هو التوسط بين الذل والقِحة، ويحمل صاحبَه أيضًا على الشجاعة التي هي التوسط بين الجبن والتهور، ويحمل صاحبه أيضًا على خلق الحلم الذي هو التوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس؛ هذه هي أركان حسن الخلق.

وكذلك الأخلاق المنحطة السافلة بناؤها أيضًا على أربعة أركان وهي: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالـجَهْلُ هو الأساسُ الأولُ لكلِّ خلق منحط سافل! وهو أنواع؛ فمنها: الجهلُ بالله، والجهلُ برسول الله ﷺ، وبالدين، والجهلُ بقَدْر من تجهل عليه، والجهلُ بقدر نفسك، والجهلُ بقدر الغاية التي خلقت من أجلها. وأنا أقولُ: إن سرَّ التشرذم والتهارج والنزاع والخلاف بين العاملين على الساحة الإسلامية بصفة خاصة وبين الأمة المسلمة بصفةٍ عامة أراه يتمثلُ في سببين: الجهل - وهو أخطر هذين السببين - والهوى، ولو أتيتني بأيِّ مرضٍ من أمراض الأمة عامة سأدرج لك هذا المرَض أيًّا كان نوعه تحت مرضٍ من هذين المرضين، أو داءٍ من هذين الداءين!! والدواء للجهل هو العلم، ودواء الهوى هو الإخلاص والتجرد؛ نسأل الله أن يعلمنا وأن يرزقنا الإخلاص والتجرد في الأقوال والأحوال والأعمال؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه؛ فالجهل يُري صاحبه الحسن قبيحًا! تقول: قال الله وقال رسوله؛ فربما يردُّ عليك أحدهم بسفاهةٍ ليسئ إلى العالم وعلمه في آنٍ! ويُري الجهلُ صاحبَهُ القبيح حسنًا؛ فتراه يُقبل على المعصية، ويغرق في مستنقع الشهوات، ويظن بأن هذا القبيح هو الحسن بعينه، ويُري الجهلُ صاحبه الكمال نقصًا، والنقص كمالًا.

أما الظُّلْمُ؛ فهو يحمل صاحبه على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب الظالمُ في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الحلم والأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين الظالمُ في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضعُ في موضع

العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

أما الشَّهْوةُ - وهي المرض الثالث من أمراض الأخلاق السيئة - فهي تحمل الإنسان على الحرص، وعلى الشح، وعلى البخل؛ فمرض الشهوة مرضٌ يتعلق بهذه الأعراض الدنيوية؛ لأن الفتن نوعان لا ثالث لها: فتن الشبهات، وفتن الشهوات، أما فتن الشبهات، فقد مزقت الأمة إلى فرق؛ قال عنها النبيُّ ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «**الْجَمَاعَةُ**»(١)؛ نسأل الله أن نكون من الفرقة الناجية؛ ففتنة الشبهات مزقت الأمة.

قال ابنُ القيم رحمه الله(٢): «وهل أوقع القدريةَ والمرجئةَ والخوارجَ والمعتزلةَ والروافضَ وسائرَ طوائف أهل البدع فيما وقعوا فيه إلا سوء الفهم عن الله ورسوله».

أما فتنةُ الشهوات؛ فهي فتنةٌ خطيرة أيضًا؛ قال فيها النبيُّ ﷺ كما في «الصحيحين»(٣): «.. **فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**».

فالشهوةُ تحمل صاحبها على الحرص والشح والبخل وعدم العفة والجشع والذل والدناءة؛ لأنه يريدُ المال فيذل نفسه، ويطمعُ في عَرَضٍ من أَعْرَاضِ الدنيا؛ فيضحِّي من

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا، وأخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، والدارميُّ (٢٥١٨)، وأبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة (٤٥٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما مرفوعًا، وأخرجه الترمذيُّ، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩١)، وأبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة (٤٥٩٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٢٠٤).

(٢) «الروح» (٦٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة (٣١٥٨)، ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، عن عمرو بن عوف رضي الله عنه (٢٩٦١).

أَجْلِ هذا العَرَضِ بالغالي والنفيس، حتى ولو ضحَّى من أَجْلِ ذلك بدينه! ولا حول ولا قوة إلا بالله.. لا تعجب؛ فهذا كلامُ النبيِّ ﷺ وهو الصادق الذي لا ينطق عن الهوى؛ كما في الحديث الذي **رواه مسلمٌ**(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**». حمله على ذلك خلق الشهوة.. شهوة الحرص.. شهوة جمع المال.. شهوة حب النساء.. شهوة حب المنصب.. شهوة حب الجاه.. إلى آخر هذه الشهوات الرخيصة؛ أسأل الله أن ينجينا وإياكم منها بمنه وكرمه.

أما الغضبُ؛ فهو خُلُقٌ ذميمٌ يحمل الإنسانَ على الكبر، وعلى الحقد، وعلى الحسد، وعلى العدوان، وعلى السفه، وعلى الظلم، والإنسان إذا غضب ولم يلجم نفسه في حالة الغضب أو بعد الغضب بلجام التقوى والخوف من الله؛ فإنه يتمادى في ظلمهِ، وسفههِ، وجهلهِ، وطيشهِ، وعدوانهِ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأساسُ الأخلاق - بعدما تعرفنا على أركان حسن الخلق وسوء الخلق: أن نعرفَ مقامَ الخُلُق، وأن الـخَلْق بأقدارهم مربوطون، وفي طاقتهم محبوسون، وعلى الحكم موقوفون، إذا أردت أن تتعامل مع الناس بخُلُقٍ تعرَّف على هذه الأسس، إذا عرفت ذلك استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء، أولًا: أَمْنُ الخلق منك، ومحبةُ الخلق لك، ونجاة الخلق بك(٢)؛ أي: ما قال لك أحدٌ شيئًا إلا بقدر، وما فعل بك أحدٌ شيئًا إلا بقدر، وما أحبك إنسان إلا بقدر، وما أبغضك إلا بقدر؛ فلابدَّ أن نفهمَ القدر، وأن نفهم أساس الأخلاق من هذا المنطلق، وبذلك ستعيش - أيها المسلم - حياةً جديدة مع زوجتك، وأولادك، ورئيسك، و مرؤوسيك، ومع نفسك، وقبل كلِّ ذلك مع الله جل جلاله، ومع رسول الله ﷺ .

ولا يمكن لمخلوقٍ أن يتجاوز قَدَر خالقه الذي قدَّره له؛ فالمخلوقون موقوفون

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨).
(٢) «المدارج» (٢/ ٣٠٣).

على الحكم الكوني القدري لا يتعدُّونه أبدًا؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩].

قال ابنُ القيم - رحمه الله تعالى - في «المدارج» [1]: «إن العبد إذا نظر إلى المخلوقين بعين الحقيقة لم يطالبهم بما لا يقدرون عليه، وامتثل فيهم أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بأخذ العفو منهم، فأمنوا من تكليفه إياهم، وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضًا؛ فإنهم يأمنون لائمته، فإنه في هذه الحال عاذر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشرعُ بإقامته فيهم؛ لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم، فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس، وعُذْرهم بما يعذر به المحبوس، وإذا بدا منهم في حقك تقصيرٌ، أو إساءة، أو تفريط؛ فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم؛ بل اغفر لهم ذلك واعذرهم؛ نظرًا إلى جريان الأحكام عليهم، وأنهم آلةٌ، وبذلك تشهد حقيقةَ جنايتهم عليك؛ كما قال بعض الصالحين لرجلٍ تعدَّى عليه وظلمه: «إن كنت ظالمًا؛ فالذي سلَّطك عليَّ ليس بظالم».

○ **وها هنا العبد يشهد أحدَ عشرَ مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق، وجنايتهم عليه:**

● **أحدها: «مَشْهَدُ القَدَرِ»**: وأن ما جرى عليه من الخلق بمشيئة الله وقضائه وقدره، حينئذٍ يرى هذا الأذى الذي أصابه من الخَلْق؛ كالمتأذي بالحرِّ مثلًا أو بالبرد أو بمصيبة الجوع، أو بالمرض، أو بالألم، أو بهبوب الريح، أو بانقطاع المطر... إلى غير ذلك؛ فكما أن الريح تهبُّ بقدر، فإن القول الذي يسمعه، وأن الفعل الذي يؤذيه إنما هو أيضًا بقدر؛ قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦]؛ فما شاء الله كان، ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده، وإذا شهد هذا: استراح، وعلم أنه كائنٌ لا محالة، فما للجزع منه وجه.

● **المَشْهَدُ الثاني: «مَشْهَدُ الصَّبْرِ»**: فالعبد يفكر في الصبر، وجزاء الصبر، وعاقبة الصابرين، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور.

---
(١) (٢/ ٣٠٤).

ويخلِّصه الصبرُ من ندامة مقابلة الظلم بالانتقام؛ فالذي يذوق حلاوةَ الصبر لا يفكر في أن ينتقم من أخيه لمجرد اعتدائه عليه؛ **قال ابنُ القيم**: «فما انتقم أحدٌ لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة، وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا - وهو محمودٌ - صبر اضطرارًا على أكبر منه - وهو مذمومٌ».

● **ثم بَعْد مشهدِ الصبر «مَشْهَدُ العَفْوِ»**: والله تعالى لا يزيد العبد بالعفو إلا عزًّا وكرامة؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا...**»[1]. وما انتقم أحدٌ لنفسه إلا ذلَّ.

قال ابنُ القيم[2]: «وفي الصفح والعفو والحلم من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها، ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام».

● **فإذا ذقت مشهدَ العفو وحلاوته رزقك اللهُ «الرِّضَا»** والرِّضَا لا يذوق حلاوته إلا أصحاب النفوس المطمئنة؛ لاسيما إذا كان ما أصبت به في الله ﷻ، وفي حق الله، وفي جنب الله ﷻ.

قال ابنُ القيم: «فإذا كان ما أصيب به في الله، وفي مرضاته ومحبته رَضِيَت النفسُ بما نالها في الله، وهذا شأن كلِّ محبٍّ صادق، يرضى بما يناله في رضا محبوبه من المكاره، ومتى تسخط به، وتشكى منه، كان ذلك دليلًا على كذبه في محبته».

فالعبد الصادق الصابر يرضى بما يتعرض له من الأذى في سبيل إرضاء محبوبه ﷻ.

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَبيْنِي وَبَيْنَ العَالَمِينَ خَرَابُ
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ الَّذِي فَوقَ التُّرَابِ تُرَابُ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «المدارج» (٢/ ٣٠٥).

● المَشْهَدُ الخَامِسُ: «مَشْهَدُ الإِحْسَان»: فيقابل الإساءة بالحسنة، وكان الصِّدِّيق يُحْسن إلى مسطح ويُكْرمه بعد أن عاتبه اللهُ تعالى لما امتنع عن الإنفاق عليه بسبب مشاركتهِ في حديث الإفك الشهير؛ فنزل القرآن: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢]؛ فيقابل السيئةَ بالحسنة، وهذه صفةٌ من صفات عباد الرحمن؛ قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان:٦٣]، لا يلتفت إلى الجهلاء ولا إلى الجاهلين، وهذه درجةٌ عاليةٌ قَلَّ من يصلُ إليها، أن يسيء إليك أخوك فتحسن إليه، أن يجهل عليك فتحلم عليه؛ فهذه درجة الصديقين، فيصل العبدُ بعد ما يذوق حلاوة الرضا إلى مشهد الإحسان، كلما أساء إليه أحدٌ أحسن إليه، ويهون على العبد في هذه المرتبة وفي هذا المشهد علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته ومحاها من صحيفته، وأثبتها في صحيفة من أساء إليه؛ فينبغي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك[1]، ويهون عليه أيضًا: أنه يعلم أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فكما أحسن في الدنيا إلى من أساء إليه؛ فإن الله - جَلَّ وعَلَا - يحسن إليه يوم القيامة إن أساء؛ فيبدِّل الله سيئاته حسنات.

قال ابنُ القيم: «فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك: عفوت عنه، وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذلِّك؛ فهكذا يفعل المحسنُ القادرُ العزيز الغني بك في إساءتك، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك». عاملهُ الله يوم القيامة بجنس عمله﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]؛ فيحسن إليك ربُّك سبحانه، فبعدما وصل إلى درجة أن يحسن إلى من يسيء إليه، فيذيقه اللهُ ﷻ برد القلب وسلامته، وهو مشهدٌ شريفٌ جدًّا لمن ذاق طعمه، وعرف حلاوته، وهو ألا يشتغل قلبه وسرُّه بما يتعرض له من الأذى على يد أخيه، فإذا نام لا يُفكر كيف ينتقم ويثأرُ لنفسه؛ لأن الله ﷻ يذيقه حلاوةً وبردًا وسلامةً في قلبه، فلا يجد في قلبه مكانًا للتفكير في الانتقام من أخيه الذي أساء إليه، ليس في قلبه غلٌّ ولا حقدٌ ولا حسدٌ؛ بل

---

(١) «المدارج» (٢/ ٣٠٥).

ينام الليل وهو يُشْهِدُ اللهَ على سلامةِ صدرِهِ وصفاءِ قلبِهِ، اللهم اجعلنا من هؤلاء الأصفياء.

● الـمَشْهَدُ السَّابِعُ: «مَشْهَدُ الأَمْنِ»: فإنه إذا ترك المقابلةَ والانتقامَ: أَمِن ما هو شَرٌّ من ذلك، وإذا انتقم واقَعَهُ الخوفُ ولا بُدَّ؛ فإنَّ ذلك يزرع العداوةَ، والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيرًا؛ فكم من حقيرٍ أردى عدوه الكبيرَ، فإذا غفر ولم ينتقم، ولم يقابل: أمن من تولد العداوة، أو زيادتها ولابد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه، ويكف من جزعه، بعكس الانتقام [(١)].

● فإذا ذُقت هذا المشهدَ، وذقت حلاوتَه انتقلت إلى «مَشْهَدِ الـجِهَادِ»: وهو أن تشهد أن ما أصابك من أذى الناس إنما هو بسبب جهادك في سبيل الله؛ كأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وكإقامة دين الله وإعلاء كلمته.

وصاحب هذا المقام قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن، فإن أراد أن يُسلِّم إليه الثمن، فليسلِّم هو السلعة؛ ليستحق ثمنها، فيجب عليك أن تسلِّم نفسك لله، وأن تسلم كلَّ ما تملك لله من أجل إعلاء كلمته، ومن أجل الدعوة إلى دينه، فإذا أُصبْتَ فقد وقع أجْرُك على الله بنص الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ﷺ؛ فلما عزم الصدِّيق - رضوان الله عليه - على تضمين أهل الردَّة، وأن يلزمهم بما أتلفوه من أموال المسلمين، ومن أنفسهم ودورهم وبيوتهم؛ فقال له عمر - رضوان الله عليه - بمشهد الصحابة: «يا خليفة رسول الله؛ تلك دماءٌ وأموالٌ ذهبت في الله، وأجورها على الله، ولا دية لشهيد»؛ لأن أجره قد وقع على الله ﷻ، فأقر الصحابةُ جميعًا قول عمر - رضوان الله عليه [(٢)] - فمن باع نفسه وعرضه وماله لله؛ فقد وقع أجره على الله يقينًا، فمن قام لله حتى أوذي في الله يحرم عليه أن ينتقم؛ كما قال لقمان لولده: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧]؛ فلابد أن تعلم أن من عزم الأمور أن تصبر على ما أصابك يا مَنْ أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر؛ لأنه لابد وحتمًا أنك ستتعرض للأذى - على اختلاف صوره وأشكاله - إن سرت على طريق

---

(١) «المدارج» (٢/ ٣٠٦).
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ١١٦).

الأنبياء والمرسلين؛ فالطريق إلى الله ليس مفروشًا بالورد، وليس ممهدًا بالزهور، ولكنه طريقٌ طويلٌ شاقٌّ، تعوي فيه الذئاب، مفروشٌ بالأشواك، مليءٌ بالدماء والأشلاء، لا تثمر شجرتُهُ إلا إذا رويت مِنْ آنٍ لآخر بدماء الأطهار الأبرار؛ فلابد أن تعلم طبيعةَ الطريق، حتى لا تنزلق مع أول منعطفٍ من منعطفات الفتن والمحن، ومع أوَّل ابتلاءٍ تصاب به، أو تتعرض له، إذا سرت على طريق الأنبياء، وعلى طريق سيد الأنبياء محمد ﷺ؛ فإذا ذقت مشهد الجهاد، وعرفت حلاوته ذقت «الـمَشْهَدَ التَّاسِعَ» وهو «مَشْهَدُ النِّعْمَةِ» وذلك من وجوه:

أحدها: أن تشهد نعمةَ الله ﷻ عليك يا من تعرضت للأذى في أن جعلك مظلومًا تترقب النصرَ من الله، ولم يجعلك ظالمًا تترقب النقمة والمقت من الله؛ فلو خيِّر العاقل بين الحالتين - ولابد من إحداهما - لاختار أن يكون مظلومًا.

ومنها: أن يشهد نعمةَ الله في التكفير بذلك من خطاياه؛ فإنه ما أصاب المؤمن همٌّ ولا غمٌّ ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه؛ فذلك في الحقيقة دواءٌ يستخرجُ به منه داء الخطايا والذنوب، ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلِّها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء؛ فهو مجنونٌ سفيهٌ؛ فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك، فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه، وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها؛ فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمرَّ؛ فإن لم يكن فوقها محنةٌ في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كُلَّ مصيبة دون مصيبة الدين فهينةٌ، وأنها في الحقيقة نعمةٌ، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة، وفي بعض الآثار: «أنه يتمنى أناسٌ يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض، لما يرون من ثواب أهل البلاء» هذا، وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما لَهُ قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض؛ فالعاقل يعُدُّ هذا ذخرًا ليوم الفقر والفاقة، ولا يطلبه بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئًا.

● الـمَشْهَدُ العَاشِرُ: «مَشْهَدُ الأُسْوَةِ»: وهو مشهدٌ شريفٌ لطيفٌ؛ فإن العاقل اللبيب لا يرضى أن يكون له أسوة إلا برسول الله ﷺ ؛ قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]؛ فإن أوذيتُ فواجب عليَّ أن أصبر كما صبر سيدُ أولي العزم من الرسل الذي قال له ربُّه: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف:٣٥].

قال ابنُ القيم [(١)]: «فأنبياء الله ورسله أشد الخلق امتحانًا بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور، ويكفي تدبُّر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يُؤْذَهُ مَنْ قبله، وقد قال له ورقة بن نوفل: «لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا» [(٢)]. وهذا مستمرٌّ في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ ؛ أفلا يرضى العبدُ أن يكون له أسوةٌ بخيار خلق الله، وخواص عباده: الأمثل فالأمثل؟ ومن أحبَّ معرفة ذلك فليقف على محن العلماء، وأذى الجهال لهم» انتهى.

● **فإذا ذقت حلاوةَ «مَشْهَدِ الأُسْوَةِ» مَنَّ الله ﷻ عليك بأعلى وأرقى مشهد؛ ألا وهو «مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ»**: وهو أجلُّ المشاهد في مراتب الإيذاء من الخلق، وهو أرفعها؛ فإن العبد إن امتلأ قلبُهُ بمحبة الله، والإخلاص لله، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرَّت عينُهُ به، ولم يأنس إلا به، واطمئن إليه، وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتخذ الله ﷻ وليًّا دون ما سواه، ففوض أموره كلَّها إليه، ورضي به وبقضائه، خيره وشره، وأحبه تعالى، وخافهُ ورجاه، وذكره، وتوكل عليه، فإنه بعد كلِّ ذلك لا يبقى في قلبه متسعٌ لشهود أذى الناس له البتة، فضلًا عن أن يشتغل قلبُهُ وفكرُهُ بطلب الانتقام؛ فهذا لا يكون إلا من قلبٍ ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه، فهو قلبٌ جائعٌ غير شبعان، فإذا رأى أيَّ طعامٍ رآه هَفَتْ إليه نوازعُهُ، وانبعثت إليه دواعيه، وأما من امتلأ قلبُهُ بأعلى الأغذية وأشرفها؛ فإنه لا يلتفت إلى ما دونها، وذلك فضلُ الله يؤتيه من

---

(١) «المدارج» (٢/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الوحي، باب (رقم ٣) (حديث٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

يشاء، والله ذو الفضل العظيم[(١)].

أَيُّهَا الأَحِبَّةُ: هذه المشاهد لا تتم إلا بتحسين خلقك مع الحق ﷻ بأن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذرًا؛ فأنت مقصِّرٌ على طول الخط، وأنا مقصرٌ على طول الخط؛ فكلُّ قولٍ، وكل عملٍ بدَر مني ومنك يوجب عذرًا لله، وأن تعلم أن كل ما آتاك منه ﷻ يوجب شكرًا؛ فالعبد السائر إلى الله يسير بين نعمتين: الأولى: مطالعة المنة. والثانية: مطالعة عيب النفس، فتشعر على طول الخط بالتقصير؛ فعلى العبد أن يعتذر لربه ﷻ دومًا.

قال بعضُ السلف: «لا أدري أي النعمتين أشكر: على ذنوب سترها على، وجعل لي بدلًا منها لسانًا حسنًا عند الناس، أم على نِعَمٍ أنعم بها عليَّ لستُ أهلًا لها؟».

قال ابنُ القيم في «المدارج»[(٢)]: «قال - أي: صاحب المنازل: «الدرجة الثانية: تحسين خلقك مع الحق، وتحسينه منك: أن تعلم أن كلَّ ما يأتي منك يوجب عذرًا، وأن كلَّ ما يأتي من الحقِّ يوجب شكرًا، وأن لا ترى له من الوفاء بدًّا»».

ثم علَّق ابن القيم بقوله: «وهذه الدرجة مبنيةٌ على قاعدتين:

إحداهما: أن تعلم أنك ناقصٌ، وكل ما يأتي من الناقص ناقص؛ فهو يوجب اعتذاره منه لا محالة؛ فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتي به من خيرٍ وشرٍّ، أما الشرُّ: فظاهر، وأما الخير: فيعتذر من نقصانه، ولا يراه صالحًا لربه.

فهو - مع إحسانه - معتذرٌ في إحسانه، ولذلك مدَحَ اللهُ أولياءه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]؛ فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى، والحامل له على هذا الاعتذار أمران:

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

الثاني: صدق محبته؛ فإن المحبَّ الصادق يتقربُ إلى محبوبه بغاية إمكانه، وهو

---

(١) «المدارج» (٢/ ٣٠٨).
(٢) (٢/ ٣٠٩).

معتذرٌ إليه، مستحي منه؛ أن يواجهه بما واجهه به، وهو يرى أن قَدْرهُ فوقه وأجلُّ منه، وهذا مشاهد في محبة المخلوقين.

القاعدة الثانية: استعظامُ كلِّ ما يصدر منه سبحانه إليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكرَ عليك، وأنك عاجزٌ عن شكره، ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة؛ فإن المحبَّ يستكثر من محبوبه كل ما يناله، فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه، كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطائه أعظم عنده من سروره بذلك العطاء؛ بل يغيب بسروره بذكره له عن سروره بالعطية، وإن كان المحبُّ يسره ذِكْرُ محبوبه له، وإن ناله بمساءة؛ كما قال القائلُ:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرَّني أني خطرت ببالكا

فكيف إذا ناله محبوبه بمسَرَّةٍ - وإن دقت - فإنه لا يراها إلا جليلةً خطيرةً؛ فكيف هذا مع الربِّ تعالى الذي لا يأتي أبدًا إلا بالخير؟ ويستحيلُ خلافُ ذلك في حقه، كما يستحيل عليه خلافُ كماله، وقد أفصح أعرف الخلق بربه عن هذا بقوله: «**والشَرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[1]؛ أي: لا يضاف إليك، ولا ينسب إليك، ولا يصدر منك، فإن أسماءه كلها حسنى، وصفاته كلها كمال، وأفعاله كلها فضل وعدل، وحكمة، ورحمة، ومصلحة؛ فبأي وجهٍ ينسب الشرُّ إليه ﷻ؟ فكلُّ ما يأتي منه؛ فله عليه الحمدُ والشكرُ، وله فيه النعمةُ والفضلُ.

قولُه: «وأن لا يرى من الوفاء بدًّا» يعني: أن معاملتك للحقِّ سبحانه بمقتضى الاعتذار من كلِّ ما منك، والشكر على ما منه: عَقْدٌ مع الله تعالى، لازمٌ لك أبدًا، لا ترى من الوفاء به بدًّا؛ فليس ذلك بأمرٍ عارضٍ، وحالٍ يحول؛ بل عقدٌ لازمٌ عليك الوفاءُ به إلى يوم القيامة». انتهى.

هذه بعض المشاهد التي يشهدها العبدُ من أذى الخلق إليه، ولا تتم له إلا إذا أصلح خُلُقه مع الخالق ﷻ.

وأختمُ هذه المنزلةَ السامية ببيان أخلاق الأسوة والقدوة نبيِّنا محمدٍ ﷺ؛ فإن

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الصلاة، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١) عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

النبيَّ ﷺ هو أحْسَن البشرية خَلْقًا وخُلُقًا؛ ففي «**الصحيحين**»(١) من حديث أنس ﷺ قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا»، ولقد صنَّف عُلَماؤُنا في أخلاقه وشمائله كثيرًا من المصنفات، لوعُدْت إلى هذه المصنفات والمجلدات الضَّخْمَة التي وقفت على جانبٍ يسيرٍ من أخلاق البشير النذير ﷺ لرأيت العجبَ العجاب(٢)، ولن نستطيع أن نقفَ عند كلِّ صفةٍ من أخلاقه؛ بل أُجْمِل لك أخلاقَهُ إجمالًا، وأقف بعدها مع بعض التفصيلات من جوانب خُلُقِ النبيِّ ﷺ فحسب.

لقد كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناسِ، وأشجعَ الناس، وأعدلَ الناس، وكان أزكى الناس، وكان أزهد الناس، وكان أشدَّ حياءً من العذراء في خِدْرها، وكان يقبل الهديةَ ويكافئ عليها، وكان لا يستكبر عن إجابة دعوة الأَمَةِ والفقير والمسكين، وكان يغضب لربه، ولا يغضب لنفسه أبدًا، وكان يضع الحجر على بطنه أحيانًا كثيرة من شدَّة الجوع وهو حبيب الله، إن وجد شواءً أكله، وإن وجد حلوًا أكله، وإن وجد دون خبز أكله، وإن وجد بطيخًا ورطبًا أكل الرطب بالبطيخ، وكان يعود المرضى، ويشهدُ الجنائز، وكان أشدَّ الناس تواضعًا، وكان أسكن الناس من غير كبرٍ ولا خيلاء، وكان يلبس شملة، ومَرَّةً يلبس بردةً يمانية، ومَرَّة يلبس سترة صوف، فما وجده من اللباس أمامه ميسرًا لبسه، يركب ما يسَّره اللهُ له، مرةً يركب فرسًا، ومرة بعيرًا، ومرة بغلة، ومرة حمارًا، ومرة يمشي على رجليه، ومرة حافيًا بدون نعلين، يجلس مع الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف بالبِّر لهم والوُد معهم، يقبل معذرة المعتذر إليه، يمازح أصحابهُ ولا يقول إلا حقًّا، يسابق زوجاته أحيانًا في السفر، تُرفع الأصواتُ عليه من بعض الأعراب الجفاة فيصبر ولا يغضب، لا يحتقر مسكينًا لفقره، ولا يهاب مُلْك مَلكٍ، ما ضرب أحدًا قط، لا خادمًا ولا امرأةً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما غضب لنفسه قط، إنما كان يغضب إذا انتهكت محارم الله، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، لم يكن فظًّا ولا غليظًا، ولا صخابًا بالأسواق، وما كان

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس (٦١٢٩)، وانظر: (٦٢٠٣)، ومسلمٌ، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود (٢١٥٠).

(٢) ومن ذلك «الشمائل المحمدية» للإمام الترمذي، ومختصره للعلامة الألباني، و«شمائل الرسول» للحافظ ابن كثير، و«أخلاق النبي ﷺ» لأبي الشيخ الأصبهاني وغيرها.



يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل النبيُّ ﷺ يده حتى يرسلها الآخر، ولم يكن يُعرف النبيُّ ﷺ في مجلسه بين أصحابه؛ لأنه كان يجلس حيث انتهى به المجلس، وكان يدعو أصحابه بكُناهم: يا أبا فلان، يا أبا فلان؛ إكرامًا لهم، واستمالة لقلوبهم، ومن لم تكن له منهم كنية كنَّاه، وكان أبعد الناس غضبًا، وأسرعهم رضًا، وكان أرأفَ الناس بالناس، وخيرَ الناس للناس، وصدق ربِّي - جَلَّ وعَلَا - إذ يقول في حقه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

[القلم:٤].

لقد كان النبيُّ ﷺ آيةً من آيات الله، وعجيبةً من عجائب الكون؛ فهو رسول الله ﷺ (١).

فهو رسولٌ من عند الله يتلقى الوحي من السماء ليربط الأرضَ بالسماء بأعظَمِ رباطٍ، وأشْرفِ صلةٍ.

وهو رجلُ حرب يضع الخُطَطَ للجيوش؛ بل ويقود الجيشَ بنفسه؛ بل إذا حمي الوطيس (٢)، واشتدت المعركةُ، وفرَّ الأبطالُ من حوله، صدَّ السهامَ والسيوفَ بنفسه، وصمد أمام الأعداء؛ فكان هو الثابت الشجاع المغوار.

وهو رجلُ أمة استطاع أن يقيم للإسلام دولةً من فتاتٍ متناثرٍ وسط صحراء تموجُ بالكفر والجهل موجًا؛ فإذا بدولة الإسلام بناءٌ شامخٌ لا يطاوله بناء، وذلك في مدة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق.

---

(١) وقد كتب بعضهم أن النبيَّ ﷺ زعيمٌ، وقائدٌ سياسيٌّ بارع، وأنه أعظم العظماء، وهذا كلُّه حق؛ لكن لا ينبغي على الإطلاق أن تنطلي علينا هذه الخدعة بأن تُقَدَّم لنا سيرة نبينا ﷺ على أنه واحدٌ من العظماء، أو قائدٌ من القادة الأبطال بعيدًا عن أنه رسولٌ من عند الله! فهذا خطأ عظيم؛ لأنك لو تعاملت مع سيرة النبيِّ ﷺ على أنه عظيمٌ من العظماء؛ فربما تأخذ منه وترد، وتقبل منه وترفض، وتتعامل مع مواقفهِ الجليلة التي يستحسنها عقلك معاملةً جليلة، وقد تتعامل مع موقف آخر معاملةً أخرى؛ لكن ينبغي أن تعلم أنه قبل كلِّ ذلك رسولٌ من عند الله، يجب عليك أن تتعامل معه على أنه رسول من عند الله رب العالمين.

(٢) والوطيس: التنور، ويكنى بها عن الحرب؛ فيقال: حمي الوطيس إذا اشتدت الحربُ؛ راجع: «اللسان» (٦/ ٢٥٥) مادة (وطس)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٦٣).

وهو أبٌ وربُّ أسرةٍ كبيرةٍ تحتاج كثيرًا من النفقات؛ من نفقات الفكر، والعواطف، والشعور، والتربية؛ فضلًا عن النفقات المادية، فضلًا على نفقات الوقت، فيقوم المصطفى بهذا كلِّه، وكأنه ما خلق إلا ليكون أبًا.

وهو رجلُ دعوةٍ أخذت الدعوةُ عقلَه، وفكره، وروحه، وعرقه، قال له ربُّه من أول يوم: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر:٢]؛ فقام النبيُّ ﷺ ولم يذق طعم الراحة حتى لقي ربَّه ومولاه.

وهو رجلٌ إنسانيٌّ من طرازٍ فريدٍ، تأخذ الأَمَةُ بيدهِ - كما ذكرت - فينصرف معها حتى يقضي لها حاجاتها كأنه ما خلق إلا ليمسح دموعَ البائسين، وليذهب آلامَ المحرومين.

وهو رجلٌ عابدٌ خاشعٌ أواهٌ، لا تراه يشعر بالأنس ولا بالسعادة إلا وهو في محراب العبادة، إذا ما وضع وجهه بين يدي سيده ومولاه، حتى تورَّمت قدماه من طول الوقوف بين يدي الله، وقيل له: يا رسول الله! أو لم يغفر اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[1]؛ فلما أراد الله - جَلَّ وعَلَا- أن يُقدِّم لدنيا الناس قدوةً حيةً لا تَبلى بعث المصطفى ﷺ؛ فكان النبيُّ ﷺ أعْظَمَ قدوةٍ عرفتها الأرض، وصدق ربي إذ يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]؛ لذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: «ما خلق اللهُ وما ذرأ وما برأ نفسًا هي أكرم عليه من محمد، وما أقسم الله بحياة أحدٍ غيره؛ قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢]».

ولذا أيها الأفاضل: لا يعرف قدر النبيِّ إلا الربُّ العليُّ؛ فما خاطب اللهُ نبيَّنا ﷺ باسمه المجرد قط؛ فلقد نادى الله على كلِّ الأنبياء بأسمائهم مجردًا إلا المصطفى ﷺ، تدبر معي هذه

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل حتى ترم قدماه (١١٣٠)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(٢) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (١٧/ ١٨)، (تفسير الحجر:٧٢)، وعزاه السيوطيُّ في «الدر» لابن أبي شيبة، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٩٣٤)، ولأبي يعلى، وأبي نعيم، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».

النداءات من رب الأرض والسماوات لأنبياء الله ورسله؛ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ [الصافات: ١٠٤: ١٠٥]، وقال: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [القصص:٣٠]، وقال: ﴿يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا ﴾ [هود: ٤٨]، وقال: ﴿ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال: ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ﴾ [مريم: ٧]، وقال: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢]، وقال: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦]؛ فلما أراد الله أن يخاطب نبينا ﷺ، قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥، ٤٦]، وقال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، ونادى عليه بصفته؛ فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر:١، ٢]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل:١، ٢]، وما ذكر الله اسم نبينا مجردًا في القرآن الكريم كلِّه قط إلا مقترنًا بصفة الرسالة والنبوة؛ فقال - جَلَّ وعَلَا: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، إن دلَّ هذا فإنما يدُلُّ على مكانةٍ عظيمةٍ لنبينا عند ربنا ﷻ.

وما أجمل قولَ عائشة ﵂ حينما سُئِلت عن خلقه - عليه الصلاة والسلام - فَلَخَّصَتْ خُلُقَ النبيِّ ﷺ تلخيصًا عجيبًا؛ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[(١)]. ولا أستطيع - والله - أن أقفَ مع أخلاقه هنا على جهة البسط والتفصيل، لو فعلت ذلك لاحتجت إلى مجلدات، ولقد أبدعت عائشةُ ﵂ حينما لَخَّصَتْ أخلاقَهُ في كلماتٍ! والذي يُمزِّق القلبَ، أن الأمةَ أصبحت تتعامل الآن مع أخلاق رسول الله ﷺ على أنها من باب الحكايات والأساطير، وكأنها ليست مسئولة أن تحوِّل هذه الأخلاقَ العظيمةَ الكريمةَ في حياتها إلى واقع عمليٍّ، وإلى منهج حياة؛ فمشكلةُ الأمة مشكلةٌ أخلاقيةٌ، وأنا لا أودُّ بهذا أن أقلل من مشكلة ذبح العقيدة التي ذبحت شرَّ ذبحة، وإنما إذا عادت الأمةُ إلى أخلاق النبيِّ ﷺ صححتِ العقيدةَ، وصححتِ العبادةَ، وصححت المعاملات، وصححت السلوكيات، وصححت علاقتها بربها؛ لذا حاول أعداؤنا بكل سبيل أن

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦).

يضعوا الحواجزَ والعقباتِ والعراقيلَ والسدودَ؛ حتى لا تستفيدَ الأمةُ من هذا الخلق المضيء، وحتى لا تستمد الأمةُ من هذه الدماء (الزكية) دماء لتتدفق من جديد في عروق مستقبلنا وأجيالنا، فَفَصَلَ الأعداءُ بين الأمة وبين قائدها الأعظم وقائدها الأكرم ﷺ، وصارت الأمةُ تتعامل مع أخلاقه تعاملًا ذهنيًا باردًا، ويخرج أحدنا يردِّد بلسانه هذه الأخلاق النبيلة، وكأنه ليس مطالبًا بأن يحولها في حياته إلى واقع عمليٍّ، وإلى منهج حياة؛ قال الله - جَلَّ وعَلَا -: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وفي «**صحيح مسلم**»[١] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قيل له يومًا: يَا رَسُولَ الله! ادْعُ عَلَى الْـمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**».

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما[٢]: «من آمن بالله واليوم الآخر كُتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف»؛ لأن الله قال له: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣].

وفي الحديث الذي رواه ابنُ سعدٍ في «الطبقات» مرسلًا؛ لكن رواه موصولًا الحاكمُ في «مستدركه»، وابنُ الأعرابي في «معجمه»[٣] بسندٍ صحيحٍ لغيره من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**».

وروى مسلمٌ في «صحيحه»[٤] من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ تَلاَ قَوْلَ الله ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩).
(٢) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٤٧١٤).
(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٥)، والدارميُّ في «سننه» (١٥) عن أبي صالح مرسلًا، وسندهُ صحيحٌ مرسلٌ؛ لكن وصله الحاكم في «مستدركه» (١/ ٩١)، والطبرانيُّ في «الأوسط» (٢٩٨١)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٢/ ٢٤٧) وقوَّى الحديث بطرقه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤٩٠) ويشهد له حديثُ مسلم المتقدم آنفًا.
(٤) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٣).

﴿تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» وَبَكَى؛ فَقَالَ اللهُ ﷻ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ - فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ». ربما لا يستوعب كثيرٌ هذا المعنى بالنظرة السريعة إلى واقع الأمة المهين الذليل! والجواب من ناحيتين:

الأولى: أن تكون نظرتك لواقع الأمة نظرةً عميقةً بجميع التاريخ وطوله، بمعنى ألا تقتصر نظرتك للأمة على هذه السنواتِ العجافِ المهينة التي تحياها الأمةُ الآن؛ لكن كُنْ صاحب نظرةٍ واسعةٍ شاملةٍ؛ فالنظر إلى عُمْق التاريخ، وإلى صفحات التاريخ الماضية يوم أذلَّت الأمةُ الأكاسرةَ، وأهانت الأمةُ القياصرةَ، وغيَّرت مجرى التاريخ في مدة لا تساوي شيئًا، ورفعت هذه الأمةُ رايةَ التوحيد على ثلثي الكرة الأرضية في أقلّ من نصف قرن من الزمان!

الثانية: انظر إلى كرامة الأمة عند الله بالمقارنة إلى واقع أمم الكفر، وأحوال أمم الكفر عند الله؛ فشتان شتان بين من وحَّد الربَّ العليَّ، وبين من كفر به ﷻ، حتى ولو ملك الدنيا بأجمعها؛ فإنه لا وزن له ولا كرامة عند الله، فالله لا يزن أحدًا بموازين البشر؛ بل هو القائل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]؛ هذا هو الميزان الذي يزن الله به خلقه وعباده، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]، لا يستوي المؤمن مع الكافر عند الله قط، فإن كانت الأمةُ الآن في المئة سنة الماضية بعد ما زال ظِلُّ الخلافة تعرَّضت إلى هذا الهوان وهذه المهانة؛ فلا ينبغي على الإطلاق أن تُخْتَزل سنواتٌ جليلةٌ طويلة كانت الأمةُ فيها مُعزَّزة مُكرَّمة، يوم أن امتثلت الأمر، واجتنبت النهي، ووقفت عند الحد، ومع هذا الواقع المرير أيضًا؛ فأنا أعلنها بأعلى صوتي: إن الأمة وإن مرضت؛ لكنها ما ماتت ولن تموت؛ لأنها أمةٌ محملةٌ بأشرف أمانة؛ لأنها الأمة الخَاتِمة أو الخَاتَمة

التي جعلها الله ﷻ خير أمة أخرجت للناس، وشرفها بحمل أشرف رسالة لكل الناس، والأيام دول؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وصدق ربِّي إذ يقول: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾

[النساء: ١٠٤].

وفي «صحيح مسلم» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**». هذا هو الفهم الراقي لقضية الشفاعة، وليس كما قال أحدُ الدكاترة: بأن أحاديث الشفاعة تفتح أبواب الجنة سبهللة!!

فرحمةُ النبيِّ ﷺ بالأمة في الجملة لا يستطيعُ عالمٌ بليغٌ أن يجسدها؛ ففي «**الصحيحين**» [(٢)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رسول الله ﷺ فِي قُبَّةٍ - أي: خيمة - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟**» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟**» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَاكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ**»؛ تلك هي مكانة الأمة بين الأمم، وأنا أقول: إنَّ الأمة ما كُرمت إلا تكريمًا من الله لنبينا، ثم بتوحيدها لله؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولقد تجسدت رحمة النبيِّ ﷺ العامة في الأمة في دعوته؛ قال له ربه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وخاطبه ربُّه بقوله:

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٩/ ٣٣٩).
(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر؟ (٦٥٢٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١/ ٣٧٧).

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥]، ونزل عليه قول ربه في حق موسى وهارون: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٤٣، ٤٤]، فتجسَّدت رحمةُ النبيِّ ﷺ في دعوته لأفراد الأمة، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ ففي «**الصحيحين**»[١] من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامُوا إِلَيْهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا تُزْرِمُوهُ**»، ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ.

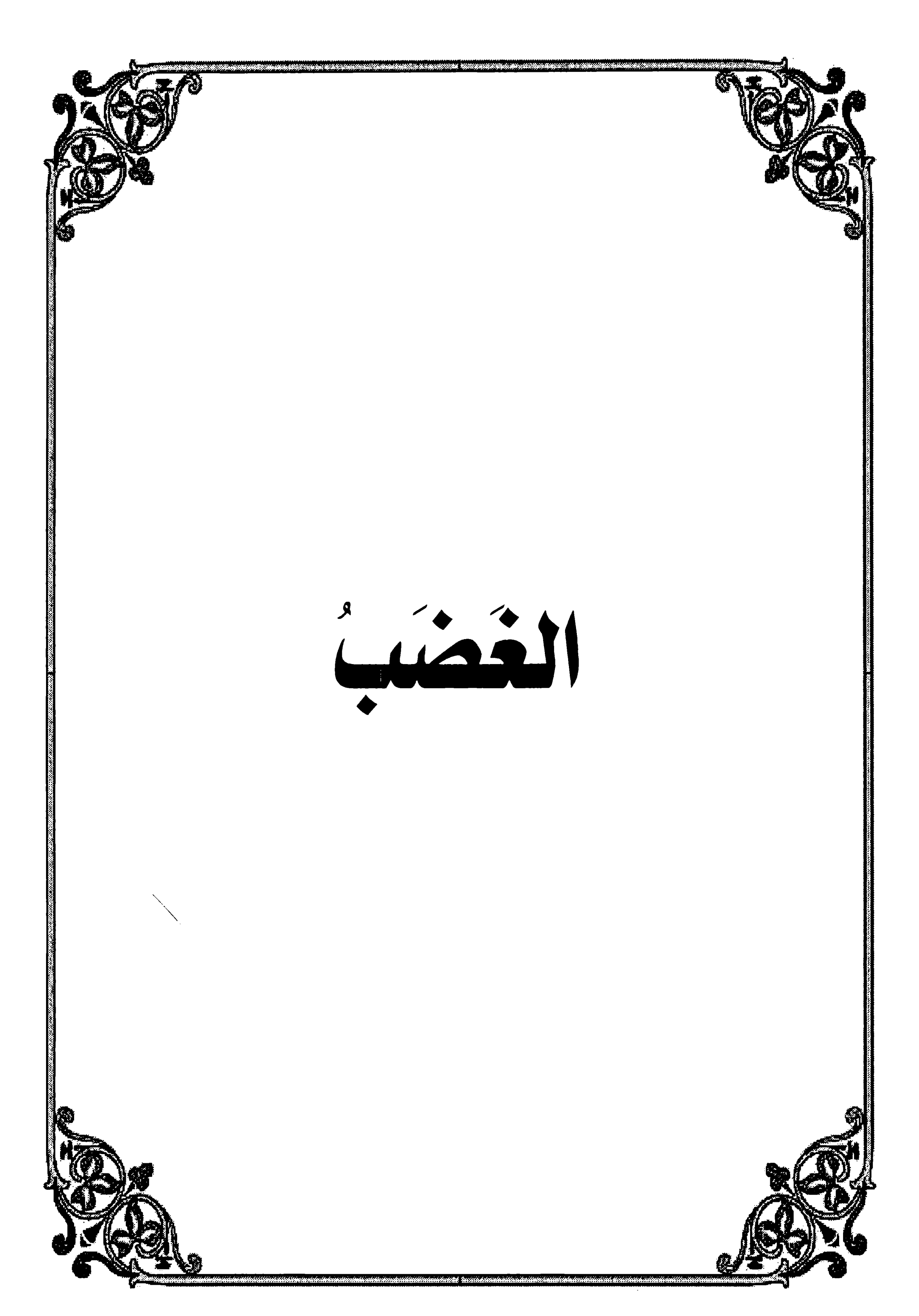
وفي رواية لمسلم[٢]: قَالَ أَنَسٌ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الـمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ**» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ؛ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الـمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ.

أيها الأحبة: ما أحوج البشريةَ عامة، والأمة خاصة أن تعودَ من جديد إلى أخلاق نبينا ﷺ لتسعد في الدنيا والآخرة، وأسأل اللهَ أن يردَّ الأمة إلى الحقِّ وإلى الأخلاق الجميلة ردًّا جميلًا.

*****

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كلِّه (٦٠٢٥)، ومسلمٌ، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره (٢٨٤).
(٢) (برقم:٢٨٥).



الغَضَبُ

الغضب

لَقَدْ توقَّفْتُ طويلًا أمَامَ هذهِ الوَصِيَّةِ النَّبويَّةِ الجَامِعةِ لِمَنْ آتاهُ اللهُ جَوامِعَ الكَلِمِ ﷺ؛ تِلكُمُ الوَّصِيةُ التى **روَاهَا البُخارِيُّ في «صحيحه»** [١] مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنَّ رَجُلًا قالَ للنبيِّ ﷺ أَوْصِني. قَالَ ﷺ: **«لا تَغْضَبْ»**؛ فردَّد مرارًا، قَالَ ﷺ: **«لا تَغْضَبْ»**.

وفي رِوَايةِ الترمذيِّ[٢] **بسندٍ صَحيح** منْ حديثِ أَبي هُرَيْرةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلى النَّبيِّ ﷺ قَالَ: عَلِّمْنِي شَيْئًا ولا تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعِيهُ[٣]؟ قَالَ ﷺ: **«لا تَغْضَبْ»**؛ فردَّدَ ذلكَ مِرارًا. كلُّ ذلكَ يقُولُ ﷺ: **«لا تَغْضَبْ»**.

وفي رِوَايةِ أحْمَد[٤] **بِسَنَدٍ صَحِيحٍ**: قَالَ الرَّجُلُ: فَفكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبيُّ ﷺ ما قَالَ؛ فإذا الغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّه.

ما أَفْقَه هذا الرَّجُلَ.. نَعَمْ. الغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ.. فهُو كالمَلِكِ الظَّلُوم الغَشُومِ الجَهُولِ.. الغَضَبُ يصِمُّ الآذَانَ عَنْ سَماعِ الحَقِّ.. ويُعْمِي الأَبْصَارَ عَنْ رُؤْيةِ الدَّلِيلِ.. وَيتَلاعبُ بالقُلوبِ كتَلاعبِ الأمْوَاجِ المُتَلاطِمَةِ بسفِينةٍ في لُجَّةِ البَحْرِ عِنْدَ اضْطِرَابِ الرِّيحِ!!

فقدْ يَملأُ القَلْبَ بالحِقْدِ والحسَدِ والكِبْرِ والحِرْصِ والإصْرَارِ عَلى الانْتِقَامِ وَغَيْرِها مِنَ الأَمْرَاضِ الخَطِيرَةِ التي تَسُوقُ الإنْسَانَ إِلى مَواطِنِ الرَّدَى والهَلَكَةِ؛ لأَنَّ الشَّيْطَانَ أَقْدَرُ ما يكُونُ عَلى ابْنِ آدَم حِينَ يَتَمَلَّكَهُ الغَضَبُ.

والقَلْبُ مَلِكُ الأَعْضَاءِ.. والجَوَارِحُ جُنُودُهُ ورَعَايَاهُ، فإنْ طَابَ المَلِكُ طَابَتِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٦١١٦).
(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في كثرة الغضب (٢٠٢٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله.
(٣) أي: أحفظه وأعقله.
(٤) في «**المسند**» (٣٨/ ٢٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٤٦).

الجُنُودُ والرَّعَايَا، وإِنْ خَبُثَ المَلِكُ خَبُثَتِ الجُنُودُ والرَّعَايَا.

فإِنْ تَمَكَّنَ الغَضَبُ مِنَ القَلْبِ انعَكَسَ عَلَى الجَوَارِحِ بِصُورةٍ قَبِيحَةٍ مُزْرِيةٍ لَوْ رَآهَا الغَضْبَانُ - نفسُهُ - لسَكَنَ غَضَبُهُ خَجَلًا مِنْ قُبْحِ مَنْظَرِه، وسُوءِ مَخْبَرِه، وشَنِيعِ قَوْلِهِ!!

فاللِّسَانُ فِي حَالِ الغَضَبِ يَنْطَلِقُ كَالسَّهْمِ المسْمُوم الجَارِحِ، يُلْقِي الفُحْشَ، ويَكِيلُ التُّهَمَ؛ التي تُقَطِّعُ الأرْحَامَ، وتُدْمِي القُلُوبَ، وتُقَرِّحُ الأكْبَادَ، وتُفَرِّقُ بَيْنَ الأحِبَّةِ، بَلْ وتُقْذَفُ المُحْصَنَاتُ، وتُتَّهَمُ العَفِيفَاتُ، فَيسْتحِقُّ العَبْدُ - حِينَئِذٍ - اللَّعْنَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَيَا لَهَا وَاللهِ مِنْ عُقُوبَة!!

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور:٢٣].

ناهيك عن الغيبة والنميمة وشهادة الزوْر وغيرها من ثمراتٍ مُرَّةٍ لشجرة الغضب الخبيثة التي تثمر كلَّ ألوان الشرِّ إذا نبتت في القلب!!

ومن ثَمَّ تتجلَّى أهميةُ هذه الوصية النبوية الخالدة لمن ربَّاه اللهُ على عينه ليربي به الدنيا.. إنها وصية تجمع الخير كلَّه على وجازتها وبلاغتها!!

فما أحوجنا جميعًا إلى هذه الوصية الغالية، لاسيما ونحن نعيش عصرًا طغت فيه المادياتُ والشهواتُ والشبهاتُ، وقست فيه القلوبُ. وتراكمت الذنوبُ على الذنوب، وضعف الإيمانُ، وجفت ينابيعُه في كثير من القلوب. وأصبح الإنسانُ يتعرض لضغوطٍ نفسيَّةٍ خطيرةٍ قد تُحوِّله إلى نارٍ مشتعلةٍ من الثورة والغضب.

يحتاج فيها أن يسمع قولَ الربِّ العلي: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤]، ويحتاج فيها أن يقف طويلًا أمام وصية الحبيب النبيِّ ﷺ «**لا تَغْضَبْ**».

لكن الموضوع طويل يحتاج إلى تفصيل بعلم وبصيرة.

فما هي أنواع الغضب وآثاره؟

وما هي أسباب الغضب؟

وما هو علاج الغضب؟

وما هي ثمرات الكف عن الغضب؟
وهل هناك غضب محمود؟

فَأَقُول مستعينًا بالله تعالى: لقد ذمَّ اللهُ سبحانه الغضبَ في كتابِه، وأثنى على من كظمَ غيظَه؛ فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧]؛ أي: سجيتهم تقتضي الصفحَ والعفوَ عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس[1].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ[2] ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولقد بوَّب أميرُ المؤمنين فى الحديث الإمامُ البخاريُّ - طيّب الله ثراه - في «**الصحيح**» بابًا **قال** فيه: (بابُ الحذرِ من الغضب). ثم أورد ذلكم الإمام الآيتين المتقدمتين.

قال الحافظ في «الفتح»[3]: «وليس في الآيتين دلالةٌ على التَّحذير من الغضب؛ إلا أنه لما ضم مَنْ يكظم غيظَه إلى من يجتنب الفواحشَ كان في ذلك إشارةٌ إلى المقصود».

وقد استدل الغزالي رحمه الله في «الإحياء»[4] في بيان ذم الغضب بقوله تعالى: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦]، ثم قال: «إن الله ذمَّ هذه الحميَّة الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدحَ اللهُ المؤمنين بما أنزل اللهُ عليهم من السكينة» انتهى بمعناه.

فالأصلُ في الغضب - ما تقدَّم -؛ أنه صفةٌ ذميمةٌ، وخلقٌ قبيحٌ[5]؛ إلا أنَّ هناك غضبًا - غير ذميم - يحبُّه الله ويرضاهُ.

---

(١) قاله ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية.
(٢) أي: الذين يكتمون غضبهم؛ فإذا غضبَ أحدُهم ملك نفسَه، وكظَمَ غَيظَه، ولم يتعدَّ على أحدٍ بموجب هذا الغضب. («شرح رياض الصالحين» باب: ٧٣) للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.
(٣) (١٠ / ٥٣٥).
(٤) (٣/ ٢٥٧).
(٥) ثم إن معناهُ، غليانُ أو ثوران دم القلب لطلب الانتقام. انظر («**المفردات**» للراغب ص: ٣٦١).
=

- **فالغضبُ نوعان:**

كما قال أهلُ العلم؛ فقد **قال ابن عرفة**[١]: «الغضبُ من المخلوقين، شيءٌ يُداخل قلوبهم، ومنه محمودٌ ومذمومٌ؛ فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود في جانب الحق والدين».

هذا بالنسبة للخلق؛ أما ما يتعلق بالخالق تعالى؛ فهناك غضبٌ يصدُرُ من ربِّ العزَّة سبحانه؛ وهو صفةٌ من صفاته، نثبتها على الوجه اللائق به بلا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالغضبُ منه ما هو محمودٌ، ومنه ما هو مذمومٌ، وسوف نعرِض لهذا الثاني بشيءٍ من الإيضاح:

- **نوعٌ يُذمُّ بالكلية؛ في غيرِ ذاتِ الله تعالى:**

وهو ما إذا كان انتقامًا، أو تشفيًا، أو انتصارًا للنفس، وغضبًا لها، لا لله تعالى؛ فهذا النوع مذمومٌ على كلِّ حال، وله ثمراتهُ المُرَّة؛ فحالُ القلبِ في الاضطراب - عند هذا النوع - أشدُّ من حالِ السفينة عند اضطراب الأمواج في لُجَّةِ البحر[٢]، وحيث كذلك يظهر الغضب على أعضاءِ الإنسان، وعلى كلامِهِ، وفعالِهِ.

بل لو نظر الإنسانُ إلى نفسِهِ حال غضبِهِ لرأى قُبح صورتِه، واستحالةِ خلقتِهِ، ووقتئذٍ يسكنُ غضبهُ حياءً من قبحِ ما اطلع فيه على نفسِهِ.

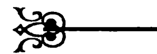
فإياك ومغبةَ الغضب، وآثارَهُ السيئة، ومخاطرَهُ القبيحة؛ **ومن تلك الآثار ما يلي:**

=

(وبتعبير آخر؛ هو: تغيرٌ يحصل عند فوران دم القلب ليحصل عنه التشفي في الصدر؛ وهو في اللغة «اشتداد السخط»).

(١) «اللسان» (٣٢٦٣). وراجع: «النهاية» (٢/ ٣٧٠).

(٢) **قال الغزالي في «الإحياء»** (٣/ ٢٦٢):
(وبالحقيقة؛ فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لُجَّة البحر أَحْسَنُ حالًا، وأرجى سلامةً من النفس المضطربة غيظًا؛ إذ في السفينة من يحتالُ لتسكينها، وتدبيرها، وينظر لها ويسوسها، وأما القلب؛ فهو صاحب السفينة، وقد سقطت جبلته؛ إذ قد أعماهُ الغضبُ وأصمَّه).



أما أثره على اللسان؛ فيقع بسببه كثيرٌ من الأقوال المُحرَّمة (كالسبِّ، والشتمِ، والقذفِ، واللعنِ، ونحو ذلك)؛ وكالأيمان التى لا يستطيعُ الإنسان أن يتحملها بعد ذلك، أو لا يجوز التزامها شرعًا.

وأيضًا من تلك الفلتات التي تصدرُ من الإنسانِ حالَ غضبهِ؛ طلاقُ الزَّوجة، والدُّعاء على الأولاد، والأموال، والأهل؛ بل حتى على نفسه!!

وقد يحملُ الغضبُ الإنسانَ على أن يقول كلمة الكفر؛ فيسبُّ الدين، أو يسبُّ ربَّه العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومنهم مَنْ يتألَّى على الله تَعَالَى؛ فيحلف على أخيه فيقول: والله لا يغفر الله لك.. ونحو ذلك، وهو في ذلك مُتقوِّلٌ على الله بغير علم، بل إنه يستحق العقوبة من الله؛ ففى «**صحيح مسلم**»[1] من حديث جندب ﷺ أن رسول الله ﷺ حدَّث: «**أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَالله لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، وَإِنَّ الله تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**» أو كما قال.

فالإنسانُ - في هذه الحال النَّكِدْ - مؤاخذٌ على قولهِ، ومحاسبٌ على لفظهِ؛ وإن دعا على أولاده، أو أمواله، أو حتى على نفسه؛ فوافق ذلك ساعة إجابةٍ استُجيبَ دعاؤهُ.

ففي «**صحيح مسلم**»[2] من حديث جابر ﷺ قال:

سِرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَطْنِ بُوَاطٍ، وَهُوَ يَطْلُبُ الْـمَجْدِيَّ بْنَ عَمْرٍو الْجُهَنِيَّ، وَكَانَ النَّاضِحُ[3] يَعْتَقِبُهُ مِنَّا الْخَمْسَةُ، وَالسِّتَّةُ، وَالسَّبْعَةُ، فَدَارَتْ عُقْبَةُ[4] رَجُلٍ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى (٢٦٢١)، وانظر: «صحيح البخاري» (٢٧٠٥)، و «مسلم» (١٥٥٧).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليَسَر (٣٠٠٩).

(٣) الناضح: هو البعير الذي يستقي عليه.

(٤) **قال النوويُّ**:

(وأما العُقبةُ بضم العين؛ فهي ركوبُ هذا نوبة، وهذا نوبة) اهـ. ودارت عُقْبَةُ رجلٍ، أي جاءت نوبته ووقت ركوبته.

مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاضِحٍ لَهُ، فَأَنَاخَهُ فَرَكِبَهُ، ثُمَّ بَعَثَهُ، فَتَلَدَّنَ عَلَيْهِ بَعْضَ التَّلَدُّنِ [(١)]. فَقَالَ لَهُ: شَأْ[(٢)] لَعَنَكَ اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ هَذَا اللاَّعِنُ بَعِيرَهُ**». قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**انْزِلْ عَنْهُ، فَلاَ تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ، لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لاَ تُوَافِقُوا مِنَ الله سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ**».

وفي «**صحيح مسلم**» [(٣)] من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: «دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ[(٤)]، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ**». فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «**لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ؛ فَإِنَّ الْـمَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**».

قال ابن رجب رحمه الله **في «جامعه»**[(٥)]: «فهذا كلُّه يدل على أن دعاء الغضبان قد يجابُ إذا صادف ساعة إجابةٍ، وأنه يُنهى عن الدُّعاء على نفسه، وأهله، وماله في الغضب».

وأما أثرُه على الأعضاء والجوارح؛ فالضرب، والتهجم، والتمزيق، والقتل؛ فإن عجز عن التشفي والانتقام رجع عليه غضبه، فمزَّق ثوبه، وضرب نفسه، أو لطم خدَّه، أو كسر إناءه، أو أحرق ثيابه، أو ضرب بيده الأرض، أو ضرب أمَّه، أو عقَّ أباه، أو.. فالغضبُ يؤثر على الإنسان حتى يجعله يتصرَّف تصرُّف المجانين، وتعاطِي فعل المجانين.

ففي «**صحيح مسلم**»[(٦)]: من حديث وائل بن حجر رضي الله عنه قال: إِنِّي لَقَاعِدٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ يَقُودُ آخَرَ بِنِسْعَةٍ[(٧)] فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله هَذَا قَتَلَ أَخِي. فَقَالَ

---

(١) أي تلكأ وتوقف.

(٢) كلمة زجر للبعير؛ **قاله النوويُّ** في «شرح مسلم» (١٨/ ١٣٨).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضِر (٩٢٠).

(٤) أي: شخَص بصرُه وارتفع.

(٥) (ص: ٣٧٣).

(٦) أخرجه مسلمٌ، كتاب القسامة، باب صحة الإقرار بالقتل، وتمكين ولي القتيل من القصاص، واستحباب طلب العفو منه (١٦٨٠).

(٧) هي حبلٌ من جلود مضفورة، وَقْرنُه: جانب رأسه.

رَسُولُ الله ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ؟». فَقَالَ: إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَعْتَرِفْ أَقَمْتُ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةَ. قَالَ: نَعَمْ. قَتَلْتُهُ قَالَ: «كَيْفَ قَتَلْتَهُ؟». قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَهُوَ نَخْتَبِطُ[1] مِنْ شَجَرَةٍ فَسَبَّنِي فَأَغْضَبَنِي فَضَرَبْتُهُ بِالْفَأْسِ عَلَى قَرْنِهِ فَقَتَلْتُهُ.

فها أنت ترى قتلًا نشأ بين رجالٍ بسبب ساعة غضب!!!

ثم أثناء الضرب والتشاجر عند الغضب؛ لا يدري الإنسانُ ما حولَهُ؛ فلا يدري ما يُقالُ له، ولا يستطيع أن يفهم أو أن يستفيد من موعظة أحدٍ من شدةِ تأثير الغضب عليه.

روى مسلمٌ في «صحيحه»[2] من حديث أبي مَسْعُودٍ البدريِّ ﷺ قال: «كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ!». فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ[3]، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ! اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ!». قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ! أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلاَمِ». قَالَ: فَقُلْتُ: لاَ أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وفي روايةٍ[4]: «قَالَ كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ! للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ». فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله. فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ».

قال النوويُّ رحمه الله **في** «**شرح مسلم**»[5]: «فيه الحث على الرفق بالمملوك، والوعظ والتنبيه على استعمال العفو، وكظم الغيظ، والحلم كما يحلم الله على عباده».

---

(١) أي: يجمع الخبط، وهو ورق الثمر؛ بأن يضرب الشجر بالعصا، فيسقط ورقه فيجمعه علفًا.

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الأيمان، باب صحة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٩).

(٣) قال ابن قدامة في «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٣و٢٣٤): «واعلم أنه متى قويت نار الغضب والتهبت أعمت صاحبها وأصمَّته عن كلِّ موعظة؛ لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ... ويكون دماغه على مثالِ كهفٍ أُضرمت فيه نار، فاسودَّ جوُّه، وحمي مستقرُّه، وامتلأ بالدخان، وكان فيه سراجٌ ضعيفٌ، فانطفأ، فلا يثبت فيه قدم، ولا تسمع فيه كلمة، ولا ترى فيه صورة».

(٤) عند مسلم أيضًا (١٦٥٩ / ٣٥).

(٥) (١١ / ١٣٠).

وإذا كان الغضبُ مما يسوق العبد إلى مواطن العطب والهلكة؛ فما أحوجه إلى معرفةِ معاطبهِ ومساويه، ليحذر ذلك ويتقيه، ويميطه عن القلب إن كان وينفيه، ويعالجهُ إنْ رسخ في قلبه ويداويه، فإنَّ من لا يعرف الشَّرَّ يقع فيه؛ فاعلم أن الغضبَ له أسبابٌ نُجملها فيما يلي مع إيراد علاج ذلك بإيجاز:

فأسبابُ الغضب هي:

(الكبر والعجب، والمزاحُ والهزل، والتعيير، والمماراة والجدال، والعناد، والغدر، وشدة الحرص على فضولِ المال والجاه، وحب النفس)[1]، وقد يراهُ بعضُ الجهلةِ شجاعةً ورجوليَّةً، وعزَّة نفس، وكبر همَّة، فيبعثهُ ذلك على أن يقع فيه، وحتى يتخلص الإنسانُ من ذلك؛ **فهذا العلاج:**

وإليك علاجَ مهيِّجات الغضب، وقطع مسبباته:

أما علاجُ الكبر والعجب؛ فالتواضع، وخفض الجناح للمؤمنين، ومعرفةِ حجم النَّفس وضعفها، مع الاطلاع على أكبر قدرٍ ممكنٍ من سيرةِ أعظم الخلق، وسيِّد الخلق، نبينا محمد ﷺ؛ فهو سيِّدُ المتواضعين.

أما المزاح والهزل؛ فعلاجه وإزالته بالجدِّ والهمَّة العالية في طلب الآخرة، وكذلك في طلب العلوم الدينية التي توصل العبد إلى الدرجات العلا، ومنازل الصالحين.

أما الإكثار من المزاح وما شابه، فإنه يوقع الشخص في جملةٍ من الأخطاء التي يندم عليها بعد ذلك من التفريط في حقِّ الله تعالى، وفي حقِّ الخلق كذلك، كأن ينجم من جرَّاء ذلك الشِّقاقُ والخصامُ والجدالُ والغضبُ؛ بل ربما وصلَ الحالُ بالمازحين إلى مدِّ الأيدي بالضرب ونحوهِ من أنواع العداوات، وكما قال القائل: (لكل شيء بذر، وبذر العداوةِ المزاح).

---

(١) **يقول الغزالي** رحمه الله في «**الإحياء**» (٣/ ٢٦٨):
«وهي بأجمعها أخلاقٌ رديئةٌ مذمومةٌ شرعًا، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها».
وننوه أن من مهيجات الغضب؛ المشكلات الزوجية بجميع محتوياتها، صغيرها وكبيرها، ولا داعي للتفصيل فيها؛ فلا يخلو بيت من ذلك؛ حتى بيوت الصالحين.

لكن إن كان ولا بُدَّ من المزاح، فينبغي أن يكون بالقدر المحدود المعقول، وأن لا يخرج به عن حدِّ الوقار والاعتدال.

أما التعيير؛ كأن يُعيِّر الأخُ أخاه لفقرِهِ، أو دمامتِه، أو قصره، أو طوله، أو سمنه، أو نحافتِهِ، أو لعمله ووظيفته، أو لشهادته، أو لعدم فهمه وثقل لسانه!!!

ويدخل في ذلك؛ (التعيير بالذنب) إذا وقع في ذنبٍ عيَّره به؛ (وقد يكون قد تاب منه).

ومن ذلك؛ التنابز بالألقاب؛ وهو دعاءُ المرءِ صاحبه بما يكرههُ من اسمٍ أو صفةٍ؛ وهذا مما نهى اللهُ المسلمين عنه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ [الحجرات: ١١].

فهذا كلُّه ينبغي أن يترفع المسلمُ عنه؛ فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره.

أما المماراة والجدال؛ فهو رائد الغضب، ورحم الله عبدًا ترك المراء ولو كان مُحِقًّا[1]؛ فلا شكَّ أن المراء والجدال في الغالب ينشأ عنه نوع خصامٍ وشقاقٍ ونزاعٍ[2]؛ وهذا بلا ريب قد يحمله على الغضبِ لنفسِه، والانتصار لها؛ بل وازدراء الآخرين[3]؛ بل قد يحمله على إنكار الحق وجحوده، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

---

(١) ففي «سنن أبي داود» كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٤٨٠٠) بإسنادٍ فيه مجهول، لكن للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن؛ كما في «الصحيحة» (٢٧٣) من حديث أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»** لكن إن كان الجدال لإقامة حقٍّ وواجب؛ فهو جدالٌ مشروع، وقد قال تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

(٢) **قال عبد الرحمن بن أبي ليلى** ﵀: (ما ماريتُ أخي أبدًا، إما أن أكذبَهُ، وإما أن أغضبهُ)؛ كما في **«الآداب الشرعية»** لابن مفلح (١/ ١٨).

(٣) قال ﷺ: **«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمِ»**؛ أخرجه البخاريُّ، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] (٢٤٥٧)، ومسلمٌ، كتاب العلم، باب في الألد الخصم (٢٦٦٨) عن عائشة ﵂، والمراد منه؛ أنك تجادل لغير غرضٍ سوى تحقير من تجادله.

أما الغدر؛ فسببُهُ أذى يلحقُ به من أي شخصٍ بسببٍ من الأسباب؛ فيحمله ذلك على بغضهِ وحقدهِ، ثم تراهُ ينتوي ظلْمَهُ والغدر به.

وعلاجُ ذلك؛ أن يُطيِّب الإنسانُ معاملته مع الآخرين؛ فلا يظلمُ كي لا يُظلمُ، ولا يجهلُ حتى لا يُجهلُ عليه، وإن جُهل عليه عفا، وإن ظُلم غفر، وإن ابتُلي صبر؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أي: لا يضيع ذلك عند الله؛ كما صح في «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**وما زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا**».

وأما شدَّةُ الحرصِ على فضولِ المالِ، والجاهِ، والرياسةِ، والطمعِ، وحبِّ النفس؛ فعلاجه بالقناعةِ والإيثارِ، والسخاءِ، واصطناعِ المعروف.

أما علاج الغضب:

فللغضب دواءٌ نافعٌ، وعلاجٌ شافٍ، والمسلم مطالبٌ بكسر حدَّة الغضب وإبعاده؛ فإذا وقع الغضبُ من العبد وجب قلعه، وإذا هاج لزم علاجه؛ لأنه يفضي إلى ما لا يحمده عقباه؛ وغايته (القتل) كما هو معلوم.

فلا بُدَّ حينئذٍ من دفعه والسيطرة عليه، والسعي إلى تسكينه وتهدأته على وَفْق ما جاء في الكتاب والسنة؛ فمن الأمور التي تدفع الغضبَ ما يلي:

- **أولاً: الاستعاذة:**

فنعوذ بالله من الشيطان اللعين؛ فإنه رأس البلاء، وأُسُّ الفساد!!

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قال القاسميُّ في «محاسن التأويل»[(٢)]: «﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، أي: يصيبنك من الشيطان وسوسة تثير غضبك على جهلهم وإساءتهم، وتحملك على

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨).
(٢) (٥/ ٢٤٧).

خلاف ما أمرت به من العفو والأمر بالمعروف ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: استجر به، وادعه في دفعه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: باستعاذتك». ا هـ.

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]؛ فالغضب من نزغات الشيطان؛ فحينئذٍ يلزم الإنسانُ أن يستعيذَ بالله من شرِّه، وأن يستجير بالله من نزغِه؛ وقد كان النبيُّ ﷺ يأمر مَنْ غضبَ بتعاطي أسبابٍ تدفع عنه الغضب، وتُسكنه؛ كالاستعاذة هذه:

ففي «**الصحيحين**»[(١)] من حديث سليمان بن صُرَد ﷺ قال: «اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا[(٢)]، قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ[(٣)]؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**» فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ[(٤)]؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ».

وفي روايةٍ أخرى[(٥)]: (فَقَالَ: أَتُرَى بِي بَأْسٌ؟ أَمَجْنُونٌ أَنَا؟ اذْهَبْ).

ولمسلمٍ[(٦)]: (فَقَالَ الرَّجُلُ: وَهَلْ تَرَى بِي مِنْ جُنُونٍ؟)، وعنده كذلك:

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٦١١٥)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب (٢٦١٠).

(٢) في رواية: (**فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ**) عند البخاريِّ (٦٠٤٨) وفي أخرى: (**فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَغْضَبُ**) عند مسلم (٢٦١٠/ ١١٠).

(٣) في رواية: (**حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ**) عند البخاريِّ (٦٠٤٨) وفي أخرى لمسلمٍ: (**تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ وَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ**) ونحو هذا عند البخاريِّ (٣٢٨٢).

(٤) في رواية مسلم: (فقام إلى الرجل رجلٌ ممن سمع النبيَّ ﷺ، فقال: أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنفًا؟) وعند البخاري (٦٠٤٨) - في رواية -: (فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ).

(٥) البخاري (٦٠٤٨).

(٦) (٢٦١٠).

(فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَمَجْنُونٌ تَرانِي؟).

قال الحافظ في «الفتح»[١]: «قوله: (اذهب) هو خطابٌ من الرجل للرجل الذي أمره بالتعوذ، أي امض في شغلك. وأخلق بهذا المأمور أن يكون كافرًا أو منافقًا، أو كان غلب عليه الغضبُ حتى أخرجه عن الاعتدال بحيث زجر الناصح الذي دلَّه على ما يزيل عنه ما كان من جفاة الأعراب، وظن أنه لا يستعيذ من الشيطان إلا من به جنون، ولم يعلم أن الغضب نوعٌ من شرِّ الشيطان، ولهذا يخرج به عن صورته، ويزيد إفساد ماله، كتقطيع ثوبه، وكسر آنيته، أو الإقدام على من أغضبه ونحو ذلك مما يتعاطاه من يخرج عن الاعتدال». انتهى.

قال المناويُّ في «الفيض» [٢]: «والاستعاذةُ من أقوى سلاح المؤمن على دفع اللَّعين إبليسِ ومكْرِه، وإذا تأمل معنى الاستعاذة وهو الالتجاء إلى الله تعالى، والاعتصام به، وضمَّ له التفكر فيما ورد فى كظم الغيظ وثوابه، واستحضر أن الله أعظم قدرة من قدرته على من غضب عليه: سكن غضبُهُ لا محالة».

- **ثانيًا: ذكر الله تعالى:**

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

وفي الآية أقوالٌ في معناها، ومن ذلك: ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا غضبت[٣]؛ فاذكر ربك.

وقيل: إذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له، ولو بعد سنة.

قال ابنُ كثير: «ومعنى أن يستثني ولو بعد سنة؛ أي: إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة؛ فالسُّنة له أن يقول ذلك، ليكون آتيًا بسنة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحنث، لا أن يكون ذلك رافعًا لحنث اليمين ومسقطًا للكفارة».

---

(١) (١٠ / ٤٨٢، ٤٨٣).

(٢) (١ / ٤٠٨).

(٣) ورد ذلك عن عكرمة رحمه الله؛ كما عند ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨ / ٢٨٨)، و «الحلية» لأبي نعيم (٣ / ٣٣٤)، و «شعب الإيمان» للبيهقيِّ (٦ / ٣١٢).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فالعبد إن ذكر الله سبحانه أمسك عن الكلامِ البذيء، وعن الفحش من القول. وسوف يُحيي الذكرُ قلبَهُ حينئذٍ فيُجنِّبه معاطب الغضب ومساويه، وبالطبع فإن الذكر طمأنينة للقلب، وسكينة له؛ قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ فعلى العبد أن يعمد في حالِ غضبه إلى الذكر؛ من التكبير، والتسبيح، والتحميد، حتى يهدأ، وتنطفئ نارُ الغضب وتسكن.

- **ثالثًا: استحضار ثواب كظم الغيظ:**

قال تعالى - في وصف المتقين -: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال القاسميُّ رحمه الله[1]: «﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ أي: الممسكين عليه في نفوسهم، الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه؛ اتقاء التعدي فيه إلى ما وراء حقه. ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: ظلمهم لهم، ولو كانوا قد قتلوا منهم، فلا يؤاخذون أحدًا بما يجني عليهم، ولا يبقى في أنفسهم موجدة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧]».

وقال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال الإمام البخاريُّ في «الصحيح»[2]: «العرف: المعروف»، ثم روى [3] حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي! لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ. قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ

(١) «محاسن التأويل» (٢/ ٤٦١، ٤٦٢).
(٢) (كتاب «التفسير» باب (٥) من سورة الأعراف).
(٣) (برقم: ٤٦٤٢).

لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ: هِيْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

فعليك بالعفو؛ فالعفو أقرب للتقوى؛ قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وعليك بالصفح؛ فما أحلاهُ وأجلاهُ وأغلاهُ؛ وقُل كما قال الأوَّلُ:

سألزمُ نفسي الصفح عن كلِّ مذنب ... وإن عظمت منه عليَّ الجرائمُ

فما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ

فأما الذي فوقي فأعرفُ قدرَهُ ... وأتبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمُ

وأما الذي دوني فإن قالَ صنتُ عن ... إجابته نفسي وإن لامَ لائمُ

وأما الذي مثلي فإن زلَّ أوهنا(١) ... تفضَّلتُ إن الحرَّ بالفضلِ حاكمُ

وخيرٌ من ذلك قول الله سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وقوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

- **رابعًا: تخويف النفس من عقاب الله تعالى:**

فعليك أن تخوِّف نفسَك من عقابِ الله وبطشِه، وأنه إذا دعتك قدرتُك على ظلم العباد؛ فتذكَّرْ قدرةَ ربِّ العباد عليك، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ فإنك إن أمضيت غضبَك على خلق الله، فلا تأمن أن يمضي اللهُ فيك غضبه

---

(١) وفي نسخ: «أو هفا» بالفاء؛ كما في «روضة العقلاء» (رقم: ٥١٣)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ٢٩٣).

عاجلًا أو آجلًا، فتذكر هذا عند الغضب - رحمني الله وإياك -.

ورحم الله مَن قال:

لا تظلمـنَّ إذا مـا كنـتَ مُقتـدرًا فـالظلمُ يرجـعُ عقبـاهُ إلى النـدمِ
تنـامُ عينـاكَ والمظلـومُ منتبـهٌ يـدعو عليـك وعـينُ الله لم تـنمِ

- **خامسًا: استحضارُ ثمرةِ الغضبِ المرَّة.**

وقد تقدَّم التذكيرُ بهذا؛ فتذكر حالكَ عند الغضب من قُبح الصورة، واستحالة الخِلْقة، واحمرار الوجه، وانتفاخ الأوداج، وارتعاد الأطراف، واضطراب الكلام، وتخبط الألفاظ (١).

وعليك ألا تغفل عن نفرة الناس منك، وانحراف القلوب عنك، وحَذَرِها من القرب منك - لسوء خُلُقك - فتبقى وحيدًا فريدًا.

وكذلك عليك أن تعلم أن الغضبَ سوف يُربي العداوةَ مع الآخرين، وقد يصل بعد ذلك إلى الاعتداء والانتقام، وإلى سفك الدماء!!

وتذكَّر أيضًا ما جاء في عاقبة ثمرة الغضب من الوعيد، وأن أقرب ما يكون العبدُ من غضب الله وسخطه إذا غضب، ونفَّذ غضبه مع غيره؛ وقد سُئل النبيُّ ﷺ؛ فقِيلَ يَا رَسُولَ الله! مَا يَمْنَعُنِي (٢) مِنْ غَضَبِ الله تعالى؟ قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**» (٣).

- **سادسًا: السكوتُ والإمساكُ عن الكلام:**

فإنك إن أمسكتَ عن الكلام حالَ الغضب زالَ الشرُّ وانتهى؛ فحاول أن تعالجه وقتئذٍ بذاك الصمت والكفِّ عن الحديث؛ وهو دواءٌ سهلٌ يسيرٌ بإذن الله؛ قال ﷺ:

---

(١) وراجع: «الاستقامة» لشيخ الإسلام (٢ / ٢٧٢).

(٢) وفي رواية: (مَا يُبَاعِدُني)؛ لكنها من رواية ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عند أحمد؛ كما سيأتي في ثمرات الكف عن الغضب.

(٣) حديثٌ صحيحٌ؛ ستأتي الإشارة إليه إن شاء الله.

«مَنْ صَمَتَ نَجَا»[١].

قال المباركفوريُّ رحمه الله[٢]: «قوله (مَنْ صَمَتَ) أي: سكت عن الشر (نَجَا) أي: فاز و ظفر بكلِّ خيرٍ، أو نجا من آفات الدَّارين.

قال الراغبُ: الصمت أبلغ من السكوت؛ لأنه قد يستعمل فيما لا قوة له للنطق، وفيما له قوة للنطق، ولهذا قيل لما لا نطق له: الصامت، والمصمت، والسكوت يقال لما له نطق فيترك استعماله.

فالصمت في الأصل سلامة، لكن قد يجب النطق شرعًا.

ومقصودُ الحديث: أن لا يتكلم فيما لا يعنيه ويقتصر على المهم؛ ففيه النجاة».

فعليك بالصمت حينئذٍ، فإنه خيرٌ لك إلا من ذكرٍ أو خيرٍ تفعله؛ ففي «**الصحيحين**»[٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**».

فالسُّنَّة؛ الإمساك عن الكلام إلا كلامًا فيه خير.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب (٥٠) (برقم:٢٥٠١)، وأحمد (٢/ ١٥٩، ١٧٧)، والدارمي (٢/ ٢٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا به.
قلت: وفي سنده ابن لهيعة؛ وهو ضعيفٌ لاختلاطِهِ؛ إلا أنه توبع من عمرو بن الحارث عند الطبراني في «المعجم الكبير» قطعة من الجزء (١٣) برقم (١١٤) (بتحقيق الشيخ حمدي السلفي). وسندُهُ صحيحٌ باستقلاله؛ وقد جوَّدهُ الحافظ العراقي كما في «تحقيق الإحياء» (٣/ ١٧٣). وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٥٣٦) (٣٩): «رواته ثقات» وقوَّاه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٦). وله شاهدٌ بلفظ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْلَمَ فَلْيَلْزَمِ الصَّمْتَ**» راجعه في «الضعيفة» (١٦٥٥) وراجع: «الصحيحة» (١٣٧٥).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٢٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن خير (٤٧).

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله ... وما الحِلْم إلا عادةٌ وتحلُّمُ
إذا لم يكن صمتُ الفتى عن ندامة ... وعَيٍّ؛ فإن الصمتَ أولى وأسلمُ[(١)]

- **سابعًا: الجلوسُ والاضجاعُ:**

ذلك لأن القائم حال الغضب متهيئٌ للوثوب والبطش، والجالس دونه، وأبعد ما يكون حال الاضطجاع من ذلك وممنوعٌ منه، ثم إنه أدعى لإذلال النفس وطرْح الكبر، فتدَبَّرْ هذا والزمْهُ! تنجو من مغَبَّةِ تلك الأزمة.

وفي هذا البابِ؛ حديثُ أخرجه الترمذيُّ في «**السنن**»، وأحمد في «**المسند**»[(٢)] من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا صَلَاةَ العَصْرِ بِنَهَارٍ، ثُمَّ قَامَ فِينَا خَطِيبًا.. وَكَانَ فِيمَا قَالَ: «**أَلاَ وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ، وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ**»[(٣)].

وله شاهدٌ: أخرجه أحمد في «**المسند**»[(٤)] بإسنادٍ رجاله ثقات من حديث أبي ذرٍّ قال

(١) نُسبت لعليِّ بن هشام الشاعر؛ كما عند ابن عساكر في «تاريخه» (٤٣ / ٢٦٦).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما أخبر النبيُّ ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١)، وأحمد (١٧/ ٢٢٧ و ٢٢٨ الرسالة) من طريق علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعًا به.
قلت: وإسنادُهُ ضعيفٌ؛ علّته علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيفٌ؛ لكن للحديث شاهدٌ كما ذكرتُ، وشاهدٌ آخر عن الحسن مرسلًا كما سأورده في تخريج الشاهد. ثم وقفتُ على طريق أخرى من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: عند نصر بن محمد السمرقندي في كتابه «**تنبيه الغافلين**» (ص: ١٢٧) ط دار الجيل، فقال: حدثنا محمد بن الفضل حدثنا محمد بن جعفر حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا المسيب عن محمد بن مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ يُوقِدُ فِي فُؤَادِ ابْنِ آدَمَ النَّارَ...**»، والمسيب هو ابن شريك. وهو صالح في الشواهد - أعني هذه الطريق -.

(٣) وفي رواية أحمد: «**فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَالأَرْضَ الأَرْضَ**». وعند البغوي في «**شرح السنّة**» (٤٠٣٩): «**اتَّقُوا الْغَضَبَ فَإِنَّهُ جَمْرَةٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ... فَمَنْ أَحَسَّ ذَلِكَ، فَلْيَضْطَجِعْ، وَلِيَتَلَبَّدْ بِالأَرْضِ**».

(٤) (٣٥ / ٢٣٨ الرسالة) من حديث: داود بن أبي هندٍ عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبي الأسود عن أبي ذر قال: فذكره.
قال الهيثميُّ في «المجمع» (٨/ ٧١): «رجاله رجال الصحيح».
=

(الراوي عنه): كَانَ يَسْقِي (يعنى: أبا ذر) عَلَى حَوْضٍ لَهُ، فَجَاءَ قَوْمٌ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُورِدُ عَلَى أَبِي ذَرٍّ وَيَحْتَسِبُ شَعَرَاتٍ مِنْ رَأْسِهِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، فَجَاءَ الرَّجُلُ فَأَوْرَدَ عَلَيْهِ الْحَوْضَ فَدَقَّهُ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ قَائِماً فَجَلَسَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا ذَرٍّ لِمَ جَلَسْتَ، ثُمَّ اضْطَجَعْتَ؟ قَالَ: فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَنَا «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ**»[1].

قال الإمام الخطابي في «معالم السنن»[2]:

«القائم متهيئٌ للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوعٌ منهما، فيشبه أن يكون النبيُّ ﷺ إنما أمره بالقعود والاضطجاع؛ لئلا تبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرةٌ يندم عليها فيما بعد، والله أعلم».

=

قلت: لكن رواه أبو داود في «**السنن**» (برقم: ٤٧٨٢)، ومن طريقه البيهقيُّ في «الشعب» (٨٢٨٤)، وابن حبان في «الصحيح» (٥٦٨٨)، والمزيُّ في «تهذيبه» (٣٣/ ٢٣٥) من طريق داود (لكنْ بإسقاط: أبي الأسود). ثم أعقبه أبو داود بطريق آخر (برقم: ٤٧٨٣) من طريق داود عن بكر - وهو المزني - أن النبيَّ ﷺ بعث أبا ذر فذكره مرسلًا.

قال أبو داود:

(**وهذا أصح الحديثين**) اهـ. يعني أن المرسل أصح من المرفوع الذى أخرجه هو نفسه، وكذا رجَّحه الدارقطنيُّ في «العلل» (١١٣٥).

قلت: **وله شاهدٌ**؛ أخرجه عبد الرزاق في «**المصنف**» (٢٠٢٨٦) عن الحسن مرسلًا بلفظ: «**إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى انْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، وحُمْرَةِ عَيْنَيْهِ؟ فَمَنْ أَحَسَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَإِنْ كَانَ قَائِمًا فَلْيَقْعُدْ، وَإِنْ كَانَ قَاعِدًا فَلْيَتَّكِ**».

وإسناده ضعيفٌ لإرساله كما ترى؛ وهو عند البيهقيِّ في («الشعب» ٨٢٩٠).

وقد أشار الحافظ ابن رجب في «**جامعه**» (ص: ٣٦٥) إلى شاهدٍ له من حديث أنس، ولم يذكر في أي الكتب هو. **والحديث في الجملة صحيح لغيره**، وقد صحح غير واحد سند أحمد باستقلاله من حديث أبي ذر مرفوعًا به. وحديث أبي سعيد قد يتقوّى بالشّواهد المذكورة كذلك، ولعلَّه من أجل ذلك قال الترمذي عنه: (**حسن صحيح**)، وحسَّنه كذلك البغوى فى «**شرح السنَّة**» (٤/ ٢٤٢).

(١) وهذا اللفظ جاء من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي سبق من طريق علي بن زيد به. والذي أخرجه السمرقندي في «تنبيه الغافلين» (ص: ١٢٧).

(٢) (٤ / ١٠٠).

• **ثامنًا: الوضوءُ والاغتسال:**

وهذا مما يسكن الغضب كذلك ويهدؤه، فكما تقدَّم أن الغضب جمرةٌ توقد في قلب ابن آدم، وإطفاؤها يكونُ بالماءِ؛ وهذا المسكِّن مستفادٌ بالتجربة العملية(١).

وكما ورد في «**سنن أبي داود**»، و «**مسند أحمد**»(٢) بإسنادٍ ضعيفٍ من حديث عطية السعدي ﵁؛ وذلك من طريق: أبي وائل القاصِّ قال:

دَخَلْنَا عَلَى عُرْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّعْدِيِّ، فَكَلَّمَهُ رَجُلٌ فَأَغْضَبَهُ، فَقَامَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَجَعَ وَقَدْ تَوَضَّأَ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي عَطِيَّةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «**إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ**» وفي رواية(٣):

من حديث معاوية: «**فَلْيَغْتَسِلْ**» لكنها أيضًا لا تصحُّ.

• **تاسعا: الاستعانة بالصلاة(٤):**

وهذا أفضلُ سلاحٍ، وأعظمُ دواءٍ؛ (الاستعانة بالصلاة عند الغضب)، وعند حدوث أي ضيقٍ على وجه العموم، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾

[البقرة: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ

---

(١) **قال ابن القيم** ﵀ في «**الزاد**» (٢/ ٤٦٣): «ولما كان الغضبُ والشهوة جمرتين من نارٍ في قلب ابن آدم، أمر أن يُطفئهما بالوضوء و.....».

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب (٤٧٨٤)، وأحمد في «المسند» (١٧٩٨٥).

قلت: وإسناد هذا الحديث ضعيف كما تقدَّم؛ إذ فيه مجهولان، وقد شرح ذلك العلامة الألباني ﵀ في «الضعيفة» (٢/ ٥١) (برقم: ٥٨٢)، وراجع: («الميزان» ٢/ ٣٩٥ للذهبي).

(٣) عند أبي نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٠).

(٤) **قال ابن القيم في («الداء والدواء» ص: ١٣٧)**: «اعلموا أن الغضب جمرةٌ في قلب ابن آدم، وإنما تطفأ النار بالماء، والصلاة، والتكبير؛ فإياكم أن تُمكِّنوا ابن آدم عند غضبه».

﴿ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨]؛ أي: من المصلين.

فافزع إلى الله فيما نابك وضاق منك صَدْرُك بالتسبيح والتحميد والصلاة يكفك، ويكشف الغم عنك[1]؛ ففي الصلاة كشفٌ للغمة، وتفريجٌ للكربة، وشرحٌ للصدر، وتثبيتٌ للأمر.

وكان النبيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ[2].

وفي «سنن أبي داود» و «مسند أحمد»[3] من حديث عبد الله بن محمد ابن الحنفية عن صهرٍ له من الأنصار؛ أنه قال لبعضِ أهله: «**يَا جَارِيَةُ ائْتُونِي بِوَضُوءٍ لَعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ**» قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**قُمْ يَا بِلَالُ! أَقِمْ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**».

فالصلاة راحةٌ وطمأنينةٌ، وسعادةٌ وسكينةٌ؛ وهي قُرَّة عين النبي ﷺ، وراحةُ نفسه، والعبد إذا أقبل ولجأ بها إلى الله تعالى من أيِّ نصبٍ أو وصبٍ أو همٍّ أو غمٍّ أو حزَن؛ فإنه سيشعرُ بالمواساة والمناجاة، والتأييد من الله تعالى له، فينجو من المهالك، ويسلم من المعاطب والمخاوف، ومن متاعب الدنيا وأشغالها!!

فاستعن بالصلاة في جميع أمورك، وأكثر فيها من التضرع، والابتهال، والذكر، والدعاء؛ فإن أقربَ ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد[4].

---

(١) «تفسير ابن عجيبة» (٣/ ٤٢٧).

(٢) كما في «سنن أبي داود» كتاب الصلاة، أبواب قيام الليل، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣١٩)، و «مسند أحمد» (٥/ ٣٨٨)، و«تفسير الطبري» (٨٥٠، ٨٥١) بإسنادٍ حسَّنه الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٧٢)، وكذا الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٠٣) من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى». قال في «النهاية» (١/ ٣٦٩): «حَزَبَهُ؛ أي: نزل به أمرٌ مهمٌّ، أو أصابه غم».

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٦)، وأحمد (٥/ ٣٦٤و٣٧١)، والطحاوي في «المشكل» (١٤/ ٨٧)، والخطيب في «تاريخه» (١٠/ ٤٤٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧١٤٩)، وصححه الزيلعيُّ في «تخريج الكشاف» (١/ ٦٢)، ووافقه الألباني وغيره، وانظر: («العلل» للدارقطني ٤/ ١٢٠، ١٢٢).

(٤) كما في «**صحيح مسلم**» كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

فالصلاةُ من أكبر العون على الثبات على الأمر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «والمقصود أنه سبحانه أرشد عباده إلى ما يدفعون به شرَّ قوتي الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة».

أيُّها الأحبة: إن القوةَ الحقيقيةَ ليست بغلبةِ الرِّجالِ ومصارعتهم - وإن كانت هذه من القوة؛ فالمؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير - لكن القوَّة الأساسية لدى الشخص هي ضبط النفس عند الغضب، والعفو عند الإساءة مع القدرة على الانتقام.

وفي «**الصحيحين**»[٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ**[٣]**، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**».

وفي رواية[٤]:

«**لَيْسَ الشَّدِيدُ مَنْ غَلَبَ النَّاسَ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ**».

وفي رواية لأحمد[٥] من حديثِ رَجُلٍ شَهِدَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ؛ وفيه أنه قال: «**مَا الصُّرْعَةُ؟**». قالوا: الصَّرِيعُ؛ فقال: «**الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعَةِ، الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعَةِ؛ الرَّجُلُ يَغْضَبُ فَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ، وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، وَيَقْشَعِرُّ شَعَرُهُ، فَيَصْرَعُهُ غَضَبُهُ**».

وفي «**صحيح مسلم**»[٦] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا تَعُدُّونَ**

---

(١) «زاد المعاد» (٢ / ٤٦٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٦١١٤)، ومسلمٌ، كتاب البر، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩).

(٣) الذي يصرع الرجال بقوته كثيرًا.

(٤) لابن حبان كما في «**الموارد**» (٢٠١٨)، وراجع: «الصحيحة» (٣٢٩٥).

(٥) (٥/ ٣٦٧) وفيه أبو حصبة أو ابن حصبة جهّله غيرُ واحدٍ من أهل العلم؛ كالحسينيِّ وغيره؛ كما في «المجمع» للهيثمي (٣ / ٢٢)، وقد حسَّنَهُ العلامة الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٨٥٩)؛ فلعله لشواهده، فقد صححه لغيره الشيخ الأرناؤوط في تعليقه على «المسند» (٢٣١١٥).

(٦) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٨).

الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟». قَالُوا: الَّذِي لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ. قَالَ: «**لاَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**».

وقال الحافظ في «الفتح»[(١)]: «الصُّرَعة - بضم الصاد وفتح الراء -: الذي يصرع الناس كثيرًا بقوته، والهاء للمبالغة في الصفة، والصرعة بسكون الراء بالعكس، وهو من يصرعه غيره كثيرًا، وكلُّ ما جاء بهذا الوزن بالضم والسكون؛ فهو كذلك كهمزة ولمزة وحفظة وخدعة وضحكة...»

فالحليمُ العاقلُ لا يقابل النارَ بالنارِ، ولا الإساءةَ بالإساءةِ، ولا الشرَّ بالشرِّ، ولا يرد على السفيه سفاهته؛ بل يتماسكُ ولا يهتزُّ ولا يضطربُ، وقد جعل الصمتَ رائده، والحلم قائده.

ولــربما حجــب الحلـيمُ جوابَـهُ ... بالصـــمت منـــه وإنـــه لمفـــوَّهُ

والصـمت للمـرء الحلـيم وقايـةٌ ... ينفـي بهـا عـن عرضـهِ مـا يكـرهُ

وفي «**صحيح البخاري**»[(٢)] من حديث أنس رضي الله عنه قال:

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْـمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتْ الَّتِي النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ، فَسَقَطَتْ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ وَيَقُولُ: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ**»، ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ.

قال الحافظ في «الفتح»[(٣)]: «وقال شُرَّاحُ الحديث: فيه إشارة إلى عدم مؤاخذة الغَيْراء بما يصدر منها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة».

---

(١) (١٠ / ٥٣٥).
(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب الغيرة (٥٢٢٥).
(٣) (٩ / ٢٣٦).

وأخرج **النسائيُّ** في «**السنن**»[(١)] **بإسنادٍ صحيح** من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها - يعني - أَتَتْ بِطَعَامٍ فِي صَحْفَةٍ لَهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَجَاءَتْ عَائِشَةُ مُتَّزِرَةً بِكِسَاءٍ وَمَعَهَا فِهْرٌ[(٢)]، فَفَلَقَتْ بِهِ الصَّحْفَةَ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ فِلْقَتَي الصَّحْفَةِ وَيَقُولُ: «**كُلُوا غَارَتْ أُمُّكُمْ**». مَرَّتَيْنِ ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ صَحْفَةَ عَائِشَةَ فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ، وَأَعْطَى صَحْفَةَ أُمِّ سَلَمَةَ عَائِشَةَ.

ويُلاحظ أن المسامحة هنا لكونها على شخصه ﷺ، أما إذا كان الخطأ على الشرع، فهو ﷺ لا يحابي زوجةً ولا قريبًا ولا صديقًا؛ بل الشرع عنده فوق كلِّ أحد.

وما أحلى وأغلى وأجلى وأجمل هذا الخُلُق العالي من سيد الخلق ﷺ؛ كما في الحديث الذي رواه **البخاريُّ ومسلمٌ**[(٣)] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ[(٤)]، غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً[(٥)]، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ[(٦)] النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ[(٧)]، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ[(٨)]». بأبي هو وأمي ﷺ.

فلا تكن سريع الغضب يستثيرك كلُّ شيء، ويستثيرك كلُّ إنسان؛ بل كن مطمئنًا

---

(١) أخرجه النسائيُّ، كتاب عشرة النساء، باب الغيرة، وصححه الألباني في «الإرواء» (٥/ ٣٦٠).

(٢) أي: حجر.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٣١٤٩)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة (١٠٥٧).

(٤) نسبة إلى نجران بلد معروف بين الحجاز واليمن. «**الفتح**» (١٠/ ٥٢١).

(٥) في رواية لمسلم: (**ثُمَّ جَبَذَهُ إليه جَبْذَةً رَجَعَ نَبِيُّ الله ﷺ في نَحْرِ الْأَعْرَابِيِّ**). وفي رواية أخرى: (**فَجَاذَبَهُ حتى انْشَقَّ الْبُرْدُ، وَحَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ في عُنُقِ رَسُولِ الله ﷺ**).

(٦) عند مسلم: (**إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ النَّبِيِّ ﷺ**).

(٧) أي: النبي ﷺ.

(٨) وهذا لأن الخطأ على شخصه ﷺ، فيسامح - وخاصة على الجفاة من الأعراب -؛ لكن إن كان الخطأ على الحق والدين؛ فإنه كان يغضب وينتقم لله تعالى.

متأنيًا، ودع للصلح موضعًا[١].

فجاهد نفسك - أخي وحبيبي في الله - بالتحلي بالحلم ومعالي الشيم، ومحاسن الأعمال، ثم بنزع هذه الخصلة - أعني: خصلة الغضب - منك، وطرح هذا الخُلُقَ الذميمَ عنك.

قُمْ وانهض بتركِهِ، والتحرز منه، واجتنابه، والبعد عنه، فالبعدُ عنه غنيمة، والتحرز منه سلامة وراحة وسكينة، وعليك بالحلم، والزمْهُ؛ فإنه أفضلُ رداء، وأكرم به من دواء.

فمَنْ حلُم عظُم[٢]، ومن عفا ساد[٣]، ومن تجاوز استمالت إليه القلوبُ، وَمَن قل غضبُهُ قويت حجَّتُهُ، وظهر على خصمه.

قال بعض الحكماء لابنه: «يا بني! احتفظ من النَّزَقِ عند سَوْرَة الغضب؛ فإنك متى افتتحت بدو غضبك بكظمٍ ختمت عاقبته بالحلم، ومتى افتتحته بالقلق والضجر ختمته بالسفه، وإذا حاججت؛ فلا تغضب؛ فإن الغضب يقطع الحجة، ويظهر عليك الخصم»[٤].

○ أما عن ثمرات الكف عن الغضب وتركه:

فتقدَّم أن اجتنابَ الغضب، والكفَّ عنه، وصيانةَ النفسِ منه؛ يُباعد العبدَ من غضب الله[٥]، وعقابه، وبطشه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ

---

(١) وشَتَمَ رجلٌ رجلًا، فقال له: (يا هذا لا تفرط في شتمنا، ودع للصلح موضعًا)، وانظر: («السير» ٦/ ٣٨٩).

(٢) قال سعيد بن عبد العزيز رحمه الله: (فَضَل شدادُ بنُ أوس الأنصار بخصلتين: ببيَانٍ إذا نطق، وبكَظمٍ إذا غضب)؛ كما في («السير» ٢/ ٤٦٤).

(٣) قيل لمعن بن زائدة رحمه الله: المؤاخذة بالذنب من السؤدد؟ فقال: (لا، ولكن أحسن ما يكون: الصفح عمن عظم جرمه، وقلَّ شفعاؤه، ولم يجد ناصرًا).

(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٤٧٧) ط دار ابن حزم.
والنزق: خفة في كل أمر، وعجلة في جهل وحمق.. راجع: «اللسان» مادة نزق.

(٥) كما في «صحيح ابن حبان» «الموارد» (١٩٧١) بإسنادٍ حسن عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا. وقد بوَّب له أبو حاتم ابن حبان في (الصحيح) له (٢٩٦) فقال: (ذكر رجاء الأمن من غضب الله لمن لم يغضب لغير الله جلَّ وعلا)، وأخرجه أحمد (٢/ ١٧٥) من وجه آخر عن عبد الله بن =

ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وتركُهُ علامةٌ للإيمان؛ قال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أي: لا يضيع ذلك عند الله؛ قاله ابن كثير.

وفي «**سنن أبي داود**»، و «**سنن الترمذي**»، و «**ابن ماجه**» من حديث سهل بن معاذ ابن أنس الجهني عن أبيه أن رسولَ الله ﷺ قال:

«**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ**»[1].

=

عمرو مرفوعًا.

وللحديث شاهد آخر عند أبي يعلى في «**المسند**» (٧/ ٣٠٢) (٤٣٣٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «**من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابه... الحديث**» وإسنادُهُ ضعيفٌ جدًّا، وقد أورده العلامة المحقق الألباني رحمه الله في «**الصحيحة**» (برقم: ٢٣٦٠) تحت باب: (فضل كفّ الغضب واللسان)؛ وقوّاه بطريق أخرى عند ابن بشران في «**الأمالي**» وعنه الضياء في «**المختارة**» من طريق: سفيان عن حميد عن أنس مرفوعًا به نحوه.ثم قال: «**فالإسناد عندي حسنٌ**».

وله شاهدٌ مثله؛ أخرجه البيهقيُّ في («الشعب» ٨٣١٢) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا. بإسنادٍ ضعيف.

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب من كظم غيظًا (٤٧٧٧)، والترمذيُّ، كتاب البر والصلة، باب من كظم غيظه (٢٠٢١)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحلم (٤١٨٦)، وأحمد (٣ / ٤٤٠).

قلت: وفى سندِهِ أبو مرحوم، واسمه عبد الرحمن بن ميمون؛ كما قال أبو داود. قال الحافظ فيه: (مقبول) أي إذا توبع، وإلا فهو لين. ولكن عند الترمذي، قال: (عبد الرحيم بن ميمون) وكذا في رواية أحمد - وهو الظاهر والأشبه - وقد قال فيه الحافظ في «التقريب»: (صدوق).

وعليه: فالإسناد حسن؛ كما قرّر ذلك العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٢٢) وغيره.

وقد توبع أبو مرحوم من زبان بن فائد؛ كما عند أحمد في «المسند» (٢٤/ ٣٨٤ الرسالة)؛ وزبان ضعيف الحديث، وفيه ابن لهيعة أيضًا، وسهل بن معاذ في روايات زبان عنه ضعفٌ كذلك، فقد قال الحافظ: (سهل بن معاذ لا بأس به، إلا في روايات زبان عنه).

قلت: ولأبي مرحومٍ متابعة أخرى عند الطبراني في «**الصغير**» (٢/ ١٢٣).

=

يقول المباركفوري رحمه الله **في «تحفة الأحوذي»**[(١)]: «قوله: (**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا**) أي: كف عن إمضائه، (**وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ**) من التنفيذ؛ أي: يقدر على إمضائه وإنفاذه، والجملة حالية، (**دَعَاهُ اللهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ**) أي: شهَّره بين الناس، وأثنى عليه وتباهى به، ويقال في حقه هذا الذي صدرت منه هذه الخصلة العظيمة.

قال الطيبي: وإنما حمد الكظم؛ لأنه قهر للنفس الأمارة بالسوء، ولذلك مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾». اهـ.

قال العظيم آبادي في «عون المعبود»[(٢)]: «قوله: «**مِنْ أَيِّ الْحُورِ الْعِينِ شَاءَ**» أي: في أخذ أيهن، وهو كناية عن إدخاله الجنة المنيعة، وإيصاله الدرجة الرفيعة».

وفي «**سنن ابن ماجه**»[(٣)] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ**».

=

وللحديث شاهد عند أبي داود في «**السنن**» (٤٧٧٨) أورده بعد هذا الحديث من طريق: محمد ابن عجلان عن سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب النبيِّ ﷺ عن أبيه قال: فذكره بنحوه مرفوعًا.

قلت: وهذا إسنادٌ فيه سويد بن وهب (**مجهول**)؛ كما قال الحافظ في «**التقريب**»؛ وفيه رجلٌ من أبناء أصحاب النبي ﷺ.

(١) (٦ / ٤١٣).

(٢) (٨ / ١٨٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحلم (٤١٨٩)، وعزاه في «**الكنز**» (٥٨٢١) لابن أبي الدنيا في «**ذم الغضب**».

قال البوصيريُّ في «مصباح الزجاجة» (٣/ ٢٩١): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».

قلت: وفيه الحسن - وهو البصري - وقد عنعن.

وفي إسنادِهِ خلافٌ في الوقف والرفع؛ فانظر: «مصنف ابن أبي شيبة»(١٤/ ٦١)، و «الأدب المفرد» للبخاري (١٣٥٥)، ثم أيضًا خلاف على الإرسال؛ كما في «مصنف عبد الرزاق» (١٠/ ١٩٥) عن الحسن مرسلًا. وقد صححه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٥٢).

وله شاهدٌ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أشار إليه صاحب «الكنز» (٥٨٢٢)؛ وانظره في «**الضعيفة**» (١٩١٢).

وفي رواية[١]: «**مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جَرْعَةً أَفْضَلَ عِنْدَ الله ﷻ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله تَعَالَى**».

وأعظم ثمرات تركِ الغضب، واجتنابه، والتحرز منه؛ (دخول الجنة).

ففي «**معجم الطبراني الكبير**» و «**الأوسط**»[٢] من حديث أبي الدرداء ﷺ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ، وَلَكَ الْجَنَّةُ**».

فما أحلى وأغلى وأعلى ثمراتِ ترك الغضب، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والحلم والأناة.

فلا تغضب ولك الجنة... والجنةُ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وبعد كلِّ هذا قد يقولُ قائلٌ: إن الغضبَ غريزةٌ فطرية، وجبِلَّةٌ إنسانيةٌ، وطبيعةٌ بشرية، وإنه ليصعب عليَّ أن أتغلب عليه[٣]، والجوابُ:

---

(١) عند أحمد (١٠/ ٢٧٠).

(٢) (برقم: ٢٣٧٤) (٣/ ١٨٢).
قال الهيثميُّ في «المجمع» (٨/ ٧٠): (رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وأحد إسنادي الكبير؛ رجاله ثقات).
قلت: وحسَّنهُ الحافظ العراقي في «تحقيق الإحياء» ٣/ ٢٥٨) وزاد عزوه لابن أبي الدنيا ﷺ وصححه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٤٩).
وله شاهد:عند أبي يعلى في «المسند» (١٥٩٣) عن زحمويه - وهو زكريا بن يحيى - عن صالح عن الأعمش عن أبي صالح عن بعضِ أصحاب النبي ﷺ أنه قال: فذكرهُ. و«إسناده صحيح».
وصالح هو: ابن عمر الواسطي. قال الحافظ في «التقريب»: (ثقة)؛ مع أن الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٧٠) قال: (ولم أعرف صالحًا هذا)؛ فانظر «تهذيب الكمال» (١٣/ ٧٥) للمزِّي ﷺ تجدهُ معروفًا؛ ووثقه جمعٌ من أئمة الحديث.

(٣) قال ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ١٤٣): «والخَلْقُ مجبولون على الغضب والحلم معًا، فمن غضب وحلم في نفس الغضب؛ فإن ذلك ليس بمذموم ما لم يخرجه غضبه إلى المكروه من القول والفعل، على أن مفارقته في الأحوال كلها أحمد». اهـ.

أن الناس في قوة الغضب على درجاتٍ ثلاث[1]:

فإما تفريط.

أو إفراط. (وكلاهما مذموم).

وإما اعتدال. (وهو المحمود).

١- أما التفريط:

فرجلٌ منعدم الحمية، والغيرة، والمروءة، والأنفة، تجد فيه خسَّةَ النفس فى احتمال الذل من الأخساء، وترى فيه خنوثةَ الطبع، فلا يأنف مما يُؤنَف منه، فلا يغارُ على المحارم؛ كالزوجة والأخت ونحوهما، ولا يتحرك عند مشاهدة المنكرات، ولا يغضب، فهذا النوع مذمومٌ.

وقد **قال الشافعيُّ** رحمه الله: «من استُغضِبَ فلم يغضب فهو حمار، ومن استُرضِيَ فلم يرض، فهو شيطان» أو: (جبَّار)[2].

فمن فقد الغضبَ أو ضعف عنده - كما تقدَّم - أدَّى ذلك إلى ضعف الغيرة على

---

(١) تلخيصًا من «الإحياء» (٣/ ٢٦١) لأبي حامد الغزالي رحمه الله.

وقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» (ص: ١٥٦): (للأخلاق حدٌّ متى جاوزته صارت عدوانًا، ومتى قَصرت عنه كان نقصًا ومهانة؛ فللغضب حدٌّ؛ وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كماله، فإذا جاوز حدَّه تعدَّى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن، ولم يأنف من الرذائل).

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله في «الإحياء» (٣/ ٩٢): (لو انعدم الغضبُ بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك... والمطلوب في صفة الغضب حسن الحميَّة، وذلك بأن يخلو عن التهور، وعن الجبن جميعًا. وبالجملة أن يكون في نفسه قويًّا، ومع قوته منقادًا للعقل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وصفهم بالشدة، وإنما تصدر الشدة عن الغضب، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد.. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ولم يقل: والفاقدين الغيظ، فردَّ الغضب إلى حدِّ الاعتدال، بحيث لا يقهر العقل ولا يغلبه؛ بل يكون العقل هو الضابط له، والغالب عليه ممكَّن).

(٢) كما في «السير» (١٠/ ٤٢)، و «الفيض» للمناوي (٢/ ٣٧٧).

المحارم، وأنت ترى الفتاةَ تخرج كاسيةً عاريةً، كاشفةً شعرها، ونحرها، ورافعة الثياب عن ساقها؛ - تراها بهذا التبرج والسفور - يُسايرها زوجها أو أخوها أو أبوها أو أمها بلا نكير، أو مبالاة!

فأين الغيرةُ؟ وأين المروءةَ؟! ذهبت وعفى عليها الدَّهرُ.

٢- أما الإفراط:

فرجلٌ مُسرفٌ في الغضبِ، مُفرِّطٌ فيه، تجدُ الغضبَ صفة غالبة متحكِّمة فيه، تراه متهورًا في عموم تصرفاته، لا فكر، ولا بَصر، ولا نظر، وقد خرج به الغضبُ عن سياسة العقل والدين، صورته صورة الغضبان، وقد أصبح الغضبُ سمةً وعلامة بارزة على وجهه، فطرتُهُ مستعدةٌ للغضب في أي وقت وعلى كل حال؛ وهذا النوع له آثاره السيئة - كما تقدَّم - على اللسان، وعلى الأعضاء، وفي صورة الوجه من تغير اللون، وقبح الصورة، واستحالة الخلقة، ويجره إلى التهور والبطش، فهذا النوع مذموم جدًّا كذلك، وينبغي أن يُمحى بالكلية.

ففقد الغضبِ بالكلية مذموم، والإسراف فيه ممقوت، وينبغي للمرء أن يطلب الوسطَ بين الطرفين؛ لا إفراطَ ولا تفريط، وهذا هو:

٣- النوع الثالث:

وهو النوع الوسط المحمود الذي كلَّف اللهُ به عبادهِ، وهو أن يكون الغضبُ طوْع العقل والدين، فيحكم المرء نفسه عنده، فينبعث حيث تجب الحميةُ، وينطفئ حيث يحسن الحلمَ والرفقَ.

وهذا هو الحق المستقيم.

فمن أفرط أو فرَّط؛ فينبغي أن يسعى لمعالجة نفسه حتى يصل إلى هذه المرتبة الصالحة وهذه المرتبة العالية أو القرب منها.

قلت: وهذا النوع من الغضب يقع من الأنبياء والفضلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وكما قال ﷺ : «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ**»[١] . لكنه ﷺ لا يعملُ بموجب الغضب، فغضبه لا يخرجه عن الحق.

○ **قال ابنُ رجب** رحمه الله **في «جامعه»**[٢] :

«والواجب على المؤمن أن تكون شهوتُه مقصورةً على طلب ما أباحه اللهُ له، وربما تناولها بنيَّةٍ صالحةٍ فأُثيب عليها، وأن يكون غضبُهُ دفعًا للأذى في الدين له، أو لغيره، أو انتقامًا ممن عصى الله ورسوله[٣] ؛ كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥][٤] .

وهذه كانت حال النبيِّ ﷺ ؛ فإنه كان لا ينتقم لنفسه، ولكن إذا انتهكت حرماتُ الله لم يقم لغضبِهِ شيء[٥] ، ولم يضرب بيده خادمًا، ولا امرأة إلا أن يجاهد في سبيل

---

(١) أخرجه مسلمٌ،كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلًا لذلك كان له زكاةً وأجرًا ورحمةً (٢٦٠٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) (ص: ٣٦٩).

(٣) وقد بوَّب النوويُّ في «الرياض» (باب: ٧٧) بابًا بعنوان: «بابُ الغضب إذا انتهكت حرمات الشرع، والانتصار لدين الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]».

(٤) قال السعديُّ رحمه الله : «فإن في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم، ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم؛ إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالًا للغيظ الذي في قلوبكم، وهذا يدلُّ على محبة الله للمؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم، وذهاب غيظهم».

(٥) كما في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «... **وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا**». أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب صفة النبيِّ ﷺ =

الله[(١)].

وخدَمَهُ أنسٌ رضي الله عنه عشر سنين، فما قال له: «أُفٍّ» قط، ولا قال له لشيءٍ فعله: «لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟»، وَلَا لِشَيْءٍ لم يفعله: «أَلاَ فَعَلْتَ كَذَا»[(٢)]. وفي رِوَايَة: أَنَّهُ كَانَ إِذَا لَامَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ قَالَ ﷺ: «دَعُوهُ، فَلَوْ قُضِيَ شَيْءٌ كَانَ».

وفي رواية للطبراني[(٣)]: قال أنس: «خَدَمْتُ رَسُولَ الله عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا دَرَيْتُ شَيْئًا قَطُّ وَافَقَهُ، وَلَا شَيْئًا قَطُّ خَالَفَهُ، رَضِيَ مِنَ الله بِمَا كَانَ».

وسُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ؛ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ»[(٤)]. تعني: أنه تأدَّبَ بآدابه؛ وتخلَّق بأخلاقه؛ فما مدحه القرآنُ كان فيه رضاه، وما ذمَّه القرآنُ كان فيه سخطه، وجاء في رواية عنها قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، يَرْضَى لِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ».

ثم قال ابن رجب:

«وكان ﷺ إذا رأى، أو سمع ما يكرهه الله، غضب لذلك[(٥)]، وقال فيه، ولم

=
(٣٥٦٠)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام (٢٣٢٧).

(١) كما في «صحيح مسلم»، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته (٢٣٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) كما في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٨)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣٠٩).

(٣) كما في «المعجم الصغير» (٢/ ١١٨)، و «الأوسط» (١٠/ ٧٣ و٧٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٦): «وفيه من لم أعرفهم».

(٤) كما في «صحيح مسلم» كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦) من حديث سعد بن هشام بن عامر قال: قُلْتُ: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ؛ قالت: (أَلَسْتَ تَقرأُ القُرْآنَ؟) قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: (فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ القُرْآنَ).

(٥) لكن لا يخرجه الغضب عن حدِّ الاعتدال؛ لذا كان من دعاء سيِّد الرجال نبينا ﷺ؛ كما عند النسائي، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٥) بإسنادٍ صحيح من حديث عمَّار بن
=

يسكت». انتهى المراد.

إلى غير ذلك من تلك المواقف التي غضب النبيُّ ﷺ فيها[(١)]، وعُرفت الكراهية على وجهه[(٢)]، وعلى بسمته[(٣)]؛ بل ربما أنكر بلسانه[(٤)]، وربما غيَّر بيده[(٥)].

=

ياسر أن النبيَّ ﷺ قال فيه: «**وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ في الغَضَبِ وَالرِّضَا**»، وصححه الألباني رحمه الله في «المشكاة» (٢٤٩٧) و«صحيح» النسائي.

فغضبه ﷺ لا يخرجه عن الحق؛ قال ابن رجب رحمه الله في «جامعه» (ص: ٣٧٢): «وهذا عزيزٌ جدًّا، وهو أن الإنسان لا يقول سوى الحقِّ سواء غضِبَ أو رضي، فإن أكثر الناس إذا غضب لا يتوقف فيما يقول».

(١) وغضبُهُ في تلك المواقف، وهذه الأسباب المختلفة كلُّها؛ فمرجعهُ فيها كان في أمر الله، وقد أظهر الغضب فيها ليكون أوكد في الزجر عنها. بتصرف من «الفتح» (٦/ ٥٣٤).

(٢) كما في «الصحيحين» من حديث علي رضي الله عنه قال: «**أَهْدَى [آتى] إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ حُلَّةَ سِيَرَاءَ فَلَبِسْتُهَا، فَرَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، فَشَقَقْتُهَا بَيْنَ نِسَائِي**». أخرجه البخاريُّ، كتاب الهبة، باب هدية ما يكره لبسها (٢٦١٤)، ومسلمٌ، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة... (٢٠٧١)، والحلة السيراء: إزار ورداء من أنواع الحرير.

(٣) كما في حديث كعب بن مالك حين تخلّف عن غزوة تبوك قال: (حتى جئت - أي: إلى النبي ﷺ - فلما سلمتُ عليه تبسَّمَ تبسُّمَ المغضب). أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩).

(٤) كما وقع في حادثة الإفك؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي**». أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب حديث الإفك (٤١٤١)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

وكما أنكر على المتخلفين عن صلاة الجماعة في المساجد؛ كما عند البخاري، كتاب الأذان، باب في فضل العشاء في جماعة (٦٥٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد على التخلف عنها (٦٥١).

(٥) إن رأى المصلحة في ذلك؛ كما تقدَّم في هتكهِ للستر الذي كان في بيت عائشة رضي الله عنها ورأى عليه صورة.

وهناك صورٌ أخرى غير ما ذكرتُ في هذا الباب؛ فانظر: «**موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم**» (١١/ ٥٠٨٥ دار الوسيلة). فقد وردت فيه جملة طيبة من هذه المواقف النبوية.

تنبيه: وقد استفدتُ في نقلي لكثير من النصوص المتعلقة بهذا المبحث من «**نضرة النعيم**»، مع =

ولكن - مع هذا -؛ لم يكن يُخرجه الغضبُ عن حدِّ الاعتدال، وعن الحق.

وهذا هو الواجب على كل مسلمٍ ألاَّ يقول سوى كلمةِ الحق سواء غضب أو رضي، نسأل اللهَ أن يوفقنا لكل ما يحبه ويرضى؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه.

*****

= ضميمةِ كُتبٍ أخرى قد أشرتُ إليها في مواضعها؛ «**كالإحياء**»، و «**جامع العلوم والحكم**»، و«**الفوائد**» لابن القيم، و «**الرياض**» للنووي؛ تلخيصًا من كتاب «فقه الغضب» لأخينا محمد العفيفي. ط فياض، بالمنصورة.



الكِبْرُ



الكبر

إنَّ النَّفسَ البشريةَ بطبيعتها تنفرُ من الكبر، وتبغض المتكبرين، ومَنْ يطلبُ العزَّة في الكبر كمن يطلب الماء من النار!! ونحن في هذا الزمانِ نرى هذه الآفةَ منتشرةً حتى بين أوساط طلاَّب العلم!!

فنرى صنفًا ممن آتاه الله علمًا، أو إن شئت فقل: قشورًا من العلم - إن رزقه الله ببعض الطلاب، وجلسوا حوله - تراه يشمخُ بأنفه، ويتعالى ويتكبر، وهذا ليس من سمت أهل العلم، ولا سمت طلاب العلم الحقيقيين، وكم نرى للأسف من طلاب العلم من يسيئون الأدب مع العلماء والشيوخ. وأنا لا أريد أن يقدِّس طلابُ العلم شيوخهم، ولكن شَتَّان شَتَّان بين حبٍّ وتقديرٍ قائمٍ على الاتباع، وبين حبٍّ قائمٍ على الغلو والابتداع.

فإذا كنت على علم؛ فمن الذي علَّمك؟ فضع أنفك في التراب ذلاً لمولاك، وتواضع لطلاب علمك ليرفعك اللهُ جَلَّ وعَلَا، ولا تتعال على إِخوانك وأحبابك ولا تقل بلسان الحال:

أنا العالم وأنتم الجاهلون.

أنا الطائع وأنتم المذنبون.

أنا المهتدي وأنتم الضالون.

أنا الموفق وأنتم المقصرون.

أنا التقيُّ وأنتم الفاسقون.

فوربِّ الكعبة لو تخلَّى اللهُ عنك برحمته وفضله وإِحسانه طرفة عين لهلكت. فتذكر فضل الله عليك، وإحسانه بك، من أنت حتى تغتر بعلمك؟ من أنت حتى تغتر بمالك؟ من أنت حتى تغتر بجاهك؟ أنت لا شيء بدون ستر الله وفضله ورحمته؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء: ٩٤].

نعم... كنت ضالًا فهداك الله.

كنت وضيعًا فرفعك الله.

كنت فقيرًا فأغناك الله.

كنت ذليلًا فأعزَّك الله.

ولولا الله لكنا بمثابة الشاة التي احتوتها الذئابُ من كل ناحية.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

فمن المزالق والمهالك أن ينظر الإنسانُ إلى غيره نظرة المستعلي، وأن يكلِّم الآخرين كلام المترفع!!

علام هذا الكبر؟ وعلام هذا الغرور؟

أنسيتَ أصلك يا ابن آدم؟ أنسيتَ ضعفك؟! أنسيتَ عجزك؟ أنسيتَ فقرك؟ أنسيتَ أنك من التراب خلقتَ وإلى التراب تصير؟

ووالله لو دام الكرسيُّ لغيرك ما وصل إليك. فالدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظمت فهي حقيرة؛ لأن الليلَ مهما طال لابد من طلوع الفجر، ولأن العمرَ مهما طال لابد من دخول القبر.

والدنيا دار ممر والآخرة هي دار المقر، فخذ من ممرك لمقرك، ولا تفضح أستارك عند من يعلم أسرارك!!!

فالكبرُ مفتاح الشقاء، ودليلٌ على سفول النفس وانحطاطها، وطريقٌ موصولٌ إلى الجحيم.

- **فما تعريف الكبر لغةً واصطلاحًا؟**

الكبر لغةً: مأخوذ من مادة «ك ب ر» التي تدل على خلاف الصغر، والكبر بالكسر: معظم الشيء.

والكبر: الرفعةُ والشرفُ والعظمةُ والتجبرُ، كالكبرياء. والكبر: الإثم، وقد تكبر واستكبر وتكابر، وقيل: تَكَبَّر من الكِبْرِ، وتكابَر من السِّنِّ. والتَّكَبُّر والاستِكبارُ:

التَّعَظُّم. وقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال الزجاج: معنى يتكبرون؛ أنهم يرون أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وهذه لا تكون إلا لله خاصة؛ لأن الله ﷻ هو الذي له القدرةُ والفضلُ الذي ليس لأحدٍ مثله، وذلك الذي يستحقُّ أن يقال له المتكبر، وليس لأحدٍ أن يتكبر؛ لأن الناس في الحقوق سواءٌ، فليس لأحد ما ليس لغيره، وقيل: فالكبر حالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأنْ يرى نفسَه أكْبَر من غيره، وأعظم الكِبْر التَّكَبُّر على الله، بالامتناع عن قبول الحقِّ.

• **والاسْتِكْبار على وَجْهَيْن:**

أحدهما: أن يَتَحَرَّى الإنسانُ ويَطْلُبُ أن يكونَ كبيرًا، وذلك متى كان على ما يَجِب، وفي المكان الذي يَجِبُ، وفي الوقت الذي يَجِبُ؛ فهو محمود.

والثاني: أن يَتَشَبَّع فيُظهِر من نَفْسِه ما ليس له؛ فهذا هو المَذْمومُ، وعليه وَرَدَ القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

• **وأما التَّكَبُّر فعلى وَجْهَيْن:**

أحدهما: أن تكونَ الأَفعالُ الحسَنةُ كَبيرةً في الحقيقة وزائدةً على محاسن غَيْرِه، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٣].

والثاني: أن يكون مُتكلِّفًا لذلك مُتَشَبِّعًا وذلك في عامَّة الناس، نحو قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]، وكل من وُصِف بالتكبُّر على الوجه الأول فمحمود دون الثاني، ويدلُّ على صحة وَصف الإنسان به قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

والكِبْرِياءُ: التَّرَفُّع عن الانْقِياد، ولا يَسْتَحِقُّهُ إلاَّ اللهُ تعالى؛ قال تعالى: «**الكِبْرِياءُ رِدائي والعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نازَعَني فِي شيءٍ مِنْهُما قَصَمْتُهُ وَلَا أُبالي**»[1].

---

(١) «تاج العروس» (١٤/ ٨، ٩)، و «لسان العرب» (٧/ ٥٧٩، ٥٨٠)، و «معجم مقاييس اللغة» (١٩٥).

واصطلاحاً: بطر الحق وغمط الناس؛ كما قال النبيُّ ﷺ [١].

قال الكفويُّ [٢]: «هو أن يرى المرءُ نفسه أكبر من غيره، والاستكبار: طلب ذلك بالتشبع، وهو التزين بأكثر ما عنده».

○ **وللكبر أنواع ثلاثة:**

- **الأول: الكبر على الله تعالى:**

وهو أفحشُ أنواع الكبر، وذلك مثلُ تكبُّر فرعون ونمرود حيث استنكفا أن يكونا عبدين له.

- **الثاني: الكبر على رسول الله ﷺ:**

بأن يمتنع المتكبرُ من الانقياد له تكبُّرًا وجهلًا وعنادًا كما فعل كفار مكة.

- **الثالث: الكبر على العباد:**

بأن يستعظم نفسه ويحتقر غيره ويزدريه فيتأبى عن الانقياد له ويترفع عليه. وهذا النوع وإن كان دون الأوَّلَيْن إلا أنه عظيمٌ إثمه أيضًا؛ لأن الكبرياءَ والعظمةَ إنما يليقان بالله تعالى وحده [٣].

أيها الأحبة: لقد ذم اللهُ الكبرَ في مواضعَ من كتابه، وذمَّ كلَّ جبار متكبر؛ فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) «الكليات» (٢٨).

(٣) «الزواجر» للهيتمي (١ / ١٤٧ فما بعدها بتصرف)، و «الإحياء» (٣ / ٣٦٤، ٣٦٦).

وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، وما أكثر الآيات في ذمِّ الكبر والمتكبرين.

- **أمَّا الأحاديث؛ فإليك بعضًا منها:**

ففي «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«احْتَجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ؛ فَقَالَتْ هَذِهِ: يَدْخُلُنِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتْ هذه: يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالْمَسَاكِينُ؛ فَقَالَ اللهُ عز وجل لِهَذِهِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِهَذِهِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا»**.

وفي «صحيح» مسلم[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»**.

وفي «صحيح» مسلم[(٣)] - كذلك - من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: **«لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»**. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: **«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»**.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (٤٨٥٠)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمن بالعطية، وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذي لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم (١٠٧).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).

وفي «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

قال الغزاليُّ(٢): «العجبُ يورث الكبر الباطن، والكبر يورث التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال».

وقال(٣): «الكبر آفته عظيمة، وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العبادُ والزهادُ والعلماءُ. فضلًا عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(٤). وإنما صار حجابًا دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزَّة النَّفس يغلق تلك الأبواب كلها؛ لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع، وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العزُّ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز، ولا معنى للتطويل؛ فما من خُلُقٍ ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه، خوفًا من أن يفوته عزُّهُ؛ فمن هذا لم يدخل الجنةَ مَن في قلبه مثقال حبة منه.

والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة.

وشرُّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٩)، ومسلمٌ، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٢٠٨٨).
(٢) «الإحياء» (٣/ ٣٧٣)، و«الزواجر» (١/ ١٥١).
(٣) «الإحياء» (٣/ ٣٦٣).
(٤) تقدم قريبًا.

وأسباب الكبر أربعة: العجبُ والحقدُ والحسدُ والرياء[1].

أما عن درجاته؛ فقال ابن قدامة في «مختصر منهاج القاصدين»[2]: «واعلم أن العلماء والعبَّاد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبرُ مستقرًّا في قلب الإنسان منهم؛ فهو يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهدُ ويتواضعُ؛ فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يُظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يُصَعِّرُ خدَّه للناس، كأنه معرضٌ عنهم، والعابد يعيش كأنه مستقذرٌ لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ حين قال: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الثالثة: أن يظهر الكبرُ بلسانه، كالدعاوى، والمفاخرة، والمباهاة، وتزكية النفس، وحكاية الأحوال في معرض المفاخرة لغيره.

وكذلك التكبر بالنسب؛ فالذي له نسبٌ شريفٌ يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه علمًا وعملًا.

قال ابن عباس: يَقُولُ الرَّجُلُ للرَّجُلِ: أَنَا أَكْرَمُ مِنْكَ. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْرَمَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣][3].

وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك؛ فالكبر بالمال أكثر ما يكون بين الملوك والتجار ونحوهم، والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة، وذكر العيوب، وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

---

(١) «الإحياء» (٣/ ٣٧٣).

(٢) (ص: ٢٨٢، ٢٨٣) ط دار ابن رجب.

(٣) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٨٩٨)، وأبو عبيد في «ناسخه» (٣٣١) بإسناد صححه العلامة الألباني في «صحيح الأدب».

وفي الجملة؛ فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالًا؛ فإن لم يكن في نفسه كمالًا أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب والفجور لظنه أن ذلك كمال.

واعلم أن التكبرَ في شمائل الإنسان، كَصَعرِ وجهه، ونظره شزرًا، وإطراقه رأسه، وجلوسه متربعًا ومتكئًا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضًا في مشيه وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

ومن خصال المتكبر أن يحب قيامَ الناس له، والقيام على ضربين: **الأول**: قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهيٌّ عنه؛ قال ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(١)، وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

الثاني: قيامٌ عند مجيء الإنسان، وقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنس رضي الله عنه: «لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لِـمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ»(٢).

وقد قال العلماءُ: يستحب القيام للوالدين، والإمام العادل، وفضلاء الناس. وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسانُ في حق من يصلح أن يفعل في حقه؛ لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته والتقصير في حقه، فيوجب ذلك حقدًا، واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك ويرى أنه ليس بأهل لذلك.

ومن خصال المتكبر: أن لا يمشي إلا ومعه من يمشي خلفه.

ومنها: أن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس.

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٩٧٧)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل (٥٢٢٩)، والترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل (٢٧٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٤٦)، والترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل (٢٧٥٤)، والطحاويُّ في «مشكل الآثار» (٢/ ٣٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٥٨).

ومنها: أن يستنكف من جلوس أحدٍ إلى جانبه، أو مشيه معه.

رُوي عن أنس ﷺ قال: «إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ أَهْلِ المدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَتَنْطَلِقُ بِهِ فِي حَاجَتِهَا»(١).

وقال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد تمسُّ فخذي فخذه، فنحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرني إليه، وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف منكم رجلًا شرًّا مني؟!

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ.

ومنها: أن لا يحمل مَتَاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسولُ الله ﷺ شيئًا وحمله، وكان أبو بكر ﷺ يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها، واشترى عمر ﷺ لحمًا فعلقه بيده وحمله إلى بيته، واشترى على بن أبي طالب ﷺ تمرًا بدرهم فحمله في ملحفته، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل(٢).

وأقبل أبو هريرة ﷺ يومًا من السوق وقد حمل حزمة حطب؛ وهو يؤمئذ خليفةُ مروان؛ فقال لرجلٍ: أوسع الطريق للأمير(٣).

ومن أراد أن ينفي الكبر ويستعمل التواضعَ، فعليه بسيرة رسول الله ﷺ ».اهـ.

وهكذا قد بان لك ذمُّ الكبر والاختيال والعجب، وآفات ذلك وقبائحه، وكل ذلك يستدعي ذكر فضائل التواضع وغاياته الرفيعة؛ فإن الأشياء إنما تعرف بأضدادها(٤).

- **فما معنى التواضع لغةً واصطلاحًا:**

التَّواضُع لُغَةً: مصدر تواضع: أي: أظهر الضعة، وهو مأخوذ من مادة «وضع» التي تدل على الخفض للشيء وحطه، يقال: وضعته بالأرض، ويقال: وضعت المرأةُ

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الكبر (٦٠٧٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٥١)، وعبد الله في «زوائد الزهد» (ص: ١٣٣) بإسناد ضعيف؛ ففيه مجهولان؛ كما قال العلامة الألباني ﷺ. وراجع: «تكميل النفع» (ص:٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٢٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٨٤، ٣٨٥) بإسنادٍ حسن.

(٤) «الزواجر» (١ / ١٥٣).

ولدها أو جنينها[١].

قال ابنُ منظور[٢]: «والتواضع: التذلل، وتواضع الرجل: ذلَّ.. وتواضعت الأرض: انخفضت عما يليها». ومن هنا تكون صفةُ التواضعِ سمةً لمن أظهر الضِّعة والذلَّ لله ولرسوله وللمؤمنين، وإن كان المرءُ عزيزًا في نفسه؛ كما قال الله تعالى في صفة المؤمنين الصادقين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤].

وشرعًا: هو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل لخلق الله، والتواضع لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين صفة تكسو المتواضع مهابةً وجلالةً وليس ذلاً ومهانةً واحتقارًا كما يظن المتكبرون؛ فالمتكبر يظن أنه بتكبره يكسر القلوب ويأسرها، ويملأ قلوب الناس بالهيبة له، ولا والله؛ فالمهابة إنما هي فضلٌ من الله للعبد على قدر هيبة العبد لربه، أنت تريدُ أن تتعامل مع الناس بأَنَفَةٍ وكِبْر، وترى الواحد يتكلم من طرف أنفه - كما يقال - أو ينظر إلى الناس من برجٍ عاجيٍّ، ويتصور أنه يريد بذلك أن يجعل لنفسه هيبة ومكانة!!! لا، بل إن تواضع النَّاسِ في حضرتك وأنت بهذه الصورة ولو بكلماتٍ مُنَمَّقةٍ مَعْسُولَةٍ؛ فإن قلوب الناس تمقتك وتبغضك، لكن إن أردت الهيبة لك في قلوب الخلق فاعلم بأنها لا تكون إلا على قدر هيبتك أنت من الخالق، والله ﷻ يعلم السرَّ وأخفى؛ فالتواضع ضدُّ الكبر، والكبر صفةٌ لا تنبغي أن تكون إلا لله؛ فالكبرُ رداء الله، والعزُّ والعظمةُ إزاره ﷻ[٣]؛ فلا ينبغي أن ينازع أحدٌ ربَّه وخالقه في هذه الصفات التي لا ينبغي

---

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٦/ ٨٩)، و«المفردات» للراغب (٥٤٠).

(٢) «لسان العرب» لابن منظور (مادة وضع).

(٣) كما في «الأدب المفرد» للبخاريِّ (٥٥٢)، و«مسند أحمد» (٢/ ٢٤٨)، و«مسند الطيالسي» (٢٣٨٧)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٥/ ٣٢٩)، و«سنن أبي داود» كتاب اللباس، باب ما جاء في «الكبر» (٤٠٩٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ**»، وصحَّحه الألباني في «صحيح» أبي داود وابن ماجه، وهو عند مسلم في «الصحيح» باب تحريم «الكبر» (٢٦٢٠) عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ؛ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**».

أن تكون إلا له ﷻ؛ فالتواضع هو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل لخلق الله من المؤمنين؛ لقول الله لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨]، وقال الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، ولذلك لما سُئِل الفضيل بن عياض رحمه الله عن التواضع؛ فقال[١]: «يخضع للحق، وينقاد له، وأن يقبله ممن قاله»، ولو سمعه من صبيٍّ أو من أجهل الناس؛ فالكبر بطر الحق[٢] أي: ردُّ الحقِّ؛ فلو رددت حقًّا جاء على لسان امرأتك فأنت متكبر، وكذا لو رددت الحقَّ على لسان ولدك أو ابنتك فأنت متكبر، ولو رددت الحقَّ على لسان مرؤوسك فأنت متكبر؛ إذا جاءك الحقُّ على لسان طالب من طلابك فاقبله، إذا جاءك الحقُّ على لسان صبيك فاقبله؛ فالتواضع هو قبول الحق على لسان أيِّ أحد.

ولقد قال الحسن البصريُّ[٣]: «التواضع أن تخرج من منزلك، ولا تلق مسلمًا إلا رأيت له فضلًا عليك».

ولذلك أقول: لا ينبغي على الإطلاق للعالم أو للشيخ أو للداعية أو لطالب علم أن يرى لنفسه فضلًا على غيره، إن كنت عالمًا فمَنْ علمك؟ ولولا أن الله علَّم هذا الشخص، وسخر قلبه، وليَّن جوارحه، وزكَّى صدره ونفسه، وشرح صدره وعلمه، والله ما علَّم أحدًا شيئًا؛ فالفضل من الله وحده: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة:٤]؛ فلا تعامل الناس وأنت ترى لنفسك الحق عليهم؛ بل عامل الناس وأنت ترى فضلهم عليك، إن كانوا أكبر منك سنًّا فقد سبقوك إلى طاعة الله، وإن كانوا أصغر منك سنًّا فقد أذنبت في حق الله قبلهم؛ فالتواضع ألا تقع عينُك على أحدٍ من إخوانك المسلمين إلا وأنت ترى له فضلًا عليك، وأيضًا من أجمل ما قيل في التواضع ما قاله الجنيد قال: «التواضع هو خفض الجناح، ولين الجانب»[٤]؛ فكُنْ لينًا مع

---

(١) «المدارج» (٢/ ٣٢٩).
(٢) كما سبق في حديثٍ صحيحٍ ولفظه: «... **الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**».
(٣) «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا (١١٦).
(٤) «المدارج» (٢/ ٣٢٩).

إخوانك، ولا تكن متكبرًا؛ فالناس بالفطرة تبغض المتكبرين، ولذلك فإنَّ ربَّ العزة يوم القيامة يعامل المتكبرين معاملةً من جنس عملهم، فالجزاء من جنس العمل؛ فما رأيت أحدًا يحشر بهذا الذل كما يحشر اللهُ المتكبرين؛ قال ﷺ: **«يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ...»**[(١)] . أمثال الذر؛ أي: كالنملة الصغيرة! أما المتواضع فكلَّما وضع رأسه في الطين رفعهُ الله تعالى.

أما رأيت سنبلةً شامخةً رافعةً رأسها إلى السماء، وسنبلة أخرى نزلت برأسها إلى أسفل؛ فإذا تحسست السنبلتين وجدت التي شمخت برأسها إلى أعلى فارغةً!!

ولو تحسَّست الأخرى لوجدتها ملأى محملة بالخير العظيم.

والتواضعُ شرفٌ وعزٌّ؛ كما قال الصديق رضي الله عنه[(٢)] : «وجدنا الكرمَ في التقوى، والغِنَى في اليقين، والشرف في التواضع» وهو الذي صدق فيه صاحبه؛ فقد يردد المرءُ التواضعَ بلسانه، لكن القلبَ ممتلئ كبرًا؛ فكلما تواضعت لله رفعك اللهُ؛ كما قال ﷺ : **«وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلاَّ رَفَعَهُ الله»**[(٣)] ؛ فيجب أن يكون التواضع خالصًا لله تعالى .

وقالت عائشة رضي الله عنها : «تغفلون عن أفضل العبادة: التواضع»[(٤)] ؛ فهو من أفضل

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٧٧)، وأحمد (٢/ ١٧٩)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٤٧) (٢٤٩٢)، والنسائيُّ في «الكبرى» (٦) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو مرفوعًا. قال الترمذيُّ: «هذا حديث حسن صحيح»، وحسنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٨٠٤٠)، وهناك رواية مشهورة، لكنها لا تصح سندًا؛ ففي «مسند البزار» عن جابر مرفوعًا: «يبعث الله يوم القيامة ناسًا في صور الذَّر يطؤهم الناس بأقدامهم، فيقال: ما هؤلاء في صور الذر؟ فيقال: هؤلاء المتكبرون في الدنيا». قال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ٦٠٤): «رواه البزار، وفيه القاسم بن عبد الله العمري، وهو متروك»، وراجع: «الضعيفة» (٥٠١٠)، وحكم عليه العلامة الألباني رحمه الله بالوضع.

(٢) «الإحياء» (٣/ ٣٤٣).

قلت: وقد ورد مرسلًا؛ كما عند ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٢٢) من طريق يحيى بن أبي كثير مرسلًا. وأورده ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٣٣٠) عن إبراهيم بن شيبان قوله، وهو كذلك في «تاريخ الإسلام» للذهبي (٦/ ٤٢).

(٣) أخرجه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٣١)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٢٧٨)، وأبو نعيم =

العبادات التي تُقرِّب المرءَ من رب الأرض والسموات.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من تواضع لله تخشعًا رفعه الله يوم القيامة، ومن تطاول تعظمًا وضعه الله يوم القيامة»[(١)].

وقال سلمان لجرير: «يا جريرُ، تواضع لله؛ فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة»[(٢)]. **وقيل لعبد الملك بن مروان**: أيُّ الرجال أفضل؟ قال: «من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وترك النصْرة على قومه»[(٣)].

وقال كعب[(٤)]: «ما أنعم اللهُ على عبدٍ من نعمة في الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجته في الآخرة».

وقال عروة بن الورد: «التواضعُ أحد مصايد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع»[(٥)].

وقال إبراهيم بن شيبان: «الشرفُ في التواضع، والعز في التقوى، والحريةُ في القناعة»[(٦)].

وعن عمرو بن شيبة قال: «كنت بمكةَ بين الصفا والمروة؛ فرأيت رجلًا راكبًا بغلًا وبين يديه غلمان، وإذا هم يعنفون الناسَ قال: ثم عدت بعد حين، فدخلت بغدادَ فكنت على جسر، فإذا أنا بِرَجُلٍ حاف حاسر طويل الشعر، قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله، فقال لي: مالك تنظر إليَّ؟ قلت له: شبهتك برجلٍ رأيته بمكة، ووصفتُ له الصِّفة، فقال

= في «الحلية» (٢/ ٤٧) عن عائشة موقوفًا، وأخرجه أبو نعيم أيضًا (٧/ ٢٤٠) عن عائشة مرفوعًا، والصواب الوقف؛ كما قال الدارقطني، انظر: «العلل المتناهية» (٢/ ٨١٢).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٥٦)، ووكيع في «الزهد» (٢١٠)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٩٤) عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه البيهقيُّ في «البعث» (٢٧٦)، وهناد في «الزهد» (٩٨)، ووكيع في «الزهد» (٢٠٩)، وصحَّحه الشيخ الألباني لغيره في «صحيح الترغيب» (٣٧٣٣) وحسَّن سنده المنذري.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (٩٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٧/ ١٤٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (٩٣)، وفي «الشكر» (١٨٩).

(٥) «الإحياء» (٣/ ٣٤٣).

(٦) «المدارج» (٢/ ٣١٤).

له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: إني ترفعت - أي: تكبرت - في موضعٍ يتواضع فيه الناسُ لله، فوضعني الله في موضعٍ يترفع عنه الناس»[(١)].

وقال **عبد الله بن المبارك**: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أن ليس لك بدنياك عليه فضلٌ»[(٢)]، ثم قال: «وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضلٌ».

هذه بعض أقوال أهل الفضل والعلم في التواضع؛ **فما هي درجات التواضع؟**

- **التواضع له ثلاث درجات:**

الدرجة الأولى: التواضع للدين؛ وهو ألا يعارض بمعقولٍ منقولًا، ولا يتهم للدين دليلًا، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا.

قال ابنُ القيم معلقًا[(٣)]: «التواضع للدين: هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلام له والإذعان».

أقول: فمن عارضَ النقلَ بالعقل؛ فهو متكبرٌ خبيثٌ! ونحنُ لا نريد بذلك أن نقلل من شأن العقل؛ فإن للعقل مكانةً كبيرةً في شرع الله ﷻ، بل ما ذكر الله العقل في القرآن إلا في معرض المدح؛ قال الله ﷻ في آياتٍ الكثيرة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣]، وقال سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]، وقال سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٢]، وقال سبحانه في شأن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]؛ فما ذكر الله ﷻ العقل إلا ومدحه، وأثنى عليه.

يقولُ ابنُ القيم رحمه الله: «إن هذه المعارضةَ بين العقل والنقل هي أصل كل فساد في

(١) «الإحياء» (٣/ ٣٤٣) للغزالي، و«الزواجر» للهيتمي (١/ ١٩٦).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (٨٩).
(٣) «المدارج» (٢/ ٣١٨).

العالم»[١]؛ فأصْلُ الفساد هو إبليس، وهو أول من قدَّم العقل والرأى والقياس الفاسد على النقل.

فمقتضى الإيمان أن يقول الربُّ سبحانه: «أمرتُ ونهيتُ» وأن يقول العبدُ: «سمعتُ وأطعتُ» ومقتضى العبودية كذلك أن يقول الرسول ﷺ: «أمرتُ ونهيتُ» وأن يقول العبد المطيع المتبع: «سمعتُ وأطعتُ»؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١]؛ فهذا شعار المؤمن فوق أيِّ أرض، وتحت أيِّ سماء: السمع والطاعة لله وللرسول ﷺ، أما المنافق؛ فكما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، وما أسهل الادِّعاء، وما أرخص الزَّعْم!! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦١]؛ فالمنافق يصدُّ ويعرضُ عن شرع الله، ودينه!!

فالاستسلام للنبيِّ ﷺ والإذعان له كدرجةٍ أولى من درجات التواضع للدين لا يكون إلا بثلاثة أشياء:

يقول ابنُ القيم[٢]:

«**الأول**: ألا يعارض شيئًا جاء به النبيُّ ﷺ بشيءٍ من المعارضات الأربعة السارية في العالم؛ ألا وهي: العقل، والقياس، والذوق، والسياسة».

تراه يعاندُ الشرعَ بالعقل والقياس والذوق والسياسة، وهذا شأن الظالمين الجاهلين في كلِّ زمان ومكان الذين يعارضون شرْعَ الرحمن، وشرع النبيِّ - عليه الصلاة والسلام - بالسياسات الظالمة الجائرة من أجل الهوى، أو من أجل الدنيا، أو من أجل المناصب إلى آخر ذلك من الأمراض؛ نسأل الله أن يردَّ الأمة إلى الحقِّ ردًّا جميلًا.

الثاني: «ألا يتهم دليلًا من أدلة الدين بحيث يظن هذا الدليل - إن صحَّ - فاسد

---

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٤٨، ٣٤٩) بمعناه.
(٢) «المدارج» (٢/ ٣١٨).

الدلالة! قضيةٌ خطيرةٌ جدًّا أن يتهم الإنسانُ أدلةَ الدين الصحيحة أو أن يظن أن الدليل ناقص الدلالة أو قاصرها، وأن غيره من الأدلة الأخرى التي ليست من أدلة الشرع أولى منه!!ومتى عرض له شيءٌ من ذلك فَلْيَتَّهِمْ فهمه للدليل، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه؛ كما قيل:

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

فما اتهم أحدٌ دليلًا للدين، إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله وذهنه؛ فالآفة من الذهن العليل، لا في نفس الدليل».

ثالثًا: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلًا، لا بباطنه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا بحاله؛ فيجب على المسلم المتواضع أن لا يخالف النصَّ القرآنيَّ والنصَّ النبويَّ إن ثبت ذلك.

أسأل اللهَ أن يرزقنا وإياكم الاتباع والاستسلام؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

الدرجة الثانية: أن ترضى بما رضي الحقُّ به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا، وأن لا ترد على عدوك حقًّا، وأن تقبل من المعتذر معاذيره.

قال ابنُ القيم معلقًا:

«يقول: إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا؛ أفلا ترضى أنت به أخًا؟ فعدم رضاك به أخًا، وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده عبدًا لنفسه، عين الكبر، وأيُّ قبيح أقبح مِن تكبر العبد على عبدٍ مثله، لا يرضى بأُخوته، وسيدهُ راضٍ بعبوديته؟. فيجئ من هذا: أن المتكبر غير راضٍ بعبودية سيده؛ إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده.

وقوله: وأن لا تردَّ على عدوك حقًّا، أي: لا تصح لك درجة «التواضع» حتى تقبل الحقَّ ممن تحب، وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك، وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقًّا له قِبَلَك؟ بل حقيقة «التواضع» أنه إذا جاءك بحق قبلته منه، وإن كان له عليكَ حق أديتهَ إليه، فلا تمنعك عداوته من قبول حقه ولا من إيتائه إياه»؛ فالمتواضع يقبل الحقَّ من أيِّ أحد وعلى لسان أيِّ أحد ولا يتكبر عليه؛ فالكبر كما قال الرسول ﷺ:

«.. الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[(١)]؛ أي: ازدراء الناس واحتقارهم.

قال ابنُ القيم [(٢)]:

«وكما أن من تواضع لله رفعه؛ فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه وصغَّره وحقره، ومن تكبر عن الانقياد للحق - ولو جاءه على يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه - فإنما تكبره على الله، فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته، ومنه وله، فإذا ردَّه العبد وتكبر عن قبوله، فإنما ردَّ على الله، وتكبر عليه، والله أعلم».

وأما قوله: «وأن نتقبل من المعتذر معاذيره»، يعني: إذا أخطأ أخوك في حقك، وجاءك ليعتذر فاقبل عذره، ولا تتكبر عليه، ولا توبخه، ولا تعنفه، والتمس له المعاذير ما دام قد جاءك متواضعًا، معتذرًا إليك، ولقد لقي رجلٌ ابن السماك يومًا؛ فقال له: «موعدنا غدًا نتعاتب؛ فقال له: بل موعدنا غدًا نتغافر» يعني: يغفر أحدنا للآخر .

ثم قال: «وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخللَ في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه، وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول: ولو قضي شيء لكان، والمقدور لا مدفع له، ونحو ذلك». لا يجوز للعالم أن يتكبر على من لا يعلم، ولا يجوز لطالب العلم أن يتكبر على عامة الناس، ولا يجوز للغنيِّ أن يتكبر على الفقير، ولا للصحيح أن يتكبر على المريض، ولا لصاحب النسب أن يتكبر على من لا نسب له؛ فهذه موازين الدنيا، والله - جَلَّ وعَلَا - يرفع الناس بميزان التقوى؛ كما قال: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣]؛ فالأُخُوَّة نعمةٌ كبيرةٌ من نعم الله ﷻ امتن الله بها على المسلمين الأول؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وهي أوثق عرى الإيمان، ولو عَبَدَ رجلٌ ربَّهُ سبعين سنة بين الركن والمقام، ومات وليس في قلبه حبٌّ لأهل طاعة الله، وبغض لأهل معصية الله ما نفعه عَمَلُه كلُّه، ويحشر المرءُ

---

(١) تقدم، وهو حديث صحيح.

(٢) «المدارج» (٢/ ٣١٧).

يقوم القيامة مع من أحب؛ كما في «**الصحيحين**»[(١)] من حديث أنس ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ قِيَامِ السَّاعَةِ؟ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ صَلَاتَهُ قَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟**» فَقَالَ الرَّجُلُ: هَا أَنَا ذَا يَا رَسُولَ الله؛ فَقَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا فَإِنَّهَا قَائِمَةٌ؟**» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَبِيرِ عَمَلٍ غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، قَالَ: «**فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**» قَالَ: فَمَا فَرِحَ الْـمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ بَعْدَ الإِسْلَامِ أَشَدَّ مِمَّا فَرِحُوا بِهِ. ثم قال: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِم.

ونحن نُحبُّ رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا وجميع أصحاب النبي ﷺ.

ونسأل الله أن يحشرنا معهم وإن لم نعمل بمثل أعمالهم.

قال صاحب «المنازل»:

«**الدرجة الثالثة**: من درجات التواضع: أن تتضع للحق؛ فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة، ورؤية حقك في الصحبة، وعن رسمك في المشاهدة».

قال ابنُ القيم: «يعني التواضع بأن تخدم الحقَّ سبحانه، وتعبده بما أمرك به، على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعثُ لك داعي العادة، كما هو باعث من لا بصيرة له».

فمن درجات التواضع أن تتضع للحق إن تبين لك، وألا تتعال برسمك، أو بمكانتك، أو بمنصبك، أو بجاهك، نسأل الله ﷻ أن يردنا إلى الحق ردًّا جميلًا.

وهناك خلطٌ بين التواضع والمهانة؛ فما الفرق بينهما؟

فأقولُ: التواضع: خُلقٌ يتولد من العلم بالله ﷻ، ومعرفة أسماء جلاله، وصفات كماله، وتعظيمه، ومحبته، ومن معرفة المرء بنفسه وبعيوبها، ونقصها، وتقصيرها، فإذا

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل: ويلك (٦١٦٧)، وانظر (٣٦٨٨)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩).

عرف العبدُ ربه بالغنى التام، عرف نفسه بالفقر التام، والنقص التام، والعجز التام؛ فالتواضع انكسارُ القلب لله، وخفض جناح الذل لخلق الله، والإذعان للحق، وقبوله على لسان أيِّ أحدٍ؛ سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، ذكرًا أم أنثى، حرًّا أم عبدًا.

أما المهانة والذلة: فهي الدناءة، والخسة، وابتزاز النفس في نيل حظوظها، وشهواتها، كتواضع السفلة لنيل شهواتهم ونزواتهم، وتواضع كل طالبٍ لحظٍّ من حظوظ الدنيا، ولو كان ذلك على حساب دينه وأخلاقه! هذه هي المهانة أن يتملَّق عبدٌ لآخر، ليحصل حظًّا من حظوظ النفس، وشهوة من شهوات الدنيا، يريد منصبًا، يريد مالًا، يريد وجاهةً، يريد مكانةً، فتراه يذلُّ نفسه، وهو يعلم يقينًا أنه بذلك مخالف لأمر ربه تعالى، وأمر نبيه ﷺ.

○ التواضع في السنة:

روى مسلم في «صحيحه» [(١)] من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي**»، وفيه أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**وَإِنَّ الله أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**».

ورحم الله من قال:

النـاسُ مـن جهـة الأصـل أَكْفَـاء ... أبـوهم آدم والأم حـوَّاءُ
نفـسٌ كَـنَفْسٍ وأرواحٌ مشـابهة ... وأعظُـمٌ خُلِقَـتْ فـيهم وأعضـاءُ
فـإن يكـن لهـم مـن أصـلهم نسـبٌ ... يُفَـاخرون بـه فـالطين والمـاءُ
مـا الفَخْـرُ إلا لأهْـلِ العِلْـم إنهـم ... عـلى الهُـدَى لمـن اسـتهدى أدلَّاءُ
وقَـدْرُ كـلِّ امـرئ مـا كـان يُحْسِـنُه ... والجـاهلون لأهـل العلـم أعـداءُ

فالتواضع ألا يفخر أحدٌ على أحدٍ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا**». يعني: ما عفى عبدٌ عن

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

أخيه إلا زاده الله بهذا العفو عزةً ورفعةً وكرامةً، ثم قال ﷺ: «**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلاَّ رَفَعَهُ الله**»(١).

والتواضع: خُلُقٌ ينبغي أن تتخلق به حيثما وجدت؛ مع زوجتك؛ مع أولادك؛ بل مع أصغر أولادك لديك؛ مع خادمك الذي يعمل عندك؛ مع مرؤوسيك؛ مع عاملٍ يعمل في بيتك، أو في مصنعك، أو مزرعتك، أو في حقلك؛ فالتواضع منهجٌ عام.

وعن معاذ بن أنس الجهني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لله، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، دَعَاهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا**»(٢).

قال الترمذيُّ: «ومعنى قوله: «**حُلَلِ الإِيمَانِ**» يعني: مَا يُعْطَى أَهْلُ الإيمانِ من حُلَلِ الجَنَّة».

تصور أختًا مسلمةً نقية تقدر أن تلبس فستانًا مثلًا بخمسة آلاف جنيه، وهي ترفض ذلك تواضعًا لله، لا تحب أن تلبس لباس شهرة، وهي تقدر على ذلك، أو تجد رجلًا يستطيع أن يلبس ثوبًا يزيد قيمته على ألفين جنيه وهو يقدر على ذلك؛ لكنه يترك هذا اللباس بأشكاله تواضعًا لله - جَلَّ وعَلَا - أي: يبتغي بذلك وجْهَ ربِّهِ ﷻ؛ فلماذا يحرم نفسه من هذا الفضل؟

قيل لعمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة: زهدت في الدنيا؛ فقال: «إن لي نفسًا تواقة تاقت إلى أعظم مناصب الدنيا؛ فلما نالت تاقت إلى مناصب الآخرة»(٣)، وفي رواية:

---

(١) تقدم،وهو في «صحيح مسلم» (٢٥٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٣٩) (٢٤٨١) وقال: «هذا حديث حسن»، والحاكم (١/ ٦١)، وحسَّنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٤٥)، و«الصحيحة» (٧١٨).

(٣) «أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٤٠١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٠٨، ٢٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣١)، وراجع: «تهذيب الكمال» للمزي (٢١/ ٤٤٥)، و«المدهش» (٢٢٨)، لابن الجوزي، و«لطائف المعارف» لابن رجب (٢٦٨)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٣٣١)، و«فيض القدير» للمناوي (٣/ ١٥٩).

«وإني لما أُعطيت الخلافة تاقت نفسي إلى ما هو أعلى منها وهي الجنة»[١].

وقال في «الإحياء»[٢]: «ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها، فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم، فيقول: ما أجوده لولا لينه، فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن لي نفسًا ذواقة، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عز وجل».

وفي رواية[٣]: «إن لي نفسًا تواقه تاقت إلى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها، وتاقت إلى الإمارة فوليتها، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها، وقد تاقت إلى الجنة، فأرجو أن أدركها إن شاء الله عز وجل».

وفي «**مسند أبي يعلى**»، و«**الطبقات**» **لابن سعد**، و«**شرح السنة**» **للبغوي**، و«**تاريخ ابن عساكر**»[٤] من حديث عائشة رضي الله عنها بسندٍ حسَّنه الهيثميُّ والمنذريُّ، ولكن في سنده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وللحديث شواهد يتقوى بها عدا ما يتعلق بوصف الملك وحجزته؛ فليس لها شاهدٌ؛ كما بين ذلك العلامة الألباني في «**الصحيحة**» والحديث لفظه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْ شِئْتُ لَسَارَتْ مَعِي جِبَالُ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ؛ إِنَّ حُجْزَتَهُ لَتُسَاوِي الْكَعْبَةَ؛ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا؟ قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ، قَالَ: فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ، قَالَ: فَقُلْتُ: نَبِيًّا عَبْدًا**»، قَالَ: فَكَانَ

---

(١) «البداية النهاية» (٩/ ١٨٤)، والرواية كذلك عند ابن سعد وأبي نعيم وابن عساكر كما سبق.

(٢) «الإحياء» (٣/ ٣٥٥).

(٣) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٠١ ترجمة رجاء بن حيوة).

(٤) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٨/ ٣١٨)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٨١)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٦٨٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ٧٤) عن عائشة مرفوعًا.
قلت: وإسناده ضعيف؛ لأجل أبي معشر؛ قال العلامة الألباني في «الضعيفة» (٢٠٤٥): «الحديث صحيح دون جملة الحجزة، وبلفظ: «**بَلْ عَبْدًا رَسُولًا**»؛ فقد جاء كذلك من حديث أبي هريرة بسندٍ صحيح؛ كما بينته في «الصحيحة»، والمشيئة المذكورة في أوله لها شاهدٌ من طريق يتقوى بها؛ خرجته في «الصحيحة» أيضًا برقم (٢٤٨٤)».

رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ، لا يَأْكُلُ مُتَّكِئًا، يَقُولُ: «آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ».

وفي «الصحيحين»(١) من حديث حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ ﷺ: «كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ».

والعتلُّ: الجافي الشديد الخصومة، وقيل: الفظ الغليظ الجافي عن الموعظة.

والجوَّاظ: الكثير اللحم الأكول الذي يختال في مشيته(٢)! تراه يمشي على الأرض، وكأنه لا يحمل العَرَقَ تحت إبطيه، ولا يحمل البَوْلَ في مثانته، ولا يحمل البُصَاقَ في فمه، ولا يحمل النَّجَاسَةَ في أمعائه، وكأنه لا يغسل عن نفسه القذرَ والنجاسة بيده كل يوم مرة أو مرتين أو يزيد!

نسي ابن آدم نفسه نسي العيوب وأصله

ابنَ التراب! ومأكول التراب غدًا!! أقصِرْ؛ فإنك مأكولٌ ومشروبٌ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾

[الإنفطار:٦- ٨].

وفي «صحيح البخاري»(٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ (٤٩١٨)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٣).

(٢) راجع: «الفتح» (٨ / ٥٣١).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧).

وقوله: «**طُوبَى**»: هي شجرة في الجنة يمشي الراكبُ في ظلها كذا وكذا، فهذا الرجل الذي أخبر عنه النبيُّ ﷺ من المخلصين؛ فهو لا يريد طبلًا ولا زمرًا إعلاميًّا، ولا سياسيًّا.. لا يريد ضجيجًا ولا بهرجة ولا تلميعًا، إنما يريد بعمله وجْهَ الله تعالى، إنه رجلٌ متواضعٌ صاحب قلب كبير؛ فمن شدة تواضعه: «إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» ليس له مكانةٌ بين الناس بحيث يقبلون شفاعته، أو يأذنون له إن استأذن!!

فهو رجلٌ لا يحبُّ الزعامةَ ولا الصدارةَ ولا القيادةَ، لا يعنيه أن يكون في المقدمة أو في المؤخرة، إنما يعنيه أن يكون في الصف المسلم.. إن كلِّف بالحراسة قام بهذا العمل على أكمل وجه، وإن كلِّف بالسقاية قام بعمله على أكمل وجه؛ فهو يعمل أيًّا كان موقعه سواء كان قائدًا أو جنديًّا! هؤلاء هم أصحاب القلوب المتجردة المخلصة المتواضعة، لذا فكان جزاؤه «طوبى» وهي شجرة في الجنة، كما تقدم.

وفي «صحيح البخاري»(١) من حديث أنس ﷺ قَالَ: كَانَتْ نَاقَةٌ لِرَسُولِ الله ﷺ تُسَمَّى الْعَضْبَاءُ، وَكَانَتْ لاَ تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ فَسَبَقَهَا، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَالُوا: سُبِقَتِ الْعَضْبَاءُ!! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ حَقًّا عَلَى الله أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ وَضَعَهُ**».

علَّق الحافظ ابن حجر رحمه الله على هذا الحديث الجليل، بقوله(٢): «فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع، والحث على التواضع، والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة. قال ابنُ بطال: فيه هوان الدنيا على الله، والتنبيه على تلك المباهاة والمفاخرة، وأن كلَّ شيء هان على الله؛ فهو في محل الضعة فحقٌّ على كل ذي عقل أن يزهد فيه، ويقلل منافسته في طلبه».

وقال ابنُ حجر: «فيه أيضًا حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه لكونه رضي أن أعرابيًّا يسابقه».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠١).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣٤٩).

وتدبر هذا المثَل التطبيقي من حياة الحبيب النبيِّ ﷺ في «التواضع»؛ ففي «**صحيح البخاري**»(١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أَبِي تَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا، وَلَيْسَ عِنْدِي إِلاَّ مَا يُخْرِجُ نَخْلُهُ وَلاَ يَبْلُغُ مَا يُخْرِجُ سِنِينَ مَا عَلَيْهِ، فَانْطَلِقْ مَعِي لِكَيْ لاَ يُفْحِشَ على الْغُرَمَاءُ، فَمَشَى حَوْلَ بَيْدَرٍ مِنْ بَيَادِرِ التَّمْرِ، فَدَعَا، ثَمَّ آخَرَ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**انْزِعُوهُ**». فَأَوْفَاهُمُ الَّذِي لَهُمْ وَبَقِيَ مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ.

فجابر رضي الله عنه جاء يستشفعُ بالنبيِّ ﷺ أن يذهب معه وقت سداد ديون أبيه كي لا يفحش له الغرماءُ في القول؛ فمشى معه رسولُ الله ﷺ، ولبَّى طلبه، بل ومشى حول بيدر من بيادر التمر - وهو الموضع الذي تداس فيه الحبوب - فدعا الله تعالى، ثم تأخر، ثم دعا أصحاب الديون، ثم جلس على التمر، وظل جابر يعطي أصحاب الديون ديونهم، فأوفاهم الذي لهم، وبقي عنده مثل ما أعطاهم ببركة دعاء سول الله ﷺ.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ الله ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ فَأَكَلَ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ: «**قُومُوا فَأُصَلِّيَ لَكُمْ**» قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدِ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ، فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَصَفَفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ»(٢).

وروى البخاريُّ ومسلمٌ(٣) عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ذُكِرَ لَهُ صَوْمِي، فَدَخَلَ عَلَيَّ فَأَلْقَيْتُ لَهُ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ، حَشْوُهَا لِيفٌ، فَجَلَسَ عَلَى الأَرْضِ، وَصَارَتِ الْوِسَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؛ فَقَالَ: «**أَمَا يَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ؟**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**خَمْسًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**سَبْعًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**تِسْعًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**إِحْدَى عَشْرَةَ**»، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ صَوْمَ فَوْقَ صَوْمِ دَاوُدَ** عليه السلام **شَطْرَ الدَّهْرِ، صُمْ يَوْمًا، وَأَفْطِرْ يَوْمًا**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٨٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب المرأة وحدها تكون صفًّا (٧٢٧)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الجماعة في النافلة (٦٥٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الصوم، باب صوم داود عليه السلام (١٩٨٠)، ومسلمٌ، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (١١٥٩).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ، عَلَى إِكَافٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ وَرَاءَهُ»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه: «أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ»[(٢)].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال في خطبة له: «إِنَّا وَاللهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، فَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ»[(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيُخَالِطُنَا حَتَّى يَقُولَ لأَخٍ لِي صَغِيرٍ: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**»[(٤)].

وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: «سَأَلَ رَجُلٌ عَائِشَةَ رضي الله عنها هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ»[(٥)].

وقوله: «**يَخْصِفُ نَعْلَهُ**» أي: يصلحه ويخيطه.

وعن الأسود قال: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ فِي

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب اللباس، باب الارتداف على الدابة (٥٩٦٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان (٦٢٤٧)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان (٢١٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٦٩)، وأبو يعلى في «الكبير» كما في «المجمع» للهيثمي (٧/ ٤٦٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ٨١)، و(٣٩/ ٢٥٤)، والبزار والشاشي وغيرهم؛ كما في «الكنز» (٧/ ٢١٠)؛ قال الهيثميُّ: «ورجالها ـ رجال أحمد وأبي يعلى ـ رجال الصحيح غير عباد بن زاهر، وهو ثقة». وحسَّن سنده الشيخ الأرناؤوط، بل وصحَّح سنده العلامة أحمد شاكر.

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس (٦١٢٩)، ومسلمٌ، كتاب الأدب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته (٢١٥٠).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٣٩)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ٢٦٠)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٣٧).

مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ»[١].

وعن جابر قَالَ: كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ نَجْنِي الْكَبَاثَ وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالأَسْوَدِ مِنْهُ فَإِنَّهُ أَطْيَبُهُ**» قَالُوا: أَكُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ؟ قَالَ: «**وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ رَعَاهَا**»[٢].

وفي رواية البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الْغَنَمَ**» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ**»[٣].

وفي «**الصحيحين**»[٤] من حديث البراء بن عازب ﷺ قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ - أَوِ اغْبَرَّ بَطْنُهُ - يَقُولُ:

وَالله لَوْلاَ الله مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: «**أَبَيْنَا أَبَيْنَا**».

وفي «**صحيح البخاري**»[٥] من حديث ابن عباس ﷺ أنه سَمِعَ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله (٦٠٣٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف:١٣٨]، (٣٤٠٦)، ومسلمٌ، كتاب الأشربة، باب فضيلة الأسود من الكباث (٢٠٥٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم (٢٢٦٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٤)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق (١٨٠٣).

(٥) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم:١٦] (٣٤٤٥).

وفي «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث أنس ﷺ أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً؟ فقَالَ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ؟**» فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا.

وفي «**صحيح البخاري**»[(٢)] من حديث ابن عباس ﷺ قال: «مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ.. الحديث»، وفيه: «..وَإِنَّهُ - أَيْ: رسول الله ﷺ - لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ؛ فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ الله؛ فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**». وما أكثر النصوصَ النبوية التي تجلِّي هذا الجانبَ العظيمَ في حياة نبينا ﷺ .

فأكتفي بهذا القدر من الأحاديث، وإلا لاحتجنا إلى مجلدات للاستضاءة بهذا الخلق الكريم من أخلاق النبيين والمرسلين والصالحين؛ نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المتواضعين؛ إنه وليُّ ذلك ومولاهُ.

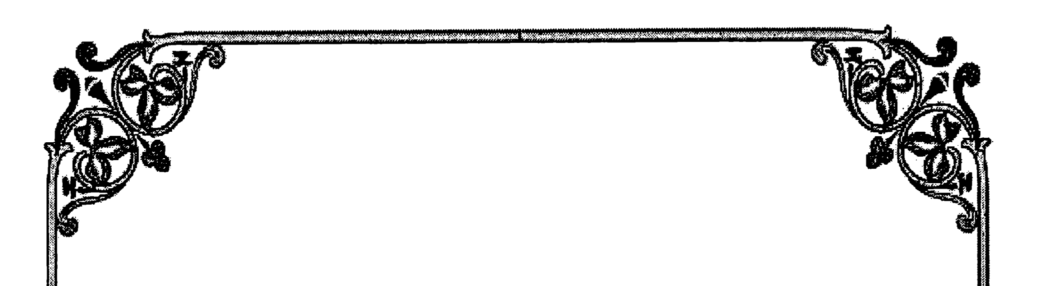
*****

---

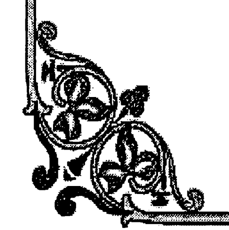
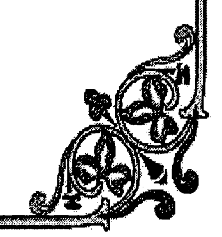
(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤٩١٣).





الحَسَدُ دَاءُ الجَسَد





الحسد داء الجسد

فمن أمراض الأمة الخطيرة التي تفشت وانتشرت، وعمَّت وطمَّت، وذاعت وشاعت؛ ذلكم المرضُ العضالُ الناشئ عن ضعف الإيمان بالكبير المتعال!! ويجعل صاحبه في همٍّ وغمٍّ ونكدٍ وضنكٍ وشقاءٍ وسوءِ حال! **إنه داء الحسد.**

ذلكم الداء الناشئ عن الحقد الذي نتج عن الغضب؛ فالغضب رأسُ الشَّرِّ من نتائجه الحقد، ومن نتائج الحقد: الحسد!!!

ورحم الله من قال[1]:

وأظلمُ خلقِ الله مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ في نَعْمائِهِ يَتَقَلَّبُ

- **فما الحسد؟**
- **وما عُقوبتُهُ وخطورته وشؤمه؟**
- **وما أسبابه؟**
- **وما صوره؟**
- **وأخيرًا: علاج الحاسد والمحسود، وكيف النجاة؟**

والله أسأل أن يقينا وإياكم شر الحسد، وأن يحفظنا من عين كلِّ حاسدٍ، وأن يحفظ علينا نعمه، وأن يجعلنا لها من الشاكرين.

○ ما هو الحسد؟

الحسد مصدر حسد يَحْسِد ويحسُدُ حَسَدًا بكسر السين وضمها وحَسَّدةُ تَحْسيدًا؛ إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته أو يسلبها، والحسد أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك. والحسد أن يرى الرجلُ لأخيه نعمة، فيتمنى أن تزول عنه وتكون له

(١) الأبيات لأبي الطيب المتنبي؛ كما في «ديوانه» وانظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١ / ٤٥٨، ٥٨٧).

دونه[١].

واصطلاحًا: **قال الجرجاني**[٢]: «تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد».

وقال الماوردي[٣]: «حقيقة الحسد: شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل».

وقال الكفوي[٤]: «اختلافُ القلب على الناس لكثرة الأموال والأملاك».

وقال[٥]: «الحسد: إرادة زوال نعمة الغير».

وقال الراغب[٦]: «الحسد تمني زوال نعمة من مستحقٍّ لها، وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها».

وهو عند أهل التحقيق غيرُ الغبطة؛ لأن الحسد صفة المنافقين، والغبطة صفة المؤمنين؛ فقد قال ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ،** (وفي رواية: **فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ**. وفي رواية: **وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**)؛ **وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**. وفي رواية: (**رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْكِتَابَ**) وفي لفظ: (**رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**». والحديث بألفاظه في «**الصحيحين**»[٧] من حديث أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود ﭫ ولقد

(١) «تاج العروس» (٨/ ٢٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٤٣٨)، و«معجم مقاييس اللغة» (٢٦٣).
(٢) «التعريفات» (٩٢).
(٣) «أدب الدنيا والدين» (٣٣١).
(٤) «الكليات» (٤٠٨).
(٥) «المصدر السابق» (٦٧٢).
(٦) «المفردات» (١٦٤).
(٧) «أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب إنفاق المال في حقه (١٤٠٩، ٧٣)، ومسلمٌ، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦) من حديث ابن مسعود ﭬ؛ وأخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «**رجل آتاه الله القرآن...**» (٧٥٢٩)، ومسلمٌ، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٥) عن عبد الله بن عمر ﭭ، وأخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن (٥٠٢٦) عن أبي هريرة ﭬ.

بوب الإمام البخاريُّ على هذا الحديث بابًا قال فيه: «الاغتباط في العلم والحكمة»؛ **قال القرطبي**[(١)]: «وحقيقة الغبطة أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره، وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]».

فالغبطة في الخير من باب التنافس؛ فلا غبطة أعظم ولا أفضل من الغبطة في هاتين الخصلتين وفي هذين الأمرين وما في معناهما.

فالمؤمن يغبطُ ولا يحسدُ، والحسدُ من صفة المنافقين.

قال ابن منظور - وهو يعرف الحسدَ كما سبق: «الحسد أن تتمنى زوالَ نعمة المحسود، وأن تُسلب عنه أو تتحول إليه نعمته وفضيلته».

يكره الحاسد النعمةَ التي هي لغيره ويحب زوالها عنهم والعياذ بالله، وقيل: الحسد هو التألم بما يراه الإنسانُ لغيره من الفضائل والمحاسن، والاجتهاد في إعدام ذلك عن الغير[(٢)].. نعم يشتدُّ أسى الحاسد على الخيرات التي يراها على الخلق.

فالحسد - بإيجاز - كما قال الراغب وغيره: هو تمني زوال نعمة من مستحق لها، والسعي في إزالتها!! إنه داءٌ خطيرٌ، ومرضٌ كبيرٌ مريرٌ! قاتلٌ!! فتاكٌ!!

أيها الحبيب: الناس حاسدٌ ومحسود، ولكلِّ نعمةٍ حسود.

والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء؛ فلقد حسد إبليس آدم ﷺ، وهو أول ذنب عصي الله به في الأرض؛ فلقد حسد ابن آدم أخاه حتى قتله!! ألم أقل لكم: إنه داءٌ قاتل يمتلئ قلبُ صاحبه نارًا واشتعالًا.

كما قال القائل[(٣)]:

إني لأرحم حاسدي مِن حرِّ ما ضمَّت صدورهم من الأوغار

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ٧١).
(٢) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (٣٤).
(٣) الأبيات لعلي بن محمد التهامي؛ كما في «ديوانه» وانظر: ««البداية والنهاية»» (١٢ / ١٩).

نظروا صنيعَ الله بي فعيونهم ... في جنةٍ وقلوبهم في النار

واعلم أنه ليس في خصال الشر أعدل من الحسد؛ كما قال معاوية رضي الله عنه [(١)]: «... الحسد داءٌ عادل؟!! فقيل: كيف؟ قال: لأنه يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود!!».

ولذا قال الشاعر:

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله

فالنار يأكل بعضها ... إنْ لم تجد ما تأكله

إنه الغم والهم والكرب الذي يحل بالحاسد؛ فيا أيها المحسود يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك!! ويحزن وقت فرحك!

الحسدُ يضرُّ بالبدن ويفسد الدين.

الحسدُ حَسْرةٌ في النفس، وسُقْمٌ في الجسد.

الحسدُ مِعْولُ هدم في المجتمع يورِّث الحقد والضغينة في القلوب.

الحسدُ يسبب مقتَ الناس للحاسد، حتى لا يجد فيهم محبًّا، وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليًّا، فيصير بالعداوة مزجورًا مكروهًا.

فالحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمةً وذُلاًّ.

ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضًا.

ولا ينال من الخلق إلا جزعًا وغمًّا.

ولا ينال عند الموقف إلا فضيحةً ونكالًا.

الحاسد لا يرى قضاء الله عدلًا، ولا لنعمه من الناس أهلًا.. الحسد رجلٌ شحيح بخيل حقود جسود ظالم لدود!!

(١) «انظر: «أدب الدنيا والدين» (٣٣٤)، و «الرسالة القشيرية» (٧٢).

إنه مفتاح الشرور العظيمة، ومفتاح العواقب الوخيمة.. إنه يجلب النقم ويزيل النعم.

ولقبحه ودناءته أمر الله بالاستعاذة منه وحرمه؛ فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ وهنا لفتة - أشار إليها ابن القيم(١) - وهي: أنه بمجرد صدور الحسد من الحاسد وحصوله يتحقق الشرُّ مباشرة - والعياذ بالله - يخرج الحسد من الحاسد كالطلقة تخرج من المدفع فتقع على المحسود في التو واللحظة.

وأخبر الله بأن الحسد صفة لليهود؛ كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩] يحسدون المؤمنين على إيمانهم، ويودون أن لو ارتد المؤمنون وكفروا بخالقهم كما كفروا هم برسول الله حسدًا وبغيًا!!

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، يقول حَبْرٌ من أحبارهم(٢): إني لأقرُّ لمحمد بالنبوة أكثر مما أقر لابني بالبنوة.

ويحكي الله عنهم في آية ثانية؛ فيقول سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤] قال ابن كثير: «يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب، وليس من بني إسرائيل!! ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ ؛ فما يفعله أبناء القردة والخنازير من اليهود هنا وهناك إنما هو حنق وحسد وغل ملأ القلوب القاسية المظلمة.

فالحسد طبيعة اليهود، وخصلةٌ متأصلة في قلوبهم.

---

(١) كما في «التفسير القيم» (٢ / ٢٨٨) بتصرف.

(٢) «انظر: «أسباب النزول» للواحدي (٧٥) ولفظه: «لأنا كنت أشد معرفة برسول الله ﷺ مني بابني» وعزاه في «الدر المنثور» (سورة البقرة / ١٤٦) للثعلبي في «تفسيره» من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس، وراجع: «العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر (١ / ٣٩٩).

وفي «سنن» ابن ماجه[١] عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلاَمِ وَالتَّأْمِينِ»؛ أي: قول آمين بصوتٍ مرتفعٍ موحدٍ من المأمومين.

وبين رسول الله ﷺ خطورة الحسد،وكان دائم التحذير منه، والتنفير عنه، وخوَّف أمته منه؛ ففي «الصحيحين»[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا». صلى الله وسلم وبارك على صاحب الأخلاق العلية والمكارم السنية، والله لو عمل الناس بهذه الأخلاق والتوجيهات النبوية والوصايا المحمدية، لصلح الحال في الحياة الدنيوية؛ بل والأخروية.

بل لقد أشار سيدُ الرجال ﷺ أن الحسد بين الناس علامة الشر ونذير الفساد؛ فقال: «لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا»[٣]؛ فإذا ما وقع الحسدُ وانتشر الشر بين الخلق وعظم الفساد.

وأخبر بأنه داء الأمم؛ ففي الطبراني في «الأوسط» والحاكم في «مستدركه» بسند جوده العراقي في «تخريج الإحياء»[٤] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الأُمَمِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا دَاءُ الأُمَمِ؟ قَالَ: «الأَشَرُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الجهر بآمين (٨٥٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥١٥)، و «صحيح الجامع» (٦١٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٤)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها (٢٥٦٣).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨ / ٣٠٩) (٨١٥٧) عن ضمرة بن ثعلبة رضي الله عنه، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣ / ٣٤٧): «رواته ثقات». وكذلك قال الهيثمي في «المجمع» (٧ / ٣٩٤)، وجود إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣٣٨٦).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٠١٦)، والحاكم (٤/ ١٨٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٦١)، وفي «ذم البغي» (٢)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٥٣): «فيه أبو سعيد الغفاري لم يرو عنه غير حميد بن هانئ وبقية رجاله وثقوا» وجود إسناده العراقي في «المغني في حمل الأسفار» (٢/ ٨٦٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٨٠).

وَالبَطَرُ وَالتَّدَابرُ وَالتَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّبَاغُضُ وَالبُخْلُ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ ثُمَّ يَكُونُ الْهَرْجُ». يعني القتل بعد ذلك.

وعند الترمذيِّ [١] عن الزبير بن العوام ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا؛ أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ».

فالتحاسد من أسباب البغي والعدوان؛ بل يصل بصاحبه إلى قتل حاسده!

لذا بيَّن نبينا ﷺ أن الإيمان لا يجتمع هو والحسد في قلب مسلم تقيٍّ؛ ففي «سنن» النسائي [٢] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي النَّارِ: مُسْلِمٌ قَتَلَ كَافِرًا، ثُمَّ سَدَّدَ وَقَارَبَ، وَلاَ يَجْتَمِعَانِ فِي جَوْفِ مُؤْمِنٍ: غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَفَيْحُ جَهَنَّمَ، وَلاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالْحَسَدُ».

نعم .. الإيمان لا يلتقي وهذا الداء في قلب مؤمن نقي تقي.

أرأيتم خطورة الحسد؟!! إنه داءٌ خطير! إنه داءُ الأممِ المرير!!

فعلى المؤمن أن يحذر منه وأن يستعيذ منه.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٤، ١٦٧)، والطيالسي (١٩٠)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/ ٤٤٩-٤٥٠)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٦) (٢٥١٠)، وابن وضاح في «البدع» (٢٢٣)، والضياء في «المختارة» (٨٨٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢٣٢)، و«الشعب» (٨٧٤٧)، و«الآداب» (١٥١)، وأبو يعلى (٦٦٩)، والبزار (٦/ ١٩٢)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (٢٢٨)، و«غاية المرام» (٤١٤)، و«صحيح سنن الترمذي».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣، ٣٤٠، ٣٥٣، ٣٩٩) وعنده «الشح» بدل «الحسد»، والنسائي، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣١٠٩)، و«الكبرى» (٤٣١٧)، وابن حبان (٤٦٠٦)، والحاكم (٢/ ٨٢)، وصححه على شرط مسلم وفي روايته: «الإيمان والشح»، والطبراني في «الصغير» (٤١٠)، و«الكبير» «قطعة من المفقود» (١٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٠٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٢٧١)، و«صحيح سنن النسائي».

لِمَ يغتاظ الحاسدُ على من أنعم الله عليه؟!

لِمَ يبخل الحاسد بشيء لا يملكه؟!

ولِمَ يطلب شيئًا لا يجده؟!

يا من وقعت في هذا الداء العضال إياك أن تظن أن هذه النعمة التي أكرم الله بها أخاك لا يستحقها! أوليس أهلًا لها؟!

إياك أن تعتقد أن الله يعطي من لا يتسحق من عطاءاته!

فتردد مع الظالمين قولتهم: «يعطي ربنا الحَلَقَ لِلِّي مَا لَهُ وِدَان»!!

إنها عقيدة مخلخلة في صدور أصحابها يجب عليهم أن يجددوها وإلا لنالهم العذاب، وحل بهم النكال.

اعلم أن الله عدلٌ يُعْطي من يشاء ويَحْرم من يشاء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، يعطي بفضله، ويمنع بعدله.

ورحم اللهُ القائل:

ما للعباد عليه حقٌّ واجب ... كلَّا ولا سعي لديه ضائع

إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع[(١)]

وفي «مسند» أحمد، و«سنن» أبي داود وابن ماجه[(٢)] وغيرهم عن كعب رضي الله عنه قال: **«لَوْ أَنَّ الله عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ الله، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ**

---

(١) «طريق الهجرتين» (٤٧٠)، و«المدارج» (٢/ ٣٣٩)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢٢٩)، وانظر: «النونية» لابن القيم (٢/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩)، وعبد بن حميد (٢٤٧)، والطيالسي (٦١٩)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القدر (٤٦٩٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب في القدر (٧٧)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (١٣٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٤٥)، وابن حبان (٧٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٤٤)، و«المشكاة» (٣٧).

حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ». قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، حكيمٌ يُصرِّف الأمورَ بحكمة ودقة متناهية!!

فلا تظن بربك ظن سوء. لماذا أعطى هذا ولم يعطني؟!

لماذا وسَّع على فلان وتركني؟!

يا هذا! أما ترى نعم الله عليك تترى؟ قد غرقتك من فَرَق رأسك إلى أخمص قدميك؟ ستقول أين هذا؟! فأقول: ما أعظم جحودك ونكرانك! ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٦ – ١٧] ألم يعطك؟ ألم يمنع عنك البلايا؟ إن أخذ منك فقد أعطاك، ولم يحرمك أفلا تشكره وتحمده وتعرف فضله عليك وإحسانه بك؟ ألم يجعل لك ربك عينين؟ ولسانًا وشفتين.. تتكلم وتبصر وتأكل وتشرب!!

غيرك لا يبصر.. غيرك أبكم لا يتكلمُ.. غيرك لا يستطيعُ أن يضع لقمة صغيرة في فمه؛ أو كوبًا من الماء ليشربه.

نِعَمُ الله عليك تترى ولا تُحصى؛ فهلَّا شكرتها؟! ربما تكون لديك نِعَمٌ ليست عند غيرك؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ولكنه الظلم في حق نفسك، والجهل بربك، وصدق ربي حين وصف الإنسان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

تدبر هذا الحديثَ القدسيَّ الجليلَ من رب العزة سبحانه حين يقول للعبد[1] : «أَيْ فُلْ (يعني: يا فلان) أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ (أي: أجعلك سيدًا)، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لك

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (١٠٢٧).

الْـخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ (أي: ألم أجعلك رئيسًا مطاعًا؟)، فيقول: بَلَى. فيقول الله له: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فيقول: لَا. فيقول: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كما نَسِيتَنِي».

وفي «سنن» الترمذي، و«مستدرك» الحاكم، و«صحيح» ابن حبان[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ! وَنُرْوِيكَ مِنَ الْـمَاءِ الْبَارِدِ؟!».

وفي «صحيح مسلم»[2] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ».

أخي: اعلم أنه من قنع بعطاء الله لم يدخله حسد.

لكنه السخط وعدم الرضا، إنه حب الشر للآخرين، إنه العدوان والبغي والظلم.

ورحم الله من قال[3]:

ألا قل لمن كان لي حاسدًا ... أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله ... لأنه لم ترض لي ما وهب

فجازاك عني بأن زادني ... وسد عليك وجوه الطلب

لم تحسد أخاك؟!

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (٣٣٥٨)، وقال: «حديث غريب»، وابن حبان (٧٣٦٤)، والحاكم (٤/ ١٩٨)، وفي «علوم الحديث» (١٨٧) وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص:٣١)، والبيهقي في «الشعب» (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٩)، و«صحيح الجامع» (٢٠٢٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (١٠٥٤).

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (١٣/ ٢٣٠)، وابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ٢١٤) من طريق أبي الطيب الطبري قال: أنشدنا القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري لنفسه. ونسبه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٢٧٦) بإسناده لمنصور الفقيه.

قال الحسن[١] : يا ابن آدم لم تحسد أخاك؟ - انتبه - إن كان الذي أعطاه لكرامته عليه - أي أعطاه لكرامته على ربه - فَلِمَ تحسد مَنْ أكرمه الله؟

وإن كان غير ذلك - إن كان أعطاه وهو ليس أهل كرامته، بل كان المعطَى من الأشرار- فلم تحسد من مصيره إلى النار؟!

الحسدُ ليس له موقعٌ من قلب الخائف من الله!

أما لك عقلٌ رشيد أيها الحاسد البليد؟!

وأين دينك الذي يصدك ويزجرك عن ارتكاب هذا الإثم العظيم؟!

يقول ابن سيرين:

«ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا! لأنه إن كان من أهل الجنة؛ فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير الى الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى النار؟!»[٢] .

سل نفسك لماذا تحسد؟! ولماذا تحقد؟! ولماذا تكره الخيرَ لغيرك؟!

○ أيها الأحبة: إن للحسد أسبابًا؛ فالذي يدفع الحاسد إلى الحسد أمور:

١- أعظمها: ضعف الإيمان، وقلة الخوف من الله الملك الديان.

٢- حب الدنيا وحب الرياسة والجاه والسلطان، والخوف من منازعة الآخرين.

٣- خوف التزاحم؛ كما يحصل من الضرائر - الزوجات - مثلًا؛ فترى الحسد بين الزوجات، والحسد بين الإخوة؛ كل منهم يريد أن ينال المنزلة الأولى في قلب

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٨٩)، و«الزواجر» (١/ ١٠٣).

(٢) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (٣٩٣، ٣٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣)، وابن أبي الدنيا في «الورع» (٤٧)، و«التوبيخ والتنبيه» لأبي الشيخ (٤٦)، والبيهقي في «الزهد» (٨٤٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١٢٦)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٣/ ٢١٥).

الأبوين، فيحسد أخاه في كل نعمة.

وقد أنشدوا:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصومُ
كضرائر الحسناء قُلْن لوجهها حسدًا وبغيًا إنه لدميمُ
وترى اللبيب محسدًا لم يجتلب شتم الرجال وعرضه مشتومُ[(١)]

وفي «**الصحيحين**»[(٢)] من حديث عائشة رضي الله عنها - في حديث الإفك الطويل - وفيه: «فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ! مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ! هَوِّنِي عَلَيْكِ؛ فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا».

٤ - الكبر؛ فترى المتكبرَ لا يحب أحدًا يفوقه أو يعلو عليه.

○ محصلة القول:

«بحسب فضل الإنسان وظهور النعمة عليه يكون حسدُ الناس له؛ فإن كثر فضلُهُ كثر حُسَّاده، وإن قلَّ قلُّو؛ **فإن ظهور الفضل يثير الحسد**. وحدوث النعمة يضاعف الكمد»[(٣)].

يكاد صدر الحاسد يتقطع غيظًا إذا سمع رجلًا ربح مالًا، أو رزق ولدًا، أو تزوج امرأة شريفة جميلة، أو رزق حكمة وعلمًا وإيمانًا.

○○ والذي يزيد الحسدَ في قلب الحاسد؛ المجاورةُ والمخالطةُ في الأعمال المهنية، أو الرواتب الوظيفية، وما شابه؛ فترى التاجر يحسد تاجرًا آخر مثله، والطبيب يحسد طبيبًا، والجار يحسد جاره، والخطَّاط يحسد خطاطًا آخر، والنجار يحسد نجارًا، والعالم ربما يحسد عالمًا.. فكلما اشتدت المجاورةُ كلما اشتد لهيبُ الحسد، إلا من رحم اللهُ من

---

(١) «روضة العقلاء» لابن حبان (ص:١٣٦)، و«أخبار أبي حنيفة» (٦٦)، و«الشعب» للبيهقي (٦٦٤٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (٢٦٦١)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب حديث الإفك، وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (٣٣٥ و ٣٣٦).

أفراد.

وهل يحسد المؤمنُ؟

○ قال الحسن لرجل سأله هذا السؤال: ما أنساك بني يعقوب[١]، نعم؛ ولكن غَمِّه في صدرك (أي: أخفه، واكتمه فيه)؛ فإنه لا يضرك ما لم تَعْدُ به يدٌ ولا لسان»[٢].

○ أما عن كيفية علاج الحسد وإزالته عن الحاسدِ نَفْسِه؛ فبما يلي:

١- ذكر الموت.

قال أبو الدرداء[٣]: «ما أكثر عبدٌ ذكرَ الموت إلا قلَّ فرحُهُ وقلَّ حسده».

فاذكر الموت والبلى، واعلم أن الموتَ أقرب إليك من شراك نعلك.

٢- القناعة:

قال بعض الحكماء[٤]: «من رضي بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحدٌ، ومَنْ قنع بعطائه لم يدخله حَسَدٌ».

٣- قهر النفس وترويضها على محبة الآخرين:

فليقهر الحاسدُ النفسَ على ذميم خلقها، ولينقلها عن لئيم طبعها.

٤- استقباح نتائج الحسد وأضراره:

أن يستقبح نتائجَ الحسد وأضراره؛ فيستعمل الحزمَ في دفعه، وأن يرضى بما قسم الله له، وأن يدعو لإخوانه بالبركة والزيادة؛ إن أخذ بذلك استبدل بالنقص فضلًا،

---

(١) قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٨-٩].
(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٨٩).
(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٩)، وابن أبي الدنيا في «القبور» (٢٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٢٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ١٩٤).
(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص: ٣٣٣).

واعتاض عن الذم حمدًا.

إخواني: لا أطيلُ في تشخيص هذا المرض؛ فالكلُّ يعلم شؤمه وخطره وحرمته.

لكنني أودُّ أن أقف مع كيفية دفع الحسد ومع المحسود وكف الحاسد اللدود.

○ **أما كيف يدفع المحسود شر الحاسد؟** فقد ذكر ابن القيم رحمه الله[(١)] عشرة أسباب لذلك ألا وهي:

١- التعوذ بالله تعالى من شره واللجوء والتحصن به واللجوء إليه.

٢- تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه؛ فمن اتقى الله وخافه تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره.. ومَنْ خَافَ اللهَ أخافَ اللهُ منه كل شيء.

٣- أن يصبر على حاسده وعدوه، ولا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا؛ فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه.

٤- التوكل على الله؛ فَمَنْ توكل على الله كفاه؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه وحاسديه.

٥- أن يفرغ المحسود قلبه من الاشتغال بالحاسد والفكر فيه، وأن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، ولا يلتفت بقلبه إليه.

٦- أن يقبل على الله، وأن يذيب خواطره وهواجسه، وأن يجعلها كلَّها في محاب الله ومرضاته.

٧- أن يجرد التوبة إلى الله من ذنوبه التي سلطت عليه أعداءه؛ فإن الله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ فليكثر المحسود من الاستغفار والذكر والطاعة والإنابة.

٨- أن يكثر من الصدقة، وأن يشكر نعمةَ الله عليه، فالشكر حارس النعمة من

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٣٤٦) وما بعدها بتصرفٍ.

كل ما يكون سببًا لزوالها.

٩- أن يطفئ نارَ حاسده والباغي عليه بالإحسان إليه، وكلما ازداد أذى وشرًّا وبغيًا وحسدًا كلما ازددت أنت إليه إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، وهذا من أصعب الأشياء على النفس وأشقها عليه، ولا يوفق لذلك إلا من عظم حظه من الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

وأخيرًا: وعليه مدار كل ما سبق، وهو الجامع لكل ما سلف؛ تجريد التوحيد، وأن كلَّ ما يفعله الحاسدُ إنما هو بيد محركه وبارئه وخالقه، وهو الله؛ فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين.

فلا يضرُّ الحاسدُ أحدًا إلا بإذن الملك؛ فإن الله هو الذي يصرفه، وهو الذي يسلطه وحده لا أحد سواه؛ قال جَلَّ في علاه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

○ وعلى المحسود أن يستر النعم إلا على من يريد إعلامه بها من أهل الصلاح من باب التحدث بنعم الله تعالى.

○ وعلى المحسود أن يرقي نفسه بالرُّقية الشرعية، لا بالتعاويذ الشيطانية.

روى مسلمٌ[(١)] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: **«يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»**.

○ ثم من السنة أن يغتسل المحسودُ بماء الحاسد.

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى (٢١٨٦).

ففي «صحيح مسلم»[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «**الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**».

فعوِّذ نفسك بالمعوذات، وارق نفسك بالرقية الشرعية الصحيحة، وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ[٢]: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ** (يعني: الحيات) **وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**».

○ وهذه رسالةٌ موجهةٌ للحاسد:

أيها الحاسدُ: لا تعترضْ على أقدار الله، لا تقل: «أعطى الحَلَق لِلِّي بلا ودان!!» لا تتسخطْ على قسمة الله لخلقه، لا تتمن زوال النعم عن إخوانك المؤمنين.

ادع لإخوانك المؤمنين بالبركة والزيادة والخير والعطاء يَزُلْ ما في قلبك من غلٍّ وحقدٍ وحسدٍ.

جدِّد التوبةَ، واصدقْ مع الله في رجوعك، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناسن، واعلم أن كلَّ شيء خلقه الله بقدر، فتعوذ بالله مما أنت فيه، وسل الله أن ينجيك قبل أن تكون من الهالكين ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

○○ وأنت أيها المظلوم المحسود:

لا تبال بهذا الحاسد، ولا تلتفت إلى حبائله ومكائده، ودعه يموت كمدًا وهمًّا وغمًّا بحسرته وظلمه وعدوانه وعدم رضاه؛ قال جَلَّ علاه: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وسل الله أن يحفظك وأن يسلمك، وأن يديم عليك نعمه.

وسل الله أن يحفظها عليك من كل مكروه وسوء.

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى (٢١٨٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (١٠) (٣٣٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

واقرأ دومًا المعوذات، وتحصَّن دائمًا بالأذكار الشرعية، واصبر، فإن العاقبة للتقوى.

وأختم بهذين العنصرين المهمين ألا وهما:

اعلم أن الحسد يضمحل ويندرس ويذهب بين يدي الساعة، وذلك بعد نزول عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ففي «صحيح مسلم»[(١)] عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**وَاللهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلاً، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلاَصُ فَلاَ يُسْعَى عَلَيْهَا، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلاَ يَقْبَلُهُ أَحَدٌ**».

وخذ هذه ويالها من جليلة:

اعلم أن صفات أهل الجنة؛ زوال الحسد من قلوبهم وسلامة صدورهم من كل غلٍّ وحقدٍ وحسدٍ، ومحبة بعضهم بعضًا؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وفي «الصحيحين»[(٢)] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى آثَارِهِمْ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا تَبَاغُضَ بَيْنَهُمْ، وَلَا تَحَاسُدَ، لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتَانِ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ الْعَظْمِ وَاللَّحْم**».

نسأل الله من فضله وإحسانه.

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٥٥/ ٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٤)، ومسلمٌ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر (٢٨٣٤).

اللهم سلم قلوبنا من الحسد، وصدورنا من الغل والحقد.

اللهم اهد قلوبنا، واشف صدورنا.

اللهم أصلح القلوب، واغفر الذنوب، واستر العيوب، واقبل توبة من يتوب.

اللهم اشف منا العللِ، واغفر لنا الزللَ، يا أرحم الراحمين.

*****



اليَأسُ وَفَقدُ الأمَل



اليأس وفقد الأمل

لقد تعمَّدتُ أن يكون هذا المرضُ الخطيرُ من آخر الأمراض من فصول هذا الكتاب؛ لأستلَّ من هذا المرض دواءً أضمِّد به الجراحَ التي أصابت الأمةَ.

وهذا تأصيلٌ لمعنى اليأس والأمل لغةً واصطلاحًا.

- **تعريفُ اليأس:**

لغةً: القنوط، وقيل: اليأس نقيض الرجاء، أو هو قطع الأمل عن الشيء، يئس من الشيء ييأس وييْئِس.

والمصدر: اليأس واليآسة واليأس، والجمع: يُئُوس[(١)].

واصطلاحًا: قال الكفويُّ[(٢)]: «اليأس: انقطاعُ الرَّجاء»، وقال الرَّاغبُ[(٣)]: «انتفاء الطمع»، وقال البقاعي[(٤)]: «اليأس: القطع بأن الشيء لا يكون؛ وهو ضدُّ الرَّجاء».

- **تعريف الأمل:**

«التثبت والانتظار، والأمل: الرجاء. والجمع آمال»[(٥)].

فالأمل هو الرجاء؛ فما هو الرجاء؟

- **الرَّجاء:**

مَصْدرُ قولهم: «رجوت»، وهي التي تدلُّ على الأمل، الذي هو نقيض اليأس، قال

---

(١) «لسان العرب» (٩ / ٤٣٧، ٤٣٨)، و«معجم مقاييس اللغة» (١١٠٩)، و«النهاية» (٢ / ٩٢٥)، و«تاج العروس» (١٧ / ٤٩).
(٢) «الكليات» (٩٨٥).
(٣) «المفردات» (٥٥٢).
(٤) «نظم الدرر» (٣ / ٥٠٨).
(٥) «معجم مقاييس اللغة» (٨٩)، و «لسان العرب» (١ / ٢٢٠).

الراغب: «والرجاء: ظنٌّ يقتضي حصول ما فيه مسرة»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله **في «المدارج»**[(٢)]: «قيل في حدِّ الرَّجَاءُ: هو النَّظَرُ إلى سعة رحمة الله - جَلَّ وعَلَا».

وقال في موضع آخر[(٣)]: «وأما حبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن؛ فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حدٍّ يأمن معه العقوبةَ؛ فإنه لا يأمن مكرَ الله إلا القوم الخاسرون؛ وهذا إغراق في الطرف الآخر؛ بل حدُّ الرجاء: ما طيَّب لك العبادة، وحملك على السير».

○ **والرجاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

نوعان محمودان، ونوعُ غرورٍ مذمومٍ[(٤)].

- **القسم الأول:**

رجاءُ رجلٍ يعمل بطاعة الله، على نورٍ من الله؛ فهو راجٍ لثواب الله؛ كما قال ابن القيم رحمه الله.

- **القسم الثاني:**

رجاءُ رجلٍ أذنب، وكُلُّنا ذلك المذنب؛ لكنه تاب إلى الله - جَلَّ وعَلَا - واستغفر الله عز وجل؛ فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه، وأورثته هذه المعصية انكسارًا وذلًّا لله - سبحانه -، ودفعته إلى الطاعة دفعًا، وهذا كلام ابن القيم في موضعٍ آخر: رُبَّ طاعةٍ أدخلت صاحبها النار، ورُبَّ معصية أدخلت صاحبها الجنة؛ فربَّ طاعةٍ أورثته عجبًا، وكبرًا، وغرورًا ومنًّا على الله تبارك وتعالى ونسي أن الله - جَلَّ وعَلَا - هو الذي تفضَّل عليه وأعانه ووفقه؛ فاستحق النار!!

وربَّ معصيةٍ أدخلت صاحبها الجنةَ؛ لأنها أورثته ذلًّا وانكسارًا، وتوبةً بعد توبةٍ،

---

(١) «المفردات» للراغب (١٩٤)، و«لسان العرب» (٥/ ١٦٣ مادة رجا).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦).

(٣) «المدارج» (٢/ ٣٩٤).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦)، وراجع: (١/ ٢٠٥).

وقربةً بعد قربَةٍ، وطاعةً بعد طاعةٍ، حتى أوقفته على باب التوبة، وأدخلته الجنة بفضل الله - جَلَّ وعَلَا.

- **القسم الثالث وهو المذموم:**

رجَاءُ رجلٍ متمادٍ في المعاصي والذنوب والخطايا، تاركٍ للعمل والطاعة، وهو يرجو رحمة الله ﷻ بلا عمل؛ فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب!!

قال الحسن البصري رحمه الله [(١)]: «إنَّ قومًا ألهتهم أمانيُّ المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وكذب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل» ثم قرأ: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[فصلت:٢٣]؛ فلو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة.

فمن علامة الشقاء أن يعصي العبد ربه، ويرجو أن ينجو من الهلاك!!

أما علامة صحة الرجاء؛ في حسن الطاعة، وأن يخاف العبد مع ذلك ألا يقبل الله منه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المقصود من الرجاء أنَّ من وقع منه تقصيرٌ؛ فليُحْسن ظنَّه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع؛ فهذا في غرور» [(٢)].

إذًا لو سأل سائل، وقال: ما الفرقُ بين التمني والرجاء؟ فالجواب: أن التمني يكون مع الكسل وترك العمل، ولا يسلك صاحبه سبيلَ الجِدِّ والاجتهاد، ومع ذلك يرجو رحمة الله؛ أما الرَّجاء؛ فهو رجاءٌ وطمعٌ في رحمة الله مع العمل، أو مع التوبة والاستغفار وعدم التفريط؛ فشتان شتان بين الرجاء وبين التمني [(٣)]؛ ولِمَ لا؟ والرجاء هو حافز المؤمنين، والأماني هي شغل الفارغين؛ وقد أخبر الله عن هؤلاء الذين جعلوا الجنة حكرًا عليهم بلا

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الوجل والتوثق بالعمل» رقم (٢)، وابن الجوزي في «كشف المشكل» (٨٨١)، والشجري في «الأمالي» (١/ ١٩٧).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣٠١).

(٣) انظر: «المدارج» (٢/ ٣٥)، و«الروح» (٢٤٥).

إيمان ولا عمل؛ فقال: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١].

- **حقيقة الرجاء:**

قال ابن القيم رحمه الله [١]: «الرجاء هو عبوديةٌ وتعلُّقٌ بالله من حيثُ اسْمه: المحسِنُ الْبرُّ؛ فذلك التعلُّق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله؛ هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري؛ فقوَّة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبةِ رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح، وهدِّمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيرًا؛ بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفنُ الأعمال في بحر الإرادات.

ولي من أبيات:

لَـوْلَا التَّعَلُّـق بِالرَّجَـاءِ تَقَطَّعَـتْ نَفْـسُ الـمُحِبِّ تَحَسُّرًا وَتَمَزُّقَـا

لَـوْلَا الرَّجَـا يَحْدُو الـمَطِيَّ لَـمَّا سرت بِحُمُولِهَـا لِـدِيارِهم تَرْجُـو اللِّقَـا

فتأمل هذا الموضعَ حقَّ التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة؛ فكلُّ محبةٍ فهي مصحوبةٌ بالخوف والرجاء. وعلى قدْر تمكنها من قَلْب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، ولكنَّ خوْف المحب لا يصحبه وحشة بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علةٌ بخلاف رجاء الأجير، وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟! وبينهما كما بين حاليهما».

وقال [٢]: «الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة، ويُطَيِّب لها السير»؛ فالرَّجاء عبادةٌ عظيمةٌ من أعمال القلوب، وركنٌ من أركان العبادة.

ولقد أثنى الله على أصحاب هذه المنزلة في كتابه في آياتٍ عدَّة؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢) باختصار.

(٢) «المدارج» (٢/ ٣٥).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠].

ومن أعظم آيات الرجاء، قول الله - جَلَّ وعَلَا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: قَالَ الله تَعَالَى: **«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»**.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»**.

والنُّزول في الحديث نزولٌ يليق بكمال الله وجلاله.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول الله ﷻ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، (٧٤٠٥)، ومسلمٌ، كتاب الذكر، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول الله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، (٧٤٩٤)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (٧٥٨)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول الله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥] (٧٥٠٧)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت =

رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ؛ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» [(١)] من حديثِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ؛ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ؛ فَقَالَ: «الله أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا».

لذا؛ قال أحَدُ الصالحين، الذين فهموا قضيةَ الرجاء بعملٍ صالحٍ، وَطَمِعَ في الرحمة بعد ذلك؛ قال: «اللهم إنك تعلم أن أمي هي أرحم الناس بي، وأنا أعلم أنك أرحم بي من أمي، وأمي لا ترضى لي الهلاك والعذاب؛ أفترضاه لي أنت وأنت أرحم الراحمين؟»!! هذا هو الذي فهم قضية الرجاء؛ فهو يعمل ويطمع في رحمة الله - تبارك وتعالى - معًا.

وفي «سنن الترمذي» [(٢)] - بسندٍ حسنٍ لشواهده - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ

=
الذنوب والتوبة (٢٧٥٨) واللفظ له.

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله (٥٩٩٩)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله (٢٧٥٤).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار (٣٥٤٠)، وله شواهد؛ كما في «المسند» لأحمد (٥/ ١٤٨، ١٥٤، ١٦٧) عن أبي ذر ﷺ مرفوعًا؛ وحسَّنه لشواهده العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٢٧)، وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٣٨).

خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

قال سفيان الثوريُّ[(١)]: «مَنْ أذنب ذنبًا فعلم أن الله تعالى قدَّره عليه، ورجا غفرانه، غفر الله له ذنبه».

وهذا الإمام الشافعي رحمه الله يقول في مرض موته[(٢)]:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلتُ الرَّجا مني لعفوك سُلَّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ومن أجمل الأحاديث التي توضِّح هذه المسألة؛ ما رواه الترمذيُّ في «السنن» وابن ماجه - وجوَّد سندَهُ النووي[(٣)] - من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟». قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**». والرَّاجي إذا صدق في الرجاء وجده عند ظنه به، والخائف إذا صدق في اللَّجأ إليه وجده مؤمنًا من الخوف[(٤)].

قال - جَلَّ وعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]؛ أي: لا رجاء إلاَّ من الله - جَلَّ وعَلَا - لا ترج من ملكٍ مقرب، ولا من نبيٍّ مرسل.

لا تسل نبيًّا، ولا وليًّا، وإنما سل الربَّ العلي - جَلَّ وعَلَا - قال الحبيب النبيُّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس - وهو غلامٌ صغيرٌ!!: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ**

---

(١) «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٣٠٤)، و«الإحياء» للغزالي (٤/ ١٤٥).

(٢) «طبقات الشافعية» (١/ ٢١١)، و«تاريخ دمشق» (٥١/ ٤٣٠)، و«السير» للذهبي (١٠/ ٧٦).

(٣) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الجنائز، باب (١١)(٩٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦١)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٣٧٠)، وصححه لغيره الألباني في «الصحيحة» (١٠٥١).

(٤) «المدارج» (٣/ ٣٢٤).

بِالله»[(١)]. هكذا علَّم رسول الله ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس ﵄، والأمة من بعده إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، قال أحدُ المتقدمين: «اللهم إليك تقصدُ رغبتي،وإياك أسألُ حاجتي، ومنك أرجو نجاح طلبتي، وبيدك مفاتيح مسألتي، لا أسأل الخير إلا منك، ولا أرجوهُ من غيرك، ولا أيأس من روحك بعد معرفتي بفضلك»[(٢)].

وها أنا ذا ألمح رياحًا عاتيةً تعصف بقلوب الكثيرين؛ لاسيما بعدما عدَّدتُ الأمراضَ الخطيرة والعلل الكبيرة التي أصيبت بها أمتنا الحبيبة، فتعصف ريحٌ من القنوط واليأس على قلوبٍ كثيرةٍ ويتساءلون: هل يمكن لأمتنا أن تصحوا وتنهض مرة أخرى؟ وهل يمكن أن تعود الأمة إلى مكانتها مرة ثانية؟ وهل من المنتظر أن ينتصر الدينُ وأن يمكن الله ﷻ لمنهج سيد النبيين ﷺ؟!!

والجواب بملء الفم؛ بل بيقين تامٍ وثقةٍ مطلقةٍ؛ نعم، وليس هذا من باب الأحلام الوردية الجاهلة، ولا من باب السياسة القاصرة، ولا من باب ضغط الواقع المرِّ الأليم؛ بل بلغةٍ يحدوها الأملُ الذي افتقده الآن كثيرٌ من أبناء أمتي الحبيبة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ فاليأس كبيرةٌ من الكبائر، وقد عدَّ الإمام الهيتمي في كتابه «الزواجر»[(٣)] اليأس من رحمة الله من الكبائر، واستدلَّ بالآية السابقة، وبقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ثم استشهد بعدد من الأحاديث، وقال بعدها: «عدُّ هذا كبيرة هو ما أطبقوا عليه، وهو ظاهرٌ؛ لما فيه من الوعيد الشديد»، والقنوط ثمرة اليأس؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ

---

(١) أخرجه عبد الله بن وهب في القدر (٢٨)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣)، والترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٥٩) (حديث ٢٥١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٦٣٦)، وهناد في «الزهد» (٥٣٦)، والفريابي في «القدر» (١٥٥)، وعلي بن الجعد في «مسنده» (٣٤٤٥)، والحاكم (٣/ ٥٤٢)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٢٣، ١٧٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٣٣).

(٣) (١ / ١٨٧ - ١٨٩).

ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ قال أبو زرعة: «في معنى اليأس: القنوط، والظاهر أنه أبلغ منه، للترقي إليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩]» [١]، وقد أفرد الهيتميُّ القنوط استقلالًا ككبيرة من الكبائر، واستدلَّ عليه بقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقد روى عبد الرزاق في «تفسيره»، وفي «مصنفه»، والطبري في «تفسيره»، والطبراني في «الكبير» [٢] من حديث ابن مسعود ﷺ قال: «**أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِالله، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله**».

فالتغيير قادمٌ بموعود الله وموعود الصادق رسول الله ﷺ؛ لأن من أخطر الأمراض: مرض اليأس والقنوط وفقد الأمل والقناعة بأن هذا الواقع (المرَّ!!) لن يتغير أبدًا!!!

وقد ذكرت قبل ذلك - وأنا أتحدث عن الهزيمة النفسية - أن التتار هجموا على بغداد، ومنعوا صلاة الجماعة أربعين يومًا، وكان لا يجرؤ مسلمٌ أن يخرج من بيته ليصلي الجماعة في بيت الله، وغيَّر الله الحالَ. وهجم الصليبيون على المسجد الأقصى، ووضعوا الصلبان على جدرانه وفي كل شبر فيه، ومنعوا الصلاة فيه، وغيَّر الله الحال.

وهجم القرامطةُ على بيت الله الحرام، واقتلع أبو طاهر القرمطي الخبيث الحجر الأسود من الكعبة، وظلَّ يصرخ كالثور الهائج،ويقول: أين الطيرُ الأبابيلُ؟ أين الحجارةُ من سجيل؟ وغيَّر الله الحال.

فلا ينبغي البتة للأمة أن تيأس من إمكانية التغيير، أو أن تضخم من قدرة الأعداء وقوتهم في الوقت الذي نقلل فيه من إمكاناتنا وقدراتنا وطاقاتنا؛ فالأمة مليئةٌ بالطاقات والقُدرات، لكنها مهزومةٌ نفسيًّا، والمهزوم نفسيًّا مشلول الفكر والحركة!! كما بينت ذلك بالتفصيل في فصول متقدمة.

---

(١) «الزواجر» للهيتمي (١/ ١٩٠)، وانظر: «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (ص: ٢٥٩) في الفرق بين اليأس والقنوط.

(٢) «أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١ / ١٥٥)، وفي «مصنفه» (١٠ / ٤٥٩)، والطبريُّ في «تفسيره» (سورة النساء: ٣١)، والطبراني في «الكبير» (٩ / ١٥٦) بإسنادٍ صحيحٍ.

وأنا لا أنكر الواقعَ الذي تحياه أمتُنا؛ فلا ريب على الإطلاق أن الأمة في سباتٍ عميقٍ منذ أمدٍ بعيدٍ، ولا ريب أنها قد مرضت وطال مرضها، وجهلت وعظم جهلها، وتراجعت للوراء بعيدًا، وأصبحت في ذيل القافلة الإنسانية بعد أن كانت بالأمس القريب الدليل الحاذق الأرب، وبعد أن كانت تقودُ القافلة الإنسانية كلها بجدارةٍ واقتدار.

نعم... لقد أصبحت الأمةُ تتسول على موائد الفكر البشري والإنساني بعد أن كانت بالأمس القريب تهدي الحيارى والتائهين ممن أحرقهم لفح الهاجرة القاتل وأرهقهم طول المشي في التيه والظلام.

ولقد أصبحت الأمةُ المسكينةُ تتأرجح في سيرها، بل لا تعرف طريقها الذي ينبغي أن تسلكه ويجب أن تسير فيه، بعد أن كانت الأمة بالأمس القريب جدًّا الدليل الحاذق الأرب في الدروب المتشابكة في الصحراء المهلكة التي لا يهتدي للسير فيها إلا الأدلاء المجربون.

أهذه هي الأمة التي زكَّاها الله في القرآن بالخيرية في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]؟!!

أهذه هي الأمة التي زكَّاها الله في القرآن بالوسطية في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]؟!

أهذه هي الأمة التي أمرها الله بوحدة الصَّف والاعتصام بحبل الله المتين في قوله ﷻ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وفي قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]؟!

إن ما تتعرض له الأمةُ الآن من إذلالٍ مهينٍ لَـمِنْ أعظم الأدلة العملية على هذا الواقع الأليم الذي لا يحتاج لمزيد بيانٍ أو تشخيصٍ أو تعليلٍ!! ولكن مع كل هذا وذاك بحول الله وقوته لم تمت ولن تموت هذه الأمةُ الميمونةُ بموعود الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ؛ لأن أبناء الطائفة المنصورة في هذه الأمة لا يخلو منهم زمانٌ ولا مكانٌ

بشهادة سيد الخلق أجمعين؛ كما في «**الصحيحين**»(١) من حديث معاوية ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ الله، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**».

أسأل الله العلي القدير أن يجعلنا وإياكم من أبناء هذه الطائفة المنصورة التي تعيش لدين الله، وتتمنى أن تَنْصُر بكل سبيل دينَ الله ﷻ.

لَئِنْ عَرَفَ التَّارِيخُ أَوْسًا وَخَزْرَجًا فَلِلَّهِ أَوْسٌ قَادِمُونَ وَخَزْرَجُ

وَإِنَّ كُنُوزَ الغَيْبِ تُخْفِي طَلَائِعًا صَابِرَةً رَغْمَ المَكَائِدِ تَخْرُجُ

فلئن كانت أمتنا الحبيبة تمرُّ الآن بمرحلةٍ من مراحل الضعف؛ فلطالما مرت بمراحلَ كثيرةٍ من مراحل التمكين؛ فلقد أذلَّت الأكاسرةَ، وأهانت القياصرةَ، وقدمت للحضارة مفهومًا مشرقًا رائعًا ما عرفته حضارةُ العصر الحديث، الحضارة التي تَعفَّن ضميرها، الحضارة التي تحلَّلت أخلاقُها، لطالما قدمت أمةُ التوحيد للبشرية كلِّها المفهوم الحقيقي للأخلاق وللحضارة، إذ لم تبق هذه الأخلاق مجرد مُثُل يُحْتَفظُ بها في الأدراج وفي الهيئات والمنظمات والمواثيق، وإنما تحولت هذه المُثُل والأخلاقُ في دنيا الناس وفي دنيا المسلمين إلى واقع عملي وإلى منهج حياة، وكما يتعاقب الليلُ والنهارُ، وكما تدور الشمسُ في مدارها، وكما يجري القمرُ في منازله، لا تتخلف الشمسُ، ولا يتأخر القمرُ؛ فكذلك لله تعالى سننٌ ثابتةٌ في الكون لا ولن تتغير ولن تجد لسنة الله تبديلًا؛ فهي لا تحابي ولا تجامل أحدًا من الخلق بحال مهما ادَّعى لنفسه من مقومات المحاباة، ومن تلك السنن الثابتة: أن الحق إن ضعف وانزوى كأنه مغلوبٌ وزائلٌ فإنه ظاهرٌ، وأن الباطل وإن انتفخ وانتفش كأنه غالبٌ وظاهر فإنه زاهق؛ قال جَلَّ وعَلَا: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال جَلَّ وعَلَا: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فلا ينبغي أن تُخدع بالباطل وإن انتفخ وانتفش، ولا ينبغي أن تظن أن الحق إلى

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب (٢٨) (٣٦٤١)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**» (١٠٣٧ / ١٧٤).

زوال وإن ضعف وانزوى في مرحلةٍ من المراحل أو في وقتٍ من الأوقات؛ لأن معنا رصيد الفطرة، ومعنا الحق الذي من أجله خلقت السماوات والأرض، والجنة والنار، ومن أجله أُنزلت الكتبُ، وأرسلت الرسلُ، وقبل وبعد كل ذلك معنا الله ﷻ، ويا لها من معيةٍ جليلةٍ كريمةٍ لو عرفت الأمةُ قدرها، وعرفت جلالها وعظمتها!! فمن كان الله معه فممن يخاف؟! ومن كان الله معه فعلى أيِّ شيءٍ يحزن؟ ومعه القويُّ الذي لا يهزم، ومعه العزيزُ الذي لا يغلب ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

فهذا وعد الله الحق؛ لكن هل وقع هذا البيانُ القرآني؟ والجواب: نعم بلا ريب، فلقد كان نبينا محمد ﷺ وحده في مكة في بيئة شركية تصنع الحجارةَ وتعبدها من دون الله جَلَّ وعَلَا، ومن أول لحظة قال فيها ﷺ: «**إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، قال عمُّه أبو لهب: «**تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟**»(١)، وفي هذه اللحظة أبرقت مكةُ وأرعدت، وأرغت مكة وأزبدت، ودقت طبولُ الحرب وتوعَّدت؛ بل وقال أبو جهل: «هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؛ فَقِيلَ: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ»(٢)؛ بل وجاؤوا بسلا جزورٍ وألقوه على ظهر البشير النذير، وهو ساجدٌ بين يدي العزيز الغفور، وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنه يراهم يتمايلون ويضحكون وهو لا يملك أن يفعل لرسوله ﷺ شيئا، حتى جاءت ابنته الزهراء فاطمة رضي الله عنها لتزيل النجاسة عن ظهر أبيها ﷺ، وقد رفع رأسه يقول: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ ابْنِ أَبِي مُعَيْطٍ**»(٣)، إنه رسول الله ﷺ الذي لم تقبل أرضُ مكة أن يبذر فيها بذرة

---

(١) كما عند البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٤٧٧٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٨).

(٢) كما في «صحيح مسلم»، كتاب صفة القيامة، باب قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] (٢٧٩٧).

(٣) كما عند البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته (٢٤٠)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤).

التوحيد، وراح يبحث عن أرض جديدة وهي أرض الطائف، لكن أهلَ الطائف فعلوا به أسوأ ما يفعله الإنسانُ بالإنسان، رموه بالحجارة وقذفوه وسبوه ونهروه وشتموه[١]؛ ومع هذا الواقع الأليم، في ظل هذا العنف والاضطهاد لشخص رسول الله ﷺ ودعوته وأصحابه المستضعفين معه، الذين اضطروا أن يهاجروا إلى أرض الحبشة مرتين، في وسط هذا الزخم الضاغط يأتيه خبابُ بن الأرت ليشكوا إليه؛ ففي «**صحيح البخاري**»[٢] من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو الله لَنَا، قال: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَالله لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا الله، أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»؛ فانظر كيف كانت ثقةُ النبيِّ ﷺ المطلقةُ في ربِّه تبارك وتعالى، وهو في مرحلة الاستضعاف؟!!

نعم.. إياك والإرجافَ؛ لأن صنفًا يملأ الأمةَ الآن بالإرجاف حتى تظلَّ الأمةُ مهزومةً لا تتحرك على طريق النصرة والإبداع والإنتاج والعمل والعطاء.

وها هو ﷺ يملأ القلوبَ بالأمل وهو في الخندق والمشركون قد خرجوا عن بكرة أبيهم وخرج معهم المنافقون من قلب المدينة ورموا رسول الله ﷺ والمسلمين عن قوسٍ واحدةٍ.

روى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، والنسائي وغيرهم بسندٍ حسَّنه الحافظُ ابنُ حجر[٣] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: عُرِضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ، لاَ تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ - قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ - ثُمَّ هَبَطَ إِلَى

---

(١) كما عند البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٣١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة (٣٦١٢).

(٣) سبق قريبًا.

الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللهِ». فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ». وَضَرَبَ أُخْرَى، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ». وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، فالنبيُّ ﷺ يبشر الأمة وأصحابه بأن النصرة لدين الله، رغم هذه المحن الحالكة التى تمر بها أمته، فلا ينبغي أبدًا أن نتَّكل أو نَكْسَلَ أو نتخاذل أو نيأس أو نقنط، بحجة أنه قد انتهت الأمةُ، وضاع الدينُ، وتسلط المنافقونَ، وتحكَّم في الأمة المجرمون الخائنون؛ لكنني أقول: ينبغي أن نعلم يقينًا أنه كلما اشتدت الضرباتُ، وكلَّما انتشر الفسادُ، فإن هذا إن شاء الله تعالى إذنٌ من الله تعالى بالفتح.

وتحقق وعدُ الله ووعد رسول الله ﷺ في مدة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال الله جَلَّ وعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

نعم.. سينفقون آلاف الملايين ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون؛ فها هو الإسلام ما زال قويًّا شامخًا وسيبقى قويًّا شامخًا، أين القرامطة؟! وأين التتار؟!! وأين الصليبيون؟!! أين المجرمون؟! بل أين فرعون وهامان؟! بل أين أصحاب الأخدود؟! أين كل من عادى وحارب الإسلام؟! هلك الجميعُ وبقي الإسلامُ وسيبقى بموعود الرحمن.

فكم من المليارات أنفقت لاستئصال هذا الدين واستئصال شأفة المسلمين؟ وكم أُنفق من مليارات لإغراق شباب الأمة في مستنقع الرذيلة الآسن العفن حتى لا يخرج إلى الأبد؟ وكم أُنفق لتنحية هذا الدين؟ ولكنهم يرقصون الآن رقصة الموت؛ لأنهم يرون العجبَ العجاب كما سأبين من خلال الواقع، ولن أنظِّر بعيدًا عن الواقع الذي

تحياه الأمة الآن، واقرأ معي قول الله جَلَّ وعَلَا: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨، ٩].

إن المجرمين الكفرة الفجرة يريدون أن يطفئوا دينَ الله ويأبى اللهُ إلا أن يتم نوره، وأنا أعتقد اعتقادًا جازمًا أنها معركة غير متكافئة؛ لأنها بين القادر القاهر، وبين الكفرة الفجرة، فمن له اليد العليا؟!! فهل تستطيع جميعُ الأفواه ولو اجتمعت أن تطفئ نور الله جَلَّ وعَلَا؟ وهل تستطيع الطَّحالبُ ولو اجتمعت على سطح الماء أن توقف سير البواخر العملاقة؟ وهل يستطيع أهلُ الأرض ولو اجتمعوا أن يطفئوا نور القمر أو نور الشمس؟! كلَّا وألف كلَّا؛ فما بالك بنور الله - جَلَّ وعَلَا؟! قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

فالإسلام قادمٌ غالبٌ؛ لأن هذا وعد ربنا رغم أُنُوف المشركين والمنافقين والمجرمين. وأنا أعي ما أقول وأعي واقع الأمة المر الأليم الذي ذكرت؛ فأنا أعتقدُ اعتقادًا جازمًا أنه لا يوجد على وجه الأرض شرٌّ محضٌ، بالرغم ما نراه الآن من تهديداتٍ لا لبلد ما، بل للأمة جلها، فأنا أقول: إن هذا الشرَّ سيجعل الله - جَلَّ وعَلَا - فيه خيرًا كثيرًا؛ فما من أزمة مرَّت بالأمة إلا وجعلها الله تبارك وتعالى سببًا لقوة الإسلام، وما من ابتلاءٍ إلا وجعله الله سببًا لتمحيص الصدور، وسببًا لتمايز الخبيث من الطيب؛ فلقد قال الله في كتابه العزيز: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾

[العنكبوت: ٢، ٣].

ولقد ذكر العزُّ بن عبد السلام في البلاء سبع عشرة فائدة؛ فلا تظن أنه مع هذه الأزمات سيزول الإسلامُ، وسينتهي المسلمون!! كلاَّ؛ فهذا لن يكون.

روى مسلم في «صحيحه»[(١)] من حديث ثوبان ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،**

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩).

وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وراجع التاريخ من أوَّل حروب الرِّدة إلى ما نراه الآن على أرض فلسطين والعراق، وها هي أمم الأرض قد اجتمعت على أفغانستان، ولا زالت قائمةً وباقيةً، وهي دويلة؛ فما ظنك بالأمة؟!

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد في «المسند»، والطبراني في «مسند الشاميين»، والحاكم في «المستدرك» بسندٍ صحيح على شرط الشيخين[1] من حديث تميم الداري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلاَمَ، وَذُلاًّ يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ**».

وأُوَضِّحُ هذا الحديث برواية أخرى جميلة لحذيفة بن اليمان ﷺ في «مسند» الإمام أحمد وغيره من دواوين السنة بسندٍ حسن[2] قال الصادق الذي لا ينطق عن الهوى: «**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣)، والحاكم (٤/ ٤٧٧)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٨١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٩٥١)، ومن حديث المقداد بن الأسود ﷺ، رواه أحمد (٦/ ٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٧٠١)، والحاكم (٤/ ٤٧٦)، وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٥٤)، و«مسند الشاميين» (٥٧٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٨١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٣)، والطيالسي في «مسنده» (٤٣٨)، والبزار في «كشف الأستار» (١٥٨٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٤٩١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥).

جَبْرِيَّةً، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ». ثُمَّ سَكَتَ.

أسأل الله أن يُعجِّل بالخلافة التي على منهاج النبوة، وأن يمتعنا بالعيش في ظلالها؛ وإن لم يُقدِّر لنا فأسأله أن لا يحرم أبناءنا وأولادنا؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وفي «صحيح» البخاري [1] من حديث عدي بن حاتم ﷺ قال: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ؛ فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟» قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: «فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ» قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟ «وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى» قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: «كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ» قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ».

نعم ستعود هذه الأمةُ، وسيعود إليها مجدُهَا ومكانتها وكرامتها بموعود الله، وموعود الصادق رسول الله ﷺ؛ فكما قال تعالى﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٤١٣)، وكتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٥) والسياق له.

وأنا على يقينٍ أن الأمة بفضل الله ما ماتت ولن تموت حتى في ظل هذا الواقع الأليم الذي تسفك فيه الدماءُ، وتتمزق فيه الأشلاءُ؛ فأمة النبيِّ ﷺ موجودةٌ وباقيةٌ وستبقى موجودةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

فيا أمة التوحيد: لم اليأس؟!!

إن اليأس سيزيد النشيطَ خذلانًا، وسيزيد اليائس والقانط يأسًا وقنوطًا.

يا أهل التوحيد: اعلموا أن اليقين بأن كلَّ ابتلاء يزيد الإسلامَ صلابةً ويزيد المسلمين قوة، ويخرج من الصف من اندس في صفوف المؤمنين وقلبه مملوء بالنفاق؛ ففي «صحيح» مسلم(١) عن صهيب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».

ورحم الله من قال(٢):

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى اليَأْسِ القُلُوبُ ... وَضَاقَ لما بِهِ الصَّدرُ الرَّحِيبُ

وَأَوْطَأَتِ المكَارِهُ وَاطْمَأَنَّت ... وَأَرْسَتْ في أَمَاكِنِهَا الخُطُوبُ

وَلَمْ تَرَ لانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهًا ... وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ

---

(١) أخرجه مسلمٌ، كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٢) أخرج هذه الأبيات ابن عساكر في «تاريخه» (٤٢ / ٥٢٣) بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وهي في «ديوانه» المذكور عنه، وتروى لأبي حاتم السجستاني؛ كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٢) ط طيبة. و «أدب الدنيا» للماوردي (٣٧٦)، وتروى لابن السكيت؛ كما في «حياة الحيوان» (٢ / ٩٩).

أَتَـاكَ عَـلَى قُنُـوطٍ مِنْـكَ غَـوْثٌ يَمُـنُّ بِـهِ اللَّطِيـفُ المُسْـتَجِيبُ
وَكُــلُّ الحَادِثَــاتِ إِذَا تَنَاهَــتْ فَمَوْصُـولٌ بِهَـا الفَـرَجُ القَرِيـبُ

وقد بدأت الأمةُ تنتقل انتقالًا حقيقيًّا من مرحلة (أزمة الوعي) إلى مرحلة (وعي الأزمة)، ألا تتفق معي أننا نرى إقبالًا ملفتًا لشباب في ريعان الصبا وفتياتٍ في عمر الزهور، بدأت تتنزل من جديد على الأرض كتنزل حبات الندى على الزهرة الظمأى والأرض العطشى؟ ألا ترى عودًا جديدًا حميدًا؟ بل أنا أؤكد لكم أن هذا الواقع الذي يحدوه الأمل يتكلم عنه أيضًا غير المسلمين؛ فتقول مجلة التايمز الأمريكية: «وستشرق شمسُ الإسلام من جديد، لكنها في هذه المرة تعكس كل حقائق الجغرافيا؛ إذ إنها تشرق من أوروبا تلك القارة العجوز التي بدأت المآزن فيها تزاحم أبراج الكنائس وتزدحم المساجد فيها بالمصلين، ويقف صوتُ الأذان في كل وقتٍ شاهدًا على أن الإسلام يكسب كل يوم أرضًا جديدةً، وأتباعًا وجدوا فيه الطريق».

وتقول صحيفة الصاندي تلجراف البريطانية: «إن انتشارَ الإسلام مع إشراق هذا القرن ليس له من سببٍ إلا أن سكان العالم من غير المسلمين بدأوا يتطلعون لمعرفة الإسلام، والقراءة عنه، من هنا بدأت تلك الشعوبُ تدرك إدركًا كاملًا أن الإسلام هو الدين الأسمى الذي يمكن أن يُتَّبَع، وهو الوحيدُ القادرُ على حلِّ مشاكل البشرية، وهو الدين القوي التي لم تستطع كلُّ المحاولات أن تُحِدَّ من انطلاقه الفكري طوال القرون السابقة».

وتقول مجلة لودينا الفرنسية: «مستقبل نظام العالم سيكون دينيًّا، وسيسود النظام الإسلامي بالرغم مما يبدو من ضعفه الحالي؛ لأنه النظام الوحيد الذي يمتلك قوةً شموليةً هائلةً».

وأرى الملايين في قلب أمريكا وأوروبا ترى الإسلام، ولأول مرة بعدما شوهت صورته، ونشهد كلَّ يومٍ على أيدي الأفاضل الذين يقدمون الصورة الحقيقية للإسلام، نرى الجديد، وأرى الآنَ جملةً رائعةً لترجمة أخلاق النبي ﷺ وسيرته بلغات الأرض، وأرى معاهد تفتح في بلاد أوروبا؛ بل وجامعات لتعلِّم اللغة العربية هناك.

صُـبْحٌ تَـنَفَّسَ بِالضِّـيَاءِ وَأَشْرَقَـا وَالصَّـحْوَةُ الكُـبْرَى تَهُـزُّ البيرقـا
وَشَـبِيْبَةُ الإِسْـلامِ هـذَا فيلـق في سـاعة الأمجـاد يتبـعُ فيلقَـا
وقوافـلُ الإيـمانِ تتخـذُ المَـدَى دربًـا وتصـنعُ للمُحـيطِ الزورقـا
وما أمر هذه الصحوةِ الكبرى سوى وعـدٌ مـن الله الجليـل تحقَّقَـا
هي نخلـةٌ طاب الثَّرى فنما لها جـذعٌ قـويٌّ في الـتراب وأعْـذَقا
هـي في ريـاضِ قُلُوبِنَـا زيتونَـةٌ في جِـذْعِهَا غُصْـنُ الكَرَامَـةِ أورَقَـا
فجـرٌ تـدفَّقَ مَـنْ سيحبسُ نـورَهُ أرني يـدًا سـدَّت علينـا الـمَشْرِقا
يـا نهـرَ صـحوتنا رأيتُـك صـافيًا وعـلى الضِّفَافِ رأيـتُ أزْهَـارَ التُّقَـا
قَـالُوا تَطَـرُّف جيلُنَـا لمـا سـما قـدرًا وأعطـى للطَّهَـارَةِ مَوْثِقًـا
ورموهُ بالإرهـابِ حين أبى الخَنَا ومضـى على دَربِ الكَرَامَـةِ وارْتَقَا
أَوَ كَـانَ إرهابًـا جهـادُ نَبِينَـا أمْ كَـانَ حَقًّـا بالكِتَـابِ مصـدِّقًا
أتطُـرّفٌ إيمَانُنَـا بِـالله في عَصْـرٍ تطَـرَّفَ في الهـوى وَتَزَنْـدَقَا
إنَّ التَّطَـرُّفَ مـا نَـرَى مِـنْ غَفْلَـةٍ مَلَـكَ العَـدُوُّ بهـا الزِّمَـامَ وَأطْبَقَـا
إنَّ التَّطَـرُّفَ مَـا نَـرى مِـن ظَـالِمٍ أودى بـأحْلَام الشُّـعُوبِ وَأرْهَقَـا
لَـمَّا رَأى جَرَيَـانَ صَـحْوَتِنَا طَغَـى وَأبَـاحَ أرْوَاحَ الشَّـبَابِ وَأزْهَقَـا
مَـا زَالَ ينسـجُ كـلَّ يَـوْمِ قِصَّـةً تُـرْوَى وَقَـوْلًا في الـدُّعَاةِ مُلَفَّقًـا
إنَّ التَّطَـرُّفَ أنْ تَـذُمَّ مُحَمَّـدًا وَالمقْتَـدِين بـهِ وَنَمْـدَح عَفْلقًـا
إنَّ التَّطَـرُّفَ أنْ نَـرَى مِـنْ قَوْمِنَـا مَـنْ صَانَعَ الكُفْـرَ اللَّئِيمَ وَأطْرَقَـا
يَا جيلَ صَحْوَتِنَا إني أُعِيذُكَ أنْ أَرَى في الصَّـفِّ مِـنْ بَعْـدِ الإخَـاءِ تَمَزُّقَـا
لـكَ في كتَـابِ الله فَجْـرٌ صَادِقٌ فـاتبع هُـدَاهُ وَدَعْـكَ مِمَّـنْ فَرَّقَـا
لَـكَ في رَسُولِكَ قُدْوَةٌ فَهُـوَ الَّـذِي بالصِّـدْقِ وَالخُلُـقِ الرَّفِيـعِ تَخَلَّقَـا

يَـا جيـلَ صَـحْوَتِنَا سَـتَبْقَى شَـامِخًا وَلَسَـوْفَ تَبْقَـى باتِّبَاعِـكَ أَسـمَقَا[١]

آن الآوان أن نكون جميعًا على مستوى هذا الدين العظيم.

آن الآوانُ أن لا تكون سلبيًّا؛ فهيا كن إيجابيًّا برجولة.

فمنذ متى وقد أسلمت لله؟ لكن ما الذي قدمتهُ لدين الله؟ وما الذي بذلته له؟ لا أريدَ منك أن تكون خطيبًا على المنبر؛ بل خطيبًا في منبر الإسلام في موقع إنتاجك وموطن عطائك وإبداعك، آن الأوانُ أن نسقطَ اللافتاتِ الكاذبةَ المضللةَ الخادعةَ.

آن الأوانُ أن نشقَّ لأمتنا طريقًا من العزَّةِ والكرامة وسط أحجار النظام العالمي الجديد، ولن يكونَ ذلك إلا بالعودة الصادقة لمنهج العزيز الحميد وإلى منهج محرر العبيد ﷺ ، ولن يكون ذلك إلا بالعلم والعمل.

آن الأوانُ أن تعودَ الأمةُ إلى الدواء وإلى مصدر العزِّ والشَّرف والكرامة وحبل النجاة، وطريق السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى كتاب الله - جَلَّ وعَلَا-، لِتُحَوِّل الأمةُ منهجَ القرآن وأحكامه في حياتها إلى واقعٍ عمليٍّ ومنهج حياة، ولتمتثل أوامرَهُ ونواهيه؛ ولتقف عند حدوده وهي ترددُ مع السابقين الأولين قولَتَهم الخالدةَ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

آن الأوانُ أن تُقوِّم الأمةُ ما فسد واعْوَجَّ من الأخلاق؛ فالأمة تحتاجُ إلى إصلاح حقيقيٍّ في جانب الاعتقاد والتعبد والأخلاق والمعاملات والسلوك.

فيجب أن نبدأ بيقين في موعود الله ﷻ وموعود الصادق رسول الله ﷺ ، ولنكن على يقين بأن أشدَّ ساعات الليل سوادًا هي الساعةُ التي يليها ضوءُ الفجر، وفجرُ الإسلام قادمٌ، لكن وظيفتك ومهمتك أن تعمل وتنتج وتغرس وتقدم للدين حتى ولو قامت القيامة؛ ففي «مسند» أحمد، والطيالسي، والبخاري في «الأدب المفرد»[٢] من

---

(١) «شعراء الجزيرة العربية» (رقم القصيدة: ٨٣٤) والأبيات للدكتور عبد الرحمن العشماوي – حفظه الله -.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩١) و (٦ / ١٨٣، ١٨٤)، والطيالسي (٢٠٦٨)، والبخاري في «الأدب =

حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا**».

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

أيها الأحبة: إن من أخطر مظاهر اليأس: أن نسيء الظن بالله تعالى.

نعم.. تَسَرَّب سوء الظن بالله في قلوبٍ قلقةٍ كثيرةٍ نتيجة لزخم الواقع الضاغط، وشَكَّ الكثيرون في قدرة الربِّ العليِّ الأعلى وحكمته وعدله!!!

ولقد قال العلامة ابنُ القيم معلقًا على قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] [(١)]: «فمَن ظنَّ بأنه - تعالى - لا ينصرُ رسولَه، ولا يُتمُّ أمرَه، ولا يؤيِّده، ويؤيدُ حزبه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصرُ دينه وكتابه، وأنه يُديل الشركَ على التوحيدِ، والباطلَ على الحقِّ إدالة مستقرة يضمحِلّ معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظنَّ بالله ظن السَّوْءِ، ونسبه إلى خلاف ما يليقُ بكمالِهِ وجلالِهِ، وصفاتِهِ ونعوتِهِ، فإنَّ حمدَه وعزَّته، وحِكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يَذِلَّ حزبَه وجندَه، وأن تكون النصرةُ المستقرة، والظفرُ الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فَمن ظنَّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءَه، ولا عرف صفاتِه وكماله، وكذلك مَن أنكر أن يكونَ ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيَته، وملكه وعظمتَه، وكذلك مَن أنكر أن يكون قدَّر ما قدَّره من ذلك وغيره لِحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردةٍ عن حكمة، وغايةٍ مطلوبة هى أحبُّ إليه من فوتها، وأن تلك الأسبابَ المكروهةَ المفضية إليها لا يخرج تقديرُها عن الحكمةِ لإفضائِهَا إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهة له، فما قدَّرها سُدى، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلًا، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ

= المفرد» (٤٧٩)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٢١٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩)، و «صحيح الجامع» (١٤٢٤).

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٢٩ – ٢٣٦) ط الرسالة.

كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَمُ عن ذلك إلا مَن عرف الله، وعرف أسماءَه وصفاته، وعرفَ موجبَ حمدِهِ وحكمته، فمَن قَنطَ مِن رحمته، وأيسَ مِن رَوحه، فقد ظن به ظنَّ السَّوء.

ومَن جوَّز عليه أن يعذِّبَ أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويُسوِّى بينهم وبين أعدائه، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السوءِ.

ومَن ظنَّ به أن يترُكَ خلقه سُدى، معطَّلينَ عن الأمر والنهى، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزِّل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلًا كالأنعام، فقد ظَنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومَن ظن أنه لن يجمع عبيدَه بعد موتِهم للثوابِ والعِقاب فى دار يُجازى المحسنَ فيها بإحسانه، والمسىءَ بإساءته، ويبيِّنُ لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهرُ للعالمين كلِّهم صدقَه وصدقَ رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظنَّ به ظن السَّوءِ.

ومَنْ ظنَّ أنه يُضَيِّعُ عليه عملَه الصالحَ الذى عملَه خالصًا لوجهه الكريمِ على امتثال أمره، ويُبطِلَه عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يُعاقِبُه بما لا صُنعَ فيه، ولا اختيار له، ولا قدرةَ، ولا إرادة فى حصوله، بل يُعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظنَّ به أنه يجوزُ عليه أن يؤيِّدَ أعداءَه الكاذبين عليه بالمعجزاتِ التى يؤيِّدُ بها أنبياءه ورسله، ويُجرِيها على أيديهم يُضِلُّونَ بها عباده، وأنه يحسُن منه كُلُّ شئ حتى تعذيبُ مَن أفنى عمره فى طاعته، فيخلدُه فى الجحيم أسفلَ السافلينَ، ويُنعِمُ مَن استنفد عُمُرَه فى عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده فى الحسن سواء، ولا يُعرف امتناعُ أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق وإلا فالعقل لا يقضي بقُبح أحدهما وحُسنِ الآخر، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوْء.

ومَن ظن به أنه أخبرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحقَّ، لم يُخبر به، وإنما رَمزَ إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشاراتٍ مُلْغِزةً لم يُصرِّح به، وصرَّح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد مِن خلقه أن يُتعِبُوا أذهانَهم وقُواهم وأفكارَهم فى تحريفِ كلامه عن مواضعه، وتأويلِهِ على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوهَ

الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التى هى بالألغاز والأحاجى أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم فى معرفة أسمائِه وصفاتِه على عقولهم وآرائهم، لا على كتابِه، بل أراد منهم أن لا يحمِلوا كلامَه على ما يعرِفُون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصَرِّحَ لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحَهم من الألفاظ التي توقعهم فى اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلافَ طريق الهدى والبيان، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوْءِ، فإنه إن قال: إنه غيرُ قادر على التعبير عن الحقِّ باللَّفظ الصريح الذي عبَّر به هو وسلفُه، فقد ظن بقُدرته العجز، وإن قال: إنه قادِرٌ ولم يُبَيِّن، وعدَلَ عن البيان، وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم، بل يُوقِعُ في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظَنَّ بحكمته ورحمته ظَنَّ السَّوءِ، وظَنَّ أنه، هو وسلفُه عبَّروا عن الحقِّ بصريحه دُونَ الله ورسوله، وأن الهُدى والحقَّ فى كلامهم وعباراتهم. وأما كلام الله، فإنما يؤخذ مِن ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهِر كلام المتهوِّكين الحيارى، هو الهُدى والحق، وهذا من أسوإ الظن بالله، فَكُلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السَّوْءِ، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومَن ظنَّ به أن يكونَ فى ملكه ما لا يشاء ولا يَقْدِرُ على إيجاده وتكوينه، فقد ظَنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه كان مُعَطَّلًا مِن الأزل إلى الأبدِ عن أن يفعلَ، ولا يُوصفُ حينئذ بالقُدرة على الفعل، ثم صارَ قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه لا يَسمع ولا يُبصِرُ، ولا يعلم الموجودات، ولا عَدد السماواتِ والأرضِ، ولا النجوم، ولا بني آدمَ وحركاتِهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ أنه لا سمعَ له، ولا بصرَ، ولا عِلم له، ولا إرادة، ولا كلامَ يقولُ به، وأنه لم يُكلِّم أحدًا من الخلق، ولا يتكلَّمُ أبدًا، ولا قال ولا يقولُ، ولا له أمرٌ ولا نهي يقومُ به، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه فوقَ سماواتِه على عرشه بائنًا من خلقه، وأن نِسبة ذاته تعالى إلى

عرشه كنِسبتها إلى أسفلِ السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفلُ، كما أنه أعلى، فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ وأسوأه.

ومَن ظنَّ به أنه يُحِبُّ الكفر، والفسوقَ، والعِصيانَ، ويحبُّ الفسادَ كما يُحبُّ الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه لا يُحبُّ ولا يَرضى، ولا يَغضب ولا يَسخط، ولا يُوالي ولا يُعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرُب منه أحد، وأن ذواتِ الشياطين في القُرب مِن ذاته كذوات الملائكة المقرَّبين وأوليائه المفلحين، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ أنه يُسوي بين المتضادَّيْن، أو يفرِّق بين المتساويين من كل وجه، أو يُحْبِطُ طاعاتِ العمر المديد الخالصةَ الصوابَ بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبدَ الآبدين بتلك الكبيرة، ويُحبطُ بها جميع طاعاته ويُخَلِّدُه فى العذاب، كما يخلد مَن لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعاتِ عمره فى مساخِطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

وبالجملة.. فمَن ظنَّ به خِلافَ ما وصف به نَفسه ووصفه به رسله، أو عطَّل حقائقَ ما وصف به نفسه، ووصفته به رُسله، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ أن له ولدًا، أو شريكًا أو أن أحدًا يشفعُ عنده بدون إذنه، أو أن بينَه وبين خلقه وسائطَ يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نَصَبَ لعباده أولياء مِن دونه يتقرَّبون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظنَّ به أقبحَ الظن وأسوأه.

ومَن ظنَّ به أنه ينالُ ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقربِ إليه، فقد ظنَّ به خلافَ حِكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه إذا ترك لأجله شيئًا لم يُعوِّضه خيرًا منه، أو مَن فعل لأجله شيئًا لم يُعطه أفضلَ منه، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه يغضبُ على عبده، ويُعاقبه ويحرمه بغير جُرم، ولا سبب من العبد

إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومن ظنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكَّل عليه أنه يُخيِّبُه ولا يُعطيه ما سأله، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، وظنَّ به خلافَ ما هو أهلُه.

ومن ظنَّ به أنهُ يُثيبه إذا عصاه بما يُثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظنَّ به خلافَ ما تقتضيه حِكمتُه وحمده، وخلافَ ما هو أهلُه وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه، وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه وليًّا، ودعا مِن دونه مَلَكًا أو بَشَرًا حَيًّا، أو ميتًا يرجُو بذلك أن ينفَعَه عند ربِّه، ويُخَلِّصَه مِن عذابه، فقد ظنَّ به ظَنَّ السَّوْءِ، وذلك زيادة في بُعْدِه من الله، وفي عذابه.

ومَن ظنَّ به أنه يُسلِّطُ على رسولِهِ محمّد ﷺ أعداءَهُ تسليطًا مستَقِرًّا دائمًا في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يُفارقونه، فلما مات استبدُّوا بالأمر دون وَصِيِّه، وظلمُوا أهلَ بيتِهِ، وسلبُوهم حقَّهُم، وأذلُّوهم، وكانت العزَّةُ والغلبةُ والقهرُ لأعدائِه وأعدائِهم دائمًا مِن غير جرم ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى قهرَهم لهم، وغصبهم إياهم حقَّهم، وتبديلَهم دِينَ نبيهم، وهو يقدر على نُصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصُرُهم ولا يُديلهم، بل يُديل أعداءهم عليهم أبدًا، أو أنَّه لا يقدِرُ على ذلكَ، بل حصل هذا بغير قُدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تُسَلِّمُ أُمتُه عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضةُ، فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ وأسوأه، سواءً قالوا: إنه قادرٌ على أن ينصرَهم، ويجعل لهم الدولةَ والظفرَ، أو أنه غيرُ قادر على ذلك، فهم قادِحون في قُدرته، أو في حِكمته وحمده، وذلك مِن ظنِّ السَّوْءِ به، ولا ريب أن الربَّ الذي فعل هذا بغيضٌ إلى مَن ظنَّ به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجبُ أن يفعل خلافَ ذلك، لكن رَفَوْا هذا الظنَّ الفاسِدَ بخرق أعظمَ منه، واستجاروا من الرَّمضاءِ بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرةٌ على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يَقْدِرُ على أفعال عباده، ولا هي داخلةٌ تحت قدرته، فظنُّوا به ظَنَّ إخوانهم المجوس والثَّنَوِيةِ بربهم، وكلُّ مبطل، وكافر، ومبتدِع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى

بالنصر والظفر، والعلو من خصومه، فأكثر الخلق، بل كلهم إلا مَن شاء الله يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوْءِ، فإن غالبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولِسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُه، ونفسُه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومَن فتَّش نفسَه، وتغلغل في معرفة دفائِنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامِنًا كُمونَ النار في الزِّناد، فاقدح زنادَ مَن شئت يُنبئك شَرَارُه عما في زِناده، ولو فتَّشت مَن فتشته، لرأيت عنده تعتُّبًا على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌّ ومستكثِر، وفَتِّشْ نفسَك هل أنت سالم مِن ذلك؟

فَإنْ تَنجُ مِنْهَا تنج مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإلاَّ فَإنِّي لاَ إخَالُكَ نَاجِيًا

فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضعِ، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفِرْه كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السَّوْءِ، وليظنَّ السَّوْءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبعُ كل شر، المركَّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوْءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذي له الغنى التام، والحمدُ التام، والحكمةُ التامة، المنزّهُ عن كل سوءٍ في ذاته وصفاتِهِ، وأفعالِه وأسمائه؛ فذاتُه لها الكمالُ المطلقُ مِن كل وجه، وصفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك، كُلُّها حِكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كُلُّها حُسْنَى.

فَلا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنّ سَوْءٍ ... فَإنَّ اللهَ أَوْلَى بِالجَمِيلِ
وَلا تَظْنُنْ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرًا ... وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانٍ جَهُولِ
وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ ... أَيُرجَى الخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخيلِ
وظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوآى تَجِدْهَا ... كَذَاكَ وخَيْرُهَا كَالمُسْتَحِيلِ
وَمَا بِكَ مِنْ تُقىً فِيهَا وَخَيرٍ ... فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الجَلِيلِ
وَلَيْسَ بِهَا وَلاَ مِنْهَا وَلَكِنْ ... مِنَ الرَّحْمن فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ»

انتهى كلام ابن القيم رحمه الله.

فلا بد أن تنصر الأمةُ دينَ الله لينصرها الملكُ جلَّ في عليائه؛ أليس اللهُ القائل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، والله ما بقي إلا أن ترتقي الأمةُ لمستوى هذا الدين، وأن تعرف الأمةُ قدرَ هذه النعمة التي امتن بها علينا ربُّ العالمين؛ فمحالٌ أن ينصر اللهُ هذه الأمةَ وهي خاذلةٌ مضيعةٌ لدينه. ودونك منهجًا وخطواتٍ عمليةٍ يجبُ تنفيذها لكي تعود الأمةُ إلى عزتها وسيادتها؛ فالقلب إذا لامسَ أنوار الإيمان والهداية أشرق، وتحول صاحبُه إلى إنسانٍ مختلفٍ تمامًا. والقلب قبل أن تشرق عليه أنوارُ الإيمان كالحجرة المظلمة، فإذا ما دخلت الحجرة لا ترى شيئًا، فتمد يدك لتصل إلى زرٍّ أو مفتاح النور، فإذا لامس إصبعٌ من أصابعك زر النور وضغطت عليه ضغطةً رقيقةً حوَّل نورُ المصباح ظلامَ الحجرة الدَّامس إلى نور مشرقٍ؛ فكذلك القلب إذا لامسته أنوارُ الهداية والإيمان.

وليس الإيمانُ قولًا باللِّسان فحسب؛ بل قولٌ باللسان، وتصديقٌ بالجنانِ، وعملٌ بالجوارحِ والأركان.

فالإيمانُ حقيقةٌ ذات تكاليف، وأمانةٌ ضخمةٌ ذات أعباء.

○ **فأهم أسباب النصر: تحقيق الإيمان:**

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

[النور: ٥٥].

فالإيمانُ حصنُ الأمان، وطوقُ النجاة، لكن إذا ضعف الإيمانُ في القلب صار صاحبُه فريسةً سهلة للهواجس والشياطين والشهوات والشبهات، وأصبح أُلعوبةً للهوى وللنفس الأمارة بالسوء.

فالإيمان هو الذي حوَّل الصحابةَ من رعاةٍ للإبل والغنم إلى سادةٍ وقادةٍ للدول والأمم، وهو الذي أقام به الأطهارُ الأخيارُ للإسلام دولةً وسط صحراء تموج بالكفر

موجًا حتى أصبحت بناءً شامخًا لا يطاوله بناء.

وهو الذي حوَّل سحرةَ فرعون من أشقياء إلى أولياء؛ فبعد أن كانوا يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] تحوَّل الحالُ؛ فبعد أن ذاقت قلوبُهم حلاوةَ الإيمان أعلنوها في وجه الطاغية مباشرة حين هدَّدهم بالقتل؛ فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١] ، وفي الآية الأخرى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

- **الخطوة الثانية: عودة الأمة إلى الكتاب والسنة.**

إن أول خُطوةٍ عمليةٍ على طريق عودة الأمة إلى عزتها وسيادتها وعلى طريق نصرة الله لها؛ هي أن تعود عودًا حميدًا إلى كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، والعودة إلى القرآن والسنة ليست نافلةً ولا تطوعًا ولا اختيارًا من الأمة؛ بل إنها عودة واجبة؛ فلقد سجَّل اللهُ في كتابه العزيز: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فالخُطوة العملية الأولى أن أبدأ بنفسي وتبدأ بنفسك، فلنبدأ من الآن؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾

[آل عمران: ١٦٥].

فلو بدأ كلُّ واحدٍ منا، وحوَّل هذا الكلامَ في بيته وفي عمله وفي شتَّى أمور حياته كلها إلى واقعٍ عمليٍّ ومنهج حياة لغيَّر الله حالنا، فليرجع كلُّ مسلم إلى الله تعالى وإلى كتابه المجيد، وإلى سنة رسول الله ﷺ، وليعلم كلُّ مسلمٍ على وجه الأرض أن شعار المنافقين واليهود هو سمعنا وعصينا، وأن شعار المؤمنين سمعنا وأطعنا.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

أمَّا شعار أهل النفاق؛ فقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ

وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

فاختر لنفسك الطَّريق، وحدِّد السبيل والغاية في أيِّ الفسطاطين تريد أن تكون؟

- **الخُطوة الثالثة: إقامة الفرقان الإسلامي:**

هذه هي الخُطوة العملية الثالثة من بنود المنهج ليبدأ كلٌّ مِنَّا بنفسه ليستبين سبيلَ المؤمنين من سبيل المجرمين، لا نريد أن نعيش هذه الحالة التي عليها الأمة؛ حالة الغبش وحالة التذبذب وحالة اللا ولاء واللا براء.

فإننا بهذه الحالة لن نقيم لله دينًا في أرضه؛ بل لا بد وحتمًا أن نوالي الله ورسوله والمؤمنين، وأن نتبرأ من الشرك بكل صوره والمشركين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وعلينا أن نُظْهِرَ عقيدة الولاء والبراء، ونربي أولادنا على هذه العقيدة.

أين الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين في كل مكان وزمان؟!

وأين البراء من الشرك كلِّه والمشركين أينما وحينما وجدوا؟!

ومن أروع صور الولاء والبراء؛ **ما رواه ابن إسحاق في «السيرة»، وابن جرير الطبري في «تفسيره»**[1] أن عبد الله بن عبد الله بن أبي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه

---

(١) أخرجه الطبراني في «معجمه»، كما في «المجمع» (٩ / ٥٢٧)، والبزار في «مسنده» (٢٢٤٢) بسندٍ لينٍ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه، وضعفه الهيثمي، وله شاهدٌ معضلٌ، أخرجه الحميدي في «مسنده» (١٢٤٠) من طريق سفيان عن أبي هارون المدني قال: فذكره. وأبو هارون ثقة من السادسة. وأخرجه ابن إسحاق؛ كما في «السيرة» لابن هشام (٤ / ٢٥٥)، والطبري في «تفسيره» (٣٤٠٣٣، ٣٤٠٣٤) من حديث عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله فقال: فذكره، وعاصم ثقة من الرابعة، وأخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (١ / ٣٧٣) من حديث الليث بن سعد عن عمر مولى عفرة وغيره فذكره، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٤٠٢٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٦٢٧) من حديث عكرمة مرسلًا، وبرقم (٣٤٠٣٢) عن ابن زيد قال: فذكره. وله شاهد كذلك أخرجه الحاكم (٣ / ٦٧٩)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (١ / ٣٦٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٦٧)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٧٦٣) من حديث هشام بن عروة عن =

بلغني أنك تريد قتلَ عبد الله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجلٌ أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس فأقتلَه، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخلَ النارَ؛ فقال رسول الله ﷺ : «**بَلْ نَرْفُقْ بِهِ وَنُحْسِنْ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»، وجعل بعد ذلك اليوم إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه ويتوعدونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم: «**كَيْفَ تَرَى يا عُمَرُ، أما والله لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ أَمَرْتَنِي بِقَتْلِهِ لأرْعَدَتْ لَهُ آنُفٌ، لَوْ أَمَرْتَهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**»؛ قال: فقال عمر: قد والله علمت لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وفي رواية ابن زيد: أن النبي ﷺ قال: «**ادْعُوا لِي عَبْدَ الله بْن عَبْدِ الله بْن أُبَيِّ بْن سَلُولٍ**»؛ فلما جاء قال له رسول الله ﷺ : «**ألا تَرَى ما يَقُولُ أَبُوكَ؟**» قال: وما يقول بأبي أنت وأمي؟ قال: «**يَقُولُ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ**»؛ فقال: فقد صدق والله يا رسول الله، أنت والله الأعزُّ وهو الأذلُّ، أما والله لقد قَدِمت المدينةَ يا رسول الله، وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبرّ مني، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتِيَنَّهما به، فقال رسول الله ﷺ : لا؛ فلما قدموا المدينة، قام عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ على بابها بالسيف لأبيه؛ ثم قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، أما والله لتعرفنّ العزة لك أو لرسول الله، والله لا يأويك ظله، ولا تأويه أبدًا إلا بإذن من الله ورسوله؛ فقال: يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، فقال: والله لا تأويه أبدًا إلا بإذن منه؛ فاجتمع إليه رجال فكلموه، فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله، فأتوا النبيّ ﷺ فأخبروه، فقال: «**اذْهَبُوا إِلَيْهِ، فَقُولُوا لَهُ خَلِّهِ وَمَسْكَنَهُ**»؛ فأتوه، فقال: أما إذا جاء أمر النبيّ ﷺ فنعم. ليعلم من الأعز ومن الأذل.

=

أبيه عن عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول قال: قلت يا رسول الله أقتل أبي؟ قال: «**لا تقتل أباك**»؛ قال الهيثمي في «المجمع» (٩ / ٥٢٧): «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عبد الله بن عبد الله ابن أُبي».

إنه الولاء لله ورسوله... أليس الله هو القائل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

- **الخُطوة الرابعة: رفع راية الجهاد:**

لنرفع رايةَ الجهاد لتكون كلمةُ الله هي العليا، لا من أجل وطنية، ولا من أجل قوميَّةٍ، ولا من أجل حريَّةٍ؛ لقول سيد البشرية ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله**»(١).

ولن ترفع الأمةُ رايةَ الجهاد إلا إذا عادت ابتداءً إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإلى منهج السلف الصالح. وحققت الإيمانَ ابتداءً؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يرفع السيفَ في ميدان الجهاد ضد أعداء الله إلا إذا حقق الإيمانَ، وانتصر على نفسه وهواه، فألجم نفسه وهواه بلجام التقوى، وجعل نفسه مطيَّةً لكلِّ خيرٍ وطاعةٍ، أما من جعلته نفسه مطية للمعاصي والشهوات والشبهات؛ فلن يستطيع البتة أن يرفع السيفَ في وجه الأعداء؛ فلتحقق الأمةُ الإيمانَ لتكون أهلًا لرفع راية الجهاد في سبيل الله؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

وحين تركت الأمة الجهادَ ذلت وهانت وخُذلت؛ بل لقد نجح الأعداءُ في أن يبعدوا قضيةِ الأمة عن ساحة الجهاد، لتظل القضيةُ متداولةً في هيئة الأمم وحلف الناتو ومجلس الأمن وأدراج الاتحاد الأوروبي!! حتى لا ترفع الأمة راية الجهاد بعد أن تحقق العقيدة بشمولها وكمالها؛ فلا عز للأمة إن تركت الجهاد وأخلدت إلى الوحل والطين؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢٨١٠)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (١٩٠٤).

ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨- ٣٩].

- **خامسًا: تحويل الإسلام في حياتنا بأخلاقياته وسلوكياته إلى واقع عملي ومنهج حياة.**

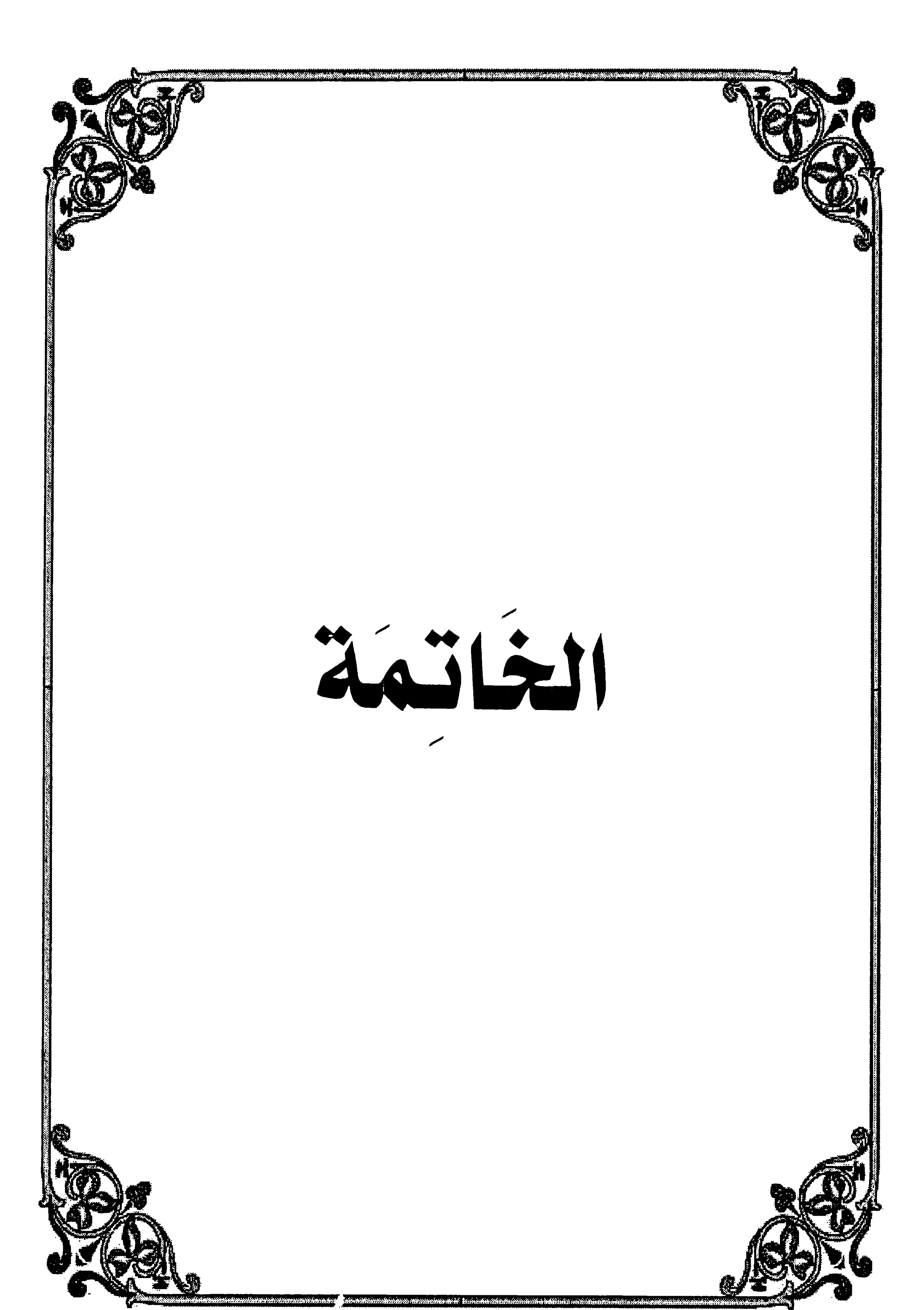
إننا نرى بونًا شاسعًا بين منهجِنا وواقعنا، بين ما نتعلمه من أخلاقٍ وما نحن عليه من أخلاق؛ فلابدَّ أن نحول هذا الدين العظيم إلى واقعٍ عمليٍّ في بيوتنا، وفي عملنا، وفي شوارعنا، وشتى أمور حياتنا.

فَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ ... فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

والقولُ إذا خالف العملَ بُذرَتْ بذورُ النفاق في القلوب؛ كما قال علام الغيوب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

أيها الأحبة: إننا لا نخاف على الإسلام؛ لأن الذي وعد بإظهاره على الدين كله هو الله الذي يقول للشيء: كن فيكون، وإنما نخاف على المسلمين إن هم تركوا الإسلام وضيعوه؛ نسأل اللهَ جلَّ في علاه أن يردَّ المسلمين إلى الإسلام ردًّا جميلًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

*****



الخَاتِمَة



الخاتمة

وأخيرًا، أُشهد الله تعالى أني متبرأ من حولي وطولي؛ فأنا الفقير الذليل، لا أدَّعي ـ ورب الكعبة ـ أنني قدمت أي شيء؛ فالفضل ابتداءً وانتهاءً لله جَلَّ وعَلَا، صاحب الفضل وولي العطاء.

وأقولُ بلسان الحال والمقال:

أسيُر خَلْفَ ركابِ النَّجب ذا عَرَج ... مؤملًا جبر ما لاقيت مِنْ عِوَج

فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب السما في الناس مِن فَرَج

وإن ظللتُ بقفر الأرض منقطعا ... فما على أعرج في ذاك من حرج

ولا أنسى في هذه الخاتمة أن أشْكُرَ إخواننا الأفاضل الذين قَاموا معنا في خدمة هذا السِّفْر الكريم؛ فلهم مني جزيلُ الشكر على مساعدتهم لي بإثراءِ هذا الكتاب، وتزويدِنا بفوائدَ قيِّمةٍ، وموضوعاتٍ جيِّدةٍ، وبذلِهم من أوقاتهم لإنهاء هذا العمل المبارك بهذه الصورة المشرقة؛ فاللهَ أسألُ أن يبارك في جهدهم، وأن يجزل لنا ولهم المثوبة، وأن يزيدنا وإياهم من فضله وتوفيقه.

وأسألُ اللهَ تعالى أن يجبر كَسْر قلوبنا، وأن يغفر ذنوبنا، وأن يستر عيوبنا، وألا يجعل حظنا من ديننا قولنا، وأن يُحسن نياتنا وأعمالنا، وأن يجعل عملنا وقولنا وحالنا خالصًا لوجهه الكريم، وألا يحرمنا شرف الدعوة إليه، وكرامة البلاغ عنه، ودلالة الخلق عليه بحق.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

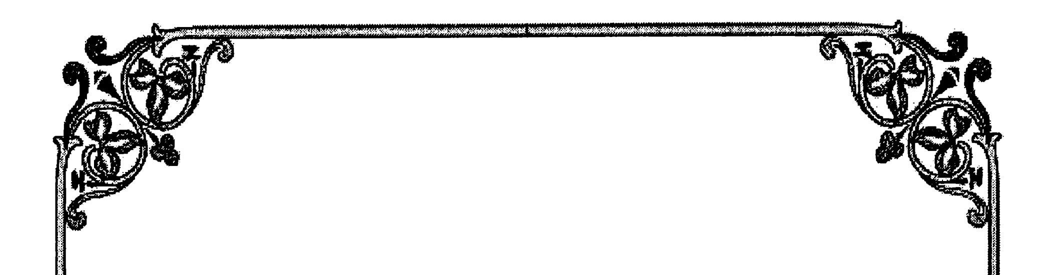
والحمد لله رب العالمين.

وكتبه أبو أحمد/ محمد حسان

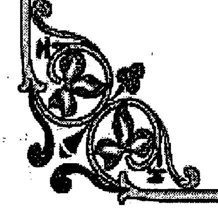
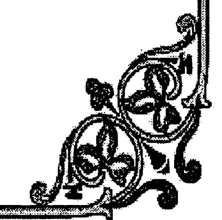
القاهرة

*****





فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

*****